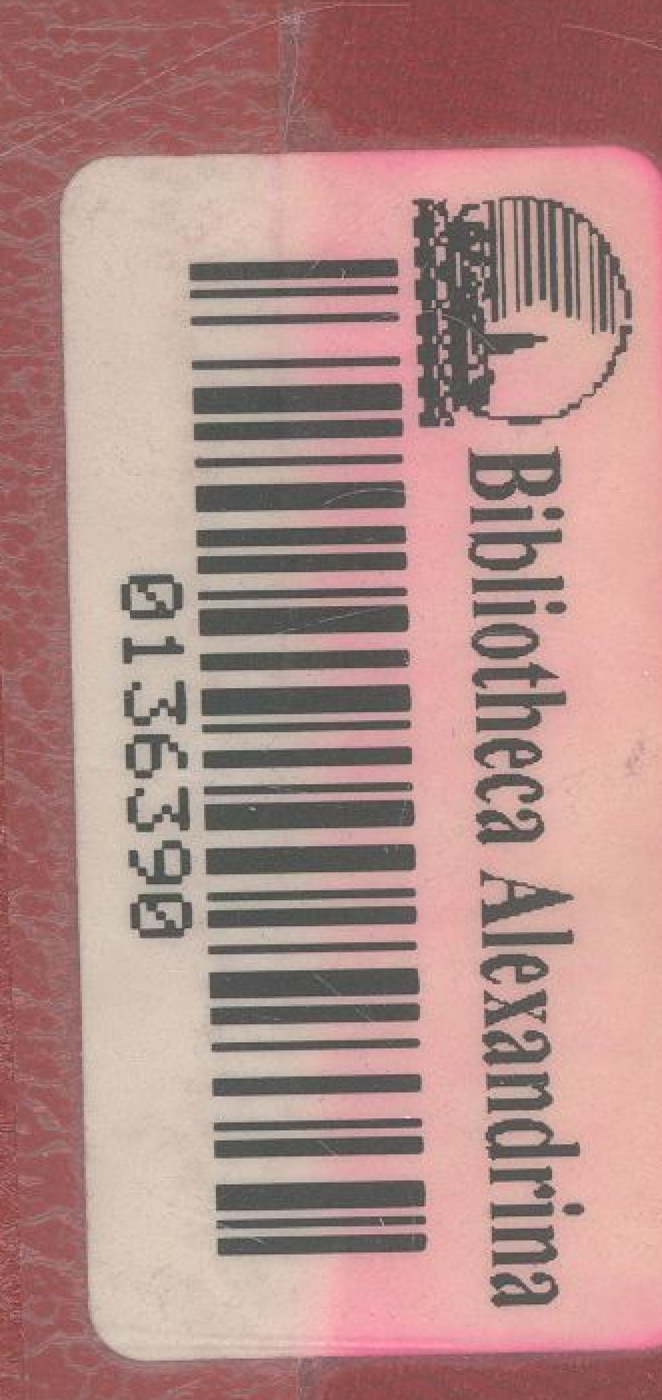

Bibliotheca Alexandrina
0136390



الجمعيات السرية

البروتوكولات • الماسونية • البهائية

د. عبد الوهاب المسيرى



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .
KITAB AL-HILAL
NO- 515 - no - 1993 ..
العدد ٥١٥ – جماد أول – نوفمبر ١٩٩٣
FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً :

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٥٥٠٠ ليره – الأردن ٢ دينار – الكويت ١ دينار – السعودية ١٢ ريالا – تونس ٢ دينار – المغرب ٢٥ درهما – البحرين ١,٢٠٠ دينار – الدوحة ١٢ ريالا – دبى وأبو ظبى ١٢ درهما – مسقط ١,٢٠٠ ريال – غزة والضفة والقدس ٢ دولار – لندن ١,٥٠ جك .

الجمعيات السرية

فى العـــالم

- البروتوكولات
- البهـــــائية
- الماســـونية

بقـــلم

د . عبد الوهاب المسيرى

●

دار الهـــلال

مجموعة من اليهود يتناولون مأدبة عيد الفصح (من مخطوطة مصورة للهاجاداه ، أى الكتاب الذى يضم شعائر وصلوات هذا العيد ، وتعود المخطوطة إلي القرن الخامس عشر) .

الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

مقدمة

من القضايا المنهجية المهمة والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسة والفحص قضية تراكم المعلومات وصياغة النماذج التفسيرية .

وهذا الكتاب هو محاولة للاسهام فى هذا المجال من خلال مايسمى «دراسة الحالة » ، وقد أُخذت كل الحالات من تجارب أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم. والمقدمة تشكل الجزء المنهجى والنظرى من الكتاب، أما فصول الكتاب ذاته فتضم الدراسات التطبيقية للحالات والأمثلة المختلفة.

• ويمكن للقارىء أن يبدأ الكتاب بقراءة المقدمة المنهجية، ولكنه يمكنه أيضا أن يرجىء قراءتها ويذهب مباشرة للنص، ولكل إنسان ذوقه واهتماماته. فهناك من يفضل الانتقال من العام إلى الخاص، وهناك من يفضل العكس، أى الانتقال من الخاص إلى العام . وعلى كلٍ ، يعرف كل من يعمل فى حقل التأليف أن آخر مايكتبه المؤلفه هو عادة المقدمة، فهى اللحظة التى يتأمل فيها المؤلف كتابه ، ويحاول أن يستخلص منه

بعض التعميمات التى قد تساهم فى تعميق أفكاره وربما أفكار الآخرين .

أولاً : فى النماذج الاختزالية

يتصور كثير من الناس أن عقل الإنسان إن هو إلا صفحة بسيطة بيضاء أو سطح شمعي يسجل بأمانة كل ما ينطبع عليه من معطيات مادية ومحسوسة، وأنه يتسم بثلاث سمات أساسية :

١) أنه لا متناه فى قدرته الاستيعابية والامتصاصية والتسجيلية.

٢) أنه سلبى وبسيط، فهو يسجل ويمتص ويستوعب بحياد شديد دون أن يشوه أو يغير أويعدل مايصله من معطيات حسية وحقائق صلبة .

٣) أن الحقائق والمعطيات الحسية التى تنطبع على العقل تترابط من تلقاء نفسها حسب قوانين طبيعية/ مادية عامة (نشير عادة إلي «الطبيعة/ المادة» بدلا من «الطبيعة» وحسب، كما هو شائع، لتأكيد البعد المعرفى للمفهوم) .

٤) هذا العقل الذى يسجل كل ما ينطبع عليه ويتحرك حسب قوانين مادية عامة لا يتمتع بأى استقلال عن قوانين الطبيعة / المادة، ومن ثم فهو لا هوية له ولا شخصية، فهو دماغ أو مخ أكثر منه عقل (فكلمة «عقل» تعنى قدراً من الاستقلالية والحرية) .

وتعود جذور هذا المفهوم للعقل إلى عصر الاستنارة فى الغرب (القرن الثامن عشر) حين حققت العلوم الميكانيكية انتصاراتها المذهلة. ويتفرع عن هذه الرؤية للعقل رؤية للواقع ولعلاقة العقل به :

٥) فالواقع هو مجموعة من الحقائق الصلبة والوقائع المحددة والتى ترتبط من خلال حلقات السببية الواضحة، وهذه السببية كامنة فى الأشياء أو لصيقة بها تماماً.

٦) عملية الإدراك هى عملية تلقى موضوعية تراكمية إذ يقوم العقل بتسجيل الحقائق الصلبة والوقائع المحددة المتناثرة التى تتراكم فوق عقل الإنسان (اللامتناهى السلبى الذى لا هوية له) .

٧) بما أن الأشياء مرتبطة فى الواقع ذاته برباط السببية الواضح فإن الوقائع والمعطيات الحسية ترتبط فى عقل الإنسان من تلقاء نفسها، بشكل آلى حسب قوانين الترابط المادية الآلية العامة . إذ تترابط الأحاسيس الجزئية وتتحول إلى أفكار بسيطة، ثم تترابط الأفكار البسيطة لتتحول إلى أفكار مركبة، التى تترابط بدورها لتصبح أفكارا أكثر تركيبا وهكذا، حتى نصل إلى الأفكار الكلية .

ولكن هناك رؤية أخرى للعقل البشرى (نتاج التمرد على مفاهيم عصر الاستنارة وثمرة مايسميه البعض الثورة التوليدية)، تذهب إلى أن عقل الإنسان يتسم بما يلى :

١) العقل قاصر وله حدوده الخاصة ولا يمكنه تسجيل كل المعطيات المادية المحيطة به ولا الإحاطة بكل جوانب الواقع.

٢) الواقع ليس بسيطا، ولا ترتبط معطياته الحسية برباط السببية الصلبة الواضحة، إذ ثمة عناصر مبهمة فيه، وثمة احتمالات وامكانيات كثيرة، يمكن أن يتحقق بعضها وحسب، ولا يتحقق البعض الآخر.

٣) ولكن العقل على الرغم من هذا، بل وبسبب هذا، أبعد ما يكون عن السلبية والبساطة، فهو فعال مبدع ومن ثم حر.

٤) لكل هذا نجد أن العقل يتمتع بقدر من الاستقلال عن المعطيات المادية المحيطة به وعن قوانين الطبيعة/ المادة، وهو لهذا له هوية محددة .

٥) حينما يقوم العقل بأى عملية إدراكية مهما كانت بساطتها يظل فاعلاً وفعالاً إذ يجرى عملية تجريدية تفكيكية تركيبية تتضمن استبعاد بعض العناصر وإبقاء البعض الآخر، ثم يقوم بترتيبِ ما تم إبقاؤه من معطيات فيبرز بعضها باعتباره مركزيًا ويهمِّش البعض الآخر باعتباره ثانويًا بحيث تصبح العلاقات بين المعطيات التى أدركها العقل تشاكل، ولا تتطابق بالضرورة مع، مايتصوره الإنسان العلاقات الجوهرية فى الواقع. وعملية الإبقاء والاستبعاد هذه، ثم الترتيب والتنظيم، لا تتم بشكل عشوائى وآلى وطبيعى مادى تلقائى، وإنما على

أساس مجموعة من المسلمات النهائية التى استبطنها المدرِك بحيث أصبحت تشكل الإطار لكل العمليات الإدراكية الواعية وغير الواعية (وهذا ما نسميه النموذج المعرفى أو الإطار الكلي أو الرؤية العامة أو رؤية الكون ... إلخ). وبعد أن يصوغ العقل النموذج المعرفي فإنه يقوم باختباره بالعودة للواقع.

العقل الإنسانى إذن قاصر ولكنه فعال مبدع قادر على التجريد المركب من خلال التفكيك والتركيب وإعادة صياغة المعطيات التى تصله، وهو يفعل ذلك حتى يجعل العالم مفهوماً لديه، فهو لا يمكنه أن يعيش فى الجزئيات المتناثرة. ولذا فعملية التفسير حتمية، وكذلك عملية التفكيك والتركيب (وصياغة النماذج المعرفية أو الإدراكية) التى تسبقها. أما مسألة التلقى الموضوعي المحايد فهى مسألة أسطورية غيبية غبية تليق بالسلوكيين وهؤلاء المغرمين بمراقبة كلب بافلوف والتعميم من سلوك الكلب على سلوك الإنسان. فهم يخلطون بين الكلب المسكين الذى وقع فى يد العالم الروسى المادى، الذى حبسه فى المعمل ووضعه فى ظروف معملية مضبوطة من جهة، ومن جهة أخرى الإنسان الحر الذى يحب ويكره ويفرح ويحزن ويتذكر وينسى والذى يواجه عشرات القضايا المركبة التى تتطلب منه اختيارات معرفية وأخلاقية وجمالية

واجتماعية فى غاية التركيب، والذى يتطلع فى معظم الأحيان إلى السماء والنجوم والقمر، ولكنه يخفض بصره أحياناً إلى الأرض والطين والبنات الراقصات فى إعلانات التليفزيون والسلع المتراكمة خلفهن وسلاحف النينجا.

إن الإدراك هو فى جوهره عملية صياغة نماذج تفسيرية يتصور الإنسان أنها تشاكل الواقع ، وقد تكون النماذج مركبة وقد تكون بسيطة اختزالية:

١ – فإذا كان النموذج مركباً فإنه سيحوى عناصر متداخلة مركبة وسيدور فى إطار السببية والاحتمالية بحيث يعطى الإنسان صورة مركبة عن الواقع وعن مستوياته المتعددة وتناقضاته وعن حيويته والعوامل المادية والروحية والمحدودة واللا محدودة والمعلومة والمجهولة التى تعتمل فيه .

٢ – أما إذا كان النموذج بسيطاً ساذجاً اختزاليًا واحديًا فإنه سيختزل الواقع الإنسانى المركب ويرده إلى سبب أو اثنين. فالأحداث – حسب هذا التصور أو الرؤية أو النموذج – ليست نتيجة تفاعل بين مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة، وإرادة إنسانية حرة وعقل مبدع من جهة أخرى، وإنما هى نتاج سبب واحد بسيط عام (قد يكون قانوناً طبيعيًا واحداً، أو دافعاً ماديًا واحداً ، أو قوة واحدة مدبرة خارقة)، تنطبع على

عقل متلقٍ لهذا القانون أو الدافع أو القوة. وأحداث التاريخ هى نتاج بطولة بطل أو بطلين ، أو نتاج عقل واحد متآمر وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه، أو نتاج نظرية ثورية فورية أو فكرة انقلابية جذرية أو العنصر الاقتصادى أو الدافع الجنسي. ومهما كان أساس التفسير أو طبيعة التوجه السياسى للنموذج الاختزالى، فإن البنية واحدة، تستند عادة إلى الافتراضات التالية :

أ) إن عقل الإنسان كيان سلبى مادى يسجل كل ما ينطبع عليه بشكل آلى، لا فعالية ولا إبداع فيه.

ب) إن الواقع بسيط مكون من عنصر واحد (أو اثنين). قد يكون هذا العنصر مادياً مغاليا فى المادية، أو روحياً مغاليا فى الروحانية، أو فردياً مغاليا فى الفردية، أو جماعيا مغاليا فى الجماعية، لكن المهم أنه عنصر واحد. إن علاقة العقل بالواقع بسيطة ومن ثم تظهر الواحدية السببية التى تؤدى إلى واحدية تفسيرية.

ثانياً : الرؤية الاختزالية التآمرية

والايمان بوجود مؤامرة يهودية عالمية منذ بدء التاريخ حتى الوقت الحالى هو ثمرة استخدام نموذج اختزالى واحدى لادراك الواقع ورصده. فالمؤمنون بوجود مؤامرة يهودية عالمية يعتقدون أن أعضاء الجماعات اليهودية يكونون كلاً واحداً

متكاملاً متجانساً، وأن لهم طبيعة واحدة، وأن اليهودى شخص فريد لا يخضع للحركيات الاجتماعية التى يوجد فيها، ولا ينتمى إلى الأمة التى يعيش بين ظهرانيها . وهو يقف دائماً فى مقابل الأغيار (غير اليهود)، إذ إن ثمة خاصية ما فى اليهود، ثمة خصوصية كامنة فيهم، تجعل من العسير على كل المجتمعات الإنسانية دمجهم، أو استيعابهم، وتجعل من العسير عليهم الاندماج فيها.

ويتسم اليهود بالشر والمكر والرغبة فى التدمير، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودى الذى يخطط ويدبر منذ بداية التاريخ والذى وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس). والتاريخ اليهودى بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة، واليهود من ثم هم المسئولون فى كل زمان ومكان عن كل الشرور والمنكرات. فعلى سبيل المثال، هم الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية)، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام، وهم الذين

قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الحنيف. بل وقد عُرف عنهم قيامهم بذبح الأطفال واستخدام دمهم فى صنع خبز الفطير الذى يأكلونه فى عيد الفصح.

وفى العصر الحديث يرى التآمريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) فى العالم الغربى والعربى، بل وفى كل أرجاء العالم. فهم وراء المحافل الماسونية التى أسسوها أداة لمؤامراتهم، وهم وراء البهائية التى تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها، والبلشفية بكل إرهابها، والإباحية بكل تدميريتها، وهم يسيطرون على الرأسمال العالمى والحركة الشيوعية ويتحكمون فى الصحافة ووسائل الإعلام. وهم الذين استفزوا هتلر، فاضطروه اضطراراً إلى تدميرهم (ومن ثم، فهتلر هو أحد أبطال التاريخ التآمرى). وهم الذين استغلوا الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تصدر وعد بالفور. وهم الذين يحركون الآن اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكى ويجندون الصوت اليهودى، وذلك حتى يسخِّروا الولايات المتحدة ويرغموها بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم.

والصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر

الغربى، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وبهيمنتها على العالم، وإنما هى مجرد تعبير عن هذا الشر الكامن فى النفس اليهودية الذى يتبدى. فى الغزو الصهيونى لفلسطين، وضرب المفاعل الذرى العراقى وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفييتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية... إلخ. ومن أهم إفرازات هذا التصور التآمرى الاختزالى الوثيقة المسماة «بروتوكولات حكماء صهيون» .

ويقوم كثير من المفكرين وأعضاء النخبة الحاكمة أو غيرهم فى العالم العربى والإسلامى بتبنى هذا النموذج التفسيرى الاختزالى فى حربهم ضد الصهيونية وإدراكهم لها لأسباب معرفية وعملية. أما من الناحية المعرفية فإن هذا النموذج التآمرى يفسر كل شىء ببساطة بالغة وبسرعة فائقة، ويمنح الإنسان إحساساً بالمقدرة على التنبوء بسلوك اليهود بكفاءة عالية. أما من الناحية العملية فالمدافعون عن النموذج الاختزالى يعتقدون أن تقديم اليهود فى هذه الصورة القاتمة هو خير وسيلة لاستنفار الجماهير لشحذ الهمم. ولذا يصر هؤلاء ألا نميز بين اليهودى والصهيونى والإسرائيلى، وألا نرى فرقاً بين اليهود والصهاينة، ولا بين الصهاينة والاسرائيليين، ولا بين اليمين واليسار فى إسرائيل، ولا بين المؤمن والملحد، ولا بين الأخيار والأشرار، ولا بين الأشكناز

والسفارد، ولا بين الأثرياء والفقراء، ولا بين المولود فى فلسطين والمهاجر إليها، إذ يصبح اليهود، فى هذا الإطار، سواء، وكل ما علينا هو الحرب ضدهم. ويجد بعض هؤلاء المفكرين سنداً لرؤيتهم فى الدين الحنيف بحيث تصبح هذه الرؤية أمراً إلهيًا.

ثالثا: الرؤية الاختزالية الصهيونية

ولكن الباحث المدقق سيكتشف شيئاً قد غاب عن هؤلاء المتحمسين الطيبين، فالرؤية الاختزالية التآمرية لليهود لا تختلف قط فى أساسياتها عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود. فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدية بسيطة ساذجة، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم فى التاريخ إذ إنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم . فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودى الخاص بمعزل عن المجتمعات التى يعيشون فيها. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودى عبر التاريخ» وعن « الشخصية اليهودية فى كل العصور» وعن «العبقرية اليهودية فى كل زمان ومكان» وهكذا.

ويقدم كلا الفريقين تصوراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة دوافعها بسيطة وغاياتها بسيطة. فأعضاء الشعب اليهودى هذا - حسب رؤية التآمريين والصهاينة - لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم، إذ إنهم أينما وجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية بالولاء، ومن ثم فاليهودى عادةً يعانى من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار فى وطنه ، ونتيجة لهذا يصبح شخصية مريضة وكلا الفريقين يرى هذا الكيان البسيط باعتباره كياناً فريداً لا يخضع للقوانين الإنسانية العامة، يقاوم الاندماج فى الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم .

والخلاف بين التآمريين والصهاينة لا يوجد فى التشخيص أو فى الوصف أو فى المنطلقات أو المسلمات ولا حتى فى الحل، وإنما فى آليات الحل وحسب، أى أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائى بسيط وليس كلياً وشاملا. فكلا الفريقين يطرح حلا بسيطا لمشكلة الكيان اليهودى المتماسك الفريد الذى يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة «خروج» اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى التآمريون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف فى هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، بحيث

لا يوجد أى مبرر للعنف. (ومع هذا لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم، كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمع أعضاء الجماعة اليهودية فى العراق حتى يضطروهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفييت حتى يضطروا إلى الهجرة إلى إسرائيل).

والدارس لتاريخ الصهيونية يعرف تماماً أن الصهيونية والعداء لليهود (معاداة السامية) وجهان للعملة ذاتها. وقد حاول كل من بالفور وهتلر إخراج اليهود من بلده ليخلصها منهم، فقام بالفور بتصديرهم إلى فلسطين ونجح فى ذلك، أما هتلر فلم تكن لديه مستعمرات فأرسل بهم، فى بادىء الأمر، إلى بولندا التى أرجعتهم من حيث أتوا. فقام بإرسالهم لمعسكرات السخرة والإبادة (هم وغيرهم من الملايين الأخرى). فالفرق بين بالفور وهتلر فرق سطحى للغاية، فهتلر، هو بالفور بدون مستعمرات، وبالفور ما هو إلا هتلر يملك مستعمرات (مجال حيوى يصدر له مشاكله). ولعل هذا ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن العرب الذين يهيجون ضد يهود العالم ويتبنون الرؤية الاختزالية التآمرية يتبنون دون وعى

الرؤية الاختزالية الصهيونية ويساهمون فى تحويل يهود العالم من مواطنين ينتمون إلى أوطانهم إلى مستوطنين مسلحين ينضمون إلى الكتلة البشرية الصهيونية الغازية لفلسطين، أى أن التآمريين لايختلفون عن الصهاينة فى افتراضاتهم ومسلماتهم ورؤيتهم الاختزالية. ودعوتهم المستمرة إلى طرد اليهود من ديارهم وأوطانهم أينما كانوا . هى فى واقع الأمر دعوة صهيونية حتى النخاع.

رابعاً: صياغة النموذج

ويمكننا أن نسأل: كيف يعمل النموذج الاختزالى الواحدى؟ وسنكتشف أن طريقة وخطوات صياغة النموذج الاختزالى لا تختلف عن طريقة وخطوات صياغة أى نماذج إدراكية أخرى ، فهى عملية تفكيكية وتركيبية :

١) يحدد صاحب النموذج الاختزالى الواحدى أطروحته الأولية، وهى عادةً أطروحة بسيطة بساطة بالغة، وعامة عمومية فائقة بحيث يمكنها أن تغطى رقعة ضخمة من الواقع.

٢) مهما بلغت سذاجة وبساطة الأطروحة الأولية فلا بد أنه توجد بعض المعطيات والحقائق فى الواقع التى يمكنها أن تعطيها قدراً من المصداقية، وهى عادة حقائق صلبة وصادقة تماماً من الناحية الإخبارية المباشرة، أى أنها موجودة بالفعل فى الواقع، ولذا يمكن استخدامها فى توثيق النموذج

الاختزالى وتحويلها إلى مؤشر إمبريقى دقيق ودليل مادى قاطع على صدق الأطروحة أو الفرضية الأولية. ومن الآليات الأساسية فى النموذج الاختزالى اقتباس الأقوال وكأنها حقائق. فإن «ضُبطت» وثيقة تؤيد الأطروحة الأولية فإن هذه الأقوال تصبح مخططاً ويصبح المخطط حقيقة، مع أن الأقوال يمكن أن تكون أمنيات أو أكاذيب، والمخطط يمكن أن يفشل، والحقائق يمكن أن تكون جزئية تماماً لا تمثل الواقع الكلى.

٣) تُنزع الوقائع والتفاصيل من سياقها التاريخى والإنسانى بحيث تصبح لا تاريخ لها ولا أصول اجتماعية.

٤) تُعزل الوقائع والتفاصيل عن كل أو معظم الحقائق الأخرى، وعن أى نماذج أو أنماط أخرى، أى يُسقط المنظور المقارن تماماً.

٥) تمُنح الأطروحة البسيطة مركزية تفسيرية كبرى وتصبح الوقائع التى تم اختيارها واجتزاؤها وعزلها وكأنها أهم أحداث فى التاريخ.

٦) تتم مراكمة المعلومات فى ضوء هذه الأطروحة البسيطة بنفس الطريقة : أى اجتزاء الحقائق ثم عزلها عن الحقائق الأخرى وتوظيفها كمؤشر على صدق الأطروحة البسيطة.

بعد أن تتم صياغة النموذج البسيط وتوثيقه لابد أن يتسم المتلقى لهذه "الأطروحة الموثقة" بمقدرة فائقة على تقبل

الحقائق الصلبة دون مساءلة، فهو متلقى موضوعى محايد، إن رأى أرقاماً آمن بها على التو، وإن سمع عن واقعة "حدثت بالفعل" عليه أن يصدقها بكل ما أوتى من عنف وموضوعية دون تفكيك أو تركيب ودون استدعاء لحقائق وأنماط أخرى ودون إدراك للسياق الاجتماعى والتاريخى للتفاصيل والوقائع التى تعرض عليه. ولنضرب بعض الأمثلة :

١ - يهاجر بضعة آلاف من اليهود إلى إسرائيل، فيتلقف الاختزاليون هذه الواقعة، ويجعلون منها دليلاً قاطعاً على أطروحتهم البسيطة : عدم انتماء اليهود إلى أوطانهم وارتباطهم الشديد بصهيون.

ويتم عزل هذه الواقعة عن حقائق أخرى مثل ملايين اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة (٨٥٪ من كل المهاجرين اليهود عبر تاريخ هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث اتجهوا إلى الولايات المتحدة) والملايين التى نزحت عن إسرائيل (يصل عددهم حوالى مليون، أى حوالى ربع السكان). ولا يرد ذكر للرشاوى التى تدفع للمهاجرين اليهود حتى يتجهوا إلى إسرائيل. أما بخصوص المنظور المقارن فلا يرد ذكر للأيرلنديين الذين هاجروا ويهاجرون من بلادهم بأعداد تفوق اليهود، أو الألمان الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتى فى الفترة ١٩٧٠ - ١٩٩٠ بنسبة تفوق نسبة اليهود.

٢ - تكتشف عصابة مخدرات ودعارة في كاليفورنيا يديرها مهاجرون سوفييت ويعلن عن وجود مافيا من اليهود السوفييت والإسرائيليين. تتحول هذه الواقعة في ذهن التآمريين من أعداء اليهود إلى مؤشر على انحلال الشخصية اليهودية. ويوافق بعض الصهاينة على هذا، ويحولون هذ الانحلال إلى مؤشر صلب وأكيد على أن اليهود إن عاشوا خارج أرض الميعاد فإنهم يصابون بالإنحلال الخلقي والتفسخ الاجتماعي بسبب اغترابهم، ولا صلاح لهم إلا بالعودة لوطنهم القومي.

ولا يرد أي شيء عن معدلات الجريمة في كاليفورنيا، ونسبة اشتراك الجماعات المهاجرة الأخرى فيها. ولا يُسأل عن نسبة اشتراك الأمريكيين من أصل إيطالي، وهل هي أعلى أم أقل من نسبة اشتراك المهاجرين السوفييت، ولا عن نسبة اشتراك اليهود الأمريكيين (أي الذين استقروا في الولايات المتحدة منذ أمد طويل) في الجريمة.

٣ - إن هاجم أحد العنصريين اليهود، فهذا من منظور التآمريين دليل قاطع على أن اليهود يستفزون الأغيار دائماً، ومن منظور الصهاينة هو دليل قاطع على عداء الأغيار الأزلي لليهود، دون ذكر لفترات الهدوء والاستقرار التي تمتع بها اليهود ومعدلات الاندماج العالية التي يتمتعون بها في الغرب،

ولايرد أى ذكر لمعدلات الهجوم العنصرى على المسلمين مثلاً (وقد استخدمت الإبادة النازية ليهود أوربا وسيلة لتغطية عنف الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين).

٤ – إن ظهر مجرم يهودى فهذا تعبير عن العبقرية اليهودية والإجرام المتأصل فى الطبيعة اليهودية (بالنسبة للتآمريين). ولا تتم الإشارة إلى عتاة المجرمين الآخرين ولا نسبة عباقرة اليهود المجرمين إليهم. وإن حصل يهودى على جائزة نوبل فإن الصهاينة يشيرون إلى أن اليهود عباقرة بطبيعتهم، ويشيرون إلى أن اليهود يشكلون ٣٪ من الشعب الأمريكى، بينما بلغ عدد اليهود من الحاصلين على جائزة نوبل ٣٠٪ (على سبيل المثال) دون الإشارة إلى أن العلماء اليهود الذين يكسبون جائزة نوبل يوجدون دائماً داخل التشكيل الحضارى الغربى، ولم يظهر عباقرة بين يهود الهند أو إثيوبيا، مما يدل على أن العنصر الثابت ليس يهودية العبقرى وإنما وجوده فى الحضارة الغربية بما تتيحه من إمكانيات وإعلام.

٥ – يصر جميع الناس على أن اليهود يوجدون فى كل مكان فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ولذا نتحدث عن «اليهودية العالمية» وعن «المؤامرة اليهودية العالمية»، وبالفعل يوجد يهود فى الهند وإثيوبيا وموزمبيق وجنوب أفريقيا

والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية والصين، وعادةً ما تقدم الجداول الطويلة التى تحمل أرقاماً كثيرة توثق هذه المقولة.

ولكننا لو دققنا النظر قليلاً ومن خلال المقارنة والقراءة المتعمقة للأرقام فسنجد أن غالبية يهود العالم توجد فى العالم الغربى، وهذه حقيقة منذ القرن الثامن عشر. ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت غالبيتهم الساحقة (حوالى ٩٠٪) توجد فى أوربا التى، انتشر اليهود منها إلى أرجاء العالم.

ولكن هذا الانتشار قد أخذ شكلاً محددا، فهو انتشار تم داخل نمط واضح وهو التشكيل الاستعمارى الاستيطانى الغربى . وإن دققنا النظر أكثر اكتشفنا أن الانتشار كان يتم داخل التشكيل الاستيطانى الأنجلوسكسونى بالدرجة الأولى (الولايات المتحدة - كندا - جنوب أفريقيا - أستراليا - نيوزيلندا - إسرائيل). ولذا نجد أن الغالبية الساحقة ليهود العالم توجد فى بلاد تتحدث الإنجليزية ، وأن لغة اليهود الأساسية ليست العبرية وإنما الإنجليزية، لغة الاستعمار الإنجليزى والإمبريالية الأمريكية، وسنكتشف أن إسرائيل ليست فى آسيا وأن جنوب أفريقيا ليست فى أفريقيا إلا من الناحية الجغرافية وحسب، أما من الناحية التاريخية والوظيفية فهما جزء من التشكيل الاستعمارى الغربى خاصة

الانجلوسكسونى، مرتبطتان به ثقافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وتاريخيًا. ولذا هل يمكن الحديث بعد هذا عن إرادة وحركية يهودية عالمية مستقلة؟ أم أن من الأجدر النظر لأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم اساسا جزءا من الحضارة الغربية وأن نمط انتشارهمإنما هو جزء من إنتشار المادة البشرية الاستعمارية البيضاء التى صدرتها أوربا إلى العالم، ومن ثم لا فرق بين المستوطن الإنجليزى الذى ذبح السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية، والمستوطن الأسبانى الذى ذبحهم فى أمريكا الجنوبية، والمستوطن الهولندى الذى ذبح الأفريقى فى جنوب أفريقيا، والمستوطن الفرنسى الذى ذبح العربى فى الجزائر ، والمستوطن الصهيونى (من روسيا أو بروسيا أو بولندا أوهولندا) الذى ذبح ولايزال يذبح العرب فى فلسطين؟

٦ - من أطرف الأمثلة على سذاجة النموذج الاختزالى وبساطته وطريقة عمله ماورد فى إحدى رسائل الدكتوراه (التى أرسلت لى لفحصها) والتى قام كاتبها بحشد عدد هائل من الحقائق الصلبة المتناثرة. وكان من ضمنها حقيقة طريفة: وجود صديقة يهودية لليدى بيرد (زوجة الرئيس الأمريكى جونسون) فى البيت الأبيض أثناء حرب ١٩٦٧. وقد قدمت هذه الحقيقة الصلبة على أنها دليل قاطع على قوة النفوذ الصهيونى واليهودى وكيف يحرك اليهود الولايات المتحدة،

المتحدة بالسماح لقاعدتها العسكرية فى الشرق الأوسط بالهجوم على مصر عام ١٩٦٧ (لضرب القومية العربية) هو قرار تساهم صديقة ليدى بيرد فى صياغته ولا تحدده المصالح الاستراتيجية الأمريكية كما يراها أصحابها .

وما يجدر ذكــره أن التحليل الذى يقال إنه علمي كثيرا مايسقط فى الواحدية السببية والتفسيرية، تماما مثل التفسيرات التآمرية. فيصل الباحث إلى أطروحة بسيطة (اسرائيل أن هى إلا قاعدة للإمبريالية الغربية ـ الطبقة الحاكمة فى اسرائيل طبقة بورجوازية تقف ضد العمال العرب واليهود) ويسقط كل الأبعاد الأخرى للظاهرة ، والتى تمنحها خصوصيتها، ثم يبدأ فى مراكمة المعلومات داخل اطار الأطروحة الأولية البسيطة.

(وقد سمينا هذا فى كتابنا: **الاستعمار الصهيونى وتطبيع الشخصية اليهودية**، (بيروت، ١٩٩٠ مؤسسة الأبحاث العربية) تطبيع النموذج السياسى الإسرائيلى، وتناولناه بشىء من التفصيل) .

خامساً: لماذا النماذج الاختزالية ؟

ويمكننا أن نسأل : لماذا يلجأ الإنسان لتفسير الواقع من خلال النماذج الاختزالية، فيقوم البعض بصياغتها، ويقوم البعض الآخر بتلقفها واستخدامها بشراهة بالغة. للإجابة على هذا السؤال يمكن أن نذكر الأسباب التالية :

١ - غنى عن القول أن عملية نحت النماذج المركبة بما تتضمنه من عملية التجريد والتفكيك والتركيب المركبة عملية صعبة للغاية وتتطلب جهداً إبداعيًا خاصًا، ولذا فإن ما يحدث في كثير من الأحيان أن الناس يقومون بعملية تجريد تفكيكية اختزالية أبعد ما تكون عن التركيب، وتتسم بالتبسيط والوضوح والتحرك في إطار السببية البسيطة واليقينية المطلقة أو شبه المطلقة.

٢ - التعامل مع الواقع من خلال نماذج اختزالية أمر مغرٍ للغاية فهو يبسط الأمور ويخلق لدى الإنسان وهم التحكم الكامل في واقعه. والعقل الإنساني منذ أن وُجد الإنسان دائم البحث عن صيغة بسيطة يمكنه عن طريقها تفسير كل شيء والتحكم في كل شيء وحل كل مشاكله: خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين أو جملة سحرية أو معادلة رياضية أو قانون علمي واحد يفك به كل الشفرات ويحل به كل الألغاز ويفتح به كل الكنوز، فثمة رغبة طفولية رحمية (نسبة إلى الرحم) كامنة في النفس البشرية تدفع الإنسان إلى محاولة الوصول الى عالم فردوسي لا صراع فيه ولا تدافع ولا اختيارات أخلاقية، كل الأمور واضحة فيه لا لبس فيها ولا إبهام (تماماً مثلما كان الوضع حينما كان الانسان جنينا في

رحم أمه، جزء لا يتجزأ منها يطعم ويشرب دون أن يطلب. وحتى بعد أن يولد فهو يظل لصيقاً بثديها - إن طلب يستجاب لطلبه على الفور). هذا العالم البسيط يمكن التحكم فيه تماماً. والواحدية السببية والاختزالية تحقق هذا للإنسان الحديث (تترجم الرغبة الطفولية الرحمية نفسها فى الفكر الغربى الحديث إلى مفهوم الإنسان الطبيعى الذى يعيش فى حالة الطبيعة الرحمية حيث لا صراع ولا اختيارات أيضاً فهو يعيش بالطبيعة وعلى الطبيعة ، خاضعاًتماماً لها ولقوانينها).

٣ - شيوع وهم الموضوعية الكاملة المتلقية والواقع الخام، فنحن كثيراً ما نتصور أن الحقائق هى الحقيقة وأن الواقع الخام هو مستقرها، ولذا فنحن نحاول أن نكون موضوعيين تماما فى رصد الحقائق. ولكن الحقائق التى يأتى بها الاختزاليون من التآمريين والصهاينة - كما أسلفنا - كلها حقائق موضوعية ووقائع ثابتة حدثت تحت سمع الناس وبصرهم. فهم لا يختلقون الحقائق (فى أغلب الأحيان) وإنما يجتزئونها (وعلى كلٍّ فاختيار الحقائق أمر حتمى). ولذا فأساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها. فالصدق والكذب ليسا كامنين فى الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هى صادقة أم كاذبة ؟) وإنما فى طريقة تناولها، وفى القرار الخاص بما يضم ويستبعد منها. ومن هنا

قولى إن الحقائق شىء والحقيقة شىء آخر، (والحق شىء ثالث). فالحقائق شىء مادى صرف يوجد فى الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة منعزلة عن ماضيها التاريخى وسياقها الحاضر وعن الحقائق الأخرى، أما الحقيقة فهى لا توجد فى الواقع وإنما يقوم العقل بتجريدها واستخلاصها من خلال عمليات عقلية تجرى على الحقائق المتناثرة فيقوم العقل بربط الوقائع والحقائق والتفاصيل بعضها بالبعض، كما يربطها بماضيها التاريخى وواقعها الاجتماعى ثم يربطها بحقائق وأنماط مماثلة حتى يصل إلى النموذج الإدراكى أو المعرفى أو الفكرة الكلية التى تفسر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة. (أما الحق فهو ينتمى إلى عالم المثل والإيمان وهو يشكل المنظور الأخلاقى [المطلق] الذى يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

والعقل العربى لا يزال مشغولاً بحشد الحقائق دون الانشغال بطريقة التوصل للحقيقة من خلال تناول الحقائق - بل وأصبح كل ما ينشر حقيقة. ولذا يقوم الإعلام العربى بحشد الحقائق والأخبار التى توردها وكالات الأنباء العالمية دون تحليل أو اختبار. ولايختلف الأمر كثيرا بالنسبة للنظام التعليمى العربى فهو لا يزال مشغولاً بحشد الحقائق فى الكتب المدرسية دون تدريب الطلبة على كيفية الحصول على

الحقائق وكيفية ربطها بغيرها من الحقائق، وصياغة النماذج التفسيريةواختبارها.

وقد أصبح كثير من البحوث الأكاديمية التى يقال لها علمية، والتى يتقدم أصحابها من أساتذة الجامعة للترقية، ويحصلون عليها فى معظم الأحيان، هى عبارة عن إعادة ترتيب لبعض الحقائق التى وردت فى دراسات سابقة أو ربما اكتشاف حقيقة جديدة لا علاقة لها بنموذج أو نمط (وكأن الباحث مخبر أو شرلوك هولمز)، بحيث أصبح البحث العلمى مسألة طفيلية، وأصبحت معايير الترقية مسألة كمية مثل : عدد المراجع ـ تاريخ نشرها - عدد اللغات التى كتبت بها - هل هى من آخر المراجع ... إلخ، وهى كلها تنم عن أن كثيرا من أساتذة الجامعة (من المتقدمين للترقيات وممن يقومون بمنحها) يدورون فى نفس هذا الإطار العقيم. بل إن كثيراً من رسائل الدكتوراه التى تُكتب الآن هى عبارة عن محاولة لتوثيق شيء معروف مسبقاً أو تطبيق لنظرية ثبت صدقها تماماً على جزئية ما دون أنْ تثمر عملية التطبيق أى تعديل للنظرية، وهو ما أسميه التوثيق الأفقى: أن يأخذ الباحث مقولة معروفة مستقرة ويوثقها من كتب أخرى دون إبداع أو تساؤل كأن يثبت الباحث بما لا يقبل الشك أن الصهيونية حركة عنصرية، وأن الرومانتيكية هى عودة للطبيعة والعواطف، وأن مصر هى

هبة النيل! ولعلنا بطرح هذه القضية نفتح حواراً بشأنها لأن هذا الموقف يتهدد العقل العربي وعقول الأجيال القادمة، خصوصاً في عصر انفجار المعلومات والحقائق التي قد تكون وقد لا تكون لها علاقة بالحقيقة أو المعرفة.

٤ - ولكن الأمر ليس مقصوراً على النزوع الإنساني العام نحو الاختزال والتبسيط أو على حالة العقل العربي، إذ توجد عناصر تكمن في واقع أعضاء الجماعات اليهودية ساعدت على انتشار النماذج الإدراكية الاختزالية التبسيطية لهم:

أ) مما لا شك فيه أن ظاهرة اليهود ظاهرة في غاية التركيب وعدم التجانس. بل إنني أذهب إلى أن الخلل الإدراكي والبحثي الأساسي في الشرق والغرب يكمن في تصورنا أن أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون ظاهرة واحدة ينتظمها إطار واحد، بينما هم في واقع الأمر عدة ظواهر مختلفة أطلق عليها «الجماعات اليهودية» لا ينتظمها تاريخ يهودي واحد وإنما تواريخ إنسانية متعددة، وأن عناصر عدم التجانس بين هذه الجماعات من الناحية التفسيرية أكثر أهمية من العناصر المشتركة بينها، وأن كون الجماعات اليهودية «جماعات» أكثر أهمية من كونها «يهودية». ولكن التوصل إلى هذا التعميم يتطلب جهداً بحثياً وإبداعياً شاقا،

عادة مايستغرق وقتا طويلا، إذ يجب أن يقوم الباحث بمقارنة يهود الصين بيهود إثيوبيا بيهود الولايات المتحدة بيهود العالم الإسلامي، في الماضي والحاضر، وعلى المستويات الدينية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية والديموجرافية ... إلخ. حتى يكون بوسعه أن يقرر ما هي العناصر المشتركة بينهم، وما هي الثوابت وما هي المتغيرات، وماهي علاقة الواحد بالآخر، وهكذا.

ولعل الإصرار على أن اليهود ظاهرة واحدة وكلٌ واحد لا يتجزأ هو نتيجة الكسل الفكري والإحجام عن استثمار الجهد والوقت في اختبار الأطروحات البسيطة، وهو كسل أدى إلى أن عملية التراكم المعرفي عن اعضاء الجماعات اليهودية في العالم تتم في إطار افتراض وجود وحدة وهمية بين كل يهود العالم، الأمر الذي أدى إلى دعم الرؤية التآمرية أو الصهيونية إذا أصبح اليهود قادرين علي فعل أي شيء وكل شيء. وقد وضعنا هذا في دور المتلقي المحايد المندهش ! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ب) مما ساعد على شيوع النماذج الاختزالية شعائر اليهود المركبة التي لا يستطيع كثير من غير اليهود فهمها. وقد أسلفنا القول أنه حينما لا يفهم الإنسان شيئاً فإنه في كثير من الأحيان لا يكدِ ولا يتعب ليصل إلى التفسير

الصحيح، بل يلجأ إلى تفسيرات اختزالية (تآمرية أو صهيونية) تريحه من عناء التفكير.

جـ) ساهمت النزعة الانعزالية (الحلولية الواحدية) فى الدين اليهودى، والتصورات الدينية اليهودية الخاصة بالشعب المختار والمركزية الكونية والتاريخية التى يضفيها اليهود على أنفسهم فى تعميق شكوك غير اليهود فيهم. ومع هذا يجب التنبيه إلى أن ثمة نزعة توحيدية قوية فى العقيدة اليهودية على الرغم من هيمنة النزعة الحلولية الواحدية ابتداءً من القرن السادس عشر.

د) يلاحظ أن اليهود يلعبون دوراً مركزيًّا فى الدراما التاريخية المسيحية (نزول المسيح - صلبه على يد اليهود - هداية اليهود تمهيداً للعصر المشيحانى ... إلخ). وقد ارتبطت فكرة الخروج فى الوجدان الغربى باليهود، فهم دائماً فى حالة خروج (ودخول) من فلسطين (أرض كنعان) إلى مصر ثم من مصر إلى فلسطين ثم من فلسطين إلى بابل ومن بابل إلى فلسطين ومن فلسطين إلى أرض الشتات وهكذا. وقد ساهم كل هذا فى تحويل اليهود إلى مقولة غير زمنية وفى اختزالهم إلى بُعد واحد.

هـ) لا يلعب اليهود دوراً متميزاً فى الإسلام، فهم أهل كتاب وأهل ذمة، ومع هذا فمن خلال تفسير حرفى يطابق

بشكل هندسى بين ما جاء فى القرآن ووقائع التاريخ المتناثرة تم الربط بين ما جاء فى القرآن والسنة من جهة ويهود العالم فى العصر الحديث من جهة أخرى. ومن ثم تحول اليهود إلى مقولة غير زمنية ثابتة واختزلوا مرة أخرى إلى بعد واحد على الرغم من المفاهيم الإسلامية الحاكمة الخاصة بالفطرة والتدافع وقبول الآخر .

٥ - ساهمت عدة عناصر فى خلق صورة إدراكية سلبية لليهودى فى عقل الإنسان الغربى، وهى صورة انتقلت لنا وسيطرت على إدراكنا، على الرغم من أنها لاأساس لها فى واقعنا .

أ - تضرب صورة اليهود السلبية بجذورها فى الدور الذى لعبه اعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب كجماعات وظيفية. والجماعات الوظيفية هم جماعة من البشر تجلبهم المجتمعات الإنسانية (عادة التقليدية) من خارج المجتمع، أو تجندهم من داخله، وتوكل لهم بوظائف لايمكن لأعضاء المجتمع القيام بها إما لأنها مشينة (مثل البغاء والربا) أو متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوافرة لأعضاء المجتمع المضيف (التجارة المحلية والدولية - الطب - القتال بأسلحة تتطلب مرانا طويلا) أو تتطلب ارتياد مناطق نشاط جديدة (الاستثمار فى المناطق النائية أو المجالات الجديدة) أو حساسة للغاية (الأمن -

الوظائف القريبة من النخبة الحاكمة مثل المستشارين والخصيان الوزراء والجوارى وكبار الموظفين وعبيد القصر). ويعيش اعضاء الجماعة الوظيفية داخل مجتمعهم ولكن فى حالة عزلة ويحتفظون بهويتهم (الحقيقية أو الوهمية المستقلة). وهم يتسمون بالحركية والحياد والموضوعية والتعاقدية. وعادة مايرتبطون إما بوطن أصلى (وهمى أو حقيقى) أو بجماعتهم الوظيفية ولايدينون بالولاء للوطن الذى يعيشون فيه، فهو بالنسبة لهم مصدر للربح وحسب. رؤيتهم للكون عادة رؤية حلولية واحدية تضفى عليهم مركزية كونية وعندهم مايسمى بعقدة الشعب المختار.. والجماعة الوظيفية وسيلة لاغاية، يحتفظ المجتمع باعضائهامادام لهم نفع (ويتم التخلص منهم حينما لاتكون لهم وظيفة أو نفع) . وهم عادة مايكونون أداة فى يد الحاكم ولذا فهم محط بغض الجماهير. ومن أهم الجماعات الوظيفية: المماليك فى العالم العربى، والأرمن فى الدولة العثمانية، والحرس السويسرى فى فرنسا الخ..

ومما لاشك فيه أن وجود اليهود بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة، داخل عديد من المجتمعات الغربية، تنتظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التى تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجارى والمالى، قد عمق من الرؤية الاختزالية

التآمرية لليهود. وقد بلغت هذه الشبكة قمة تماسكها وقوتها فى القرن السابع عشر حين كانت تنتظم يهود الأرندا فى شرق أوربا (فى بولندا وأوكرانيا)، ويهود البلاط فى وسطها وغربها، ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد. وقد خلق هذا الوجود إحساسا عميقا لدى الكثير منْ الدارسين أن ثمة تنسيقا تآمريا بين اليهود فى كل أنحاء العالم (وقد انحلت هذه الشبكة تماماً بقيام النظام المصرفى الحديث والدول القومية العلمانية الحديثة).

ب) أدى تعثر التحديث فى الإمبراطورية الروسية فى أواخر القرن التاسع عشر وتزايد عدد اليهود نتيجة لانفجاره ديموجرافية صغيرة (ومركب آخر من الأسباب) إلى خلق مشكلة تأقلم عند عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية مع النظام الاقتصادى الجديد، الأمر الذى اضطر أعدادا كبيرة منهم للهجرة، وقد وصف هذا على أنه علامة على الرغبة الأزلية لليهود فى الخروج من أوطانهم وعلى تطلعهم الدائم لصهيون .

جـ) ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمى، بسبب انتشار قيم النفعية واللذة، ومع تركز أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من الحركات الفوضوية وفى قطاع اللذة

(الكباريهات - السينما - السياحة)، تعمق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية لا تهدف إلى السيطرة على العالم وحسب بل تهدف أيضاً إلى إفساده (مع العلم بأن الجماعات اليهودية فى أوربا كانت من أكثر القطاعات البشرية محافظة من الناحيتين الأخلاقية والسياسية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولم تكن ظاهرة الأطفال غير الشرعيين معروفة بينهم).

سادساً: مشاكل النموذج الاختزالى

وغنى عن القول أن النموذج الاختزالى مريح للغاية إذ إنه يفسر كل شيء بشكل آلي ومباشر ومقنع عن طريق استبعاد كم هائل من العناصر والظواهر التى قد تّولد الشك فى النفوس وتثير الأسئلة فى العقول. ولكن مشاكل هذا النموذج التفسيرى كثيرة ونقائصه واضحة من الناحيتين المعرفية والعملية، ولنبدأ بالناحية المعرفية:

١ - يسقط هذا النموذج فى نوع من السببية الاختزالية البسيطة السهلة بحيث تصبح كل النتائج لها سبب واحد، مما يجعله عاجزاً عن تقديم تفسير معقول لتنوع الواقع ولحشد هائل من التفاصيل تم استبعاده. فإذا كان اليهود أشراراً متآمرين، فكيف نفسر ظهور بعض الخيرين بينهم، مثل هؤلاء اليهود المعادين للصهيونية أمثال الحاخام إلمر برجر وأعضاء الناطورى كارتا (المؤمنين بالإله الواحد والمعادين للصهيونية

أكثر من عداء معظم العرب لها) ؟ وكيف نفسر نجاح الجماعة اليهودية فى الأندلس (إسبانيا الإسلامية) فى الانتماء الكامل للحضارة العربية الإسلامية والتفاعل معها والإسهام فيها؟ بل وتذهب كثير من المراجع إلى أنهم قاموا بمساعدة الفاتحين الإسلاميين لشبه جزيرة أيبريا، تماماً كما فعل اليهود السامريون أثناء الفتح الإسلامى لبيت المقدس، كما يقال إن يهود العالم الغربى ساعدوا العرب أثناء حروب الفرنجة بتسريب الأخبار لهم عن استعدادات أوربا العسكرية وعن الحملات التى كانت تجردها (ولذا ربط الوجدان الوسيط الغربى بين اليهودى والمسلم). وإذا كان اليهود دائمى التطلع لصهيون، فلماذا لم يهاجر الملايين من اليهود إلى فلسطين بعد أن وقعت فى يد الصهاينة وبعد أن فتحت أبوابها للهجرة الاستيطانية، بل وبعد تقديم الرشاوى المالية والعينية لمن يوافق منهم على الاستيطان؟ ولماذا كان من الضرورى أن توصد أبواب الولايات المتحدة أمام المهاجرين اليهود السوفييت حتى يضطروا للهجرة إلى إسرائيل ؟ وهذا النمط (انصراف اليهود عن فلسطين بدافع البحث عن الرزق أو لأسباب أخرى، لا تدفقهم عليها بفعل الجاذبية الروحية لأرض الميعاد) ليس مقصوراً على العصر الحديث. ففى القرن الأول قبل الميلاد كان عدد يهود العالم حوالى ٧ ملايين (أو ربما

أكثر من ذلك)، ولم يكن يوجد سوى مليون ونصف يهودى فى فلسطين وذلك قبل سقوط الهيكل عام ٦٦ ميلادية، أى أن الملايين من اليهود هاجروا من فلسطين بملء إرادتهم دون قسر خارجى (على عكس ما تدعى المراجع الصهيونية التى تفسر هجرة اليهود بنموذج اختزالى بسيط، يجعل اليهود ملتصقين دائماً بالأرض المقدسة لا يتركونها إلا مضطرين كارهين!).

٢ - أطروحات النموذج الاختزالى تتسم بالعمومية المفرطة لانفصالها عن الزمان أو المكان، ولذا فهى لا تفسر خصوصية الظواهر ولا يمكنها أن تفسر لنا لماذا ظهرت الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر ولم تظهر، على سبيل المثال ، فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بعد حروب الفرنجة (التى يقال لها صليبية)، وهى الحروب التى ارتكبت أثناءها المذابح ضد تجمعات الجماعات اليهودية فى غرب ووسط أوربا واجتثتها من جذورها فى بعض الأحيان، ومع هذا لم يحمل اليهود عصاهم واتجهوا إلى أرض الميعاد كما هو متوقع منهم حسب النظرية الاختزالية التآمرية الصهيونية، وإنما كانوا ينتقلون من بلد أوربية إلى أخرى، ثم اتجه سيل الهجرة اليهودية بعد ذلك إلى بولندا. كما أن النموذج الاختزالى يفشل فى أن يفسر لنا لِمَ ظهرت الصهيونية فى شرق أوربا

وليس فى غربها أو حتى فى الولايات المتحدة، مع أن عدد يهود الولايات المتحدة مع بداية القرن كان آخذاً فى التزايد حتى بلغ عدة ملايين قبيل الحرب العالمية الأولى؟ ولماذا ظلت الصهيونية حركة أقلية يهودية من أعضاء الطبقة الوسطى فاشلة فى إحراز أية انتصارات على مستوى الاستيطان فى فلسطين أو على مستوى التحرك الدبلوماسى فى العالم حتى عام ١٩١٧، عام صدور وعد بالفور؟

٣ - تبنى النماذج الاختزالية هو تعبير عن كسل عقلى، ولكنها فى الوقت ذاته تزيد من هذا الكسل إذ إنها تزود العقل بالإجابات الواحدية الجاهزة إلى أن يصاب العقل بالشلل ونصبح موضوعيين متلقين لكل ما يأتينا من حقائق صلبة دون تساؤل أو إبداع. وقد أشرت فى كتابى هجرة اليهود السوفييت (كتاب الهلال، ديسمبر ١٩٩٠) لهذا الوضع الشائن حين كان الإعلام العربى يتحدث عن "جريمة العصر" ويتسابق المحللون فى اقتباس الإحصائيات التى تقول إن ملايين اليهود سيهاجرون من الاتحاد السوفييتى (سابقا) إلى فلسطين (بينما كان لايزيد عدد يهود الاتحاد السوڤييتى آنذاك على مليون وربع!). وقد بيّنت أن الهجرة لن تزيد بأية حال على ٤٠٠ ألف ثم تعود إلى معدلها الطبيعى بعد ذلك (وهو ما حدث بالفعل) وأن المهاجرين سيسببون مشاكل اجتماعية

واقتصادية فى إسرائيل (وهو ما وقع)، كما نبهت إلى ضرورة دراسة معدلات النزوح وتنبأت بأنها سترتفع (وقد تم الكشف عن أن عدد النازحين آخذ فى التصاعد). وكانت الأطروحة التى صدر عنها الإعلام العربى والباحثون العرب أطروحة اختزالية جامدة : أن اليهود مرتبطون بأرض الميعاد، يتوجهون لها حينما تسنح لهم الفرصة وأنهم حينما يصلون إلى فلسطين فإنهم عادة مايصبحون روادا صهاينة وإضافة بشرية للمستوطن الصهيونى .أما الأبعاد الأخرى والمركبة للظاهرة، مثل أن اليهود فى الاتحاد السوفييتى مواطنون تعرضوا للدعاية الإلحادية لمدة سبعين عاماً ففقدوا علاقتهم بأى عقيدة أو مثُل وتحولوا إلى مرتزقة يأكلون الأخضر واليابس، يذهبون إلى إسرائيل فتعمل نسبة عالية من النساء بالبغاء ، أما الرجال فكثير من المؤهلين منهم لايجد عملا مناسب وتعمل نسبة منهم فى السوق السوداء والحرف الطفيلية، وحينما يحملون السلاح فانهم يحملونه بأجر، ويجلسون على حقائبهم حتى تحين لهم الفرصة للهروب إلى أرض الميعاد الأمريكية، فمثل هذه الأبعاد أكثر تركيباً مما يحتمل العقل الاختزالى، كما أن التوصل لها يتطلب جهداً ووقتاً.

ونقائص النموذج الاختزالى من الناحية العملية عديدة، ولعل أهمها مايلى :

١ - ينسب هذا النموذج إلى اليهود قوة عجائبية ويجعل منهم ظاهرة خرافية من المستحيل ضربها وإلحاق الهزيمة بها. ولذا فالصهاينة يروجون للنموذج التآمرى إذ إن من صالحهم تفخيم دور اليهود عبر التاريخ والمبالغة فى مقدرات الدولة الصهيونية فى كل المجالات، فهذا يكسبهم شرعية غير عادية (فى عالم يؤمن بالنجاح والحلول العملية).

٢ - ويؤدى شيوع هذا النموذج إلى بث الرعب فى قلوب العرب، ويجب أن نتذكر أن كثيراً من الدول الكبرى تبنى أسلحة ولا تستخدمها لمجرد أن تبث الرعب فى قلب أعدائها. بل إنها أحياناً تلوح بمقدرتها على إنتاج سلاح ما دون أن تفعل لتدعم موقفها التفاوضى. واصطلاح « توازن الرعب» يعنى أن توليد الرعب فى قلب العدو هو أحد الأهداف الأساسية فى الحروب ومسألة يُحسب حسابها. والفرضية التآمرية تنجز هذا بالنسبة للصهاينة دون جهد من جانبهم.

٣ - من خصائص النماذج الاختزالية أنه يمكن توظيفها ببساطة فى أى اتجاه، فعملية الاختزال، كما بيّنا، هى عملية فصل الحقائق والوقائع عن سياقها الاجتماعى والتاريخى وفرض أى معنى عليها واستخلاص أى نتائج :

أ) الفرضية التآمرية تفسر، بل وتبرر، الهزيمة العربية إذ إنها تصبح شيئاً مفهوماً تماماً لأنه إذا كان العدو بمثل هذه

المقدرات التى تتجاوز الزمان والمكان، وإذا كان اليهود يحركون العالم فإن هيمنتهم على فلسطين شىء متوقع.

ب) وبعد قليل سيكون بوسع المتلقى الموضوعى أن يستخلص بنفسه النتائج، ويرى أن الواقعية تدعو لقبول العدو وأن الرؤية العلمية تؤيد الاستسلام والإذعان له، فهو عدو لا يقهر، ومن هو هذا الأحمق (المثالى وغير العلمى) الذى يريد أن يضرب برأسه فى الحجر الصلب ؟.

٤ - يبرئ النموذج التآمرى الإمبريالية الغربية والدول الغربية من الجرائم التى ارتكبتها وترتكبها ضد الشعب العربى، فهذه الدول (حسب النموذج التآمرى) إن هى إلا ضحية التآمر اليهودى الأزلى وهى ليست مسئولة عن غرس الجيب الاستيطانى الصهيونى فى المنطقة وتمويله ودعمه وفرضه بقوة السلاح علينا، فالمشروع الصهيونى (حسب النموذج الصهيونى) هو أمر قام به اليهود تعبيراً عن إرادتهم الحرة القومية المستقلة وبجهودهم الذاتية.

٥ - لا تفيد النماذج الاختزالية كثيراً فى عملية الممارسة إذ إن الممارسة تتطلب نموذجاً تحليلياً أكثر تفصيلية وأكثر دقة وتركيبية يزود المجاهد بخريطة للواقع يمكنه من خلالها أن يعرف من هو عدوه ومن هو صديقه، ويفهم بواسطتها العناصر والانقسامات المختلفة فى معسكر العدو ودرجات

العداء ومدى تفاوتها وما هى دوافعه وما هى مواطن ضعفه، وآلاف التفاصيل الأخرى التى تظل بمنأى عن الفرضية التآمرية.

٦ - يتحرك النموذج الاختزالى فى إطار تجريبى مادى ضيق فهو يفترض أن المعرفة هى نتاج تراكم برانى للمعلومات، وأن دوافع السلوك الإنسانى برانية، ولذا تفسر أفكار الإنسان كما يفسر سلوكه فى إطار التأثير والتأثر (الخارجى) لا التوليد والإبداع (الداخلى)، ويتم استبعاد احتمال أن تتولد داخل عقل الانسان أنساق ورؤى فكرية تشبه أنساق ورؤى الآخرين دون أن يكون قد تأثر بها أو اطلع عليها (فثمة انسانية مشتركة، وثمة بناء مشترك للعقل البشرى يمكن أن يولد أنساقا فكرية متشابهة) . وبما أن النماذج الاختزالية ترى أن الشر واليهود صنوان وأن الواحد لا ينفصل عن الآخر (أى أنها تصبح توليدية ولكنها مع هذا تظل واحدية بسيطة) يتم تفسير الشر باعتباره تأثير اليهود السيىء على شعوب الأرض ويستبعد احتمال وجود الشر فى النفس البشرية (وهو ماتؤكده كل الأديان السماوية ولاينكره سوى بعض الحتميين الماديين) .ولذا يعجز النموذج الاختزالى عن تفسير ظهور الشر فى بلاد لايوجد فيها يهود، فتايلاند عاصمة الاباحية والبغاء فى العالم لا يوجد فيها يهود، كما

لا يوجد يهود بين الصرب والكروات الذين يذبحون المسلمين في البوسنة والهرسك .

٧ – وهناك مشكلة أخرى تبين قصور النموذج الاختزالي وهي أنه قد ترتبط ظاهرة ما بوجود اليهود في مكان ما، ولكنها مع هذا تظهر في مكان آخر لا يوجد فيه يهود. ولأضرب مثلاً : يرى البعض أن اليهود يحبون امتصاص دماء الشعوب عن طريق الاشتغال بالربا والتجارة البدائية الطفيلية (التي يشار لها أحياناً «بالتجارة اليهودية») وببعض الحرف التي يحققون منها أرباحاً كثيرة وسريعة، (التي يشار اليها أحيانا «بالحرف اليهودية»). وقد التصق اسم اليهود بهذه الحرف إلى درجة أنه حينما يضطلع الصينيون بدور التاجر والمرابي في جنوب شرق آسيا يطلق عليهم «يهود جنوب شرق آسيا»، والهنود الذين يضطلعون بنفس الدور في أفريقيا (ومن بينهم مسلمون) يسمون «يهود أفريقيا». وفي كتابه **المسألة اليهودية** يتحدث ماركس عن «تهويد المجتمع»، بمعنى سيادة العلاقات التعاقدية البورجوازية فيه، بمعنى أنه عادل بين اليهودي والبورجوازي. وارتباط اليهودي في عقل الكثيرين بهذا النوع من الحرف هو نتيجة تجربة المجتمات الغربية، حيث اضطلع اعضاء الجماعات اليهودية فيها وحدهم (تقريبا) بهذه الوظائف. ولكن يلاحظ أنه في بعض المناطق في الدولة

العثمانية كانوا يستخدمون أحياناً كلمة «يوناني» أو «أرمنى» بمعنى شخص يشتغل بالربا والتجارة الطفيلية وبتلك الحرف التي تسمى «يهودية» في العالم الغربي .

وقد لاحظ د. محمود سمير أحمد في كتابه **حول العالم** (كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩٣) أن كثيراً من المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية همهم الوحيد هو التجارة وأنهم تعاونوا مع اليهود تعاوناً وثيقاً. ومما يجدر ذكره أن كلاً من اليهود والعرب يسمون لوس توركوس (الأتراك) أي المهاجرون من الدولة العثمانية، أي أنه كما يسمى الصينيون في جنوب شرق آسيا «يهود» فإن يهود بعض بلاد أمريكا اللاتينية يسمون «أتراك». فهنا أربعة مسميات :(يهودى - أرمنى - يونانى - تركى) تستخدم للإشارة لنفس الوظيفة ولنفس النمط الإنساني (الإنسان الاقتصادى الهامشي، عضو الجماعة الوظيفية التجارية المالية، الذى لا يكترث بالقيم ويعلى من قيمة الربح المادى). ولذا قد يكون من الأدق والأشمل تحليلياً أن نتحدث عن وظيفة ما، قد يقوم بها اليهودى (في مكان ما)، وقد يقوم بها شخص آخر (في مكان آخر). فالوظيفة، لا الجوهر اليهودى، هي التي يجب أن تكون المقولة التحليلية. (وقد طورّت مفهوم الجماعة الوظيفية والذى طبقته في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تصنيفى

وتفسيرى جديد - [القاهرة - فبراير ١٩٩٤] لسد هذه الحاجة). وفي هذه الحالة سندرك الواقع بطريقة أكثر تركيبية وحركية. فإن ظهرت ظواهر سلبية في المجتمع تفك نسيجه وتنخر في عظامه (مخدرات - جريمة - تجارة طفيلية - دعارة - عدم انتماء ... إلخ) فلن نبحث عن اليهودى الذى قد يكون غائبا، وإنما سنحلل الظاهرة فى ضوء مفهوم الوظيفة، ثم نرى من يقوم بها، وهو يمكن أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو بوذياً أو شخصاً لا ملة له ولا دين ! أى أن مقدرتنا التحليلية ستتزايد ومقدرتنا على التصدى لمن يحاول تدميرنا ستتحسن.

سابعاً : النماذج المركبة

وهذا الكتاب هو محاولة دراسة كيف يقوم النموذج الاختزالى التآمرى والصهيونى بتجريد أعضاء الجماعات اليهودية واختزالهم إلى عنصر واحد يسمى «اليهود» لا علاقة له بالأنماط أو الوظائف الإنسانية العامة، عنصر عجائبى قادر على كل شيء تنسج حوله الأساطير فيخافه الإنسان وتخور قواه ويهزم فى المعركة قبل دخول الحرب. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب يتناول أولها النموذج الاختزالى التآمرى (والمعادى لليهود) كما يتبدى فى بعض الأساطير والمفاهيم التآمرية (بروتوكولات حكماء صهيون - البهائية - الماسونية

- تهمة الدم). ويتناول الباب الثانى النموذج الاختزالى الصهيونى (المالئ لليهود) كما يتبدى فى بعض الأساطير والمفاهيم الصهيونية (العبقرية اليهودية - حادثة ليوفرانك - حادثة دريفوس - ماساده). أما الباب الثالث فيتناول ما يسمى سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبى الصهيونى وقوة الصوت اليهودى باعتبارها تجليات حديثة لنفس المفاهيم الاختزالية التبسيطية الأسطورية.

وقد قمنا فى هذه الدراسة بعملية تفكيك وتركيب، كى نصوغ نموذجاً تفسيرياً أكثر تركيبية، واتبعنا الخطوات التالية :

١ - فصل الوقائع والتفاصيل التى تستخدمها النماذج الاختزالية (التآمرية أو الصهيونية) عن هذه النماذج .

٢ - وضع الوقائع والتفاصيل ذاتها فى سياق تاريخى واجتماعى إنسانى واسع، أى استعدنا البعد التاريخى والمنظور المقارن.

٣ - ربط الأجزاء والتفاصيل والحقائق بالكليات التاريخية والاجتماعية.

٤ - ضم وقائع ومعلومات كان قد تم استبعادها من منظور النموذج الأختزالى. وكانت المحصلة النهائية هى

إظهار عجز النموذج الاختزالى عن تفسير كثير من المتغيرات وعناصر الواقع ، والبرهنة على مقدرة النموذج المركب على انجاز ماعجز عنه النموذج الاختزالى، إذ اكتسبت الوقائع معنى جديداً وأصبح من الممكن تفسيرها بطريقة أكثر تركيباً وإنسانية . فكثير من الجرائم التى تنسب لليهود لا تنسب لليهود وحدهم، وإنما تنسب لآخرين، وهى لا تنسب لليهود فى كل زمان ومكان وإنما فى زمان محدد ومكان محدد، وهى لا تحدث دون سبب واضح أو لسبب واحد بسيط، وإنما تحدث نتيجة لمركب من الأسباب الاجتماعية والتاريخية والمعنوية. وقد تكشف لنا أن يهودية اليهودى لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة أدت إلى وقوع حدث ما وإلى تشكيل ظاهرة ما. بل وأحياناً نجد انها لم تكن سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً، إذ لا يظهر اليهودى كيهودى وإنما كمرابى أو عميل أو أجنبى أو علمانى أو مهاجر. ولذا فإن الهجوم الذى يتم على اليهود ليس مقصوراً عليهم وإنما هو هجوم موجه ضد كل القوى المماثلة فى المجتمع والتى تضطلع بنفس الوظائف . كما أننا اكتشفنا أن الفساد الذى نسب الى اليهود مرتبط بالوظائف التى يضطلعون بها لا بجوهرهم.

واستخدام النماذج التركيبية له نتائجه العملية والمعرفية والأخلاقية:

١ - تُسقط النماذج التركيبية التفسيرية عن اليهودى عجائبيته وإعجازه وفرادته (التى يصر عليها الصهاينة والمعادون اليهود) وتستعيد له إنسانيته وتركيبيته، ومن ثم نعرفه في قوته وفى ضعفه الحقيقيين، ونحسن من مقدرتنا على التنبوء بسلوكه .

٢ - أسلفنا القول أن النموذج التركيبى سيساعدنا على التخلص من الربط بين اليهودى وكل الظواهر السلبية فى المجتمع ، الأمر الذى سيوسع من أفقنا ويجعلنا أكثر قدرة على دراسة هذه السلبيات والبحث عن سببها الحقيقى بدلا من البحث الاختزالى عن اليهود. وكثير من الوظائف التى ارتبطت فى أذهاننا باليهود، وباليهود وحدهم (وبسبب الأدبيات العنصرية الغربية) يقوم بها غير اليهود فى أماكن مختلفة وفى فترات أخرى .

٣ - سيساعدنا النموذج التركيبى على إدراك طبيعة العلاقة العميقة والبنيوية بين الدولة الصهيونية والحضارة الغربية والتشكيل الاستعمارى الغربى، ومدى عمق الصراع بيننا وبين العدو الصهيونى ومدى اتساعه.

٤ - إذا استخدمنا النماذج التفسيرية المركبة فإننا نكون قد طبقنا واحدة من أهم تعاليم الإسلام وهو ضرورة الحفاظ

على حقوق الأقليات التي تعيش بيننا (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) إذ ليس من حق أحد إسقاط الحقوق التي أعطاها الله لهم بناء على رؤية حرفية واختزالية حتمية، تهدر حقوقهم حتى قبل أن يولدوا إذ تعتبرهم أشرارا بالوراثة، أى من خلال طبيعتهم المادية لا اختيارهم الأخلاقى، (ونظرية الحقوق الدينية مختلفة فى هذا المضمار عن نظرية الحقوق المدنية التى ترى أن هذه الحقوق ليست مطلقة، فالأمة هى مصدر السلطات وهى التى تمنح وتمنع. وفى حالة الدولة النازية، قررت الدولة الألمانية باعتبارها تجسيداً لإرادة الشعب أن تدمر كل من يقف فى طريق التقدم والتنمية مثل مشوهى الحرب والعجائز وكثير من أعضاء الأقليات مثل الغجر واليهود).

٥ - إذا ما أدركنا المغزى الإنسانى الكامن فى واقعة عنصرية ما يكون الحـزن من أجل الضـحية حزناً إنسـانياً لا يمكن توظيفه فى خدمة عقيدة عنصرية استيطانية كما يحدث فى الوقت الحاضر، إذ إنه إذا سقط اليهودى ضحية العنف والعنصرية فى مجتمعه (الغربى) فإن هذا لا يعنى أن اليهودى هو الضحية الأزلية للعنف، وإنما هو ضحية مجتمعه الغربى العنصرى، والحل الإنسانى الوحيد لهذه المشكلة ليس هو تصدير المشكلة لنا، وإنما أن ينضم اليهودى للجماعات

التى تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية) وأن يناضل من أجل حقوقه داخل مجتمعه. وتصبح القضية هى كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية والدينية (وغيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، مثل الولايات المتحدة واتحاد دول الكومنولث المستقلة (الاتحاد السوفييتى سابقاً) لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل العنصريون من الصهاينة والمتآمرون من بلهاء صهيون.

ويجب أن نتذكر أن اليهودى الذى يفر من بغض أعداء اليهود وحربهم ضده هو ذاته اليهودى الذى يصبح مستوطناً صهيونياً يغتصب الأرض العربية ويتحول، بعد قليل، إلى الجندى الصهيونى الذى نراه على شاشات التليفزيون يقتل الأطفال العرب أو يكسر عظامهم. وقد أدرك الصهاينة ذلك تماماً، ولذا فتاريخهم هو تاريخ التحالف مع أعداء اليهود، بل إن الصهيونية وصفت بأنها تعيش على الكوارث اليهودية. ومن المعروف لدى الدارسين أن الحركة الصهيونية نظمت هجمات (أحياناً مسلحة) على الأفراد والجماعات اليهودية، لترغمهم على الخروج من بلادهم (كما أسلفنا)، ليتحولوا إلى مادة استيطانية وقتالية فى المستوطن الصهيونى. وإشاعات الهجمات على اليهود السوفييت وظاهرة نبش قبور اليهود فى أوربا هى، فى أغلب الظن، من تدبير الحركة الصهيونية. وقد

جاء فى أحد تواريخ الصهيونية أنه إذا كان تيودور هرتسل هو ماركس الصهيونية، أى منظرها، فهتلر هو لينين الصهيونية، أى من وضعها موضع التنفيذ، وذلك عن طريق تصعيد اضطهاد اليهود فى أوربا، فهاجرت الآلاف إلى فلسطين، الأمر الذى كانت الحركة الصهيونية قد فشلت تماما فى تحقيقه حتى ذلك التاريخ.

ونحن إذا أدركنا كل هذا، يصبح من الواجب علينا أن نبتعد عن الدهاليز الضيقة المظلمة، وأن نتوقف عن البحث الطفولى الساذج عن اليهودى ذى الأنف المقوس والظهر المحدودب. (الذى لا يوجد إلا فى كتب الكاريكاتير وفى النماذج الاختزالية) ظناً من أننا لو عثرنا عليه وقضينا عليه فإننا سنريح ونستريح. فالصراع مع العدو مركب وطويل، والدولة الصهيونية ليست مؤامرة عالمية بدأت مع بداية الزمان، وإنما هى قاعدة عسكرية واقتصادية وثقافية وسكانية للاستعمار الغربى، والصراع معها إنما هو جزء من المواجهة العامة مع الحضارة الغربية الغازية. والله أعلم .

دمنهور والقاهرة ـ نوفمبر ١٩٩٢

الباب الأول

النموذج التآمرى



روتشيلد كما تخيله أحد الرسامين
الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر

الفصل الأول

بروتوكولات حكماء صهيون

من أهم الوثائق التي يتداولها أصحاب النموذج الاختزالي التآمري «بروتوكولات حكماء صهيون» . وكلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية» . و«بروتوكولات حكماء صهيون» وثيقة مشكوك في صحتها ، يقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا ، أي في نفس العام الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول ، بل ويزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر ، وأنها نوقشت فيه ، بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين) لإقامة امبراطورية عالمية

تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس .
وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعة وعشرين فى نحو مائة وعشر صفحات ونشرت أول ما نشرت عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجى نيلوس وهو مواطن روسى ادعى أنه تسلم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ، ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا . لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السرى الروسى فى فرنسا ، وأن الأخير هو الذى سرقها من أرشيف المحفل الماسوني . وقد كان لنيلوس اهتمامات صوفية حلولية متطرفة ، كما أنه كان غارقاً فى الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية .

وقد لاقت البروتوكولات رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التى أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية» إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التي اجتاحت كثيراً من البلدان الأوربية إلى اليهود .

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس . وبلغت البروتوكولات قمة رواجها فى الفترة الواقعة بين الحربين ، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة من الخلف قام بها اليهود والمشتركون فى المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية . وقد أصبحت البروتوكولات من

أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل ، وترجمت إلى معظم لغات العالم الشائعة بما في ذلك العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها . وحازت البروتوكولات على اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف والإعلام في العالم العربي ، حيث أشاروا إليها باستحسان كبير وكأنها وثيقة ذات شأن كبير . ولحسن الحظ ، لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام ، ولا يتم نشرها إلاَّ من خلال دور نشر تجارية لا تتمتع بكثير من الاحترام .

والرأى السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البروتوكولات دراسة علمية متعمقة هو أن البروتوكولات وثيقة مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان : حوار في الجحيم بين ماكيافيللي ومونتسكيو ، أو السياسة في القرن التاسع عشر ، ونشر في بروكسل عام ١٨٦٤ ، فتحول الحوار إلى مؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون . وقد اكتشفت أوجه الشبه بين الكتيب والبروتوكولات حيث تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور ، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه . والرأى السائد الآن أن نشر البروتوكولات وإشاعتها إنما كان يتم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية، ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والارستقراطية والكنيسة بتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية .

تحليل الخطاب

وقد قمنا بدراسة سريعة لعناصر الخطاب (الأسلوب والمفردات الخ ..) فى البروتوكولات ، فوجدنا أن هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنها وثيقة مزيفة :

١ - يلاحظ أن البروتوكولات وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة:

(أ) فكاتب الوثيقة لا يعرف شيئا عن المصطلح الدينى اليهودى ولا يستخدم أى كلمات عبرية أو يديشية . وهناك إشارتان للإله الهندى فشنو ، وإشارة واحدة لأسرة داود . وبطبيعة الحال يمكن إثارة القضية التالية : إذا كانت البروتوكولات وثيقة سرية ، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآرامية ليضمنوا عدم تسربها ؟

(ب) الموضوعات الأساسية المتواترة فى البروتوكولات موضوعات روسية ، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يسمى بالارستقراطية الطبيعية الوراثية وهناك هجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية ، مما يبين أن اهتمامات الكاتب روسية تماما وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية فى السنين الأخيرة من حكم النظام القيصرى .

(جـ) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية مما

يدل على التربة المسيحية الأرثوذكسية السلافية التى كانت تناصب الكاثوليكية العداء.

(ء) ثمة هجوم شرس على الماسونية وكانت الماسونية آنذاك جزءا لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية .

(هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلى ، وقد كان شخصية مكروهة تماما من النخبة الحاكمة فى روسيا لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزا منيعا ضد توسع الإمبراطورية الروسية..

٢ - كما أن نبرة البروتوكولات ساذجة للغاية ، فمن الواضح أن كاتبها الذى زيفها لا يجيد التزييف ، فقد حاول أن يبين خطر اليهود على المستوى العالمى . وحتى يعطى وثيقته درجة من المصداقية ، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدثون عن الخطر اليهودى حتى يبدو الأمر كله وكأنه «شهد شاهد من أهلها» ، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء فى عملية تزييفه هذه .

(أ) ففى الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ، ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية : «يجب أن يلاحظ أن ذوى الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوى الطبائع النبيلة» ، وهذه ملحوظة تبين الشر المتأصل فى صاحبها . ولكن السؤال البديهى الذى يطرح نفس هو : لماذا يصر كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء إلى حكماء صهيون ؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا يوجد شبهة فى شرهم ؟ ونفس السذاجة تتبدى فى

الملاحظة التي ترد بعد عدة صفحات حيث يقول كبير الحكماء : «إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد» . ومرة أخرى لماذا يكلف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات بمثل هذه البديهيات المتداولة بين الأشرار في كل زمان ومكان ؟ أم أنه لاحظ بعض علامات الخير بينهم فأراد أن يحذرهم منها ؟ !

(ب) يحاول واضع البروتوكولات أن يضخم اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم في البروتوكول الثاني كل شر : «نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل». ولكنه ينسى نفسه بعد قليل وتتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود في توجيه الاتهامات لأنفسهم في نفس البرتوكول الثاني : «من خلال الصحافة اكتسبنا نقودنا ، وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ، ولو أن ذلك قد سبب أنهاراً من الدم» . هذه عريضة اتهام موجهة للذات ، فلماذا يكلف كبير الحكماء خاطره ليقدمها لبقية أعضاء المؤتمر الذين يعرفون ذلك مسبقا ؟ ولماذا يصر على أن يخبرهم في البروتوكول الثالث أن «أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا . ونحن من ذلك الحين نقود الأمم من فشل إلى فشل ، حتى أنهم سوف يتبرأون منا ؟» من يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم

من «فشل إلى فشل» ويصر على أن هذه الحركة ستودى بالبشر أجمعين ؟ ثم يضيف فى البروتوكول التاسع : « إن لنـــا طمــوحاً لا يحد ، وشرها لا يشبع ، ونقمة لا ترحم ، وبغضاء لا تحس . إننا مصدر إرهاب بعيد المدى . وإننا نسخر فى خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب » . ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلى : لقد خدعنا الجيل الناشيء من الأمميين ، وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادىء» . ومن الواضح أنه لم يبق من التزييف سوى ضمير جماعة المتكلمين ، أما الباقى فهى اتهامات موجهة بالتآمر لليهود ، ينسبها كاتبها لهم حتى تبدو كما لو كانت صادقة .

الأفكار الأساسية

ويمكننا الآن أن نعرض للأفكار الأساسية فى البروتوكولات التى تؤكد أن السياسة لا تخضع للأخلاق ، وأن اليهود سينفذون مخططهم الإرهابى عن طريق الغش والخداع . فعلى مستوى المجتمع ، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة ، وبإشاعة الإباحية ، واستغلال الحريات العامة ، وتخريب المؤسسات المسيحية ، وإفساد أخلاق العالم المسيحى الأوربى . أما على مستوى الدولة ، فسيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب ، على ألا تؤدى هذه الحروب إلى تعديلات فى حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ، ليتمكن رأس المال

فقط من الخروج بالغنائم . وينبغى التركيز على المنافسة فى المجتمع ، وعلى تصعيد الصراع الطبقى ، ليجرى الجميع نحو الذهب الذى سيحتكره اليهود ، بطبيعة الحال ، وتصاب المؤسسات الدينية والسياسية بالاهتراء ويسود رأس المال كل شىء .

وتهتم البروتوكولات فى المراحل الأولى من المخطط بأن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وعلى كافة وسائل الإعلام، حتى لايتسرب إلى الرأى العام العالمى إلا ما يريدونه . كما أنها ترى ضرورة أن يسيطر اليهود على الدول الاستعمارية وأن يسخروها حسب أهوائهم . كما أنهم سيسيطرون أيضا ، بطبيعة الحال ، على الدول الاشتراكية المعادية للاستعمار . والبروتوكولات تجعل اليهود مسئولين عن كل شىء : عن الخير والشر ، وعن الثورة والثورة المضادة ، وعن الاشتراكية والرأسمالية . فالبرتوكول السادس ، مثلا ، يقول : « كى نخرب (أى نحن اليهود) صناعة الأغيار ، سنزيد من أجور العمال (اتجاهات اشتراكية) ونعرض الصناعة للخراب والعمال للفوضى (اتجاهات فوضوية) » .

واليهود مسئولون أيضاً عن انتشار كافة الأفكار الحديثة ، اليمينية منها واليسارية . فالبروتوكول الثانى يقول : «إن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل ، وسوف يكون الأثر غير الأخلاقى لهذه العلوم على غير اليهود واضحاً ، ولكن ينبغى علينا أن ندرس أثر ذلك على أخلاق الأمم والجماعات» .

ومن الواضح أن البروتوكولات ليست نقداً لليهود بمقدار ما هى تعبير عن إحساس الإنسان الأوربى فى أواخر القرن التاسع عشر بأزمته ، وبقدر ما هى تعبير عن إدراكه السطحى المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة في الغرب وبعد تفكك المجتمع التقليدى الذى كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة ، حتى وإن سلبه حريته وفرصه فى الحراك الاقتصادى . فالمجتمع الذى يحاول اليهود فرضه على العالم ، حسبما جاء فى البروتوكولات ، ليس عالماً شريراً بشكل شيطانى ميتافيزيقى ، وإنما هو فى الواقع العالم الغربى الصناعى الذى سادت فيه قيم العلمانية والنفعية . ومن هنا، كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود ، كما كان الجمع بين نيتشة وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما . فبرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين والاختلاف بين الفيلسوفين، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو نقطة التلاقى) هو تأسيس مجتمع علمانى يستند إلى قيمتى المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة .

وقد وُجد أعضاء الجماعات اليهودية فى مختلف القطاعات والاتجاهات ، شأنهم فى ذلك شأن أعضاء أى أقلية أخرى ، فكان يوجد أعداد كبيرة من كبار المولين الرأسماليين اليهود ، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة

والربا ، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وأكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً . بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية (غير الصهيونية) كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين) ، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية ، أو في شركة قناة بنما . وتركز بعض أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء كقوادين وعاهرات ، كما تركزوا في المجلات الإباحية . قد ربط هذا بين اليهودي من جهة وبين «اليمين» و «التحلل الرأسمالي» و «التفكك الليبرالي» من جهة أخرى .

ولكن إلى جانب ذلك ، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً : فقد كان أكبر حزب اشتراكي في أوربا هو حزب البوند اليهودي . وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصرية كانوا من الشباب اليهودي . وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩ ، كان رئيس الدولة يهودياً ، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة ، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي . كما أنه كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي . وفي نهاية الأمر ، كان هناك روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية ، وكان هناك ماركس رمزاً

للارتباط العضوى أيضاً بين اليهود والاشتراكية . ولذا ، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية» .

والواقع أن ما ساعد على إشاعة هذا النموذج التفسيرى الساذج هو أن الوجدان المسيحي كان يجعل من اليهودى قاتل الرب رمزاً لكل الشرور . وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى . ولذا ، كان هناك يهود فى كل مكان، يهود لا جذور لهم فى طريقهم من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة ، وكما هو معروف فإن الإنسان المهاجر المتنقل لا يلتزم بكثير من القيم . لكل هذا ، أصبح اليهودى رمزاً متعيناً لعملية ضخمة لم يكن الإنسان الأوربى يفهمها جيداً رغم شقائه الناجم عنها ، وهى الثورة العلمانية الكبرى (بشقيها الاشتراكى والرأسمالى) ، وهى ثورة لم يكن يشكل فيها اليهودى سوى جزء بسيط من كل ضخم مركب . بل إن العقيدة اليهودية ذاتها سقطت ضحية لهذه الثورة ، وفقدت قطاعات كبيرة من الجماعات اليهودية هويتها نتيجة لها .

والفكرة الأساسية فى البروتوكولات هى فكرة الحكومة اليهودية العالمية . لكن المعروف تاريخياً أنه لم يكن هناك سلطة مركزية تجمع كافة يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد بختنصر عام ٥٨٦ق.م وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودى فى العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومى ، وقد

كان لــكل أقلية محاكمهــا وهيئاتهــا الخاصة التى تقوم برعاية شئونها . ولكن اليهود لا يختلفون فى هذا عن أى أقلية دينية أو جماعة وظيفية أخرى .

وهنا ، يمكن أن نثير قضية مهمة هى قضية الوسائل : هل تشكل الجماعات اليهودية فى العالم من القوة ما يمكنها من تنفيذ هذا المخطط الإرهابى العالمى الضخم ؟ إن الدارس لتواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائماً قريبة من النخبة الحاكمة لا بسبب سطوتها أو سلطانها وإنما بسبب كونها أداة فى يدها ولأنها لم تكن قط صاحبة قوة مستقلة أو قرار مستقل .

والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها فى الإعلام المضادة للصهيونية أمر غير أخلاقى لأنها وثيقة مزورة ، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقــة صحيحــة . ولــكن ، وحــتى ولو كانت البروتوكولات وثيقة صحيحة، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأى العام الغربى الذى لا يؤمن بصحتها . كما أنه لايمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقياً عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم . وبسبب السمعة الشائنة للبروتوكولات فإن الصهاينة يصفون أى نقد موجه إليهم بأنه وقوع فى أحابيل البروتوكولات . ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء

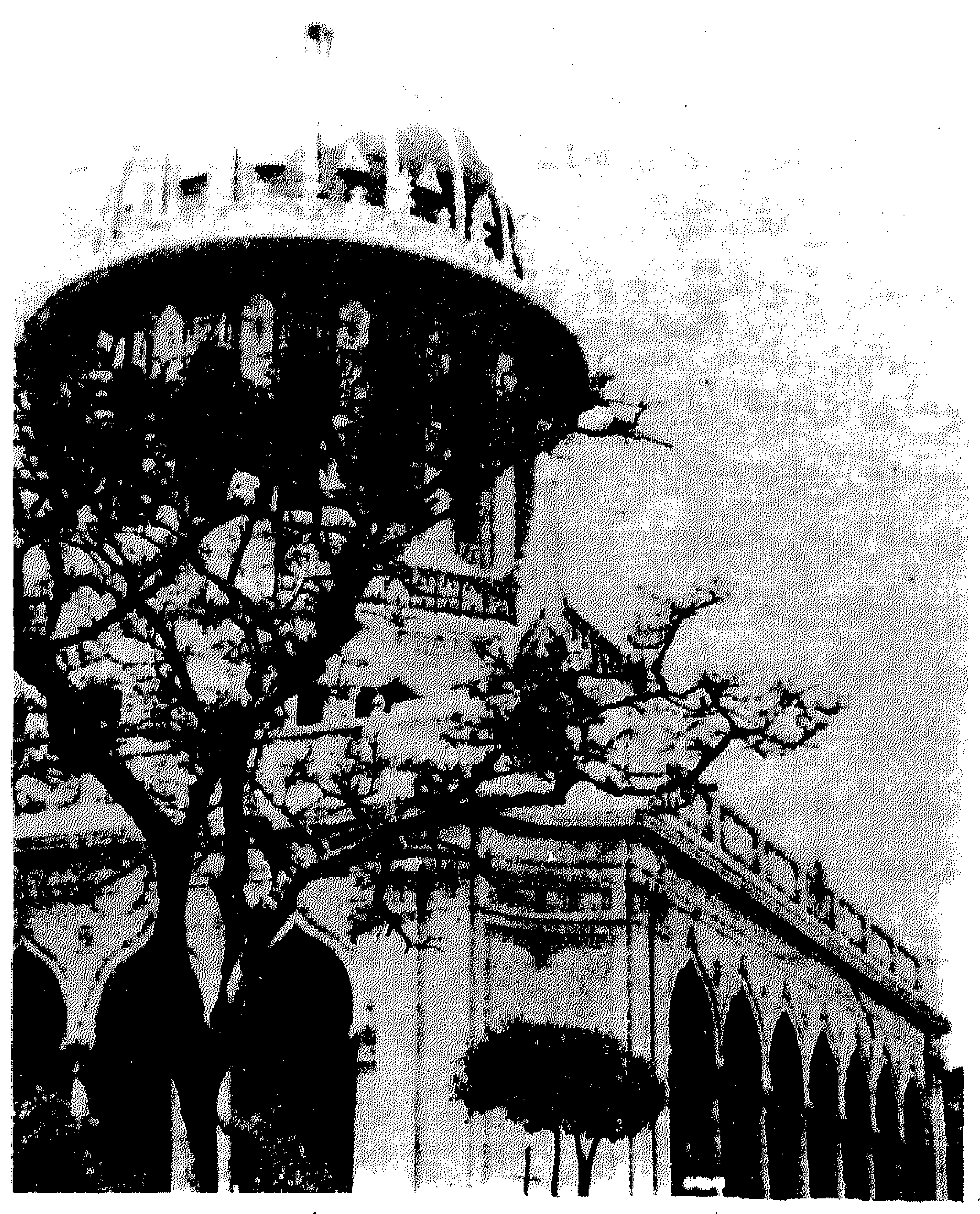
الجماعات اليهودية تحتوى على آراء أكثر تآمرية من البروتوكولات مثل ما يسمى كتاب التربية الذى يوزع فى إسرائيل فى الوقت الحالى كما يحوى التلمود وتراث القبالاه ، وهى كتابات يهودية لاشك فى يهوديتها ، مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة ، ولكن يبدو أن المروجين للبروتوكولات لا يعرفون عنها شيئاً ، وعلى كل فهى كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية شيئا وإنما لا يتداولها فى الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين فى كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد .

وثمة رأى بأن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات لأنها تخدم المشروع الصهيونى الذى يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين فى فلسطين المحتلة . كما أن كثيرا من الافتراضات الكامنة فى البروتوكولات ، مثل : «الشعب اليهودى» و «الشخصية اليهودية» و «المصالح اليهودية» هى كلها افتراضات صهيونية أساسية والهجوم عليها هو فى واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها .

وسواء أكان هذا الرأى الأخير صحيحاً أم كان كاذباً ، فإن ترويج البرتوكولات يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية . ويتم الآن فى العالم العربى تداول كم هائل من الكتابات (مثل أحجار على رقعة الشطرنج وغيرها) كل هدفها إشاعة الخوف من

اليهود والصهيونية بتبنى رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية . ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة فى العالم العربى فى الترويج لهذه البروتوكولات لتبرير العجز العربى والتخاذل أمام العدو الصهيونى وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأنه يمكن إلحاق الأذى بهم وهزيمتهم ، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ، ثم يفرون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره . والاستمرار فى إشاعة الرؤية البروتوكولية هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيونى والتنكر لإنجازات الانتفاضة .

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجه الاتهام إلى أى إنسان جزافاً وبدون قرائن ، كما لايمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسداً لفكرة إذ يظل كل إنسان مسئولا عن أفعاله . وقد عرّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات « خاصة من أهل الكتاب » فحدد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهى حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها . وفى الواقع ، فإن استخدام البروتوكولات لاتهام اليهود فيه سقوط فى العنصرية والعرقية التى تصنف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادى لا دينى مسبق وحتمى ولذا فهى لا تميز بين ما هو خير وما هو شر .



مقبرة ميرزا على محمد ، مؤسس

البهائية ، على جبل الكرمل (حيفا)

الفصل الثانى

البهــــــائية

يرى بعض أصحاب النموذج الاختزالى التآمرى أن أحد شواهد اشتراك اليهود فى المؤامرة اليهودية الكبرى هو ارتباطهم بالبهائية والماسونية ونوادى الروتارى . وسنحاول فى هذا الفصل (والذى يليه) أن نبين علاقة اليهود واليهودية بالبهائية والماسونية .

والبهائية عقيدة جديدة دعا إليها ميرزا حسين على نورى (١٨١٧ - ١٨٩٢) الذى كان يلقب «بهاء الله» وتعود جذور هذه العقيدة إلى البابية التى أسست عام ١٨٤٤ على يد ميرزا على محمد الشيرازى الذى نشأ فى وسط باطنى حلولى متصوف ، والذى أعلن أنه الباب (الطريق إلى الله) . وذهبت البابية إلى أن ثمة نبياً أو رسولاً جديداً سيرسله الإله . وكانت البهائية فى بداية أمرها شكلاً متطرفاً من أشكال عقيدة الفرقة الإسماعيلية ، ومن عقيدة الإمام الخفى الذى سيظهر ليجدد العقيدة ويقود المؤمنين .

وقد انتشرت البابية على رغم من تنفيذ حكم الإعدام فى الباب عام ١٨٥٠ وقتل ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه . وقد

قام البابيون بمحاولة اغتيال الشاه ، فنفى قائدهم أنذاك ميرزا حسين على إلى بغداد عام ١٨٥٣ . وفى عام ١٨٦٣ ، أعلن أنه رسول الله الذى تنبأ به الباب ، وقد أعلن عن رسالته بخطابات أرسلها إلى حكام كل من : إيران وتركيا وروسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا . واعترف به أغلبية البابيين الذى أصبحوا يسمون البهائيين . وقد نفى ميرزا حسين إلى عكا فى فلسطين . وقد توفى فى عام ١٨٩٢ وتحول قبره فى البهجى (أى الحديقة بالفارسية) إلى أقدس مزارات البهائيين ، وخلفه فى قيادة الجماعة البهائية أكبر أبنائه عباس أفندى الذى سمى عبدالبهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) ، والذى أصبح كذلك المفسر المعتمد لتعاليمه. وقد سافر عبدالبهاء إلى عدة بلاد لينشر تعاليم الدين الجديد من عام ١٩١٠ إلى عام ١٩١٣ وعين أكبر أحفاده شوجى أفندى ربانى (١٨٩٦ - ١٩٥٧) خليفة له ومفسراً لتعاليمه . وقد انتشرت تعاليم البهائية فى أنحاء العالم .

وكتب البهائية المقدسة هى كتابات بهاء الله التى كتبت بالعربية والفارسية ، مضافا إليها التفسيرات التى وضعها عبدالبهاء وشوجى أفندى . وتتضمن هذه الكتابات التى تزيد على المائة ، منها الكتاب الأقدس الذى يحوى كل مفاهيم مذهبه وكل تشريعاته ، وكتاب الإيقان ، وهو دراسة عن طبيعة الخالق والدين ومجموعة الألواح المباركة والإشراقات والبشارات وكتاب الأساس الأعظم وله قصيدة أسماها ورقائية .

وحدة الوجود

وجوهر البهائية هو الإيمان بالحلول الكامل أو بوحدة الوجود أى توحد الخالق بمخلوقاته . فالخالق هو جوهر واحد ليس له أسماء ولا صفات يمكن أن تصفه ولا أفعال ولا يمكن الوصول إليه (ولا توجد أدلة على وجوده أو غيابه مثل الإله الخفى فى الفكر القبالى أو الباطنى الغنوصى) . وهو إلى حد ما يشبه القوانين الطبيعية غير الشخصية التى لا علاقة لها بالأنساق الأخلاقية (كما هو الحال مع مفهوم الإله عند إسبينوزا). والخالق واحد ليس له شريك فى القوة والقدرة وهو الذى خلق الكون . ولكن هذا الكون ليس شيئا آخر سوى تجل للخالق ، بل إنه هو ذاته الخالق (أى أن الخالق ومخلوقاته مادة واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ) وقد لخصت هذه الحلولية فى القول البهائى الذى ينسب إلى الخالق : «الحق يا مخلوقاتى أنكم أنا» . والبهائية ، فى هذا لا تختلف كثيرا عن غلاة المتصوفة والباطنية ولا عن الفكر القبالى والغنوصى ، حيث لاتوجد أى مسافة أو ثغرة بين الخالق والمخلوق ، بل ثمة اتحاد وحلول وواحدية (على خلاف التصور الإسلامى للخالق الذى يرى أن الله قريب من عباده ولكنه ليس كمثله شيء ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ولكنه لا يجرى فى عروقنا ولا تدركه الأبصار) .

ولكن ، إذا كان الخالق هو مخلوقاته فإن كل الأشياء يحل فيها الخالق وتلفحها لفحة من القداسة . والحقيقة المطلقة تعبر عن نفسها من خلال الزمان وداخله ، ولا يختلف تجلي الرب في أي شئ عن تجليه في أي شئ آخر فتصبح كل الأمور مقدسة ومن ثم تصبح كل الأمور متساوية ، وفي نهاية الأمر تصبح كل الأمور نسبية ، أي أن المطلق المتجاوز يختفي في لحظة التحام الخالق بالمخلوق . وقد شاء الخالق (وإن كان يصعب في هذا السياق أن نتحدث عن «مشيئة الخالق» فهو لا يتجاوز مخلوقاته) أن يتجلى من خلال رسله، مثل : براهما وبوذا وزرادشت وكونفوشيوس وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليه الصلاة والسلام) . وتضم القائمة الباب ثم بهاء الله الذي تظهر من خلاله صفات الخالق بشكل أوضح وأجلى مما كانت عليه . بل إنه داخل الإطار الحلولي يكون بهاء الله هو ذاته الخالق ، ومن ثم وجه البهائيون سهام نقدهم إلى الفكرة الإسلامية الخاصة بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم المرسلين . ففي رأيهم أن كل عصر يحتاج إلى تجل إلهي. وثمة تشابه عميق هنا بين بنية البهائية واليهودية الحاخامية ، فكلتاهما تؤكد استمرارية الوحي الإلهي في التاريخ الإنساني أو استمرارية الحلول الإلهي في الحاخامات حسب النسق اليهودي ، وفي بهاء الله حسب النسق البهائي ، وهو تشابه سنلاحظه في جوانب أخرى

من النسقين الدينيين كما يلاحظ أن هذا التشابه يزداد عمقاً بين البهائية والقبالاه* . ومن المنظور البهائى ، فإن جوهر كافة الأديان واحد . ومع هذا ، فإن كل دين له سماته الخاصة التى تجيب حاجة كل زمان ومكان وتتفق مع المستوى الحضارى السائدفيه ، وحيث إن الخالق يكشف عن نفسه بشكل تدريجى ، فإن كل دين سيحل محله دين آخر ، بما فى ذلك العقيدة البهائية ذاتها - ولكن ذلك لن يتم قبل ألف عام .

ولكن مهمة الأديان فى هذا السياق هى خلق وحدة شاملة بين البشر تزداد اتساعا مع مرور الزمن ، فإبراهيم قام بتوحيد قبيلة ، وموسى قام بتوحيد شعب ، ومحمد (ﷺ) قام بتوحيد أمة ، أما المسيح فكان هدفه تطهير الأرواح وتحقيق قداسة الفرد ، وقد تحققت بالفعل مهمة كل تجل إلهى . ولكن هذا لايكفى إذ إن الحضارة - فى هذا التصور - وصلت إلى مرحلة أصبحت معها وحدة الإنسان (وبالتالى وحدة الأديان) مسألة ضرورية ، وهذه هى مهمة بهاء الله الذى ستتحقق على يديه وحدة الأديان وقداسة البشرية بأجمعها . وخالق العالم قد خلق الإنسان من خلال حبه له ، والإنسان هو أنبل المخلوقات جميعاً خلقه الإله ليعرفه ويعبده . وهذا أمر صعب فهمه فى إطار حلولى ، فالخالق هو المخلوق ، ومن ثم فإن عبد المخلوق الخالق فإنه يعبد نفسه أو يعبد قوة خفية لا يمكن

---

* التراث الصوفى اليهودى الذى يتسم بحلوليته الكاملة .

الوصول إليها تشبه قوانين الطبيعة .وثمة تذبذب حاد ومتطرف هنا، بين الذاتية المتطرفة والموضوعية المتطرفة ، تسم كافة الأنساق الحلولية الواحدية . ففى اليهودية نجد أن الشعب يتوحد تماما بالخالق ومن ثم تصبح إرادة الشعب من إرادة الخالق . بل إن الخالق يحتاج إلى الشعب لتكامله ، ولكن هذا الشعب لا إرادة له لأنه أداة فى يد الخالق.

ويميز البهائيون بين خمسة أنواع من الأرواح : الحيوانية ، والنباتية ، والبشرية وهذه كلها أوراح زائلة فانية ، (ولذا يذهب بعض دارسى البهائية إلى القول بأنها لا تؤمن بخلود الروح) ، وروح الإيمان وهى وحدها التى تمنح الروح البشرية الخلود ، ثم أخيرا الروح القدس وهى منطقة الحلول الكامل ووحدة الوجود حيث يصبح الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً (وهذه الهرمية لا تختلف كثيراً عن هرمية المنظومة الغنوصية والقبالية) . ويبدو أن الروح البشرية ، كالخالق ، ليس لها حدود واضحة ، إذ إن هذه الروح بعد أن تنفصل عن الجسد قد تحل فى شخص آخر وتأخذ شكلاً آخر من الوجود . والواقع أن فكرة تناسخ الأرواح سمة أساسية فى مختلف الأنساق الحلولية التى تنكر حدود الفرد وتنكر المسئولية الخلقية تماما ، كما هو الحال فى القبالاه .

بعض العقائد والشعائر

ولا يؤمن البهائيون بالجنة والنار ، فهما مجرد رموز لعلاقة الروح بالخالق ليس إلا ، فالقرب من الخالق هو الجنة والبعد عنه هو النار التى تؤدى إلى الفناء الكامل للروح . لكن الإيمان ، فى تصورهم كما أسلفنا ، هو الذى يضمن الخلود ، والخلود هو عبارة عن استمرار الرحلة نحو جوهر الخالق الخفى للاتحاد به . وفى داخل هذا النسق الحلولى ، لا يمكن أن يكون هناك مجال للثواب أو العقاب أو البعث . ولا يوجد فى البهائية كهنة أو قرابين ، فهم يشكلون ما يمكن تسميته بالثيوقراطية الديمقراطية والتى تتمثل فى هيئتين حاكمتين : إحداهما إدارية والأخرى تعليمية . أما الهيئة الإدارية ، فهى تتكون من المجالس الروحية القومية ، والمجالس المحلية التى تتكون من تسعة أشخاص (والتى يمكن تأسيسها أينما وجد تسعة بهائيين) وبيت العدل العمومى (وهو الهيئة العليا ولها سلطة تغيير كافة القوانين حينما تدعو إلى ذلك التغيرات الدنيوية ، فيمكنها أن تلغى القوانين التى وردت فى كتاب الأقدس وأن تصوغ قوانين جديدة لم ترد فيه) . ثم هناك الهيئة التعليمية (وهى الأخرى مكونة من بناء هرمى من المجالس والقادة) . ويتم انتخاب أعضاء المجالس الإدارية عن طريق الأعضاء ، ويعتبر الانتخاب شكلاً من أشكال العبادة وما الناخب سوى أداة الخالق ، ومن ثم لايكون العضو المنتخب مسئولا أمام ناخبيه .

ويصلى البهائيون يومياً (قبلتهم القدس) وبرغم أنه يفترض عدم وجود أماكن عامة للعبادة ، فإن كتاب الأقدس قد أوصى بتشييد معابد تسمى «مشرق الأذكار» وهو بناء من تسعة جوانب عليه قبة مكونة من تسعة أقسام وهى مفتوحة لكل أعضاء الديانات الأخرى . ويصوم البهائيون شهراً بهائياً (١٩يوما) كصيام المسلمين (ينتهى بعيد النيروز) ولا يشربون المشروبات الروحية ويجتمعون فى بداية كل شهر بهائى . ولهم قوانين خاصة بالميراث ، فالمعلم يرث جزءا من ثروة البهائى، ويتساوى الرجل بالمرأة فى كل شىء . وقد جعلوا الحج إلى مقام بهاء الله فى عكا . والتقويم البهائى يتكون من تسعة عشر شهراً ، والشهر يتكون من تسعة عشر يوماً ، ويبدأ العام البهائى فى ٢١ مارس أول أيام الربيع . ومن ناحية أخرى فإن التقويم البهائى يشبه التقويم الفارسى .

ويحتل الرقم ١٩ مكانة خاصة فى الفكر البهائى ، والبهائية، فى هذا ، تشبه تراث القبالاه والجماتريا الذى ركز على القيمة العددية للحروف ، فتحسب القيمة الرقمية للكلمات وتستخلص منها النتائج التى يريد أن يصل إليها المفسر (وهذه سمة متكررة أيضاً فى الأنساق الحلولية التى تدرك الكون من خلال نسق هندسى حتمى) فيقول البهائيون : إن عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ١٩ ، وأن كلمة (واحد) قيمتها العددية ١٩ (و= ٦، والألف =

١،ح =٨،د =٤) ويستخرج البهائيون من الرقم ١٩ براهين ودلائل على أشياء عديدة .

ويصعب حساب عدد البهائيين فى العالم ، ويقال إنه بين مليون ونصف .. ومليونين ، وكان يوجد عام ١٩٨٥ نحو ١٤٣ مجلساً روحيا قومياً يتبعها ٢٧٫٨٨٦ مجلساً محلياً فى ٣٤٠ بلدة مختلفة . وترجمت تعاليم البهائية إلى أكثر من ٧٠٠ لغة . وفى هذه الأيام تحقق العقيدة البهائية انتشاراً سريعاً فى أفريقيا والهند وڤيتنام حيث يصل عدد البهائيين إلى مئات الألوف . ويتحول عدد كبير من الهنود وسكان أمريكا اللاتينية الأصليين إلى البهائية. ففى بيرو وبوليڤيا ، على سبيل المثال ، توجد قرى بأكملها بهائية ، وقد اعتنق ملك سموا Samoa العقيدة البهائية ويمكن تفسير انتشار البهائية باعتباره تعبيراً عن ضعف كثير من الأطر الدينية التقليدية، وتعبيرا عن تزايد معدلات العلمانية ، إذ تؤدى هذه العملية إلى أن قطاعات كبيرة من المجتمع تفقد الإيمان بعقيدتها التقليدية ، ولكنها لا يمكنها التخلى عن الدين تماماً أو عن فكرة الخالق . والواقع أن رغبتهم العامة للإيمان تشبعها هذه العقيدة التى تستخدم الخطاب الدينى دون إشارة إلى عقيدة محددة أو طقوس محددة ، وهو عادة خطاب حلولى واحدى يصفى كل الثنائيات وأشكال التنوع إذ يتم اختزال الواقع إلى مستوى واحد ويتم رده إلى مبدأ واحد ، وهو الإله الحال الذى لا يختلف عن قوانين المادة الكامنة فيها ، ومن ثم

فهو خطاب دينى اسماً ولكنه مادى فعلاً ، إذ إن الخالق يصبح مخلوقاته أو يصبح قوة عامة مجردة غير شخصية مثل قوانين الطبيعة ، وفكرة التقدم . والبهائية فى هذا ، تشبه الربوبية والماسونية واليهودية التجديدية . وعند نشوب الثورة الإسلامية فى إيران ، كان يوجد ٣٠٠ ألف بهائى فى إيران يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والمال والأمن ، واستفاد نظام الشاه من وجودهم . وقد تعاون البهائيون مع الأسرائيليين وهم يديرون مؤسسة الأمن فى إيران ، وكانت لهم نشاطات أخرى . وقد حرم نشاطهم بعد قيام الثورة فى إيران .

البهائية واليهودية

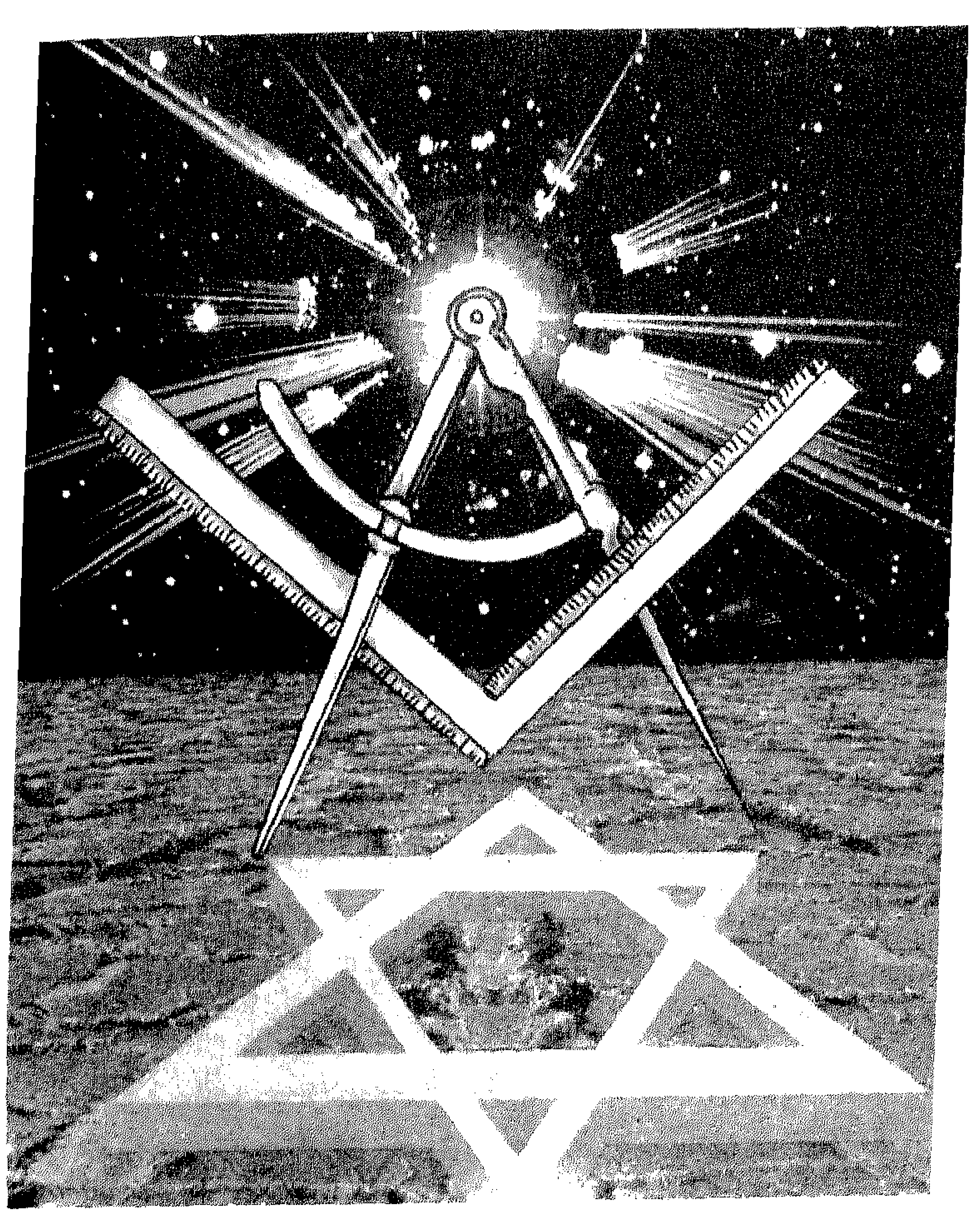
أما بخصوص علاقة البهائية بالعقيدة والجماعات اليهودية ، فقد بينا أن ثمة تماثلا بنيويا بين البهائية واليهودية فى جانبها الحلولى . ولعل هذا هو السر فى أن البهائية تجتذب كثيراً من اليهود . ففى إيران ، مهد العقيدة تبنى كثير من أعضاء الجماعة اليهودية البهائية ، مما جعل الحاخامات يحاربون ضدها بشراسة . وهذا هو موقف اليهودية الأرثوذكسية منها . وينطبق نفس الوضع فى الوقت الحالى على يهود الولايات المتحدة (الذين يتجهون أيضاً إلى الماسونية والعقائد الجديدة والغنوصية بأعداد كبيرة) .

والاحصائيات غير متوافرة ، ولكن من المعروف أن البهائية أصبح لها أتباع كثيرون فى منطقة مثل كاليفورنيا المعروفة بوجود كثافة يهودية عالية فيها) . ويناصب اليهود الأرثوذكس البهائية العداء . والأمر ليس مؤامرة بهائية ضد اليهودية ولا تحالفاً سرياً بهائياً ، وإنما هو تشابك بين نسقين عقيديين يستجيبان لنفس الاحتياجات ويجيبان عن نفس الأسئلة بنفس الطريقة السهلة . ومما يسهل عملية اعتناق اليهود للبهائية أن ثمة تعاطفاً يسرى فى العقيدة البهائية نحو اليهودية والدولة الصهيونية . فقد كان عباس أفندى يرى أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد ، ولكنه كان يرى أيضا أن النجاح الذى بدأ اليهود فى فلسطين يحققونه فى عهده دليل على عظمة بهاء الله وعلى عظمة دورته الإلهية ، وفى كتاب المفاوضات ورد ما يلى : « أنت تلاحظ وترى أن طوائف اليهود يأتون إلى الأرض المقدسة من أطراف العالم ، ويمتلكون القرى والأراضى ويسكنون ويزدادون يوماً بعد يوم حتى تصبح جميع أراضى فلسطين سكنا لهؤلاء » وهو بذلك قد أخذ العقيدة الألفية البروتستانتية وأعطاها بعداً بهائياً .

وفى ٣٠ يونيو ١٩٤٨ ، كتب أشوجى أفندى رباني ، زعيم الحركة البهائية آنئذ ، إلى بن جوريون يعبر عن ولائه وأطيب تمنياته من أجل رفاهية الدولة الجديدة مشيراً إلى أهمية تجمع اليهود فى «مهد عقيدتهم» . ومن المعروف أن مركز البهائية هو «بيت العدل»

الذى أعدت له بناية ضخمة فى حيفا على جبل الكرمل فى أبريل ١٩٨٣ ، والذى يديره تسعة بهائيين يتم انتخابهم . وقد قامت الجماعة البهائية بإعداد قصر ضخم فى حيفا حتى يكون مزاراً لكل بهائيى العالم .

ولكن هذا لايعنى بتاتاً أن كل البهائيين يؤيدون الصهيونية وإسرائيل . فالجماعات البهائية تدين بنفس العقيدة ، ولكن اتجاهاتها السياسية تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية . وما ينطبق على البهائية ينطبق على كافة الأديان ،فيوجد مثلا مسيحيون صهيونيون فى أوربا يؤيدون إسرائيل وترى بعض الفرق المسيحية الصهيونية في أمريكا أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى صهيون . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البهائيين العرب يؤكدون أنهم يدينون بالولاء إلى وطنهم العربى وحسب ، وقد يكون فى هذا بعض الصدق ، أو لعله من باب التقية (بمعنى الإيمان بشىء وإظهار شىء آخر) . والأمر مازال مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين .



بعض رموز الماسونية

الفصل الثالث

الماســــونية

ارتبطت فكرة المؤامـرة اليـهودية منذ القـرن الثـامن عـشـر بالماسـونيين والماسـونيـة . وتذكـر بروتوكـولات حكمـاء صـهـيون أن اليهود والماسونيين ، سيقومون بتخريب العالم . فأين الحقيقة وأين الوهم فى هذه المقولة ؟

كلمة «ماسونية» من الكلمة الإنجليزية «ميسون» Mason التى تكتب فى العربية خطأ «ماسون» لكن الخطأ شاع ، ولا حيلة لنا من اعتماده ومسايرته وهى تعنى «البناء» ، ثم تضاف كلمة «فرى» Free بمعنى «حر» وتعنى «البناء الحر» . وقد اختلف المفسرون فى تعريف أصل كلمة «حر» فيقال: إنها نسبة إلى «فرى ستون» Free Stone ، أى «الحجر السلس» وقد ورد فى مخطوطات العصور الوسطى اللاتينية عبارة «سكلبتور لابيدوم ليبيروروم Sculptor Lapidum Liberorum ، أى ناحت الأحجار الحرة . ولكن بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة «حر» تجىء لتمييز الـ «فرى ميسون» ؛ أى «البناء الماهر» ، فى مقابل الـ «راف أو رو ميسون» Rough orraw mason ، أى «البناء الخام غير المدرب .

وثمة رأى ثالث يذهب إلى أن الـ « الفري ميسون » هو عضو فى نقابة البنائين ، ولذا فهو «حر» أى أن من حقه ممارسة مهنته فى البلدية التي يتبعها بعد أن يكون قد تلقى التدريب اللازم . ويذهب رأى رابع إلى أن كلمة «فرى» إنما تشير إلى أن البنائين لم يكونوا ملزمين بالاستقرار في إقطاعية أو بلدية بعينها والارتباط بها ، وإنما كانوا أحراراً في الانتقال من مكان إلى آخر داخل المجتمع الإقطاعى . وإن صدق هذا التفسير ، فهذا يعنى أن البنائين كانوا مثل أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب والذين كانوا يعدون عنصراً حراً يمكنه الانتقال من بلد إلى آخر . وقد كان هذا حقاً مقصوراً على الفرسان ورجال الدين .

مشكلة التعريف

وتعرف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التى تمارس هذه التعاليم ، والتى تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين ، أى الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء .

وبعد أن أوردنا هذا التعريف الشائع ، فإننا سنكتشف فى التو أنه تعريف غير كاف البتة ، إذ إن الماسونية ، مثل اليهودية تركيب تراكمي جيولوجى مر بمراحل عدة فأصبحت عناصره تشبه الطبقات الجيولوجية التى تتراكم الواحدة فوق الأخرى دون أى

تفاعل أو تمازج . وبرغم اختلاف الطبقات ، فإنها تظل متعايشة ومتجاورة ومتزامنة داخل نفس الإطار . ومن ثم ، فبرغم أنه توجد كلمة واحدة أو دال واحد هو «الماسونية» يشير إلى ظاهرة واحدة ، فإن الماسونية في واقع الأمر هي عدة أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماماً ، لا تنتظمها وحدة . ومشكلة التعريف ، أي تعريف ، أنه يستخـــدم صيغة المفرد ، ومن ثم يفترض وحدة وتجانساً حيث لا وحدة ولا تجانس ، ويفترض وجود مدلول واحد للدال . وقد قيل في محاولة التوصل إلى حد أدنى مشترك بين كل الماسونيات أنه توجد ثلاثة عناصر تميزها ، وأول هذه العناصر هو وجود مراتب ثلاث أساسية يقال لها درجات ، وهي :

(أ) التلميذ أو الصبي (الملتحق) .

(ب) زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق) .

(جـ) البناء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة) .

وقد أضيف إلى هذه الدرجات الثلاث الأساسية درجة رابعة أخرى أساسية هي القوس المقدس الأعظم ، ثم هناك ما يقرب من ثلاث وثلاثين درجة أخرى في كثير من المحافل ، ويصل أحياناً عدد الدرجات إلى بضعة آلاف .

أما العنصر الثاني ، فهو الإيمان بالحرية والمساواة

والإنسانية . ولكن كثيرا من المحافل اتخذت مواقف عنصرية، فالمحافل الألمانية والإسكندنافية رفضت السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إليها ، والمحافل الأمريكية رفضت انضمام الزنوج . كما لم تنجح المحافل الماسونية في تجاوز الحدود القومية الضيقة ففي أثناء الحرب العالمية الأولى ، على سبيل المثال ، استبعدت المحافل البريطانية الأعضاء من أصل ألماني ونمساوي ومجري وتركي .

أما العنصر الثالث ، وهو العنصر الربوبي ، أي الإيمان بالخالق دون حاجة إلى وحي ، فإن محفل الشرق الأعظم في فرنسا رفض هذا الحد الأدنى تماماً عام ١٨٧٧ ، وترك لكل عضو أن يحدد بنفسه موقفه من هذه القضية ، وتم التأكيد على «التقوى الطبيعية» بدلاً من «الإيمان الحق» ، أي أن الماسونية الفرنسية تبنت صيغة علمانية كاملة مؤسسة على الفكر الهيومانى أو الإنسانى العلمانى .

وحتى نصل إلى تعريف دقيق مركب ، فإننا لابد من أن نأخذ في الاعتبار هذه الخاصية التراكمية الجيولوجية ، فندرس تراكم الطبقات الجيولوجية في تراكمها الواحدة فوق الأخرى ، والتي أدت في نهاية الأمر إلى ظهور الماسونيات المختلفة وصفاتها المتنوعة .

تاريخ موجز

تعود جذور الماسونية إلى جماعات أو نقابات الحرفيين فى العصور الوسطى الغربية الإقطاعية ، وهى جماعات كانت منظمة تنظيماً صارماً شبه دينى ، فكان لكل نقابة طقوسها الخاصة ورموزها الخفية وقسمها السرى وأسرار المهنة التى تحاول كل جماعة الحفاظ عليها . وهذه كلها أدوات لها وظيفة اجتماعية فى غاية الأهمية إذ إنه ، مع غياب المؤسسات التعليمية ، كان يتم توريث المعلومات والخبرات المختلفة الحيوية اللازمة لاستمرار المجتمع ، من خلال نقابات الحرفيين . وبدون هذه العملية ، لم يكن ممكناً للمجتمع أن يحقق أى استمرار . وكانت جماعات البنائين من أقوى الجماعات الحرفية ، ذلك أن العصور الوسطى كانت هى العصر الذهبى لبناء الكاتدرائيات والأديرة والمقابر . وكان البناءون يعيشون على أجرهم وحده ، على عكس الحرفيين الآخرين ، مثل النساجين والحدادين ، الذين كانوا يتقاضون من زبائنهم مقابلاً عينياً من خلال نظام المقايضة ، أى أن البنائين (مثل أعضاء الجماعات اليهودية) كانوا جزءاً من اقتصاد نقدى فى مجتمع زراعى . كما أن البنائين كانوا أحراراً تماماً فى حركتهم . فقد كان الحداد ، مثلا ، يقوم بعمله فى مكان ثابت ويقوم على خدمة

جماعة بعينها ، أما البنَّاء فكان عليه الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن عمل . ولذا ، يمكن القول إن البنائين كانوا من أكثر القطاعات حركية فى المجتمع الوسيط فى الغرب .

وكان على البنائين أن يجدوا إطاراً تنظيمياً يتلاءم مع حركيتهم ، فالنقابات الحرفية بتنظيمها المألوف كانت ملائمة للحرفيين الثابتين أما بالنسبة للبنائين ، فكان لابد من ابتداع إطار حركى خاص بهم . ومن هنا كانت فكرة البناء المؤقت الذى يقال له بالإنجليزية «لودج» Lodge أى «المحفل» . والمحفل هو عبارة عن كوخ يبنى من الطين أو مادة بناء أخرى تسهل إزالتها بعد الانتهاء من عملية البناء . وكان المحفل هو المكان الذى يلتقى فيه البناؤن حيث يتبادلون المعلومات ، ويعبرون عن شكواهم وضيقهم من أحوال العمل ، ويتبادلون الأخبار بل والمشروبات ، كما كان بوسعهم النوم فى المحفل وقت الظهيرة . كما كان العضو الجديد من جماعة البنائين يذهب إلى المحفل لمقابلة أبناء حرفته ، ومن هنا ظهرت فكرة السرية والرمزية ، إذ كان لابد من أن يتوصل هؤلاء البناءون إلى لغة أو شفرة خاصة بهم لا يفهمها سواهم ، ولا يمكن لصاحب العمل أو غير المشتغلين بحرفة البناء فهمها . وقد أخذت الشفرة شكل عبارات خاصة وطرق معينة فى المصافحة وإشارات بالأيدى الهدف منها أن يتمكن البنّاء من التفريق بين أبناء حرفته الحقيقيين

الذين تلقوا التدريب اللازم والذين ينتمون إلى نقابة الحرفيين وبين الدخلاء على الحرفة . وقد التزم البناءون بمجموعة من الواجبات ضمها ما يسمى «كتب الواجبات» أو «كتب التعليمات» أو «الدساتير»، ومن أهمها مخطوط ريجيوس الذى يعود إلى عام ١٣٩٠ . وتذكر كتب الواجبات أنه يتعين على البنّاء مساعدة زملائه وعدم ذمهم وعليه تعليم المبتدئين منهم ، كما أن عليه عدم إيواء الدخلاء . وتتحدث كتب الواجبات كذلك عن الأصول التاريخية أو الأسطورية لحرفة البناء التى يرجعون بها إلى مصر وإلى بناء هيكل سليمان . وثمة قصص أخرى وردت فى هذه الكتب عن «الأربعة المتوجين» وهم أربعة بنائين مسيحين قتلهم الرومان وأصبحوا شهداء ، ومن ثم فقد كان هؤلاء هم قديسى البنائين .

وقد ظلت نقابات البنائين مزدهرة حتى عصر النهضة فى الغرب فى القرن السادس عشر ، وهو أيضاً عصر الإصلاح الدينى، حين توقفت حركة بناء الكاتدرائيات وغيرها من المبانى الدينية الكاثوليكية . ولكن ذلك تزامن مع ظهور الدولة القومية المطلقة التى قامت بتأسيس مشاريع عمرانية ضخمة تحت إشرافها كسلطة مركزية ، ومن ثم بدأت الدعائم التى تستند إليها نقابات البنائين فى الاهتزاز شأنها فى هذا شأن كثير من الجماعات الحرفية والمؤسسات الإقطاعية الأخرى ، وبدأت فى التحول إلى جماعات

خيرية أو جماعات تضامن تحاول أن توفر لأعضائها بعض الطمأنينة النفسية وشيئاً من الأمن الاقتصادى . ومع تناقص العضوية ، بدأت النقابات تقبل في صفوفها أعضاء شرفيين ليحافظوا على الأعداد اللازمة ، ومن هنا بدأ التمييز بين البنائين العاملين أو الأحرار ، أى الذين يعملون بالحرفة فعلاً ، والبنائين المقبولين أو المنتسبين . وظهرت الماسونية الرمزية أو التأملية التى حلت محل الماسونية الفعلية ، بحيث تحول البنّاء وأدواته من وظيفة إلى رمز ، ولكن ، لم يكن البنّاء وأدواته المصدر الوحيد للرموز الماسونية ، فكما أسلفنا كان هناك سليمان وهيكله ، وهو يعتبر البناء الأول ، وهيكله هو رمز الكمال الذى يطمح أن يصل إليه كل البنائين أو الماسون . وكانت هناك رموز مسيحية كثيرة مأخوذة من تقاليد جماعات الفرسان التى انتشرت فى أوربا فى العصور الوسطى والتى يعود أصل معظمها إلى حروب الفرنجة والاستعمار الاستيطانى للفرنجة في فلسطين ، مثل جماعة فرسان المعبد (الداوية) وجماعة فرسان الاسعاف (الإسبتارية) وغيرهما . كما يحتل يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول مكاناً خاصاً ، وقد أسلفنا الإشارة إلى الأربعة المتوجين .

وقد يكون من المفيد (أو لعله من الطريف) أن نتوقف قليلا عند أحد الأصول المفترضة للحركة الماسونية وفكرها حسب بعض

مؤرخيها ، وهى بعض الجماعات الإسلامية (أو شبه الإسلامية) مثل الدروز والطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين . ويرى هؤلاء المؤرخون أن الحركة الماسونية استمدت بعض أفكارها ورموزها وطريقة تنظيمها من هذه الجماعات . فشيخ الجبل، رئيس جماعة الحشاشين، الذى يمسك كل الخيوط بيديه لا يختلف كثيرا عن رئيس المحفل، وطريقة العمل السرية وتجنيد الأعضاء الجدد وفكرة الدرجات التي تتبعها الحركة الماسونية لا تختلف كثيرا عن طريقة العمل والتجنيد فى هذه الجماعات . بل وتذهب بعض المراجع إلى أن جماعة فرسان المعبد التى اتخذت الحركة الماسونية كثيرا من رموزها رموزا لها هى فى الواقع الأصل الحقيقى للحركة الماسونية، وأن فرسان المعبد هؤلاء الذين بدأوا نشاطهم فى فلسطين إبان حروب الفرنجة، ثم انتقل نشاطهم إلى أوربا واستمروا فيه بعد سقوط كل جيوب الفرنجة فى فلسطين، هؤلاء الفرسان كانوا فى واقع الأمر مسلمين أو متأثرين بالفكر الديني الإسلامى وأنهم كانوا يحاولون من خلال تنظيمهم السرى / العلنى أن يسيطروا على العالم المسيحى . ومن المعروف أن جماعة فرسان المعبد كانت تكون شبكة ضخمة فى معظم أرجاء أوربا وأنه كان يتبعها مجموعة من المحاربين / الرهبان (الذين تأثروا بفكرة الجهاد الإسلامية) ومجموعة من المؤسسات المالية الضخمة ذات

نفوذ قوى . وقد تم ضرب فرسان المعبد فى فرنسا وفى كافة أنحاء أوربا وقدموا لمحاكم التفتيش وكانت إحدى التهم الموجهة إليهم هى رفضهم لألوهية المسيح وتأثرهم العميق بالفكر الدينى الإسلامى وتبشيرهم به، وقد اعترف بعض الفرسان بالتهم الموجهة إليهم . ويبدو أن فرسان المعبد قد تأثروا بالفكر الإسلامى أو المثل الإسلامية إبان وجودهم فى الشرق الأوسط ، كما أنهم تعاونوا بالفعل مع جماعة الحشاشين ودبروا معهم بعض المؤامرات . ومهما كان الأمر فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى بعض فرسان المعبد قد فر إلى اسكتلنده حيث أسسوا الحركة الماسونية للسيطرة على أوربا بعد أن تم ضربهم . وقد استطردنا فى الحديث عن فرسان المعبد والإسلام لنبين مدى تشابك أصول الماسونية وتركيبيتها . وقد اختلطت فلسفة البنائين بالفلسفة الهرمسية السائدة فى عصر النهضة فى انجلترا ، وهى فلسفة غنوصية ذات طابع أفلاطونى حيث ارتبطت بهرميس تريسميجيستوس ، وهو شخصية رمزية أساسية فى الفكر الغنوصى حيث كان يعد نبياً سبق المسيحية، وكان يعد رسول الآلهة للبشر ويحمل المعرفة الخفية الباطنية (الغنوص) . كما اختلطت فلسفة البنائين بالحركة الروزيكروشيانية ، والتى ورد أول ذكر لها فى القرن السابع عشر، وهى جماعة غنوصية تدعى أنها تمتلك الحكمة الخفية عند القدماء . وقد أدى تداخل رموز البنائين وأسرارهم مع الفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية ، إلى أن سقطت تماماً القيمة

الوظيفية لحرفة البناء ، كما سقطت أدواتها (الفرجار والذراع والبوصلة والمثلث والمئزر والمزولة) واكتسبت قيمة رمزية ، فتحول ميزان البنائين ، على سبيل المثال ، إلى رمز العدالة ، وتحول الفادن (وهو خيط رفيع فى طرفه قطعة من الرصاص تمتحن به استقامة الجدار) إلى رمز استقامة الحياة وأفعال الإنسان .

وهكذا تشكلت الطبيعة الجيولوجية المركبة لرموز الماسونية التي ضمت رموزاً من الديانات المصرية القديمة ، كما ضمت كلمات عبرية بتأثير من القبالاه التى دخل كثير من أفكارها على الماسونية .

والواقع أن اختلاط فكر البنائين بالفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية يصلح مؤشراً على اتجاه الماسونية ، فهذه الفلسفات ، برغم شكلها الصوفى ، كانت جزءاً من الثورة العقلانية المادية الكبرى التى تفجرت في الغرب فى القرن السادس عشر ، والتى كانت تهدف إلى إزاحة الخالق من الكون أو وضعه فى مكان هامشي ووضع الإنسان فى المركز بدلاً منه ، على أن يقوم الإنسان بالتحكم الكامل فى الكون عن طريق اكتشاف قوانين الطبيعة الهندسية والآلية ، وهى بهذا ، غنوصية جديدة تهدف إلى التحكم فى الكون ، لا من خلال المعرفة الخفية وإنما من خلال الصيغ العلمية . وعلى كل، كانت المعرفة الخفية تأخذ ، فى كثير من الأحيان ، شكل صيغ رقمية أقرب إلى المعادلات الجبرية .

وفى العصور الوسطى ، كان الوجدان الشعبى يرى أن مثال الغنوصية هو الدكتور فاوستوس الذى باع روحه للشيطان فى سبيل المعرفة الكاملة وفاوستوس هو بطل التفكير العلمى ، تنسب إليه النزعة الفاوستية التى تسم الفكر العلمى والثورى . وربما تكون مركزية رموز آلات البناء تعبيراً عن النسق الهندسى والآلى الكامن فى الماسونية، وعن رغبة التحم فى كل من الذات الإنسانية والكون من خلال صيغ رياضية (ولعل المقارنة هنا مع فلسفة إسبينوزا وطموحه نحو لغة رياضية هندسية دقيقة ذات دلالة عميقة) .

لا يمكن ، إذن ، فهم الماسونية إلا بوضعها فى هذا السياق الفكرى وكما يعرف دارسو تاريخ أوربا فإنه بعد انحسار فكر عصر النهضة ، ولد فكر عصر العقل والاستنارة والإيمان بالقانون الطبيعى، والعقلانية المادية هى نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) والإيمان بفعالية القانون الطبيعى فى كافة مجالات الحياة وإنكار أى غيب ، وإلا لما أمكن التحكم فى الكون وتوظيفه واستخدامه وتحويله إلى مادة استعمالية . وقد انعكس هذا فى فكرة الإنسان الطبيعى (العقلانى) أو الأممى ، وهو إنسان عام لا يتميز عن أى إنسان آخر ، صفاته الأساسية عامة ، أما صفاته الخاصة فلا أهمية لها . وهو إنسان عقلانى إن أعمل عقله بما فيه الكفاية لتوصل إلى نفس الحقائق التى يتوصل إليها الآخرون - بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن ثم ، يمكن لهذا الإنسان أن يصل

إلى فكرة الخالق بعقله دون حاجة إلى وحى إلهى أو معجزات أى دون الحاجة إلى دين مرسل ، أى أن الإنسان الطبيعى العقلانى العالمى (الأممى) يمكنه أن يتوصل بعقله إلى الإيمان بدين طبيعى عقلانى عالمى .

ويمكن القول إن الدين الطبيعى ، أو «الربوبية» كما كانت تدعى ، هو تعبير عن معدل منخفض من العلمنة أو تعبير عن عقلانية مادية جنينية ، فهى تستجيب لحاجة أولئك الذين فقدوا إيمانهم بالدين التقليدى ولكنهم لايزالون غير قادرين على تقبل عالم اختفى منه الخالق تماماً ، أى أنهم بشر جردوا العالم من الدين والقداسة واليقين المعرفى والأخلاقى ولكنهم احتفظوا بفكرة الخالق فى صيغة باهتة لا شخصية ، حتى لايصبح العالم فراغاً كاملاً .

والفكر الربوبى لايطالب من يؤمن به أن يتنكر لدينه ، إذ إن المطلوب هو أن يعيد المؤمن تأسيس عقيدته ، لا على الوحى وإنما على قيم عقلية مجردة منفصلة تماماً عن أى غيب ، أى منفصلة عن الأنساق الدينية المألوفة للتفكير . فالربوبية ، فى واقع الأمر ، هى فلسفة عقلانية مادية تستخدم خطاباً دينياً ، أو ديباجات دينية ، للدفاع عن العقل المحض ، وعن الرؤية التجريبية المادية ومن ثم ، فهى وسيلة من وسائل علمنة العقل الإنسانى .

فى هذا الإطار الفكرى والفلسفى والدينى ، ولدت الماسونية

وقد تم تأسيس أربعة محافل متفرقة فى انجلترا فى القرن السابع عشر ، جمعها كلها محفل واحد مركزى تأسس عام ١٧١٧ مع بدايات عصر العقل . ويعد هذا التاريخ هو تاريخ بدء الحركة الماسونية ، وقد سمح اليهود بالالتحاق بها عام ١٧٣٢ . ودخلت الحركة الماسونية فرنسا عام ١٧٢٥ ، وإيطاليا عام ١٧٣٣ ، وألمانيا عام ١٧٣٣ .

الماسونية العقلانية

وإن أردنا تلخيص فكر أولى الماسونيات التى نقابلها ، ولنسمها «الماسونية العقلانية أو الماسونية الربوبية» ، لقلنا إنها تنادى بتوحيد كل البشر من خلال العقل ، كما تنادى بإسقاط الدين مع الاحتفاظ بالخالق خشية الفوضى الفلسفية الشاملة .

ولذا ، فقد جاء فى تعريف الماسونى أنه «ذكر بالغ يلتزم بالنسق الدينى الذى يوافق عليه جميع البشر» ، وهذا هو الإيمان بالخالق أو الكائن الأسمى (مهندس الكون الأعظم) ، أو الإيمان بالجوهر العقلى للدين والذى يمكن للعقل أن يصل إليه . ويوسع العضو أن يحتفظ لنفسه بأى آراء دينية خاصة أخرى ، على أن يعلن عن تسامحه لكل الأديان وعن إيمانه بأبوة الرب وأخوة البشر

وخلود الروح . وقد جاء فى الدستور الماسونى لعام ١٧٣٣ الصادر فى إنجلترا أن الماسونى «لا يمكن أن يكون كافراً غبياً ، أو يكون فاسقاً غير متدين» ، وعليه أن يحترم السلطات المدنية ، ولا يشترك فى الحركات السياسية . وتدعو الماسونية إلى مجموعة من الصفات العامة التى لا تغير كثيراً من هذه البنية الفكرية التحتية ، فهى تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والمحبة والمساواة ، والعون المشترك وخدمة الغير وحسن معاملتهم ، وحب الجماعة وتبادل المصالح والتحلى بالفضائل المدنية ، أى الفضائل التى يتسم بها المواطن الذى ينتمى إلى الدولة القومية (فى مقابل الفضائل الدينية لدى الإنسان المتدين الذى ينتمى إلى الكنيسة ويؤمن بعقيدة منزلة) كما تقدس الماسونية الملكية الخاصة . وليس للماسونية أى هدف نهائى طوباوى محدد ، وإن كان ثمة هدف ، فهو عام غير محدد ، وهو أن يكون العالم فى النهاية فى اتحاد أخوى وإلهى . (ولعلنا نلاحظ هنا النموذج الحلولى الواحدى الكامن) .

ويمكننا أن نقول إن الماسونية الربوبية هى ماسونية الفكر المركنتالى والدولة المطلقة ، وماسونية الطبقات الأرستقراطية التى احتضنت الطبقات الوسطى الصاعدة باعتبارها قوة تستخدمها وتوظفها لصالح الدولة القومية المطلقة دون أن تسلمها صولجان الحكم والقيادة . وقد اكتشف الإنسان الغربى ، منذ عصر نهضته ،

بعد ظهور ماكيافللي وهوبز وفكرة القانون الطبيعي وضعف الإطار المسيحي التقليدي وانكماش سلطة الكنيسة الدنيوية ، وأن المطلق الوحيد هو الدولة وأن مصلحتها العليا هي المطلق الأخلاقي الأسمى . ومثل هذه الفلسفة تضع الخالق والغيب في موضع هامشي ، بل والأهم من هذا أنها تعلمن الإنسان وتجعله يستبطن هذه القيمة المطلقة حتى يخضع لإرادة الدولة بدلاً من إرادة الخالق . لكن كل هذا يتم داخل إطار عقلاني هادئ يشجع على تطويع الإنسان وتطبيعه ، والدولة المطلقة هي إطار يضم كافة الطبقات تحت قيادة هذه أو تلك الملكية المطلقة ، أو أي ملكية أخرى في مواجهة الكنيسة التي لاتزال تحاول الحفاظ على سلطانها الدنيوي. ومن ثم ، نجد أن أعضاء الأرستقراطية انضموا إلى الحركات الماسونية ، فقد انضم إليها ملكا بروسيا فريدريك الثاني وفريدريك الثالث ، وملوك شبه جزيرة إسكندنافيا ، وملك النمسا جوزيف الثاني ، ونابليون وأفراد عائلته ، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون في شيء من الحراك الاجتماعي . ويمكن تفسير انضمام أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية وأعضاء الأرستقراطية إلى الجماعات الماسونية من نفس المنظور . وكان كثير ممن يطلق عليهم مثقفو الطبقة الوسطى الصاعدة من الماسونيين . كما يمكن أن نذكر من أعضائها ڤولتير والأنسيكلوبيديين (الموسوعيين) وفختة وجوته وهردر ولسنج

وموتسارت ، وأعضاء الجمعية الملكية فى إنجلترا ، وجورج واشنطن ، وما تزينى وغاريبالدى .

وفى عشية الثورة الفرنسية ، كان يوجد فى فرنسا نحو خمسمائة محفل ماسونى . كما يقال إن نصف أعضاء الجمعية العمومية فى فرنسا ، عشية الثورة ، كانوا من الماسونيين . ولكن يجب ملاحظة أن الماسونيين فى فرنسا فى تلك المرحلة لم يكونوا من غلاة الثوريين (الجمهوريين) ، بل كانوا من دعاة الإصلاح بلا ثورة . ولذلك فقد هاجر كثير منهم من فرنسا بعد تصاعد حمى الثورة .

ويمكن القول إن الماسونيين كانوا من أعضاء طبقات أو فئات هامشية تود أن تحقق شيئاً من الحراك والمركزية ، أو كانوا أعضاء هامشيين أو فئات هامشية فى طبقات مركزية ويودون أن يحققوا قدراً من الحراك من خلال الانضمام إلى تجمع أكبر ، أو كانوا من أعضاء الارستقراطية الذين أرادوا أن يستخدموا القوة الماسونية وأن يوظفوها لصالحهم الشخصى أو لصالح الدولة المطلقة. وربما يعود شيوع الماسونية فى القرن الثامن عشر إلى سببين أساسيين : أولهما ، شيوع الفلسفات العقلانية المعادية للكنيسة والطبقات الإقطاعية . ولكن هذه الفلسفات لم تكن بعد ثورية أو إلحادية ، فقد كانت تعبر عن مصالح الطبقة الوسطى الصاعدة ، وعن رؤيتها التجارية العقلانية المادية للكون ، دون أن تعلن صراحة

عن ماديتها إذ إنها كانت أضعف من أن تفعل ذلك . أما السبب الثاني ، فهو عدم تجانس رموز الحركة الماسونية ، الأمر الذي لعب دوراً حيوياً في زيادة مقدرتها التعبوية على مستوى كل الطبقات . وقد كانت الماسونية ديمقراطية تقوم بتجنيد أعضائها من كافة الطبقات ، ولكنها كانت في ذات الوقت أرستقراطية يترأسها الملك وأعضاء النخبة ، وتأخذ شكلاً هرمياً جامداً . وكانت ليبرالية تدعو إلى الأخوة والمساواة ، ولكنها كانت في ذات الوقت محافظة تدعو إلى عدم التعرض للسلطات الحكومية أو الخوض في الأمور السياسية . وكانت الماسونية في تلك المرحلة حركة إيمانية ربوبية ، ولكنها كانت تحوي داخلها كل معالم التفكير الإلحادي الذي يسقط الإله تماماً . وكانت عقلانية ذات رموز صوفية ، وتضم أفكاراً عالمية ومحلية . وربما جعلتها هذه الصيغة الإسفنجية تحقق هذا النجاح الباهر ، فهي تستخدم ديباجات دينية ضبابية لتحقيق أهداف إلحادية .

ولكن الماسونية هي بنت محيطها الحضاري التاريخي والجغرافي ، فقد كانت ألمانية في ألمانيا وإنجليزية في إنجلترا وفرنسية في فرنسا . ولذا ، فقد تغيرت هي ذاتها مع تغير أوربا . كما نجد أن تصاعد قوى الطبقة الوسطى ومعدلات العقلانية المادية والإلحاد قد انعكس على الفكر الماسوني وتنظيماته ، فاكتسب كثير

من المحافل الماسونية مضموناً ثورياً ، خصوصاً في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وأصبحت هي الأداة الكبرى في الحرب ضد الكنيسة ، وفي المطالبة بفصل الدين عن الدولة . هذا على عكس المحافل الماسونية في البلاد البروتستانتية حيث ظلت معتدلة تدور داخل إطار ربوبي .

الماسونية الإلحادية

وفي هذا الإطار الجديد ، ظهرت الماسونية الثانية التي تتخذ موقفاً إلحادياً أكثر صراحة ، فقرر محفل الشرق الأعظم في فرنسا عام ١٨٧٧ استبعاد أي بقايا إيمانيه من الفكر الماسوني . وظهرت محافل ذات طابع ثوري مثل النورانيين (الإليوميناتي) في بافاريا ، وقبلها المارتينيست في فرنسا ، وكانت المحافل الماسونية في روسيا القيصرية (الأرثوذكسية) خلايا ثورية ، وكان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين من الماسونيين .

ويلاحظ أن الماسونية الثانية ، وهي ثورية إلحادية ، تنتشر في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، أي البلاد التي توجد فيها كنيسة قوية تقف ضد الفلسفات العقلانية البورجوازية والثورية العمالية . كما يلاحظ أن المحافل الماسونية في هذه البلاد ، كما هو

الحال فى أمريكا اللاتينية ، تتسم بثورتها وعدائها للكنيسة والكهنوت ، كما تتسم بارتباطها الواضح بالفلسفة الوضعية التى تجعل العلم هو الأساس للقيمة والأخلاق . كما أن الكنيسة ، بدورها، تناصب الحركة الماسونية العداء . وبمرور الزمن ، أصبحت المحافل الماسونية تضم عناصر البورجوازية والطبقة الوسطى ، ولم يعد يتضم إليها أىّ مفكرين ، كما اختفى منها كذلك أعضاء الأرستقراطية (ومع هذا لابد من الإشارة إلى أن أحد المراجع يشير إلى أن عددا لا بأس به من دعاة الوضعية فى العالم الثالث أعضاء فى المحافل الماسونية) . وبرغم كل هذا ، فإن عضوية المحافل الماسونية ظلت ، من ناحية الأساس ، مقصورة على العناصر البورجوازية المعتدلة التى ترفض الدخول فى أى مغامرات سياسية ، والتى تود أن تعيش فى عالم عقلانى مادى ولكنها لاتريد مواجهة النتائج الفلسفية الناجمة عن ذلك ، وربما يفسر هذا سر تصدى البلاشفة للجماعات الماسونية وحظرهم إياها .

وقد انتشرت الماسونية فى البلاد البروتستانتية لأن البروتستانية هى شكل من أشكال علمنة المسيحية الكاثوليكية ، كما أن معدلات العقلانية المادية مرتفعة فيها . فقد انتشرت بسرعة فى الجزر البريطانية بسبب عدم وجود كنيسة مسيطرة على جوانب الحياة ، وبسبب انخراط الطبقة الحاكمة فى صفوف الماسونية .

وقد انتشرت الماسونية مع اتساع الإمبراطورية الإنجليزية ، فانتقلت إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومصر وفلسطين والهند وغيرها من المستعمرات أو المحميات . وقد احتفظت الحركة الماسونية بطابع هادىء مهادن داخل التشكيل البروتستانتى .

ولكن الماسونية البريطانية لم تكن هى الماسونية الوحيدة التى انتشرت فى المستعمرات ، إذ إن الصراع الإمبريالى على العالم انعكس من خلال صراع بين الحركات والمحافل الماسونية ، فكان كل محفل ماسوني يخدم مصلحة بلد ويمثله - تماماً كما حدث صراع بين المبشرين البروتستانت والمبشرين الكاثوليك الذين كانوا يمثلون مصالح بلادهم . ويبدو أن بعض الشخصيات المهمة فى العالم العربى أرادت أن تستفيد من هذا الصراع ، خصوصاً أن أعضاء هذه المحافل كانوا من الأجانب ذوى الحقوق والامتيازات الخاصة المقصورة عليهم . فكان الدعاة المحليون ينخرطون فى هذه المحافل بغية توظيفها فى خدمة أهدافهم ، وحتى يتمتعوا بالمزايا الممنوحة لهم . وكان من بين هؤلاء الأفغانى والشيخ محمد عبده والأمير عبدالقادر الجزائرى . ولعل هذه الشخصيات الدينية والوطنية حذت حذو ماتزيني وغاريبالدى وغيرهما ممن حاولوا الاستفادة من أى أطر تنظيمية قائمة . ولنا أن نلاحظ أن الأفغانى قد اكتشف حقيقة الماسونية فى وقت مبكر ، وتوصل إلى الأسس

العقلانية المادية التى يقوم عليها خطابها الدينى ، ومن ثم ناهض هذه الأفكار في كتابه الرد على الدهريين . أما عبدالقادر الجزائرى فلا توجد تفاصيل حول علاقته بالماسونية وإن كان قد حاول إيجاد أطر تنظيمية وتأسيسية لحركته مع الاستفادة من أسلوب التنظيمات الماسونية وقد انضم إلى الحركة الماسونية الأمير حليم وهو ابن محمد على باشا الذى كانت له مطالب فى عرش مصر ، وقد كان أستاذا أعظم لمحفل الشرق الأعظم المصرى وتبعه في ذلك عدد من أعضاء الأسرة المالكة . كما انضمت إلى الحركة الماسونية شخصيات أخرى مثل سعد زغلول ويوسف وهبى . ولكن ارتباط أمثالهما بالحركة الماسونية كان واهيا للغاية ولايعدو قبولهم ذكر اسمائهم ضمن قائمة الأعضاء أو حضور اجتماع يعقد على شرفهم كما أن الحركة الماسونية ظلت فى مصر وغيرها ضعيفة تضم في صفوفها الأجانب أساساً .

حركة سريّة

ويمكننا الآن طرح قضيتين مهمتين هما : النفوذ السياسى والاقتصادى للماسونية وسرية حركتهم ، وهما عنصران مترابطان تمام الترابط ، فالحركات الماسونية تتركز في بلاد غربية متقدمة تحكمها حكومات مركزية قوية ، وتخضع فيها كافة الحركات السياسية والاجتماعية للمراقبة ، وإلاّ لما أمكنها تسيير دفة الحكم .

ولا يمكن في الحقيقة تصور وجود حركات ضخمة لها قوة فعالة لا تخضع للإطار العام الذى تفرضه مثل هذه الدول المطلقة الرشيدة ، فعملية التنبؤ والتخطيط تتطلب مثل هذا التحكم ومثل هذه المعرفة . والمحافل الماسونية تخضع لهذا القانون العام ، ولم يكن من الممكن أن تشكل استثناء له . لكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من تسلل بعض العناصر المغامرة إلى بعض المحافل لتوظيفها بشكل أو بآخر، من خلال شبكة اتصالاتها ، في الاحتيال أو الأعمال الإجرامية . وهذا هو بالضبط ما تفعله ، على سبيل المثال ، عصابات المافيا (الجريمة المنظمة) مع الجهاز التنفيذى فى الولايات المتحدة إذ تستأجر كبار المحامين وتشترى القضاة وتجند ضباط الشرطة ، أى تقوم بتوظيف الجهاز الذى أسس لمكافحتها والقضاء عليها لتنفيذ أهدافها الإجرامية . وكل هذا لا يعنى وجود مؤامرة مافياوية للاستيلاء على العالم . وكذلك الجماعات الماسونية ، فإنها إذا ما تحولت إلى قوة ضغط (لوبى) ، فإنها لا تختلف كثيراً عن مراكز الضغط الأخرى داخل النظام السياسى والاقتصادى وإن أخذ نشاطها شكلا تآمريا أو إجراميا فى بلد ما ، فلا يصح التعميم من هذه الوقائع . وافتراض وجود مثل هذا النشاط على مستوى العالم بأسره . فعلى سبيل المثال لوحظ أنه قد بدأ يظهر تحالف بين بعض المحافل الماسونية وعصابات المافيا فى إيطاليا وقد بدأوا فى السيطرة على بعض المؤسسات المالية الشرعية

ليمارسوا نشاطهم غير الشرعى وراء ستار ولكن هذا النمط لم يلاحظ تكراره فى أى بلد آخر .

وقد وصفت الولايات المتحدة بأنها ديمقراطية جماعات الضغط ، ولابد أن المحافل الماسونية تشكل إحدى هذه الجماعات التى تعمل داخل النظام ، فهذا هو المتوقع منها . وهذا هو «قانون اللعبة» ولا يمكن فى هذا السياق أن نتحدث عن مؤامرة خفية أو علنية . ومن الناحية النظرية ، يمكن أن نقول أن المحافل الماسونية بوسعها أن تمارس ضغوطاً ضخمة فى العالم الثالث، نظرا لضعف جهاز الدولة المركزى ولكن ، بحسب ما هو متوافر لدينا من معلومات، لا توجد حكومة واحدة بعينها فى بلاد العالم الثالث خاضعة لمثل هذه الهيمنة الماسونية الاحتمالية . ولا توجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم، بل ويختلف تركيب الحركة من بلد إلى آخر ، فلا توجد على سبيل المثال سلطة ماسونية مركزية فى أمريكا أو كندا إذ إن التنظيم الفيدرالى فى هاتين الدولتين انعكس على شكل تركيب الحركة الماسونية ، على عكس الوضع فى انجلترا وفرنسا، حيث توجد حكومة مركزية قوية ومن ثم محفل مركزى قوى .

أما بالنسبة إلى سريّة المحافل ، فهذا أمر مركب أيضا ، فالجمعيات الماسونية سرية بمعنى أن طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرية ، ومن ينضم إلى الحركة يقسم على ألا يكشفها

(وهذا ميراث العصور الوسطى) . ولا تسمح الحركة الماسونية لأى شخص بالانضمام إليها ، وإنما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين ، والحركة الماسونية لا تختلف فى هذا عن كثير من النوادى الخاصة وغيرها من المؤسسات . كما أن المحافل تخفى بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلى حين التأكد من ولائهم ، وما عدا ذلك فلا يوجد أى شئ سرى إذ يتم تأسيس المحافل الماسونية بموافقة السلطات وكل اجتماعاتها معروفة سلفا لدى هذه السلطات ، كما أن أعضاء المحافل معروفون فى أغلب الأحيان لدى الحكومة . والمحافل الماسونية لا تخفى وجودها أو أهدافها أو عملها . وحينما صدر قانون منع الجمعيات السرية فى إنجلترا عام ١٧٩٨ ، استثنيت المحافل الماسونية من ذلك . ويمكن لأى باحث أن يطالع أرشيف محفل الشرق الأعظم فى فرنسا . كما أن كثيراً من المحافل الماسونية تقدم مضابط اجتماعاتها إلى السلطات الحكومية .

ولكن، مع هذا ، تضطر بعض المحافل الماسونية إلى إخفاء اسماء أعضائها خوفاً من السلطات الحكومية فى البلاد التى تلعب فيها هذه المحافل دوراً انقلابياً . ولابد أن نضيف هنا أن المحافل الماسونية تم إغلاقها فى مصر لأنها رفضت أن تخضع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعية نظراً لأن هذا يتعارض مع ما تتطلبه الحركة من سرية وكتمان بخصوص الطقوس . ورغم أن هذا هو

رأينا ، إلا أننا نود أن ننبه إلى أن نموذجنا التفسيرى ليس كاملاً ، فهناك من الحوادث والوقائع ما لا يمكن تفسيره من خلال نموذجنا. فعلى سبيل المثال من المعروف أن عددا كبيرا من رؤساء الجمهورية فى الولايات المتحدة (بما فى ذلك چورج واشنطن) كانوا من الماسونين ولذلك سميت أمريكا بالجمهورية الماسونية . وكان عدد كبير من قادة الثورة الفرنسية أيضا من الماسونين . والواقع أن هناك شخصيات مهمة فى كثير من الحكومات الغربية فى المعسكر الرأسمالى أو الحكومات الشرقية فى المعسكر الذى كان اشتراكيا أعضاء فى المحافل الماسونية ، ولكن عضويتها تظل طى الكتمان . كما أن بعض الجرائم تشير إلى وجود شبكة ماسونية تربط على الأقل أكثر من بلد ، ولكن الحقائق لاتزال متفرقة ولذا ثمة حاجة إلى المزيد من البحث الذكى والموضوعى .

والآن يبلغ عدد الماسونيين فى العالم نحو ٥ر٩ مليون منهم أربعة ملايين فى الولايات المتحدة ومليون فى إنجلترا . فإذا أضفنا عدد الماسونيين فى كل من كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ، فإننا نجد أن الماسونية منتشرة أساساً فى البلاد البروتستانتية ، خصوصاً الاستيطانية ، وهذا أمر متوقع إذ إن الماسونية نشأت أساساً فى المحيط البروتستانتى ، شأنها فى هذا شأن كثير من الحركات السياسية والفكرية المعاصرة كالصهيونية والنازية وقد لوحظ مؤخرا تناقص عدد الماسونيين فى العالم بشكل ملحوظ .

الماسونية السوقية

والماسونية هى جزء من التشكيل الحضارى الغربى والماسونية الأولى (ماسونية عصر الملكيات المطلقة) هى تعبير عن المرحلة التى ظهرت فيها ، تماماً كما أن الماسونية الثانية تعبير عن محيطها الحضارى . ويمكننا أن نقول المحافل الماسونية بدأت تتحول إلى ما يشبه النوادى التى تضم أعضاء لهم مصلحة مشتركة والتى تشكل إطاراً يتبادل داخله الأعضاء الخدمات - شأنها فى هذا شأن كثير من مؤسسات المجتمعات الغربية التى يقال لها متقدمة - . ويمكن أن نطلق على هذا الضرب من الماسونية اسم «الماسونية الثالثة» .

أما فى الولايات المتحدة ، فقد بدأت تظهر محافل ذات طابع اجتماعى ترفيهى وهى محافل ليس لها وضع مقنن داخل التنظيمات الماسونية ، وإن كان كثير من أعضائها من الماسونيين . ومن هذه المحافل «الطريقة العربية القديمة لنبلاء الحرم الصوفى» ، ويقال لهم «الحرميون» ، و «الطريقة الصوفية لأنبياء المملكة المسحورة الملثَّمين» . وبدأت بعض هذه المحافل تسمح للنساء بالانضمام إليها ، كما أسست محافل للفتيان والفتيات . وتمنع

المحافل الماسونية البريطانية أعضاءها من الالتحاق بأى من محافل الترفيه هذه ، إذ إنها تعد نوعاً من الابتذال ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الماسونية السوقية اسم «الماسونية الرابعة» .

الماسونية واليهودية

وقد يكون من المناسب الآن أن نحاول تحديد علاقة الماسونية باليهود واليهودية ، إذ إن النموذج الاختزالى التآمرى يربط بين الحركة الماسونية واليهودية . ولابد أن نؤكد مرة أخرى الفرق بين أعضاء الجماعات اليهودية الخاضعين لحركيات الحضارات المختلفة التى ينتمون إليها واليهودية كنسق دينى أو حتى كتشكيل جيولوجى وقد يقول قائل إن الماسونية حركة لاعلاقة لها بالدين بالمعنى الدقيق للكلمة باعتبارها حركة أخلاقية أخوية وحسب . فالدين هو علاقة بالخالق تأخذ شكل الإيمان به وعبادته ، أما الأخلاق فهى نسق من الأفكار ينظم علاقة الإنسان بالإنسان لا بالخالق ، ومن ثم فالماسونية تتعامل مع رقعة من الوجود الإنسانى تختلف عن تلك التى يتعامل معها الدين . ولكن كلا من التعريفين السابقين للأخلاق والدين قاصر، فالدين هو إيمان الإنسان بالمطلق (الغيب) كعقيدة تترجم نفسها إلى سلوك وإلى علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكن والدين ليس فقط عبادات ، وإنما معاملات أيضاً .

والأخلاق بدورها ليست مجرد مجموعة من القواعد الخارجية التى تحدد سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وإنما هى مجموعة من القواعد تستند إلى معنى داخلى يعتمد على الرؤية إلى المطلق - ومن هنا التداخل بين الدين والأخلاق ، وكذلك التداخل بين الماسونية والدين .

وقد بينا أن الماسونية بدأت كدعوة ربوبية فهى نسق فكرى دينى متكامل يستند إلى العقل لا الغيب ، يحدد علاقة الانسان. بالخالق وبالطبيعة وبطرق المعرفة ، وهى تطرح أمام تابعيها طرق الخلاص ، وتتكفل بتعليم مريديها السلوك الأسمى ، وتزودهم بأساس فلسفى للأخلاق التى يؤمنون بها ، فضلاً عن أن اجتماعاتها تبدأ وتنتهى بصلاة . ولذا ، كان لابد أن تصطدم الماسونية بالأديان كلها : المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية الأرثوذكسية ، وريثة اليهودية الحاخامية . وكانت المسيحية الكاثوليكية أكثر الديانات فى عدائها للماسونية ، فقد أعلن البابا كلمنت الثانى عشر عام ١٧٣٨ أن الماسونية كنيسة (أى ديانة) وثنية غير مقدسة (وهو فى تصورنا وصف دقيق لها) ، ولم يسمح للكاثوليك بالانضمام إليها . أما الكنائس البروتستانتية ، فبعضها فقط ناصبها العداء . وأما اليهودية الأرثوذكسية ، فهى تحرم على اليهود الانضمام إلى المحافل الماسونية وتعتبر من ينضم إليها

خارجاً على الدين ، هذا على خلاف الصيغ اليهودية المخففة مثل اليهودية الإصلاحية كما سنبين فيما بعد .

ويمكننا الآن أن نتناول علاقة الماسونية بأعضاء الجماعات اليهودية . وسوف تكون الصورة هنا أكثر تركيباً وتنوعاً واختلاطاً . وكما أشرنا ، تشكل الماسونية دعوة ربوبية تعددية تستند إلى العقل، وهي تطرح على المؤمن بها عقيدة متكاملة ، ولكنها لا تطلب إليه أن يتخلى عن عقيدته الأصلية ، ولذا كان من الممكن لكافة أعضاء الديانات الانضمام إليها دون أن يضطروا إلى نبذ دينهم . (وقد كان هناك محفل ديني في الصين يستخدم الإنجيل والقرآن وكتابات كونفوشيوس ككتب مقدسة) .

وقد ظهرت الماسونية في وقت كانت فيه اليهودية الحاخامية قد بدأت تدخل مرحلة أزمتها التي أودت بها في نهاية الأمر. فالفكر القبالي كان قد حل محل التلمود وقوض اليهودية من الداخل . كما أن شبتاي تسفي من جهة ، وإسبينوزا من جهة أخرى ، كانا قد شنا هجومهما الشرس في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية من ناحيتي اليمين واليسار . وكان يهود البلاط والعنصر السفاردي قد حلوا محل القيادة الحاخامية التقليدية . كل هذا ، جعل الثورةالعقلانية المادية تترك أعمق الأثر على بعض أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا قد بدأوا يضيقون ذرعاً باليهودية

وأخذوا يبحثون عن مخرج لهم منها ، فظهرت بينهم حركة التنوير اليهودية الإصلاحية . وقد حل بعضهم أزمته بأن تنصر . ولكن الانتقال إلى المعسكر المسيحى أمر صعب من الناحية المضمونية والتعبيرية ، فعقيدة مثل التثليث ، أورمز مثل الصليب ، من الصعب على كثير من اليهود تقبله .

الماسونية واليهود

وقد حلت الماسونية مشكلة هؤلاء اليهود الذين اغتربوا عن يهوديتهم ، والذين ازدادت معدلات العلمنة بينهم ، والذين كانوا يريدون الاندماج فى مجتمع الأغيار ولكنهم لا يريدون التنصر ، وكان ظهور الحركة الماسونية علامة على أن مجتمع الأغيار قد بدأ يفتح ذراعيه لهم ، وأصبحت المحافل الماسونية هى الأرضية الروحية والفعلية التى يمكن لأعضاء الجماعات اليهودية اللقاء فيها مع قطاعات مجتمع الأغلبية . وقد كانت هذه الأرضية تتسم بقسط معقول من الحيادية ، فمع أنه كانت هناك رموز ذات أصل مسيحى، ومع أن الفكر الماسونى احتفظ ببعض الأفكار المسيحية ، فقد كان هناك رموز ذات مضمون عقلانى عام (رموز البناء) وهى رموز عامة ومحايدة وماذا يمكن أن يكون أكثر حيادا من أدوات الهندسة التى يستخدمها البنّاء ؟ بل كانت هناك رموز يهودية أيضاً : سليمان والهيكل وكلمات عبرية . كما كانت هناك رموز كونية عامة

يمكن أن يشارك أعضاء الجماعات اليهودية فيها . ولكن الأهم من كل هذا أنه لم يكن مطلوباً منهم اعتناق دين جديد أو رفض دينهم القديم ، فكل ما كان مطلوباً منهم هو إزاحته جانبا أو تهميشه ، وإعادة تأسيس عقيدتهم على العقل لا الغيب . ولذا ، انخرط اليهود بأعداد متزايده فى صفوف الماسونية . ويلاحظ أن أول الماسونيين بين اليهود كانوا من السفارد، إذ إن معدلات العلمنة كانت مرتفعة بين العنصر السفاردى . ثم بدأت تنخرط فى سلك المحافل الماسونية عناصر يهودية آخرى تزايدت بينها معدلات العلمنة مثل : أتباع اليهودية الإصلاحية ، وبقايا العناصر الشبتانية ، واليهود الذى تأثروا بالقبالاه . ولذا ، يجب أن نؤكد أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين انضموا إلى المحافل بأعداد متزايدة فعلوا ذلك لا بسبب يهوديتهم أو عقيدتهم ، وإنما بالرغم منها . بل إن انخراطهم فى المحافل الماسونية يمثل بالنسبة لبعض اليهود صياغة دينية مخففة تساعدهم على التخلص من هويتهم الدينية بدون إحساس بالحرج من عدم وجود إيمان دينى على الإطلاق .

وقد برز اليهود فى الحركة الماسونية ، خصوصاً فى إنجلترا حيث التحقوا بالحركة في عام ١٧٣٢ ، وأسس أول محفل ماسونى يهودى عام ١٧٩٣ ، أما فى فرنسا ، فقد أصبح السياسى الفرنسى اليهودى أودولف كريميه (فى عام ١٨٦٩) البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية ، وكان هناك كثير من

مؤسسى المحافل الماسونية ، والتى كان ينضم إليها أعضاء الطبقة الوسطى المعادون للكنيسة الكاثوليكية . ولكن لم تكن الصورة واحدة فى كل البلاد ، ففى شبه جزيرة إسكندناڤيا وكذلك فى ألمانيا ، ظلت مشاركة اليهود فى الحركة الماسونية مسألة خلافية فقد سمح (حتى عام ١٨٧٠) لعدد صغير جدا من اليهود بالانخراط فى سلك الحركة ، وكانت بعض المحافل تقبل اليهود ولكن داخل إطار ألمانى مسيحى . فمحفل الأخوة الآسيويين ، الذى أسس فى ڤيينا خلال عامى ١٧٨٠ و١٧٨١ ، كان ضمن طقوسه أكل لحم الخنزير باللبن ، وكما هو معروف فإن لحم الخنزير محرم على اليهود ، وكذلك فإن خلط اللحم باللبن محرم عليهم أيضاً .

وقد تزايد طلب اليهود على الانخراط فى المحافل الماسونية فى ألمانيا ، وقامت دعوة بين الماسونيين الألمان تطالب بقبول اليهود كأعضاء فى الحركة ، لكن هذه الدعوة لم تنل تأييد زعماء الحركة ، وقد تحول بعض يهود ألمانيا إلى الماسونية فى أثناء رحلاتهم فى إنجلترا وهولندا ، وخصوصا فى فرنسا ما بعد الثورة . وقد تأسست فى ألمانيا نفسها محافل فرنسية ومحافل بمبادرة فرنسية، وأسس يهود فرانكفورت عام ١٨٠٨ محفل «الفجر الوليد» بتصريح من منظمة الشرق الأعظم . ولاشك فى أن مثل هذه المحافل الفرنسية اليهودية زادت من عداء الماسونيين الألمان لليهود ومن ثم ظهرت دساتير ماسونية تستبعد اليهود بشكل خاص . ولكن بعض

المثقفين الماسونيين الألمان قاموا في ثلاثينيات القرن بالاحتجاج على استبعاد اليهود ، وانضم إليهم في احتجاجهم هذا ماسونيو إنجلترا وهولندا والولايات المتحدة . وقد اكتسحت ثورة ١٨٤٨ بعض الفقرات التي تستبعد اليهود، واعترفت المحافل المسيحية في فرانكفورت بالمحافل اليهودية . وقد كانت محافل بروسيا هي الاستثناء الوحيد حيث استمرت في استبعاد اليهود ، ولكنها بدأت مع السبعينيات تسمح بدخول اليهود زوّاراً ثم أعضاء .

ولكن الموجة العنصرية التي صاحبت الهجمة الامبريالية على الشرق اكتسحت أوربا بأسرها وأخذت أشكالا عديدة من بينها معاداة اليهود وتقوم بعض أدبيات معاداة اليهود بالربط بين اليهود والماسونيين وتذهب إلى أن ثمة تعاوناً سريًّا بين الفريقين للسيطرة على العالم ، ولتخريب المجتمعات . وقد ترددت هذه الفكرة إبان محاكمة دريفوس . كما أن نفس هذا الموضوع يتردد أيضا في البروتوكولات ، وقد كان الربط بين اليهود والماسونيين هو أحد أحجار الزاوية في الدعاية النازية المضادة لليهود ، حيث كان النازيون يشيرون دائما إلى كريمييه باعتباره البنَّاء الأعظم ومؤسس جمعية الأليانس اليهودية .

وغني عن القول أن مثل هذه العلاقة التآمرية المباشرة لا وجود لها . وبحسب ما توافر لدينا من وثائق ، ليست هناك هيئة

مركزية عالمية تضم كل المحافل الماسونية . كما أن هناك يهوداً معادين للماسونية وماسونيين معادين لليهود واليهودية . ولكن ثمة علاقة بنيوية وفعلية بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهودية تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة فى المحافل الماسونية يمكن إيجازها فى النقاط الثلاث التالية :

١ - من المعروف أن الماسونيين معادون للكنيسة والكهنوت وهذه نقطة لقاء بينهم وبين أعضاء الجماعات اليهودية الذين فقدوا إيمانهم الدينى - وهم الآن أغلبية يهود العالم - . ويتصور هؤلاء أن المجتمعات العلمانية تضمن لهم أمنهم وحقوقهم ، ومن ثم ينخرطون بأعداد كبيرة فى المحافل الماسونية . وهذه الظاهرة يمكن رصدها فى أمريكا اللاتينية بينما يصعب رصدها فى إنجلترا على سبيل المثال لأن الكاثوليكية فى أمريكا اللاتينية لا تزال هى الإطار المرجعى للمجتمع ، ومن ثم تأخذ محاولات العلمنة شكلاً تنظيمياً محدداً مثل المحافل الماسونية . أما فى إنجلترا وفرنسا ، فإن العلمانية أصبحت الدين الرسمى للدولة ، ومن ثم تفقدالمحافل الماسونية قيمتها الوظيفية والرمزية .

٢- تضم المحافل الماسونية أعدادا كبيرة من العناصرالمالية والتجارية والمهنية . والتركيب الوظيفى والمهنى ليهود العالم يجعل

أغلبيتهم الساحقة من هذه القطاعات ، إذ لا يوجد بينهم عمال أو فلاحون ، ومن ثم تزداد نسبتهم في المحافل الماسونية .

٣ - الحركة الماسونية حركة أممية تتجاوز الولاءات القومية (كما أن إنسان عصر الاستنارة هو إنسان أممى) . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية أعضاء في جماعات وظيفية وسيطة تقلل من الولاء للوطن وتجعل الولاء للجماعة الوظيفية أو المصالح المالية . كما أن فترة ظهور الماسونية هي أيضا الفترة الى بدأ فيها يهود اليديشية « أي يهود شرق أوربا » في الهجرة بأعداد هائلة إلى كل أطراف العالم ، والعناصر المهاجرة ليس لها ولاء قومي قوى . لكل هذا ، نجحت المحافل الماسونية في اجتذاب أعضاء الجماعات اليهودية فتزايدت معدلات العلمنة وضعف الانتماء القومي.ولعل في تركز اليهود في القطاعات المالية والتجارية ما يفسر وجودهم بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية، وحينما يربط المعادون لليهود بينهم وبين الحركة الماسونية ، فإنهم محقون في ذلك تماما إذ إن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في المحافل الماسونية عادة ماتكون أعلى بمراحل من نسبتهم إلى عدد السكان.ولكن يبدأ الخلل حينما يطرحون تصور وجود مؤامرة خفية،والأمر كله لايعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية.فالخلل ليس في الوصف وإنما في التفسير.

وقد اشترك بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تأسيس الحركة الماسونية في الولايات المتحدة ، فثمة دلائل تشير إلى أنه كان يوجد أربعة يهود بين مؤسسي أول محفل ماسوني عام ١٧٣٤

فى الولايات المتحدة (سافانافى ولاية جورجيا) ولقد اتبعت الطقوس الماسونية في وضع حجر الأساس للمعبد اليهودى فى تشارلستون (ساوث كارولينا) عام ١٧٩٣ . واستمر الوجود البارز لليهود فى المحافل الماسونية فى القرن التاسع عشر . وقد كتب محفل نيويورك إلى محفل برلين الأساسى يشكو من رفض المحافل الألمانية أن تقبل أعضاء المحافل الأمريكية في صفوفها لأنهم يهود. والواقع أن الماسونية الأمريكية ، مثل كل المؤسسات الأمريكية ، تتسم بأنها لم تعرف التمييز ضد اليهود أو غيرهم من الأقليات والطوائف البيضاء ، وقد تبنت جماعة البناى بريت اليهودية عند تأسيسها بعض الطقوس الماسونية السرية ، ولكنها أسقطتها بعد فترة .

أما فى فلسطين ، فقد تأسست محافل ماسونية بين العرب المسلمين والمسيحيين والأجانب (المسيحيين واليهود) . وبعد إنشاء الدولة الصهيونية ، بلغ عدد المحافل الماسونية أربعة وستين محفلاً سنة ١٩٧٠ ، تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة عضو من اليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقد قامت بعض المحافل الماسونية العربية بنقد الصهيونية واشتركت بعض القيادات الماسونية فى المقاومة ضد الاستيطان الصهيونى . وعكس ذلك صحيح أيضا ، إذ رفضت بعض المحافل الماسونية التصدى للصهيونية باعتبار أن هذا نوع من العمل السياسى .



بعض اليهود ينزفون دم طفل مسيحى لاستخدامه
فى احتفالات عيد الفصح (مخطوطة مصورة
من ألمانيا فى القرن الخامس عشر)

الفصل الرابع

تهمـــة الدم

من أهم ادعاءات النموذج الاختزالي التآمرى ما يسمى بتهمة الدم وهى اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيا مسيحيا فى عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح ، ونظراً لأن عيدى الفصح المسيحى واليهودى قريبان ، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى شعائرهم الدينية وفى أعيادهم ، وخصوصا فى عيد الفصح اليهودى ، حيث أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (الماتزوت) الذى يؤكل فيه يعجن بهذه الدماء . وقد تطورت الاشاعة فكان يقال إن اليهود يصفون دم ضحاياهم لأسباب طبية أو لاستخدامه فى علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان ولاستخدامه كمنشط جنسى .

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر اليونان والرومان ، أى إلى ما قبل العصور المسيحية ، فقد أتى فى كتابات كل من آبيون (السكندرى) وديموقريطس الكاتبين اليونانيين إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم ، ولكن هذا الادعاء لم يصبح

جزءاً من الصورة الإدراكية العامةلليهود فى الوجدان الغربى ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى الغرب فى العصور الوسطى .

« القديس وليام »

وقد وجهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية فى انجلترا فى القرن الثانى عشر فى وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجارى والمالى والربوى ، مما كان يعنى أن هناك أفراداً كثيرين قد اقترضوا أموالاً من المرابى اليهودى ولم ينجحوا فى تسديدها ، وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم قد آلت إليه . وقد اتهمت الجماعة اليهودية فى نورويتش عام ١١٤٤ بأن بعض أعضائها قد ذبحوا طفلا يدعى وليام عمره أربعة أعوام ونصف فى الجمعة الحزينة (وقد نصب وليام هذا قديسا فيما بعد) . وقد أشار أحد اليهود المتنصرين إلى أنه من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى مدن أوربا بذبح طفل مسيحى فى يوم عيد الفصح المسيحى (إيسترEaster) الذى يقع عادة فى نفس تاريخ عيد الفصح اليهودى (بالعبرية : بيساح ، وبالانجليزية : باس أوفر Pass Over) .

ثم وجهت تهمة دم أخرى فى مناطق مختلفة من انجلترا بين عامى ١١٦٨ و ١١٩٢ . وقد تسربت الفكرة إلى فرنسا، فوجهت التهمة إلى الجماعة اليهودية فى «بلوا» عام١١٧١ . كما وجهت التهمة

خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر ، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ ، التي يذكرها تشوسر في حكايات كانتربري . وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين ، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠ ، وقضية بيليس عام ١٩١١ وتعد حادثة دمشق التي حدثت في العالم الاسلامي استثناء ، إذ إن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحي .

وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالي : يختفي شخص مسيحي (في العادة طفل) أو يوجد مقتولا فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل أو الشخص شوهد آخر مرة بجوار الحي اليهودي ، أو أن هناك عيدا يهوديا (عادة عيد الفصح) تتطلب شعائره دم نصراني ، ومن ثم كان يوجه لأعضاء الجماعة اليهودية تهمة قتله ويتم القبض على بعضهم وكان يتم تعذيبهم ثم يشنق أحيانا عدد منهم

ويوظف أصحاب النموذج الاختزالي الصهيوني تهمة الدم هذه لصالحهم ، فيشيرون إليها باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم ، وبالتالي لا بد أن يكون لهم وطن قومي . ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع في سياقها التاريخي فإنها ستكتسب دلالة جديدة أو سيمكننا على الأقل فهمها بشكل أعمق لن يؤدي بالضرورة إلى استخلاص نتائج صهيونية .

السياق التاريخي

ظهرت تهمة الدم بعد أن تحول اليهود فى العالم الغربى إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا ، قد كانوا يشبهون بالاسفنجة التي تمتص نقود كافة الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص ، ثم يقوم الامبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارها لحسابه بعد ذلك (وهو الأمر الذى لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال فهى كانت لا تتعامل مع الامبراطور وإنما مع المرابى اليهودى) ومن هنا كانت الإشارة إلى اليهود (كجماعة وظيفية وسيطة لا كيهود) على أنهم مصاصو دماء، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبى أن يحول المجاز إلى حقيقة.

وكان توجيه تهمة الدم يعنى ، فى واقع الأمر ، شنق بعض اليهود من بينهم عدد كبير من المرابين ، فقد كان الربا من أهم الوظائف التى أضطلع بها اليهود فى التشكيل الحضارى الغربى . وكان هذا يعنى ، فى كثير من الأحيان ، إسقاط الديون . إن توجيه الدم كان يشبه ، من بعض الوجوه ، التخطيط لسرقة بنك من البنوك، وكان شنق اليهود بمثابة النجاح فى هذه العملية ، وهى عملية تشبه أيضاً عمليات روبين هود الذى كان يسرق من الأثرياء ليعطى الفقراء . ولذا ، فإن جرائمه كانت تحظى بشعبية كبيرة ، وكانت الجماهير تحيطه بحمايتها .

وكانت الخزانة الملكية ذاتها تستفيد أحياناً من تهمة الدم ، حيث كانت ترث ديون المرابى الذى يشنق أو يطرد ، كما أن النخبة الحاكمة كانت تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد المواثيق الممنوحة لهم ، والتى تتضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها .

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر فى الوجدان الشعبى بخصوص «الآخر» وهى عادةً اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم . ولقد اتُّهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم . كما وجهت نفس التهمة إلى المسيحيين الأوائل من قبل اليهود (حسبما جاء فى كتابات أوريجين) . وقد جاء فى أحد كتب المدراش أن فرعون مصر حاول أن يشفى من البرص بذبح مائة وخمسين طفلاً يهودياً كل صباح وكل ظهر ليستحم فى دمهم ، كما أن بعض كتب الهاجاداه محلاة بصور لتهمة الدم الموجهة إلى فرعون مصر . وقد وجهت التهمة كذلك إلى الغنوصيين من قبل المسيحيين ، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية عام ١٤٦٦ من قبل الجماهير . وقد اتهم المبشرون المسيحيون فى الصين عام ١٨٧٠ بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين ليصنعوا من دمهم دواء سحرياً . وأتهم الأجانب فى مدغشقر عام ١٨٩١ بابتلاع قلوب بعض السكان المحليين . أما الرهبان الدومينكان ، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل

يهودى فى بعض شعائرهم السرية ! ومعنى كل هذا أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود . وإذا كان مرابون آخرون ، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) ، لم توجه إليهم (بحسب علمنا) تهمة الدم ، فقد وجهت إليهم تهم أخرى لا تقل عنها سوءاً ، كما أنهم كانوا أيضاً عرضة للطرد والمصادرة والشنق .

وقد ساعد تكرار تصوير الدم والقتل فى العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين . كما أن شعائر اليهود الدينية ، خصوصاً شعائر عيد الفصح ، كانت تثير الريبة فى نفوس أعضاء الأغلبية ، الأمر الذى كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها . هذا مع العلم بأن قوانين الطعام اليهودية تمنع شرب الدم أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه . ويبدو أن ممارسة الختان والذبح الشرعى قد غذيا هذه الأوهام ، حتى سمّى اليهود «أهل السكين».

ولم يكن اليهود يقفون فى مجابهة كل الأغيار كما يدعى الصهاينة ، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التى كان يوجهها إليهم عامة الشعب . فبيّن البابا إنوسنت الرابع ، فى مرسوم صدر عام ١٢٤٥ ، أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا جريجورى العاشر (فى مرسوم صدر عام ١٢٧٤) عن اليهود، كما فعل بابوات آخرون نفس الشىء . وفى عام ١٧٥٨،

أصدر الكاردينال لورنز جانجانلى (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم . وقد أصدر نفس التحريم الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى (١١٩٤-١٢٥٠) ، وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج عام ١٢٧٥ . وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها ، ولكنهم مع هذا فشلوا فى مسعاهم ، واستمرت تهمة الدم مرتبطة أرتباطاً بصورة اليهودى حتى عهد قريب .

حادثة دمشق

ومن أشهر تهم الدم «حادثة دمشق» التى وقعت عام ١٨٤٠ حين كانت سوريا تحت الحكم المصرى وتكاد تكون المرة الوحيدة التى وجهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الإسلامى . فقد اتهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيسكان يدعى الأب توماس الكبوشى وخادمه المسلم إبراهيم عمارة لاستخدام دمائهما فى أغراض شعائرية ، وفى صنع الفطير اليهودى المعروف بالماتزوت . وقد أشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهم بالدخول إلى حارة اليهود ، فتم تفتيش الحى اليهودى بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسى ، وقبض على زعماء اليهود ومات منهم إثنان فى أثناء التحقيق ، وأشهر واحد إسلامه وحكم على الباقين بالإعدام .

وقد تفاقمت ردود فعل هذه القضية بسبب الصراع السياسى للأوربيين للحصول على النفوذ فى الشرق الأوسط . ولا يمكن رؤية هذه الحادثة إلا فى إطار النشاط التبشيرى الاستعمارى فى فلسطين والشام ، والذى كان تعبيراً عن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى . وقد كانت كل دولة تحمى أعضاء جماعة دينية بعينها ، فكان الروس يحمون الأرثوذكس ، وكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك . وربما لعدم وجود البروتستانت بما فيه الكفاية ، قام الإنجليز «بحماية» اليهود . ومن هنا ، يعد الصراع بين الكاثوليك المحليين (بزعامة القنصل الفرنسى) واليهود تعبيراً عن الصراع على النفوذ . ومما له دلالته ، أن احتجاج يهود فرنسا ومناشدتهم لحكومتهم لم يأت بنتيجة فى حين أدى احتجاج يهود إنجلترا إلى تحرك بالمرستون ومطالبته إلى محمد على بأن يعامل اليهود معاملة حسنة (باعتبارهم عنصراً يهدف إلى حمايته) ، وأدى تدخل أدولف كريميه وموسى مونتفيورى ، ومقابلتهما محمد على فى الإسكندرية، ثم السلطان عبدالحميد فى إستانبول إلى الإفراج عن المتهمين وإسقاط التهمة عنهم .

وقد أصدر السلطان العثمانى فرماناً يدين تهمة الدم ويعتبرها قذفاً فى حق اليهود .

الباب الثاني

النموذج الصهيوني



الممـــثـل الـكـومـيـدى الأمـريـكى
اليهـودى دانى كاى : عبقرية يهودية

الفصل الخامس

العبقرية اليهودية

فكرة العبقرية اليهودية مفهوم محورى لأصحاب النموذج الاختزالي من الصهاينة وأعداء اليهود . ونحن نرى أنه من أهم الأفكار التى أدت إلى إحاطة أعضاء الجماعات اليهودية بهالات أسطورية . وعبارة « العبقرية اليهودية » تفترض وجود عبقرية يهودية مستقلة وإبداع يهودى مستقل . وهذه العبارة تتواتر فى الأدبيات الصهيونية أو المتأثرة بها ، حيث نجد حديثا مستفيضا عن فضل اليهود على الحضارة الإنسانية . وفى الحقيقة فإن الحديث عن العبقرية اليهودية لا يختلف بنيويا عن حديث المعادين لليهود . عن «المؤامرة اليهودية» مع أن المضامين مختلفة . كما أن الحديث عن العبقرية اليهودية ، تماماً مثل الحديث عن المؤامرة اليهودية ، يصدر عن تصور أن اليهودى «يهودى» وحسب أو يهودى بالدرجة الأولى ثم أمريكى أو روسى بالدرجة الثانية أو الثالثة . كما يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على تجريد اليهودى من أى سياق اجتماعى أو تاريخى وعلى وضعه على هامش التاريخ أو خارجه حيث يقف ليساهم فيه بعبقرية فذة أو يحاول تخريبه بكل ما أوتى

من قوة ودهاء وحيلة . والحديث عن العبقرية اليهودية ومحاولة اكتشافها وتحديد سماتها هو تعبير عن فكرة الفولك أو الشعب العضوى التى تفترض أن لكل شعب عبقريته الخاصة أو جوهره أو طبيعته . والواقع أن كلمة «عبقرية» كانت تعنى فى بداية الأمر سمات خاصة وحسب ، ولا تفترض بالضرورة تميزاً أو علواً . ولكن من المعروف أن المناخ الحضارى فى أوربا الذى نبتت فيه مثل هذه الأفكار كان مشبعاً بأفكار التفاوت بين الأمم ، حتى أصبحت محاولة تحديد عبقرية كل شعب تهدف إلى تحديد حقوقه المطلقة وتسويغ استيلائه على أراضى الآخرين واستبعادهم . وسنركز فى هذا الفصل على فكرة العبقرية اليهودية بمعنى التميز لا الامتياز .

السياق التاريخى

إننا لو نظرنا إلى العباقرة اليهود ، بعد أن نضعهم فى سياقهم التاريخى المتعين، سنكتشف على الفور أن مقولة «العبقرية اليهودية» لا وجود لها على الإطلاق ، تماما مثل «المؤامرة اليهودية»، وأنها عبارة ليس لها أى مدلول واضح أو مستتر . ومن حق المرء أن يسأل : ما هى السمات اليهودية المشتركة بين فرويد المفكر النمساوى اليهودى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر، وشعراء العرب اليهود فى الجاهلية ، وراشى ويوسنوس ومارك شاجال وموسى بن ميمون وبرنارد مالامود ؟ والإجابة الوحيدة هى

أنه لا توجد مثل هذه السمات المشتركة . وإن اكتشف أحد عناصر يهودية مشتركة بين كل هولاء العباقرة ، فإن تصنيفهم على أنهم يهود بالدرجة الأولى لا يفيد كثيراً فى فهم فكرهم أو طبيعة مساهمتهم فى التراث الإنساني ، فيهوديتهم المشتركة ليست لها مقدرة تفسيرية عالية ، ولابد لنا أن نعود إلى التقاليد الحضارية والظروف التاريخية التي شكلت فكرهم ووجدانهم حتى يتسنى لنا الإحاطة بها . فموسى بن ميمون كاتب عربى أندلسى كان يؤمن باليهودية وتفاعل مع التراث العربى الإسلامى . ومن خلال هذا التفاعل نضجت عبقريته العربية ، ولم تكن اليهودية سوى أحد العناصر فى تكوين هذه العبقرية (وحتى هذه اليهودية كانت قد اصطبغت بصبغة إسلامية) . وقصص برنارد مالامود تنتمى إلى التراث الأدبى الأمريكى لأن كاتب هذه القصص تأثر بتقاليد هذا الأدب وأتقن اللغة الإنجليزية الأمريكية وكتب روايات أمريكية تعالج موضوعات أمريكية يهودية . وحين صرح شاجال ذات مرة لمجلة تايم بأنه غير مهتم باليهودية ، قامت الدنيا ولم تقعد ، وأرسل كثير من القراء برسائل احتجاج أوضحوا فيها تأثر شاجال باليهودية الحسيدية . وقد يكون هذا أمراً صحيحاً ، ولكن يظل شاجال هو نتاج الحركات الفنية فى أوربا فى القرن العشرين ، وبخاصة فى روسيا وفرنسا . وقد تكون للوحاته نكهة حسيدية ، خصوصاً أنها تعالج موضوعات يهودية مثل التوراة والحاخام ، ولكنها تظل مع

هذا لوحات رسمها فنان روسي فرنسي متأثر وبعمق بالتراث المسيحي ! (بل أثبتت بعض الدراسات مؤخرا أن الحسيدية ذاتها قد نبتت في تربة سلافية فلاحية مسيحية أرثوذكسية ، وأنها متأثرة وبعمق بالتراث الصوفي الفلاحي السلافي الأرثوذكسي !) .

وإذا ما تركنا مجال الفنون والإنسانيات ، يصبح الحديث عن العبقرية اليهودية عبثاً وهراء لا طائل من ورائه . فبأى معنى يمكننا أن نقول إن نظرية النسبية قد توصل إليها أينشتاين من خلال عبقريته اليهودية ، وكأنه كان من الممكن أن يصل أينشتاين إلى ما وصل إليه من اكتشافات باهرة دون جهود من سبقه من علماء مسيحيين وبوذيين ؟ وهل كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات دون وجوده داخل الحضارة الغربية الحديثة ؟ وإلا فبماذا نفسر عدم ظهور علماء طبيعة متفوقين تفوق أينشتاين بين يهود الفلاشاه الاثيوبيين ؟

ويلاحظ أن نسبة المتعلمين والمخترعين بين أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الغربى مرتفعة . ولكن هذا أمر طبيعى وينطبق على كل الأقليات فى أى مكان حينما تتاح أمامها الفرصة. فالأقلية دائماً واقعة تحت ضغط نفسي يدفعها إلى أن تثبت تفوقها أمام نفسها وأمام الآخرين ، ولذلك يجتهد أعضاؤها فى أن يساهموا فى الإبداع الحضارى بدرجة تزيد على المعدل العادى فى المجتمع. كما

أن عضو الأقلية عادةً ما تكون لديه عقلية نقدية فى رؤيته للمجتمع لأنه على علاقة خاصة وخارجية به . لكن أعضاء الأقلية يخضعون مع ذلك لدرجة تقدم وتخلف المجتمع الذى يعيشون بين ظهرانيه ، فإن تقدم تقدموا . وإن تخلف صاروا متخلفين . والواقع أنه لم يكن هناك عباقرة يهود بين العرب إبان فترات الانحلال فى الحضارة العربية حين أغلقت الحلقات الفقهية والمدارس التلمودية العليا فى العراق بسبب انتكاس الحضارة العربية ، على حين ازدهر الفكر العربى اليهودى فى الأندلس بسبب ازدهارها .

ونحن لو نظرنا إلى تاريخ الجماعات اليهودية فى شرق أوربا التى تبنت الصهيونية لوجدنا أنها كانت من أكثر القطاعات تخلفاً فى أوربا ، وكانت جماهير يهود اليديشية وقيادتها غارقة حتى أذنيها فى التأملات القبالية ، وكانت الحياة العقلية فى الجيتو متحجرة ومنفصلة عن العالم الخارجى باعتراف الصهاينة أو أى دارس موضوعى أو متحيز . هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش عصر النهضة ثم عصر الاستنارة .

تاريخ العباقرة اليهود

وحتى لو رصدنا العبقرية اليهودية بشكل مطلق كما يفعل الصهاينة ، فإننا سنكتشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية لم يلعبوا دوراً كبيراً فى خلق الحضارة . فحينما ظهر

العبرانيون على مسرح التاريخ منذ عام ١٢٠٠ ق.م. رعاةً رحلاً ، كانت الإمبراطورية الفرعونية فى مصر قد شيدت مئات المعابد والأهرامات والسدود ، وكان الفن المعمارى وعلوم الفلك المصريان قد وصلا إلى قمم شامخة . وحينما تأسست المملكة العبرانية الموحدة على يدى داود وسليمان ، لم تكن هذه المملكة سوى مملكة صغيرة ازدهرت فى غياب القوى الإمبراطورية العظمى فى الشرق الأوسط القديم واعتمدت حضارياً على الدول والأقوام المجاورة اعتماداً كاملاً . أما فى مجال الأدب والفن والفكر ، فلا توجد أية مساهمة حقيقية من جانب العبرانيين فى تراث العالم القديم ، بل إن أسلوب الهيكل المعمارى الذى قام الفينيقيون ببنائه هو الأسلوب الآشورى الفرعونى . وكان بناء الكبارى والسدود أمراً غير معروف البتة لليهود القدامى . كما أن الكتابات اليهودية المقدَّسة مثل سفر التثنية وسفر الجامعة كانت متأثرة تأثراً عميقاً بالحضارات المجاورة . ولا يأتى ذكر لليهود فى الكتابات اليونانية أو الرومانية إلا بوصفهم شحاذين ومصدر ضيق لكتاب مثل شيشرون . وإذا نظرنا إلى الحضارة العربية إبان فترة نهضتها ، فإننا نجد أن دور اليهود كان مقصوراً على الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية . وقد دفعهم اضطلاعهم بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة التى يعمل أعضاؤها بالتجارة الدولية فى العالم القديم إلى معرفة العديد من اللغات ، كما جعلهم ناقلين لحضارات الآخرين . ولم يكن يوجد

شاعر كبير أو مفكر فلسفي عربي مشهور يعتنق اليهودية ، فكنت ترى بينهم الأطباء والصيادلة والتجار حيث ظلوا مرتبطين بالإنتاج اليومي المادي ، غير أنه لم يكن هناك بينهم الفنانون أو المفكرون . وبعد أن انتقل مركز الحضارة إلى الغرب ، ظل الأمر على ما كان عليه، فلا نجد في أدب وحضارة العصور الوسطى أو عصر النهضة مفكراً أو رساماً أو أديباً يهودياً شهيراً واحداً . وحتى المفكرون اليهود الذين ظهروا في خلال هذه الفترات الطويلة ، مثل الحاخام عقيبا أو راشي أو موسى بن ميمون ، كانوا مهتمين بأمور دينية يهودية ذات أهمية إنسانية محدودة . كما نعرف أنهم كانوا بلا ثقل يذكر داخل مجتمعاتهم . فموسى بن ميمون لم يكن معروفاً باعتباره مفكراً دينياً ، وإنما باعتباره طبيباً ومؤلف كتب في الطب وحسب . وما من شك في أن اقتصار نشاط اليهود على نشاطات إنسانية معينة دون غيرها كان أمراً طبيعياً للغاية من أقلية تلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة اقتصادياً ووجدانياً بسبب وظيفتها .

العصر الحديث

والواقع أننا لا نسمع عن مساهمة اليهود في الحضارة إلا مع بدايات ظهور الرأسمالية والعلمانية . وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن إسبينوزا ، أول فيلسوف يهودي عالمي ، قد ظهر في

هولندا مهد الرأسمالية الحديثة ومهد الفكر اليهودى الحديث فى الغرب . ظهر إسبينوزا من بين اليهود السفارد المتمتعين بمستوى حضارى مرتفع بسبب احتكاكهم بالحضارة الإسلامية ، على عكس اليهود الأشكناز الذين تدنى وضعهم الحضارى داخل الحضارة المسيحية . وقد كان إسبينوزا أيضاً من أوائل المفكرين العلمانيين الذين طرحوا انتماءهم اليهودى جانباً ، فلم يكن إبداعه وبروزه نتيجة انتمائه اليهودى ، وإنما تم هذا الإبداع وذلك البروز بالرغم من هذا الانتماء وبسبب رفضه ، وذلك مع عدم إنكار أن التراث اليهودى القبالى قد لعب دوراً مهما فى تحديد معالم فكره أو فى تأكيد الواحدية المادية الكونية أو الاتساق الهندسى عنده اللذين يشكلان جوهر نسقه الفلسفى .

وقد ظل المفكرون اليهود يساهمون فى بناء الحضارة الأوربية باعتبارهم أوربيين علمانيين أولاً وأخيراً ، أى أن يهودية المفكر والعبقرى لم تكن هى العنصر الأساسى فى إسهامهم . وقد زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثورية فى الغرب والشرق ، إذ إن هذه القيم فتحت المجال أمام أعضاء الجماعات اليهودية .

وفى تصورنا أن أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب قد حققوا ، مع تزايد علمنة المجتمع الغَربى ، بروزاً كبيراً فى العصر

الحديث لأنهم كانوا من القطاعات التى تمت علمنة نخبتها المثقفة بشكل كامل كما تمت علمنة الجماهير اليهودية كلها بشكل كامل وقاس وفجائي ومخطط ، من قبل الدولة الفرنسية أو النمساوية أو الروسية ، مما أدى إلى حدوث صدع وانقطاع واضح بين انتمائهم الدينى وتراثهم من ناحية ووجودهم فى العصر الغربى الحديث من الناحية الأخرى . وقد أدى هذا الصدع إلى علمنة اليهود بشكل حاد وبمعدل يفوق معدلات العلمنة فى معظم القطاعات الأخرى للمجتمع . وأصبح الإنسان اليهودى فى الغرب هو الإنسان الحديث الذى لا انتماء ولا جذور له ، والذى لا يشعر بحرمة شىء وينزع القداسة عن الإنسان والعالم ، ولذا أصبح لدى أعضاء الجماعات اليهودية من الكفاءات اللازمة للتعامل مع المجتمع الجديد ماهو أكثر مما لبقية أعضاء هذا المجتمع من المسيحيين ، فاستطاعوا أن يحققوا بروزاً وصعوداً أعلى من بقية أعضاء المجتمع ، ولكنه على أية حال صعود وبروز من داخل المجتمع لا من خارجه . ونحن لا ننكر أثر المكوِّن اليهودى فى تكوين العبقرى اليهودى ، فأثر القبالاة اللوريانية واضح تماماً على تفكير فرويد ، وجاك دريدا فيلسوف التفكيكية . ونرى أن المدرسة التفكيكية فى النقد والفلسفة هى نتاج مدارس التفسير اليهودية ، وأن اليهودية بوصفها تركيبة جيولوجية تحوى داخلها عناصر كثيرة متناقضة (بعضها عبثى وبعضها عدمى أو غنوصى) تتيح للعبقرى اليهودى استعداداً كامناً أكثر من

غيره لاكتشاف مثل هذه التيارات فى المجتمع ، والتعبير عنها بطريقة مباشرة أكثر من غيره . ولكن يجب أن نشير أيضاً إلى أن المكوِّن اليهودى ذاته هو نتاج تفاعل اليهود مع ما حولهم من حضارات ، فالغنوصية هى حركة سادت فى الشرق الأوسط القديم وتأثرت بها اليهودية . كما أن العبقرى اليهودى قد يكون لديه استعداد كامن لاكتشاف شىء ما ، لكن هذا الشىء سيظل جزءاً من تشكيل حضارى غير يهودى ، بمعنى أن الحركيات النهائية هى حركيات الحضارة التي يعيش فيها اليهودى ، ففرويد مهما كان علمه بتراث القبالاه ، لا يمكن تخيل أن يصل إلى نظرياته وهو فى اليمن ، فهو نتاج مجتمع فيينا فى أواخر القرن التاسع عشر بكل ما كان يحوى من إبداع وانحلال ، وتركيب وتخثر .

ويلاحظ أن بعض المؤلفين والرسامين اليهود فى الحضارة الغربية بدأوا ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فى تناول مضامين يهودية فى أدبهم وفنهم . ولكن مثل هؤلاء لا يختلفون البتة عن المؤلفين غير اليهود الذين يتناولون مضامين يهودية ، ذلك أن طريقة التناول - بكل مزاياها وعيوبها - تظل جزءاً من التشكيل الحضارى الغربى . إن سول بيلو وفيليب روث - وكلاهما كاتب أمريكى يهودى - يتناولان شخصيات أمريكية يهودية ، إلا أن أدبهما لا يمكن أن يصنف على أنه أدب يهودى ، إذ يظل هذا الأدب أدباً أمريكياً مكتوباً بالإنجليزية ، ينتمى إلى التراث الأدبى

الأمـريكي ولا يمـكن فهمـه خارج هـذا التراث . وهمـا في هـذا لا يختلفـان عن جيمس جويس في رواية يوليسيس حينما جعل أحد أبطال روايته يهودياً ، ومع هذا لم يصنفها أحد على أنها من عيون الأدب اليهودى ، شأنها فى هذا شأن رائعة شكسبير تاجر البندقية .

ويعود اهتمام بعض الكتاب الغربيين بالموضوعات والمضامين اليهودية إلى انتشار التيارات العدمية والعبثية بين اليهود. وقد وجد بعض الكتاب الغربيين (اليهود والمسيحيين) أن اليهودى هو رمز الاغتراب الأزلى الذى يقف على حافة التاريخ شاهداً عليه تماماً مثل اليهودى التائه .

أما بخصوص العبقريات التى تنتجها إسرائيل ، فإن الأمر يتوقف على جنسية العبقرى، فإن كان هذا العبقرى إسرائيلياً فهو تعبير عن العبقرية الإسرائيلية، أما إذا كان من أصل روسى أو ألمانى فهو عبقرى روسى أو ألمانى. أى أن العبقرية اليهودية تظل مقولة مجرَّدة لا وجود لها إلا بين صفحات الكتب الصهيونية أو المعادية لليهود. وبدلاً من ذلك، يتعين علينا أن نتحدث عن عباقرة يؤمنون بالدين اليهودى، أو عن عباقرة ذوى بعد إثنى يهودى، وينتمون إلى الحضارات الإنسانية المختلفة فى مختلف الأماكن والأزمان.

والواقع أن الحديث عن العبقرية اليهودية يضم مقولات معادية لليهود ، إذ يمكن الحديث عن تفرد اليهود وعبقريتهم فى السرقة والفساد . وهناك دراسات قام بها البعض لإثبات أن الجرائم الجنسية ، على سبيل المثال ، أمر شائع بين اليهود وأنها تعبير عن العبقرية اليهودية هذه !



ليو فرانك

الفصل السادس

حادثة ليو فرانك

لايختلف النموذج الاختزالى الصهيونى فى إدراكه لليهود عن النموذج الاختزالى التآمرى ولا يختلف الواحد عن الآخر فى آليات عمله ، ومن ثمَّ فطريقة تحدى هذا النموذج وكشف اختزاليته وتبسيطيته وعنصريته لا تختلف عن الطريقة التى اتبعناها فى الباب الأول من هذا الكتاب : أى وضع الظاهرة أو الواقعة فى سياق تاريخى وإنسانى واسع لنسقط عن اليهود الهالة التى يخلعها عليهم النموذج الاختزالى ونبين أنهم بشر لا يتسمون بأى فراده ولا يتمتعون بأى حصانة أو قدسية ، وأنه يمكن فهم سلوكهم بطريقة أفضل لو نظرنا لهم لا باعتبارهم كتلة واحدة متماسكة وانما باعتبارهم جماعات يهودية متفرقة تتأثر بالإطار الحضارى الذى تعيش فيه .

ومن أهم الحوادث التى ترد فى الأدبيات الصهيونية حادثة ليو فرانك ، وهو أمريكى يهودى ولد فى تكساس بالولايات المتحدة

الأمريكية ونشأ فى بروكلين أحد أحياء اليهود المهمة فى مدينة نيويورك . واتهم ليو فى قضية عام ١٩٠٨ ، ويقال إن كونه يهودياً كان عنصراً مهماً أثر فى محاكمته وفى الأحداث التى تلتها . كان فرانك يعمل مديراً لمصنع أقلام فى أتلانتا (ولاية جورجيا) حيث قبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ثلاثة عشر عاماً تدعى مارى فيجان ، وذلك بعد محاولة اغتصابها . وقد حوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه . وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة ، هاجم مجموعة من المواطنين السجن واختطفوا فرانك وشنقوه فى المدينة التى ولدت ودفنت فيها ضحيته المفترضة ، وهو ما يسمى باللهجة الإنجليزية الأمريكية «لينشنج» Lynching وهى عملية الاختطاف والشنق . وقد صدر عفو عن فرانك عام ١٩٨٦ وبرىء اسمه من الجرم الذى نسب له .

الثورة الصناعية المتأخرة

ويجرد الصهاينة هذه الواقعة من سياقها التاريخى ليفرضوا عليها معنى صهيونياً بحيث يظهر اليهودى وكأنه الضحية الوحيدة لعنف الأغيار . ولو نظرنا إلى واقعة ليو فرانك بمنظار تاريخى ، فسنكتشف أنه لم يكن ينظر إليه باعتباره يهودياً أساساً وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعدة عناصر تاريخية واجتماعية

وثقافية ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته . وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع ، مسرح الواقعة ، كان يخوض ثورة صناعية حقيقية متأخرة ، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين أو المهاجرين المقتلعين من جذورهم الزراعية ، سواء في أوربا أو جنوب الولايات المتحدة . والواقع أن من أهم مظاهر الثورة الصناعية تركز السكان في المدن ، وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، إذ زاد من نحو ٨٩٫٨٧٠ إلى نحو ١٧٣٫٧١٣ ، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لأى مدينة أمريكية في نفس الفترة باستثناء برمنجهام (بولاية ألاباما) . وكان نمو المدينة عشوائياً ، ولذلك لم تكن هناك المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة ، مثل : أماكن الترويح ، أو أماكن السكن ، أو ما يكفي من المستشفيات العامة ... إلخ . وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن ، فقد كان هناك حوالي ٢٠٫٣٠٨ من المساكن لنحو ٣٥٫٨١٣ أسرة ، وكان نصف المساكن لا تصلها المياه ، وكان نحو ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لايوجد بها نظام للصرف الصحي . وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية ، وانتشرت الأمراض مثل التيفود وغيره من الأمراض ، وارتفعت معدلات الوفاة ، ويقال إن ٩٠٪ من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهري .وكان أجر الطفل اليومي لا يزيد

على ٢٠ سنتاً ، وكان الأجـر الأسبوعي لمـاري فيجـان دولاراً وعشرين سنتاً .

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية وحسب ، وإنما كان موبوءاً من الناحية الأخلاقية أيضاً ، وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع . وقد انتشرت مختلف أنواع الجرائم - السرقة والقتل والدعارة والسُّكْر . وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا من أعلى النسب في الولايات المتحدة بحيث كانت تعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم . وقد قبض البوليس عام ١٩٠٧ على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢٫٧٠٠ في ذلك العام. ومع هذا ، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية ، إذ إن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة لم يكن يزيد على مائتي شرطي . وكانت توجد في المدينة الواسعة نقطة شرطة واحدة . ولذا كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون . وفي عام ١٩١٢ / ١٩١٣ بالذات ، كانت هناك اثنتا عشرة جريمة قتل لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها .

الشمال والجنوب

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا . ولنا أن نلاحظ أن هذه الثورة كانت في الواقع جزءاً من عملية غزو واسعة ، فالجنوب الأمريكي ، مسرح الواقعة ، كان لايزال يشعر بمذاق

الهزيمة فى الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزمه الشمال الصناعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات ، وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ شخص حياتهم إبان هذه الحرب . وبعد انتصار الشمال فتحت الولايات الجنوبية (المتخلفة نسبياً وذات الاقتصاد الزراعى) للرأسمال الشمالى وللنخبة الشمالية التى أسست الصناعات وغزت السوق . ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية ، وأن ما يسميه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة هو فى واقع الأمر «غزو» شمالى للجنوب وهيمنة عليه . وهو غزو لمجتمع زراعى كانت تسوده علاقات شبه إقطاعية توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة وبقيم الشرف والالتزام الإقطاعى، وكان ذلك المجتمع مجتمعاً أنجلو ساكسونياً بروتستانتياً لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين كما حدث فى بقية الولايات المتحدة ، خصوصاً فى الساحل الشرقى . وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية فى مجتمع الجنوب وتتسم بقدر كبير من التماسك ، وكانت المرأة هى رمز هذا التماسك الأسرى ، ولذا كانت محط تقديس المجتمع . لكن أعضاء مثل هذا المجتمع الزراعى الأرستقراطى عادةً ما ينظرون بغير قليل من الاحتقار ، بل وبالبغض أحياناً ، إلى الاقتصاد النقدى المبنى على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب .

وقد كانت شكوكهم فى محلها ، إذ إنه بعد توحيد الشمال مع الجنوب فتح الجنوب أمام الصناعات الشمالية التى هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضى القليلة التكاليف والسوق البكر ، وهى صناعات لم تخدم تقاليد المجتمع كثيراً ، بل ساهمت فى تفكيك نسيجه المجتمعى وفى تحطيم بناء الأسرة ، فكان الأطفال يعملون فى المصانع ساعات طويلة ، وكذا النساء . وقد أدى دخـــول الصنــاعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبع ذلك من تفكك اجتماعى ، فى المراحل الأولى على الأقل ، خصوصاً أن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور عضوى وتفاعل عناصر محلية وظهور بورجوازية فى رحم المجتمع ذاته ، وإنما فرضت عليها فرضاً من المجتمع اليانكى الشمالى .

فرانك الرمز

كان ليو فرانك رمزاً لهذه القوة الغازية ، فقد كان شمالياً فى الجنوب ، صاحب ومدير مصنع فى مجتمع زراعى ينظر بعين الشك إلى الصناعة ، يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة فى مجتمع كان يقدس الأسرة حتى عهد قريب . وكان يشار إلى مارى فيجان على أنها «عاملة المصنع الصغير» ، أى أنها تحولت إلى رمز الطفولة البريئة التى استغلها المستثمرون من الشمال . وكان فرانك خريجاً فى الجامعة وعضواً فى النخبة

العلمانية المهيمنة التى لاتكترث كثيراً بالقيم التقليدية فى وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية لاتزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية وتحلم بالمجتمع المتماسك الذى دمر إبان الحرب الأهلية . ولم تكن يهودية فرانك سوى البؤرة التى جمعت كل هذه العناصر السابقة وبلورتها ، إذ إن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعى الغازى والجنوب الزراعى الذى تم غزوه ، وبين ضحايا التقدم والصناعة وممثلى هذا المجتمع الجديد الرهيب .

وقد يكون من المفيد عند هذه النقطة أن نتناول الانتماء اليهودى لفرانك ، كان فرانك يشغل منصب رئيس فرع جماعة البناى بريت (لمكافحة الافتراء) اليهودية فى المدينة . كذلك لابد أن نعرف على وجه الدقة موقف الجنوب الأمريكى من اليهود . لقد حدد الجنوب الأمريكى التضامن على أساس عرقى بسيط (الأبيض فى مقابل الأسود) على عكس الشمال الذى حدده على أساس عرقى دينى إثنى مركب : أبيض بروتستانتى من أصل أنجلو ساكسونى ، يليه أبيض كاثوليكى من أصل إيطالى وأيرلندى ثم يليهما اليهودى الأبيض فى المنزلة وأخيرا يأتى الأسود ، كاثوليكيا كان أم بروتستانتيا ، فى المؤخرة فى أسفل الدرك . ومن الواضح أن التعريف الجنوبى لم يستبعد اليهود، وإنما صنفهم على أنهم بيض، تماما كما حدث فى جنوب أفريقيا . وقد سمح لهم هذا بدرجة عالية

من الاندماج والحراك الاجتماعي ، فأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع ، وكانوا أعضاء في النخبة الحاكمة وامتلكوا الرقيق وتاجروا فيه ، ولم تكن هناك صورة مستقلة لليهودى فى الوجدان الأمريكى الجنوبى التقليدى .

مزيد من التفا صيل

لقد أشرنا من قبل إلى أن ليو فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية . ويمكن أن نضيف هنا أنه ، مع التحولات التى دخلت على الجنوب ، اكتسبت كلمة «يهودى» مدلولاً جديداً . فلم يكن يهود جورجيا هم يهود الجنوب التقليديين القدامى وإنما كانوا عنصراً غريباً جديداً وافداً . وفى عام ١٩١٠، كان اليهود فى أتلانتا (جورجيا) يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب، إذ بلغ عددهم ١٣٤٢، أى ٢٥٪ من مجموع الأجانب . وبالرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز ١٪ من عدد السكان، فإنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة حققت بروزاً مشيناً . فقد كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة ، وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادى الأوربي ، وكان زبائنهم من الزنوج أساساً . ويقال إن بيوت الدعارة التى امتلكها اليهود كانت تزينها «صور نساء بيض لإثارة شهوة الزنوج الذين كانوا يحتسون الخمر فى الحانات اليهودية وينطلقون بعدها كالوحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصرية،

ولكنها على أية حال ربطت الجرائم الجنسية فى ذهن سكان أتلانتا باليهود . وكان فرانك نفسه مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن، ويقال إن مارى فيجان نفسها اشتكت إلى صديقاتها من المحاولات الإباحية من قبل فرانك . وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً ، وقد يكون السلوك الإباحى المنسوب إلى فرانك لا يختلف عن سلوك أو حركات أى شخص جاء من مجتمع حضرى مفتوح يتصرف بتلقائية فى مجتمع مغلق فيساء فهم سلوكه وحركاته . قد يكون هذا هو الوضع ، ولكن المهم إدراك الناس له ولسلوكه ، خصوصاً أن اشتغال اليهود بالمهن المشينة يدعم من هذا الإدراك .

وإلى جانب هذه الخلفية الاجتماعية والتاريخية والثقافية ثمة جانب احصائى مهم . فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية ليو فرانك وإلى الظلم الذى حاق به نتيجة اختطافه من السجن وشنقه ، بعد أن خفف الحاكم الحكم عليه . ولكن هذه الدراسات لا تذكر الحقائق التالية :

١ - لم يكن احترام القانون سمة سائدة فى المجتمع الأمريكى ككل ، ومجتمع أتلانتا على وجه الخصوص . فعلى سبيل المثال ، قبضت الشرطة ذات مرة على كل الذكور القادرين لأن أتلانتا كانت تعانى من نقص فى العمالة . ومن المعروف أن الشرطة اتهمت عام ١٩٠٩ بضرب أحد الزنوج ضرباً أفضى إلى موته ، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها .

٢ - اندلعت عام ١٩٠٦ اضطرابات ، فهاجم السكان البيض حى السود لعدة أيام واشتبكوا معهم فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين ، فى حين قتل من بينهم رجلان وجرح عشرة ، واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطنى . ويقال إن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت فى الصحف عن هجوم السود على النساء البيض .

٣ - كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة ، وبالتالى إلى مزيد من المهاجرين . ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين . ففى عام ١٨٩١ ، تم اختطاف وشنق أحد عشر مهاجراً إيطالياً . وفى عام ١٨٩٩ ، اختطف خمسة آخرون . وفى عام ١٩٠٠ ، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة .

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ألفين وخمسمائة حالة اختطاف وشنق (لينشنج) أخرى . وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود ، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى ، ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودى وشنق وهى حالة ليو فرانك ! وهكذا يتحول الاستثناء إلى القاعدة فى الأدبيات الاختزالية الصهيونية ويتحول الخاص إلى عام وتتحول الواقعة العابرة إلى رمز عالمى مركزى !



الفريد دريفوس : بطل الحرية أم جاسوس وخائن ؟

الفصل السابع

حادثة دريفوس

من أهم الوقائع التي يركز عليها النموذج الاختزالي الصهيوني «حادثة دريفوس» التي يشار إليها أيضا بعبارة «واقعة دريفوس»، وبطلها هو ألفريد دريفوس (١٨٥٦ - ١٩٣٥) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين . وقد كان اليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي، ولد في مقاطعة الألزاس باسم «مولهاوزن» لأسرة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي ، ونظرا لأن اسمه ألماني الطابع فقد غيره إلى اسمه الذي اشتهر به . وقد اتهم دريفوس بأنه سرق وثائق سريّة عسكرية بمساعدة الماسونيين ، وسلمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس ، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤ فقامت السلطات العسكرية بمحاكمته ، وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث وعبأت الرأي العام ضده ، الأمر الذي خلق جوا غير ملائم لضمان حياد المحاكمة ، وفي نهاية الأمر قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة ، وجرد من رتبته علناً أمام الجماهير ونفي إلى

جزيرة الشيطان (ديفلز أيلاند) التى تقع على الساحل الأفريقى (وكانت مستعمرة فرنسية) ورحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم .

وقد وصفت واقعة دريفوس بأنها تركت أثرا عميقا على تيودور هرتزل لدرجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج ، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيونى ، لكن هذه الفكرة فى حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التى أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلا للمسألة اليهودية . ولكن الحقيقة التى لا توردها المراجع الصهيونية هى أن هرتزل نفسه كان مقتنعا فى بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنبا وخائنا ، ولا أحد يدرى ما الذى جعله يغير رأيه فيما بعد - ولكن هذا ليس هو موضوعنا الأساسى وقد يكون الأجدى وضع واقعة دريفوس فى إطارها التاريخى والاجتماعى والإنسانى .

دريفوس كأجنبى

ابتداءً كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية لأسباب وجيهة . فالقوات الفرنسية ذاتها كانت تجند كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل كجواسيس لحسابها . ولذا ، ساد الاعتقاد بأنه لابد أن ألمانيا ذاتها كانت تقوم بنفس الشيء ، وهو أمر متوقع . ويجب تذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوربى لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات

التاريخية . ففى القرن السابع عشر ، لعب أعضاء الجماعات اليهودية فى أوربا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول ، وقد حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود أعضاء الجماعات اليهودية ويوطنهم فى إنجلترا حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له .

ويلاحظ أن هذه الفترة شهدت كساداً اقتصادياً فى أوربا ، الأمر الذى أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا ، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية . وكان عدد العمال الإيطاليين عام ١٨٧٢ نحو ١١٢ ألفاً . فأصبحوا ٣٠٠ ألف عام ١٨٩٠ ، وجاء معهم قرويون (من القرى الفرنسية) يتحدثون لهجاتهم المحلية ، مثل البريتون والأفيرنيان . كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصبغة الفرنسية . ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوربا الذين يتحدثون اليديشية (وهى رطانة ألمانية) . وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب . كما أن تزايد يهود شرق أوربا ويهود الألزاس واللورين ، على حساب العنصر اليهودى الفرنسي المحلى ، أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب . ومن المعروف أن العناصر الأجنبية عادةً ما تتعرض فى فترات الكساد الاقتصادى للهجوم من قبل أعضاء الأغلبية المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنهم سبب الأزمة. كما أن العامل الأجنبى

يرضى بأجور أقل ومستوى معيشى أكثر انخفاضاً ، الأمر الذى يثير الحقد عليه .

وعلاوة على هذا ، كان الجو العام فى فرنسا آنذاك متوتراً، خصوصاً إزاء أعضاء الجماعة اليهودية ، بعد هزيمة الجيش الفرنسى على يد الألمان عام ١٨٧٠ . وقد كانت العناصر الليبرالية التى كانت تضم نسبة عالية من أعضاء الجماعات اليهودية تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا . كما كان المد العلمانى آخذاً فى التزايد وفى الإصرار على فصل الدين عن الدولة . هذا ، إلى جانب أن الثورة الصناعية اقتلعت الكثيرين من جذورهم وأدت إلى إفقارهم وقذفت بهم فى المدن الكبرى (مثل باريس) . وكان هؤلاء المقتلعون يشعرون بانعدام الأمان فى المجتمع الجديد (بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية) والذى كان اليهود يوجدون فى مركزه . وإلى جانب كل ذلك ، كان هناك أيضاً عدد كبير من اليهود بين قيادة كومونة باريس فى عام ١٨٧١ . وقد أدى هذا كله إلى ربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية فى المجتمع . ولكن من المفارقات التى تستحق التأمل ان اعضاء الجماعات اليهودية ارتبطوا فى الوقت ذاته فى الوجدان الأوربى ؛ منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، بالمصالح المالية الكبيرة ، وبالبنوك والشبكات المالية والتجارية ، وهى صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد فى عالم التجارة والمال .

وهكذا ، أصبح اليهودى رمزاً متبلوراً لكثير من العناصر محط شك الجماهير وكرهها ، فهو الأجنبى البغيض ، وهو الثورى العلمانى التقدمى الذى يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر ، وهو أيضاً رجل المال الذى لا يكترث بأى قيم سوى الربح ، ولا يرتبط بأى أرض سوى السوق . وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره ألزاسيا وأجنبيا وعضوا في طبقة المولين الأثرياء .

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التى كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية وتطرح صورة للمجتمع المبنى على التضامن المسيحى والتكافل الاجتماعى والتعاون الاقتصادى (الجماينشافت) تلك الصورة التى تقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعى الجديد المبنى على التنافس والتقاتل الذى يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح والأقوى وحسب (الجيسيلشافت) . وقد انضم أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية المتركزين فى العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التى أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة، فاليهودى كان رمزاً مهماً بلا شك للقوى الجديدة، ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة إذ إنه كان جزءاً من كل ، جزءا من القوى الاجتماعية المتصارعة فى

المجتمع الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر والتى كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها ، وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة للصراع فيما بينها .

أحداث الوقعة

ففى عام ١٨٩٦ ، اكتشف جورج بيكار رئيس مخابرات الجيش الفرنسى ، والبطل الحقيقى لواقعة دريفوس ، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه ، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور إسترهازى الذى كان قد لعب دوراً مهماً فى سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس . وقد حاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة ، ولكنه أمر بالتزام الصمت ونقل إلى تونس بسبب ذلك .

وقد شنت حملة إعلامية مكثفة قادها المفكر الفرنسى اليهودى برنارد لازار للمطالبة بإعادة النظر فى القضية حيث كتب عدة مقالات دافع فيها بحماس عن دريفوس ، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسى بإعادة النظر فى القضية لاقتناعه ببراءته . وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار ، قبض على الميجور إسترهازى وحوكم ذراً للرماد فى العيون ، ولكن سرعان ما برئ لعدم كفاية الأدلة . فكتب الروائى الفرنسى إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إنى اتهم» هاجم فيها المحاكمتين ، وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلنى وحكم عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا .

وفجأة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد انتحر الكولونيل هيوبرت جوزيف هنرى فى أثناء استجوابه ، وهو شاهد الإثبات الأول فى القضية ، بعد أن اعترف بتزويره الوثائق التى أدت إلى إدانة دريفوس . وعندما علم إسترهازى بحادث الانتحار اعترف بجريمته وفرّ إلى إنجلترا . وفى صيف عام ١٨٩٩ أمرت محكة النقض بإعادة محاكمة دريفوس على ضوء الأحداث التى استجدت تحت ضغط بعض الشخصيات من ذوى النفوذ فى الجيش ، ولكن أعلن مرة أخرى أنه مذنب . وفى هذه المرة حكم عليه، مع مراعاة الظروف المخففة ، بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمسا منها في المنفى ، وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسى إميل لوبيه بالعفو عنه . وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين عنه على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة وذلك لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص ، غير أن ألفريد دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التى اتخذتها هذه القضية فكان كل ما يتمناه ، وتتمناه عائلته الثرية المندمجة ، هو الإفراج عنه سواء عن طريق العفو أو التبرئة ولهذا فقد قبل قرار العفو ، أما بيكار فقد أصبح بطلاً قوميا ورقّاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريجادير جنرال ، وعين فيما بعد وزيراً للحرب .

ثم فتحت محاكمة دريفوس، مرة أخرى عام١٩٠٣ بضغط من القوى العلمانية والثورية وصدر الحكم بتبرئته، وأعيدت له حقوقه

السابقة ، وعين فى هيئة الأركان مرة أخرى بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة . وقد عين في أثناء الحرب العالمية الأولى برتبة كولونيل وقائدا لأحد قطاعات باريس ، ثم اعتزل الحياة العامة تماما بعد ذلك وعاش فى منزله بقية حياته غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة التى ارتبطت باسمه (حسبما أخبرنى أحد أفراد أسرتي الذى قابله فى منزله عام ١٩٢٦ وقد كان صديقا لابنه) .

وقد عمقت هذه القضية من الخلافات الموجودة بين مؤيدى وخصوم النظام الجمهورى فى فرنسا ، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية ، كما كانت وراء القانون الذى صدر عام ١٩٠٥ بفصل بقايا الدين عن الدولة .



يوسفوس أمام فسبسيان (مخطوطة من القرن الرابع عشر)

الفصل الثامن

ماسادا: بين التاريخ والأســـطورة توثيق مضـــاد *

من أهم الأحداث التى ترد فى الأدبيات الصهيونية والتى حولها الصهاينة إلى واقعة مركزية فى الوجدان اليهودى واقعة ماساده . وطريقة معالجة الصهاينة لهذه الواقعة هو مثل كلاسيكى فى اختزال التاريخ بهدف تسخيره لخدمة الرؤية الصهيونية. و«ماساده» كلمة أرامية تعنى القلعة، وهى آخر قلعة من قلاع اليهود تسقط فى أيدى الرومان أثناء التمرد اليهودى فى القرن الأول

* عبارة «توثيق مضاد» عبارة من نحتنا وهى تعنى أننى اكتفيت من التوثيق بما يلزم لتفنيد الادعاءات الصهيونية بخصوص واقعة ماساده دون محاولة لطرح رؤية مغايرة . أى أننى اكتفيت بالجهد التفكيكي ولم أقم بأى جهد تركيبى ، ربما لأن ماساده فى حد ذاتها لا تهمنى كمفكر عربى إسلامى ، وما يهمنى هو التضمينات والعملية الاختزالية الصهيونية التى فرضت عليها .

الميلادى . والقلعة تقع على صخرة مرتفعة منعزلة عند البحر الميت على حافة الصحراء، وتؤدى لها عدة ممرات واحد يسمى «ممر الثعبان» والآخر يسمى «الصخرة البيضاء» ، ولا يزال هذان الممران يعرفان بهذين الاسمين حتى وقتنا الحاضر . ويذكر يوسفوس المؤرخ اليهودى أن الكاهن الأكبر جوناثان هو الذى أسسها وحصنها ، وإن كانت بعض المصادر تذكر أنها أسست فى عهد الملوك العبرانيين ، وقد أعاد الحاكم اليهودى هيرود تأسيسها وتحصينها وأدخل فيها نظاما متقدما للرى وتخزين المياه . وقد أهتم هيرود بالقلعة لتكون مأوى له يحتمى به ، عند الحاجة ، من الشعب اليهودى الثائر ضده وخوفا من خطر كليوباترة ملكة مصر .

اختزال التاريخ

وتذكر الكتابات الصهيونية / اليهودية (مثل كتاب جرايزيل : تاريخ اليهود) أن اليهود ثاروا ضد أعدائهم الرومان وقاوموهم ببسالة شديدة وتحصنوا بالقلاع الموجودة على نهر الأردن التى ما لبثت أن تساقطت الواحدة تلو الأخرى ، ولكن قلعة ماساده كانت أشجع هذه القلاع فقد حاربت بضراوة تحت قيادة بطل يهودى من نسل عائلة قديمة نبيلة معروفة بوطنيتها يسمى العازر . ولكن المقاومة الباسلة كان محكوما عليها بالفشل بل وكان المحاصرون يعلمون ذلك تمام العلم ، ولذا حينما اخترق الرومان جدران القلعة لم يجدوا ما يجيبهم سوى سكون الموت . لقد آثر المحاربون الانتحار !

وقد حول الصهاينة هذه الواقعة التاريخية إلى أسطورة ثم أحاطوها بالهالات الصوفية وجعلوا منها رمزا للشعب الذى يفضل النضال والانتحار على الاستسلام ، وأصبحت هذه القلعة تجسيدا لفكرة «الشعب الواحد» الذى يختار دائما أن يعيش منفصلا ، فإذا مست مقدساته القومية فإنه يثور ثورة عارمة لا تبقى ولا تذر . وتساهم إسرائيل فى إشاعة هذه التصورات عن الذات اليهودية . فتقوم أسلحة الجيش الإسرائيلى بترديد يمين الولاء على قمة الماساده ، ويقسم الجنود أن «ماساده لن تسقط ثانية» ، كما يتم تنظيم رحلات لأفواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الإسرائيلية للحج إلى القلعة . وتحرص إسرائيل على أن تدرج زيارة هذه القلعة المقدسة ضمن برنامج كل زعيم سياسى أجنبى يذهب إلى اسرائيل (وقد كاد ويلى برانت أن يفقد حياته أثناء زيارته لها) . وفى عام ١٩٦٩ أعادت إسرائيل رسميا «دفن المنتحرين» حتى تضرب الأسطورة جذورها فى الوجدان اليهودى : أسطورة الشعب الذى يفضل الانتحار على الاندماج والتعايش !

ولكن النظرة الفاحصة المتأنية تثبت على التو أن المؤرخين الصهاينة قد بذلوا جهدهم فى إخفاء كثير من التفاصيل التى لا تتلاءم مع رؤيتهم الاختزالية الأحادية البسيطة . فالثورة اليهودية التى تشكل الخلفية التاريخية الاجتماعية لواقعة ماساده لم تكن ثورة «قومية» كما تدّعى الكتابات الصهيونية وإنما كانت ثورة

اجتماعية نشبت كتعبير عن شقاء الجماهير اليهودية وإفقارها على يد الأثرياء اليهود المتعاونين مع روما والذين كانوا يحكمون فلسطين «كجماعة وظيفية» لصالح الامبراطورية ولصالحهم الشخصي والذين كانوا يحاربون جنبا إلى جنب مع الرومان . وقد استمر الصراع الطبقي بعد ازدياد استغلال الرومان لمستعمراتهم في الشرق فتكون تحالف بين الفريسيين والغيورين (أو القنائين) ولكن انتماء الفريسيين للثورة كان مترددا متخاذلا ، على عكس الغيورين الذين كانوا العصب الحقيقي للثورة لأن أعضاءها أتوا أساسا من صفوف البروليتاريا الرثة التي كانت تتزايد بشكل كبير في فلسطين وفي الامبراطورية الرومانية ككل . وقد وصل الصراع الطبقي إلى درجة كبيرة حتى أن الثوار اليهود قتلوا الألوف من أثرياء اليهود الذين تحالفوا مع الرومان .

أسقط الصهاينة هذا البعد الاجتماعي تماما وبذا تحول الصراع من صراع اجتماعي داخل المجتمع العبراني في العصر الروماني إلى صراع أزلي بين اليهود والأغيار (ولنلاحظ هنا أن إسقاط إحدى المتغيرات هو في واقع الأمر إضافة لمتغير غير موجود ، إذ إنه بإسقاط الصراع الاجتماعي يظهر إلى الوجود الصراع القومي الأزلي المتجرد من الزمان والمكان) ! .

وتلجأ التواريخ الصهيونية إلى حيلة أكثر رقيا في تشويه التاريخ فبدلا من إغفال متغير إغفالا كاملا ، يحول الصهاينة

المتغير الهامشى إلى متغير محورى مما يترتب عنه تغيير الصورة الكلية وفرض اتجاه محدد ومعنى متميز على التاريخ . فواقعة ماساده الانتحارية كما تقدمها التواريخ الصهيونية تفترض أن ما حدث في ماساده هو القاعدة وليس الاستثناء . ولكن الدارس لتواريخ الأقليات اليهودية يلاحظ على التو أن «العبقرية اليهودية» - إن استعرنا مصطلحا صهيونيا - هى عبقرية التكيف والتلاؤم مع الأمر الواقع . ومن هنا كانت السمة الأساسية لتاريخ الجماعات اليهودية فى أوربا هو التحالف مع الطبقات الحاكمة أو مع الملك أو البابا أو أى سلطة قائمة لتضمن الجماعة اليهودية لنفسها البقاء والاستمرار (والصهيونية ذاتها من أكبر مظاهر هذه المقدرة على التكيف والتعامل بكفاءة شديدة مع الواقع ، فهى بحسها العملى تتحالف دائما مع القوة الإمبريالية الصاعدة ، ولذلك نقلت مركز نشاطها من الآستانة فى أواخر القرن الماضى إلى واشنطن هذه الأيام مرورا ببرلين ولندن وباريس) . والتكيف السريع والمقدرة على التنازل هما من سمات العقلية التجارية الكفء ، ويهود العالم الغربى الذى جاء الصهاينة من صفوفهم ارتبطوا بمهنة التجارة ارتباطا وثيقا . وإذا ما نظرنا لماساده فى إطارها التاريخى المتكامل لوجدنا أن اليهود لم يتخلوا قط عن حيويتهم ومرونتهم وتكيفهم ، فماساده لم تكن سوى قلعة واحدة ضمن ثلاث قلاع أخرى سقطت الأولى (هيروديام) دون مقاومة ، واستسلمت الثانية

(مكايروس) بعد مقاومة بسيطة ، وقد تم استسلام المحاربين بعد أن وعدهم الرومان بالسلام والحياة ، ولم تنتحر إلا ماساده - أي أن قلعتنا الصهيونية ليست القاعدة بأية حال ، فالقاعدة هي تفضيل الاستسلام «إن أمكن» على الانتحار ولكن لِمَ لم تستسلم ماساده مثل القلاع الأخرى ؟ هنا نجد أن تكنيك «الإضافة» عن طريق «الإغفال» قد استخدم مرة أخرى . تذكر الموسوعات اليهودية أن الثوار اليهود استولوا على ماساده من الحامية الرومانية التي كانت تحتلها عن «طريق الحيلة» دون أي ذكر لهذه الحيلة . ولكن واقعة الانتحار في تصوري لا يمكن تفسيرها دون أخذ طبيعة هذه «الحيلة» في الاعتبار ، اذ يبدو أن الثوار اليهود قد أقنعوا الحامية الرومانية بالاستسلام وبإلقاء السلاح في مقابل الأمان ، وحينما فعلوا ذلك أبادهم اليهود عن بكرة أبيهم - ربما بسبب جهلهم بأصول الحرب وبعض السلوكيات الخاصة بادارة الصراع ، فقد كان المقاتلون اليهود من الفقراء وأعضاء العصابات الهائمة في الطرقات . لقد استسلم المتمردون اليهود في القلاع الأخرى لأن فرصة الحياة كانت قائمة أمامهم ، بينما لم يستسلم المتمردون في ماساده بالذات لأن هذا البديل لم يكن مطروحاً أمامهم .

وهناك احتمال أن يكون القائد الروماني قد قام بذبح اليهود كما فعلوا هم بالحامية الرومانية ستة أعوام من قبل ، ولكن يوسفوس المؤرخ اليهودي حول المذبحة إلى انتحار جماعي لأسباب

خاصة به سنذكرها فيما بعد . وهكذا نجد اغفال ذكر «الحيلة» يحسّن من صورة اليهود (وذلك لتوظيف التاريخ في خدمة العلاقات العامة) كما أنه يجعل الانتحار اليهودى مسألة لا تفسير لها - جزءا أزلي من الطبيعة البشرية اليهودية .

ومن التفاصيل التى يهملها التاريخ الصهيونى أن ماسادة لم تكن على جانب كبير من الأهمية (كانت هيروديام هى أهم القلاع)، فنحن نعرف أن القائد الرومانى تيتوس رحل عن فلسطين بعد أن أخمد الثورة اليهودية ولم يشأ أن يضيع وقته فيما لا يفيد ، فترك القلعة لحاكم فلسطين الرومانى ليفتحها بالطريقة التى يراها . فضرب الرومان الحصار حول القلعة لمدة عدة سنوات ثم اقتحموها بعد أن اخترقوا كل الأسوار التى شيدها اليهود وبعد أن أضرموا النار فى سورها الخشبى ثم فى القلعة ذاتها . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الثورة اليهودية ككل لم تكن مصدر قلق كبير للامبراطورية الرومانية لأن فلسطين لم تكن على جانب كبير من الأهمية ، وإنما كانت مجرد بلد صغير يسبب شيئا من الصداع للامبراطورية التى كانت ترغب فى فرض «السلام الرومانى» على الشعوب ونجحت فى ذلك إلى حد كبير ، وإذا ما عرفنا أن الثورة اليهودية كان محكوما عليها بالفشل من البداية بسبب قسوة روما الإمبريالية (وكان يوسفوس الذى زار روما يعرف هذا تمام المعرفة ولذلك كان من دعاة الاستسلام) . إذا ما عرفنا كل هذا تفقد واقعة

ماساده كثيرا من بريقها وتصبح واقعة لا أهمية لها لا في تاريخ البشرية ولا في تاريخ الجماعات اليهودية ذاتها ، تماما مثل أنف كليوباترة الذى كان يظن بعض المؤرخين أنه لو طال قليلا لتغير مجرى التاريخ !

الفلافيوس كومبلكس

ولكن من أكثر الأشياء قحة وتزييفا اغفال الكتابات الصهيونية لذكر حقيقة أن هناك مصدرا وحيدا ومشكوكا في أمره لواقعة الانتحار في ماساده - هذا المصدر الوحيد هو كتابات المؤرخ اليهودى يوسفوس فلافيوس (٣٨-١٠٠م) واسمه العبرى الأصلى هو يوسف بن متتياهو هاكوهين «سياسى وقائد عسكرى ومؤرخ يهودى من أسرة فريسية أرستقراطية وصف بأنه شخص شديد الطموح ولا ضمير له» . وعلى الرغم من أن التعليم الذى تلقاه يوسفوس كان تعليما دينيا يهوديا وحسب إلا أنه كان يبدو على دراية كبيرة بالعالم فقد سافر إلى روما وتعرف على مدى قوتها واستنتج عبث الوقوف أمام هذه القوة . وحينما نشبت الثورة اليهودية عينت الحكومة الجديدة يوسفوس قائدا عسكريا لمنطقة الجليل عام ٦٦م، وهى منطقة كانت معروفة بخصبها وثرائها ، كما أنها كانت تعد أهم منطقة من الناحية العسكرية ، لأنه كان من المتوقع أن يأتى الرومان من الشمال وأن يقابلوا أول من يقابلون تحصينات هذه المنطقة العسكرية . وحينما وصل الرومان سرعان ما

تساقطت التحصينات والمدن اليهودية الواحدة تلو الأخرى ، فحاول يوسف هاكوهين الهرب ولكنه لم يفلح إذ أبقاه جنوده رغم أنفه (ويبدو أن علاقة هاكوهين بجنوده لم تكن طيبة بسبب الانتماءات الطبقية ، فالقائد كان فريسيا ثريا مترددا فى قراراته على علاقة طيبة بالأثرياء المتحالفين مع روما ، يعيش وسط جنود غيورين من الفقراء) . ثم فر القائد والجنود إلى أحد الكهوف وهناك قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية . فقام هاكوهين بعمل القرعة بنفسه بطريقة كفلت له أن يكون آخر المنتحرين ثم أشرف على عملية الانتحار ذاتها . ولكن حينما لم يبق الا هو وشخص آخر أقنعه بالاستسلام للرومان بدلا من الانتحار . وحينما مَثُلَ هاكوهين بين يدى القائد الرومانى فلافيوس فسبسيان ادعى النبوة وتنبأ للقائد الرومانى بأنه ينتظره مستقبل باهر وأنه سيتبوأ عرش روما (ويقال إن الحاخام يوحنا بن زكاى الذى فر من القدس قبل تحطيمها قد فعل نفس الشىء . وهاكوهين وبن زكاى من الفريسين حماة تقاليد «الشريعة الشفوية») . بعد هذا قام هاكوهين المتنبى بحملة إعلامية («بروباجندا» على حد قول الموسوعة اليهودية) للترويج لنبوءته ثم غير اسمه من يوسف إلى يوسفوس واتخذ اسم القائد الرومانى اسما ثانيا له وأصبح يدعى يوسفوس فلافيوس (وتغيير الاسم جريمة لا تغتفر لأن اسم اليهودى أمر له دلالة عميقة فى الديانة والتراث اليهوديين ، وفى إسرائيل يغير المهاجرون

اسماءهم بعد وصولهم لأرض الميعاد ، أى يستبدلون اسماءهم الأصلية بأسماء عبرية ، كما أن هناك قانونا يفرض على كل الشخصيات المهمة عبرنة اسمائها).

كل هذه الحقائق النفسية تؤدى بنا إلى الشك فيما يقوله يوسفوس بخصوص ماساده ، بل يمكننا القول إن هناك ما يمكن تسميته بمركب ماساده «الفلافيوس كومبلكس» (وليس الماساده كومبلكس) فهزيمة يوسفوس ثم اشرافه على انتحار جنوده قد تركت أثرا عميقا عليه وسببت له كثيرا من الآلام النفسية (فنحن نفترض أنه إنسان مثلنا يأكل ويشرب ويحب ويتعذب) . فهذا الرجل الذى أشرف على ذبح إخوانه فى الدين وفى القتال والذى انسلّ كالشعرة من العجين بعد أن أتى بفعلته ثم تحول إلى داعية للرومان ينتقل مع القوات الرومانية أينما ذهبت مبشرا وداعيا للاستسلام للامبراطورية – هذا الرجل كان يشغل أهم منصب عسكرى وكان مسئولا عن الهزيمة . لا غرو اذن أن يحاول أن يحرز ما فشل فيه من انتصارات على الورق ، وأن يعوض إخوانه الذين انتحروا بقطعة إعلامية باهرة ، وكانت كتاباته هى إفراز هذا الكومبلكس ، ففيها نجد كل الفضائل والخلال الأسطورية التى لا يتحلى بها إنس ولا جان خاصة إذا كان إنسا ضعيفا مثل يوسفوس فلافيوس (وهو فى هذا يشبه من بعض النواحى صهاينة الولايات المتحدة النشطين ، الذين يحضرون كل المهرجانات الصهيونية ويدافعون عن

إسرائيل على صفحات الجرائد دفاعا بطوليا وينسبون كل الفضائل الصهيونية الأسطورية للآخرين ، بل ويستنكرون على الإسرائيليين أى انحراف عن الحياة اليهودية المثالية الحقة ثم يستمرون فى حياتهم البابلية العفنة - حسب مقاييسهم الطاهرة !).

وقد قضى يوسفوس بقية أيامه فى روما حيث كتب بعض المؤلفات من أهمها كتاب **تاريخ اليهود** (٧٥م) حاول فيه أن يدافع عن أعمال تيتس فى فلسطين أمام اليهود . وأن يدافع أيضا عن اليهود أمام الرومان . وقد حاول فى الوقت ذاته أن يلتمس الأعذار لنفسه لانشقاقه على بنى جلدته . وقد صور يوسفوس الحرب اليهودية من وجهة نظر «فريسية» على أنها حرب من صنع بعض المهووسين (أو القنائين) حرب لم يردها اليهود كشعب وإنما فرضت عليهم فرضا من قبل جماعة من «اللصوص» لم تترك إثما دون اقترافه . أما كتاب يوسفوس الثانى ، **قدم اليهود** ، فقد كتب هو الآخر لأغراض إعلامية (إن صح استخدام هذا المصطلح الحديث) فهو كتاب يدافع عن اليهود ويصف عاداتهم وأخلاقهم بطريقة تحببهم إلى النفس ، وهو بهذا كان يطمح إلى تبرئة نفسه من تهمة الخيانة التى لصقت به . أى أن كتابات يوسفوس فى معظمها اعتذارية تبريرية . وقد وصفته **الموسوعة اليهودية** بأنه لا يعتد به

كمؤرخ فطموحه كان أساسا طموحا أدبيا ووصفت كتبه بأنها ذات قيمة أدبية بالدرجة الأولى .

هذا اذن هو المصدر الوحيد المعروف لواقعة ماساده ، وهو مصدر «أدبى» مشكوك فى قيمتة التاريخية . ونحن لو نظرنا بقليل من التمعن لحادثة ماساده كما وصفها يوسفوس لوجدنا أنها تتصف بكثير من سمات الحواديت الميلودرامية :

الموقف المبدئى موقف ميلودرامى للغاية لا مخرج منه البتة الا بانفجار أبوكاليبسى كامل ، فالأبرياء يحاصرهم الرومان حصارا كاملا وكأنهم يد القدر الذى لا راد لقضائه .

يتخلل هذا العمل الأدبى «مناظر مؤثرة» ، كما أننا نجد مآسى الحرب ومناظرها الهائلة وقد صورت بشكل نابض بالحياة وهى تصل إلى الذروة فى البانوراما الخاصة بتحطيم الهيكل (على حد قول **الموسوعة اليهودية**) .

يلاحظ تركيز يوسفوس على التفاصيل ربما ليزيد من استمتاع القارىء بهذا العمل الأدبى أو ربما ليمكنه من معايشة التجربة المثيرة بشكل مباشر . ولذا يقول المؤرخ اليهودى : «حينما استولى الرومان على القلعة كان الأثاث لايزال محتفظا بكل بهائه أما القمح فكان متوافرا وبكميات كبيرة ، والفاكهة كانت لاتزال طازجة وناضجة» ، وإلى جانب كل ما تشتهيه الأنفس السوية

الإنسانية ، كان يوجد ما تشتهيه الأنفس غير السوية العدوانية ، فالقلعة كانت مزودة على حد قول يوسفوس «بكميات هائلة من الأسلحة تكفى عشرة آلاف رجل» (بينما كان عدد المحاصرين ستة آلاف فقط على ما أذكر) .

تدور القصة حول شخصية بطولية خارقة البطولة أعنى شخصية العازر قائد اليهود المحاصرين ، وأول من توصل لفكرة الانتحار بعد أن تعرف على حقيقة الموقف (أو المأزق) العسكرى الذى وقع فيه هو وأصحابه وأتباعه . وأبعاد شخصية العازر كما رسمها يوسفوس تقترب من أبعاد شخصية شمشون . يجمع العازر كل اليهود ويلقى فيهم بخطبة عصماء تعقبها مناقشات ومداولات طويلة يقول فيها : «إن الإله الذى اختار الشعب اليهودى قد غير رأيه وقرر تحطيم شعبه ، والشواهد على ذلك كثيرة ، فقد قتل عدد كبير من اليهود وسقطت القدس ذاتها ثم حرقت وخربت على يد أعدائنا وكنا نأمل فى البقاء (وليس الانتحار) ولكن الإله قد أقنعنا أن كل آمالنا إن هى الا عبث وهراء ، فالقلعة التى كنا نظن أنها لا تهزم ثبت أنها لا تصلح كوسيلة للخلاص . وعلى الرغم من أنه يوجد لدينا الكثير من الطعام والشراب ، إلا أن الخلاص نفسه فى حكم المستحيل، بل إن النار التى كانت ترسل الرياح بلهيبها على الأعداء، عادت فهبت على الحائط الذى بنيناه حاملة اللهيب علينا نحن ، لا بمحض إرادتها وإنما علامة على غضب الاله علينا بسبب

ذنوبنا العديدة» . (كانت الريح قد هبت على النيران التى أضرمها الرومان حول القلعة فلفحتهم ألسنة اللهيب ، فقرر اليهود المحاصرون أن هذه ولا شك هى إرادة الإله [وادعاء معرفة إرادة الإله شىء سهل ويسير للغاية بالنسبة لمدعى النبوة] ولكن حينما هبت الريح فى اتجاه مضاد تيقن العازر أن هذا ولا شك هو علامة غضب الإله) . ويطلب العازر فى نهاية الخطبة أن يقتل الأطفال أولا ثم الزوجات ثم «يقتل الواحد منا الآخر ، ولكن قبل كل شىء فلنتلف نقودنا وقلعتنا بالنيران حتى يخفق الرومان فى الإمساك بأجسادنا أو الاستيلاء على أموالنا مما سيدخل على قلوبهم الحزن» (وهذه تفاصيل غير بطولية من وجهة نظر أدبية محضة ، فالبطل التراجيدى الحقيقى ذو الأبعاد الشمشونية لا يذكر أمورا دنيوية مثل النقود ، فما بالك بالعازر الذى يساويها بجسده بل بالقلعة الشامخة ذاتها – رمز وحدة الشعب اليهودى – إن فى هذا تسطيحا وأيما تسطيح وتفريغا للأسطورة من محتواها البطولى الخرافى – هل سمع أحد عن المبالغ التى كان يحملها يوليسيس أو حتى الاسكندر المقدونى ؟) .

دارت بعد الخطبة – كما قلنا – مناقشات ومداولات دونها يوسفوس بنشاط شديد . ولا ندرى إن كان أحد المتداولين قد أشار إلى ان الانتحار ليس إحدى الفضائل اليهودية وأن الدين اليهودى

ينهى عنها ، فالفرد اليهودى حسب التشريع اليهودى لا يملك حياته أو نفسه ، ولذا يعد الانتحار قتلا (سفر التكوين ٩/٥) . وقد سمح التشريع اليهودى بالانتحار في بعض الحالات النادرة ، ومن ينتحر تحت غير هذه الظروف ليس له من نصيب فى العالم الآخر، ولهذا يجب دفن اليهودى الذى ينتحر خارج مقبرة اليهود أو إن دُفن فيها فهو يدفن منفصلا («ودفن المنتحرين» لهذا السبب ليس عادة يهودية وإنما هو بدعة صهيونية /إسرائيلية) . ولا ندرى إن كان أحد المتداولين آثار مع العازر مشكلة معرفته للإرادة الإلهية ، وأن ادعاء معرفة هذه الإرادة هو ادعاء للألوهية . ولكن مهما كانت طبيعة المداولات فإن قرار الانتحار قد اتخذ ونفذ . وتصل الأحداث المثيرة إلى قمتها فى «المنظر الأخير» حينما ينظر آخر الأحياء فى ماساده إلى كل الجثث ليتأكد من أن الجميع قد ماتوا، وحينما يتأكد من ذلك يضرم النار في القلعة - وبقوة ساعديه يغمد سيفه كله فى جسده ويخر صريعا إلى جوار أقاربه - النهاية ؟

لا إنها ليست النهاية ، وإنما هى نهاية «القصة داخل القصة» وهى حيلة بلاغية معروفة كنت أدرسها مع طلبتى فى الجامعة فى محاضراتي عن الأدب الإنجليزى . فالقصة إذا كانت غير معقولة ولا يمكن تصديقها ، يحاول الكاتب عادة أن يعفى نفسه من مسئولية تقديمها مباشرة للقارىء ويلجأ لخلق شخصيات

قصصية تقف بين عالم الواقع وعالم الوهم وتقوم هى بحكاية القصة الرئيسية بنفسها . ومن هنا كانت التسمية «قصة داخل قصة» ، وعادة ما تمثل القصة الأولى الإطارية مرحلة وسطا بين عالم الحقيقة وعالم الوهم وذلك حتى لا يبغتنا الانتقال من العالم الأول إلى العالم الثانى . وهذا هو ما فعله يوسفوس القصاص الماهر بقصة ماساده ، فكل التفاصيل والخطب والمناقشات والمداولات والمناظر الأخيرة المؤثرة التى ذكرها - ما كان فى مقدوره أن يعرضها علينا مباشرة وما كان بمستطاعه أن يتركها دون ذكر مصدرها ! لذلك يذكر المؤرخ أن الجميع قد لقوا مصرعهم بهذه الطريقة البطولية ماعدا إحدى قريبات العازر - امرأة «تفوق الأخريات حصافة وعلما» (تشبه يوسفوس من بعض الوجوه وتفر مثله من الانتحار الجماعى حتى تخلد ذكرى ماساده !) . تهرب هذه المرأة ومعها ثلاثة أطفال وامرأة عجوز ، ويذهب الجميع إلى مكان يختبئون فيه ولا يراهم أحد . هذه المرأة التى تمثل القصة الإطارية المرحلية هى التى سمعت الخطبة وهى التى سجلتها بكل حذافيرها من أجل الحقيقة والتاريخ والعلاقات العامة ، واعتقد أن مدمنى الأفلام الميلودرامية يعرفون ضرورة إنقاذ فرد أو اثنين فى آخر لحظة ليقصوا علينا تفاصيل الكارثة المهولة وإلا وقعنا فى مشاكل لا حصر لها ولا عدد بخصوص الحبكة ! والعهدة دائما على الراوى! .

ووصفنا لتواريخ يوسفوس بأنها أعمال أدبية ليس من قبيل التعسف فى شىء ، فالموسوعة اليهودية ذاتها تصف هذه التواريخ بأنها «أعمال أدبية راقية» «أوصافها ملحمية بمعنى الكلمة»و«مناظرها مؤثرة بشكل مرن» .

ووصف الموسوعة لكتابات يوسفوس لا يختلف كثيرا عن وصف هرتزل لفكرة الدولة اليهودية ، فهو يصفها فى مطلع مذكراته بأنها «فكرة أدبية»و«قصة رائعة» - أى أنها شىء متسق مع نفسه ، استعارة أو أسطورة ، ثم تحاول أن تفرض نفسها على الواقع بغض النظر عن تركيبية الواقع وتنوئه .

نحن إذن نتعامل مع عالم أدبى أسطورى يزعم أنه تاريخ . ولكن حتى لو جردنا الواقعة من الإضافات اليوسفية الأدبية ونظرنا لها على أنها واقعة تاريخية أو حتى كحدث إمبيريقى فاننا نكتشف أنها يحيط بها كثير من الشكوك . نعم يوجد مكان يسمى ماساده ، وتوجد جثث وآثار عبرية - ولكن التساؤل يظل قائما عن الواقعة نفسها كحدث أبيريقى . فبعض البحاث ، ومن بينهم الباحثة اليهودية وييس روزمارين (جويش بوست ٢٤ آب (أغسطس١٩٧٣) أعلنت أن نتائج دراستها تؤكد أن قصة ماساده محض خرافة وأسطورة ، وأنه لا يمكن التدليل على سلامة الاكتشافات الأثرية التى تستند إليها هذه القصة .

كتاب الجنرال

يذوب التاريخ إذن ، وتتحول ماساده إلى واقعة بل وواقعة مشكوك فى مصدرها وأمرها ! يفرض عليها أى اتجاه وتحملّ بأى محتوى ، وبهذا يصبح التاريخ مسألة بروياجندا وعلاقات عامة . لا غرو إذن أن تكلف الحكومة الإسرائيلية الجنرال ييجال يادين رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى بالقيام بعملية التنقيب عن آثار ماساده . وحيث إن الهدف هو فبركة التاريخ من أجل العلاقات العامة ، يصاحب التنقيب عن هذه الآثار ضجة دعائية ضخمة ويظهر فى نهاية العملية كتاب ضخم مصور عنوانه :

ماساده : قلعة هيرود ومقاومة الغيورين الأخيرة :
تأليف : الجنرال ييجال يادين (نيويورك ١٩٦٦) .

ويدل عنوان الكتاب على أنه كتاب تاريخ ، ولكنك تقلب صفحاته عبثا دون أن تجد أى أثر للتاريخ فيه ، فهو كتاب «تنقيب عن الآثار» وحسب ، وهذا أمر منطقى للغاية لأنه إذا كانت ماساده واقعة إمبيريقية ثابتة تقف خارج أى سياق تاريخى فإن الاهتمام بها يترجم نفسه إلى اهتمام لا بالنبض التاريخى الحى وإنما بالتحف والآثار فهى أشياء مادية نهائية (تماما مثل الميلودراما التى تتسم بأنها ، مصمتة فكل عناصرها نهائية متفجرة !) . إن أى كتاب عن حادثة ذات أبعاد تاريخية حقة لابد أن يركز على الأسباب

وعلى النتائج ، ولابد وأن يحاول المؤلف أن يقيم البنية التاريخية التي يدرسها لا كبنية مغلقة على نفسها وإنما في علاقتها بالعوامل المكونة لها (عوامل نشوء وتكوين البنية) ، كما أن المؤرخ الحق هو من يحاول استخلاص بعض الأنماط المتكررة من الظاهرة التي يدرسها حتى تساعدنا هذه المعرفة الجديدة في التعامل مع واقعنا، فالظاهرة المتأيقنة (أي التي تشبه الأيقونة) والبنية المغلقة على ذاتها والتي لا تشير إلى أي شيء خارجها لا يمكننا أن نفعل بها شيئا (كأنها الأحلام أو الكوابيس أو الخواطر العارضة) .

لا يسأل الجنرال عن مدى موضوعية وحياد مصدره التاريخي – يوسفوس – ولا عن انتماءات مؤلفه الطبقية أو الدينية ولا يسأل عن الأسباب التي أدت إلى حدوث الواقعة وإنما يقدم لنا البنية التي يدرسها «كحقيقة نهائية» و«كأمر واقع» و«كفكرة مطلقة» (وهي مطلقة لأنها نهائية ولا تشير إلا إلى نفسها) . في كتاب يقع في ٢٦٧ صفحة هناك وصف للواقعة (وصف وحسب) في أقل من ست صفحات (معظمها صور) ، وبعد هذا نسمع بكثير من التفصيل الممل عن انتصارات يادين ومجموعته الأركيولوجيه ، وعن عدد المتطوعين الذين اشتركوا في الحفريات بل وصورة من طلب التطوع والمكنسة التي استخدمت في كنس ماساده والرواد الأول الذين بدأوا التفكير في التنقيب عن ماساده ...الخ ، ثم تظهر

الواقعة مرة أخرى قبل خاتمة الكتاب في فصل بعنوان «النهاية الدرامية» ، أي أن يادين يعيد بعث التقاليد الأدبية الصهيونية ويعالج التاريخ على أنه شيء مثير يوظف في التأثير على الرأى العام وليس ظاهرة تاريخية توضع داخل ظواهر تاريخية مماثلة أو سياق تاريخي لنفهم معناها .

وفي إطار هذه النبرة والتصور الإعلاميين يمكننا تفسير كثير من جوانب الكتاب واهتماماته . فمثلا تسلط الأضواء على اكتشاف الحمام الطقوسي ، لأن مثل هذا الاكتشاف يصلح مناسبة إعلامية ضخمة . وبالفعل يحضر الحاخام دافيد مونتزبرج الخبير في الحمامات الطقوسية وقوانينها تحيط به كوكبة من أتباعه ومريديه الحسيديين . وقد بدأ الحاخام في قياس الحمام ليرى ما إذا كان يتفق مع القوانين الدينية أم لا ، وعلا القلق النفوس وتهدجت الأنفاس «وارتسم تعبير جدى على وجه الحاخام . ثم عقد حاجبيه كأنه في شك فيما إذا كان الحمام كوشر (شرعيا) أم لا ، ولكنه بعد أن أتم فحصه بعناية فائقة أعلن بوجه تشع منه البهجة ، ولفرحتنا ، أن الحمام من أحسن الحمامات على الإطلاق فهو يتفق مع قوانين الشريعة» (والترجمة هنا من كتاب الجنرال ص١٩٦) . وبطبيعة الحال لم يدع الجنرال الفرصة تمر دون أن يقوم بتصوير

الحاخامات بنفسه . (فالصورة مثل الأيقونة ليست مجرد دال يشير إلى مدلول ، وإنما هي الدال والمدلول في ذات الوقت) . أُعَلِّمُ طلبتي أن الأعمال الأدبية الناجحة لابد أن تشوق القارىء دائما وأن الأديب الناجح يعرف كيف يصل بعمله إلى قمم فرعيه قبل أن يصل إلى الذروة النهائية ، ويادين قد فعل ذلك على أحسن وجه . وأنا لا أعارض الاستعارة ولا أرفض الكتابة الأدبية بل على العكس أرى أن اللغة المجازية لها دور أساسى فى عالم التكنولوجيا ذى البعد الواحد ، ولكننى أقف بضراوة ضد اللغة المجازية التى تدعى لنفسها ما لا تملك . ويادين مثل يوسفوس يكتب أعمالا أدبية تدعى لنفسها الصدق التاريخى ، وفى هذا خلط وأى خلط بين المستويات تماما كما خلط هرتزل بين الاستعارة والواقع ، وكما يخلط بعض اليهود بين التوراة والتاريخ ، وكما يخلط الصهاينة بين أرض الميعاد وفلسطين وكما يخلط الإسرائيليون بين الحدود المقدسة والحدود الآمنة والحدود التاريخية والحدود الفعلية والحدود المثالية والحدود الممكنة !

وإلى جانب الحاخامات الحسيديين توجد المتطوعات من الدول الاسكندنافية (وما أدراك ما الدول الاسكندنافية) مرتديات البكيني . وأنا من القائلين بأنه لا توجد ضرورة ملحة لنشر صور الباحثات بالبكينى فى كتاب علمى له أبعاد قومية / تاريخية /

دينيـة ، اللهم الا إذا كـانت هناك عـلاقـة عـضـوية بين الصـور وبين مـوضـوع البـحث ، وحـتى إن نشـرت صـورة من هذا النوع ، فليس هناك من ضـرورة للتـعليق على المايوه!. ولكن في كـتـاب الجنرال الاركيولوجي عن مـاسـاده توجد صـورة فتـاة ترتدى البكيني كتبت تحتها هذه العبـارة «أكبر صعوبة تواجه من يعيش في ماسـاده هي الحـرارة المرتفـعـة بعـد هـطول المطر ... والمايوه البكيني (وليس الانتـحـار) هو أحـد الحلول لهذه المشكلة» . وحـيث إن الهـدف هو العلاقات العامة لابد أن تدعم هذه الحقائق المنعشة بالصور (تماما مثل إعلانات الكوكاكولا المعادية للأيديولوجية والفكر !) وبالفعل نرى صورة المناضلة الحسناء شـاهدا ناطقا على شئ لا أعرفه بالضبط إذ يبدو أنني لا يمكنى استخلاص قوانين عامة أو نماذج تفسيرية من مثل هذه الصـورة ، فالجسد المجرد بنية مغلقة على نفسـها - أمر واقع وحقيقة مطلقة ! ولكن زوجتي - التى تفهم في أمور الدنيا النسائية أكثر مني - أخبرتني بعد نظرة عابرة أن بشـرة الفتاة لم تلوحـها الشـمس ، وأنهـا يبدو أنهـا خلعت مـلابسـها كى تلتقط لـها الصـورة . ومما يدعم من شكوكنا السياحية الإعلامية (لأنها شكوك لا عـلاقـة لها بماسـاده ولا بالتـاريخ ولا بـأى شئ إنسانى) إن الفتـاة تمسك فى رقـة متناهيـة بمنخل ، تمسك بطرفه الآخر امـرأة ترتدى مـلابسـها كاملة ، بل وترتدى إيشـارب ! هل هو استـخدام السيكس أبيل من أجل تدعيم أسطورة ماساده ومن أجل التفسير الصهيونى

للتاريخ ؟ ولكن هل يمكن لفتاة مرتدية البكينى أن تثبت شيئا أو تنفى شيئا عن أى شئ يخرج عن نطاق جسدها الصغير ؟

ويتوج الكتاب النضالى المصور بفصل عن مجموعة الطوابع والميداليات التذكارية التى صدرت بمناسبة اكتشاف ماساده . ولكن الكتاب لا يذكر شيئا عن ثمنها الأصلى وثمنها الحالى والأرباح التى سيحققها الهواة فى المستقبل الزاهر ، وفى الأيام الوردية المقبلة . وفى الكتاب إشارات عديدة لها دلالات عميقة فالكتاب ينبهنا إلى أن أول من اهتم بموضوع التنقيب عن ماساده هم أعضاء الإرساليات الأمريكية فى فلسطين ، ولعل هذا الاهتمام الأمريكى/ الصهيونى / الإسرائيلي هو مؤشر آخر على مدى عمق الارتباط الوجداني بين الشعب الأمريكي وأعضاء التجمع الاستيطاني فى فلسطين ، وهو ارتباط يتخطى أحيانا المصالح الاقتصادية الذاتية ، فالوجدانان الأمريكي والإسرائيلي يرتبطان بالريادة والعنف ومعادة التاريخ والاستيطان والإبادة .

وبعض الصدف ترقي إلى مستوى الرمز ، ولعل جنسية أمين متحف ماساده وجنسية زوجته هي إحدى هذه الصدف الرمزية فكلاهما يأتي من دولة استيطانية مبنية إما على الإبادة أو على الإحلال – فأمين المتحف يهودى من جنوب أفريقيا أما زوجته

المرشدة فهى يهودية من الولايات المتحدة وكلاهما هاجر ليعيش فى ظلال المنتحرين !

ولكن لم نبحث عن الصدف لنحولها إلى رموز . والكتاب ثرى بالعبارات الغنية بالدلالة والتى لا تحتاج إلى أى تفسير ، يقول يادين فى كتابه إنه بعد أن طرد اليهود الرومان من ماساده عاشوا فيها لمدة ست سنوات كجماعة تحيا حياة «عادية للغاية» دون تدخل من أحد . وقد فاجأتنى عبارة «عادية للغاية» لأنه من العسير للغاية على أى انسان سوىّ استخدام مثل هذه العبارة لوصف الحياة داخل قلعة لمدة ست سنوات. قد تكون حياة بطولية أو انتحارية أو نيتشوية ، سمِّها ما شئت ، ولكنها لا يمكن أن توصف بأنها «عادية» . ولكن تصورنا لما هو «طبيعى» أو «عادى» هو فى نهاية الأمر أساس تصورنا للحياة كما ينبغى أن تكون . والواقع الإسرائيلى كما يتخيله الصهاينة هو «واقع منفصل مسلح محاصر»، وبهذا تصبح ماساده طبيعية و«عادية للغاية» ، والقاعدة وليست الاستثناء . وقد استوقفتنى أيضا بضع كلمات أخرى من خطبة العازر فهو يقول : «الانتحار من أمر الإله ! بينما الحياة والاستسلام من أمر الرومان» أى أنه نصب من نفسه نبيا أو عرافا يعرف إرادة الاله ويربط بينها والموت واهلاك الذات ، أما الاغيار

فهم الداعون للحياة ! ومصطلح العازر كما أورده أو ألفه يوسفوس، وكما اقتبسه الجنرال لا يختلف كثيرا عن المصطلح الصهيونى، فالصهاينة يرفضون فكرة البقاء والتكيف والاندماج والامتزاج؛ لأنها كلها أفكار تنطوى على فكرة التاريخ بكل مافيه من تدرج ومرحلية وتطور وتفاعل وإنسانية سوية ، ويطرحون بدلا منها تصورات أسطورية لا إنسانية عن الرفض والانفصال ثم الانتحار البطولى !

العازر الجديد

ذكر يادين نقلا عن يوسفوس هذه العبارة : «لم يفر العازر، ولم يسمح لأحد بالفرار» . وقد استرعت انتباهى هذه العبارة الرهيبة لأنها تفترض أن القرار لم يكن بالإجماع ؛ فقد كان هناك من يريد الاستسلام والبقاء . ولكن العازر الذى يدعى معرفة إرادة الإله (ومسار التاريخ اليهودى الذى يعبر عن هذه الإرادة) قرر فرض ماساده فرضا .

والحركة الصهيونية لاتختلف عن العازر فى مثاليته الانتحارية ، فهى تدعى لنفسها محورية تاريخية لا تمتلكها ، ثم –

منطلقة من هذه الشرعية الوهمية - تقف ضد مسار التاريخ، وتفرض على اليهود تصوراتها بخصوص ما تسميه بالشخصية اليهودية الانتحارية . ثم تلقى بالاسرائيليين فى أتون الحرب المرة تلو المرة ، مدعية أن الجحيم الاسرائيلى والوطن اليهودى المنفصل هو الفردوس الأرضى الحقيقى الذى يطمح إليه كل يهودى سوى !
وباسم المعرفة النبوية الباطنية «للحقيقة» سلمت الصهيونية يهود أوربا إلى النازى فى نظير تسليمها النخبة الحقيقية الصهيونية (نخبة من أفضل العناصر البيولوجية كما قرر ايخمان) وباسم هذه المعرفة أطلقت النيران على يهود العراق ليهاجروا إلى أرض الميعاد.

ويظهر نجاح التصور الماسادى الطوباوى فى شيوع عبارات مثل «لا خيار» و «لامناص من الحرب» بين الاسرائيليين . وقد استخدم ديان مصطلحا ماساديا فى جنازة روى روتنبرج الذى لقى مصرعه على يد الفلسطينيين حين أكد أن اسرائيل ترتكز إلى السيف : «هذا هو قدر جيلنا ، وخيار حياتنا ، أن نكون مستعدين مسلحين ، اقوياء غلاظا ، وإلا سوف يسقط السيف من قبضتنا ، وحينئذ تنتزع حياتنا» .

«لم يفر العازر ولم يسمح لأحد بالفرار» لا ولم يستشر أحد المهاجرين ولا الإسرائيليين ولاجنود الاحتياط في خط بارليف لمدة ست سنوات – التاريخ في خدمة المثال والواقع في خدمة الأسطورة واليهود في خدمة الصهيونية . ولكن مع هذا لابد أن ننبه إلى أنه أثناء حرب أكتوبر لم ينتحر أحد من المحاصرين في خط بارليف بل استسلم كل الأحياء على أحدث الطرق العلمية المتحضرة .

كما أنهم مع تصاعد الانتفاضة لم يتحدث أحد عن ماساده، وإنما تحدث شارون – على سبيل المثال – عن الطائرة المروحية التي ستأتي إلى سطح السفارة الأمريكية لتقل بقية المستوطنين ، تماما كما فعلت في سايجون .

ومع هذا يلاحظ تزايد نسبة الانتحار بين الجنود الإسرائيليين في الآونة الأخيرة ، فقد انتحر نسبة لا بأس بها في لبنان ثم في إسرائيل بعد الانتفاضة . ولكن الانتحار هنا يحمل مضمونا رمزيا مغايرا تماما للمضمون القومي الذي يستخلصه الصهاينة من واقعة ماساده ، فالجندي الإسرائيلي الذي ينتحر في

لبنان أو فى إسرائيل إنما يفعل ذلك احتجاجا على دولته التى لم تكف عن الإلقاء به فى حرب تلو الحرب ، وقد سأم صاحبنا من الصراع والحصار – سأم البقاء فى ماساده وحمل السلاح بلا نهاية – فانتحر هربا من الحياة الشمشونية التى يفرضها عليه وجوده الصهيونى .

الباب الثالث

النظام السياسى
فى الغرب



الرئيس ريجان مع مجموعة من الحاخامات .

الفصل التاسع

سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبى الصهيونى

أصبح الحديث عن سيطرة اليهود على الإعلام وعن نفوذ اللوبى الصهيونى (المتغلغل تماما فى مؤسسات صنع القرار فى الغرب) من ثوابت الخطاب السياسى والإعلامى العربى ، بل وأصبح أسطورة أساسية فيه ، لا تختلف كثيرا عن الإيمان بالبروتوكولات ، فاللوبى مثل البروتوكولات يفسر كل شئ ، ولا توجد سوى قلة قليلة من المحللين السياسيين والإعلاميين ممن لا يقبلون هذه المقولة التى سنحاول اختبار مقدرتها التفسيرية فى هذا الفصل من الكتاب .

ماهو اللوبى ؟

وكلمة «إعلام» مفهومة تماما لمعظم قراء الصحف والكتب ،

على عكس كلمة «لوبى» Lobby فهى ليست واضحة بالنسبة للكثيرين . واللوبى هو الرواق أو الردهة الأمامية في فندق ، ولذا يقال : «سأقابلك فى لوبى الشيراتون» على سبيل المثال : أى فى الردهة الأمامية التى توجد عادة أمام مكتب الاستقبال ، وتطلق الكلمة كذلك على الردهة الكبرى فى مجلس العموم فى انجلترا وفى مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة حيث يستطيع الاعضاء أن يقابلوا الناس . وحيث إن الصفقات تعقد فيها ، وكما تدور فيها المناورات والمشاورات وتبادل المصالح ، فقد أصبحت الكلمة تطلق مجازاً على جماعات الضغط (الترجمة الشائعة للمعنى المجازى لكلمة لوبى Lobby) التى يجلس ممثلوها فى الردهة الكبرى ويحاولون التأثير على أعضاء هيئة تشريعية ما مثل مجلس الشيوخ أو مجلس النواب . وفعل To Lobby يعنى أن يحاول شخص ذو نفوذ (يستمده من ثروته أو مكانته أو لأنه يمثل جماعة تشكل مركزا قويا) أن يكسب التأييد لمشروع قانون ما عن طريق مفاوضة أعضاء المجلس التشريعى فى ردهته الكبرى ، فيعدهم بالأصوات أو بالدعم المالى لحملاتهم الانتخابية أو بالذيوع الاعلامى إن هم نفذوا مطالبه، ويهددهم بالحملات ضدهم وحجب الأصوات عنهم إن هم أحجموا عن ذلك . ويوجد فى الولايات المتحدة أكثر من لوبى أو جماعة ضغط ، تمارس معظم نشاطاتها في العلن بشكل مشروع وإن كان هذا لا يستبعد بعض الأساليب الخفية غير المشروعية (مثل

الرشاوى التى قد تأخذ شكل منح نقدية مباشرة أو تسهيلات معينة أو منح عقود إلخ) ولابد لممثل جماعة ضغط ما أن يسجل نفسه باعتباره كذلك . وتوجد أشكال وأنوا ع من جماعات الضغط ، فهناك جماعات الضغط الاثنية مثل اللوبى اليوناني واللوبى الأيرلندى ، كما يوجد الآن لوبى عربى . وهناك كذلك جماعات الضغط الدينية فهناك لوبى كاثوليكي وآخر علماني . وتوجد جماعات ضغط مهنية وجيلية ونفسية واقتصادية ، فيوجد لوبى للمصالح البترولية وآخر لمنتجي الألبان وثالث لمنتجي البيض ورابع لزارعى البطاطس وخامس لنقابات العمال وسادس لمنتجى التبغ وسابع لصانعى السجائر وثامن لمن يحاربون التدخين وتاسع للعجائز وعاشر للشواذ جنسيا ، وبالطبع هناك لوبى كذلك لمن يحاربون الشذوذ الجنسى ويدافعون عن قيم الأسرة . وقد أصبحت جماعات الضغط من الأهمية بمكان أن النظام السياسى الأمريكى أصبح يسمى «ديمقراطية جماعات الضغط» ، أى أنه لم يعد نظاما ديمقراطيا تقليديا يعبر عن مصالح الناخبين مباشرة حسب أعدادهم (لكل رجل صوت) وإنما أصبح نظاما يعبر عن مقدار الضغوط التى يمكن لجماعات الضغط أن تمارسها على المشرعين الأمريكيين لتحديد قرارهم بخصوص قضية ما، بحيث تصدر تشريعات وقوانين معينة وتحجب أو تعدل أخرى ، فالمواطن الأمريكى لم يعد يمارس حقوقه الديمقراطية مباشرة وإنما أصبح يمارسها من خلال هذه الجماعات .

ويقال إن أهم جماعات الضغط في الولايات المتحدة هي جماعة المدافعين عن حق المواطن الأمريكي في اقتناء الاسلحة النارية (دون ترخيص) واستخدامها للدفاع عن النفس ، وهو حق يعود لجذور الولايات المتحدة الاستيطانية الاحلالية ، ويشبه «حق» المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية في استخدام الأسلحة لقتل العرب «دفاعا عن النفس» ، ويعد اللوبي الصهيوني أيضا من أهم جماعات الضغط .

ومهمة هذا اللوبي ، كما يدل اسمه ، هو الضغط على المشرعين الأمريكيين لتأييد الدولة الصهيونية . ويتم ذلك بعدة سبل من بينها تجميع طاقات الجمعيات اليهودية والصهيونية المختلفة ، وتوجيه حركتها في اتجاه سياسات وأهداف محددة عادة تخدم اسرائيل . كما أن اللوبي يحاول أيضا أن يحول قوة اثرياء اليهود (خاصة القادرين على تمويل الحملات الانتخابية) وعامة اليهود أصحاب «الصوت اليهودي» إلى أداة ضغط على صناع القرار في الولايات المتحدة ، فيلوح بالمساعدات والأصوات التي يمكن للمرشح أن يحصل عليها إن هو ساند الدولة الصهيونية والتي سيفقدها لا محالة إن لم يفعل . واللوبي ليس منظمة يهودية توجد في مبنى ، وإنما هي إطار تنظيمي عام يعمل داخله عدد من الجمعيات والتنظيمات الصهيونية تنسق فيما بينها لتحقيق هدف واحد ، وأهم

هذه الجمعيات هى «مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية» ولجنة الشئون العامة الاسرائيلية (ايباك) AIPAC . والآن لنرى ما هو سر نجاح الاعلام واللوبى الصهيونى ؟

مصلحة الدولة العليا

من المعروف أن عملية اتخاذ القرار السياسى فى العالم الغربى مركبة لأقصى حد فهى تتم من خلال مؤسسات يديرها علماء متخصصون (تكنوقراط) بطريقة «رشيدة» ، بمعنى أنها تتبع اجراءات معروفة ومحددة لا تخضع للأهواء الشخصية ، ولذا لا يتخذ القرار إلا بعد توفير المعلومات اللازمة واشراك المستشارين والمتخصصين . ثم بعد ذلك تتم عملية موازنات صعبة ودقيقة بخصوص حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار وقوة العدو ونقط ضعفه . فعلى سبيل المثال حينما قررت الولايات المتحدة دعم الكونترا (مما يعنى تدخل فى شئون نيكاراجوا الداخلية وإثارة حفيظة دول أمريكا اللاتينية التى تعلم تماما أن نظام الساندنيستا ليس نظاما شيوعيا كما تزعم الولايات المتحدة ، وإنما نظام وطنى ينحو منحى يساريا) نقول حينما قررت الولايات المتحدة أن تفعل ذلك فإنها كانت مدركة تماماً أن ثمة خسارة ما ولكن حساب المكسب والخسارة كان واضحا ، فالعائد السياسى (القضاء على نظام قومى يسارى قد ينجح فى عملية التنمية خارج النطاق الرأسمالى ،

مما يجعله نموذجا يحتذى) كان أعلى بكثير من العادم (تدعيم صورة اليانكى القبيح المستغل وترسيخها فى الوجدان اللاتينى). ونفس الشئ ينطبق على قرار غزو بنما والقضاء على صنيعة مهمة للولايات المتحدة فنروييجا كان مخلوق أمريكا القبيح . وحينما أرسلت الولايات المتحدة ، بقواتها للقيام بعملية الغزو فإنها كانت مدركة أن العائد الاجتماعى السياسى (القضاء على واحد من أهم مصادر المخدرات وبالتالى حل مشكلة المخدرات التى تهدد نسيج المجتمع الأمريكى وأمنه القومى ودعم صورة المؤسسة الحاكمة أمام جماهيرها على أنها مؤسسة جادة فى عملية محاربة المخدرات) هذا العائد كان أعلى بكثير فى تصورها من العادم (تدخل قوة عظمى فى شئون دولة صغيرة والقضاء على عميل نافع مفيد) .

ولكن إذا كان التكنوقراط يتخذون القرار حسب اجراءات موضوعية ومعايير محسوبة تضمن توظيف الوسائل على أحسن وجه فى خدمة الأهداف ، فإن الأهداف ذاتها لا تحددها اللجان التكنوقراطية ، إذ تتم هذه العملية على أعلى المستويات وتصبح جزءا من العقد الاجتماعى الذى يستند إليه المجتمع ككل ، وتغيير هذه الأهداف لا يتم إلا بثورة اجتماعية شاملة . وحساب المكسب والخسارة والعائد والعادم يتم دائما فى أطار ما يسمى بمصلحة الدولة العليا . وهذه المصلحة ليست قضية بسيطة يمكن تحديدها موضوعيا ورياضيا وبشكل اجرائى ، غير شخصى ، فرؤية أعضاء

النخبة الحاكمة لمصالحهم ، والمصالح الفعلية التى يحاولون الحفاظ عليها ، والإطار الرمزى الذى يدركون من خلاله هذه المصالح ، والعقيدة السياسية والدينية التى تستند إليها شرعية النخبة ، تساهم ، بشكل أو بآخر ، في تحديد «مصلحة الدولة العليا» (هذا المطلق العلمانى ، جوهر النظرية السياسية الغربية منذ مكيافللى) فما يراه أعضاء النخبة على أنه مصلحة الدولة العليا قد يكون هو مصلحتهم كجماعة أو كطبقة ولا يمثل بالضرورة صالح الدولة ككل أو صالح أغلبية أعضاء المجتمع .

كل ما نود قوله أن محددات القرار السياسى فى الغرب ، وبالتالى سلوك الدول الغربية ، عملية مركبة إلى أقصى درجة ، تدخل فيها عناصر ذاتية (طريقة ادراك النخبة لمصلحة الدول العليا) وذاتية / موضوعية (حساب العائد والعادم) وموضوعية (موازين القوى) ، ومع هذا حينما تتحدد مصلحة الدولة العليا الاستراتيجية تصبح هى القيمة الاساسية التى تتفرع عنها كل الاجراءات والقرارات والحسابات .

الاستراتيجية الغربية والنفوذ الصهيونى

وأعتقد أن الغرب قد عرّف مصلحته الاستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية باعتبارها مصدرا هائلا للمواد الخام (الرخيصة) ومجالا خصبا للاستثمارات الهائلة (التى تعود عليه هو وحده بالربح) وسوقا عظيمة لسلعه (التى

ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراء) أو قاعدة أستراتيجية فى غاية الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو) إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية مثل الاتحاد السوفييتي باستخدامها ضده ، ويعبر هذا الموقف عن نفسه فى اصطلاح مثل «الفراغ» الذى كثيرا ما يستخدم للاشارة إلى شرقنا العربى ، وكأن وطننا رقعة أرض أو مساحة لا يقطنها شعب عريق له امتداده الحضارى ، وكأن أوطاننا هى وجود جغرافى رحب مجرد من التاريخ ، أى أننا فى الادراك الغربى مجرد شئ قد يصلح للاستخدام أو الاستعمال .

وحتى حينما تتحول إلى أكثر من مجرد مساحة فإن الإدراك الغربى للمنطقة وهو إدراك تحدده مصلحته كما يراها هو أو كما تراها نخبته الحاكمة ومؤسسات صنع القرار فيه – نقول إن الادراك الغربى يرى وطننا العربى على أنه منطقة مأهولة بشعوب وقبائل وأقليات معظمها يتحدث العربية ، وتدين بديانات مختلفة لا يربطها رابط حضارى أو اجتماعى واحد ، لكلٍ مصلحته الاقتصادية ومستقبله السياسى المستقل (وتفتتها يسهل عملية تحويلها إلى مادة استعمالية) وتكمن مصلحة الغرب (كتشكيل حضارى نهم يود استغلال الشرق والاستثمار فيه بما يعود عليه هو بالربح ويتوجيهه لما يخدم أمنه) تكمن هذه المصلحة فى الحفاظ على عدم الترابط الحضارى أو الاجتماعى فى عالمنا العربى . وهذه هى مصلحة الغرب كما يدركها أهله ، وهذا هو الاطار الذى يتم اتخاذ القرار من خلاله .

وأنا أزعم أن الصهاينة يستمدون نفوذهم وسطوتهم لا من مجابهتهم أو رفضهم لهذا الإطار وإنما لاتفاقهم معه ومسايرتهم له. ويجب ألا يثير هذا الوضع دهشتنا فتاريخ الحركة الصهيونية ليس جزءا من «تاريخ يهودى عالمى وهمى» وإنما هى جزء من تاريخ الإمبريالية الغربية . ولذا فالصهيونية لم تظهر بين يهود اليمن أو الهند أو المغرب وإنما ظهرت بين يهود العالم الغربى ، وهى لم تظهر فى العصور الوسطى ، على سبيل المثال ، وإنما فى أواخر القرن السابع عشر مع ظهور التشكيل الاستعمارى الغربى وبدايات استيطان الإنسان الغربى فى العالم الجديد وفى بعض المدن الساحلية فى أفريقيا وآسيا .

المفهوم الصهيونى لعالمنا العربى يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربى ، فالصهاينة يشيرون إلى فلسطين باعتبارها «أرضا بلا شعب» ، وإلى الضفة الغربية باعتبارها يهودا والسامرة ، وهى مصطلحات تلغى التاريخ تماما . وهم يشيرون إلى الشرق الأوسط على أنه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه فى كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ» ، فكلاهما يؤكد فكرة أن عالمنا العربى مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، أو مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة ، والصهيونية فى نهاية الأمر وليدة التراث الفكرى الاستعمارى الغربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى أداته

فى المنطقة ، وقد بدأ الاهتمام الغربى بالصهيونية كفكرة منذ القرن السابع عشر ، ولكن تحول الاهتمام الفكرى إلى فكر سياسى ثم إلى خطاب سياسى ثم إلى مخطط استعمارى ثابت بعد ظهور محمد على الذى كان يهدد المصالح الغربية لأنه كان من الممكن أن يقوم بملء «الفراغ» فى المنطقة إما عن طريق طرح نفسه على أنه القوة الجديدة ، أو عن طريق ادخال العافية على رجل أوربا المريض ، ومن هنا كانت فكرة الدولة الصهيونية ، ومن هنا الدعم الغربى الحاسم للمشروع الصهيونى - أداة الغرب فى خلق الفراغ والحفاظ عليه كوسيلة للدفاع عن أمن الغرب لا عن أهل المنطقة ، وعن مصالح الغرب لا مصالح العرب . ولا يمكن انكار دور الصهاينة فى ترسيخ هذا الإدراك الغربى للشرق الأوسط ، ولكن تظل العلاقة بين الصهيونية والتشكيل الاستعمارى الغربى هى علاقة السيد بالأداة التى يستخدمها .

ومما دعم هذا التعريف لمصلحة الغرب وهذا الادراك له نجاح الدولة الصهيونية فى طرح نفسها على أنها قاعدة عسكرية رخيصة وأدة طيعة يفوق عائدها تكلفتها .

وقد نجحت الدولة الصهيونية فى إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بالعرب ، ونجحت فى إرهاب المنطقة الأمر الذى بين للولايات المتحدة أن الدولة الصهيونية استثمار جيد وأداة رخيصة .

هذا هو السر الحقيقى للنجاح الصهيونى فى الغرب ، فهو لا يعود لسيطرة اليهود على الأعلام أو لباقة المتحدثين الصهاينة أو إلى مقدرتهم العالية على الإقناع والإتيان بالحجج والبراهين أو إلى ثراء اليهود وسيطرتهم المزعومة على التجارة والصناعة وإنما يعود إلى أن صهيون الجديدة هى جزء من التشكيل الاستعمارى الغربى وإلى أن الإعلام واللوبى الصهيونيين يمثلان أداته الرخيصة : دولة وظيفية عميلة للولايات المتحدة تؤدى كل ما يوكل لها من مهام بنجاح وتنصاع تماما للأوامر ، ولا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينها وبين الولايات المتحدة ، تنصرف أساسا إلى الأسلوب والإجراءات لا إلى الأهداف النهائية - اختلافات يمكن حسمها عن طريق الإقناع والضغط كما يحدث عندما تطلب السعودية صفقة أسلحة ولا ترضى إسرائيل عن ذلك ، أو عندما تريد إسرائيل توسيع رقعة استقلالها قليلا عن طريق إنتاج سلاح مثل طائرة اللافى ولا ترضى المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية عن ذلك . فالاختلاف ينصرف إلى التفاصيل لا إلى «المصلحة» وإدراكها ، ومن هنا يمكن إدارة الحوار حسب قوانين اللعبة المتعارف عليها وتتم ممارسة الضغط داخل إطار من التفاهم بخصوص المبادىء الأساسية ومن داخل النسق لا من خارجه .

وعد بلفور

وحتى أدلل على مقولتى أن نجاح الصهاينة الإعلامى وقوة اللوبى الصهيونى مستمدان من اتفاق المصالح والإدراك لا من عبقرية الصهيانة الخاصة سأضرب مثلين واحداً تاريخيا والآخر معاصرا. أما المثل الأول فهو خاص بصدور وعد بلفور . فمن المعروف أن الوجود اليهودى فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى كان قويا للغاية ، وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية مهمة ، ويوجدون فى مواقع اقتصادية ذات طبيعة استراتيجية ، فكان أهم ثلاثة بنوك يملكها بعض اعضاء الجماعة اليهودية فى ألمانيا ، كما كانوا متغلغلين فى الإعلام وقيادات الأحزاب السياسية ، وكان منهم كثير من المؤلفين والفنانين . وقد حققوا معدلات عالية للغاية من الاندماج ، مما يسر لهم عملية التحرك داخل المجتمع الألمانى ، كما أن اليهود الألمان اشتركوا بأعداد كبيرة فى الحرب تفوق نسبتهم القومية . والحركة الصهيونية حتى ذلك الوقت كانت حركة ألمانية فى توجهها الثقافى فكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هى الألمانية ، كما كانت برلين هى مقر المنظمة الصهيونية العالمية . وكان الصهاينة على أتم استعداد أن يجعلوا مشروعهم الصهيونى جزءا من المشروع الألمانى الاستعمارى . وهذا فى مقابل انجلترا التى كانت توجد فيها جماعة يهودية صغيرة للغاية ، مندمجة تماما ومعادية بشكل كامل للصهيونية (كان وايزمان والقيادات الصهيونية من شرق أوربا) .

مع هذا نجح الصهاينة فى انجلترا فى استصدار وعد بلفور، رغم ضعفهم وعزلتهم ، بينما فشل صهاينة ألمانيا فى ذلك رغم قوتهم وارتباطهم بالمجتمع . ولا يمكن العودة هنا إلى الصورة الإعلامية أو اللوبى الصهيونى وما شابه من مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان . وإنما علينا أن نعود إلى حركيات الإمبريالية الإنجليزية فى مقابل حركيات الإمبريالية الألمانية . أما الإمبريالية الألمانية فكانت متحالفة مع الدولة العثمانية ولذا لم يكن هناك مجال لاعطاء أى وعود للصهاينة على حساب هذه الدولة . لكن كان الوضع مختلفا بالنسبة للإمبريالية الإنجليزية فقد ظل التحالف قائما بينها وبين الدولة العثمانية حتى اندلاع الحرب ، ولذا حينما صدر أول وعد بلفورى انجليزى وهو الخاص بمشروع شرق أفريقيا فقد كان وعدا بقطعة أرض خارج الدولة العثمانية ، ولكن بعد أن قررت الإمبريالية الإنجليزية تقسيم الدولة العثمانية أصبح من الممكن إصدار وعد بلفور لمجموعة من الصهاينة ليسوا من الإنجليز . وكان على الموجودين فى انجلترا أن يقطعوا علاقتهم مع المنظمة الخاضعة لنفوذ ألمانيا أنذاك ، وكان الوعد هذه المرة وعدا بقطعة أرض داخل ا لدولة العثمانية .

وتثرثر الدراسات الصهيونية عن مناورات حاييم وايزمان وأحابيله ، وتثرثر الدراسات العربية عن اختراعه الاستيون وعن

النفوذ الصهيونى الهائل ، ولكن قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الوقائع التى تضيف أبعاداً أكثر تركيباً للصورة الشائعة . قبل أن تشب الحرب العالمية الأولي ببضعة أيام سافر وايزمان هو وأسرته لقضاء أجازة فى سويسرا ، مما يدل على عدم مقدرته على قراءة الأحداث ، وعند نشوب الحرب سارع بالعودة إلى انجلترا فى التو فقابل سير لويد جورج رئيس الوزراء البريطانى الذى حوله إلى الوزير هربرت صمويل ، السياسى اليهودى . وقد رفض وايزمان فى بداية الأمر مقابلة صمويل «لأنه يهودى» . فيهود انجلترا كانوا معادين للصهيونية ، وظن وايزمان أنه مثلهم . ولكنهُ رضخ للأمر الواقع وقابل صمويل فى نهاية الأمر ، وعرض عليه المطالب الصهيونية ، فوجدها صمويل متواضعه للغاية وتضايق منه لذلك السبب وأخبره أن يوسع من أفقه قليلا ويزيد من مطالبه To Think big . وهذه لم تكن نصيحة يسديها يهودى لآخر وإنما كان قرارا إمبرياليا بريطانيا . فالوزارة البريطانية كانت قد ناقشت عام ١٩١٤ خمس متتاليات بالنسبة لمستقبل فلسطين واختارت المتتالية الرابعة والخامسة . أما الرابعة فهى تحويل فلسطين إلى مستعمرة صهيونية فى التو وتسليمها للمستوطنين الصهاينة ، ولكن وجد أن هذا صعب للغاية نظرا للكثافة السكانية العربية ، فتقرر تبنى المتتالية الخامسة أى وضع فلسطين تحت

الانتداب البريطانى لمدة أعوام تفتح أثناءها أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية اليهودية ، ويتم خلالها بناء المؤسسات الاستيطانية الصهيونية التى تقوم بتسليم فلسطين حينما تكون جاهزة لذلك (وهى المتتالية التى تم تنفيذها بالفعل) حينما سمع وايزمان (الملحد) ذلك كان تعليقه : «لو كنت يهوديا مؤمناً لظننت أن المسيح المخلص اليهودى على وشك الوصول» . وهى ملاحظة أدهشت موظفى وزارة الخارجية البريطانية كثيرا ، الذين كانوا يرون وايزمان ، أداتهم فى تنفيذ المخطط الامبريالى ، شخصاً مغرقاً فى الغيبية والشعوذة وكانوا لايكنون له احتراماً كبيراً . (كما تدل على ذلك الوثائق البريطانية السرية والتى أصبحت علنية بعد مرور خمسين عاماً) . على كل مهما كان الأمر فان العنصر المؤثر هنا ، فى أهم واقعة فى تاريخ المشروع الصهيونى ، هو المصالح الامبريالية لا قوة الصهاينة الذاتية أو «حيلهم الثعبانية» ، وهذه المصالح هى ذاتها التى كانت تقرر مضمون الكتب البيضاء العديدة التى أصدرتها وزارة الخارجية البريطانية إبان فترة الانتداب .

انجلترا وفرنسا وألمانيا

وإذا نظرنا إلى سياسة كل من انجلترا وفرنسا فى الوقت الحالى تجاه الشرق الأوسط لوجدنا أنها تتفق مع السياسة الأمريكية بشكل عام مع اختلافات طفيفة . ويمكن للباحث المدقق أن

يجد أن سياسة انجلترا أكثر اقترابا من السياسة الأمريكية ، وأن السياسة الفرنسية أكثر ابتعادا وربما اعتدالا ، ولا يمكن تفسير هذا في ضوء نفوذ الجماعة اليهودية . فالجماعة اليهودية فى انجلترا ضعيفة لأقصى حد من الناحية الكمية ، أما من الناحية الكيفية فهى من أكثر الجماعات اندماجا وهى آخذة فى التناقص إن لم يكن أيضا الاختفاء . وعند وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا لم يجد التليفزيون البريطانى مفكرا يهوديا بريطانيا واحدا يدافع عن الموقف الصهيونى ، فاضطروا إلى إحضار نورمان بودوريتس رئيس مجلة كومنتارى من الولايات المتحدة لتقديم وجهة النظر الصهيونية . ومع هذا كان يوجد ثلاثة وزراء يهود فى وزارة تاتشر، كما تتخذ الحكومة البريطانية مواقف وصفناها بأنها قريبة من الموقف الأمريكى الممالىء لإسرائيل .

أما فى فرنسا فتوجد جماعة يهودية يبلغ تعدادها ٧٠٠ألف ، وهى جماعة اكتسبت لوناً يهودياً قوياً نوعاً ما بعد هجرة يهود المغرب العربى، وهى جماعة لها نفوذ قوى فى الإعلام وغيره . ومع هذا يمكن وصف سياسة فرنسا تجاه الدولة الصهيونية بأنها أكثر اعتدالا ، وأعتقد أنه لتفسير موقف كلا البلدين يجب ألا نعود إلى قوة أو ضعف الجماعة اليهودية وإنما إلى موقف كليهما من التحالف الغربى وإلى رؤية كل منهما له . فانجلترا أكثر ارتباطا بالولايات المتحدة من فرنسا داخل هذا التحالف ، اذ تحاول فرنسا

أن تحافظ على استقلال أوربى لا تهتم به انجلترا بنفس الدرجة ، ولعل هذا هو مصدر اختلاف سياسة البلدين تجاه قضية الشرق الأوسط .

ولِمَ لا نبحث فى طيات التاريخ البعيد أو القريب ؟ ولِمَ لا نقرأ الصحف اليومية التى طالعتنا بآراء المؤسسة الصهيونية والإسرائيلية واليهودية فى الوحدة الألمانية ؟ وكان الرأى بطبيعة الحال سلبيا وقاطعا إلى أقصى درجة ، إذ أخرج الصهاينة من أدراجهم أحاديثهم المملة عن الستة ملايين يهودى وعن «الشخصية الألمانية العدوانية» بطبيعتها ، وعن مخاطر ألمانيا الموحدة . وطالب شامير بوقف هذه الوحدة بأى ثمن وطالبت إحدى الصحف الإسرائيلية بعدم مناقشة قضية الوحدة إلا بعد مائتى عام . ولكن لا الإعلام الصهيونى فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل ولا المنظمات الصهيونية واليهودية ، العالمية والمحلية ، استطاعت أن تؤخر القرار الألمانى بتوحيد ألمانيا أو حتى أن تعدل منه .

ولعل التنازل الوحيد كان بضعة ملايين من الدولارات قررت ألمانيا الشرقية دفعها لضحايا الإبادة النازية (التهمتها إسرائيل بشراهتها المعهودة) . ثم تم توحيد ألمانيا ، رغم كل التنهدات اليهودية والصهيونية ، فهذا قرار إستراتيجى غربى تسانده حركيات سياسية وتاريخية لايمكن لأى إعلام صهيونى مهما بلغ من قوة أو جماعة ضغط يهودية مهما بلغت من نفوذ عرقلة تنفيذه .

ولعل الإعلام واللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة وخارجها قد وصل لهذه القناعة ولذلك آثر الصمت وقرر أن يسبح مع التيار مما يدل على ذكائه الشديد ، وعلى مرونته التى لا حد لها .

بقية العالم

وحتى تكتمل الصورة سنحاول أن نعرض بشكل سريع للنفوذ الإعلامى والصهيونى في بعض بلاد العالم الآخرى ، ويمكن أن نبدأ بأمريكا اللاتينية التى لا يمكن لأحد الزعم بأنها خاضعة للنفوذ اليهودى ، وإن كان الأمر مع هذا لا يخلو من المتحدثين العرب الذين يدافعون عن مثل هذه الأطروحة . كما أن كثيرا من الجماعات اليمينية العنصرية فى أمريكا اللاتينية تروج لهذه الإشاعة ، ولعل هذا امتداد لتقاليد كراهية اليهود فى التراث المسيحى ، وطبعا لا يمكن أن تؤخذ هذه الأطروحة على محمل الجد، فوزن اليهود العددى فى أمريكا اللاتينية ضئيل للغاية ولا توجد أعداد كبيرة منهم داخل مؤسسات صنع القرار أو المؤسسات الإعلامية أو الاقتصادية . وفى الأرجنتين ، التى تضم نصف يهود أمريكا اللاتينية ، لم ينجح اللوبى اليهودى فى أن يوقف انتخاب المرشح «العربى» منهم رغم أن الرئيس الفونسين كان يعد صديقا لليهود وإسرائيل . كما لم ينجح اللوبى اليهودى فى أمريكا اللاتينية أن يرغم حكوماتها على تسليم عشرات مجرمى الحرب النازيين

السابقين الذين يعيشون فيها . ولا يختلف الوضع كثيرا فى جنوب أفريقيا حيث لا يمكن الحديث عن لوبى أو إعلام صهيونى ، فاليهود مستوعبون تماما فى بناء القوة فى هذا البلد الاستيطانى . يبقى بعد ذلك الاتحاد السوفييتي ، إذ بدأت الشائعات تنتشر مرة أخرى عن أخطبوطية اللوبى والإعلام اليهودى الصهيونى ، وهى مقولة تروج لها الجماعات الروسية القومية ، التى تقف مذهولة أمام مايحدث الآن فى روسيا وتحاول تفسيره باللجوء لأسهل الصيغ التفسيرية وأكثرها شيوعا : المؤامرة اليهودية (من الطريف أن بعض الشيوعيين العرب بدأوا يهمسون بهذه الصيغة) . ولكن هذه الأطروحة لن تصمد كثيرا ضد أى اختبار جاد :

(١) فالكره الشعبى لليهود عميق متأصل فى روسيا بسبب عناصر تاريخية وثقافية واقتصادية قديمة ، ممتدة من الماضى إلى الحاضر (وروسيا القيصرية هى البلد التى جاءت منها البروتوكولات وكتيبات عنصرية مماثلة) .

(٢) على الرغم من وجود عناصر يهودية عديدة فى قيادة الثورة البلشفية ومنظريها إلا أن النظام السوفييتى طرح حلا للمسألة اليهودية يفترض معاداة الصهيونية بل ويهدف إلى تصفية اليهود كجماعة ثقافية متماسكة .

(٣) تآكلت الثقافة اليديشية الروسية اليهودية حتى لم يبق

سوى قلة صغيرة ، أساسا من العجائز ، يتحدثون اليديشية ، ولم يتمكن أى لوبى من وقف هذه العملية .

(٤) ويمكن أن تختبر المقولة من خلال وضعها على محك قضية الهجرة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى (سابقا) وهى قضية كانت فى غاية الأهمية بالنسبة للاتحاد السوفييتى الذى كان يعد على مستوى من المستويات بلدا «ناميا» يحتاج لكل المصادر البشرية فيه ، وأفراد الجماعة اليهودية كانوا يشكلون نخبة تكنوقراطية مهنية ذات فائدة حيوية له .

لم تثر قضية اليهود السوفييت «وحقهم» الأزلى فى الهجرة فى بداية السبعينيات بضغط من الإعلام السوفييتى أو اللوبى الصهيونى وإنما تم بضغط من الولايات المتحدة (بمساعدة أعضاء الجماعة اليهودية فيها) . وقد سمح السوفييت فى نهاية الأمر بهجرة أعداد كبيرة من اليهود بسبب ضغوط بنيوية داخلية : التخلص من عناصر متمردة ساخطة وعناصر تجارية إن لجأ للعنف فى ضربها أثار الرأى العام الغربى عليه . كما أن الضغوط الغربية لعبت دورا حاسما إذ ربط الغرب بين التسهيلات التجارية والائتمانية الممنوحة للاتحاد السوفييتى وقضية هجرة اليهود منه . وقد رضخ الاتحادالسوفييتى ، ولكن مع تراجع هذه السياسات توقفت الهجرة لتفتح أبوابها مرة أخرى فى أواخر الثمانينيات مع الانفتاح السوفييتى على الغرب ومع رغبته العارمة فى الحصول على

مساعدات مالية وتكنولوجيا متقدمة ، فالقرار قرار سوفييتي اتخذ استجابة لحاجات سوفييتية داخلية ومطالب غربية ، ولا يشكل اليهود في هذه الصفقة سوى المادة التي سيتم نقلها . ومما لا شك فيه أن الإعلام الذي ينشط فيه العناصر اليهودية أو الصهيونية سواء في الاتحاد السوفييتي أو الولايات المتحدة لعب دورا ملحوظا، ولكن لا يمكن تفسير سلوك الاتحاد السوفييتي وسماحه بهجرة اليهود السوفييت في السبعينيات ثم وقفه للهجرة في منتصف الثمانينيات ثم فتحه لباب الهجرة مرة أخرى في أواخر الثمانينيات إلا في إطار مصالح الاتحاد السوفييتي المتشابكة والضغوط الأمريكية عليه .

الولايات المتحدة - حالة خاصة ؟

وقد يقال إن كل الأمثلة السابقة مستمدة من تاريخ انجلترا أو فرنسا أو الاتحاد السوفييتي وأن الولايات المتحدة حالة مختلفة تماما وأن النفوذ الصهيوني مسيطر عليها بشكل لم يحدث من قبل أو بعد . ولذا فلنختبر أطروحتنا الأساسية : إن المصالح الاستراتيجية / الغربية (الأمريكية في هذه الحالة) هي التي تحدد القرار الأمريكي ، وأن الضغوط الصهيونية - من خلال اللوبي أو الإعلام - ذات أهمية ثانوية ، فهي قد تؤخر القرار قليلا ، وقد تعدل من شكله ولكنها لا تحدده أو تعدل من اتجاهه الأساسي .

ويمكننا أن نذكر الأحداث الهامة التالية للتدليل على مقولتنا .

١ - كانت الأقلية اليهودية فى الولايات المتحدة فى منتصف القرن التاسع عشر أقلية تؤمن باليهودية الاصلاحية التى تشجع الاندماج . وهذه الأقلية كانت تشكل نخبة ثرية مندمجة من أصل ألمانى ولذا لم تكن متحمسة لهجرة يهود شرق أوربا الأرثوذكس السلاف «المتخلفين» المتحدثين باليديشية . ومع هذا اتخذ القرار الأمريكى بفتح أبواب الولايات المتحدة لجميع المهاجرين لأن هذا ما كانت تتطلبه المصالح الأمريكية ، وبالفعل هاجر الملايين من يهود شرق أوربا حتى أصبحوا يشكلون غالبية يهود أمريكا .

٢ - فى عام ١٩٢٤ قررت الولايات المتحدة أن تحد من المهاجرين بسبب الأزمة الاقتصادية فأصدرت قانون النصاب عام ١٩٢٣ ، ثم قانون جونسون عام ١٩٢٤ ، فانخفض عدد المهاجرين اليهود انخفاضا ملحوظا (من ١١٩ ألفا عام ١٩٢١ و٤٩ ألفا عام ١٩٢٤ إلى ١٠ آلاف عام ١٩٢٥ و٢.٧٥٥ عام ١٩٣٢) وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من المهاجرين اليهود أصبحت تستوعب ما يقل عن ٢٥٪ وأحيانا عن ١٠٪ . ويجب أن نذكّر أنفسنا أن القرارات الخاصة بالهجرة فى الولايات المتحدة هى قرارات ذات طابع استراتيجى ، فالولايات المتحدة دولة استيطانية - وكانت حينذاك لا تزال فى طور التشكيل ، وتشكل المادة

الاستيطانية الإنتاجية القتالية بالنسبة لها عنصرا استراتيجيا . وبالتالى فالقرارات كانت تتخذ فى ضوء المصالح الأمريكية وحدها ، وسواء سعد اليهود بهذا القرار أم ابتأسوا له فهذه مسألة ثانوية تماما .

٣ - فى أثناء ما يمكن تسميته بالمرحلة النازية (١٩٣٣ - ١٩٤٨) رفضت الولايات المتحدة ومعظم بلاد أوربا فتح أبوابها للمهاجرين اليهود (رغم كل التباكى فى الوقت الحالى على ضحايا الإبادة) . ويفسر هذا الوضع على أساس الحالة الاقتصادية المتردية للاقتصاد الأمريكى والخوف من تسلل الجواسيس الألمان ، بل إن القوات الأمريكية بقيادة ايزنهاور رفضت ضرب قضبان السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الإبادة لوقف عملية نقل اليهود إليها . ويقال فى تفسير هذا إن ايزنهاور قائد القوات الأمريكية كان لا يريد تبديد طاقته العسكرية فى هذا العمل الجانبى . ومهما كانت التفسيرات التى تساق فإن القرار كان أمريكيا والمصالح أمريكية .

٤ - فى بداية القرن العشرين ظهر اتجاه صهيونى بين أعضاء المؤسسة الحاكمة الأمريكية (من المسيحيين) على الرغم من أن غالبية أفراد الجماعة اليهودية كانوا يعارضون الصهيونية إما من منظور اندماجى أو دينى . وقد أيدت الولايات المتحدة وعد بالفور وحنث ولسون بوعوده بحق تقرير المصير لا رضوخا لأى

ضغط يهودى أو صهيونى وإنما لأنه رأى أنه لا يمكن أن يصاغ مصير الشرق الأوسط دون أن يكون للولايات المتحدة دخل فيه ، ووجد أن تأييده لوعد بالفور هو وسيلته لذلك ، وقد احتجت كثير من الجماعات اليهودية الاندماجية على تأييد ولسون لوعد بالفور .

٥ - حينما أعلنت دولة إسرائيل اعترفت الولايات المتحدة بها فورا ، ولم يكن اللوبى الصهيونى قويا اخطبوطيا بعد ، حتى باعتراف أولئك الذين يروجون لأسطورة قوته واخطبوطيته . كما أن اللوبى اليهودى المعادى للصهيونية كان لا يزال قويا ، مما يعنى أن مسارعة الولايات المتحدة بالاعتراف لا يمكن تفسيرها إلا على أساس المصالح الأمريكية وليس لها علاقة بالضغوط اليهودية أو الحملات الإعلامية .

٦ - حينما تحالفت إسرائيل مع انجلترا وفرنسا عام ١٩٥٦ وشنت العدوان الثلاثى على مصر ، دون موافقة الولايات المتحدة ، عوقبت أشد العقاب ، إذ إن الاستراتيجية الأمريكية حينذاك كانت هى أن تلعب الامبريالية الأمريكية دورا نشيطا فى الشرق الأوسط وتحل محل الاستعمار التقليدى (الانجليزى والفرنسى) وتملأ هى الفراغ بعد انسحابهما منه ، والدولة الصهيونية باشتراكها فى هذه المغامرة وقفت ضد المخطط الأمريكى ولذا كان من الضرورى تأديبها ، ومن هنا موقف ايزنهاور «النزيه»و«العادل»و«المحايد» .

٧ – لم تشن إسرائيل حرب عام ١٩٦٧ إلا بموافقة صريحة من الولايات المتحدة التي وجدت أن من صالحها تصفية حكم عبد الناصر أنذاك ، وعلى كل لا يمكن لإسرائيل أن تشن أى حرب أو تدخل في أى مغامرة إلا بموافقة الولايات المتحدة التي تمدها بالسلاح والدعم والمظلة الأمنية .

٨ – حينما حاولت إسرائيل أن تؤكد استقلالها النسبي في الآونة الأخيرة جاءتها الرسالة واضحة من واشنطن ألا تتجاوز حدودها . وأول المحاولات الإسرائيلية لتأكيد شئ من الاستقلال كان في حادثة جوناثان بولارد وهو موظف أمريكي يهودي تجسس على الولايات المتحدة لحساب إسرائيل ، وكان رد المؤسسة الأمريكية الحاكمة حاسما إذ قبض على بولارد وأدخل السجن لمدة عشرين عاماً وأجرى تحقيق في اسرائيل لتحديد المسئولية ، كما أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد الدولة الصهيونية . وصرح جيكوب نيوزنر ، أهم عالم تلمودي في العالم ومن زعماء يهود الولايات المتحدة أن يهود أمريكا يؤمنون بأرض ميعاد واحدة وهي الولايات المتحدة وأن عاصمتهم هي واشنطن وحسب . بل إن موظفا مدنيا يهوديا يعمل في وزارة الخارجية الأمريكية سحب منه تصريحه الأمني (الذي يمكن بمقتضاه أن يطلع على وثائق سرية) لأن ثلاثة من أولاده يعيشون في إسرائيل . وعلى الرغم من أن هذا الموظف يعمل من ٢٥ سنة في الوزارة إلا أنه بعد

حادثة بولارد زادت الاحتياطات الأمنية واستبعد الموظف (الجير ساليم بوست ١١ فبراير ١٩٨٩) ، ولو حدث شئ مماثل فى أى بلد آخر لا تهم على الفور بأنه معاد للسامية (أى لليهود) ولكن لزم الإعلام الصهيونى الصمت لأن الجميع يعرف أن هذا هو الخط الذى لا يمكن لأحد عبوره ، فهو خط استراتيجى راسخ واضح . وقد حاول اللوبى الصهيونى أن يستفيد من قرار بوش بالعفو عن المتهمين فى قضية إيران - كونترا عند انتهاء مدة رئاسته وحاولوا استصدار عفو عن بولارد ولكن رفض الطلب (على الرغم من أن بولارد على أتم استعداد الآن أن يعترف بجريمته ، بعد أن كان يأخذ فى السابق موقفا مسرحيا متشددا ويصر على أنه لم يكن يتجسس وإنما كان يقوم بعملية إبلاغ الدولة اليهودية معلومات كان ينبغى أن تحصل عليها فى المقام الأول .

أما الواقعة الثانية فهى إلغاء مشروع طائرة اللافى . فالمؤسسة الحاكمة الصهيونية كانت حريصة كل الحرص على إنتاج هذه الطائرة محليا فى إسرائيل (بعون أمريكى) لأسباب عديدة من بينها تحقيق شئ من الاستقلال الاسرائيلى وتحسين صورة اسرائيل القومية أمام المستوطنين الصهاينة الذين يشعرون باعتماد دولتهم المذل على الولايات المتحدة . كما أن طائرة اللافى كانت تعنى أيضا إنشاء صناعة طائرات محلية تخلق عشرات الوظائف

للمهندسين والفنيين الإسرائليين بأمل أن يحد ذلك بعض الشئ من ظاهرة هجرة العقول من إسرائيل ونزوح عناصر النخبة الفنية عنها. ولكن المؤسسة الصناعية العسكرية في الولايات المتحدة وجدت أنه ليس من صالحها السماح لإسرائيل بإنتاج اللافى فألغى المشروع رغم المحاولات اليائسة والمريرة لمدة عامين ، ولم ينجح اللوبى الصهيونى أو غيره في أن يؤثر على القرار الأمريكى . وقد تزايد عدد النازحين بالفعل عن الدولة الصهيونية ، كما أنه قلل من مقدرة إسرائيل الاستيعابية للمهاجرين الجدد ، خاصة من ذوى المؤهلات العالية ، وهو الأمر الذى يشكل مشكلة خطيرة في الوقت الحاضر مع هجرة اليهود السوفييت .

٩ - لوحظ أن بعض الإسرائيليين واليهود السوفييت المقيمين في الولايات المتحدة قد أسسوا عصابات تمارس الجريمة المنظمة (المافيا) ولها نشاط في عالم المخدرات والجنس وتزييف النقود . ولم يتردد الكونجرس الأمريكى في إجراء تحقيق في الموضوع ونشر نتائج التحقيق مما أساء لصورة اليهود الإعلامية (الجيروساليم بوست ١٩ إبريل ١٩٨٨) ولكنه فعل ذلك دون تردد لأن الجريمة تهدد أمن الولايات المتحدة القومى ، ولم يخش أحد من سطوة الإعلام الصهيونى .

١٠ - ثم جاءت حرب الخليج فأثبتت هذه المقولة بما لا يقبل

أى شك ، فالدولة الصهيونية قد أُعدت عبر تاريخها للاضطلاع بدور الأداة العسكرية الكفء ، وقد مولها الغرب لهذا السبب ، وهذا السبب وحده . ولكن تبين للغرب أن اشتراكها فى القتال أمر مستحيل ، فاسم إسرائيل لا يزال كريها لدى الجماهير العربية التى تدرك بفطرتها السليمة طبيعة هذه الدولة الاستعمارية ، ووقوف أى دولة عربية في القتال جنبا إلى جنب مع إسرائيل (حتى ولو كان ضد العراق) كان سيؤدى إلى غضب هذه الجماهير وثورتها ، ولذا طلبت الولايات المتحدة من الدولة الصهيونية أن تتنحى عن دورها التقليدى وأن تلزم القوات الاسرائيلية ثكناتها وأن تتلقى الصواريخ العراقية دون أن تحرك ساكنا ، وقد امتثلت الدولة الصهيونية لهذه الأوامر ، وسمى هذا بضبط النفس . وسلوك الدولة الصهيونية – مرة أخرى – يبين مدى ذكاء أهل الحكم فيها ومعرفتهم تماما بقوانين اللعبة .

ولعل التنازل الوحيد الذى قدمه الأمريكيون للإسرائيليين فى هذه الحالة هو اختيار كولونيل يهودى يدعى هارى كيرنكوفيتس ليترأس طاقم صواريخ باتريوت ، وكان من ضمن الطاقم عشرون يهودياً ! وهو تنازل له طابع رمزى وحسب ولا يمتد بأى حال لآليات صنع القرار ذاته أو مضمونه .

١٠ – فى أثناء المعركة الانتخابية الأخيرة للرئاسة الأمريكية

ادعى مدير إيباك في مكالمة تليفونية مع أحد المليونيرات اليهود أن كلينتون يقوم باستشارته بخصوص المرشحين لمنصب وزير الخارجية فقام المليونير بتسجيل المكالمة وسربّها للصحف التى قامت بنشرها ، ويعد مثل هذا التصريح خرقا للعقد الاجتماعى الأمريكى الذى يسمح لأعضاء الأقليات بالتعبير عن هويتهم الإثنية بشرط ألا يتناقض هذا مع الصالح الأمريكى العام وأن يأتى الولاء للولايات المتحدة فى المقام الأول . وقد اعتذر مدير إيباك عما قاله فى المكالمة التليفونية وأكد أن ما قاله بخصوص تعيين وزير الخارجية لم يكن إلا من قبيل الدعاية للإيباك لحث المليونير اليهودى على أن يجزل العطاء للإيباك ، وقدّم المدير استقالته بعد ذلك .

اليهود داخل مؤسسات صنع القرار

ويمكن القول إن مؤسسات صنع القرار فى الغرب رشيدة ومركبة وإجرائية وغير شخصية ، ولكن العنصر اليهودى يوجد داخل هذه المؤسسات يؤثر فيها ويوظف الإجراءات ويلوى عنقها . وبروز اليهود فى الحضارة الغربية الحديثة حقيقة لا يمكن النقاش بشأنها، وبالتالى وجودهم الملحوظ داخل مؤسسات صنع القرار ، ففى تقرير كتب فى السبعينات أشير إلى أن ٢٠,٩٪ من كل أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات من الأمريكيين اليهود وأن ٢٥,٨٪ من كل العاملين فى الإعلام من اليهود . وأنه من ٥٤٥

شخصية قيادية يوجد ٤ , ١١٪ يهود ويشار إلى هذا باعتباره دليلا على مدى «سيطرة» اليهود . ولكن يجب الإشارة إلى ما يلى :

(١) إن عملية صنع القرار فى الولايات المتحدة – كما أسلفنا – عملية مؤسسية وفى غاية التركيب ولا يمكن لأقلية واحدة – مهما بلغت قوتها – التحكم فيها .

(٢) يلاحظ أن اليهود قد أصبحوا جزءاً من مؤسسات صنع القرار بعد أن تم دمجهم وأمركتهم ، أى أنهم ليسوا مجرد يهود لهم مصالح يهودية وإنما أمريكيون يهود خاضعون لحركيات المجتمع الأمريكى .

(٣) لا يشكل اليهود الأقلية الوحيدة داخل مؤسسات صنع القرار إذ توجد أقليات وجماعات ضغط أخرى كبيرة ومهمة مثل جماعة الضغط الكاثوليكية . ويمكن تشبيه اليهودى داخل مؤسسات صنع القرار الأمريكية بالموظف الحركى النشط فى إحدى الشركات الكبرى الأمريكية . فهذا الموظف إن أبدى ذكاء غير عادى فى فهم أهداف المؤسسة التى يعمل فيها وأخذ بزمام المبادرة وتحرك نحو تنفيذها ، فإنه لابد سيترقى ويتحرك نحو القمة، ولكن حركته الصاعدة تظل فى نهاية الأمر محكومة بالهدف المؤسسى الذى يتم تحديده بشكل مؤسسى ، كما أنه من الصعب على فرد أو مجموعة أفراد تغييره .

ولذا ، فوجود اليهود بأعداد كبيرة ومؤثرة لا يغير من الصورة العامة ولا يعدل ، بشكل جوهري ، من النمط الأساسى المتكرر .

المظلة الواقية

والنمط الأساسى هو استراتيجية أمريكية حاكمة واستراتيجية صهيونية تابعة ، هكذا كان الوضع فى الماضى ، وهكذا لا يزال الوضع فى الحاضر ، وهكذا يراه الأمريكان ، وهكذا يدركه الصهاينة في اسرائيل وخارجها ، ولنقرأ على سبيل المثال لا الحصر المقال المعنون : «المظلة التى ستطوى» بقلم دور جولد (الجيروساليم بوست الدولة ، ٢ ديسمبر ١٩٨٩) . أطروحة المقال الأساسية هى أن تزايد التفاهم بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فى أوربا سيؤدى إلي تغيرات جوهرية فى «بيئة إسرائيل الأمنية» حسب قول الكاتب ، وهى عبارة تعنى ببساطة «وضع إسرائيل الأمنى» . وهذه البيئة ، التى صاحبت الدولة الصهيونية منذ إنشائها ، تتلخص فى أن اسرائيل عاشت معظم الأربعين عاماً الماضية «تحت حماية شكل من أشكال المظلة الأمنية الأمريكية» .

وقد لاحظ كاتب المقال أن وزير الدفاع الأمريكى ريتشارد تشينى طالب بتخفيض الإنفاق العسكرى حوالى ١٨٠ بليون دولار فى خمسة أعوام من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧ ، وهذا التخفيض سينتج

عنه إلغاء أسلحة وإغلاق بعض القواعد بل وإلغاء بعض اللواءات وثلاث حاملات طائرات ، ويشير الكاتب إلى أن تشينى من المحافظين المطالبين بزيادة الانفاق العسكرى ولذا فالتغير فى موقفه يعد مؤشراً جيداً على التغير الجوهرى الذى حدث فى التفكير الاستراتيجي الأمريكى .

ويستمر الكاتب فى قوله إن الولايات المتحدة تحتفظ ببعض القوات لحالات الطوارئ فى العالم الثالث وإن كان يرى أن هذا الوضع سيتغير بالتدريج إذ يتوقع أن يزداد عدم اكتراث الولايات المتحدة بالعالم الثالث بسبب تناقص تهديد الاتحاد السوفييتى ، فمفهوم الأمن القومى الأمريكى وموقف أمريكا النشط فى العالم الثالث كانا مرتبطين دائما بهذا التهديد .

ويرى كاتب المقال أن أهمية إسرائيل الاستراتيجية قائمة مادام هناك تهديد سوفييتى ، وحتى لو تراجع التهديد السوفييتى فإنه يمكن أن يكون هناك «تفاعل استراتيجى مع الولايات المتحدة» (وهى عبارة ملفوفة تعنى أن ثمة دوراً لإسرائيل تلعبه فى حالة وجود توترات بين دول المنطقة) ، إذ إن إسرائيل يمكنها أن تكون عنصرا فعالا فى الحفاظ على التوازن فى المنطقة، خاصة إن وجدت الولايات المتحدة صعوبة فى الحصول على تعاون حلفاء مثل مصر (وهذه أيضا عبارات ملفوفة تعنى ببساطة أن إسرائيل

يمكنها الاستمرار فى لعب دور كلب الحراسة للمصالح الغربية فى المنطقة) .

ثم يطرح الكاتب بعد ذلك ، تصورا أكثر جذرية وهو احتمال انسحاب الولايات المتحدة لا من العالم الثالث وحسب وإنما من الشرق الأوسط أيضا . لو حدث هذا فإن النتائج ستكون عميقة للغاية ، ولذا ينصح الكاتب إسرائيل أن تعيد دراسة امكانياتها العسكرية وأهدافها الاستراتيجية فى ضوء هذه التغيرات ، فعلى سبيل المثال سيكون على إسرائيل أن تعيد النظر فى التوازن العسكرى مع سوريا وفى مقدرة إسرائيل على المواجهة معها ، وعليها كذلك أن تعيد النظر فى الحسابات الخاصة بقيام أمريكا بتزويد اسرائيل بالأسلحة فى حالة نشوب حرب إسرائيلية عربية أخرى ، فمقدرة الولايات المتحدة على تزويد إسرائيل بالأسلحة كان دائما مرتبطا بحجم الوجود الأمريكى فى أوربا . كما أن تخفيض الوجود الأمريكى فى أوربا يعنى زيادة المسافة بين أقرب القوات الأمريكية المنتشرة وإسرائيل ، مما يعنى أن توقيت التدخل الأمريكى فى المنطقة ، إن قررت أمريكا التدخل ، سيتغير تماما .

والمقال فى غاية الأهمية من ناحية المضمون إذ إنه يعطينا مفتاحا لفهم التفكير الاستراتيجى الإسرائيلى بعد عصر الانفتاح فى الاتحاد السوفييتى وبعد انهياره . ولكن ما يهمنا فى سياق هذه

الدراسة أن كاتبه لم يذكر الإعلام أو اللوبى الصهيونى . كما أنه يتحدث عن إسرائيل باعتبارها دولة تابعة تحدد أولوياتها الاستراتيجية وتفكيرها العسكرى بعد أن تحدد الولايات المتحدة أولوياتها وتفكيرها . والمؤلف بذلك يدل على ذكائه وموضوعيته ، فهو يعرف من هو السيد ومن هو العميل ، ولم يغش بصره أى ضباب عن أخطبوطية الاعلام واللوبى اللذين يحركان العالم .

المظلة الواقية مرة أخرى

ولا يختلف تحليل كونور كروز أوبريان ، وهو من أبرز المفكرين السياسيين الغربيين ومن أكثرهم تعاطفا مع الصهيونية ، عن تحليل الكاتب الإسرائيلى دور جولد ففى مقال بعنوان «العلاقة الأمريكية الإسرائيلية الخاصة مهددة ، بسبب الانفراج الدولى بين الشرق والغرب» (التايمز، نشر فى القبس ٤ يونيو ١٩٩٠) يقدم أوبريان ما يشبه التاريخ المصغر للاستراتيجية الإسرائيلية . ففى عام ١٩٥٧ انسحبت إسرائيل من سيناء وكان المفروض منطقيا أن تدخل مرحلة عزلة، ولكن الأحداث التى شهدها العالم العربى كسرت عزلة إسرائيل المتوقعة ، إذ إنه فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ ، تمزق حلف بغداد وتمزق موقعوه المحليون فى شوارع بغداد ، وتبين أن فكرة قيام تحالف غربى مع العرب مجرد سراب . ومن ثم بدأ المخططون السياسيون والعسكريون الأمريكيون يتجهون نحو إسرائيل ، ونشأ تحالف أمر واقع بين اسرائيل والولايات المتحدة حوالى عام ١٩٧٠،

ولايزال هذا التحالف قائما حتى اليوم . ولنترجم هذا الخطاب الغربى إلى الخطاب العربى ويمكننا القول إن تصاعد القومية العربية فى المنطقة جعل الولايات المتحدة تبحث عن عميل أو قاعدة رخيصة يطلق عليه عبارة «حليف استراتيجى» لتشمله بمظلتها الأمنية الواقية ليؤدى عمله بكفاءة ، وقد وجدت الولايات المتحدة فى إسرائيل ضالتها . ويلاحظ تطابق تاريخ أوبريان مع تاريخ دور جولد ، كل ما فى الأمر أن أوبريان يركز على الولايات المتحدة (لذا يبدأ تاريخه من ١٩٥٨) بينما وضع جولد الاستراتيجية الإسرائيلية فى سياق غربى عام ، ولذا يعود تاريخه إلى عام ١٩٤٨ .

ويلاحظ أوبريان ، تماماً مثل جولد ، أن هذا التحالف بدأ يذوى الآن .. وهذا هو أهم وأخطـر وجه لعزلة إسـرائيل فى عـام ١٩٩٠ ، فتراخى العرى بين اسرائيل والولايات المتحدة لا يعود للانتفاضة ، رغم أن الانتفاضة لم تساعد على توثيق الروابط بين الجانبين ، وإنما يعود إلى غروب شمس الاتحاد السوفييتى كقوة عالمية ، وكان هذا التطور مفيداً لإسرائيل – فى بادئ الأمر – إذ إنه أدى إلى إضعاف سوريا ، الحليف الرئيسى للسوفييت فى المنطقة ، والدولة العربية الأكثر عداء لإسرائيل . ولكن العواقب السلبية الناجمة عن تلاشى الدور السوفييتى العالمى فاقت المنافع التى جنتها الدولة الصهيونية إذ إنها أثرت بشكل عميق وخطير على العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

«فوثوق هذه العلاقة خلال العشرين سنة الماضية قام على الإيمان بوجود تهديد سوفييتى خطير للمنطقة ، وبأن إسرائيل هى الحليف الوحيد للولايات المتحدة ، وبالتالى فإن من مصلحة واشنطن مساعدة إسرائيل ، وجعلها قادرة على أن تصبح القوة العسكرية المهيمنة على المنطقة .

غير أنه إذا لم يعد هناك أى تهديد سوفييتى للمنطقة ، فإن هذا البناء بكامله ينهار . فمن منظور استراتيجى ، لم تعد أمريكا بحاجة إلى اسرائيل ، ولابد للأخيرة من أن تشعر بنتائج هذه الحقيقة بطرق متنوعة » .

النمط هنا واضح تماما : استراتيجية أمريكية تتحدد ، ثم استراتيجية تحاول أن تحدد هويتها وتوجهها بأن تجد لنفسها «دورا» أو «وظيفة» داخل الاستراتيجية الأمريكية التى تحددها المصالح الأمريكية .

ومما لا شك فيه أن الإعلام واللوبى الصهيونى يحاولان تقديم وجهة النظر الإسرائيلية ويحاولان أن يؤكدا للغرب مدى صلاحية الدولة الصهيونية كقاعدة وكعميل وكأداة ، بل إنهما يحاولان أن يوسعا من المساحة التى تتحرك فيها إسرائيل بحرية ، ويبذلا أقصى جهدهما أن تحصل إسرائيل على مكافأة كبيرة وتحقق عائدا أمنيا واقتصادياً وسياسيا مرتفعا لما تؤديه من خدمات . ولكن كل هذه التحركات مضبوطة بالأطروحات

الاستراتيجية الأساسية التى تتحدد خارج مجال ضغوط الإعلام ونفوذ اللوبى الصهيونى .

حدود القوة

وقد يكون من الضرورى أن نشير إلى حقيقة فى غاية الأهمية تبين حدود القوة اليهودية . من المعروف أن الأقلية اليهودية تشكل أثرى أقلية دينية / إثنية فى الولايات المتحدة ، وربما فى العالم - وقد بينت إحدى الاحصائيات عام ١٩٨٥ أنه من بين ٤٠٠ شخص يعدون أكثر الأفراد ثراء في الولايات المتحدة كان يوجد من بينهم ١١٤ يهوديا أى بنسبة ٢٤ - ٢٦ ٪ على الرغم من أن اليهود يشكلون ٢,٥٤٪ فقط من السكان . هذه المعلومة - الدقيقة والحقيقية - تساق باعتبارها دليلا على «نفوذ» اليهود ، فالأثرياء دائما ذوو نفوذ وثراء ، وهم دائماً مصدر قوة . ولكن بقليل من التحليل المتعمق سنكتشف أن هذه المعادلة البسيطة الواضحة ليست على جانب كبير من الصحة . فاليهود - رغم ثرائهم - لا يمتلكون أيا من الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب وصناعة السيارات والكيماويات) كما أنهم لا يمتلكون أيا من المؤسسات المالية الكبرى مثل المصارف الهامة ، على عكس ما يشاع . ولذا نجد أن كثيرا من الناس فى العالم العربى يعتقدون أن أسرة روكفلر يهودية ، وهذا غير صحيح بالمرة فهى أسرة بروتستانتية وهى من ضمن هذه النخبة البروتستانتية التى تمتلك معظم الصناعات الثقيلة وتسيطر

على القطاع المالى ، وهم ليسوا بروتستانت وحسب وإنما بيض من أصل انجلو/ساكسونى . ومن صفوف هؤلاء يتم تجنيد أعضاء النخبة ومن صفوفهم جاءت الغالبية الساحقة من رؤساء الولايات المتحدة (ربما باستثناء كيندى الكاثوليكى من أصل أيرلندى) . لا يمتلك أثرياء اليهود إذن صناعات ثقيلة ولابيوت مالية ضخمة ، وإنما تجدهم مركزين فى أعمال العقارات والسمسرة والمضاربات والكازينوهات وصناعة السينما ودور النشر والصناعات الخفيفة (خاصة الملابس) ووجودهم فى هذه القطاعات يعطيهم بروزاً ويؤكد حضورهم ، ويولد صورة عامة بالقوة تتنافى مع واقع توزيع القوة الحقيقى ، إذ إن القوة المؤثرة الحقيقية فى يد من يمتلك الصناعات الثقيلة وبيوت المال الكبرى ، رغم عدم بروزه إعلاميا .

أما بخصوص ملكية اليهود لوسائل الإعلام فيجب أن نؤكد على حقيقتين أساسيتين :

١ - أن غالبية يهود الولايات المتحدة مواطنون أمريكيون يتحركون داخل إطار أمريكى ، طموحاتهم أمريكية وأحلامهم أمريكية ، ولذا فملكيتهم لوسائل الإعلام لا تعنى بالضرورة أنها ستتوجه توجها يهوديا صرفا ، فيهودية يهود الولايات المتحدة مرتبطة تماما بأمريكيتهم .

٢ - الإعلام فى الولايات المتحدة مؤسسة تدخل فى علاقة مع مؤسسات عديدة أخرى (وكالات أنباء - مخابرات - وزارة

الخارجية – المؤسسة الصناعية العسكرية – وزارة الدفاع) ، وهذا هو طابع المجتمعات الحديثة في الغرب – إن كل شئ يتم من داخل مؤسسات مرتبطة بمؤسسات أخرى كلها داخل منظومة واحدة ، ولايمكن لمؤسسة أن تعمل بمفردها تماما خارج النظام . قد تتمتع إحدى المؤسسات بدرجة أعلى من حرية الحركة وبمقدرة أعلى للضغط والتأثير ، ولكن يظل الجميع داخل النظام الذى له آلياته وقوانينه التى تتجاوز أهواء الأفراد ورغباتهم ، ولذا لا يمكن لأصحاب دور النشر والصحف من اليهود – مهما بلغوا من تعصب لإسرائيل – أن يوجهوا جرائدهم الوجهة التى تروق لهم ، إذ يتحرك الجميع داخل الإطار الاستراتيجى العام (وهى فى هذا تشبه مؤسسات صنع القرار الرسمية) وهذا الإطار لا يحدد من خلال نشرة تصدرها المخابرات الأمريكية أو «توجيه عام من السيد المدير» (كما هو الحال عندنا) وإنما يتم إشاعته بوسائل فى غاية الدقة والتركيب وتأخذ شكل عقد اجتماعى صامت بين الجميع ، ومن يخرقه يستبعد تماما ، ويلاحق بشراسة ويجد كل الأبواب موصدة دونه . وأجهزة الإعلام التى يمتلكها أمريكيون يهود لها رقعة محدودة من الحرية ، يتحرك فيها اليهود كيفما شاءوا ، لكن تظل الأمور مضبوطة بالمصالح الاستراتيجية العليا وبالعقد الاجتماعى الأمريكى .

صهينة اليهود

ولعل من أهم مظاهر حدود قوة اليهود والصهاينة ومدى

هيمنة المؤسسة الحاكمة الغربية على الجميع هو الكيفية التى يتحول بها أفراد الجماعات اليهودية إلى الصهيونية ، فمن المعروف أنه عندما ظهرت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر عارضتها الجماهير اليهودية ولذا حتى بعد أن حصلت المنظمة الصهيونية على وعد بالفور اعترف وايزمان أنه - أى الوعد - كان مبنيا على الهواء ، وعلى حد قوله عام ١٩٢٧ ، كان يرتعد خوفا خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مدى تأييد اليهود للحركة الصهيونية فهى كانت تعلم أن «اليهود ضدنا .. كنا وحدنا نقف على جزيرة صغيرة ، مجموعة صغيرة من اليهود لهم ماض أجنبى » .

وقد اقترح وايزمان وغيره من الصهاينة حل المشكل «من أعلى» ، من ناحية المصالح الامبريالية ، وليس من «أسفل» من ناحية الجماهير اليهودية ، وحدد الاستراتيجية على النحو التالى : «إذا دخلت فلسطين في نطاق النفوذ البريطانى ، وإذا شجعت بريطانيا عملية استيطان اليهود هناك ، وأصبحت دولة خاضعة لبريطانيا ، فسيصبح هناك - خلال عشرين إلى ثلاثين عاما - مليون يهودى» يقومون بخدمة المصالح الامبريالية .

وعندما أعرب أحد المسئولين فى الحكومة الانجليزية عن دهشته للموقف المناهض للصهيونية الذى اتخذه قادة اليهود البريطانيين ، أكد وايزمان له أن خطة شن الهجوم «من أعلى» مؤكدة للنجاح ، وتكهن أنه بمجرد الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا لليهود ،

فإن اليهود البريطانيين المناهضين للصهيونية «سيوافقون على الفور» على الحل الصهيونى، وأنهم هم أنفسهم سينخرطون فى صفوف الحركة الصهيونية فى الوقت المناسب ، أى أنه عن طريق كسب ود القوة الامبريالية يمكن للحركة الصهيونية أن تفرض نفسها على الجماهير اليهودية أى أن النمط هنا ليس جماهير يهودية تجندها الحركة الصهيونية للضغط على الحكومات الغربية لتنفيذ المشروع الصهيونى، وإنما العكس تماما : دولة إمبريالية تبحث عن منطقة نفوذ فى الشرق الأوسط وعن أداة تستخدمها فى تحقيق هذا الهدف ، وتجد ضالتها فى الحركة الصهيونية (التى كانت تعلن عن نفسها دائما على أنها الأداة الرخيصة) فتعطى القوة الإمبريالية الحركة الصهيونية كثيرا من المزايا والوعود، وتسبغ عليها قدرا كبيرا من الشرعية (أى أن الشرعية هنا ليست شرعية يهودية وإنما شرعية إمبريالية) . وحينما تحصل الصهيونية على هذه الشرعية من القوى الإمبريالية فانها تجابه الجماهير اليهودية التى تتساقط أمامها وتتم صهينتها، ويتكون اللوبى الصهيونى لخدمة المصالح الصهيونية التى هى فى واقع الأمر المصالح الإمبريالية . والجماهير اليهودية فى العالم الغربى التى تؤيد الصهيونية لاتجد أى تعارض بين ولائها لبلادها (صاحبة المصالح والمشاريع الإمبريالية) وولائها للصهيونية أداة الإمبريالية، بل إنه فى حالة الأمريكيين اليهود على سبيل المثال ترتبط صهيونتهم تماما بأمريكيتهم .

السوبر لوبى

إن قوة الحركة الصهيونية تنبع من أنها تخدم المصالح الأمريكية لا لأنها تقف ضدها . وهكذا يجب أن نفهم سر سطوة الإعلام الصهيونى وسر نفوذ اللوبى ، وقد جاء فى مقال فى الواشنطن بوست بقلم ريتشارد شتراوس (٢٧إبريل ١٩٨٦) أن السوبر لوبى الصهيونى الجديد فى واشنطن هو ريجان – إلى درجة أن اللوبى الصهيونى الآن يجلس لايفعل شيئا . بل إن معاداة العرب أصبحت لها حركية مستقلة عن اللوبى الصهيونى حتى أنه تنشأ الآن مواقف جديدة تماما ، ففى إحدى صفقات الأسلحة السعودية تصاعدت المعارضة فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب للصفقة على الرغم من أن اللوبى الصهيونى كان قد قرر عدم التصدى لها بالاتفاق مع المؤسسة الحاكمة . وكما قال ريجان «إسرائيل تحمى آبار البترول ومصالحنا فى المنطقة» .

ولعل ما ورد فى مقال ليندا فيلمان «جنود كسر العظام يحطمون الصلة مع يهود العالم» فى الكريستيان سانيس مونيتور (نشرت فى الوطن ١٧ مارس ١٩٨٨) يبين أن مصلحة الولايات المتحدة فى نهاية الأمر هى اللوبى الحقيقى إذ تشير كاتبة المقال «للدور المحتمل لليهود الأمريكيين بما يتمتعون به من مهارات وقوة ضغط هائلة فى دفع عملية السلام» . ولكنها تشير إلى محللين

آخرين يشكون فى أن يشكل اليهود الأمريكيون عاملا حاسما فى عملية السلام وفى الضغط على إسرائيل اذ إنه بسبب تحركات أسبانيا واليونان لإغلاق القواعد الأمريكية بالإضافة إلى سقوط شاه إيران ، تعاظمت الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة «وهذا العنصر الأخير» سيقلل من أهمية رأى اليهود الأمريكيين فى صياغة الاتجاه السياسى أى أن مصلحة الولايات المتحدة لا اللوبى الصهيونى ولا القرار الإسرائيلى هو الذى يحدد القرار الأمريكى فى نهاية الأمر . وهذا أمر طبيعى ومنطقى بالنسبة لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة لها مصالح إستراتيجية فى كل أنحاء العالم ، ولا يمكن لها أن تخضع لضغوط هذه الأقلية أو تلك . وهاهى لحظة زمنية تتخذ فيها الجماعة اليهودية الأمريكية موقفا غير متفق تماما مع موقف الدولة الصهيونية والحماية اليهودية مشغولة بصورتها الإعلامية وبوضع أعضائها اليهود داخل المجتمع الأمريكى الديمقراطى، وأسلوب إسرائيل فى هذا السياق يسبب لها كثيرا من الحرج ، أما الدولة الصهيونية فلا تكترث كثيرا بذلك إذ إنها مشغولة بالدفاع عن مصالحها وبقائها عن طريق العنف والبطش وضرب حقوق الانسان . والجماعة الأمريكية فى هذا أشبه بالجماعة اليهودية فى انجلترا عند صدور وعد بالفور . فالجماعة اليهودية كانت قد تبنت المثل الليبرالية الاندماجية المعادية للصهيونية وكانت تكمن مصلحتها فى تأكيد

انتمائها للمجتمع الانجليزى ، ولذا كانت تمارس الضغط ضد إصدار وعد بالفور الذى كانت ترى أنه سيعرض وضعها ومكانتها داخل المجتمع الانجليزى للخطر . ولكن المصالح الامبريالية تجاوزت رأى أعضاء الجماعة اليهودية فنصحت الحكومة الانجليزية قيادات هذه الجماعة بالامتناع عن توجيه النقد ، وصدر الوعد رغم أنفهم لا بسببهم (كان الوزير الوحيد فى الوزارة الانجليزية الذى عارض إصدار وعد بلفور هو أيضا الوزير اليهودى الوحيد فيها ، سيرادوين مونتاجو) . وها نحن نجد نفس الوضع بالنسبة ليهود أمريكا إن اتفقت مصلحتهم مع مصالح الامبريالية فإن مقدرتهم على الضغط تصبح هائلة ، وإن أختلفت مصلحتهم عن المصالح الامبريالية فإنهم يصبحون غير مؤثرين .

إن اللوبى الصهيونى وسيطرة الصهاينة على الإعلام أكاذيب وأوهام نخدر بها أعصابنا ، ومن يؤمن بهما عليه أن يفسر دعم الولايات المتحدة الرهيب للكونترا رغم أن صورتهم الإعلامية فى الولايات المتحدة فى الحضيض ، ورغم أنهم ليس لهم لوبى ، وعليه أيضا أن يفسر دعم الولايات المتحدة لكثير من النظم الفاسدة فى العالم . إن توافق المصالح ، وتوافق الإدراك الغربى والصهيونى، وميل موازين القوى لصالح إسرائيل ، هى سر نجاح إسرائيل الإعلامى ومصدر قوة اللوبى الصهيونى وليس العكس،

وهى العوامل التى تحدد فى نهاية الأمر السلوك الغربى ، لا العقل أو التراث الدينى اليهودى المسيحى . وهذا لايعنى أننى أقلل من أهمية الإعلام الصهيوني أو أنني أهون من شأن فعالية اللوبى فى صياغة القرار السياسى الأمريكى . كما لايمكن لمحلل سياسى ، مهما كانت تبسيطيته وماديته ، أن ينكر أهمية التراث الدينى فى خلق رصيد أساسى من التعاطف مع الدولة الصهيونية . ولكن كل هذه العناصر رغم أهميتها النسبية فى صياغة القرار السياسى الغربى ، ورغم أنها تزداد قوة وضعفا حسب تغير الظروف ، وحسب كفاءة الصهاينة فى استغلالها وتوظيفها لا تشكل العنصر الأساسى إذ تظل مصلحة الغرب الاستراتيجية هى هذا العنصر الأساسى . ولا يستمد الإعلام واللوبى الصهيونى قوتهما من كفاءة الصهاينة وإنما من أن إسرائيل وجدت لنفسها مكانا داخل الاستراتيجية الغربية ، ولأنها جعلت من نفسها أداة طيعة رخيصة كفؤا لتحقيق هذه الاستراتيجية . وتحديد القضية على هذا النحو يعنى أننا لانهمل أهمية النفوذ الصهيونى ولكننا مع هذا لانفسر كل سلوك الغرب على أساسه ، اذ تظل الأولويات الاستراتيجية التى حددها صانع القرار الغربى هى التي تفسر سلوكه . وإدراكنا لهذه الحقيقة سيعمق من إدراكنا للواقع وحركياته ويزيد من مقدرتنا على التنبؤ والتصدى .

ويمكننا القول فى الختام إن تضخيم قوة اللوبى والإعلام الصهيوني وجعلهما مسئولين عن كل ما يحدث فى الغرب هو امتداد

للروية التآمرية الاختزالية البروتوكولية (نسبه إلى بروتوكولات حكماء صهيون) ، التى تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء وتجعل من الغرب ضحية للتلاعب اليهودى الصهيونى . وهذا تبسيط لأمور يعمى الأبصار ، فهل يمكن لأحد أن يتصور أن الطبيعة العدوانية الاستغلالية الشرسة للتشكيل الاستعمارى الغربى ، (الذى حول العالم بأسره ساحة لنشاطه من خلال جيوشة ومخابراته ، والآن من خلال عملائه ومخابراته) والذى أسس تشكيلا حضاريا وبنية إجتماعية مبنية على استغلال المصادر البشرية والطبيعية للكون بأسره وتوظيفها لصالحه ، نقول هل يمكن لهذا التشكيل أن يغير هويته لو أن اليهود اختفوا تماما ولم يعد لهم من أثر ؟ هل يمكن أن تتغير سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط لو أن إسرائيل اختفت من على الخريطة ؟ هل ستتعاون الولايات المتحدة حينئذ مع القوى القومية والداعية للسلام والبناء ، أم أنها كانت ستبحث عن عملاء آخرين وعن أشكال آخرى من التدخل؟ هذا هو السؤال الذى وجهته مرة للسناتور الأمريكى السابق جيمس أبورزق (من أصل عربى) وكان رده أنه لا يمكن تخيل الشرق الأوسط دون إسرائيل ! والإجابة لاتدل على عجز السناتور أبورزق عن التخيل بقدر ما تدل على المراوغة ورفض مجابهة القضية . فالسناتور من القائلين بأن اللوبى الصهيونى هو المسئول عن تحديد السياسة الخارجية الأمريكية ولذا يطالب بدعم اللوبى العربى لموازنة الأمور (وهو من أهم المستفيدين بهذه المقولة) .

وقد ركز الإعلام العربى أثناء انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة على مسألة ان كيتى دوكاكيس زوجة المرشح الديمقراطى يهودية ، وأن هذا سيؤدى إلى تزايد نفوذ اللوبى الصهيونى . ولابد أن هذا الموقف شارك فيه بعض صانعى القرار العربى . ويقف هذا على طرف النقيض من الموقف التركى ، فحين سئل المتحدث الرسمى التركى عن رأيه فى مسألة ترشيح دوكاكيس للرئاسة ، وهو من أصل يونانى ، ومدى تأثير ذلك فى الموقف الأمريكى من تركيا إن تم انتخابه ، قال ببساطة إن الولايات المتحدة لها مصالح استراتيجية ثابته سيتمسك بها الرئيس المنتخب مهما كان أصله وفصله . فهذه المصالح الثابتة هى السبب الحقيقى الكامن وراء دعم الولايات المتحدة لتركيا وهى أيضا وراء تأييد الولايات المتحدة للدولة الصهيونية ، ولا يمكن تصور أن كيتى دوكاكيس ستؤثر فى ذلك الموقف بشكل جوهرى ! وهذه مقولة غير مريحة بالنسبة لمن استنامو لمقولة أخطبوطية اللوبى الصهيونى ، اذا إنها تعنى أن عدونا ليس الأفعى اليهودية الخيالية الميتافيزيقية التى لايمكن الإمساك بها لأنها خفية رغم أنها فى كل مكان (وهذه دعوة مقنعة للاستسلام) وإنما هو العالم الغربى الذى يدافع عن مصالحه الاستراتيجية التى يمكن تعريفها والتصدى لها ومحاربتها فى كل مكان : مما يعنى إمكانية الحركة وضرورة المقاومة والجهاد . والجهاد قد يؤدى إلى الاستشهاد ولكنه قد يأتى أيضا بالحرية والكرامة .



تمثال لحاييم سالومون الممول الأمريكى اليهودى الذى
اشترك فى الثورة الامريكية مع جورج واشنطن

الفصل العاشر

الصـوت اليهـودى

من الأساطير الشائعة فى الخطاب السياسى العربى أسطورة «الصوت اليهودى» وهو مفهوم يفترض أن هناك عدداً من الأصوات يدلى بها أصحابها من اليهود فى الانتخابات الأمريكية أو غيرها من البلاد الغربية، سواء القومية (لانتخاب رئيس الجمهورية) أو على مستوى الولاية (لانتخاب حاكمها)، أو على مستوى المدينة لانتخاب العمدة أو غيره من القادة . كما تفترض أن الناخبين اليهود يتبعون نمطاً واحداً تقريباً فى التصويت ، وأنهم دائماً يقفون إلى جانب إسرائيل ويؤيدون الموقف الصهيونى ، وهم بذلك يشكلون آداة ضغط فى يد «اللوبى الصهيونى» كما تفترض أنه كلّما ازداد عدد المصوتين اليهود ازدادالصوت اليهودى قوة . ومما زاد من شيوع هذا التعميم أنّ بعض الساسة الغربيين أنفسهم يستخدمونه لتفسير سلوكهم الممالىء لإسرائيل وللسياسات الصهيونية إذ يدعون أنّ سلوكهم استجابة عملية لضغوط الصوت اليهودى والمصالح الصهيونية ولا يعبّر عن موقف استراتيجى مبدئى تمليه عليهم مصالحهم الأمريكية أو الغربية أو على الأقل رؤيتهم لها . وقد دأبت

الدعاية الصهيونية على الترويج لهذه المقولة وكأنها حقيقة مسلم بها، وتلوح بها ضد معارضي الصهيونية .

و «الصوت اليهودي» أسطورة لها أساس في الواقع ، ومما لاشك فيه أنَّ أعضاء الجماعات اليهودية (أينما وجدوا) سيكون لهم أثر ما على صنع القرار السياسي، خصوصاً في الدول الديمقراطية الغربية . ولكن ، بعد تقرير هذه الحقيقة ، يظل هناك كثير من القضايا الأساسية مثل : ما هو حجم هذا الأثر؟ هل هو من القوة بحيث لابد من أخذه في الاعتبار أم هو من التفاهة بحيث يمكن تجاهله تماماً؟ وإذا كان التأثير قوياً فما هي مصادر أو أسباب قوته؟ هل «الصوت اليهودي» قوي بسبب اتفاق مصالح الدولة الغربية مع الدولة الصهيونية؟ وهل قوة هذا الصوت اليهودي تعود إلى القوة الاقتصادية للجماعة اليهودية أم تعود إلى أسباب أخرى؟ ونظراً لاختلاف وضع الجماعات اليهودية من بلد إلى آخر ، ونظراً لاختلاف النظم السياسة التي توجد فيها هذه الجماعات ، فسوف نتناول هذه الجماعات كلاً على حده . ولنبدأ بأهم جماعتين على الإطلاق : الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، فهما تشكلان الأغلبية العظمى من يهود العالم .

الاتحاد السوفييتي

أما بخصوص الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، فإن في

الحديث عن «صوت يهودى» تناقضاً باعتبار أنَّ الاتحاد السوفييتى كانت لا تتخذ فيه القرارات السياسية على الطريقة الديمقراطية الغربية بالاقتراع السرى المباشر ومن خلال تعدد الأحزاب . ومع هذا ، فقد كانت توجد مؤسَّسات الحزب الشيوعى التى تتخذ القرارات داخلها . ومن المعروف أنَّ أعضاء الجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى كانوا من أكثر الجماعات وجوداً فى مؤسَّسات الحزب بالقياس إلى نسبتهم القومية . ولكن يبدو أن هذا الوضع لم يكن ذا أثر كبير فى توجيه السياسات السوفييتية التى يمليها صالح الدولة . ولا يمكن أن نفسِّر تغير السياسة السوفيتية تجاه إسرائيل (على سبيل المثال) فى ضوء مدى قوة أو ضعف تأثير «الصوت اليهودى» . وإذا عرَّفنا مصطلح «صوت يهودى» بالمعنى العام للعبارة (أى باعتباره لوبى أو جماعة ضغط) ، فيمكن أن نشير إلى وجود أعداد كثيرة من اليهود فى الإعلام السوفييتى وفى بعض المؤسَّسات المهمة مثل اتحاد الكتَّاب وفى الجامعات والمؤسَّسات البحثية . ولكن هذا الوضع تعادله عدة عناصر من أهمها :

١ - أنَّ النسبة العددية لأعضاء الجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى كانت صغيرة للغاية ، وآخذة فى التناقص .

٢ - لم يشكل أعضاء الجماعة كتلة متماسكة لها مصالح واحدة . فيهود جورجيا لا تربطهم رابطة كبيرة بيهود أوكرانيا ، بل إن ثمة نقاط اختلاف دينية وحضارية عميقة بينهم .

٣ – كان يهود الاتحاد السوفييتى يتمتعون بدرجة عالية (أو يعانون) من الاندماج يتبدى فى الزواج المختلط وفى اختفاء اللغة والثقافة اليديشية .

٤ – اتجه اليهود السوفييت (من خلال عناصر داخلية سوفييتية مثل تركزهم فى قطاعات اقتصادية مشبوهة ، وخارجية مثل تدخل الحركة الصهيونية) إلى الخروج من الاتحاد السوفييتى وليس البقاء داخله ، وقد أدَّى هذا إلى ضعف نفوذهم كجماعة ضغط داخل النظام السوفييتى .

٥ – من الأمور التى كانت تعوق اليهود السوفييت عن التأثير فى القرار السياسى السوفييتى ، من داخل النظام أو من خارجه ، أنَّ ثمة رفضاً عميقاً لليهودى داخل التشكيل الحضارى الروسى باعتبار أنَّ اليهودى هو الغريب ، وهو رفض يدعمه تركز نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة فى وظائف هامشية وفى السوق السوداء.

٦ – من العناصر المهمة للغاية أنه ليس كل اليهود السوفييت مؤيدين لإسرائيل . فهناك اليهود المتدينون الذين لا ينظرون إلى الدولة الصهيونية بعين الرضا . كما أنَّ هناك إحساساً ، بين يهود شرق أوربا ، بأنهم يشكّلون أقلية قومية شرق أوربية يديشية ، وهى التقاليد التى صاغها دبنوف وحزب البوند .

ومع هذا ، يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة بدأوا يتمتعون بحرية أكبر في الحركة والتعبير عن آرائهم . ولكن هذا لايعود إلى قوتهم الذاتية وإنما لتغير مبدئي وبنيوى فى سياسة الدولة السوفييتية جعلها تجد أنَّ من صالحها السماح لليهود بالهجرة والسماح للحركة الصهيونية بالتحرك . وبطبيعة الحال فإنه مع تزايد هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا، ومع انحلال الاتحاد السوفييتي وانقسامه إلى عدة دول ذات سياسات مختلفة، فمن المتوقع أن يزداد الصوت اليهودى ضعفاً .

الولايات المتحدة الأمريكية

هذا بخصوص الاتحاد السوفييتي . ومن الواضح أن أستخدام مصطلح «صوت يهودى» فى السياق السوفييتى يقترب من المجاز ويعادل كلمة «ضغط» بشكل عام . أما في السياق الأمريكى ، فيمكن الحديث دون شك عن «صوت يهودى» . فمن المعروف أنَّ كثيراً من الناخبين يتبعون نمطاً واحداً فى التصويت (وهم فى هذا لا يختلفون عن كثير من أعضاء الأقليات الآخرى) . وكما أسلفنا يشار إلى الديمقراطية الأمريكية باعتبارها ديمقراطية جماعات الضغط ، وهى قد تكون جماعات ذات طابع إثنى تضم المواطنين الذين لهم انتماء إثنى من أصل واحد ، مثل الأمريكيين من أصل أسبانى والأمريكيين من أصل إيطالى ... إلخ .

وعلى الرغم من أنّ اليهود لايشكلون سوى ٤ر٢٪ من مجموع الناخبين الأمريكيين ، مما يجعل منهم كتلة انتخابية صغيرة نسبياً قياساً بالكتل الأخرى مثل الناخبين من أصل أسبانى أو أيرلندى أو الناخبين السود، فإن ثمّة عوامل تجعل قوتهم الانتخابية وتأثيرهم يفوق بكثير عددهم الفعلى :

١ - فاليهود من أكثر الأقليات تركيزاً فى المدن ، فهم يوجدون بأعداد كبيرة فى بعض المدن ، مثل نيويورك وشيكاغو وميامى (فلوريدا) ، مما يجعل لهم ثقلاً غير عادى . وعلى سبيل المثال ، يشكل اليهود ١٩٪ من كل سكان مانهاتن وبروكلين (وهما أهم قسمين إداريين فى مدينة نيويورك) . وهم يشكلون ١٦٪ من كل سكان نيويورك و٣٪ من كل سكانها البيض . وبالتالى فإن أى مرشح يتوجّه للصوت الأبيض (فى مقابل الصوت الأسود والأسبانى) عليه أن يضع الصوت اليهودى فى الاعتبار .

٢ - يتركز اليهود فى بعض الولايات التى تلعب دورا حاسماً فى انتخابات الرئاسة ، مما يجعل أهميتهم كجماعة ضغط تتزايد ، فهم يشكلون ٦ر١٠٪ من جملة الناخبين فى ولاية نيويورك ، ٩ر٥٪ فى نيوجيرسى ، و٨ر٤٪ فى واشنطن (العاصمة) ، و٧ر٤٪ فى ولاية فلوريدا ، ونسبة كبيرة فى ولاية كاليفورنيا . كما يوجدون بأعداد كبيرة فى ولاية بنسلفانيا وإلينوى .

٣ - يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة اليهودية يتمتعون بأعلى مستوى تعليمي في الولايات المتحدة مما يؤثّر على سلوكهم الانتخابي إذ إنهم يدلون بأصواتهم بنسبة تفوق بمراحل النسبة القومية وتبلغ هذه النسبة بين اليهود ٩٢٪ (وهي أعلى نسبة على الإطلاق بين أي جماعة ضغط) في مقابل ٥٤٪ وهي النسبة بين الأمريكيين على وجه العموم ، وهذا يعني تزايد قوتهم الانتخابية . وعلى سبيل المثال ، ذكرنا أنَّ ٦ر١٠٪ من جملة الناخبين البيض الذين لهم حق الانتخاب في ولاية نيويورك من اليهود ، ولكن نظراً لحرص الناخبين اليهود على الإدلاء بأصواتهم نجد أنَّ نسبتهم الفعلية . وهي النسبة التي يضعها المرشحون في اعتبارهم ، تصل إلى ما بين ١٦و٢٠٪ .

٤ - وتتضاعف هذه النسبة فيما يتعلق بانتخابات مؤتمرات الولايات التي يتم عن طريقها اختيار المرشحين لرئاسة الجمهورية . ففي انتخابات مؤتمر الحزب الديمقراطي في نيويورك (انتخابات عام ١٩٨٤) ، بلغت نسبة عدد اليهود نحو ٣٠٪ . وكان ٤١٪ من الأصوات التي أعطيت لمونديل من أصوات اليهود . أما في انتخابات عمدة نيويورك ، فإن أصوات اليهود كانت تشكل ٥٠٪ من الأصوات التي حصل عليها .

٥ - وإلى جانب كل هذا ، يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة

اليهودية نشطاء سياسياً ويشتركون فى معظم الحركات السياسية ، خصوصاً الليبرالية واليسارية ، ويؤثرون فيها بشكل يفوق عددهم .

٦ - تضم الجماعة اليهودية عدداً كبيراً من كبار المثقفين والفنانين ورجال السياسة ، الأمر الذى يزيد من ثقلها وأهميتها كجماعة ضغط .

٧ - تعد الجماعة اليهودية من أكثر الأقليات ثراء فى العالم إن لم تكن أكثرها ثراء بالفعل . ونظراً لنشاط أعضاء الجماعة السياسى ، فهم يتبرعون للحملات الانتخابية بمبالغ كبيرة يحسب المرشحون حسابها . وربما كانت الجماعة اليهودية ، كجماعة ضغط، تنفرد بهذه الخاصية إذ إنّ أعضاء جماعات الضغط الأخرى قد يفوقون اليهود عدداً ولكنهم لايقتربون بأية حال من الإمكانيات المالية اليهود .

إذن لاشك أنّ الجماعات اليهودية تمثل قوة ضغط يحسب لها حساب داخل النظام السياسى الأمريكى . وثمة «صوت يهودى» تماماً كما أنّ هناك صوتاً أسود وصوتاً اسبانياً (وبدايات صوت عربى) . وهذا الصوت اليهودى متعاطف مع إسرائيل والصهيونية . ولكن يظل هذا الصوت اليهودى خاضعاً لحركيات النظام السياسى الأمريكى وللتناقضات التى تتفاعل داخل المجتمع . وما يحدد

اتجاهه ، ليس الولاء العقائدى المجرد للصهيونية وإنما استجابة اليهود ، كأمريكيين ، لما يواجههم فى مجتمعهم الأمريكى . فأعضاء الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة هم أمريكيون يهود أو أمريكيون يؤمنون بالعقيدة اليهودية أو بالهوية اليهودية، وليسوا يهوداً أمريكيين . وهم ، فى هذا ، لايختلفون عن كل المواطنين فى الولايات المتحدة ، فلا يوجد أمريكى خالص سوى فئة WASP الواسب وهى اختصار لعبارة وايت أنجلو ساكسون بروتستانت Protestant White Anglo Saxon ، أى البروتستانت من أصل أنجلو ساكسونى ، (وحتى هؤلاء يحمل اسمهم أصلهم العرقى) . أما بقية الأمريكيين ، فهم أمريكيون إيطاليون أو أمريكيون إيرلنديون أو أمريكيون عرب ويشار إليهم بالإنجليزية بتعبير Hyphenated Americans أى «أمريكيون بشرطة» (إذ يشار إليهم باعتبارهم أمريكيون / يهود - أمريكون عرب وهكذا) .

وهذا يعود إلى طبيعة تكوين المجتمع الأمريكى ، فهو مجتمع أستيطانى مكَّون أساساً من مهاجرين لا توجد فيه تقاليد حضارية ثابتة أو عقائد دينية مستقَّرة . وكان على المهاجر أن يسقط معظم ثقافته القديمة ويندمج فى المجتمع ليصبح أمريكياً ، وإن ظل به ولع لثقافته القديمة فإنه يمكنه أن يعّبر عن هذا الجانب من شخصيته من خلال بعض جوانب حياته غير المهمة مثل الطعام

والاحتفال ببعض الأعياد . ولكنّ هويته القديمة أو ما تبقّى منها ، فيجب أن تظل خاضعة لانتمائه الأمريكي . ومن المعروف أنّ أعضاء الجماعة اليهودية من المهاجرين كانوا من أكثر المهاجرين تقبُّلا للمثل الأميريكية ، وأكثرهم تخلياً عن ثقافتهم القديمة الأوروبية ، بمعدَّلات تفوق المهاجرين الآخرين . وهذا يعود إلى عدم تجذُّر اليهود فى الثقافة الأوربية فى شرق أوربا ، ولذا كان من الواضح أن المهاجرين اليهود على عكس كثير من المهاجرين من الجماعات الإثنية الأخرى لم يأتوا إلى الولايات المتحدة ليجرّبوا حظّهم وإنما ليستقروا ويقيموا فيها . ولذا ، فقد كانت نسبة العائدين إلى أوربا من بين المهاجرين اليهود هى أقل نسبة بين مختلف جماعات المهاجرين (ربما باستثناء الأيرلنديين) . وبعد أن استقرّ يهود شرق أوربا ، وضعوا أنفسهم داخل الإطار الأمريكي وأصبحوا أمريكيين بشرطة (أمريكيين / يهوداً) بحيث أصبحت إسرائيل بالنسبة إليهم مثل أيرلندا بالنسبة للأمريكيين من أصل أيرلندى . ويجب ملاحظة أنّ إسرائيل ، بذلك أصبحت البلد الأصلى أى البلد الذى يهاجر منه الإنسان لا إليه – لكن فكرة أنّ إسرائيل هى البلد الأصلى هى فكرة مناقضة للفكرة الصهيونية .

وفى الوقت الحاضر ، يلاحظ أنّ أعضاء الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة ، على عكس ما هو شائع ، من أكثر الأقليات اندماجاً وتأمركاً حيث يتبدى هذا فى تزايد معدّلات العلمنة فى وقت لايزيد فيه عدد اليهود الذين يمارسون شعائر عقيدتهم على ٥٠٪ ،

وفى معدّلات الزواج المختلط الذى يصل فى بعض الولايات إلى ما يزيد على ٥٠٪ .لذا ، فنحن نسميهم اليهود الجدد ، فهم مختلفون بشكل جوهرى عن يهود أوربا ويهود عصر ما قبل الاستنارة فى أواخر القرن الثامن عشر .ولفهم سلوكهم الانتخابي والسياسى الحقيقى ، لابد من أن نضعهم داخل سياقهم الأمريكى خارج الأساطير الصهيونية التى يردّدها بعض العرب .

الجمهوريون والصوت اليهودي

على سبيل المثال ، يلاحظ أنّ العلاقة بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة ازدادت عمقاً فى أثناء حكم الرئيسين الجمهوريين نيكسون وريجان ، خصوصاً الأخير . ويلاحظ كذلك أنّ سياسات الحزب الجمهورى ، التى تتبنى سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفييتى وتصعيد الحرب الباردة ، تلقى صدى فى صفوف الصهاينة والدولة الصهيونية المستفيدة من حالة التوتر الدولى والاستقطاب . ويلاحظ كذلك أنّ برنامج الحزب الجمهورى عام ١٩٨٨ يتّسم بالتحيُّز الشديد لإسرائيل من مطالبة بتقوية الأواصر الاستراتيجية معها وتعميق العلاقة الخاصة بها والوقوف ضد إنشاء دولة فلسطين وتأييد إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية . كما أنّ الحزب الجمهورى لايضم فى صفوفه شخصية مثل جيسى جاكسون الذى نجح هو وأتباعه ، ولأول مرة فى تاريخ مؤتمرات الأحزاب الأمريكية ، فى وضع فكرة الدولة الفلسطينية موضع

المناقشة فإن صدقت مقولة «الصوت اليهودى» كأداة ضغط في يد الصهاينة ، فإنه من المتوقع أن يصوت اليهود لصالح الجمهوريين بأعداد متزايدة ومع هذا ، فقد أدلى معظم اليهود بأصواتهم لصالح الحزب الديمقراطي ، بنسبة ٧٠-٨٠٪ من مجمل الأصوات كما حدد بعض المحللّين . وفي محاولة تفسير هذا الوضع نجد أنّ المحللين يسقطون «الولاء الصهيوني» كعنصر محرّك ويتوجهون لعلاقة هؤلاء الأمريكيين اليهود بمجتمعهم الأمريكي . ونلاحظ أنّ الحزب الديمقراطي كان دائماً هو حزب المهاجرين والأقليات وسكان المدن وهو أيضاً الحزب الذى يمثل مصالحهم ويحاول التعبير عنها . وفي عام ١٩٣٢ ، حصل مختلف الرؤساء الأمريكيين من الحزب الديمقراطي على ما يزيد على ٧٠٪ من الأصوات اليهودية . ويحسب كثير من المحللّين لا تزال هذه النسبة هى النسبة القائمة ، ففى انتخابات عام ١٩٨٤ لم يحصل ريجان إلا على ٣٠-٤٠٪ من الصوت اليهودى وهى نفس النسبة تقريباً التى حصل عليها بوش . فالحزب الجمهورى هو حزب البيض (الواسب) بالدرجة الأولى (من بين المندوبين لمؤتمر الحزب الجمهورى لاختيار مرشح الرئاسة عام ١٩٨٨ ، كان هناك ٢٪ من اليهود في مقابل ٦٪ في مؤتمر الحزب الديمقراطى ، وكان هناك ٣٪ من السود فى مقابل ٢٠٪ فى مؤتمر الحزب الديمقراطى) . وعلى الرغم من أنّ برنامج الحزب الجمهورى مؤيد للصهيونية وإسرائيل ، فإن نفس البرنامج يقف ضد إباحة

الإجهاض ويطالب بإدخال الصلوات فى المدارس ويؤكد على ضرورة ترديد يمين الولاء فى المدارس . كما أنَّ البرنامج يطالب بإعطاء خصم فى الضرائب لأولياء الأمور الذين يلحقون أولادهم بمدارس خاصة حتى لو كانت دينية . وهى سياسات محافظة لا تروق للناخبين اليهود واستجابتهم لها هى التى تحدد سلوكهم الانتخابى .

وقد تبدو كل هذه الأمور بالنسبة إلى المراقب الخارجى وكأنها أمور تافهة ، وهى حقاً كذلك من منظور السياسة الخارجية ، ولكنها ليست كذلك من منظور الحركيات الداخلية للمجتمع الأمريكى ونمط التصويت الذى يتبِّعه أعضاء الجماعة . فمنذ بداية الستينيات والمعركة مستمرة بين دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة بشكل كامل ومطلق ، بقيادة الجماعة اليهودية من جهة ، وبعض الجماعات الأخرى ذات التوجه الدينى من جهة أخرى . ويرى معظم أعضاء الجماعة اليهودية أنَّ مصلحتهم تكمن فى تزايد معدَّلات العلمنة ، وأنَّ هذا هو الضمان الوحيد لحريتهم بل ووجودهم . وقد اكتسح هذا التيار المجتمع الأمريكى فى الستينيات . ووصلت عملية الفصل بين الدين والدولة مراحل هستيرية حتى أنه منع ذكر كلمة «الإله» فى الكتب المدرسية ، ومنعت الصلوات كما منعت نشاطات الجمعيات الدينية فى المدارس حتى لو أرادت تسجيل نفسها على أنها من جماعات الهوايات مثل جمعية كرة القدم !

ولكن ، مع بداية السبعينيات ، بدأ ردّ فعل ضد هذا الاتجاه ويدأت حركة بعث دينى ذات طابع أصولي . والطريف أنّ هذه الحركة ذات توجه صهيوني بمعنى أنّ أتباع هذا الاتجاه يرون عدم إمكان أن يتم الخلاص المسيحي إلا بعد عودة اليهود إلى صهيون (فلسطين) !

وقد استفادت الدولة الصهيونية من هذا الوضع ، وهى تعتبر هذه الجماعات جماعات ضغط لصالحها، بل إنّ بعض المعلّقين السياسيين الإسرائيليين يرون أنها أكثر أهمية من جماعة اليهود (كجماعة ضغط) باعتبار أنّ اليهود أقلية توجد خارج المجتمع الأمريكي (المسيحى) حتى ولو كانت مندمجة فيه . أما الجماعات المسيحية الأصولية ، فهى ليست مندمجة فيه وإنما هى جزء عضوى منه تعمل من داخله . ولكّن رؤية الأمريكيين اليهود لهذا الموضوع مختلفة عن رؤية الدولة الصهيونية له . فهذه الجماعات الأصولية ، برغم صهيونتها ، تهدّد حرية أعضاء الجماعة وكل ما حققته من مكانة اجتماعية وحراك اجتماعى . ويقال إن كثيراً من اليهود صوّتوا لصالح مونديل عام ١٩٨٤ بسبب اجتماع الإفطار الذى أقيمت فيه الصلاة المسيحية وحضره ريجان إبان انعقاد مؤتمر الحزب الجمهورى فى دالاس . وقد حاول الجمهوريون تصحيح خطئهم هذه المرة (عام ١٩٨٨) ، فعقدوا اجتماع إفطار

صلاة تعددياً حضره بروتستانت وكاثوليك ويهود . ولكّن دونالد هودل وزير الداخلية أمريكى (وهو مسيحى أصولى) ألقى موعظة فى هذا الاجتماع طلب فيها من مستمعيه ، بما فى ذلك اليهود ، أن يدخلوا المسيح فى حياتهم الشخصية ، فزاد الطين بلة ! ويحاول بوش أن يخفف من حدّة برنامج الحزب الخاص بإدخال الصلوات ويدعو إلى أن تأخذ الصلاة شكل «لحظة صمت» يمكن للطلبة فيها أن يصلوا أو أن يجلسوا فى أثنائها فى صمت دون صلاة إن شاءوا . ولكن ، مهما حاول الحزب الجمهورى فسوف يظل موقفه باهتاً بالقياس إلى موقف الحزب الديمقراطى حيث طالب دوكاكيس بكل حدة بفصل الدين عن الدولة . وربما كان أكبر دليل على ليبراليته وعلمانيته أنّ زوجته يهودية . ونضيف إلى هذا أنّ السياسات الداخلية للحزب الجمهورى بشأن الإنفاق على مشاريع الرخاء الاجتماعى والتعليم هى سياسات محافظة فى حين أنّ سياسة الحزب الديمقراطى فى هذا المضمار ليبرالية . وكما أسلفنا ، يتبنّى معظم اليهود المواقف الليبرالية للحزب الديمقراطى.

الديمقراطيون والصوت اليهودى

لكل هذا ، يصوّت معظم يهود أمريكا للحزب الديمقراطى وليس للحزب الجمهورى ، تعبيراً عن وضعهم كمواطنين أمريكيين لهم حركياتهم الأمريكية الخاصة وليس بوصفهم أعضاء فى الحركة

الصهيونية أو متعاطفين معها . وقد لوحظ أخيراً أن ثمة انفصال حاد بين القيادات الصهيونية وأعضاء الجماعة اليهودية . وقد أجرى استطلاع للرأى بين أعضاء الجماعة عن مدى معرفتهم بالقيادات الصهيونية التى يفترض فيها أنها تجندهم وتوجههم وكانت النتيجة أن غالبيتهم لا يعرفون اسماء هؤلاء القادة . وحينما عرضت عليهم الأسماء ظن بعضهم أنها أسماء بعض الممثلين أو المغنيين . وقد كان تعليق أحد اليهود على القيادة الصهيونية تعليقا أمريكيا إذ قال : هنا (أى فى الحركة الصهيونية) لا يوجد سوى رؤساء قبائل ولا يوجد هنود jts' all chiefs, no Indians ومع هذا ، يجب الإشارة إلى بعض العناصر المهمة التى قد تغير من سلوك الناخبين اليهود فى المستقبل :

١- يلاحظ، فى الآونة الأخيرة ، تزايد تحوُّل اليهود عن الليبرالية واليسار وتبنيهم مواقف محافظة . وربما يعود هذا إلى تزايد اندماجهم وحراكهم الاجتماعى حتى أصبحوا من أعضاء الطبقات الثرية الأمريكية بعد أن فقدوا ميراثهم الاقتصادى والحضارى المتميز . ويلاحظ هذا فى مجلة مثل كومنتارى التابعة للجنة اليهودية الأمريكية ، فهى كانت من أكثر المجلات ليبرالية ولكنها أصبحت مجلة محافظة تدافع عن التسلح والحرب الباردة ، وهناك بالفعل جماعة تسمى «المحافظون الجدد» من بينهم إرفنج

كريستول ، ونورمان بودورتز (رئيس تحرير كومنتارى) ينادون بتحالف سياسى جديد . وربما يعبر هذا التغيير فى الوضع الطبقى والتحول فى التوجه السياسى العام ، عن مزيد من تعاطف اليهود مع الفلسفة الاجتماعية للحزب الجمهورى واستعدادهم للتصويت لصالحه .

٢- يلاحظ أن الحزب الديمقراطى هو حزب السود . فظهور شخصية جيسى جاكسون هو تعبير عن تزايد نفوذهم . والعلاقات بين اليهود والسود تتسم بالتوتر ابتداء من منتصف الستينيات ومع تزايد نفوذ السود داخل الحزب الديمقراطى ، يمكن أن نتوقع تزايداً فى انكماش عدد اليهود وفى انصرافهم عن الحزب ليبحثوا عن بدائل أخرى - أى الحزب الجمهورى .

٣- يلاحظ أن البعث الدينى فى الولايات المتحدة يجد صداه أيضاً فى صفوف اليهود الأرثوذكس والمحافظين . ولذا ، لا يساير هؤلاء المحاولات التى يقوم بها اليهود الليبراليون لزيادة معدلات العلمنة داخل المجتمع الأمريكى ، بل ويطالبون بأن تقوم الدولة بتمويل التعليم الدينى ، وربما يكون لهذا أثره أيضاً على السلوك السياسى والانتخابى لهذه القطاعات من الصوت اليهودى . وهذا الفريق يرى أن زوجة دوكاكيس اليهودية نقطة سلبية محسوبة عليه لا له ، وذلك باعتبار أنها تعبير عن تزايد العلمنة بزواجها المختلط من مسيحى، وباعتبار أنها ستكون قدوة ومثلاً أعلى للمرأة اليهودية.

كل هذه الاتجاهات داخل الجماعة اليهودية قد تجعل الناخبين اليهود يصوّتون للحزب الجمهورى بأعداد متزايدة . ويلاحظ مثل هذا الاتجاه بالفعل ، ففى انتخابات ١٩٦٨ صوّت نحو ٨٣٪ لصالح الديمقراطى هيوبرت همفرى ، أى أنّ ١٧٪ وحسب صوّتوا لنيكسون فى حين صوت ٣٥٪ لصالحه فى انتخابات ١٩٧٢. وفى انتخابات ١٩٧٦ ، صوّت لكارتر ٥٤٪ من اليهود وصوت ٤٥٪ منهم لصالح فورد . لكن هناك إحصائية أخرى ترى أنّ العدد كان ٣٣٪ لفورد والباقى لكارتر ، مما يبيّن أنّ الإحصائيات غير دقيقة بسبب طبيعة الموضوع ، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى أنّ النمط القديم (المتمثّل فى أنّ اليهود أقلية ليبرالية تقطن فى المدن وتصوّت للحزب الديمقراطى) آخذ فى التغير .

ويمكن القول أنّ هذا الاتجاه سيؤدى إلى تزايد اقتراب أعضاء الجماعة اليهودية من المثل الصهيونية . ولكن يمكننا أن نضيف عناصر أخرى لها تأثير مغاير ستزيد من الفجوة بين الصهيونية والصوت اليهودى من بينها أنّ الصورة الإعلامية لإسرائيل آخذة فى التدهور بعد حرب لبنان ، ثم جاءت الانتفاضة لتربط فى العقل الأمريكى بين الجيش الإسرائيلى والإرهاب .. ووجد يهود أمريكا ، الذين يعيشون فى مجتمع ليبرالى يدعى الدفاع عن حقوق الإنسان ، أنه ليس من صالحهم أن يوحد فيما بينهم وبين

الكيان الصهيونى ، فاتخذت قيادات الأمريكيين اليهود موقفاً مستقلاً عن الدولة الصهيونية وناقداً له . ويلاحظ كذلك أنَّ سقوط الإجماع القومى فى إسرائيل حول المستوطنات انعكس على الأمريكيين اليهود ، إذ أنَّ ذلك أعطاهم حرية حركة لم تكن متاحة لهم من قبل . فنجد أنَّ حركة السلام الآن لها فروع فى الولايات المتحدة بل ولها صندوق جباية مستقل عن الصندوق القومى اليهودى . كما أنَّ الصراع بين الدينيين الأرثوذكس واللادينيين يجد صداه بين الأمريكيين اليهود ويقلل من التفاهم حول الدولة الصهيونية التى تتحكم فيها المؤسَّسة الأرثوذكسية التى لاتعترف بهم كيهود .

إذن ثمة عناصر ، داخل المجتمع الأمريكى ، بعضها يزيد من اقتراب الأمريكيين اليهود من الفكرة الصهيونية ، والبعض الآخر يبعدهم عنها . ولكن مهما كانت الصورة مركبة ، فإنَّ العنصر الأساسى فى تحديد السلوك السياسى لليهود ، سلباً أم إيجاباً ، إقتراباً أم ابتعاداً عن الصهيونية ، هو كونهم مواطنين أمريكيين لهم مصالحهم الخاصة والمباشرة التى تفوق ولاءهم العقائدى للصهيونية . بل إن تأييد الأمريكيين اليهود لسياسة بلادهم فى الشرق الأوسط لا تختلف كثيرا عن تأييد الأمريكيين البروتستانت لها لا فى النسبة ولا فى الحدة . ولعل يهودية الأمريكى اليهودى

تفسر علو النبرة فقط . ومما يجدر ذكره أن بعض المحللين السياسيين يرون أن التظاهر السياسى لصالح إسرائيل ، وارتفاع النبرة هو شكل من أشكال التملص اليهودى من الصهيونية . فالأمريكى اليهودى يدفع الأموال للدولة الصهيونية ويمارس الضغط السياسى من أجلها خوفا منها وليس حبا فيها و(حتى يرضى ضميره) فهو يرفض الهجرة الاستيطانية تماماً .

كما أن هناك من المحللين من يذهب إلى أن نفوذ الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة يستند إلى قوة إسرائيل وليس العكس فاعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل فى كثير من الأمور الأمنية وحاجتها إليها كقاعدة عسكرية وحاملة طائرات ، يجعلها توسع رقعة حركة المنظمات الصهيونية حتى تقوم بعملية تعبئة الرأى العام الأمريكى (بما فى ذلك الرأى العام الأمريكى اليهودى) ليساند الولايات المتحدة في دعمها الدائم والمستمر للكيان الصهيونى بما يتضمنه ذلك من دعم مالى قد يبدو باهظا من منظور الإنسان العادى ولكنه استثمار استراتيجى جيد من منظور المؤسسة الحاكمة ، الأمر الذى يتطلب عملية قومية سياسية تقوم بها المنظمات الصهيونية على أكمل وجه . كما أن المنظمات الصهيونية تساهم ، عن طريق عمليات جمع التبرعات ، فى دفع الفاتورة . والواقع أن النفوذ الصهيونى ، من هذا المنظور ، ليس سببا

لسياسات الولايات المتحدة وإنما هو نتيجة له ، ولاستيعاب هذه النقطة ، يمكن مقارنة النفوذ الصهيونى ومدى نجاحه بفشل الجماعات الأيرلندية فى جمع الدعم والأسلحة لجيش التحرير الأيرلندى!

لكن هذا لا يعنى أن الصوت اليهودى غير قادر على التأثير، غير أنه تأثير يتم داخل إطار المصالح الأمريكية لا خارجها أو ضدها . ولذا ، فإن الصوت اليهودى قد يؤثر فى صانع القرار الأمريكى بخصوص الشرق الأوسط ، ولكنه لا يمكنه أن يغير من اتجاهه أو يحدد أولوياته . وقد لوحظ أخيراً انصراف الشباب اليهودى فى الولايات المتحدة عن الإدلاء بأصواتهم . وقد بينت إحدى الاحصائيات أن عدد الممتنعين عن الاشتراك فى الانتخابات قد وصل إلى ما يزيد على مليون عام ١٩٩١ مما يضعف من قوة الصوت اليهودى ، خصوصا مع زيادة عدد أعضاء الأقليات الأخرى وتزايد إقبالهم على الانتخابات .

أوربا الغربية

ولا يشذ الصوت اليهودى فى دول أوربا الغربية عن هذه القاعدة العامة فهى دول تؤيد إسرائيل من الناحية الاستراتيجية وتضم جماعات يهودية تدين بالولاء لأوطانها ومن ثم تؤيد الدولة

الصهيونية وتضغط لصالحها ، ولا يمكن تفسير سياسات الحكومة من منظور مدى تزايد أو تناقص النفوذ الصهيونى أو الصوت اليهودى ، ففرنسا على سبيل المثال ، حين اتخذت موقفا معاديا نوعاً ما تجاه إسرائيل أيام الجنرال ديجول وفرضت حظرا على تصدير السلاح لها، لم يكن هذا بسبب ضعف نفوذ اليهود وإنما بسبب سياسة ديجول التى كانت ترمى إلى إيجاد شخصية مستقلة لأوربا بين الدولتين العظميين وحينما رفعت فرنسا هذا الحظر ، فإنه لا يمكن تفسير ذلك بتعاظم الصوت أو النفوذ اليهودى . وعلى كل يلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية فى فرنسا يشكلون أقل من ١٪ من مجموع السكان فهم يمثلون ٥٣٠ ألفاً من نحو ٥٤ مليوناً . كما أن أعداداً لا بأس بها من هؤلاء ليس لها حق التصويت لأنهم مهاجرون جدد . كما أن الجماعة اليهودية لا تتسم بالتماسك الشديد إذ أنها مقسمة إلى يهود سفارد شرقيين من جهة ويهود غربيين من جهة أخرى . كما أن يهود فرنسا متمركزون أساسا فى باريس وبضع مدن أخرى ، مما يجعلهم قريبين من مؤسسات صنع القرار، ولكنهم غائبون فى الوقت ذاته عن معظم فرنسا ، وهذا لا يعنى أن الفرنسيين اليهود غير مؤثرين على الإطلاق ، فهم ولا شك ذوو أثر عميق ، خصوصاً فى الإعلام ، ولكن أثرهم ينبع من كونهم فرنسيين . ويمكن أن نضرب مثلاً آخر بسياسة انجلترا التى تلتزم

بتأييد اسرائيل ، وتؤيد المواقف الأمريكية بشكل شبه كامل . ولو نظرنا إلى الصوت اليهودى لوجدنا أن اليهود لا يشكلون كتلة بشرية كبيرة ، فعددهم لا يتجاوز ٦ ٪ من مجموع السكان ، وهم ليسوا أقوياء من ناحية النفوذ الاقتصادى ، كما أن أصواتهم موزعة بين عدة دوائر (ولذا لا يمكن الحديث عن دوائر يهودية) ، ومع هذا ، بلغ عدد الأعضاء اليهود فى البرلمان الانجليزى عام ١٩٨٣ ثمانية وعشرين عضواً من أصل ستمائة وخمسين ، وهى نسبة تفوق نسبة اليهود إلى عدد السكان ، ولكن هؤلاء النواب يمثلون دوائر لا يلاحظ فيها وجود يهودى غير عادى ، أى أنهم انتخبوا باعتبارهم بريطانيين وأعضاء فى أحزاب بريطانية . وكان عدد النواب اليهود ستة وأربعين عضواً عام ١٩٧٤ ، أى أنه حدث انخفاض كبير فى عددهم . ولكن لا يمكن تفسير هذا الانخفاض فى إطار حركيات يهودية ، وإنما لابد من العودة إلى حركيات المجتمع البريطانى والجماعة اليهودية فيه . ولذا ، فإن هذا الانخفاض لا يصلح مؤشرا على تراجع النفوذ الصهيونى ، تماماً كما لا يصلح الحكم على وجود خمسة وزراء يهود فى إحدى وزارات تاتشر فى عام ١٩٨٦ (وهو أكبر عدد شهدته أية حكومة بريطانية) على أساس تزايد هذا النفوذ ، فالموقف البريطانى من إسرائيل هو موقف استراتيجى مبدئى لن يتغير بتراجع النفوذ اليهودى ، بل ولن يتغير باختفائهم الكامل (وهو الأمر الذي يتوقعه بعض المراقبين).

أما في جنوب أفريقيا ، فإن أعضاء الجماعة اليهودية قد صنفوا باعتبارهم بيضاً مما يعني أنهم يشاركون في صنع القرار داخل النظام الديمقراطي الاستيطاني ، ولكن اليهود يشكلون أقلية عددية آخذة في التناقص . ولذا ، نجد أن اليهود الذين ينتخبون في منصب ما يعتمدون على دعم غير اليهود إلى درجة كبيرة . وحينما يلعب أعضاء الجماعة دوراً مهما كان في انتخاب مرشح ما وإيصاله إلى مجالس المقاطعات أو المدن ، فإن هذا يتم داخل إطار السياسة السائدة ومطلقاته ومنطلقاته . ومن ثم فإن السلوك الانتخابي لليهود و سلوك مستوطنين بيض بالدرجة الأولى .

يبقى بعد ذلك الصوت اليهودي في أمريكا اللاتينية ويجب أن نشير ابتداء إلى أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية ضئيل للغاية في كل دول أمريكا اللاتينية . وربما يكون الاستثناء الوحيد هي الأرجنتين حيث يوجد معظم يهود أمريكا اللاتينية فيها ، وهم مركزون أساسا في بوينس أيرس . ومن الملاحظ عدم وجود دور فعال لهم في تحديد السياسة الخارجية للأرجنتين . فالحكومة العسكرية كانت تؤيد إسرائيل وتشترى منها السلاح وتضطهد أعضاء الجماعة . كما أنه تم انتخاب رئيس جمهورية من أصل عربي ! هذا إلى جانب أن الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تتسم بعدم التجانس ، ومن ثم بعدم التماسك وتوزع الصوت اليهودي ، كما يلاحظ أن النظام السياسي في أمريكا اللاتينية

تسوده الرموز الكاثوليكية واللاتينية مما يضعف فعالية النفوذ اليهودى . ولكن ضعف العملية الديمقراطية ذاتها فى أمريكا اللاتينية قد يجعل الانتخابات السياسية أمراً لا يتمتع بنفس الأهمية التى يتمتع بها فى الولايات المتحدة ، وعلى كل تتكفل الانقلابات المتكررة بجعل الانتخابات مسألة محدودة الأهمية .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٩٢٧٠
I . S . B . N
977 - O7 - O277 - 9

روايات الهلال تقدم

أوراق ١٩٥٤

بقلم
جميل عطية إبراهيم

تصدر : ١٥ نوفمبر ١٩٩٣

كتاب الهلال يقدم

شخصيات من مصر

بقلم
د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

يصدر: ٥ ديسمبر ١٩٩٣

المؤلف

الدكتور عبدالوهاب المسيرى مؤلف عربى معنى بالحضارة الغربية الحديثة وبشئون أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم وبالفكر الإسلامى.

ولد فى دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨ ، ويعمل أستاذا غير متفرغ للأدب الانجليزى والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات) .

له عدة دراسات فى الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبى من أهمها :

- **نهاية التاريخ** (القاهرة ، ١٩٧١)
- **الأيديولوچية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** (الكويت ، ١٩٨٨) .
- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة فى الإدراك والكرامة** (القاهرة، ١٩٩٠) .
- **هجرة اليهود السوفييت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات** (كتاب الهلال ، ديسمبر ١٩٩٠) .
- **العرس الفلسطيني : مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية** (واشنطن ، ١٩٨٨) .
- **الفردوس الأرضي : دراسات وانطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة** (بيروت ، ١٩٧٩) .
- **الشعر الرومانتيكي الإنجليزى : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية** (بيروت ، ١٩٧٩) .

وله عشرات المقالات فى الشعر الإنجليزى والأمريكى والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربى الإسرائيلى ، وسيصدر له فى غضون شهرين (فبراير ١٩٩٤) العمل الذى عكف على إنجازه منذ خمسة عشر عاما : **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد** ، كما سيصدر له **دراسة في النماذج المعرفية** (المعهد العالمى للفكر الإسلامى) .

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب الإجابة على بعض الأسئلة التي شغلت كثيراً من الناس : ما علاقة اليهود بالبهائية والماسونية ؟ وما المخطط اليهودى للسيطرة على العالم كما ورد فى بروتوكولات حكماء صهيون ؟ ما حقيقة العبقرية اليهودية والإجرام اليهودى ؟ ولِمَ آثر المحاربون اليهود المحاصرون فى قلعة ماساده الانتحار على الاستسلام للرومان ؟ وهل كان اليهودى الفريد دريفوس جاسوساً أم بطلا وطنيا ؟ وهل كان اليهودى ليو فرانك ذئبا بشرياً أم ضحية العنصرية ؟ وهل يعجن اليهود خبز عيد الفصح بدماء طفل مسيحى ؟ وما مدى سيطرة اليهود على الإعلام وما مدى هيمنة اللوبى الصهيونى على الولايات المتحدة وغيرها من الدول؟ وهل الصوت اليهودى عنصر حاسم وفعال فى توجيه سياسات هذه الدول ؟

والإجابة التى يقدمها هذا الكتاب ليست تقليدية بأية حال ، فهو يحوِّل هذه القضايا إلى مجرد حالات يستخدمها لدراسة قضية أعمق وأوسع ، وهى قضية إدراك الإنسان لواقعه من خلال نماذج تفسيرية تتفاوت فى درجة سطحيتها وعمقها . فهى قد تكون نماذج بسيطة تختزل الواقع إلى عنصر واحد أو عنصرين وتستبعد قدرا هائلاً من المعلومات والحقائق والمعطيات . وقد تكون نماذج مركبة فتوصل للمدرك صورة ثرية مركبة تضم كثيرا من عناصر الواقع وأبعاده والتى كان قد تم استبعادها من جراء استخدام النماذج البسيطة الاختزالية .

هذا الكتاب إذن ليس عن اليهود وحسب ، وإنما عن بعض القضايا المنهجية الخاصة بأنواع النماذج ، وكيفية صياغتها ، والفرق بين النماذج الاختزالية البسيطة والنماذج المركبة ، وعملية رصد الواقع وجمع المعلومات ومراكمتها من خلال هذه النماذج .

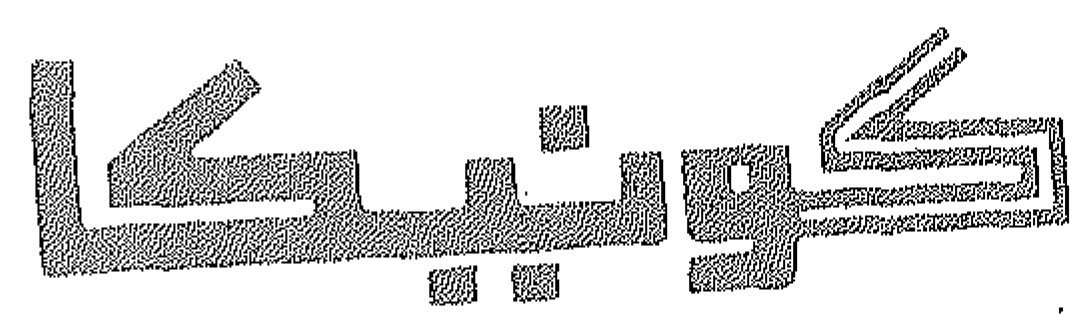
وهو لهذا السبب لا يهم الدارسين فى حقل الدراسات اليهودية والصهيونية وحسب ، وإنما يهم ، وربما بالدرجة الأولى ، المهتمين بقضايا المعلومات ودراسة الإدراك الانسانى .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٣٠ جنيها فى ج.م.ع
تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

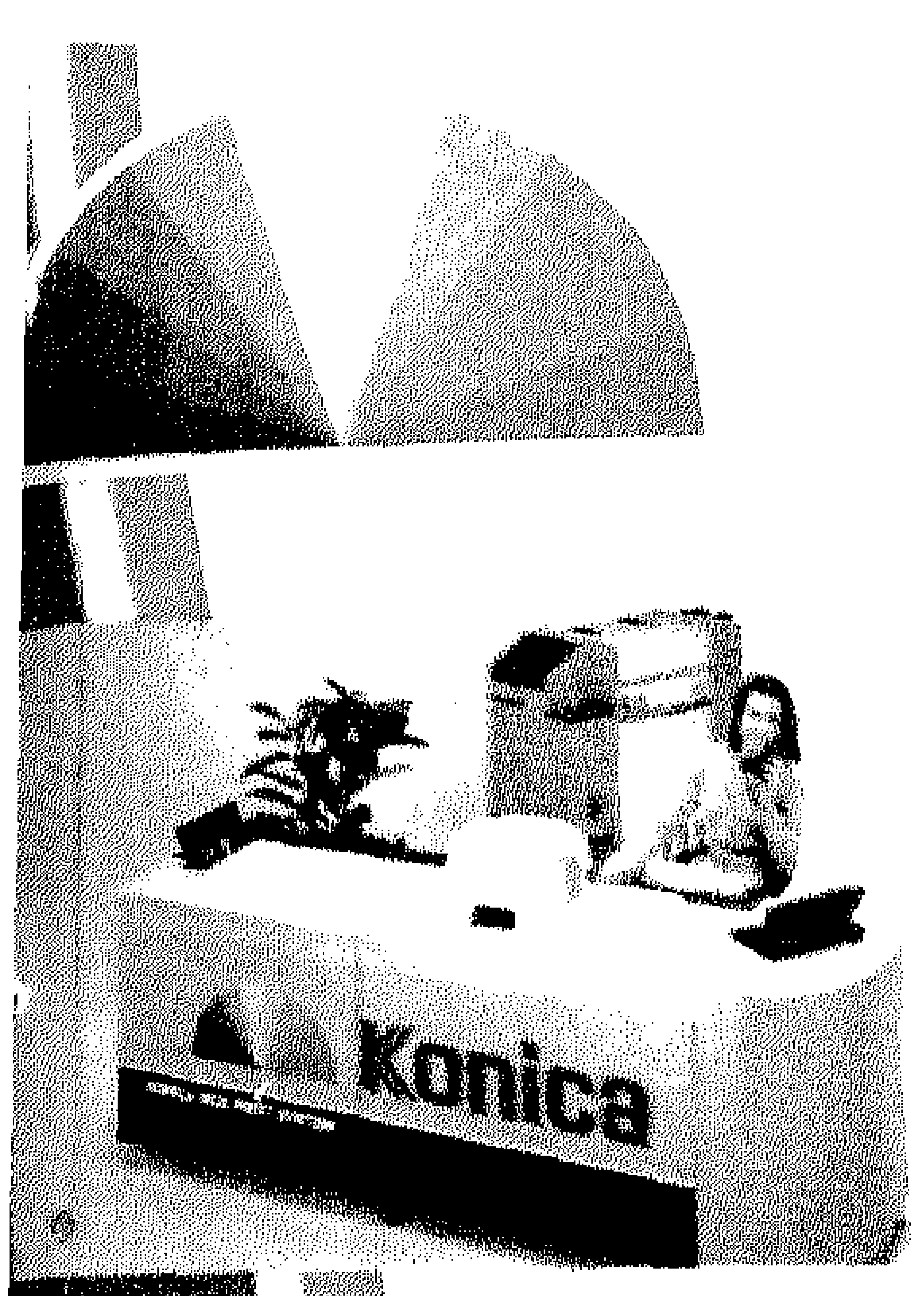
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

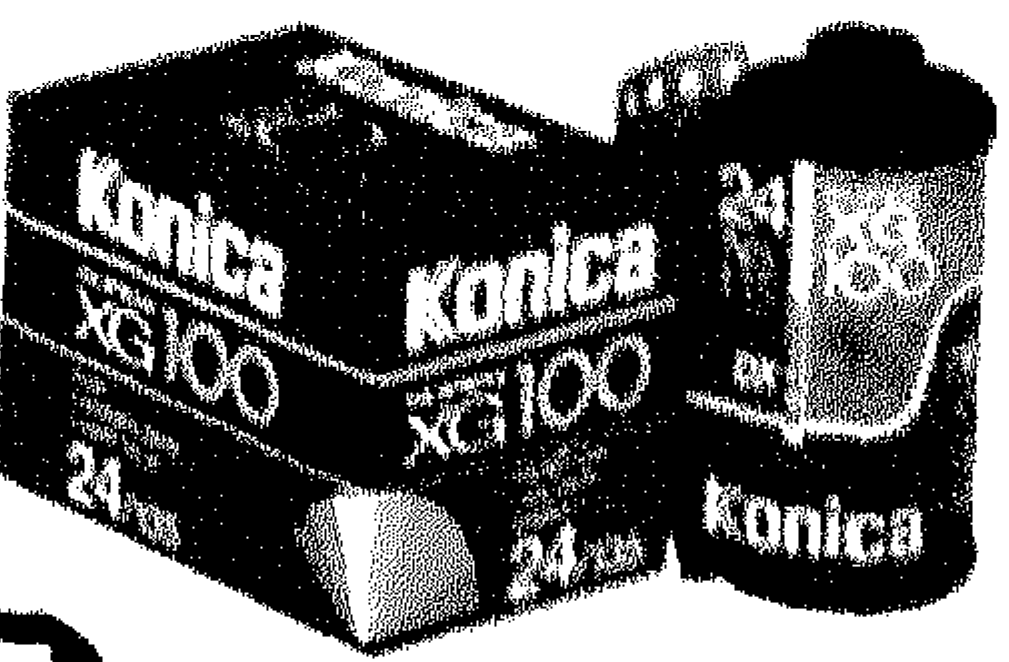
الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : Hilal.V.N 92703



Konica

كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط فيديو

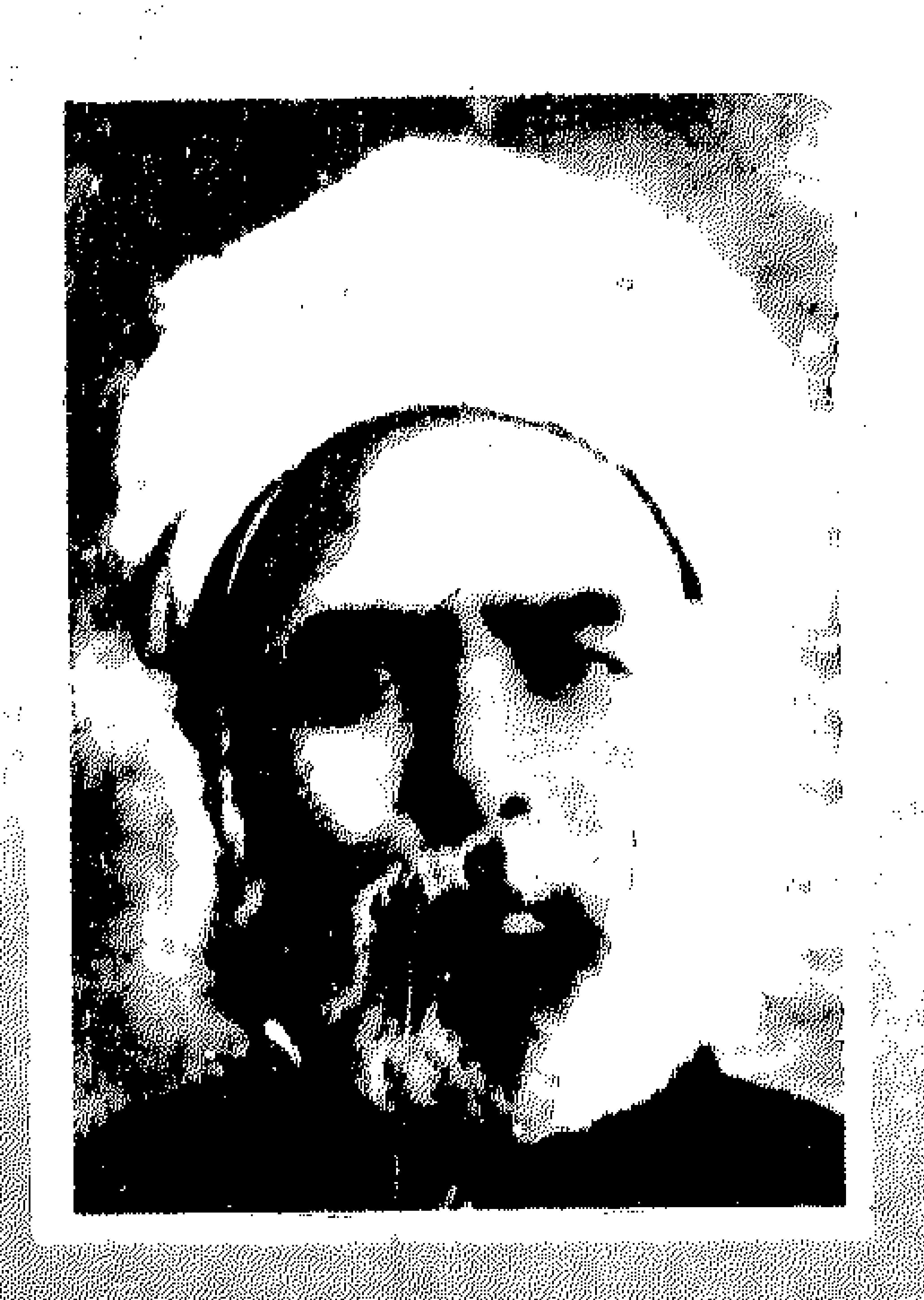
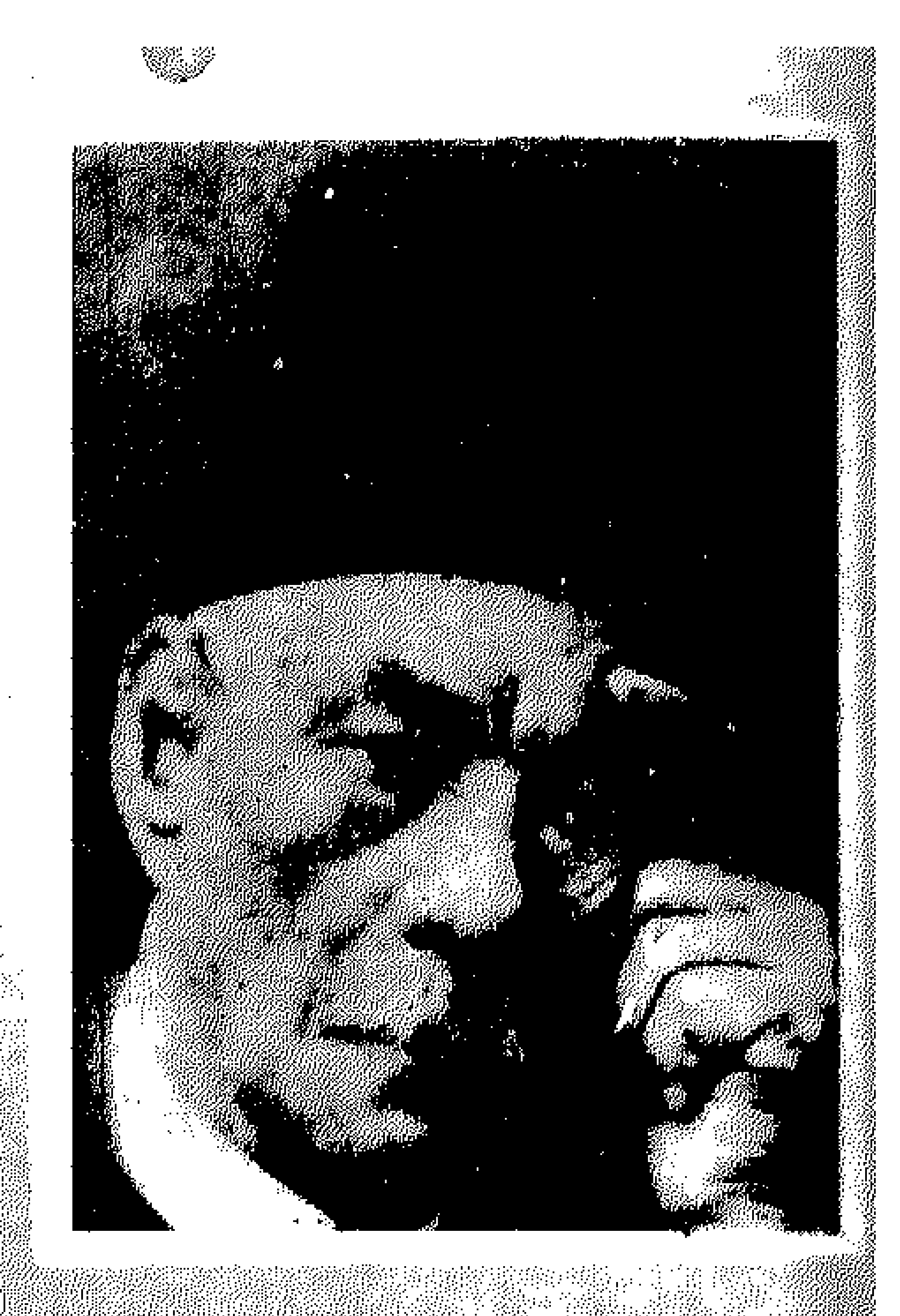


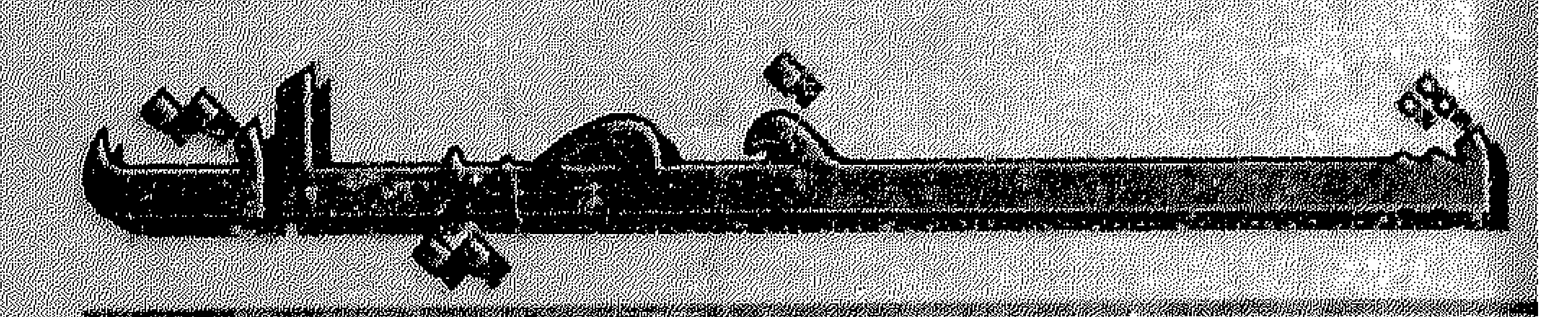


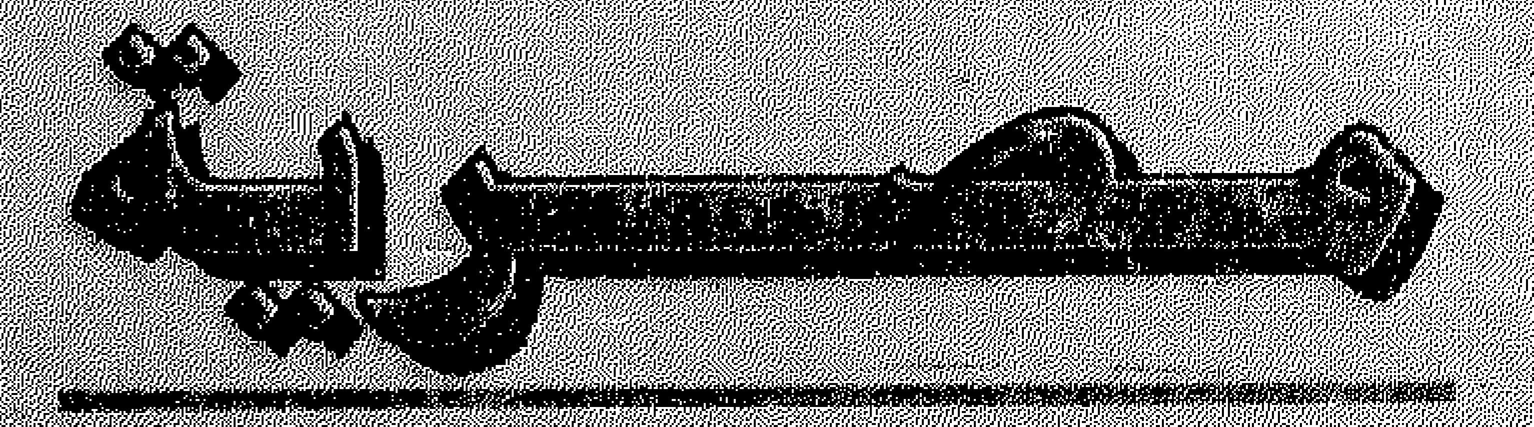
Konica

الوكيل
شركة إساى

٩٦ شارع أحمد عرابي - المهندسين
تليفون: ٣٤٤٠٥٨٣ فاكس: ٣٤٦٦٥٩٣

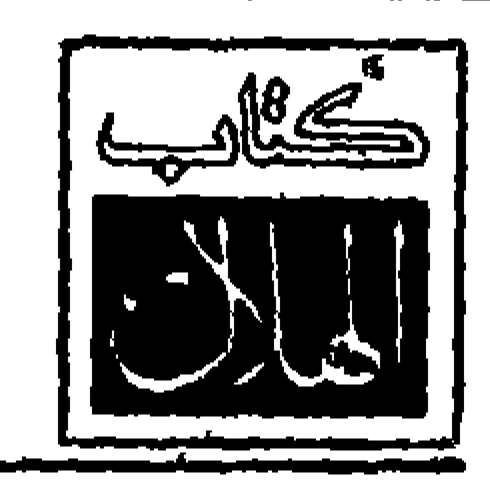




كتاب
الهلال



د. أحمد
عبد الرحيم
مصطفى



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبدالحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبدالصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO - 516 - DE - 1993 العدد ٥١٦ – جماد ثان – ديسمبر ١٩٩٣

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً :

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٥٥٠٠ ليره – الأردن ٢ دينار – الكويت ١ دينار – السعودية ١٢ ريالا – تونس ٢ دينار – المغرب ٢٥ درهما – البحرين ١,٢٠٠ دينار – الدوحة ١٢ ريالا – دبي وأبو ظبي ١٢ درهما – مسقط ١,٢٠٠ ريال – غزة والضفة والقدس ٢ دولار – لندن ١,٥٠ جك .

شخصيات مصرية

بقلم :

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

مقـــدمة

استعرض فيما يلى بعض الشخصيات العامة التى ظهرت فى مصر قبل قيام ثورة – أو حركة – الضباط فى عام ١٩٥٢ . وقد سبق أن نشرت دراسة لبعض هذه الشخصيات فى مجلة «الهلال» التى كان لرئيس تحريرها الأستاذ مصطفى نبيل الفضل فى الاشتراك معى فى التخطيط لعرض معظمها بهدف توجيه الأجيال الصاعدة إلى تتبع الصورة العامة لتاريخ مصر المعاصر من خلال بعض أبرز الشخصيات التى لعبت دورا هاما فى الحياة العامة ثم طواها النسيان العفوى أو المقصود نتيجة لتركيز العهد الجديد بعد عام ١٩٥٢ على أشخاص وأحداث جرى اختبارهم بالذات وتلوينهم بشكل يستهدف إبراز فساد الحياة السياسية وبالتالى توفير تبرير لقيام العهد الجديد الذى بولغ فى تضخيم إنجازاته وكأنها منفصلة عن تاريخ مصر العام .. والدليل على ذلك أن مسئولا كبيرا صرح لى فى معرض الحملة التى اشتركت فى القيام بها فى أوائل الستينات من أجل توفير وثائق تاريخ مصر الحديث وتسهيل الاطــلاع عليها ، بأن تاريخ مصر الحديث يبدأ يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢!

وليس معنى اختيارى لبعض الشخصيات كمحور لتاريخنا الحديث أنها كانت الوحيدة التى تصنع الأحداث بل كانت ثمة إلى جانبها شخصيات أخرى كثيرة وبعضها كان لا يقل عنها أهمية - فقد سبق للمؤرخ الكبير محمد شفيق غربال أن أشار فى كتاب «تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية » إلى أن مصر قد عرفت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ شخصيات قل أن تظهر بمثل هذه الوفرة وفى مثل هذه الحقبة فى بلدان أخرى وبخاصة فى المجال السياسى : فهناك سعد زغلول وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود واسماعيل صدقى ومصطفى النحاس وغيرهم وكانوا فى مجالهم نظراء لغيرهم فى البلدان الأوربية . حقيقة أن مصر عرفت فى فترة ما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) أعدادا كبيرة ممن اجتذبتهم السياسة بكل مميزاتها ومشاكلها ومتاعبها وهم أكثر بكثير ممن كانت البلاد بحاجة إليهم فى مجالات أخرى تستلزم الخبرة والاطلاع والتخصص فى الوقت الذى كانت فيه السياسة حرفة لبعض الطامحين الذين استسهلوا مجالها وخاضوا فيه بالشكل الديماجوجى المعروف فى كثير من بلدان العالم الثالث وهو الشكل الذى يعتمد على التآمر والتفنن فى حشد المصفقين والإمعات والمستفيدين من تقلبات الحكم وسلطانه - والكل أعلى صوتا من العالم فى مكتبته أو فى معمله أو فى تربية كوادر جديدة فى

تخصصه الذى يستلزم قدرا كبيرا من الاطلاع والتفرغ والبعد عن الأضواء.

وهكذا استقطبت السياسة الاهتمام العام فى مصر وأصبحت مجالا خصبا للظهور والكسب والسلطة وملحقاتها . وقد برع أديبنا الراحل الكبير توفيق الحكيم فى تصوير الجو السياسى فى العهد السابق على نظام ٢٣ يولية ١٩٥٢ - فقد قدم لنا صورا حية عنه فى «يوميات نائب فى الأرياف» و «مسرح المجتمع» و «شجرة الحكم» وغير ذلك مصطنعا أسلوب السخرية والنقد اللاذع ومبرزا ألوانا متعددة من الفساد الذى تردى فيه المجتمع المصرى فى الوقت الذى انزلق فيه إلى وهدة لا معقولة ولم توجد فيه قضية عامة تجمع «الكل فى واحد» على غرار ما حدث أثناء ثورة ١٩١٩ التى قدم فيها المصريون التضحيات وجادوا بالنفس والنفيس فى سبيل تخليص البلاد من المستعمر الغاصب ، حتى إذا ما هبط المد الثورى أمسك الساسة بتلابيب بعضهم البعض وأنسوا الناس القضايا العامة بعد أن هبطت القضية الوطنية من مستوى النضال بين شعب يريد أن يستقل ودولة تريد أن تستعمر إلى التحايل على الفوز بكراسى الحكم بين بضعة أفراد يطمحون إليها وممثلى الدولة المحتلة التى تتصرف فى أمر البلاد . واتجاه الحركة الوطنية هذا الاتجاه قد ترتب عليه بمرور الزمن إقصاء القوى الشعبية عن

مجالها - فما دامت الجماهير تجد أن الأمر لا يعدو وصول بعض الرجال إلى الحكم ، ولا تجد لدى من يحكمها ما يتصل بحياتها اليومية ، ولا ترى نهاية لتفاوضهم مع المحتلين ، فهى منتهية إلى عدم الاكتراث إلا إذا وصل الأمر إلى المساس بالكرامة الوطنية ، ومن ثم ما اعتور حياتنا السياسية من نقص وقلق وتدخل السلطة التنفيذية فى الانتخابات وبقاء الأداة الحكومية ، دون إصلاح أو تعديل وإهمال الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى عهد قريب .

وليس معنى تتبع تطورات التاريخ المصرى المعاصر من خلال بعض الشخصيات الهامة التي برزت على المسرح أننى من أنصار دور «البطل» فى التاريخ وهو ما قد يتبادر إلى الأذهان بمعنى أن ظهور الشخصيات البارزة كفيل بأن يجعل الجماهير تنقاد وراءها بإرادتها أو بدونها كما ينقاد القطيع وراء الأقوى والأبرز - إذ ثمة علاقة ديالكتيكية بين الفرد والمجتمع ، كل منهما يؤثر ويتأثر ؛ إذ جماهير بدون قيادة لا تعدو أن تكون ضربا من الغوغائية ، وقيادة بدون جماهير لا تعدو أن تكون شخصيات أسطورية عديمة الوجود الحقيقي ، شأنها فى ذلك شأن الإنسان الغزال أو الإنسان الذئب !

وقد درج عباد البطولة على التركيز على جوانب معينة من الشخصية المدروسة ، فالصورة إما بيضاء ناصعة أو سوداء مظلمة مما يتنافى مع الطبيعة البشرية بخيرها وشرها ، ولقد آثرت

العرض الموضوعى للشخصيات التى تناولتها وذلك فى إطار الظروف العامة التى تحركت من خلالها دون قدر من الانحياز أو التحامل اللذين لا مبرر لهما ، بحكم أننى لم تربطنى أية علاقة إيجابية أو سلبية بأى منهم بحكم أننى بعدت عما درج عليه البعض من إحاطة الشخصية المدروسة بالقداسة وكأنها آلهة تمشى على الأرض أو بالنقد المتواصل وكأنها شياطين جبلت على الشر . وخير مثال لذلك تأليه الكاتب الكبير الراحل عباس محمود العقاد لشخص سعد زغلول فى السيرة التى كتبها عنه ، علما بأن سعد كان بشرا يمشى على قدمين ويصيب ويخطىء - وكان سعد أكثر توفيقا من كتاب سيرته من حيث إنه - فى مذكراته التى يقوم الزميل عبد العظيم رمضان على نشرها - يسجل بعض أخطائه ويصدق فى تصوير نواحى قوته وضعفه وبخاصة خلال الأزمات التى مر بها . وقد تكون محاسبته لنفسه التى تملأ كثيرا من صفحات الجزء الرابع من هذه المذكرات من العوامل التى جعلته يتجنب بعض المزالق التى وقع فيها مما مهد للدور الوطنى الذى لعبه خلال العقد الأخير من حياته . كما يوجد بعض الكتاب الذين ألهوا مصطفى كامل ومحمد فريد أو اشتطوا فى الهجوم على أحمد عرابى وعلى الثورة التى قادها على اعتبار أنها أدت إلى الاحتلال البريطانى دون التفات إلى أن الإمبريالية الأوربية فى فترة الثورة العرابية كانت عاتية فلم ينج منها إلا القليل من بلدان العالم الثالث .

هذا وغيره من مشاكل التقويم التاريخى الذى يختلف باختلاف العصور والأشخاص وإن يكن ثمة حد أدنى من الاتفاق على أحكام خاصة بالأشخاص وبالأحداث دون محاباة أو تحامل أو طلب المحال . وليس معنى اختيارى لبعض الشخصيات التى ظهرت قبل عام ١٩٥٢ أنه لم تظهر بعد ذلك شخصيات أخرى تستحق الالتفات ويختلف حولها الناس ما بين مادح وقادح ، ولكننا درجنا نحن المؤرخين على ألا نعرض للأشخاص والأحداث فى حياتهم أو بعد وقت قصير من وفاتهم ، وذلك حرصا على أن تكون الصورة قد استقرت ومزيد من المعلومات قد ظهر وانفعالات الحب أو الكره قد هدأت ، وحينئذ نقترب من الموضوعية النسبية - إذ الموضوعية الكاملة بعيدة المنال - فالكمال لله وحده والبشر خطاءون .

وأخيرا أشكر دار الهلال التى تفضلت بنشر هذه الخواطر التى أرجو أن يكون لها صدى لدى المفكرين الجادين .

وأشكر الأستاذ مصطفى نبيل والزميل الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق إذ لولا تشجيعهما وملاحقتهما لى ما كان لهذا الكتاب أن يخرج إلى حيز النور

والله ولى التوفيق

أحمد عبد الرحيم مصطفى

مايو ١٩٩٣

الشيخ محمد عبده

فى حركة التجديد الإسلامى

(١٨٤٨ - ١٩٠٥)



• الشيخ محمد عبده

كان محمد عبده ذا أثر بالغ فى تطور الفكرين السياسى والدينى فى مصر فى أعقاب الاحتلال البريطانى فقد شهد ظلم إسماعيل وعاصر الثورة العرابية التى أيدها بكل قوة واهتز لفشلها خاصة أنه تلقى بعض العقوبات التى طبقت على أقطابها. ولقد عرف أسرار هذه الثورة وعانى من ضعف النفوس آلاما اجترها وهضمها أثناء منفاه فى الشام ومقامه فى باريس حيث كان يصدر جريدة «العروة الوثقى» بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغاني. وحين عاد إلى مصر بنى خطته على أساس الضرب على يد الأوتوقراطية الخديوية التى تسببت فى الديون ومهدت للاحتلال الأجنبى وأوقعت بالمصريين صنوفا من الظلم لا حصر لها. ولهذا فإنه ركز على الإصلاح الداخلى لأنه اقتنع بأن النهضة السياسية إذا لم تقترن بنضج اجتماعى وعلمى وثقافى لم تكن حرية بأن تؤتى مايرجى لها من ثمرات، ولهذا هادن هو وتلامذته الاحتلال واعتمد على مساندة اللورد كرومر فى كل ماإستهدفه من مشروعات إصلاح الأزهر والقضاء الشرعى وأكد النواحى العملية فى الفكر والسياسة مما جعله زعيما للاتجاه الليبرالى الإسلامى الذى مالبث أن أصبح الإطار الفكرى لتلاميذه

الذين تركوا بصماتهم على تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ولو أنهم اتهموا بالدفاع عن الاحتلال، كما واجهوا الهجوم من جانب ذوى الفكر التقليدى بعد أن دعوا إلى تنقية الدين من الشوائب وفتح باب الاجتهاد.

وإذا كان جمال الدين الأفغانى قد لعب دور سقراط بالنسبة إلى حركة التجديد الإسلامى فى مصر، فقد لعب تلميذه محمد عبده دور أفلاطون: ولقد أوضح آراء استاذه ونظمها وطورها. وكان من رأيه ضرورة إثارة روح المسلمين وتوجيههم صوب أخوة إسلامية مشتركة مع الإحساس بكونهم مسلمين. فأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية يرثى لها ونواحى ضعفهم كثيرة بحكم أنهم كانوا يرزحون تحت عادات كثيرة ترتبط بالفساد والانحلال ولا تمت بصلة إلى الدين الإسلامى بمقدار ما كانت نتيجة لجهلهم بالإسلام الصحيح وفشلهم فى ممارسة ما يعرفون. وعلاج كل ذلك لديه كامن فى الرجوع إلى الإسلام الصحيح .

ولكن ما هو الإسلام الصحيح الذى يجب أن يتمسك به المسلمون؟ لقد حدد الإجابة على الوجه التالى : «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل

البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وضبطه.. وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل » .

وكان يرى أن الأمل الوحيد فى إحياء المسلمين يكمن فى العودة إلى أسس دينهم ووجوب إثارة يقظة ذهنية جديدة عن طريق التعليم والأخذ بالدراسات العلمية الحديثة بحيث يمكن للأمم الإسلامية أن تنافس الأمم الغربية – إذ إنه كان يعتقد أنه لا يوجد شىء فى روح الحضارة الحديثة يناقض الإسلام الصحيح إذا ما أمكن فهمه فهما سليما والتعبير عنه تعبيرا سليما. فهو دين توحيد لا شرك فيه، تنزيه لا تجسيم فيه، وهو يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر. والعقل لازم للدين لأنه المرشد إليه، فى حين أن الدين لازم للعقل لأنه يكمله ويقومه. والإسلام الصحيح يفسح صدره للعلم ويدعو إليه، لأن العلم يكشف أسرار الكون بحيث تتسنى معرفة الله وإجلاله، وهو فى تفسيره حاول التوفيق بين الإسلام ونظرية المدنية الحديثة واتبع طرقا من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم.

وكان محمد عبده يرى أن إصلاح المسلمين عن طريق دينهم أسهل واجدى من إصلاحهم عن طريق الاحتكام إلى العقل والأخذ بأساليب المدنية الأوربية. كما أنه دعا إلى الاحتكام إلى العقل وفتح

باب الاجتهاد بحيث تتسنى مواجهة المتغيرات الحديثة وبذلك تتخلص الشعوب الإسلامية من تخلفها وتستعيد مجدها الغابر.. فمن رأيه أن سبب تدهور المسلمين ناتج عن الربط بين الدين والسياسة وبين الفلسفة والفقه وعن الموقف المحافظ الذى كان يقفه «العلماء» المتزمتون من هذين التحديين، ولهذا ذهب إلى أن أوضاع المسلمين لن تتغير إلا بتطوير العلم بالشكل الذى يتمشى مع الإسلام عن طريق السياسة. وكان شديد الإعجاب بمنجزات أوربا فى العصور الحديث وبجدية مجتمعها وإن كان يلمس صعوبة نقل قوانينها ونظمها، بحكم أن القوانين التى نبتت فى أرض مخالفة لا تنسجم وأوضاع البلدان التى تستوردها، بل قد تمعن عملية النقل فى تعقيد الأمور حين يتعذر فهمها، وبالتالى لن تكون مدعاة للاحترام. فالأخذ بالنظم الغربية لديه لايكفى وحده لحفز الاصلاح الذى لن يتم إلا بالرجوع إلى مجموعة صغيرة من المبادىء التى يقبلها العقل. ولما كان يرى أن القانون الإسلامى هو التطبيق العملى للمبادىء على ظروف العالم المتغيرة فقد اتجه إلى إعادة تفسيره بالصورة التى تسمح باقتباس الجوانب الصالحة من الأخلاق الأوربية وحين سعى إلى المصالحة بين العلم والدين، وحين أقر ضرورة إعادة النظر فى القانون الإسلامى بحيث يتمشى مع متطلبات العصر مهد الأذهان دون أن يدرى لظهور أفكار خاصة بكل من الدين والدولة تختلف عن أفكار الماضى .

على أن محمد عبده لم يوفق فى إضفاء الصبغة الإسلامية على التقليد الليبرالى القائل بوجوب الفصل بين الدين والدولة. كما لم يوفق فى التغلب على الاتجاهات العلمانية لدى أنصار العلم الحديث. ولقد عمل على التغلب على الشكوك التى أحاطت بكل من العلم والحضارة الغربية، كما عمل على إضعاف الحلف القائم بين رجال الدين وبين السلطات التقليدية . ورفض الأساس التاريخى للإجماع الإسلامى وذهب إلى أن إجماع العقل وحده هو الصحيح والمعقول. وبالإضافة إلى هذا فقد ذهب إلى أن نظام الخلافة لا يدخل في نطاق العقيدة الإسلامية وهو الرأى الذى أتيح لتلميذه على عبد الرازق أن يطوره ويحدث به ضجة خلال العشرينيات من القرن العشرين. وعلى أية حال فقد وفق محمد عبده فى فصل الجانب السياسى عن الجانب الدينى، فأصبح كل منهما مستقلا عن الآخر ولو أن انفصالهما لم يكن كاملا .

ومن الطبيعي أن يخطىء معاصرو محمد عبده فى فهم أفكاره. فقد رفض المحافظون دعوته من أساسها، على حين فضل تلامذته السير على نهج الأفغانى الذى كرس دعوته للنشاط السياسى وبخاصة ضد الاستعمار الغربى، ولو أن نشاطه أدى إلى ظهور مايعرف بالسلفية التى قيض لتلميذه رشيد رضا - الذى كتب سيرته - أن يكون أهم دعاتها .. ولقد اتهم محمد عبده بأنه «لاأدرى

وأنه «معتزلى» و «ماتوريدى» كما اتهمته بعض الدراسات الغربية الحديثة بالإلحاد ، وذلك كله رغم صعوبة ربطه باتجاه معين. حقيقة أن أحكام ابن تيمية كانت مصدرا لإلهامه فى الوقت الذى شغل فيه وظيفة الإفتاء إلا أنه لم يقبل تزمته، وإن يكن الدكتور عثمان أمين ينفى تأثره بابن تيمية ومدرسته « المحافظة » التي ناصبت الفلسفة العداء، وحين مزج محمد عبده بين عدة عناصر ليقيم نظاما عقائديا كان مبدؤه فى الاختيار عمليا قبل أى شىء آخر. فالعمل لديه هو أعلى مراتب الكمال، والمفاهيم الدينية من الواجب الأخذ بها لحث الناس على العمل والتمسك بالفضيلة، ومن ثم فإنه كان يرى أن المفاهيم الوحيدة ذات القيمة هى التى تؤثر فى حياة الناس العملية وتساعد على إطلاق الطاقات لتحسين الذات. وفى رأيه أن الفكر الإسلامي قد أخطأ حين انفصل عن الحياة وتأثر بالفلسفة الإغريقية مما شغله بمشكلات لم يكن لها أثر فى الحياة، وربما كان محمد عبده متعدد الجوانب، ولكنه كان تجريبيا قبل أى شىء آخر. وليس ثمة شك فى أن المنهج الذى اتبعه كان أكثر ملاءمة للفكر العصرى لأنه دخل فى الإطار التاريخى وبالتالى أصبح ذا معنى. ومع ذلك فقد يكون من الخطأ افتراض أن تحليله تاريخى بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معنى وذلك لأن تاريخ علم التوحيد ليس علم التوحيد ذاته بل هو قصة انحراف الفقه الإسلامى عن أهدافه الحقيقية .

ولنا بعد كل هذا أن نتساءل : كيف أتيح لهذا الشيخ، برغم اتجاهه السلفى، أن يأخذ بمنهج من أحدث مناهج التحليل العصرية؟ وللإجابة على هذا التساؤل نجد أنه كان ملما بعض الشىء بالفكر التاريخى الأوربى ونظريات التطور التاريخى، وبخاصة نظريات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الانجليز: سبنسر وفريزر ووسترمارك، كما اطلع على مؤلفات رينان وتين وجبون وجوستاف لبون وماكس نورداو. كما اعتمد فى معظم مادة مقدمة كتابه «رسالة التوحيد» على مقدمة ابن خلدون التى قام بعض الوقت بتدريسها، وكان يتفق مع ابن خلدون فى اعتبار الدين أمرا لا غنى عنه فى تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية ومع الغزالى فى اعتباره مسألة تتعلق بالقلب ولو أنه تجاوزهما فى الدعوة إلى كبح جماح العاطفة الدينية بالاحتكام إلى العقل، خاصة وقد تبين من تاريخ المتصوفة مضار هذه العاطفة .

وأغلب الظن أن تأثر محمد عبده بابن خلدون راجع إلى اشتراكهما فى مواجهة صعوبة التوفيق بين المتناقضات الكامنة فى التاريخ والفكر الإسلاميين وإلى اهتمامهما بإيضاح أسباب تخلف المسلمين. ولاتتمثل عصرية محمد عبده فى تقبله للإطار التاريخى كما لا تدخل فى نطاق المحتوى الإسلامى نظرا لقبولها المنهاج الغربى فى التحليل بل تتمثل فى الفكرة السائدة لدى كثير من

المسلمين عن التاريخ الذى يمثل لديهم الحق والصدق من الزاوية الدينية. وبهذا تكمن عصريته فى رفضه للتاريخ ولأوضاع المسلمين فى زمانه. ومن دلائل شدة ثقته فى فعالية العقل أنه اعتنق مبادىء حركة الاستنارة الأوربية فى القرن الثامن عشر، ومن ثم إيمانه بالتعليم الذى مهد له الطريق بتمرده على تعاليم العصور الوسطى المدرسية واخذه بالعلية فى الطبيعة والمجتمع وتأكيده لحرية الإنسان فى الاختيار وللطبيعة الاجتماعية - النفعية للأخلاق ولتحكيم العقل فى جميع مجالات الحياة .

ولقد أدى تأكيد محمد عبده للنواحى العملية إلى تحويل ليبراليته الإسلامية بالتدريج - علي أيدى تلامذته إلى ليبرالية إنسانية. فعلى حين أنه كان يرى أن الدين هو أساس الرابطة الاجتماعية مال تلامذته إلى إحلال الدافع الوطنى محل الدافع الدينى دون أن يمسوا أسس الإسلام ولهذا كانوا أكثر فعالية من كل من العلمانيين الصرف والمتدينين المحافظين، وبذلك شكلوا مجموعة تقف فى منتصف الطريق بين طرفين متناقضين هما التقليديون المحافظون والعلمانيون الصرف، ومع ميلهم بمرور الزمن الى الفئة الثانية التى قيض لها أن تتصدر الحياة العامة فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين بدا عجز المحافظين الجامدين عن فهم العالم الحديث أو السيطرة عليه مما حتم اختفاءهم عن المسرح على

العكس من رافعى لواء الأفكار الحديثة التى لم يكن من السهل مقاومتها فقدر لها أن تزعزع أسس المجتمع التقليدى وتحاول إعادة تشكيله. فلم يعد فى وسع الإطار الإسلامى التقليدى الذى شكل أسس النظام الثقافى فترة طويلة أن يجتذب قطاعات واسعة من المثقفين بعد أن حولته عصور الركود السابقة الى طقوس جامدة مشدودة الى الماضى وعاجزة عن التكيف، خاصة أن الإسلام، باعتباره نظاما عقائديا، قد اضطر إلي الوقوف موقف الدفاع إزاء الحملات المتلاحقة التى شنها عليه الغرب. وكانت نتيجة كل ذلك ظهور فراغ فى المجتمع العربى بوجه عام والمصرى بوجه خاص وهو الفراغ الذى تصدت الوطنية والقومية لسده لدى المثقفين الذين اعتبروهما مجموعة من القيم الثقافية التى تحول إليها كثير من العواطف الجياشة التى ارتبطت فى الماضى بالدين ومن ثم توجيههم لها لكى تكسب ولاء الجماهير .

وإذا كان الأفغانى قد ارتبط بحركة الجامعة الإسلامية فقد ارتبط محمد عبده بالمرحلتين اللاحقتين وهما مرحلتا البعث السياسى للإسلام وإصلاح النظرية القانونية والفلسفية فى الإسلام، وكانت آراء شبيهة بتلك التى بلورها محمد عبده قد بدت فى الأفق خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين بدت نفس الاتجاهات الاصلاحية لدى بعض المفكرين فى أكثر البلدان

العربية تقدما. وقد يكون من دواعى تبسيط الأمور أن نعزو هذه الأفكار الى تأثير كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، بل إنه يمكن القول بأن أفكار هذين الرائدين لم تكن لتلقى النجاح الذى لقيته لولا وجود نفس التيار الذى عبرا عنه وإن تكن قد لقيت قدرا غير قليل من المعارضة التى استغلتها بعض الفئات ذات المصالح السياسية الضيقة فى تأليب الجماهير على دعوتهما خاصة وأن محمد عبده اصطدم بالخديو عباس الثانى الذى كان له أنصار فى الدوائر الأزهرية وتصدى له محمد عبده حين تفتحت شهيته لأراضى الأوقاف، ومن ثم استند محمد عبده إلى اللورد كرومر للضرب علي يد الأوتوقراطية الخديوية ومحاولة كرومر الاستناد إلى تلامذة محمد عبده الذين أطلق عليهم اسم « العقلاء » وهم الذين أسسوا حزب الأمة وآمنوا بالمبادىء والنظريات الأوربية الليبرالية ومن ثم إيمانهم بالتأنى والحيطة والعمل للوطن بمداراة الاحتلال مادام أنه لم يكن من الممكن زحزحته بالقوة. وكان أحمد لطفى السيد رئيس تحرير «الجريدة» هو أبرز تلامذة محمد عبده هؤلاء وطفق يقدم لقرائه الأفكار الغربية ويتصدى للاستبداد وانعكاساته المباشرة فى الأخلاق والفكر وينادى بالدستور والحريات والحكم النيابى والاحتكام الى العقل ولشدة تأثيره فى التقدميين من أبناء الجيل الجديد أطلق عليه لقب «أستاذ الجيل» .

ومن ناحية أخرى فإن تلميذا أخر لمحمد عبده هو رشيد رضا قد فسر أراء استاذه تفسيرا سلفيا. فحين تكلم محمد عبده عن السلف الصالح كان يقصد بوجه عام مؤسسى التقاليد للفكر الإسلامى من الرسول - ﷺ - إلى الغزالى، على حين أن رشيد رضا كان أكثر جمودا من أستاذه، ففسر السنية في اتجاه الحنبلية الصارمة واستمد الكثير من تعاليمه من ابن تيمية وتأثر بالغزالي وحاول أن يحدد مجال العقل الذى أطلق محمد عبده سراحه وذلك بزيادة المصادر الملزمة إلي حد كبير لتشمل عددا من الأحاديث إلى جانب القرآن وبإعادة مبدأ الإجماع الذى ارتبط بفترة الخلفاء الراشدين .

وهكذا كان «الأستاذ الإمام» الشيخ محمد عبده يمثل مدرسة متعددة الجوانب طور تلامذته بعض مبادئها حسب تصورهم الخاص ولعبوا دورهم فى إثارة النهضة الفكرية والدينية التى شهدتها مصر بوجه خاص فى القرن العشرين .

رأى الإمام محمد عبده فى الفن

إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر، وضبطه فى دواوينه، والمبالغة فى تحريره، خصوصا شعر الجاهلية، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه. أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل، فإن

الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولايسمع، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية، يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم، وهذه المعانى المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا، يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع والخوف والخشية والجزع والفزع مختلفان فى المعنى، ولم أجمعهما ههنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد بل لأنهما مختلفان حقيقة، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع؟ وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك ؟ أما إذا نظرت إلى الرسم، وهو ذلك الشعر الساكت، فانك تجد الحقيقة بارزة لك، تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك. إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك: رأيت أسدا: تريد رجلا شجاعا، فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الأبداء فيها .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية، أو أوضاعهم الجسمانية، هل هذا حرام؟ أو جائز؟ أو مكروه أو مندوب؟ أو واجب؟ فأقول لك :إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لانزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالا الى المفتى وهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث: « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، أو مافى مامعناه مما ورد فى الصحيح، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك أن الحديث جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول : اللهو والثانى: التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف، وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر، وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا فى أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات

على الأقل لا يدخل محلا فيه صور، كما ورد، فأياك أن تظن أن ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل، فان الله رقيب عليك وناظر اليك حتى في البيت الذى فيه صور، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورا !! ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة، فانى أظن أنه يقول لك أن لسانك أيضا مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟!

وبالجملة، فإنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من وجهة العمل. على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء، أو ماسماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة، ولم يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى، لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

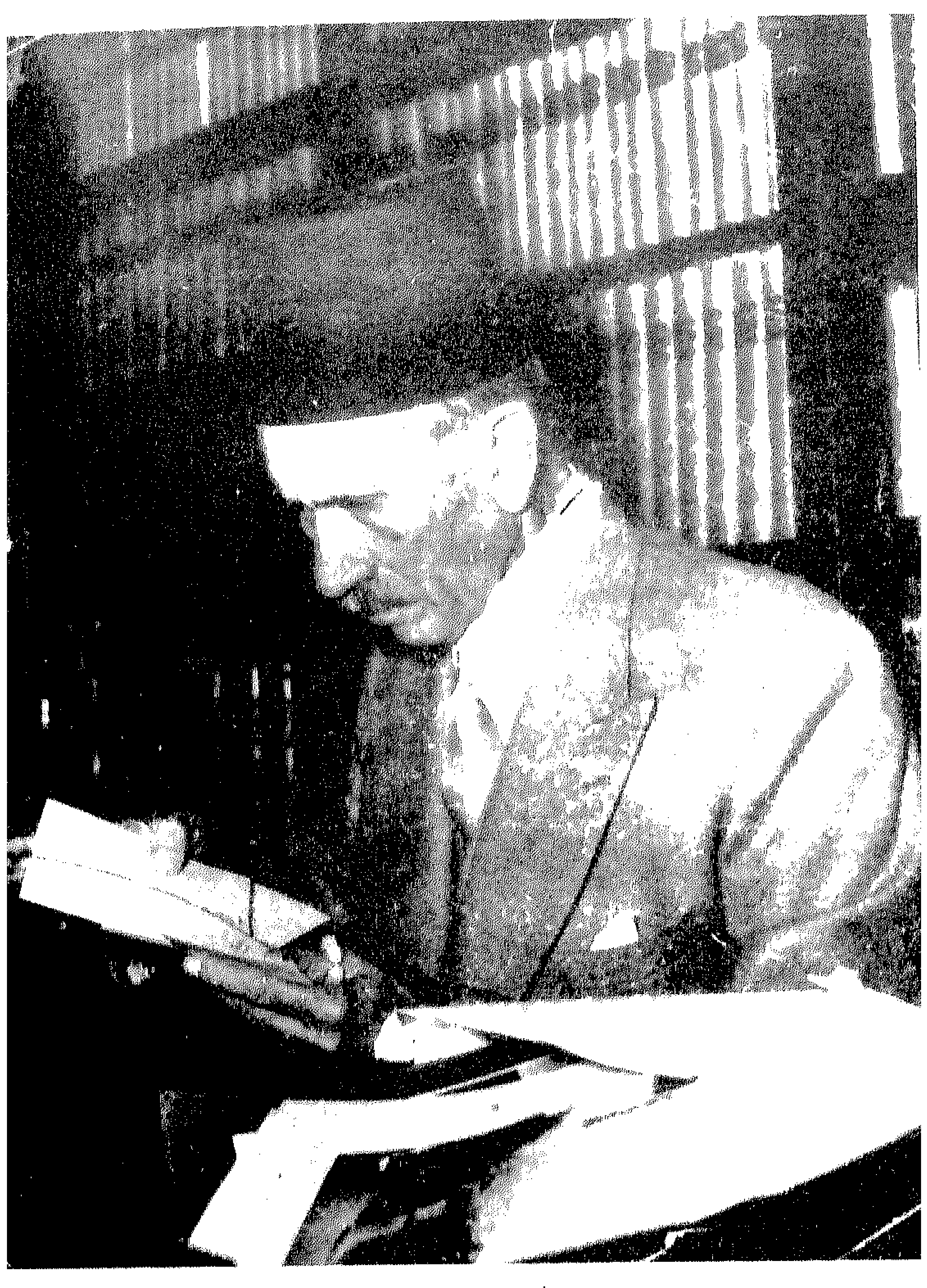
لو نظرت إلى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيرا لا يحصى عده، ولم نحفظ منه شيئا، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا، ولكن ما نقول فى الكتب وودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغى أن نحفظها ؟ أو أضعناها كما لا ينبغى أن نضيعها ؟ ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب إلى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها. أما بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية، وقد نجد بعض النسخ من الكتاب فى دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر فى دار الكتب بمدينة «كمبردج» من البلاد الإنجليزية. ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك فى ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة فى يد أوربى فى فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا ! !

نحن لا نعنى بحفظ شيء نستبقى نفعه لمن يأتى بعدنا، ولو خطر ببال أحد منا أن يترك لمن بعده شيئا جاء ذلك الذى بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة، وأخذ فى إضاعة ما عنى السابق بحفظه له، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا، وإنما الذى يتوارث هو ملكــات الضغائن والأحقاد تنتقل من الآباء إلى الأولاد حتى تفسد العبــاد، وتخرب البلاد، ويلتقى بها أربابها على شـــفير جهنم يوم المعــاد .

أحمد لطفى السيد

(١٨٧١ - ١٩٦٣)

الأب الروحى للجامعة المصرية



● أحمد لطفى السيد

المكان الشاغر أمام جامعة القاهرة ومنذ زمن طويل، من المفروض أن يجمله تمثال للأديب والمفكر الكبير أحمد لطفي السيد لما قدمه للجامعة من فضل لا ينكره أحد ، ولا ينبغى أن يؤجل الاحتفاء بلطفى السيد وننكر فضل الرجل على الجامعة المصرية ورجالها فهو أحق الناس بوضع تمثال له على هذه القاعدة الشاغرة .

خلع عليه لقب « أستاذ الجيل » نتيجة لتأثيره فى نخبة من المصريين الذين لعبوا دورهم في تطوير الفكر العصرى عن طريق إدخال بعض المفاهيم الغربية عليه خاصة وأنه قام بترجمة كتاب « السياسة » - الذى ألفه أرسطو الى اللغة العربية وكان أول مدير للجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) - التي لعبت دورا مهما ليس فقط بالنسبة الى مصر بل أيضا بالنسبة لكثير من الأقطار العربية .

وقد ولد أحمد لطفى السيد فى عام ١٨٧١ وكان والده - سيد بك أبو علي - من كبار ملاك الأراضى فى الدلتا ، وقد تلقى تعليما تقليديا فى كتاب قريته « برقين » ثم فى المدارس الأميرية ، وبعد أن أتم دراسته الثانوية شغل بعض الوظائف

الهامة فى النيابة العامة ثم انخرط فى سلك المحاماة ورأس تحرير « الجريدة » التى كانت لسان « حزب الأمة » الذى تأسس فى سبتمبر ١٩٠٧ وكان مناوئا للزعيم مصطفى كامل والحزب الوطنى وكان ظهوره راجعا الى تشجيع الدوائر الانجليزية ، وتفسير الصلة التى قامت بين حزب الأمة والاحتلال : إن كرومر كان يستغل برم بعض الأغنياء وغيرهم من المعتدلين فى نظرتهم الى الاحتلال متوسما فيهم الوقوف فى وجه الاوتوقراطية الخديوية . وطبقة كبار الملاك المصريين الذين أسسوا حزب الأمة هم الطبقة التى كانت قبل الاحتلال لا يقام لها وزن ، فلما جاء الاحتلال أوسع لها وصادقها فانحازت اليه وهادنته وناصبت الخديو العداء . والمثقفون من أبناء هذه الطبقة كانوا قد تشبعوا بالمبادئ والنظريات الليبرالية ، كما تشبعوا بتعاليم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ومن ثم إيمانهم بالتأنى والحيطة والعمل للوطن بمداراة الاحتلال مادامت تصعب زحزحته بالقوة . وعلى حين انشغل الحزب الوطنى بقضية الجلاء ومن ثم تهاونه بحقوق الشعب الدستورية حين هادن الخديو فإننا نجد أن محور نشاط حزب الأمة هو بناء الأفراد بناءً قويا واجتماعيا – فهو يؤمن بأن الاستقلال التام لا يتحقق إلا بالكفايات الأخلاقية والعلمية والزراعية والصناعية والتجارية

والقضائية واشتراك الأمة مع الحكومة فى الأعمال العامة ومساندة التعليم العام .

وعلى حين أن « اللواء » - لسان حال مصطفى كامل والحزب الوطنى - قد اشتركت مع « الجريدة » - لسان حال حزب الأمة - فى طلب الدستور والاستقلال ، فإن « اللواء » كانت تدعو الى هذا الاستقلال مشوبا بروح الجامعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ، على حين رفضت « الجريدة » الفكرة القائلة بأن بإمكان مصر أن تحصل على الاستقلال بمساعدة تركيا أو فرنسا - إذ لا سبيل إلى حرية المصريين إلا بجهودهم وحدهم - ومن هنا محاولتها إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع والنظر الى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها والرد على مزاعم الانجليز حول الدين الإسلامى والطبيعة المصرية ، والعمل على النهوض بالحركة العقلية والأدبية وإفساح المجال للشباب لكى يظهروا مواهبهم ، وحين طالبت « الجريدة » بالدستور ناقشت العيوب التى ورثها المصريون عن خضوعهم الطويل للاحتلال والطغيان وشنت حملة شديدة على الاستبداد وانعكاساته المباشرة فى الأخلاق والفكر ونددت بالقصر والانجليز معا ، مستوحية مصلحة المصريين وحدهم - وهكذا فحين طالبت بالدستور كانت تعده ضمانا ضد ظهور الاستبداد .

وقد اتهمت « الجريدة » بممالأة الانجليز بالرغم من مناداتها بسلطة الأمة ومطالبتها بالدستور والحريات الفردية ، ومن ثم عدم تأييدها لسلطة الخديو ولسلطة الاختلال فى الوقت الذى لم تؤيد فيه تبعية مصر للدولة العثمانية وأبدت مناوأتها لحركة الجـامعة الإسـلامية ، ومن الطبيعى أن يمقت الخـديو عبـاس « الجريدة » ويبذل كل ما فى وسعه للقضاء عليها وأن يبدى هو وأنصار مصطفى كامل - الذى كان ينادى بضرورة توثيق علاقات مصر بدولة الخلافة - كراهيتهم للطفى السيد وأن يتهموه بما يسئ الى سمعته الوطنية ، بل لقد تعرض للمحاكمة مما جعله يتراجع عن مقال طالب فيه باستقلال مصر التام وهو ما عُد خروجا على وضع مصر « الشرعى » ودعوة للانفصال عن الدولة العثمانية .

وفى عام ١٩١١ غزت إيطاليا طرابلس الغرب وبرقة اللتين كانتا تابعتين للدولة العثمانية - وحينئذ وقفت الحكومة المصرية من هذا الحدث موقفا سلبيا ، فتركت معالجة هذه المشكلة فى يد الإنجليز ، وقد أبدى المعتمد البريطانى لورد كتشنر رأيه الخاص بأن إيطاليا قد اعتدت على الدولة العثمانية مما أدى الى قيام حركة لجمع التبرعات للدولة العثمانية بقصد إعانتها على الحصول على نفقات الحرب . وقد لقيت هذه الدعوة آذانا

صاغية من الجميع وشارك الكثيرون فى التبرع . وطالع لطفى السـيد قراءه بثلاث مقالات نشرتها له الجـريدة تحت عنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ودعا فى هذه المقالات المصريين الى التزام الحياد المطلق فيما يتعلق بالحرب الإيطالية – العثمانية وعدم بعثرة أموالهم فيما لا تجنى منه بلادهم أية فائدة ، وذكرهم بأنه من الأفضل لهم أن ينفقوا هذه الأموال فى مصلحة مصر بإنشاء المرافق التى تنفع المصريين ، وقد أثارت هذه المقالات حملة عنيفة ضد لطفى السيد الذى تعرض للطعن الجارح مما اضطره الى السكوت بعد أن فشل فى إقناع أصدقائه من السياسيين أعضاء حزب الأمة بمساندة موقفه – بل لقد جارى الحزب الرأى العام المصرى فيما يتعلق بالحرب الإيطالية – العثمانية .

بين الجامعة والوزارة

وقد انضم لطفى السيد فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى الى سعد زغلول واختير عضوا فى الوفد الذى انتوى التوجه الى باريس للدعاية للقضية المصرية - وقيل حينئذ إن له تأثيرا قويا على سعد زغلول وأنه شجعه على اصطناع التطرف.. وفى سبتمبر ١٩٢٠ كان أحد المندوبين الأربعة الذين أوفدهم الوفد الى مصر لشرح المشروع الذى وضعته لجنة ملنر بالاتفاق مع سعد فى لندن - ولكنه ما لبث أن انفصل عن سعد وانضم الى حزب الأحرار الدستوريين ولو أن زعيم الوفد قد عده من الوطنيين وذلك فى الخطبة التى ألقاها بمناسبة « عيد الجهاد »(١٣ نوفمبر ١٩٢٦) .

وفى عام ١٩٢٥ عين مديرا للجامعة المصرية ، ثم تولى وزارة المعارف فى وزارة محمد محمود (يونية ١٩٢٨ - أكتوبر ١٩٢٩) وكان على علاقات وطيدة مع دار المندوب السامى البريطانى - وقد استقال من منصب مدير الجامعة المصرية على أثر اشتراكه فى وزارة محمد محمود ، ويقى المنصب

شاغرا ليعود الى شغله فى يوليه ١٩٣٠ ، حين تولى إسماعيل صدقى رئاسة الوزارة ، ولكنه لم يلبث أن استقال من جديد فى ديسـمبر ١٩٣٢ ، وذلك احتجـاجا على فصـل حكومة صـدقى لـ « طه حسين » من وظيفته الجـامعية . وفى ديسمبر ١٩٣٤ رشحه توفيق نسيم مديرا للجـامعة للمرة الثـالثة - ورغم المعارضة الشديدة التى أبداها الملك فؤاد فيمـا يتعلق بتعيينه فقد عاد الى منصبه الجامعى فى آخر ابريل ١٩٣٦ .

ورغم مختلف المناصب التي تقلدها بعد ذلك - ومنها شغله وزارة الخارجية - فإن شهرته لم ترتبط بهذه المناصب بل بالأثر العميق الذى تركه فى الفكر المصرى الحديث - فهو باحث له إسهاماته الثقافية (ومن ذلك ترجمته لأرسطو) التى نقلها عن اللغة الفرنسية التى كان يتقنها - فقد اطلع لطفى السيد على الكثير من أمهات الكتب واستوعب ما احتوت عليه وأثبت فى السياسة أنه أبعد ما يكون عن الأنانية ولو أن آراءه التقدمية جعلت المسلمين المتشددين يتهمونه بالإلحاد رغم كونه مفكرا حرا لا يكتب إلا فيما يؤمن به .

ولقد شرّح لطفى السيد المجتمع المصرى وأبرز عيوبه وأوضح طريق النهضة السياسية مستلهما جان جاك روسو الذى ذهب الى أن الإنسان حر وخيِّر بطبيعته وأن المجتمع السيئ هو

الذى يفسده ويستعبده بفعل الطغيان الذى عزا هو اليه كثيرا من أدواء مصر بحيث أن إشراك الشعب فى الحكم هو - فى رأيه - الطريق الأمثل للقضاء على آثار الطغيان ، ولكن قبل أن تسـير الأمة فى طريق التقـدم يجب عليها أن تتخلص من شعورها بالضآلة فى مواجهة الحاكم وتتعلم الثقة بالنفس وألا تجعل من السلطة مثـلا أعلى ، فتتعود على ممارسة مستلزمات الاستقلال بحيث تتلقن السلوك الدستورى قبل أن تقيم حكومة دستورية - إذ لا يبرز الحكم المطلق إلا اذا كان طابع الأمة يشجع على ظهوره .

وبالإضـافة الى تزويد لطفى السـيد للقومية المصرية بأيديولوجية متميزة فإنه غرس فى السياسة روحا عملية لم تلبث أن أصبحت من مميزات مجموعة من السـاسة العمليين ، كما أنه جعل الفكر منسلخا عن التقاليد التى أحل العقل محلها ، وبفضل الدراسة العميقة والفهم الواسع الأفق والإدراك الشامل الذى تميز به لطفى السيد استطاعت « الجريدة » أن توسع أفق الثقافة المصرية بمزجها بالثقافة الغربية ونقلها آراء الكتاب والمؤلفين وفقهاء الدسـتور والعلوم السياسية من الغرب الى مصر . كما أثارت تصورا جديدا للحكم ونظمه وعلاقة الحكومة بالأفراد على أسس علمية تستند الى أفكار علمانية لا الى

أفكار دينية ، وللطفى السيد الفضل الأول فى تحويل الحركة الوطنية المصرية نحو الوجهة الديمقراطية ذات الطابع العلمي المدروس ، فإلى جانب تعويده قراءه على تعابير الأمة والوطن المصريين واطلاعه على الشخصية المصرية عبر التاريخ ، فإنه عنى بتمصير القيم ، فجعل العادات والأخلاق والمناقب مصرية بعد أن كانت عربية أو إسلامية .

ولقد تكلمت « الجريدة » عن تحرير المرأة وتعليمها وعن حق الحكم النيابى المحلى للمديريات والمدن وعن حق التعليم بالنسبة إلى الجميع وحذرت من روح التواكل والعجز والاعتماد على الحكومة في كل شئ وحددت وظائفها على النحو الذى حدده الكتاب الليبراليون فى الغرب وعرضت لفكرة الجامعة الإسلامية وبينت أنها غير ملائمة للعصر ولا متفقة مع النمو الذاتى المستقل للشعب المصرى ونددت بالتهييج السياسى وما يتصف به أصحابه من خيال لا طائل تحته كان الأولى بأصحابه أن يوجهوه الى نواحى الحياة العملية النافعة فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى بإقناع الإنجليز بالإصلاح بدلا من محاربتهم . ومعظم ذلك راجع الى عدم تأييدها تبعية مصر للدولة العثمانية الأمر الذى كان غريبا على الجمهور وإن لم يكن غريبا على الصفوة المتعلمة تعليما غربيا ممن كانوا يريدون

لمصر استقلالا وحرية وحياة نيابية ، وإن لم تكن « الجريدة » تحمل على الدين بل كانت تدعو الى تنقيته من الشوائب وفقا لما دعا اليه الأفغاني ومحمد عبده .

وملخص الأمر أن لطفي السيد من الشخصيات المؤثرة فى تاريخ مصر الحديث : فهو كصحفى أثر فى شخصيات من أمثال محمد حسين هيكل الذى أثرى المكتبة العربية بمؤلفاته التاريخية والصحفية (الجريدة - السياسة - السياسة الأسبوعية) وهو كجامعى أرسى التقاليد العلمية والجامعية وكانت له مواقف مشهودة فى الدفاع عن طه حسين وعن حرية الفكر وليس عفوا أن يطلق اسم « أستاذ الجيل » على لطفى السيد وحده دون غيره من معاصريه .

عبـاس العقـاد

مؤرخا

١٨٨٩ - ١٩٦٤



● الكاتب الإسلامى عباس محمود العقاد

كان من لوازم العقاد حين يتصدى لترجمه العظماء أن يكد ذهنه بحثا عن « مفتاح الشخصية » وعن طبيعة الشعب الذى أنجب المترجم له : بحيث إنه خرج علينا ببحث عن « الشخصية المصرية » حين ترجم لسعد زغلول ، وعن طبيعة الهند حين ترجم لغاندى – إلى غير ذلك . والتركيز على « مفتاح » ما لشخصية ما يتضمن شيئا من التبسيط : إذ إن الشخصية الإنسانية – وبخاصة شخصيات العباقرة والعظماء الذين هم من التعقيد والتمرد على الأنماط العادية للحياة – من التنوع والثراء بحيث لا يصدق عليها مدخل واحد سواء أكان هذا المدخل نفسيا أم اجتماعيا أم فرديا ، أما الكلام عن طبيعة شعب ما ، تمهيدا لتجسيد هذه الطبيعة فى شخص ما ، فإنه من قبيل التعميم الذى ينحدر بالكاتب إلى متاهات قد تنحرف به عن المنهج العلمى السليم . وهذه المقدمة لا تعنى الغض من قيمة السير والعبقريات التى كتبها العقاد ، إذا ما وضعنا فى عين الاعتبار أنه قد أشار فى أكثر من موضع إلى أنه لا يقصد بتناول هذه السير والعبقريات أن يكتب « تاريخا » منهجيا بمعنى الكلمة .

وقد بدأ ميل العقاد إلى التراجم فى فترة مبكرة من حياته فلقد كان والده من أنصار الثورة العرابية ، فتعلم الأبجدية وكتابه الحروف الأولى وهو يرى بين يديه أعداد « الأستاذ » وغيرها من مجلات عبدالله نديم ، ومعها أعداد قليلة من « أبو نضارة » و « العروة الوثقى » ونشرات الثورة التى كانت توزع فى الخفاء . وكان يسمع باستمرار أخبارا فى سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ، ولا سيما عبدالله نديم . ومن هنا أصبحت تراجم العظماء بالنسبة إليه معرضا لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، وكان موضوع التراجم والسير التاريخية أو الأدبية أهم موضوعات التأليف لديه .

يضاف إلى هذا أن أوروبا - فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين - كانت تموج بكثير من النظريات المستحدثة التى انتقلت إلينا مع نمو حركة الترجمة هناك - مثلا - نظرية التطور التى ذهبت إلى أن الإنسان الحالى ليس سوى مرحلة من مراحل تطور البشرية صوب « إنسان أعلى » حاول نيتشة أن يحدد أبعاده موحيا بفلسفة القوة ، فى الوقت الذى أثرت فيه نظرية التطور في مجالات متعددة من العلوم والحياة ، بحيث ظهر من يمجد الحرب وينادى بغلبة شعب على غيره لأسباب بيولوچية وذهنية . وراح توماس كارليل يمجد الأبطال

والبطولة ، ويذهب إلى أن التاريخ إنما هو سجل لسير العظماء : منذ أن كان العظيم إلهاً فنبيا ، إلى أن أصبح قائدا عسكريا وكاتبا ، وترجم كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » إلى اللغة العربية ، كما ترجم مذهب دارون عن « النشوء والارتقاء » - وكان لذلك صداه في المثقفين العرب .

ويذكر العقاد في تقديمه « لعبقرية محمد » أنه - قبل نشر هذه السيرة بثلاثين عاما - جرت مناقشة ، اشترك هو فيها ، حول كتاب كارليل ، وأن المتناقشين أكبروا كارليل الذى أنصف نبى الإسلام ، واستقر رأيهم على أن الأولى بمسلم أن يكتب ترجمة لمحمد ، فوقع الاختيار على عباس العقاد ليقوم بهذه المهمة التى لم تسمح له ظروفه بإنجازها إلا بعد جيل كامل .

وكارليل ومذهب كارليل الخاص بالأبطال والبطولة يستحقان منا وقفة لها ما وراءها . فمع تقديرنا للبطولة والأبطال وللعظمة والعظماء إلا أننا نرى أن هذه البطولات لا تنشأ فى فراغ بل هى جزء لا يتجزأ من تطور المجتمعات الإنسانية ، تكمن قوتها فى تعبيرها عن حاجات مجتمعاتها قبل كل شئ ، وفى كونها طلائع لحركة التاريخ - دون أن تكون التاريخ ذاته .

وتفسير التاريخ باعتباره مجرد سير للعظماء إنما هو من مخلفات العصور الخرافية حين كان الإنسان يتحول إلى نمط معين عن طريق التكرار ، ومن ثم الذاكرة الجماعية ومحاولة البعض تقليد بعض سابقيهم . فالعامة لا يفهمون التاريخ ولا يعترفون به ، بل يحولونه إلى أساطير تتحول فيها الشخصيات الحقيقية إلى شخصيات خرافية : بطولية وملحمية . ولقد حاول الرجل البدائي أن يغفل التاريخ جهد الطاقة لأنه كان في نظره مضادا لفكرة التطور الخلاق المبتكر ، على حين أن الإنسان الحديث يتأثر بالتاريخ وبحركته العامة ، ناظرا إلى البطولة والأبطال نظرة ديمقراطية اجتماعية فى نطاق الطبيعة الإنسانية ذاتها وفى نطاق المفهوم المنطقى للتطور البشرى صوب الأمام – ولهذا لا نوافق على ما يذهب إليه العقاد من أن موازين الشعوب كثيرا ما تكون « أصدق من موازين المؤرخين فى تقدير مكان العظيم بين أبناء قومه ، ولا سيما حين تطبع تلك البداهة فى تعبيراتها الفطرية التى تجمع الكثير من المعانى فى القليل من الكلمات » . ولا داعى للخوض فى تفاصيل المعارك المعاصرة التى تبلورت حول « عبادة الفرد » ودور الفرد فى التاريخ .

تأثر العقاد إذن بمذهب كارليل تأثره بالنزعة الروحية فى تفسير التاريخ بالشكل الذى يبدو واضحا فى « عبقرياته »

و «تراجمه» التى هى الجانب الواضح ، وقد يكون الجانب الوحيد ، من التاريخ الذى ركز عليه العقاد .

وقد يكون مرجع هذا طبيعة العصر الذى عاشه ، وطبيعة شموخه وانفراديته واعتداده بذاته ، فالجماهير المصرية فى شباب العقاد كانت تسير منقادة وراء أبطالها وزعمائها الذين انحرف بعضهم بانحراف الجهد الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، فى الوقت الذى رفعت فيه شعارات الحرية والديمقراطية التى انحدرت فى الواقع إلى مستوى الديماجوجية والدجل السياسى .

لهذا لاندهش إذا ما وجدنا أن عددا من مفكرينا الجادين ، رغم إيمانهم النظرى بالحرية والديمقراطية فى تلك الفترة ، كانوا لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية كما كانت عليه . ولهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة . وقد عبر العقاد ذاته عن هذا الاتجاه بقوله : « وإيتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل ... ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى لسببين متقاربين لا لسبب واحد :

أحدهما : أن العالم اليوم أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والنكور .

والآخر : أن الناس قد اجتزأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها ... فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التميز وتظلمهم المساواة ... هذه الآفة تهبط بالخلق الإنسانى إلى الحضيض . وتهبط بالرجاء فى إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى مادون الحضيض - فماذا يساوى إنسان لا يساوى الإنسان العظيم شيئا لديه ؟ ... وأية معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ... وإذا ضاع العظيم بين الناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟ » .

وهكذا فحين يترجم العقاد لطائفة من أعلام العروبة والإسلام ، نجده يسعى إلى إنصافهم وتوفير مثال وقدوة أمام الشباب ، وذلك لكى يترسموا خطواتهم - لهذا فهو لا يعنى فى الغالب بسير من يترجم لهم إلا بمقدار تحليل شخصياتهم ، واضعا نصب عينيه إبراز نواحى الكمال فيها على طريقة الكماليين من علماء الأخلاق ، ومن هنا فعبقريات العقاد وتراجمه ليست سيرا بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور أخلاقية قلما يحتفل فيها بالأحداث والوقائع . وفى هذا يقول فى تقديمه « لعبقرية محمد » :

« إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث به الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى . فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس - عظيم لأنه على خلق عظيم » .

وفى هذا المعنى يقول فى تقديمه لعبقرية عمر » :

« كتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى نقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلائل على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة » .

وفى تقـديمه لكتـابه عن « المهاتـما غانـدى » يقـول إنه لا يقصد إلى كتابة سجل حوادث ولا تقـويم أيام ، ولكنـه يقدم « مرآة صغيرة يبدو فيها مناط العظمة من « مهاتما الهند » وهو الروح العظيم » .

والآفاق الإنسانية - لدى العقاد - واسعة وأغوارها عميقة ، ومداها من الزمن بعيد ، ومن واجب كل إنسان أن يذرع هذه الآفاق وأن يسبر هذه الأغوار وأن يبسط الرجاء على هذا المدى البعيد - لا لأنه يعلم سيرة هذا الإنسان وحسب ، ولا لأنه يحيط بتاريخ هذه الأمة وكفى ، ولكن لأنه يحقق معناه ويبلغ به كماله ، كلما عرف غاية من الغايات التى تنتهى إليها طاقة الإنسان .

وليس أعون على ذلك – في رأيه – من سير العظماء ، لأنهم يتماثلون ويتناقضون ويعرضون لنا ألوانا من القدرة وأنماطا من الفطرة ، وكلهم بعد ذلك على خلق عظيم .

وهو يرى أن القاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة ، تستوى في ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز وفى كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ : « فالحافز الأكبر على تأليف كتابى عن ابن الرومى أنه مجهول القدر منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء » .

وقد يختار للترجمة عظماء الفرصة – كمعاوية بن أبى سفيان – الذين بلغوا بالحيلة مالم يبلغوه بالقدرة الخالصة ، وتوسلوا إلى منافعهم فى أزمتهم بتلك الوسائل المكيافيلية : « فان الغرض الأول من الترجمة التاريخية أن يعرف الناس الفارق بين حق الفرصة فى زمن من الأزمان ، وحق القدرة فى كل زمن . ومع اختلاف الفرص وعوارض الظروف ، فلا ينبغى أن يأخذ عظيم الفرصة من التاريخ فوق ما أخذه من منافع عصره ، وبخاصة حيث يكون حكم التاريخ الكاذب جورا على خصومه وتغطية لنقائص عصره ، ولست أجد فى نفسى باعثا

قويا للكتابة عن العظماء الذين أتيحت لهم الفرصة والعظمة معا فاستحقوا المجد الذى نالوه ، ولكن بشئ من المبالغة العاطفية أو مبالغة الظروف ومناسبات الحوادث . ولهذا أفضل الكتابة عن عبقرية خالد على الكتابة عن عبقرية صلاح الدين .. لان إنصاف صلاح الدين لا يحتاج إلى مزيد » .

واضح أذن أن هدف العقاد من كتابة سيره إنما هو هدف أخلاقى صرف ، وهو نهج عرضة للنقاش وللنقد من جانب من يهدفون إلى إبراز الحقيقة التاريخية مجردة عن كل اعتبار إلا مطلق المعرفة الإنسانية ، وما لها من أغراض ضمنية تهدف إلى مزيد من التطور . وهو يذهب إلى أنه يهدف من كتابة تراجمه إلى « إحياء الثقة بالروح الإلهى الخالد من لوثة المادة ومهانة الإنكار العقيم ، أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب عليه عامل السلب والنفى على عامل الثبوت والايجاب » .

على أن للتربية الأخلاقية وسائل أخرى : كالقصص والسلوك الاجتماعى السليم ، والقدوة الحسنة ، ومثاليات الأديان، وطقوسها ، والثواب والعقاب وغير ذلك من العوامل التى تصقل الشخصية وتنميها . أما التركيز على جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح ذو حدين ، إذ إنه يقدم للقارئ ، كبيرا وصغيرا ، أنماطا غير إنسانية لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا .

ومن أمثلة ذلك أن العقاد حين كتب عن سعد زغلول حاول أن يدافع دفاعا مكشوفا عن دوره فى اقتراح مد امتياز قناة السويس الذى عرض على الجمعية العمومية فى عام ١٩١٠ ، ومرة أخرى حين تصدى للدور الذى قام به فيما يتعلق بقانون المطبوعات أيام وزارة بطرس غالى التى اشترك فيها .

وربما كان للعقاد عذره فى اتباع هذا المنهج إذا ما وضعنا فى عين الاعتبار طبيعة ظروفه الخاصة وطبيعة اللجج الذى ساد السياسة المصرية فى أيامه . بل إننا لنتذكر غضبته الكبرى قبيل وفاته حين تطرف البعض فى القدح فى محمد عبده ، وسعد زغلول . وحينئذ التزم موقف الدفاع عن قداسة الزعامة فى شخصى محمد عبده وسعد زغلول .

ومما قد يفسر عنف ثورته فى هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى أنه كان انفعاليا بوجه عام ، وبخاصة فيما يختاره وما يكتبه - ويذكر هو أنه ربما كان يكتب الفصل وعيناه مغرورقتان، كما حدث فى كتاب « أبى الشهداء » ، وأنه ربما كتب المقال وفى نفسه مغالبة عنيفة للبكاء ، كما حدث فى مقالات الرثاء للمازنى ، والنقراشى ، وغاندى ، وسعد زغلول .

والاسلوب الانفعالى فى كتابة التاريخ والسير قد يتضمن نأيا عن المنهج العلمى السليم ، إذ المؤرخ ليس من اختصاصه

أن يوزع موازين العدالة بالشكل الذى يريد ، ولا أن يغلب انفعالاته فى الحكم على الاحداث والشخصيات إلا إذا كان انفعالا لموقف عام لا يستطيع المؤرخ بصدده إلا أن يكون بشرا ، بشرط ألا يكون الانفعال هو الأسلوب الوحيد للتقييم .

على أن مرجع انفعالية العقاد هو أنه لم يتلق تعليما نظاميا بمعنى الكلمة ، مما جعله يتقد حماسة لكل ما يكتشف جدته ، ثم يعود فيحول ذلك إلى رياضات هدفها تثقيف الذات ، ضاربا بنفسه المثل لقرائه .

وإذا كنا قد قصرنا ملحوظاتنا هذه على سير العقاد وعبقرياته فانها تصدق بوجه عام على الدراسات الأخرى التى من الممكن أن تتصل بالتاريخ من قريب أو من بعيد فيما كتبه العقاد : « أثر العرب فى أوروبا » و « ديمقراطية الإسلام » و « الله » .... الخ الخ وهى مؤلفات يغلب عليها طابع الدفاع أو التبرير أو الإنصاف ، شأنها فى ذلك شأن السير والعبقريات.

وما دام العقاد قد شرح منهجه فى كتابة هذه الصور التاريخية فان المؤرخ لا يسعه إلا أن يصدر حكمين بهذا : حكم على كتابات العقاد فى حد ذاتها ، وحكم يتصل بما كشفه العقاد عن هدفه من كتابتها . وهو إذ يعترض على ابتسار التاريخ خدمة لأغراض محددة على حساب الحقيقة الموضوعية

الكاملة ، يقدر مثالية العقاد وقصده الأخلاقى والتربوى ويشيد بكتاباته التاريخية التى أثرت المكتبة العربية وأضاءت جوانب متعددة من حياة رجال مرموقين كنبى الإسلام . وعمر ، وأبى بكر ، وعلى ، وخالد بن الوليد ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغاندى ، وصن يات صن ، وشكسبير ، وبرناردشو ، وبنجامين فرنكلن ، وابن الرومى ، ومعاوية – وغير ذلك .

وهو فى دراساته هذه يفرق بين من يسميهم بالعباقرة وبين من يسميهم بالأفذاذ أصحاب الامتياز ويقول فى تفصيل هذه التفرقة ما يأتى :

« ربما وصف الرجل بالقدرة لانه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنها يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه . ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم . فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولا من وراء العمل نية . ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود عليها

منافعها وخيراتها ، فكل عظيم قدير ، ولكن ليس كل قدير بالعظيم . والعظمة قدرة وزيادة ، أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة ، فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة » .

وأخيرا فإذا كان العقاد قد غمط حق المؤرخين والنقاد على إطلاقهم ، قائلا :

« فمثلا أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتبا ، وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف فى كتب الآخرين » ، مشككا فى مدى ذاتية الكتاب والمؤرخين ، فإننى اشترك مع من يذهبون إلى الحكم على العقاد بأنه من الشخصيات التاريخية التى ستظل عالقة بالأذهان حين يؤرخ المؤرخ والكاتب لتاريخ الفكر العربى والحياة السياسية العربية فى جيل العقاد . قد يختلفون حول تقييمه الكلى ما بين مادح مفرط وقادح مفرط ، ولكهنم لن ينكروا بصماته الواضحة ، سلبا وإيجابا ، على صفحات تطورنا الفكرى الحديث والمعاصر .

الدكتور

محمد حسين هيكل

من رواية «زينب» ..إلى مذاكرت فى السياسة المصرية

١٨٨٨ ـ ١٩٥٦



● الدكتور محمد حسين هيكل

ربما لم أتأثر بكاتب مصرى مثل تأثرى بعلمين بارزين من أعلام حياتنا الفكرية هما الدكتور محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم . فلدى التحاقى بالجامعة طالعت كتاب هيكل «حياة محمد» الذى هزنى هزا ومضى بى فى طريق الشك الديكارتى نتيجة لطريقته فى العرض التى لم تتمسك بالروايات الموروثة بل عمدت إلى التحليل والاحتكام إلى العقل . وكان ذلك بداية إعجابى به وسعيى إلى الاطلاع على كتبه الأخرى : الصديق أبو بكر - الفاروق عمر - شخصيات مصرية وغربية - جان جاك روسو - ومذكراته فى السياسة المصرية .. الى غير ذلك . فقد كان أديبا كبيرا الى جانب كونه مؤرخا ومن دلائل ذلك انه الف قصة «زينب» التى سجلت بداية القصة العربية الحديثة . فقد تفتح ذهنه فى بداية تكوينه الفكرى نتيجة لميله الشديد لدراسة الأدب العربى قديمه وحديثه بقدر ما يسمح له ادراكه ، وحين اتصل بأحمد لطفى السيد فى أوائل القرن العشرين عدل عن الاكتفاء بقراءة الأدب العربى واتجه إلى قراءة كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يحدثه فيها، هذا بالإضافة إلى أنه - وهو قطب من أقطاب حزب الأمة - قد نحا به

نفس منحاه السياسى الذى لم يكن يعتمد تملق الجماهير واللعب على عواطفها .

ومما أثر فى الدكتور هيكل وتفكيره السياسى أنه انحدر من أسرة تنتمى إلى أعيان ريف الدلتا مما مكنه من الانخراط فى دائرة النخبة الاجتماعية التى تصدرت الحياة العامة واهتم المستنيرون من رجالها بتعليم أبنائهم تعليماً عصرياً فى الداخل والخارج وخلال دراسته الثانوية تأثر بمنهج الشيخ محمد عبده الداعى إلى فتح باب الاجتهاد والتوفيق بين العلم والدين والاحتكام إلى العقل وإطراح المعتقدات البالية التى حملها مسئولية تأخر المسلمين . ولما كان محمد عبده يهدف إلى الضرب على يد الأوتوقراطية الخديوية فقد هادن الإحتلال البريطانى وركز على التعليم والإصلاح الداخلى باعتبارهما الأداة المثلى لتحقيق الإستقلال - وفى عام ١٩٠٥ هاجم فى جريدة «المنار» الاجراءات العنيفة التى اتبعها محمد على فى سبيل توطيد حكمه مما اثار الرهبة والخوف فى قلوب المصريين وجعلهم اميل الى الاستكانة . ورغم مالقيته دعوة محمد عبده من مقاومة وبخاصة من جانب الخديو عباس الثانى فقد ازداد اعجاب هيكل به مما جعله يقرأ كتابه «الإسلام ولنصرانية» وكتاب استاذه الافغانى فى «الرد على الدهريين » ، كما قرأ المقالات التى كتبها محمد عبده فى «العروة

الوثقى» وتأثر هيكل بحادثتى طابة ودنشواى . فقد نشب نزاع بين بريطانيا والدولة العثمانية فى عام ١٩٠٦ حول موقع طابة : هل هو تابع لمصر أم للدولة العثمانية ، ولدهشته وجد أن مصطفى كامل يدافع عن تبعية هذا الموقع للدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية على مصر مما جعله لا ينخرط فى سلك المعجبين به برغم انجذاب زملائه فى المدرسة الثانوية اليه مما أدى إلى تفضيله للعزلة - ويعترف هو فى مذكراته بأنه فى أكثر اطوار حياته وقف فى غير الجانب الذى كان عليه الجمهور . أما حادثة دنشواى التى ظهر فيها الاحتلال البريطانى فى صورته الحقيقية فقد هزت أعماق هيكل كما هزت أعماق سائر المصريين الذين أدركوا حقيقة بشاعة الاحتلال الأجنبى .

إعجاب بقاسم أمين

ورحب هيكل بصدور كتاب « تحرير المرأة» الذي ألفه قاسم أمين وطالب فيه بتعليم المرأة ورفع الحجاب عنها مما أثار عليه الهيئات الدينية وأحدث اضطراباً فى دوائر المثقفين . وقد اقتنع هيكل الشاب بأن قاسم أمين على حق وعجب لموقف الذين هاجموه وبدأ يشعر بأن متابعة الجماهير هى الطريق السهل وإن أدت أغلب الأحيان إلى الخطأ ، وازدادت عزلته عن زملائه فى الدراسة كما ازداد إيثارة للصمت بحيث لا يعارضهم ولا يجاريهم أو يتابع

زعماءهم . وبعد أن أتم دراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق . وحين وجد أن كثيراً من زملائه يتشيعون لمصطفى كامل وحزبه الوطنى لم يشأ أن يجاريهم قبل أن يتبين الحقيقة من أمره ، فعكف على مطالعة جريدتى «المؤيد» و«اللواء» لعلهما تعينانه على تحديد موقفه ، وفى النهاية قرر أخذ جانب أحمد لطفى السيد وحزب الأمة الذى اشترك فى تأسيسه خاصة أن هيكل كان يمت اليه بصلة القرابة . وقد عبر لطفى السيد عن اتجاهات مثقفى حزب الأمة فى «الجريدة» التى ناصرت تحرير المرأة ورفع الحجاب عنها ودعت إلى حق الحكم المحلى للمديريات والمدن وعن حق التعليم للجميع وحذرت من الاعتماد على الحكومة التى صورت وظائفها وفقاً لما نادى به الكتاب الأوربيون الذين يتمسكون بالحريات جميعاً . وقد كتب هيكل فى الجريدة لدى صدورها فى عام ١٩٠٧ ونفى عنها ممالأتها للأنجليز وذهب إلى أنها كانت تطالب بالدستور .

وفي عام ١٩٠٩ توجه إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه وهناك لمس حرية العقيدة والرأى واحس بأن التعصب ذميم وأن أول واجب على الإنسان هو أن يديم البحث عن الحقيقة . وقد اجتذبته دراساته وحياته الجديدة مما جعله لا يكتب كثيراً فى «الجريدة» وبالتالى اقتصرت كتابته إليها على بعض ملاحظات مما كان يراه فى «مدينة النور» وفى عام ١٩١٢ حصل على درجة الدكتوراه

برسالة عن «دين مصر العام» وهو الموضوع الذى جعله يقرأ كل ما كتب عن مصر الحديثة منذ عهد محمد على سواء باللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية . وقد تلقن أثناء دراسته مناهج البحث العلمى الحديثة فسعى إلى تقصى الحقيقة ما استطاع - وكان لكل ذلك أثر كبير فى اتجاه تفكيره فى سياسة مصر ، وحين عاد إلى مصر اشتغل بالمحاماة وكان يكتب «للجريدة» التى عطلها كتابها وحزب الامة فى عام ١٩١٥ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى . ثم اتفق هيكل مع بعض أصدقائه على إصدار جريدة «السفور» الأدبية والاجتماعية التى لم يكن لها دخل بالسياسة وقد كتب فيها كثيراً كما كتب فى «المقتطف» منذ أول عام ١٩١٧ وشرع فى تأليف كتابه عن جان جاك روسو : حياته وكتبه . وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ انضم إلى الحزب الديمقراطى الذى قامت مبادئه على الحرية والحق والعدل ومبدأ تقرير مصير الأمم واستقلال مصر . وكان بعض اعضاء هذا الحزب قد تأثروا بالمبادئ الاشتراكية خاصة وإن أفكار الدولية الثانية لم تكن تختلف كثيراً عن أفكار الليبرالية . ولكن هيكل رأى أن قضية الاشتراكية لن تطرح قبل سنوات طويلة وأعلن صراحة معارضته لتأسيس الحزب الاشتراكى فى الوقت الذى ندد فيه بالشيوعية التى ظل يمقتها حتى آخر حياته .

وبعد اصطدام سعد زغلول بعدلى يكن أبدى هيكل ميله إلى عدلى وانضم إلى حزب الاحرار الدستوريين وظل مخلصاً له إلى أن جرى حله فى أعقاب ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ ، وبعد إنشاء جريدة «السياسة» لتكون الناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين تم اختياره رئيساً لتحريرها . ورغم أن «السياسة» انتحت فى البداية منحى الاعتدال فقد اتجهت بعد ذلك إلى رد التهم التى اتهمها بها الوفديون ودعت إلى الوحدة الوطنية وضم الصفوف ولو أنها قاومت طغيان الفرد الذى تجسد لدى الأحرار الدستورين فى الزعيم سعد زغلول الذى هاجمته «السياسة» بسبب تجاوزات الوزارة التى ألفها فى عام ١٩٢٤ واتبعت سياسة حزبية صارخة واضطهدت خصومها . وكان هيكل يرى أن النضال الحزبى فى مصر منذ بدأ الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن لا يقوم على المبادئ بل على فهم خاطئ لمعنى الحكم - فمن يتولى الحكم يعْمد إلى محاباة أنصاره ومحاربة معارضيه . أما هو فانه يؤكد فى مذكراته أنه لم ينصر رأياً على رأى ولا فريقاً على فريق .

مقاومة وزارة صدقى !

وكما تصدى هيكل لما اعتبره استبداداً من جانب سعد زغلول فقد اشترك مع الوفديين وغيرهم فى مقاومة وزارة إسماعيل صدقى التى تولت الحكم فى أوائل الثلاثينيات ونكلت بخصومه بعد تعديلها

لدستور ١٩٣٢ . وأسهم فى تأليف كتاب «السياسة المصرية والانقلاب الدستورى» خاصة أنه كان يرى أن صدقي رجل يؤمن بالحكم وبانه الوسيلة الوحيدة لتحقيق ما يرجو الإنسان تحقيقه من خير بلاده . ونفس هذا الموقف تكرر بالنسبة إلى نزعات الملك فاروق الاستبدادية التى ندد بها هيكل فى الجزء الثالث من المذكرات والتى بذل جهوداً لمقاومتها اثبتها فى هذا الجزء فقد نزع فاروق بعد الحرب العالمية الثانية إلى الاستبداد خاصة أن حادثة ٤فبراير ١٩٤٢ - على حد قوله لهيكل - قد علمته «درساً لن ينساه» ولقد زين له المحيطون به سلوك هذا الاتجاه حين قالوا له إن أجداده هم الذين انشأوا مصر الحديثة من العدم وأنه «وارث هذا التراث المجيد وصاحب الرسالة ببعث الشرق كله وإتمام المعجزة التى حاولها جده محمد على ثم حالت الاقدار دونها» ثم ادى به هذا الاعتقاد وتملق المتملقين إلى الاستهتار والاندفاع مع أهوائه وعدم الاكتراث برجال دولته ، ومن ثم دعوته لزعماء الدول العربية إلى انشاص دون علم الوزارة القائمة واصداره الاوامر بإدخال الجيش إلى فلسطين فى مايو ١٩٤٨ دون مشاورة الوزارة أو البرلمان .

وقد ارتبط مقت هيكل للاستبداد بالمبادئ التى أمن بها منذ شبابه المبكر : فهو ليبرالى أمن بالحرية والدستور وبأن الحكم وسيلة لاغاية وأن باستطاعة المعارضة توجيه شئون الحكم بالقدر الذى

تستطيعه الحكومة القائمة وأن الوصول للحكم أن لم يكن أساسه الكرامة الذاتية التامة يعهد اليه بتبعاته فخير منه البقاء فى المعارضة ، وفى مذكراته نجده يؤكد انها لا تعدو ان تكون تصويراً للحوادث كما وقعت ولاتجاهات الرأى المختلفة . ورغم أن بعض الاشخاص الذين تناولهم كانوا على قيد الحياة لدى نشر الجزءين الاول والثانى من المذكرات فانه يجزم بانه لم يحابهم الا أن يكون قد أغفل بعض الحوادث التى رأى من واجبه إغفالها .كما يقر بأن مذكراته لم تتناول الا ما شهده او شارك فيه من جوانب السياسة المصرية وانه لذلك أغفل الناحية الاقتصادية لأنه لم يكن له فيها حظ يذكر .

وهو يبين انه لم يقصد إلى التأريخ لمصر فى الفترة التى كتب عنها (١٩١٢-١٩٥٢) وشارك فى معظمها فى صنع السياسة المصرية ومعالجة قضاياها .وقد بدأ كتابتها فى عام ١٩٤٨ وفرغ منها فى عام ١٩٥٠ . وكان هدفه من كتابتها أن تكون مرجعاً لمن يريد أن يؤرخ لتاريخ مصر خلال هذه الفترة وهو يجزم بان أحداً لن يستطع أن يؤرخ لعصر عاش فيه بحكم أن المعاصر قد لا يقف على كل الأسرار وانه لا يدون الا ما يعرف . ويذكر عن نفسه انه اكتفى بتصوير الحوادث كأدق ما يستطيع مشيراً إلى أن مما ساعده على ذلك انه بدأ يكتب مذكراته بعد انقضاء سنوات طويلة

على وقوع الحوادث التى دونها . وقد استملى الجزء الاول من هذه المذكرات من الذاكرة الا قليلاً رجع فيه الى الصحف لمزيد من الدقة فى التأريخ للأحداث وينفى ان الذاكرة قد خانته مؤيداً رأيه هذا بانه تناول فى هذا الجزء ما كان يكتب عنه طيلة خمسة عشر عاماً حين كان رئيساً لتحرير جريدة «السياسة» وبأن «الذين يزاولون الكتابة يعلمون أن التحرير المتصل فى موضوع بذاته ينقش فى اذهاننا ما نكتبه فلا ننساه ابداً» وهو ينفى ان يكون قد دافع عن السياسة التى ناصرها فى مختلف اطوار حياته .

ولقد ظل هيكل رئيساً لتحرير جريدة «السياسة» إلى أن عطلها الاحرار الدستوريون فى عام ١٩٣٧ وحينئذ ترك ميدان الصحافة إلى ميدان التأليف . ولما كانت اتجاهاته الفكرية ومبادئه تقيم حاجزاً بينه وبين الجماهير فإنه لم يوفق أحياناً فى الانتخابات النيابية ، ومن ثم فقد مارس نشاطه السياسى من خلال توليه مناصب وزارية أو من خلال ترؤسه لمجلس الشيوخ ولحزب الاحرار الدستوريين . وظل طيلة حياته السياسية ملتزماً بالمبادئ الديمقراطية وبالمصلحة الوطنية بحيث نلمس فى مذكراته سمواً فوق الاعتبارات الحزبية وتمسكاً بقواعد الاخلاق السياسية مع نزاهة واضحة تطالعنا بين وقت وآخر فى الأجزاء الثلاثة من مذكراته أما انتماؤه الحزبى فلم يكن له الا اثر جانبى فى مذكراته وفى سلوكه

العام خاصة انه خلال رئاسته لمجلس الشيوخ كان يؤمن بان هذا المجلس ملك للأمة كلها .

ويختلف الجزءان الأول والثاني من المذكرات عن الجزء الثالث الذى توفى هو قبل أن يستكمله . فقد سار الجزءان الأول والثانى وفقاً للترتيب الزمنى للأحداث فى حين انه سعى إلى أن يتناول فى الجزء الثالث موضوعات بعينها دون التزام بالترتيب الزمنى . وقد خطط للكتابة فى الموضوعات التالية : قضية فلسطين - النزاع المصرى الإنجليزى - السودان - قيام الجامعة العربية - تطور الحياة السياسية - الازمات البرلمانية الكبرى والحياة الحزبية ، ولكنه لم يكتب فى الجزء الثالث سوى الفصول الخاصة بفلسطين والنزاع المصرى الانجليزى فى مجلس الأمن وأزمة مجلس الشيوخ فى يونية ١٩٥٠ وما أطلق عليه اسم الوثائق السياسية المزورة . وقد قام على إعداد هذا الجزء للنشر ابنه أحمد محمد حسين هيكل المحامى . وظل هذا الجزء محجوباً عن الانظار فترة طويلة قبل أن يتم نشره فى عام ١٩٧٧ .

حسن البنا

وجماعة الإخوان المسلمين
١٩٠٦ - ١٩٤٩



● الشيخ حسن البنا

لا تظهر الشخصيات البارزة من فراغ بل هى فى الواقع نتاج عصرها : تمتص مؤثراته وتتجاوب معها سلباً وإيجاباً ، وتنجح أو تفشل بحسب الظروف المحيطة وبحسب تعبيرها عن متطلبات العصر . وحسن البنا ابن عصره ، فقد تجاوب مع إشفاق مسلمى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على دينهم وتراثهم إستقلالهم فى مواجهة زحف المؤثرات الغربية التى أخذت تدق الأسافين فى البناء الفكرى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر وتوجه الهجوم إلى الإسلام والمسلمين وبالإضافة إلى ذلك فقد تحمس كثير من المصريين وبخاصة من أصاب منهم تعليماً غربياً ، وأعجب بالحضارة الغربية ، إعجاباً مبعثه أن الغرب حقق نظاماً ناجحاً يقوم على الدستور ويحدد سلطة الحاكم ويقيم العدالة ويقر حرية كل من الفرد والمجموع ، كما عزيت حيوية أوربا إلى نظامها التعليمى وتنظيمها الاجتماعى ودعمها لروح البحث الحر وما أسهمت به المنظمات والجمعيات الخاصة فى تقدم أوربا اقتصادياً وإنسانياً ..

ولقد آذنت حركة الإقتباس عن الغرب بزعزعة القالب التقليدى للمجتمع المصرى واستيراد مجموعة من النظم والقوانين والمقاييس

الغربية التي ظلت لفترة طويلة غريبة على الكتل الجماهيرية ولا تتمشى مع حاجات ومشاعر وآمال المواطنين ، ومما ساعد على ظهور الأزمة المترتبة على المؤثرات الغربية أن أوربا فى ثقتها غير المحدودة بنفسها وما ترتب علي ذلك من نزعات عدوانية واستحواذية كانت تبدو وكأنها تضع العالم بأسره فى قبضتها فى الوقتالذى اشتدت فيه الحملات على الدين الإسلامى . وكانت مشكلة الحضارة الغربية وما صاحبها من غزو واستعلاء من أعقد المشكلات التى واجهها المفكرون : فمنهم من اتجهوا إلى طرح التقاليد القائمة على زعم أنها مصدر النكوص والجمود والضعف وأبدوا حماسة للاقتباس عن الغرب ونشر علومه ونظم حكمه وأساليبه التعليمية وبثها فى الشعب حتى يستيقظ ويتحرر من السيطرة الغربية . ومنهم من رفضوا الغرب وأبوا مسالمته ودافعوا عن تراثهم باعتباره منبع المقومات الأصيلة . ومنهم من حاولوا التوفيق بين التراث العربى - الإسلامى وبين منجزات الغرب .

مقاومة الاضمحلال

وقد أدى كل ذلك إلى ظهور حركات التجديد الإسلامى فى مصر وسائر الأقطار الإسلامية وهي الحركات التى اتخذت إما شكل إحياء سلفى كما هو الحال بالنسبة إلى « الوهابية » والسنوسية والمهدية أو شكل تجديد عصرى : ذلك أن المجتمع العربى -

الإسلامى كانت تهدده من الخارج قوى نشطة فى الوقت الذى كان يتهدده من الداخل نوع من الاضمحلال والغيبوبة ونقص فى الحيوية والتماسك ، وهكذا نجد جمال الدين الأفغانى يبذل كل ما فى وسعه لمقاومة هذا الاضمحلال الداخلى حتى ولو سار على خطى ثورية ، فى حين تصدى « المهدى » في السودان لمظالم « التركية الأولى » وكانت الحركة السنوسية فى طرابلس وبرقة تمثل فى بعض نواحيها إحتجاجاً ثورياً على عجز الأتراك وفسادهم واستغلالهم . وقد رفضت هذه الحركات السلفية فى مجملها الغرب فى الوقت الذى جرت فيه محاولات للتوفيق بين الميراث الحضارى الإسلامى وبين الحضارة الغربية المتفوقة وانبهر فيه الكثيرون بالحضارة الغربية . ومما ساعد على انتشار المؤثرات الغربية فى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية ضعف سيطرة الدين واهتزاز مكانة رجال الدين ووقوفهم موقفاً سلبياً من المشكلات التى واجهت منطقة تتعرض لتحديات العلم التطبيقى الغربى وازدياد أهمية الفكر المستند إلى العقل والطبيعة .

ورغم اضمحلال الأسس القديمة التى قام عليها المجتمع المصرى فإنه كان لا يزال يستند إلى هيكل من الولاءات والمسئوليات التى ربطت مختلف الجماعات والطبقات الاجتماعية بعضها ببعض، ولو أن القالب القديم قد اهتز من أساسه فى الوقت الذى تم فيه

استيراد مجموعة من النظم والمقاييس الغربية التى ظهرت لفترة طويلة غريبة على الكتل الجماهيرية ولا تتمشى مع حاجيات ومشاعر وآمال السكان المسلمين .. والنتائج الإقتصادية المترتبة على المؤثرات الغربية معروفة بما فيه الكفاية . الانفجار السكانى الذى لم تصحبه زيادة فى المؤن الغذائية واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء وخلق أطماع وشهوات جديدة تفوق ظهور وسائل الوفاء بها .

تحدى المشاعر

– وقد أدى عدم التوازن المترتب على تحلل النظام الاقتصادى التقليدى إلى تغييرات هامة أخرى ربما أهمها إضعاف الروابط الاجتماعية القديمة والأساليب والولاءات التقليدية . كما أن إزدياد حجم التصنيع وانتشار الهجرة إلى المدن قد أثر فى عملية الاقتباس عن الغرب بحيث كادت تكتسح البنيان الثقافى الفوقى وتدمر الأسس التقليدية التى قام عليها المجتمع المصرى وكل ذلك أدى إلى اضمحلال النظام الثقافى القديم وتفكك القوالب الاجتماعية والثقافية القديمة وبالتالى فقد واجه المجتمع المصرى نوعاً من عدم الاتزان أدى إلى حدوث أزمة حضارية لم تحسم حتى الآن . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى قامت فى مصر حكومات ليبرالية يوجهها العلمانيون المتأثرون بالحضارة الغربية مما كان

يعنى الانهيار النهائى لمجتمع العصور الوسطى ، وزوال التأكيد على المميزات الدينية التى كانت شديدة الأهمية حتى ذلك الوقت . وتراجعت الشريعة الإسلامية التى حلت محلها دساتير ونظم برلمانية وقوانين غربية ، فى حين ألغت الحركة الكمالية فى تركيا الخلافة وفصلت الإسلام عن الدولة ، وهو ما هلل له الليبراليون ، وفى عام ١٩٢٥ والعالم العربى - الإسلامى مشغول بنتائج إلغاء الخلافة العثمانية نشر على عبد الرازق - القاضى الشرعى المصرى الذى كان قد أصاب بعض الثقافة الغربية - كتابه عن « الإسلام وأصول الحكم » الذى صدم عواطف الناس بجرأة وعنف ، وتحدى مشاعرهم وشكك - أحياناً بسخرية - فيما تطمئن إليه نفوسهم . وربط التقليديون ، وفى طليعتهم الأزهـريون ، بين كـتاب على عبد الرازق وبين المؤثرات الغربية التى أخذت تتغلغل فى المجتمع . وحينئذاصطدمت المؤثرات الحديثة ، التى كانت ثورية فى طابعها بالارتباط الغريزى بالتقاليد الدينية ، ومن ثم الهجوم العنيف عليه وعلى طه حسين الذى اتبع المنهج الديكارتى فى تناول قصص القرآن فى كتابه « الشعر الجاهلى » وفى نفس الوقت الذى تعرض فيه الإسلام للهجوم من جانب المبشرين والاستعماريين .

حسن البنا والإخوان المسلمون

وجاء رد الفعل ... فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين

على شكل جمعيات دينية كانت تنشط فى أوساط الطبقة الوسطى فى المدن وتزداد أهميتها بمرور الأيام . وسرعان ما تحولت هذه الجمعيات إلى مراكز يتعايش فيها الدين والوطنية ، فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه جمعيات أخرى ذات طابع دينى وسياسى أهمها جماعة « مصر الفتاة » وجمعية الإخوان المسلمين التى تأسست فى عام ١٩٢٧ على يد حسن البنا . وقد تصدت جمعية الإخوان المسلمين للدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية ونددت بالسياسة التي كانت تتبعها الدول العظمى في البلدان الإسلامية ، كما تصدت لآثار الاقتباس المتسرع من الغرب على العادات الشرقية . ولكن لم يثر سخطها شىء مثلما كانت تثيرها الأحكام التى أطلقها المستشرقون على الإسلام وتصريحات المبشرين . وفى نفس الوقت أصابت الحركة الفاشية نجاحاً فى إيطاليا بعد أن استولى موسولينى وأتباعه على الحكم ونددوا بالديمقراطية والنظم البرلمانية الغربية وركزوا على مزايا الدكتاتورية التي أعجب بها الكثيرون فى مصر والشرق وتوقعوا تحقيق كثير من الإنجازات تحت قيادة الزعيم الأوحد والحزب الواحد . وكان لذلك أثره على تنظيم جماعتى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة الناشئتين .

وقد بدأ حسن البنا نشاطه فى الإسماعيلية التي كانت تقطنها جاليات أوربية متنوعة تحيا حياتها الخاصة المخالفة للأنماط

الإسلامية . وسرعان ما اجتذب إلى صفه جموع أبسط طبقات الشعب والحرفيين والوطنيين والطلاب والبورجوازية الوطنية الصغيرة ثم أغراه النجاح الذى أصابه بنقل قاعدة نشاطه إلى القاهرة التي أسس فيها شعباً للجماعة واتخذ منها المركز الرئيسى لدعايته ومنها كان يتنقل للقيام بجولات دعائية فى الأرياف والمدن المجاورة . ومما جذب الكثيرين إلى دعوته انه كان يبشر بمنطق جديد يستلهم التفسير الأصولى للإسلام ويرفض المؤثرات الغربية جملة وتفصيلاً .. فقد سعى إلى بناء المجتمع على شكل جماعة إسلامية عصرية تلعب دورها فى تحقيق سلام العالم وبناء الحضارة الإنسانية على أساس جديد يقوم على التأكيد على المبادىء العالمية للإسلام الداعية إلى الإخاء والقيم الروحية . وهكذا قدم البنا جماعته باعتبارهم بديلاً لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الأوربى المستورد فيما يتعلق بالحكومة والمجتمع . وقد ساعدت نشاطاته ومقوماته الشخصية وإيمانه بمبادئه ، إلى جانب أوضاع مصر العامة ، على سرعة انتشار دعوته التي مست وتراً حساساً لدى قسط كبير من الكتل الجماهيرية لتى قل إيمانها بالزعامات التقليدية المتصارعة . فقد كان متواضعاً حاد الذكاء قوى الذاكرة شديد الفصاحة وخطيباً مفوها يهز مشاعر سامعيه ببلاغته واستشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . مما أدى إلى

سيطرته على جماعته سيطرة مطلقة بالصورة التى غطت على الزعامات الأخرى المحتملة ، خاصة انه كان من أنصار الزعامة الفردية . وقد التقت جماعته منذ نشأتها مع الأنظمة الفاشية فى إقامة تشكيلات شبه عسكرية (الجوالة) ودعوتها لتوحيد القوى وإلغاء الأحزاب السياسية ومركزية السلطة الفردية وربطها كل ذلك بنوع تفسيرها لنظام الحكم فى الإسلام . ولهذا كانت جماعة الإخوان المسلمين تشبه غيرها من الحركات السياسية التى شهدتها الساحة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث قصور التنظيم وارتباطه على الأغلب بشخص واحد يحتكر الزعامة والتوجيه : وبالتالى فقد تجمدت زعامة الإخوان المسلمين التى أخذت بمبدأ الزعيم والتابع المستند إلى القيادة والطاعة .

ولما كانت حركة الإخوان المسلمين بالضرورة تشكل رد فعل عنيفاً ضد الفشل الأيديولوجى الذى منى به قادة المثقفين أيا كانت اتجاهاتهم وضد الفشل السياسى والاجتماعى للنظام الليبرالى فى مصر فقد قامت باعتبارها حركة سياسية - دينية استلهمت التفسير الأصولى الإسلامى بصدد المسائل الاجتماعية والسياسية وبالتالى فإنها لم تأخذ بالأساليب الحديثة للتنظيم السياسى وإن كانت قد قدمت نفسها باعتبارها بديلاً لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الأوربى المستورد دون أن تقدم حلاً للمشكلات

الأيديولوجية والاجتماعية التى كانت تواجه المجتمع المصرى . ومن العوامل التى أدت إلى نجاح الحركة بمرور الزمن جمود علماء الأزهر وتوقف نشاطهم عند حدود معينة من التفسيرات والشروح وبعدهم عن اهتمامات الجماهير الحقيقية وعدم التفات الأحزاب إلى المشكلات الإجتماعية فى الوقت الذى كانت فيه الجماهير شديدة الاهتمام بضرورة الإصلاح الاجتماعى . ويضاف إلى هذا ما كان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من ظهور مجموعة من « أثرياء الحرب » الذين لم يلتزموا بالأخلاق التقليدية مما أدى إلى ظهور ألوان من الرذائل والآفات الأخلاقية وإفساح المجال للدعوة الدينية فى الوقت الذى أخذت فيه الجماهير تبحث عن قيادات تعبر عن مطالبها فكان من السهل عليها أن تقع تحت تأثير حسن البنا الذى كان محور مناقشاته يدور حول فساد الحياة السياسية وضرورة العودة إلى الإسلام طلباً للإصلاح . وكان البنا لا يعترف بالقومية التى رأي أنها جاءت من الغرب ، ولهذا أكد على ضورة قيام الجامعة الإسلامية والخلافة ذاهباً إلى أن دولة ومجتمعاً يقومان على القرآن والسنة يستطيعان أن يضعا حدا لكل أمراض المجتمع فى الوقت الذى لم تكن لديه هو وأتباعه فيه أية فكرة واضحة عن المشكلات المعقدة التى تواجه مجتمعاً حديثاً وبالتالى كانوا على استعداد لاعتبار كل من يعترض على برنامجهم عدواً للإسلام .

الإخوان وقضية فلسطين

وبمرور الزمن ولدت الدعاية النشطة للإسلام لدى أبسط طبقات الشعب والطلاب وبعض قطاعات البورجوازية المصرية في المدن الكبرى تيــاراً قوياً معــــادياً للأجانب . وفيمـــا بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٨ ظلت دعة الإخوان المسلمين التى صيغت فى جمل بليغة وبسيطة تنمو وتفسر وتنتشر فى كتيبات صغيرة توزع بالمجان أو تباع بأثمان زهيدة وفى صحيفة يومية هى « الإخوان المسلمون » ومجلة شهرية هى «الشهاب» . ومن العوامل التى استغلها الإخوان خلال هذه الفترة احتدام القضية الفلسطينية التى واجهت أطماع الصهيونية العالمية دون أن تستطيع الحكومات العربية والإسلامية أن تصيب نجاحاً ولو قليلاً فى سبيل إنقاذ فلسطين من الأخطار المحدقة باستثناءالإدلاء بالخطب الملتهبة وتهديد المتآمرين على فلسطين بالويل والثبور وعظائم الأمور . وعلى العكس من ذلك كان موقف الإخوان المسلمين الذين تطوع بعضهم للدفاع عن فلسطين بقوة السلاح – بل إن « المرشد العام » وهو اللقب الذى خلع على حسن البنا قام بجولات فى فلسطين أمكنه خلالها أن يفتتح عدداً

من الشعب فى الوقت الذى قام فيه الأخوان المسلمون بجمع التبرعات وتكديس السلاح لخدمة القضية بالإضافة إلى الظروف الموضوعية الأخرى التي سبقت الإشارة إليها هو ما جلب لحركة الإخوان عددا كبيرا من الأتباع الذين يقال إنهم وصلوا إلى ما يزيد على المليون في أعقاب الحرب العالمية الثانية لدرجة أنهم كانوا يسيطرون على الساحة الجامعية والحركة الطلابية والشبابية ويتصدرون الحياة الدينية والسياسية .

وقد حاولت الأحزاب المصرية دون جدوى أن تشد أزرها باجتذاب الإخوان المسلمين إلى صفها إذ استخدمها حسن البنا أكثر مما استخدمته وأفاد بمهارة من حزازاتها ومنافساتها فى الوقت الذي استطـاع فيه أن يهب جماعته تنظيما قوياً فسرعان ما انتشرت في شتى ربوع مصر الشعائر الدينية والتدريب العسكرى فى الوقت الذى كانت فيه الجماعة على قمة الحركة الوطنية المعادية للأجانب التي أدت حرب فلسطين (١٩٤٨ - ٤٩) إلى تأجيجها ، وخلال الهجوم على الصهيونية كان المساس بالحضارة والأساليب الغربية وتدميرها هو الهدف ، وبالتالى كثرت

الهجمات على البارات والسينما وبعض المؤسسات التى يمتلكها اليهود والأجانب فى الوقت الذى جرى فيه الاعتداء على بعض الشخصيات العامة التى تصدت لنشاطات الإخوان الذين كان لهم جهاز سرى يشرف على الاغتيالات وإلقاء القنابل ويكدس الأسلحة فى القاهرة وغيرها من المناطق المصرية .. وفى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ أصدر رئيس الوزارة المصرية محمود فهمى النقراشى قرار حل الجماعة ليدفع حياته ثمنا لذلك بعد أيام وبعد ذلك اغتيل البنا فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ ، وتعرض الإخوان لمطاردة البوليس والاعتقال وإن لم يؤد ذلك إلى زوال الخطر الذى شكلوه على نظام مصر السياسى .

ولم يؤد مقتل البنا إلى توقف نشاط جماعة الإخوان بل ساعد على توسيع دعايتها سرا فى الوقت الذى انتهت فيه حرب فلسطين إلى كارثة ، فوزعت فى شوارع القاهرة ومساجدها منشورات هاجمت الحكومة والسراى ، ولم تعد الحكومة تستطيع حفظ النظام إلا بصعوبة بالغة فى حين اكتشفت مخازن للأسلحة والذخيرة وأحبطت مؤامرات كانت تعد ضد سلامة النظام القائم إلا أن غياب

قائد الحركة استتبع زعزعة مكانتها خاصة وقد دبت الخلافات فى صفوفها مما مهد لتوجيه الضربة القاضية إليها على يد نظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مما أدى إلى اختفائها عن الساحة السياسية المصرية فترة طويلة ولو أن الاتجاه الذى مثلته لا يزال قائما وفعالا ليس فقط فى مصر بل فى غيرها من الأقطار العربية والإسلامية . فلا يزال المسلمون يشعرون بالإشفاق على مصير دينهم فى مواجهة التحديات التى تواجهه ، كما أن الأقطار الإسلامية لم تصب نجاحا كبيرا فى حل المشكلات التى تعترضها فى الوقت الذى لا يزال فيه المسلمون يقارنون أوضاعهم الراهنة بفترة تفوقهم السابقة على مسرح الحضارة العالمية ويسعون جاهدين إلى إحياء أمجادهم فى مواجهة قوى متفوقة من الشرق والغرب لا تزال تحكم الملايين من المسلمين الذين – منذ بدء حركة الاستعمار العالمى – وجدوا أنفسهم يخضعون لقوى غير إسلامية وتطبق عليهم قوانين وأنماط لا تتمشى مع المفاهيم الإسلامية .

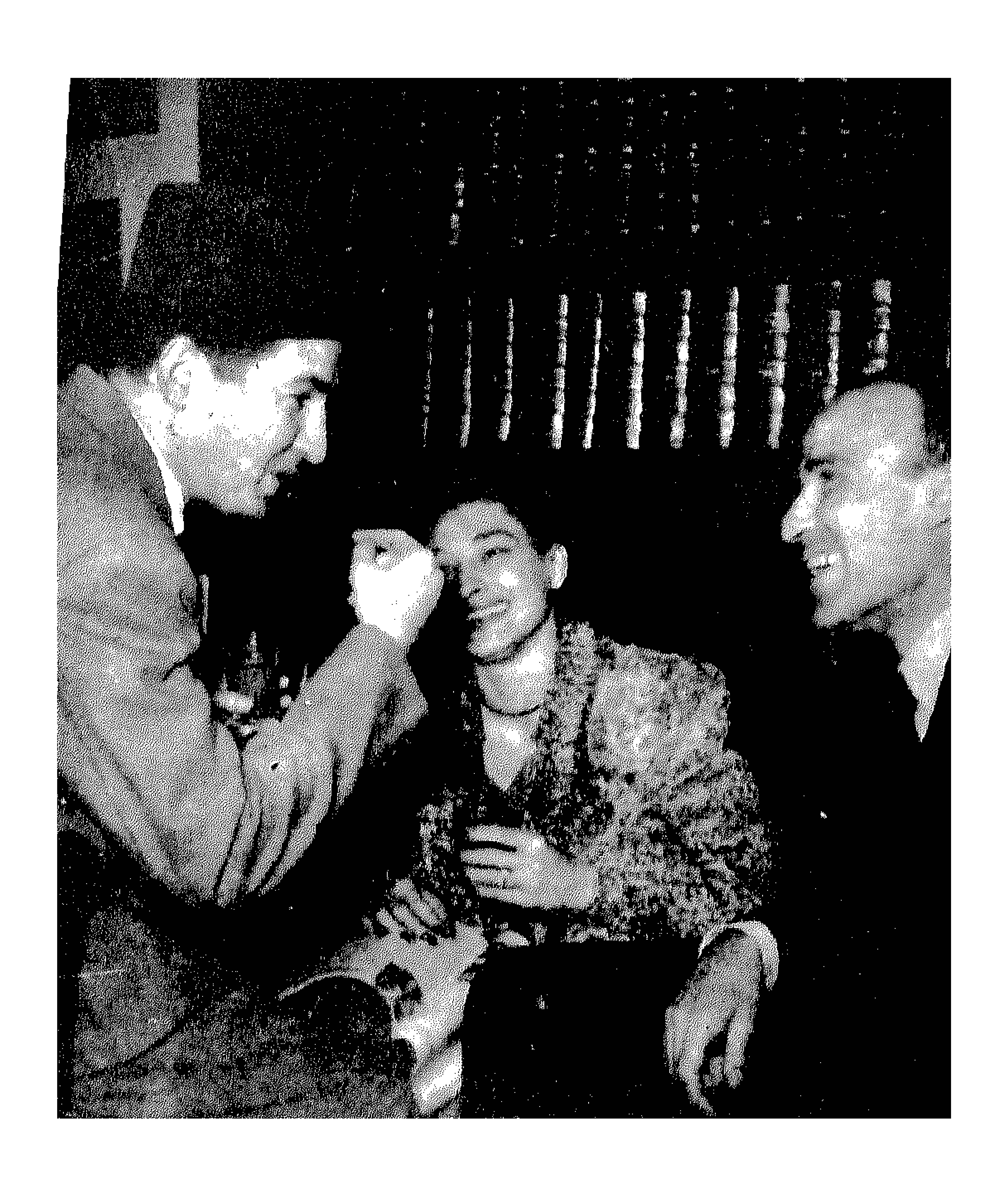
وهكذا نجد أن حسن البنا ليس سوى أحد أعلام حركة ، الهجوم الإسلامى المضاد فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية

التى طالما أحاطت بالعالم الإسلامى بحيث يمكن إضافة اسمه إلى سجل الزعماء المسلمين الذين سعوا إلى حل مشاكل المسلمين سواء عن طريق الإحياء السلفى أو التجديد العصرى : يستوى فى ذلك محمد بن عبد الوهاب والسنوسى الكبير ومحمد أحمد المهدى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وتلامذته - إلى غير ذلك من الدعاة الذين سعوا إلى إحياء السنة والقضاء على البدعة بهدف حماية المجتمع الإسلامى والقضاء على ما اعتبروه من المفاسد - فالإصلاح لدى المجددين في الإسلام هو التنقيب عن الجوهر القديم ونفض ما تراكم عليه عبر عصور الجهل من بدع ، ومقاومة ما اعتبروه خطرا على الإسلام من المؤثرات الخارجية وبخاصة إذا ما جاءت من « دار الحرب » التى طالما اعتبرت عدوة لدار الإسلام والمسلمين الذين لا يزالون يحلمون بانتشار الإسلام على وجه الأرض قاطبة .

إحسان عبد القدوس

١٩١٩ ـ ١٩٩٠

وقضية الأسلحة الفاسدة



● إحسان عبد القدوس يروى لشكرى زيدان تاريخ معرفته بالفنانة لولا صدقى

أثارت قضية الأسلحة الفاسدة اهتمام الرأى العام المصرى فى اعقاب حرب فلسطين . وكانت لها مضاعفات قوية ساعدت على انهيار النظام القائم فى مصر . واقترنت الضجة التى صاحبت هذه القضية باسم الصحفى الراحل إحسان عبد القدوس الذى نشر مقالات حادة فى مجلة روزاليوسف كان لها صدى واسع النطاق فى الرأى العام المصرى الذى تكشفت له الهزيمة التى حلت بالقوات المسلحة المصرية وحار فى تفسير اسبابها بعد أن لم يقتنع بالتبريرات التى قدمت له عنها .

وقد مست مقالات إحسان عبد القدوس الملك وحاشيته بوجه خاص كما مست كثيرا من الشخصيات الأخرى التى قيل أنها حصلت على أرباح طائلة من توريد أسلحة فاسدة قيل إنها كانت السبب فى الهزيمة ولو أن هذه الهزيمة ، كما سنرى . كانت نتيجة لأسباب أخرى سنعرض لها فى هذا السياق .

فبعد قرار تقسيم فلسيطن الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ استعد اليهود للحرب ضد العرب الذين ابدوا رفضهم لقرار التقسيم . وسعى ممثلو اليهود لشراء الأسلحة والعتاد الحربى فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية وتشيكوسلوفاكيا وأمكنهم تهريب كميات كبيرة منها إلى فلسطين قبل

انتهاء الانتداب البريطاني في الوقت الذي عبئوا فيه الرجال والنساء للخدمة العسكرية . كما بذلت الوكالة اليهودية جهودا ضخمة لتحصيل الأموال من يهود «الشتات» وأمكن جمع مبالغ طائلة وبخاصة من يهود الولايات المتحدة وفي أوائل مايو ١٩٤٨ كانت لدى وزير الدفاع الامريكي تقديرات عن قوة اليهود استخلص منها ان القوات اليهودية في فلسطين كانت تتفوق على كل القوات العربية مجتمعة من حيث الرجال والتجهيز والتدريب . وبعد اندلاع الحرب بقليل قدم قسم المخابرات العسكرية الامريكية الى رئيس الأركان مذكرة قدرت قوات الجامعة العربية التي دخلت فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني أو وقفت بالقرب من حدودها بحوالي ٢٠ ألف مقاتل مضافا اليهم حوالي ١٣٠٠٠ محارب فلسطيني . كما قدرت القوات اليهودية بأربعين ألفا يساندهم حوالي ٥٠٠٠٠ من الميلشيات . وخلال الهدنة عزز العرب قواتهم بنسبة الثلث فاوصلوا اعدادها إلى ٣٥٠٠٠ مقاتل في حين أوصل اليهود قواتهم إلى ٦٠,٠٠٠ مقاتل . وفي اواسط يونيه ١٩٤٨ قدرت هيئة الأركان الأمريكية المشتركة الاحتياطي البشري لدى الطرفين المتحاربين على الوجه التالي : الحد الأعلى لتعبئة اليهود : ١٨٥٠٠٠ والعرب حوالي ١٤٠٠٠٠ من الجنود الذين يمكنهم الاشتراك الفعلي في القتال .

وفى نوفمبر قدر الإنجليز أن القوة الجوية اليهودية بلغت حوالى ١٥٠ ـ ١٦٠ طائرة حربية يقودها متطوعون أجانب .

والحق أن الدول العربية لم تكن حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ تصدق ان الإنجليز سينسحبون من فلسطين وبالتالى فإنها لم تعد العدة للحرب ولكن الزعماء العرب ضللتهم دعاياتهم الحماسية خاصة أن بعضهم استهتروا بقوة اليهود واعتقدوا أن هزيمتهم ممكنة ولن يعدو القتال ان يكون نزهة حربية . وقد اصاب عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية ، كبد الحقيقة حين صرح للسفير البريطانى فى القاهرة فى أواخر إبريل ١٩٤٨ بأن الاستعدادات العسكرية التى كانت تتظاهر بها الدول العربية كانت تستهدف انقاذ الزعماء العرب من جماهيرهم ، ولهذا فإنه حاول عبثاً أن يقنع الإنجليز بالبقاء فى فلسطين فترة أخرى ـ وكان رئيس الوزراء المصرى محمود فهمي النقراشي قد صرح فى مؤتمر «عاليه» الذى عقدته الجامعة العربية ان مصر اذا كانت توافق على الاشتراك فى الحشد العربى للقوات العربية على حدود فلسطين فإنها غير مستعدة للمضى أكثر من ذلك . ورغم ذلك فإن الملك فاروق بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة ، اصدر أمره بدخول هذه القوات الى فلسطين حتى يتمكن من إفشال مشروعات الملك عبدالله حاكم الاردن الخاصة بتوسيع مملكته تحقيقا لمشروع سوريا الكبرى ،

بالإضافة إلى رغبته فى تحويل أنظار الرأى العام المصرى عن المشاكل الداخلية وأن يقوى سلطته .

وعلى أية حال فقد دخلت جيوش الأردن ومصر والعراق وسوريا ولبنان إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ وهى تجهل حالة اليهود ومقدار قواتهم ومدى تسلحهم ومناعة تحصيناتهم فى الوقت الذى كان فيه اليهود يعرفون الكثير عن هذه الجيوش . ورغم الدعايات الواسعة التى احيط بها تقدم القوات العربية فى القسم العربى من فلسطين إلا أن الواقع كان مغايرا . وكانت النتيجة هى ان القوات العربية لم تنجح فى تحقيق اهدافها . بل لقد استولى اليهود على أراض جديدة لم تخصص لهم فى قرار التقسيم ، واضطرت الدول العربية إلى قبول الهدنة التى قيل إنها تستهدف التمهيد لقيام سلام دائم فى فلسطين .

وقد حارت الجماهير العربية فى تفسير ماحدث . حقيقة إنها خدرت بالبيانات الكاذبة ، إلا انه كان من المستحيل التكتم على الحقائق بعد عودة المقاتلين إلى أوطانهم - وكانت النتيجة هى اهتزاز هيبة الأنظمة الحاكمة التى مالبث بعضها أن سقط بعد قليل نتيجة لانقلابات عسكرية قام بها بعض الضباط الذين اشتركوا فى الحرب . وكانت قضية الأسلحة الفاسدة أول معول وجه إلى نظام الحكم القائم فى مصر - وأساس هذه القضية أن الولايات المتحدة

وفرنسا وبريطانيا قد اصدرت بعد نشوب الحرب فى فلسطين بيانا يحظر تصدير الأسلحة والذخائر الى الدول المتحاربة . وعلى حين أن الدولة اليهودية كان لديها ما يكفيها من الأسلحة ، بالاضافة إلى ما صنع منها محليا ، فإن عمليات التهريب الى داخل فلسطين لم تتوقف . بل لقد افلحت السلطات اليهودية فى عقد صفقة اسلحة مع تشيكوسلوفاكيا وافق عليها ستالين الذى كان يسعى إلى إيجاد حالة ارتباك في الشرق الأوسط تمهد للقضاء على النفوذ الغربى فى المنطقة . وقد تدفقت الأسلحة التشيكية على فلسطين بعد الهدنة الاولى وكان لها اثرها فى إنهاء الحرب لصالح اليهود .

وإزاء الحظر الذى فرض على توريد السلاح الى المنطقة ، وهو الحظر الذى تحايل اليهود على خرقه فإن وزارة الحرببية والبحرية المصرية سعت بعد أن كادت تنفد اسلحتها فى المراحل الأولى من الحرب الى الحصول على السلاح من السوق السوداء بأى ثمن وبغض النظر عن صلاحية هذه الأسلحة . وظهر وسطاء وعملاء استغلوا الموقف للحصول على الربح السهل . وكان الصحفى الراحل إحسان عبد القدوس هو الذى قام بحملة صحفية مكثفة على صفحات مجلة «روز اليوسف» كشفت أبعاد الصفقات المريبة التى أحاطت بتوريد السلاح الفاسد الذى قيل إن بعضه كان سببا فى الهزيمة ، ولو أن ذلك لا يفسـر كل الاسـباب التى ألمحنا إليها من قبل .

وكان هدف إحسان من الحملات الصحفية التى شنها هو مهاجمة النظام القائم وتحريض الرأى العام - وبخاصة فى صفوف القوات المسلحة - على الثورة .. وقد تنبه الى موضوع الأسلحة الفاسدة أثناء وجوده فى إيطاليا التى استمع فيها إلى اخبار عن صفقات الأسلحة التى عقدها مندوبو الجيش المصرى . وفى ٢٠ يوليه ١٩٤٩ كتب مقالا عنوانه «محاكمة مجرمى حرب فلسطين» طالب فيه بتشكيل محكمة لمحاكمتهم . ورغم أن مقاله لم يثر اهتماما جديا فى البداية فإنه واصل هجومه على النظام القائم مستغلا فيه الانباء التي وصلته عن صفقات الأسلحة التى كانت تعقد فى إيطاليا وفرنسا .

ورغم المخاطر التى تعرض لها إحسان ، ومنها محاولة قتله ، فانه استطاع أن يلفت الانظار إلى الفئة التى سعت إلى الاثراء باستيراد الأسلحة فاسدة وغير فاسدة وكان من نتيجة ذلك أن محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، ضمن تقريره السنوى عن الحساب الختامي بعض صفقات الأسلحة والذخيرة التى أيدها بالوثائق ، ولكن تقرير رئيس ديوان المحاسبة لم ينجح فى تحريك القضية بل لقد اصرت الحكومة حين تقدم للمطبعة الاميرية لطبع التقرير ، على ضرورة حذف العبارات التى تشير الى وجود تلاعب فى صفقات الأسلحة ولكنه اصر بدوره على نشر التقرير كاملا . ولما لم تستجب الحكومة لطلبه قدم استقالته من

منصبه . ولم يقف الامر عند هذا الحد . بل أثير الموضوع فى مجلس الشيوخ على يد مصطفى مرعى العضو فى المجلس الذى استخرج من تقرير رئيس ديوان المحاسبة السابق مستندات تثبت التلاعب فى شراء صفقات السلاح التى ثبت انها كانت تتم بعلم رجال وزارة الحربية بما فيها من تلاعب . وطرد مصطفى مرعى من عضوية مجلس الشيوخ ومعه كل من ايده من الأعضاء بل لقد وصل الأمر الى عزل رئيس مجلس الشيوخ الذى سمح بمناقشة الاستجواب !

وإزاء كل ذلك لم يجد إحسان بدا من الاتجاه الى ضباط الجيش الساخطين على فساد النظام القائم فعقد معهم اجتماعا فى بيت احدهم ثم اجرى اتصالات مع شباب الضباط الذين اشتركوا فى حرب فلسطين واستغل المعلومات التى وصلت اليه فى كتابة مزيد من المقالات فى مجلة « روز اليوسف » ومنها مقال استفز فيه وزير الداخلية الوفدى فؤاد سراج الدين على امل أن يقدم الى المحاكمة . وبلغت الحكومة الوفدية النائب العام ضده للتحقيق معه فى مجموعة المقالات التى بدأ نشرها فى ٦ يونيه ١٩٥٠ . ولكنه امكنه بمساعدة اصدقائه أن يحصل على صورة للعقد المبرم بين احد تجار الأسلحة وبين زوجة ضابط كبير . وهو العقد الذى كان ينص على قيام الشركة بينهما لتوريد الأسلحة

الخاصة بحرب فلسطين وادى ما نشره إحسان الى تحقيق النائب العام معه ـ وتطرق التحقيق الى «النبيل» عباس حليم ـ الذى اتهمه إحسان رسميا امام النائب العام بعد أن حصل من شباب الضباط على ادلة اتهامه . وبعد ان انتهى من الادلاء بشهادته نشر نداء يطالب فيه المواطنين بان يتقدم كل من لديه معلومات تتصل بالقضية للادلاء بها للنيابة مع وعد بحمايته .. ومن هذه المعلومات التي وردت اليه ما ثبت من ان احد التجار كان قد انتشل الذخيرة من البحر بالقرب من السواحل الايطالية وكانت موجودة فى سفن الحلفاء التى اغرقتها الغواصات الالمانية – ورغم فساد هذه الأسلحة التى بقيت سنوات فى مياه البحر المتوسط فإنها بيعت للجيش المصرى .

وكما سبقت الاشارة كانت حملة إحسان موجهة ضد النظام الملكى القائم مع الاستعانة ببعض صفقات الأسلحة التى تمت خلال حرب فلسطين . وقد ثبت تاريخيا ان هذه الأسلحة الفاسدة لم تكن بالاهمية التى علقها إحسان عليها بل ان الهزيمة فى فلسطين فى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كانت مرتبطة بعجز النظام القائم فى مصر وضحالة معلوماته عن قوة اليهود واستعداداتهم وتدخل السراى فى سير العمليات الحربية وعدم كفاءة القائد العام ـ حيدر باشا الذى كان لجهله قد زين للملك فاروق أن النصر وشيك ـ

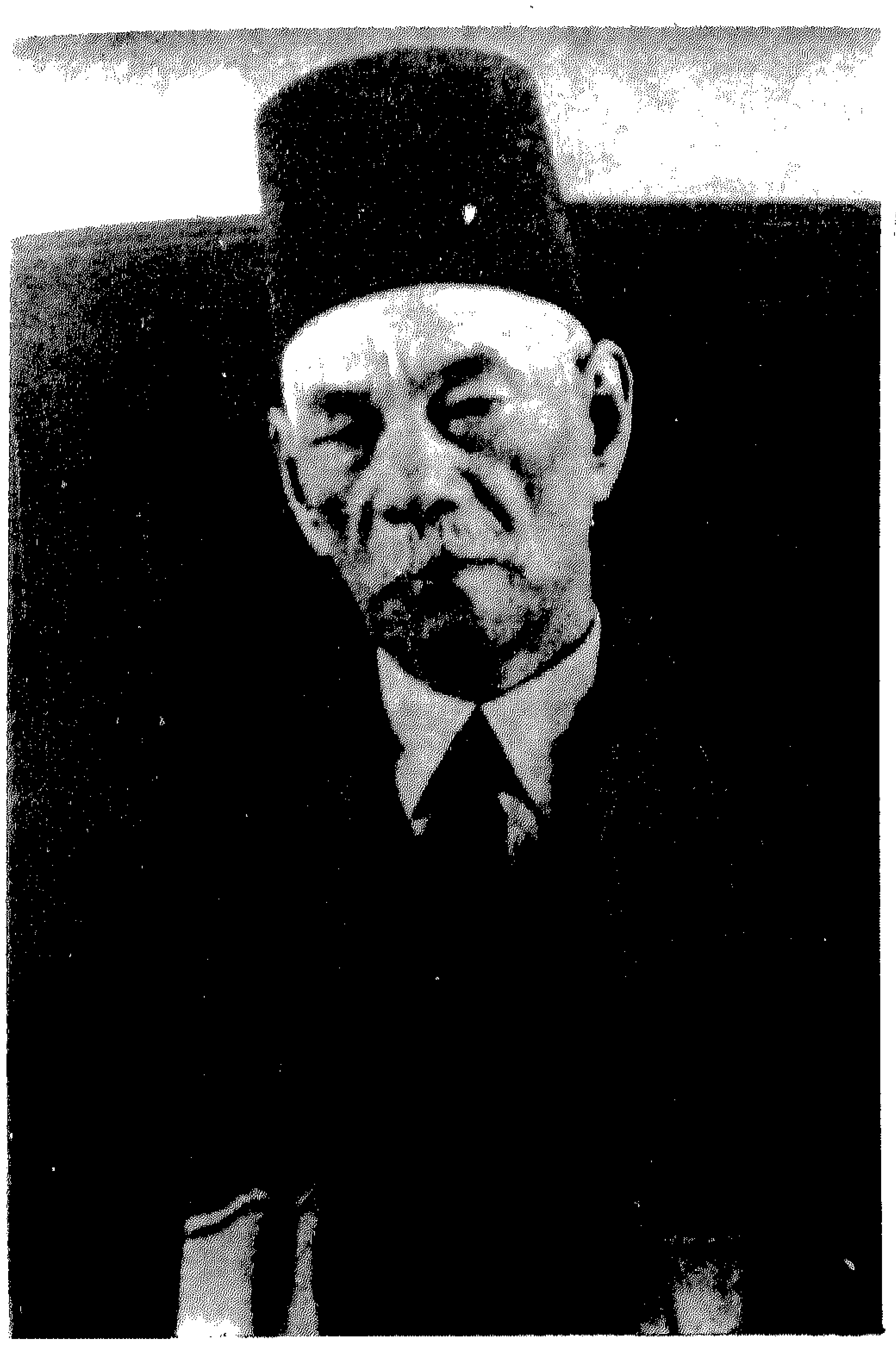
هذا فى الوقت الذى منى فيه عبد الرحمن عزام الملك بتبوؤ زعامة العالم العربى كله وزين له أن انقاذ فلسطين سيتحقق بسهولة خلال ثلاثة اسابيع ، وسيكون الخطوة الأولى التى تقوم بها الجامعة العربية ، تحت زعامة مصر ، لضمان حرية ليبيا أولا ثم بقية شمال افريقيا !

وعلى أية حال فقد اصدر النائب العام فى ٢٨ مارس ١٩٥١ قرارا بحفظ التحقيقات بالنسبة لأفراد الحاشية الملكية جاء فيه أن كل ما اسند اليهم تبين عدم صحته ، كما اعتذر رئيس الوزراء الوفدى - مصطفى النحاس - للملك عما حدث من تحقيقات فى قضية الأسلحة الفاسدة مع بعض افراد الحاشية الملكية . وبعد قيام ثورة ١٩٥٢ اعادت النيابة التحقيق فى القضية وانتهت الى حفظها من جديد ، بعد ان لم تقدم مدنيا أو عسكريا الى المحاكمة ، ورغم كل ذلك فإن هذه القضية قد نجحت فى المساس بهيبة النظام القائم الذى فشل فى مواجهة مشاكل البلاد وإيجاد حلول لها فشله فى الحرب الفلسطينية التى اشترك فيها الجيش المصرى دون أى استعداد .

وفى ختام هذا المقال لابد أن نشيد بجرأة إحسان عبد القدوس ووطنيته فى تناول هذه القضية التى كادت تهدر حياته . ورحمة الله على هذا الكاتب الذى طالما هز ضمائر جيلنا الذى كان متفتحا لقضايا بلده ومستعدا لخوض الصعاب فى سبيل رفعته وتقدمه .

سعد زغلول

١٨٥٩ - ١٩٢٧



● سعد زغلول أبرز الساسة المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين

هـــو أبرز الساسة المصريين خلال النصف الأول من القرن العشرين وزعيم ثورة ١٩١٩ التى انفجرت عقب القبض عليه - وكانت هذه الحادثة وماترتب عليها مفجرا للسخط الذى عم مصر نتيجة للاحتلال البريطانى وتشديد السلطات البريطانية في القبض والنفى والتشريد بعد نشوب الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى ارتفاع الأسعار وإيقاف التصدير والاستيراد وتحديد حريات المواطنين والاستيلاء على محاصيل الفلاحين وإرغام أبنائهم على الخدمة الجبرية لمساعدة المجهود الحربى البريطانى. أما الأعيان والساسة فقد ساءهم تعطيل الحياة النيابية والتضييق على الصحف والتجمعات .

وقد انفجرت الثورة فجأة فى الوقت الذى لم يتوقعها المصريون وغيرهم واشتركت فيها جميع فئات الشعب المصرى الذى قدم كثيرا من الشهداء. وأهم من هذا أن الزخم الثورى الذى انبعث من هذه الثورة قد امتد إلى كثير من المجالات : الأدب والفن واليقظة الشعبية العامة التى لم يسبق لها مثيل .

وتزعم سعد هذه الثورة التى لم يسمع بأنبائها إلا فى مالطة التى نفي فيها دون أن تكون له يد فى انفجارها، بل إنه لم يعد أن يكون رمزا لها - ومنذ نشوب الثورة علت قامة سعد واقترن اسمه

بتاريخها وأحيط بهالة ضخمة خاصة وأن أنصاره قد شكلوا أهم الأحزاب التى عرفتها مصر قبل عام ١٩٥٢ وجعلوا منه بطلا أسطوريا اختلطت فيه الحقيقة بالتمنى والخيال وسخروا اسمه لكسب الجماهير وأقاموا له التماثيل وبنوا له ضريحا ضخما وجعلوا من بعض تواريخ حياته مناسبات قومية، فاليوم الذى قابل فيه هو وزميلاه المندوب السامى البريطانى للتعبير عن أمانى مصر فى الحرية والاستقلال جعل يوم عيد الجهاد ١٣ نوفمبر ويوم وفاته فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ جعل يوم حداد عام يزار فيه قبره وتلقى فيه خطب هو محورها ، وبيته أصبح «بيت الأمة» وزوجته خلع عليها لقب «أم المصريين»، وبعض أنصاره عرفوا باسم «ابن سعد البار» و«خليفة سعد» وغير ذلك . واسرف الكتاب فى وصف مناقبه والدفاع عن مواقفه بالحق وبالباطل ومنهم عباس العقاد الذى ربط بينه وبين الشخصية المصرية جريا وراء منهجه الذى اهتم بالعبقريات وجعل منها محورا للأحداث. ولم توجد دراسة نقدية عنه وعن الدور الذى لعبه فى الحياة السياسية المصرية إلى أن تناول الصديق عبد الخالق لاشين دراسته فى جزءين حول دوره فى السياسة المصرية (القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٥) وهى دراسة التزمت المنهج العلمى وصدمت الكثيرين من حملة المباخر وعباد البطولة .

ولد سعد فى عام ١٨٥٩ فى أسرة من أعيان الريف فى قرية

إبيانة التابعة لمديرية الغربية وتلقى تعليمه الأولى فى كُتّاب القرية ثم التحق بالأزهر فى عام ١٨٧٣ والتف حول جمال الدين الأفغانى هو وكثير من طلبة الأزهر منهم الشيخ محمد عبده ، ولم يستكمل دراسته فى الأزهر بعد أن أصبح محمد عبده رئيسا لتحرير «الوقائع المصرية » وطلب منه أن يساعده فى تحريرها واستمر فى عمله هذا حتى مايو ١٨٨٢ وحمل لقب أفندى وتزيا بالزى الأفرنجى وبعد أن ترك عمله فى الوقائع نقل إلى وظيفة معاون بنظارة الداخلية ، ولكنه فصل من عمله لاشتراكه فى الثورة العرابية فاشتغل بالمحاماة التى لم تكن حينئذ تستلزم الحصول على مؤهل مناسب، ثم قبض عليه فى عام ١٨٨٣ بتهمة الاشتراك فى المؤامرة الوطنية المعروفة بجمعية الانتقام وبقى فى السجن لمدة تزيد على ثلاثة أشهر عاد بعدها إلى الاشتغال بالمحاماة التى أحرز فيها شهرة واسعة بسبب استقامته وفصاحته . وما لبث سعد أن دخل دائرة أصدقاء الإنجليز ومنهم الأميرة نازلى فاضل التى كان لها صالون ارتاده قبل سعد صديقه وأستاذه الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه فى عام ١٨٨٨ وعن طريق هذا الصالون صدر العفو عن سعد الذى التقى فيه بحاكم مصر الفعلى سير إفلن بيرنج (اللوردكرومر فيما بعد) مما جعله يسعى إلى تعلم اللغة الانجليزية . كما يبدو أن زواج سعد من ابنة مصطفى فهمى باشا صديق

الانجليز ورئيس وزراء مصر لأطول فترة حتى ذلك الوقت قد جرى تدبيره فيه، وبذلك حصل سعد فى مقتبل حياته على دعم الإنجليز وأصدقائهم من المصريين، مما أثر فى تفكيره وسلوكه، ولهذا نجده يشرع فى تعلم اللغة الفرنسية المستعملة فى الصالون. وكان سعد قد تقلد وظيفة نائب قاض فى عام ١٨٩٢ ثم حصل على الليسانس فى عام ١٨٩٧ وانضم إلى الجناح السياسى لفئة المنار ومنهم الأزهريون واصحاب المناصب والأدباء والسياسيون والمصلحون الاجتماعيون والمدافعون عن الدين كما اشترك فى الحركة العامة التى سعت الى إنشاء الجامعة المصرية. وكان أميل الى حزب الأمة، حزب الأعيان واصدقاء الإنجليز، الذى كان مناوئا للحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل الذى كان سعد يقول عنه إنه «مجنون ونصاب خداع ومنافق كذاب وليس بشىء» وكان من أوائل من دافعوا عن قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» وهنا نلمس أثر محمد عبده وصالون نازلى فاضل والاتصال بدوائر الانجليز فى تطوير تفكير سعد وتوجهاته - فكرومر اطلق على اتجاه محمد عبده وتلامذته اسم فريق «عقلاء مصر» الذى سعى الى أن يجعل منه عاملا موازنا لتطرف الحزب الوطنى ومصطفى كامل. وفى عام ١٩٠٦ جرى تعيين سعد ناظرا للمعارف، وكان هذا التعيين بمثابة تجربة القصد منها تكوين حكومة من الوطنيين المعتدلين وهو ماصرح به ولفردبلنت صديق العرابيين . وظل سعد يشغل منصبه

هذا حتى عام ١٩٠٦ حين عين ناظرا للحقانية - وفى تلك الأثناء كان من المصريين القلائل الذين اشتركوا فى حفل أقيم بدار الأوبرا لوداع اللورد كرومر. وبرحيل كرومر فقد مصطفى فهمى وسعد زغلول سندا كبيرا، ولو أنه بصفته الرسمية ساند مشروع مد امتياز قناة السويس لأربعين سنة أخرى وأيد الاجراءات الاستثنائية التى فرضتها سلطات الاحتلال للضرب على أيدى الوطنيين وتقييد الحريات والصحافة. وحين أصبح كتشنر مندوبا ساميا بريطانيا فقد منصبه فسعى إلى صهره ليجد له عملا يستوعب طاقاته ولكن المساعى التى بذلت لتعيينه فى مجلس إدارة شركة قناة السويس لم تجد نفعا. ووجد متنفسا فى خوض غمار انتخابات «الجمعية التشريعية» التى أنشأها الاحتلال ولم يوسع اختصاصاتها التمثيلية، فاصبح نائبا عن دائرتين من دوائر القاهرة ثم فاز بمنصب الوكيل المنتخب للجمعية الذى كان له الحق فى أن يحل محل رئيسها حين غيابه. ورغم ميله إلى اتجاهات حزب الأمة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، إلا أنه لم يلتحق بأى من الأحزاب وبذلك توافرت له حرية فى العمل مكنته من التعامل مع مختلف الأطراف وتزعم المعارضة فى الجمعية التشريعية التى شكلت النواة التى قيض لها فيما بعد أن تقوم عليها جماعة «الوفد المصرى» التى سعت بعد انتهاء الحرب الى المطالبة بالاستقلال أو على الأقل إلى تنظيم الحماية .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن سعدا وغيره دهشوا لاندلاع ثورة ١٩١٩ التي لم يتوقعوا حدوثها أو يتصوروا كيفية حدوثها. وبعد الافراج عن المعتقلين فى مالطة لحق بهم مصريون آخرون وتوجه الجميع الى باريس لطرح قضية مصر على مؤتمر الصلح الذى أوصدت في وجوههم جميع أبوابه خاصة بعد اعتراف المنتصرين والمهزومين بالحماية البريطانية التى فرضت على مصر على أثر نشوب الحرب . وكانت الخلافات قد دبت بين قادة «الوفد» الذى تشكل في عام ١٩١٨ ونفى بعض اعضائه الى مالطة ومالبثوا أن حملوا هذه الخلافات إلى باريس. وقد عزى هذا الخلاف إلى أسباب متعددة منها محاولة بعض أعضاء الوفد بث الشائعات المثبطة للهمم عن طريق مراسلاتهم مع أصدقائهم وذويهم فى مصر فى الوقت الذى اختلف فيه أعضاء الوفد حول أسلوب العمل والتصرف فى الأموال التى كانت لدى الوفد بل عزيت هذه الاختلافات الى محاولة التفريق بين مؤسسي الوفد ومن انضموا اليه بعد تأسيسه أو بين المعتدلين والمتطرفين .

وآثر البعض، بعد فشل مساعيهم فى باريس، الرجوع الى مصر ومواجهة مواطنيهم بالفشل. وحين علم سعد باستياء كثير من المواطنين ممن عادوا واساءتهم استقبالهم وباستمرار تعلق الشعب به صرح لمن بقوا معه بأنه «يستحيل على أن أعمل مع المخالفين ولو ترتب على ذلك ضياع القضية» !! فى هذا الوقت الذى بدأ فيه

تصدع الجبهة المصرية رأت انجلترا أن الوقت قد حان لتحقيق «استمرار الحماية على أساس وطيد مشروع» وقررت إرسال بعثة إلى مصر لتحقيق أسباب سخط المصريين رأسها لورد ملنر وزير المستعمرات البريطاني. وبقيت هذه البعثة في مصر من نوفمبر ١٩١٩ حتى مارس ١٩٢٠. وقد قوبل وجودها بمظاهرات الاحتجاج عليها في القاهرة والإسكندرية وفاضت الصحف بسيل من الرسائل التي تضمنت الاحتجاج عليها ومقاطعتها. وعمت أحياء القاهرة مظاهرات صاخبة هتفت بالاستقلال وسقوط اللجنة - بل عمت المظاهرات أرجاء القطر واتسمت بطابع العنف مما أدى الى سقوط مزيد من الضحايا .

وقبل الوفد الذى فشل في باريس الاتصال بلجنة ملنر التي مالت الى ضرورة إلغاء الحماية واستبدالها بمعاهدة تقبل فيها مصر، في مقابل تعهد بريطانيا بالدفاع عن سلامتها واستقلالها قبل استرشاد مصر بانجلترا في علاقاتها الخارجية وأن تعطيها حقوقا معينة في الأراضي المصرية تساعدها على حماية امبراطوريتها وغير ذلك من الحقوق فيما يتعلق بالتشريع والإدارة المصرية بخصوص الأجانب. وأرسلت اللجنة من يتصل بالوفد في باريس ويدعوه الى لندن للمفاوضة التي قام بها عدلي يكن بعد أن قبل تأليف وزارة وصرح بأنه سيدعو الوفد - برئاسة سعد زغلول -

للاشتراك فى المحادثات وبأن الأمة سيكون لها على لسان ممثليها فى الجمعية الوطنية - القول الفصل فى هذا الاتفاق وأن الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير الدستور . وعرض عدلى على سعد الاشتراك فى المفاوضات فجاء رد هذا الأخير - وكان لا يزال فى باريس - أنه سيحضر إلى مصر . وفى مصر ألقى سعد القفاز وهاجم عدلى وإخوانه ووصفهم بأنهم «برادع الانجليز» وأنهم إذا ما تفاوضوا مع الانجليز فإن معنى ذلك أن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» وراح بعض أنصاره يتفوهون بأن الاحتلال على يده خير من الاستقلال على يد عدلى. والسبب فى هذا الخلاف أن «الوفد» كان يحمل فى طياته تناقضات صارخة بين الطبقات والفئات التى اشتركت فى ثورة ١٩١٩. ولما كان سعد ألصق بالجماهير وبالتنظيمات السرية والعلنية التى ارتبطت بالوفد فإنه آمن إيمانا شديدا بالتوكيل الذى أعطته الأمة للوفد واعتبر نفسه زعيما للأمة وفسر كل شىء فى ضوء هذه الزعامة حتى لو خرج من الوفد جميع أعضائه ! وظلت معركة المهاترة محتدمه بين سعد ووزارة عدلى قرابة شهرين انقسمت خلالهما الأمة إلى سعديين وعدليين. وكسب سعد الجولة وإن كان قد أسرف فى الخصومة ولم يتحرز فى رد خصومه بشتى الاتهامات .

ولتهيئة الجو للتسوية تم ابعاده عن مصر الى عدن ثم إلى سيشل ثم إلى جبل طارق. وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ صدر تصريح

بريطاني تضمن الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وألغى الحماية ولو أن بريطانيا احتفظت لنفسها بصورة مطلقة بأمور معينة حتى يحين وقت الاتفاق عليها خلال مفاوضات جديدة. وبعد التصحيح تألفت لجنة لوضع الدستور ندد بها سعد لأنه كان يرى أن وضع الدستور لابد أن يتم على يد لجنة منتخبة لا معينة حتى لا يكون الدستور منحة يسهل التلاعب بها. ورغم ذلك فقد قرر دخول الانتخابات طبقا لدستور ١٩٢٣ وأحرز وهو وأنصاره انتصارا لم يتوقعه خصومه وتألفت «وزارة الشعب» برئاسته وهي الوزارة التي تميزت بضيقه بالمعارضة واضطهاده لخصومه مصرحا بأنه كان يود أن تكون وزارته «زغلولية لحما ودما» ! وبينما الأمور في أخذ ورد قتل السير لي ستاك القائد العام للجيش المصري وحاكم السودان وقدم المندوب السامي إنذاراً لسعد قبل بعض شروطه ثم تقدم باستقالته للملك فؤاد الذي شكل وزارة أقلية برئاسة أحمد باشا زيور الذي حكم بالاتفاق مع السراي وحل البرلمان وأوقف الدستور ونكل بخصومه تنكيلا شديدا. وفي الانتخابات التالية فاز سعد وأنصاره ولو أن المندوب السامي حال دون ترؤس سعد للوزارة بحجة أنه مسئول عن مقتل السردار نتيجة لكون وزارته قد اثارت الهيجان ضد الانجليز. وتم الاتفاق على أن يرأس سعد مجلس النواب وأن يكون عدلي رئيسا لوزارة ائتلافية اشترك فيها الوفديون والأحرار الدستوريون. وقبل أن يتوفى سعد سعى إلى التقريب بين

الأحزاب ودمجها كلها ولكن بعد أن استشرى الانقسام الذى لعب هو دورا كبيرا فى التسيب فيه وتشكلت مصالح حالت دون التوفيق بين المتخاصمين على السلطة .

والذى أحب أن أؤكده قبل الانتهاء من كتابة هذا المقال هو أن سعد زغلول كان من أهم الشخصيات السياسية فى مصر المعاصرة وكان بإمكانه أن يستغل الشعبية التى أحاطت به فى إرساء تقاليد سياسية كان يمكن أن تقوم عليها ديمقراطية سليمة تستطيع أن تتصدى للمشاكل التى واجهتها البلاد. وهو المسئول عن تفتت القوى السياسية وانصراف الساسة إلى التطاحن والخصومات مما أضر بالبلاد ضررا بليغا .

مصطفى النحـاس

١٨٧٩ -١٩٦٥



● مصطفى النحاس يخطب في الوفد المصرى الكبير بأرض سراى الجزيرة يوم ١٩٣٨/٧/١

هــو أحد الزعامات الرئيسية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر فقد رأس حزب الوفد ، حزب الأغلبية البرلمانية ، طيلة ربع قرن من الزمان أمتد فيما بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٥٢ تولى خلاله رئاسة الوزارة خمس مرات وأقيل فى كل مرة . ولقد ظل طيلة حياته السياسية مخلصا للتوجيهات التى سار عليها الحزب منذ أيام سعد زغلول : السعى إلى تحقيق استقلال مصر التام والدفاع عن الديمقراطية فى مواجهة أو توقراطية القصر ودسائس الإنجليز ودعم الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . ولكن مشكلة النحاس لدى توليه زعامة الحزب تكمن فى أنه ، رغم إفادته من الشعبية التى أحاطت بالحزب وزعيمه الأول ، لم تكن له الشخصية الطاغية والمهابة اللتان كانتا من سمات سعد زغلول مما ساعد على الانشقاقات التى حدثت فى صفوف الحزب خلال الأعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٧ و ١٩٤٢ ولو أنه كان يعالج هذه الانشقاقات بضم أعضاء جدد . ولقد وصف السير مايلز لامبسون (المندوب السامى ثم السفير البريطانى فى مصر) النحاس عقب أول لقاء جرى بينهما بأنه أغرب شخص فى مصر وما لبث بعد ذلك

أن وصفه بأنه عصبي وغير متوازن ويفتقد المقدرة الإدارية والخبرة وبأنه مختال سيئ السلوك وهزلي كرجل دولة وإن يكن بطلا شعبيا باعتباره مؤيدا متعصبا للزغلولية على طول الخط . ورغم ذلك فقد اشتهر النحاس بطيبة قلبه وبنزاهته ووطنيته التى لا تتزحزح . كما كان خطيبا عاطفيا بليغا له من الصفات ما يجذب إليه الجماهير والأفراد دون مشقة - هذا إلى ورعه واستقامة سلوكه ،

وقد انتمى النحاس إلى الطبقة الوسطى الدنيا التي شكلت الشريحة الأساسية لقواعد حزب الوفد ، وبعد أن أتم دراسته الحقوقية التحق بسلك القضاء ومال إلى مبادئ الحزب الوطني (حزب مصطفي كامل ومحمد فريد) بعض الوقت ، وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان أحد أعضاء الوفد الذى تشكل للمطالبة باستقلال مصر عن بريطانيا والتوجه من أجل ذلك إلى العاصمة الفرنسية حيث انعقد مؤتمر الصلح ، وبعد رفض بريطانيا السماح لأعضاء الوفد بالسفر وقبضها علي سعد زغلول ورفاقه اندلعت ثورة ١٩١٩ التي اشترك فيها النحاس وما لبث أن أصبح من أبرز أنصار سعد يتعلق بتنظيم الطلبة للقيام بالعمل السياسى . وفى عام ١٩٢١ نفي مع سعد إلى سيشل ثم عاد إلى مصر فى عام ١٩٢٣ بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى منح مصر استقلالا مشروطا . وحين أجريت

الانتخابات البرلمانية طبقا لدستور ١٩٢٣ رشح النحاس نفسه عن دائرة سمنود مسقط رأسه - وفاز في الانتخابات ثم تولى وزارة المواصلات في وزارة الشعب التي رأسها سعد زغلول (يناير - نوفمبر ١٩٢٤) كما فاز من جديد في الانتخابات التي أجريت في عام ١٩٢٦ ، ورغم أن حزب الوفد كان يرغب في أن يمثله النحاس في الوزارة الائتلافية التي تشكلت في يونية ١٩٢٦ فإن المندوب السامي البريطاني اعترض على تعيينه ، فانتخب نائبا لرئيس مجلس النواب سعد زغلول الذي اعترض المندوب السامي على تعيينه رئيسا للوزراء على زعم مسئوليته عن مقتل السردار في عام ١٩٢٤ .

وانتخب النحاس بعد وفاة سعد زغلول في أغسطس ١٩٢٧ زعيما لحزب الوفد بعد أن جرت منافسة بينه وبين فتح الله بركات قريب سعد على الفوز بهذا المنصب . ومن المحتمل أنه كان لمحمود فهمي النقراشي وصفية زغلول - أرملة سعد - دور في هذا الاختيار : فقد نظم النقراشي تظاهرة أمام المكان الذي جرى فيه الاقتراع وأيد اختيار النحاس ، في حين أن من المحتمل أن صفية قد انحازت إلى النحاس الذي سمح لها بأن يكون لها رأي في شئون الحزب وهو مالم يكن فتح الله بركات

على استعداد للتسليم به . وعلى أية حال فقد كان النحاس هو الشخص الثاني في الوفد بعد سعد زغلول وكان قد اكتسب شهرة بسـبب نزاهته ونظافة يده - ورغم أنه كان على صـلة وثيقة بعـدد من أكثر الوفدين تطـرفا فليس معنى هذا أنه كان ألعوبة في أيديهـم .

وتولى النحاس في مارس ١٩٢٨ رئاسة الوزارة لفترة قصيرة مالبث الملك فؤاد أن أقاله بعدها . وخلال حكومة محمد محمود « الحديدية » أمكن للنحاس أن يحافظ على ولاء حزب الوفد برغم مناوأة الجناح المعتدل له . وفي أوائل عام ١٩٣٠ تولى رئاسة الوزارة من جديد وأجرى مفاوضات مع الإنجليز مالبثت أن فشلت على صخرة السودان وحينئذ قال النحاس قولته الشمهورة : خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز ! ثم أقيل النحاس للمرة الثانية ليفسح المجال لوزارة إسماعيل صدقى التي ألغت دستور ١٩٢٣ ، وحينئذ اشترك الوفد مع حزب الأحرار الدستوريين في التصدى لوزارة صدقى بكل الوسائل المتاحة إلى أن اختفى صدقى عن المسرح في عام ١٩٣٣ وحينئذ نشط النحاس وحزبه في المطالبة بإعادة دستور ١٩٢٣ وهو ما تم في أواخر عام ١٩٣٥ . وفي العام التالى حصل الوفد على أغلبية كبيرة في الانتخابات وترأس النحاس

الجبهة الوطنية التى ضمت كل الأحزاب وتفاوضت مع بريطانيا حول عقد معاهدة بين الطرفين تنص علي الاستقلال وتحدد علاقة مصر ببريطانيا .

فقد أجريت المفاوضات فى الوقت الذى لاحت فيه بوادر الحرب العالمية الثانية وبرز التهديد الفاشى لحدود مصر الغربية وللسودان بعد اعتداء موسولينى على الحبشة . وبالفعل تم التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ التى كرست الاحتلال وسجلت نقطة انتقال حاسمة فى تاريخ مصر : فقد أقنع الزعماء الوفديون الشعب بأنهم حصلوا على « الشرف والاستقلال » مما أدى إلى انحسار المد الوطنى حين توهم المصريون أنهم قد حصلوا على الاستقلال فانصرفوا وصرفتهم الأحزاب إلى الصراع المرتبط بتقلبات الحكم فى حين قنعت السلطات البريطانية بالتدخل من وراء ستار مما أدى إلى احتدام النضال السياسى بين الوفد والقصر الذى كان يود أن يملك وأن يحكم .

ويذكر كيلرن سفير بريطانيا بعد المعاهدة - وكان قبل ذلك مندوبا ساميا - أن النحاس وزملاءه قد انشغلوا بعد المعاهدة إلى حد كبير بالأحاديث والمناسبات الاجتماعية وأنه كرس الوقت القليل الذى أمكنه قضاؤه فى مكتبه لإرضاء مطامع أتباعه الذين عينهم فى كثير من المناصب الرئيسية مما أتاح للملك فاروق فرصة لإقالة الوزارة ، وظل النحاس وحزبه فى

صفوف المعارضة حتى اقتراب القوات الألمانية من الاسكندرية في أوائل عام ١٩٤٢ ، وكانت إيطاليا قد انحازت إلى ألمانيا بعد سقوط فرنسا وسمحت لها بنقل بعض قواتها إلى ليبيا التي كانت حينئذ مستعمرة إيطالية وقد أدت هذه التطورات إلى نشوب أزمة سياسية في مصر كانت من مقدمات حادثة ٤ فبراير الشهيرة . فإزاء الخطر الذى كان يحيط ببريطانيا وامبراطوريتها نتيجة للانتصارات التى احرزتها ألمانيا منذ نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ ، أصرت الدوائر البريطانية على أن يتولى النحاس - زعيم الجبهة التي وقعت معاهدة ١٩٣٦ - رئاسة الوزارة ، على اعتبار أن بإمكانه أن يواجه القصر - الذى كانت له صلة بالقوى الفاشية - ويمسك بزمام الحكومة والبرلمان ويرضى الجماهير ويحشدها لتأييد المعاهدة وجهود الحلفاء الحربية . ولمواجهة الضغط البريطاني الهادف إلى تولي النحاس للحكم على كره من الملك فاروق سعت دوائر القصر إلى تشكيل وزارة إئتلافية يرأسها النحاس وهي تعلم علم اليقين مدى كره النحاس لهذا النوع من الوزارات وحين رفض النحاس عروض القصر بهذا الصدد حوصر قصر عابدين بالدبابات البريطانية وخير الملك ما بين قبول النحاس رئيسا للوزارة وبين تنازله عن العرش ، ورضخ الملك فاروق أمام

التهديدات البريطانية فكلف النحاس بتشكيل الوزارة . ولقد أدى قبول النحاس للحكم بهذا الشكل وفى مثل هذه الظروف إلى تعرضه لكثير من الاتهامات . بل لقد اعتبر بعض الضباط هذه الحادثة مساسا بكرامة البلاد وسيادتها مما استتبع إرهاصات التشكيلات السياسية داخل الجيش . ولا يزال تقويم حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ مثارا للجدل حتى الوقت الحاضر : فالمتعاطفون مع الوفد يعتبرون قبول النحاس للحكم فى ذلك الوقت انحيازا للديمقراطية ضد الفاشية وإنقاذا للبلاد من فرض السيطرة البريطانية المباشرة عليها ، فى حين اعتبره خصومه تآمرا على استقلال البلاد واستسلاما للمستعمر .

ولكى تأخذ دوائر القصر ثآرها من الاذلال الذى وجه إلى شخص الملك ، فإنها عملت على استقطاب مكرم عبيد الرجل الثانى فى الوفد أملا فى أن يؤدى ذلك إلى تصدع حزب الأغلبية . وكان مكرم قد انتخب سكرتيرا عاما للوفد فى عام ١٩٢٧ فشغل المكان الذى سبق للنحاس أن شغله ، وكان مكرم والنحاس وثيقى الصلة بحيث كان كل منهما يكمل الآخر ، فلقد كان مكرم رفيق النحاس ومستشاره الدائم - فلقد كانا ينتميان إلى جيل واحد ويشتغلان بالمحاماة ، كما اشتركا فى المنفى وفى وجهات النظر بحيث شكلا معا جبهة سياسية قوية . وكان

مكرم قد استغل نواحى القصور فى شخصية النحاس لكى يعزز مكانته هو خاصة وأنه كان خطيبا بارعا بإمكانه التأثير فى الجماهير بالإضافة إلى مهارتة كمفاوض يجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية إجادته لإصطناع المنطق السياسى الأوربى نتيجة لدراستة فى انجلترا وفرنسا وزيارته لعاصمتيهما فى مهمات سياسية وإعلامية . وفى المقابل كان النحاس بسيطا صريحا وطيب القلب ولم يكن مفاوضا ماهرا بإمكانه التعامل مع العقلية الأوربيـة . وبمرور الزمن فرض مكرم نفسه على النحاس وأصبح المهندس الحقيقى لقرارات الوفد . وليس معنى هذا أننا نجارى من يذهبون إلى أن مكرم كان يسيطر على النحاس ، إذ لو كان النحاس ضعيف الشخصية لما أحرز ثقة سعد زغلول وتدرج فى سلم حزب الوفد- ولو أن هذا التفسير وحده لا يكفى، إذ إن كثيراً من الشخصيات المتسلطة لا تحتمل وجود شخصيات قوية بجوارها بل تفضل أن يكون حولها إمعات .

وإلى جانب مؤامرات القصر لفصل قطبى الوفد كل منهما عن الآخر دخلت إلى الساحة السيدة زينب الوكيل حرم النحاس التى يقال إن لمكرم يدا فى زواجها . ولما كان فارق السن كبيرا بين زعيم الوفد وزوجته الطموح (فقد تزوجها قبل يومين من عيد ميلاده الخمسين فى الوقت الذى كان فيه عمرها ٢٣ سنة) فإنها

شاعت أن تستغل فرصة وصول زوجها إلى الحكم لكى تثرى وتثرى أقاربها - فقيل إنها كانت تتدخل بصورة مباشرة لدى الوزراء لتعيين أو ترقية أقربائها الذين رفض مكرم منحهم الامتيازات والاستثناءات فى أذونات للاستيراد والتصدير فى الوقت الذى أقر فيه النحاس ووزراؤه الترقيات الاستثنائية للوفديين الذين بقوا خارج الحكم منذ عام ١٩٣٧ بعد أن رفضها مكرم الذى يبدو أنه قرر الانفصال عن الوفد وسحب أكبر عدد من الأعضاء معه ، إن لم يكن قد داعبه الأمل فى تولى رئاسة الوزارة بعد أن يزعزع مركز النحاس مستعينا فى خططه بما لمسه من فساد الوزارة . واعتبر النحاس نشاط مكرم تهديدا لسلطته فى الحزب ، خاصة وقد كان لمكرم أتباع كثيرون خارج وداخل الحزب ، فقد كان يستند إلى تأييد العمال وشباب الحزب ، ولما كان يعتقد أن النحاس لا يمكنه الاستغناء عنه ، فقد مضى فى خصومته إلى آخر الشوط مما استتبع طرده من الوزارة فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ثم فصله من الحزب بعد وقت قصير . ثم رفع مكرم شعار «نزاهة الحكم» ضد فساد الوفد وألف «الكتاب الأسود» الذى روى فيه أخبار فضائح الاستثناءات والمحسوبية لصالح أقارب النحاس وأقارب وزرائه ورد النحاس على ذلك بطرد مكرم وأنصاره من عضوية مجلس

النواب وحينئذ أثبت مكرم أن قوة خصومته لا تقل عن قوة صداقته ، فمضى فى تحديه لصديقه السابق وبخاصة بعد إنشائه جريدة «الكتلة» وحزب «الكتلة الوفدية» وكيله الاتهامات للنحاس وحزبه بصورة تكاد تكون يومية . ولكنه مضى فى خصومته إلى الحد غير المعقول وهو لا يدرى أنه أصبح ألعوبة فى يد القصر . وما لبث أن ندم بعد ذلك وحاول بشتى الطرق أن يسترجع مكانته السابقة ولو أن النحاس لم يصفح عنه أبدا .

وبعد أن خفت القيود المفروضة على مصر نتيجة للحرب العالمية وذلك بعد أن تحولت مجريات الحرب بصفة أكيدة إلى جانب الحلفاء سمح الإنجليز للملك فاروق بإقالة النحاس وذلك فى أكتوبر ١٩٤٤ وعاد الوفد إلى المعارضة من جديد مصرا فى خلال المفاوضات التى جرت بين مصر وبريطانيا فى أعقاب الحرب على أن يكون هو على رأس المفاوضين ، وحين قدم النقراشى شكوى مصر إلى مجلس الأمن فى عام ١٩٤٧ أبرق النحاس إلى المنظمة الدولية ليفيدها بأن النقراشى لا يمثل الشعب المصرى - بل لقد قيل فيما بعد إن المفاوضات التى أجراها النحاس من أجل إنشاء الجامعة العربية قبيل إقالته كانت تستهدف سحب البساط من تحت أقدام الملك فاروق الذى كان يتطلع إلى الخلافة وزعامة العالمين العربى والإسلامى .

وسعى فاروق فى تلك الأثناء إلى استبعاد الوفد عن الحكم إلى أجل غير مسمى ، فساند الحكومات الائتلافية التى شكلتها «أحزاب الأقلية» بل لقد فكر فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ أن يقيم دكتاتورية عسكرية يترأسها هو شخصيا بحيث يسهل عليه أن يتوصل إلى عقد اتفاقية مع بريطانيا والدول الغربية الأخرى التى أسلمت قيادتها للولايات المتحدة الأمريكية بالصورة التى ترضى الرأى العام المصرى وتعزز مكانته ولكن الدوائر البريطانية لم تسلم بخطط الملك وأصرت على أن تجرى المفاوضات فى هذه المرة مع حكومة ذات قاعدة شعبية تستطيع أن تقنع الشعب بما يمكن التوصل إليه . وهكذا جاء الوفد إلى الحكم للمرة الأخيرة فى يناير ١٩٥٠ وسعى دون إبطاء إلى التوصل إلى حل للقضية المصرية مهددا بريطانيا بأنه سيقدم على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ إذا استحال التوصل إلى حل مرضٍ ، وهو ماتم فى ١٥ أكتوبر حين ألغت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦ من طرف واحد ولكى تحرج مركز البريطانيين فإنها أمرت العمال المصريين العاملين فى الثكنات البريطانية بترك أعمالهم وسمحت للفدائيين بالنشاط فى المناطق التى تقوم فيها المعسكرات البريطانية . ولما كانت الحكومة البريطانية قد عولت على أن تتخذ موقفا صلبا فإنها واجهت الفدائيين وأمرت قوة

البوليس المصرية فى الإسماعيلية بتسليم سلاحها وإلا تعرضت للقصف (٢٥ يناير ١٩٥٢) واستشهد كثير من الجنود المصريين الذين أصدرت إليهم الوزارة أوامرها بالصمود إلى آخر طلقة رغم أن أسلحتهم كانت لا تمكنهم من مواجهة القوات البريطانية .

وكان حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى القاهرة نتيجة لمجزرة الإسماعيلية - وقد استغله الملك فاروق فى الإطاحة بحكومة الوفد للمرة الأخيرة بعد أن حدا بها الارتجال إلى الغاء معاهدة ١٩٣٦ دون اتخاذ أى استعدادات لمواجهة الموقف وإصدارها الأوامر إلى قوة البوليس العاملة فى الإسماعيلية بالمقاومة إلى آخر طلقة. فمثل هذه الأعمال الارتجالية لم تكن تستهدف سوى استعادة شعبية حزب الوفد التى تزعزت منذ عام ١٩٤٢ بوجه خاص نتيجة لما آثاره حادث ٤ فبراير من ردود فعل قوية .

ودفع النحاس وحزبه ثمن هذا الارتجال - فقد كانت أحداث أواخر عام ١٩٥١ وأوائل ١٩٥٢ بداية النهاية بالنسبة إلى « العهد القديم » الذى بدا وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . وحين قامت ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ وخلعت الملك فاروق كان النحاس يستشفى فى فرنسا ، فبادر بالعودة إلى القاهرة وهو يمنى النفس بتسلم الحكم بصفته صاحب الأغلبية النيابية فى البرلمان المعطل منذ حريق القاهرة ، إلا أن « الضباط الأحرار »

لم يمكنوه من تحقيق حلمه ، بل قاموا بإلغاء الأحزاب جميعا وإلغاء دستور ١٩٢٣ ، منددين بفساد الحياة النيابية فى البلاد ومعولين على الاستمرار فى تحمل مسئوليات الحكم . وظل النحاس منعزلا عن الحياة العامة ، ولو أنه يسجل له موقفه الوطنى خلال عدوان ١٩٥٦ الثلاثى حين رشحته الدوائر البريطانية لتولى الحكم فى حالة القضاء على النظام الجديد فى مصر . وحين توفى فى أغسطس عام ١٩٦٥ خرجت جماهير القاهرة لتودعه الوداع الأخير برغم القيود التى كانت مفروضة آنذاك على التجمعات العامة .

وقبل أن نختتم هذا المقال تجدر الإشارة إلى أن النحاس لم يتول الحكم سوى فترات قصيرة برغم نجاح حزبه فى كل انتخابات حرة يخوضها ، مما جعله فى أواخر الخمسينات أميل إلى مهادنة القصر ولو أن ذلك قد أحدث رد فعل شديدا من جانب القوى الصاعدة فى الحزب التى عرفت باسم « شباب الوفد » . على أننا لابد أن نضع نصب أعيينا أنه لم يكن من السهل أن تستقيم الحياة النيابية فى مصر وبريطانيا تستبقى قواتها على أراضيها وتنفذ سياستها بتطبيق أسلوب «فرق تسد» فهى طورا مع حزب الأغلبية وطورا إلى جانب القصر ، مما أصاب الحياة السياسية فى مصر بالشلل . ورغم ما

سجلناه من مآخذ على النحاس وممارسته « للحكم فإنه وفر للبلاد زعامة كان لها وزنها فى سياسة البلاد ، وبالتالى فلابد أن يحتل المكانة اللائقة به فى سجل الزعماء الوطنيين الذين كافحوا في سبيل الاستقلال والديمقراطية . ولكن ليس معنى ذلك أننا نغض الطرف عن أخطائه - إذ ليس الزعماء معصومين كما أنهم ليسوا فوق مستوى المحاسبة من جانب الكتاب والمؤرخين الذين يتوخون الموضوعية بالاشارة إلى كل من السلبيات والإيجابيات ولا يقبلون بالنظرة الواحدة إلى الأشياء والأشخاص ، بل يصطنعون الحكم الشامل على الأحداث ومن شاركوا فيها دون نظرة مسبقة ناتجة عن الالتزام الضيق . فالشعوب الناضجة تنتقد زعماءها فى حياتهم وفى مماتهم فى الوقت الذى تسجل فيه مآثرهم وذلك دون انزلاق إلى مستوى عبادة الأصنام وتأليه البشر الذين كتب عليهم الفناء . وسأكرر هذه المقولة حتى يجئ الوقت الذى تعم فيه النظرة الإنسانية والعقلانية أحكامنا التاريخية دون أن نحسب على الكاتب رأيا لا يخالف رأينا أو نلتقط له فلتة قلم أو زلة لسان فنبنى عليها مواقف قد لا تستند إلى أساس .

اسماعيل صدقى

١٨٧٥ ـ ١٩٥٠



● اسماعيل صدقى

ينتمى إسماعيل صدقى إلى الجيل العملاق الذى ظهر فى مصر دفعة واحدة خلال النصف الأول من القرن العشرين . ولم يقتصر نشاط هذا الجيل وإبداعه على مجال واحد . بل لقد تنوعت المواهب فى كل ميدان سواء فى الناحية السياسية أو الثقافية أو الفنية أو القانونية أو الاقتصادية .. إلى غير ذلك .

وفى المجال السياسى يؤكد مؤرخنا الراحل محمد شفيق غربال أن من برزوا فى أعقاب ثورة ١٩١٩ من الكثرة بحيث إننا قد لا نجد لهم نظيرا فى أى بلد آخر . حقيقة لقد اختلفوا وتصارعوا أو ائتلفوا، ولكن معظمهم كانوا مخلصين فى الكفاح من أجل الاستقلال والتخلص من النفوذ الأجنبى . ومن هؤلاء اسماعيل صدقى الذى غمط حقه ولم تقيّم أعماله فى إطارها الحقيقى ، ومن ثم ما اشتهر به من حيث كونه «عدو الشعب» وذلك لواقعيته ومقته للحزبية ، وصراحته التى كثيرا ما كانت تصدم الرأى العام الذى تملقه الساسة العاملون على الساحة جريا وراء تصفيق الجماهير تمهيدا للوصول إلى الحكم . فقد وضع نصب عينيه تقوية السلطة المركزية والمواءمة بين المؤسسات الدستورية التى أقيمت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ وبين أوضاع البلاد التى لم يراعها دستور ١٩٢٣ الذى قال عنه عبد العزيز فهمى إنه ثوب فضفاض . وأهم من هذا أن

المستعمر البريطاني كان كثير التدخل في شئون البلاد في الوقت الذي كان فيه الملك فؤاد يود أن يملك وأن يحكم في حين كان حزب الوفد يحرز الأغلبية البرلمانية في كل انتخابات حرة . ولعل أهم الأدوار التي قام بها صدقي في تاريخ مصر الحديث يتمثل في رئاسته لمجلس الوزراء المصري فيما بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٣ وهي أطول فترة أمضاها رئيس وزراء مصري في الحكم في العهد الملكي . ولقد أطلق عليه خصومه لقب «عدو الشعب» الذي سبق أن أشرنا اليه ولصق به فترة طويلة : ولو أن المعجبين به قد خلعوا عليه لقب «رب الكفاءات» بسبب تنوع مجالات خبراته ونشاطاته : فقد كان محيطا بالتيارات العالمية والمحلية كما كان واقعياً متمرساً بشئون الإدارة والاقتصاد والمال .. ومن ثم كان وصف الدوائر البريطانية له على الوجه التالي : «لا شك في ذكائه الوقاد وهو على كفاءة عظيمة وبخاصة في النواحي الادارية بالاضافة الى دأبه وشجاعته وإن كان أميل إلى التآمر وعدم توخي الصدق فيما يقول وذلك رغم التزامه بالوفاء بوعوده» .. «وذهنه صاف ومتوقد بشكل يدعو إلى الالتفات، وهو المصري الوحيد الذي تمثل المحادثة معه شيئاً شائقاً، وأثناء توليه رئاسة مجلس الوزراء أثبت كفاءة لا يضاهيه فيها أحد من الساسة المصريين (إذ كان يعمل أحياناً لمدة ١٨ساعة يومياً) .

ولد صدقى فى الاسكندرية فى أسرة ميسورة الحال وفدت إلى المدينة من إحدى قرى محافظة الغربية وتولى بعض أفرادها وظائف حكومية هامة : فقد كان جده محمد سيد أحمد باشا رئيسا لديوان والى مصر، كما كان والده أحمد شكرى محافظاً للقاهرة فوكيلاً لوزارة الداخلية فمديراً لإدارة السودان . وكان أحمد شكرى اداريا نشطاً وطموحاً، وقد عاد من بعثته إلى فرنسا شديد الحماسة للتحديث والانفتاح على الحضارة الغربية ، أما والدة صدقى فكانت ناظرة لإحدى المدارس وفى طليعة المطالبات بحقوق المرأة - ولما كان إسماعيل أصغر أبنائها فقد كانت أميل إلى استبقائه معها فى المنزل حيث كانت تتولى تُلقينه مما أدى إلى ولعه بالقراءة وجنوحه إلى الخيال وتأمله أوضاع مصر فى ظل الاحتلال مما أورثه ميلاً فطرياً إلى الاقتصاد والشئون المالية والتاريخ . ولما كان أبوه معجباً بالثقافة الفرنسية فقد ألحقه بمدرسة الفرير حيث أتقن اللغة الفرنسية ولفتت كفاءته وذكاؤه انتباه نظار مدرسته مما أورثه ثقة بالنفس وشعوراً بالتفوق . ثم التحق بالمدرسة الخديوية حيث تحسنت لغته العربية وأبدى اتجاهات وطنية، وفى عام ١٨٩٤ حصل على ليسانس الحقوق وعين كاتباً بالنيابة ثم سكرتيراً إدارياً لبلدية الاسكندرية ورئيساً لقسم القضايا بها وفى عام ١٩٠٨ عين سكرتيراً عاماً لوزارة الداخلية، ثم ما لبث أن أصبح وكيلاً لهذه

الوزارة . وفى عام ١٩١٤ عين وزيراً للزراعة ووضع مشروعاً لإنشاء الجمعيات التعاونية وأنشأ المجلس الفنى الأعلى للزراعة، ثم عين وزيراً للأوقاف ، وفى مايو ١٩١٥ أعفى من منصبه على أثر فضيحة أخلاقية أدت إلى انتحار إحدى الفتيات، وكان ذلك سبباً فى التردد فى ضمه إلى الوفد الذى تشكل بعد انتهاء الحرب للمطالبة بالاستقلال وإن يكن قد عين رئيساً للجنة اهتمت بدراسة أثر الحرب على الاقتصاد المصرى، مما جعله يهتم بالجانب الاقتصادى من المسألة المصرية . ولما كانت هذه اللجنة قد حصلت على معلومات خاصة بالبناء الاقتصادى - الاجتماعى للمجتمع المصرى وبحثت نواحى ضعفه وإمكانياته ووضعت تصوراً اقتصادياً بناء فقد اتجه سعد زغلول إلى ضمه إلى الوفد برغم معارضة الكثيرين . ثم اشترك صدقى فى النشاط الوطنى ضد الانجليز مما أدى إلى نفيه مع سعد زغلول وحمد الباسل ومحمد محمود إلى مالطة فى مارس ١٩١٩ . وبعد اطلاق سراح سعد ورفاقه رافق صدقى الوفد إلى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح وتولى سكرتارية الوفد ، ورغم القيود التى فرضها الانجليز على تحركات الوفد المصرى فإن إتقان صدقى للغة الفرنسية وتعرفه على الأوساط الأوربية ومواهبه المتعددة جعلته يحرز بعض النجاح فى خدمة القضية الوطنية . ولكنه سرعان ما

تبين أن مطالب مصر لن تنجح فى إطار دولى ومن ثم كان اتجاهه إلى معارضة سعد الذى طرده من الوفد فعاد إلى مصر وتبعه بعض أعضاء الوفد ليستأنف نشاطه الوطنى بالشكل الذى ارتاه : فهو - كما قال عن نفسه فى مذكراته - لا يميل إلى تحكيم العواطف بل إلى الواقع المفيذ والى الوصول إلى النتائج، خاصة وقد استاء من خداع رجال الحركة الوطنية لأنفسهم ومما اعتبره «بلاهة» لدى المصريين . وقد أدى نشاطه الوطنى إلى ابعاده عن العاصمة إلى قريته الغريب ولو أن ذلك لم يغير رأى الجماهير فيه مما أكد احتقاره «لجهلها وعاطفيتها» وجعله يمقت الاستبداد والحزبية وعبادة الفرد .

ولما كان المعتدلون أكثر استعداداً للتفاوض مع الانجليز حول التوصل إلى معاهدة تنظم علاقات بريطانيا بمصر، فقد تعاون صدقى معهم وانضم إلى فريق عدلى يكن الذى ألف وزارته فى مارس ١٩٢١ وشغل فيها صدقى منصب وزير المالية، كما اشترك فى وزارة عبد الخالق ثروت (مارس - نوفمبر١٩٢٢) وأصبح أقرب مستشاريه بحيث كان يوجه نشاط الوزارة ككل ولعب دوراً هاماً فى إصدار تصريح ٢٨فبراير١٩٢٢ الذى أعلن استقلال مصر مع تحفظات أربعة يجرى التفاوض حولها بين مصر وبريطانيا فى المستقبل، ثم تألفت اللجنة التى وضعت دستور١٩٢٣ الذى جرت الانتخابات على أساسه وأحرز فيها سعد زغلول وأنصاره أغلبية

كبيرة - ومما يجدر ذكره أن صدقى لم يوفق فى هذه الانتخابات، وبعد استقالة سعد على أثر مقتل السردار فى أواخر عام ١٩٢٤ تقلد صدقى وزارة الداخلية فى وزارة أحمد زيور التى تألفت فى ديسمبر ١٩٢٤ وأعلنت أنها ستعمل على « إنقاذ ما يمكن إنقاذه» فى مواجهة الانذار البريطانى الذى وجه إلى سعد زغلول وأدى إلى استقالته، وبادر صدقى إلى حل مجلس النواب وإيقاف الدستور وحاول تنظيم الادارة وإعادة الثقة لدى الموظفين الذين تضرر بعضهم من محاباة سعد لأنصاره، ثم شن حملة ضدهم خلال الانتخابات التى أجريت وأعلنت الوزارة على أثرها أن الاحزاب غير الوفدية نالت الأغلبية . على أن صدقى لم يبد استعداداً لجعل تسلط القصر أساساً للأوتقراطية الملكية فى الوقت الذى جزع فيه الملك فؤاد - الذى تلاعب بالحياة السياسية والدستورية - من ازدياد سلطة صدقى ولهذا قبلت استقالته دون تردد وإن يكن قد لعب دوراً هاماً فى عام ١٩٢٦ فى تشكيل الحكومة الائتلافية التى اشترك فيها الوفديون والاحرار الدستوريون والحزب الوطنى وكانت تستهدف تقليص سلطة القصر وإعادة الدستور . وفيما بين عامى ١٩٢٦ و١٩٢٨ كان صدقى عضواً نشطاً بمجلس النواب وتولى إدارة البنك الألمانى - ولما كان الملك لا يطمئن اليه ولا يثق فيه فإنه انكب على مجال الأعمال ووسع علاقاته بالمصالح الاجنبية : فرأس شركة الكهرباء المصرية وشركة سكر كوم أمبو وشركات مختلفة

أخرى ، وفى عام ١٩٢٩ أصبح نائباً لرئيس اتحاد الصناعات، ولكنه، من ناحية أخرى، جعل من البرلمان منبراً لعرض آرائه الخاصة بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادى، فلفت النظر إلى أهمية مشروع خزان جبل الأولياء فى جنوبى السودان وإلى ضرورة بناء محطة لتوليد الطاقة فى أسوان.

وفى يونية ١٩٣٠ تولى صدقى رئاسة الوزارة مع احتفاظه بوزارتى المالية والداخلية . وخلال السنوات التى تولى فيها الحكم أبدى كفاءة عالية فى التصدى للمشكلات الادارية والسياسية الصعبة التي واجهته فى بداية حكمه شبه الدكتاتورى . وكان من رأيه أن التغلب على تجاوزات الحركة الوطنية أمر لازم للتوصل إلى الرخاء والتطور، ومن ثم كان ازماعه إيقاف الوفد عند حدوده وأن يعهد بالادارة الى عناصر تتميز بالقدرة والكفاءة وأن يتوصل إلى معاهدة مع الانجليز . ومن رأيه أن «فريق الأوتقراطية» أى الوفد - كان قد جرب عدة مرات فى الحكم فأبدى فيها عجزاً وأوشك أن يلحق كل مرة بالبلاد وسمعتها ضرراً بليغاً - ذلك أنه لم يسلك فى الحكم السبيل المستقيم، فقد شغل باستدامة أسباب النفوذ والسلطان لنفسه وبتوفير وجوه المنافع لأنصاره والثأر من خصومه رغم ما يقتضيه الحكم من توفر على النظر فى حاجات البلاد وضروب الاصلاح ... ولا شك أن داء البلاد الوبيل كان فى ذلك

الحين طغيان فئة اتخذت من الدعاية التى تنشرها بين الناخبين والنواب جميعاً سبباً ممدوداً للحكم والتحكم، فإن هى أقصيت عن الحكم حاولت استثارة عطف الجماهير بدعوى اضطهادها ... فهى فى سبيل مصلحتها الخاصة كانت تصرف البلاد عن سبيل الخير وتشغلها عن حل مشاكلها وإصلاح شئونها » . إلا أن خصومه ذهبوا إلى أن الذى رشحه للوزارة هو نفوذ المصالح المالية فى مصر فى الوقت الذى ظهرت فيه بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية التى عرضت الأمن للخطر وهددت النظام . وعلى أى حال فقد اشترط صدقى لتأليف وزارته أن ينظم الحياة النيابية «تنظيماً جديداً» يتفق ورأيه فى الدستور واستقرار الحكم، فألف وزارته من أعضاء فى حزب الاتحاد ومن الحزب الجديد الذى ألفه (حزب الشعب) الذى قال بصدد تأليفه له إنه رغم عدم ميله للحزبية ونفوره من التقيد بالأحزاب فإنه رأى ألأبد للوزارة من استنادها إلى أغلبية برلمانية خاصة بعد اعتذار الاحرار الدستوريين عن الانضمام إلى وزارته وائتلافهم مع الوفد .

ولما كان حزب الشعب وليد السلطة فقد نما سريعا ، وكان يضم عناصر تقليدية من الأعيان والموظفين السابقين والمهنيين وعدداً غير ثابت من أفندية العاصمة والمراكز الحضارية بما فى ذلك المقاولون والتجار وموظفو المؤسسات التجارية ، وأخذ زعماء الوفد

بعد تأليف وزارة صدقي ينشطون في عقد الاجتماعات التي هاجموا فيها الحكومة فلم تلبث أن نشبت مصادمات دموية بين الأهالي وبين الجيش والبوليس وبخاصة في القاهرة والمنصورة والاسكندرية وبورسعيد . ولكن لما كانت وزارة صدقي تهدف إلى توقيع معاهدة مع الانجليز فإنها بادرت باجراء الانتخابات بحيث يستند صدقي إلى برلمان يساعده على التوصل إلى المعاهدة المرجوة . على أنه كان يفكر في مواجهة الأوضاع المحتدمة في البلاد دون القيام باجراء غير دستوري بل بأن يسلك طريق التعديل الذي رسمه دستور ١٩٢٣ . لهذا أصدر دستوراً جديداً في أكتوبر ١٩٣٠ بمرسوم ملكي ، وكان يختلف اختلافاً جوهرياً عن دستور ١٩٢٣ ، فقد منح الملك سلطات تشريعية واسعة ومنح سلطات للسلطة التنفيذية خلال العطلة البرلمانية وخوّل للملك إصدار قوانين مالية ونص على عدم صدور قانون لا يوافق عليه الملك وجعل عدد الشيوخ المعينين ثلاثة أخماس المجموع الكلي بدلاً من خمسي الأعضاء طبقاً لدستور ١٩٢٣ وعدل قانون الانتخابات بحيث يعطي الأعضاء الذين يعينهم الملك آمالاً واسعة في الانتخابات .

واشترك الوفديون والأحرار الدستوريون في مهاجمة دستور صدقي وإن يكونوا قد منعوا من عقد الاجتماعات مما أدى إلى اشتداد الصدام بين الوزارة وخصومها . على أن صدقي لم يكترث

بذلك ومضى ينفذ برنامجه فأعاد تنظيم الادارة وأقر حكومة جمعت بين الفعالية والتمثيل النيابى . ثم كرس جهده لوضع سياسة تستند إلى حماية الاقتصاد المحلى وتسعى إلى تنشيط الاقتصاد وتنويعه وذلك لمواجهة كل من الأزمة الأقتصادية العالمية والفاشية . لهذا نجده يهتم بمحصول القطن وينظم سياسة التصدير ويسعى إلى خفض تكاليف الحياة وضبط المالية العامة وإعادة تنظيمها وموازنة الميزانية ودعمها ومعالجة التضخم . ومن الاجراءات التى اتخذها تنظيمه للتعيينات والعلاوات والترقيات مما أدى إلى سخط صغار الموظفين فى الوقت الذى حاول فيه القضاء على البطالة . كما تمت التعلية الثانية لخزان أسوان وبدىء العمل فى تنفيذ مشروع جبل الأولياء الذى كان الهدف منه زيادة كمية المياه التى تصل إلى مصر، فى حين كان يستهدف من الاجراءات التى اتخذها بصدد صناعات الغزل والسكر السعى إلى تنشيط الانتاج المحلى وحمايته باعتبار ذلك جزءاً من الخطة الموضوعة لتنويع الانتاج وتنشيطه. كما أنقذت القروض الحكومية أكثر من ثلاثين ألف فدان من الضياع - إذ وفر بنك التسليف الذى جرى انشاؤه قروضاً طويلة الأجل لصغار ومتوسطى ملاك الأراضى، وفى الوقت نفسه جرت محاولات لإيجاد محاصيل بديلة للقطن . وأدت كل هذه الاجراءات إلى إنقاذ كل من صغار الملاك والصناعات فى الوقت الذى تم فيه التحكم فى التصدير والاستيراد ودعم بنك مصر .

ورغم أن حكومة صدقى قد حكمت أطول فترة عرفتها الوزارات فى مصر فى العهد الملكى مستندة إلى برلمان ظل قائماً لأطول مدة فى فترة ما بين الحربين فإن نظام صدقى لم يضرب بجذوره بعمق فى أرض صلبة بحيث يتاح لتجربته أن تستمر فى المستقبل، فالبرلمان الذى أوجده هزته الأزمة الاقتصادية العالمية، ورغم مهارته فى الامساك بمقاليد الحكم خلال فترة عصيبة فإن مشروعاته اصطدمت بالمفاهيم الشعبية ومزاج المصريين العاطفى المستند إلى الفردية، فهو لم يتصف بخصال الحكم النيابي التى كان يمكن أن تربط الناس به ، كما لم يؤت (الكاريزما) التى تمس عواطف الجماهير، ونتيجة للأعباء الثقال التى ناء بها كاهله وحده فقد داهمته فى أواخر يناير ١٩٣٣ أزمة صحية أرغمته على التوجه إلى أوربا مما أفسح المجال للقصر لكى يصول ويجول فى ادارة البلاد، وحين عاد إلى مصر فى سبتمبر قدم استقالته على أمل أن يفرض شروطه ولكن قبلها الملك . وحينئذ سعى إلى تسخير حزبه (حزب الشعب) فى الضغط على خلفه (عبد الفتاح يحيى)، ولكن هاجمه القصر هجوماً شديداً متعمداً الترويج لسلسة من الفضائح الادارية والمالية مع لجوئه فى نفس الوقت الى الضغط الاداري الذى أدى إلى انفضاض أغلبية أعضاء حزب الشعب عن مؤسسه . وحين اجتمع البرلمان فى ديسمبر لم يكد عدد أنصار صدقى يصل إلى

١٢نائباً مما أدى إلي استقالته من رئاسة الحزب وانضمامه إلى المعارضة البرلمانية . وفي مايو ١٩٣٥ أعيد انتخابه رئيساً لحزب الشعب مما أهله للانضمام إلى «الجبهة المتحدة» التى تشكلت فى أواخر ذلك العام وضمت كل الأحزاب والقوى السياسية، وكان من نتيجتها اعادة دستور ١٩٢٣ واستئناف المفاوضات مع بريطانيا . وفى الانتخابات التى اجريت فى مايو ١٩٣٦ حصل حزبه على عشرة مقاعد وانضم إلى هيئة المفاوضة مع بريطانيا التى توصلت إلى معاهدة ١٩٣٦ .

ثم تلاشى حزب الشعب فعاد صدقى إلى استقلاليته وأصبح ينشط فى الحياة السياسية المصرية وحيداً - وكلما حَزَب أمر أدلى بدلوه بصراحة فريدة، فكانت له آراء حول وضع مصر فى الصراع العالمى الذى نشب فى عام ١٩٣٩ وفى المناقشات التى دارت خلال أزمة فبراير١٩٤٢ . وحين جرت المحادثات الخاصة بإنشاء الجامعة العربية أبدى تشككه فى جدوى هذه المنظمة الإقليمية المقترحة وصرح بأن من الأفضل بالنسبة إلي مصر أن تكون فى مؤخرة الدول المتقدمة بدلاً من تزعمها لمجموعة من الدول العربية المتخلفة ناقصة الاستقلال . وحين تفاوض مع بريطانيا فى عام١٩٤٦، وهو رئيس للوزارة للمرة الثانية لوح للإنجليز بأنه على استعداد لمساعدتهم بصدد فلسطين التى كان يحبذ تقسيمها ما بين العرب

واليهود، فى مقابل أن تقدم بريطانيا لمصر تنازلات فيما يتعلق بالجلاء، وكان من رأيه أن عدم التوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية كفيل بجعل فلسطين بؤرة لانتشار الشيوعية فى الوقت الذى أبدى فيه إعجابه بارتفاع مستوى حياة الجماعات اليهودية فى فلسطين وبتعليمها، وبالعلماء اليهود الذين كان يود الاستفادة منهم فى تعليم المصريين فى مختلف المجالات وهو مالا يمكن تحقيقه – فى رأيه – طالما بقيت المسألة الفلسطينية دون حل . ولكن توجهات صدقى بهذا الصدد لم تلق آذاناً صاغية لأنه – فى رأى السفير البريطانى فى القاهرة – لم يكن يحس بالنبض العربى خاصة أنه كان شديد الارتباط بالمصالح اليهودية فى مجال الأعمال.

وخلال وزارة صدقى الثانية كاد ينجح فى التوصل إلى معاهدة مع بريطانيا حمل مشروعها (اتفاق صدقى – بيفن) اسمه . فقد تمشى فى اتجاه بريطانيا الخاص بانشاء دفاع مشترك فى الشرق الأوسط لمواجهة التغلغل الروسى ، وقام باعتقال عدد من الشيوعيين المصريين بعد أن واجه اضطرابات تزعمتها اللجنة الوطنية للطلبة والعمال . وفى ٢٥اكتوبر١٩٤٦ جرى التوقيع فى لندن على مشروع المعاهدة بالأحرف الأولى وكان ينص على التزام الانجليز بالجلاء عن القاهرة والاسكندرية ودلتا النيل بحلول آخر مارس ١٩٤٧ وعن باقى مصر بحلول أول سبتمبر١٩٤٩ . وفى مقابل ذلك وافق صدقى

فى حالة العدوان على بلدان مجاورة لمصر على أن يدعو الانجليز إلى العودة إلى قاعدة قناة السويس وأن يتعاون معهم تعاوناً كاملاً وتتشاور الحكومتان - فى حالة تهديد أمن أى من البلدان المجاورة لمصر - للاتفاق حول الاجراءات التى قد تكون لازمة . ولكن لم تبرم المعاهدة بعد أن واجهت بنودها الخاصة بالدفاع المشترك معارضة شديدة فى مصر وكذلك الحال فيما يتعلق بالبروتوكول الخاص بالسودان الذى لم يقبله قطاع واسع من السودانيين الذين كانوا يطالبون بحق تقرير المصير بدلا من قيام القاهرة بالتفاوض بالنيابة عن السودان . وحين أعلن وزير الخارجية البريطانى فشل المفاوضات فى مجلس العموم عبر عن أسفه لاضطرار الحكومة البريطانية للتعامل مع حكومة أقلية . واستقال صدقى الذى ظل حتى وفاته فى عام ١٩٥٠ يتابع أوضاع مصر عن كثب ويدلى بآرائه بصراحة حين يحزب الأمر : فكان ضد دخول حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ دون استعداد، كما حث المصريين قبيل وفاته على التمسك بالدستور .

وهكذا نكون قد عرضنا لشخصية ظلت إلى عهد قريب مجالاً للشك والتجريح فالحملات الضارية التى وجهت إليه خلال توليه رئاسة الوزراء مرتين كان لها أثرها فى الأحكام التى صدرت عنه من جانب الوفديين والأحرار الدستوريين والشيوعيين . الذين ضيق

عليهم توطئة لتنفيذ سياسته الخاصة بأسلوبه الخاص بتحقيق الأماني الوطنية . ولما كان صدقي لا يؤمن بالحزبية فإنه كثيراً ما واجه الهجوم عليه وحيداً خاصة أنه كان شديد الاعتداد بنفسه مع نظرة علوية إلى الآخرين واتجاهاتهم . واذا كان قد ارتبط بمصالح الرأسمالية المصرية الصاعدة ارتباطه بالرأسمالية الأجنبية التى كان لها ثقلها فى المجالين العالمى والمحلى فان ذلك فى طبيعة الاشياء خلال النصف الأول من القرن العشرين الذى كانت خلاله الحركات الشعبية غير منظمة وتواجه الضغط من كل صوب . فالرأسمالية المصرية الناشئة كانت وقتها تلعب دوراً وطنياً فى مواجهة جمود كبار الملاك وأنانية الرأسمالية الأجنبية المتغلغلة فى الاقتصاد الوطنى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهو بحكم وضعه الطبقى ونشأته كان لا يتوقع منه أن ينسلخ عن مصالحه وانتماءاته - ونحن لا نميل إلى تقويم الأشخاص وفق قوالب جامدة، بل بحسب الطبيعة البشرية، مع ميلنا إلى التسامح وعدم تحميل الأشخاص مالا يطيقون .

علي ماهر باشا

١٨٨١ - ١٩٦٠



● مناقشة دستورية بين على ماهر رئيس لجنة الدستور والدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة .

من أبرز ساسة العهد الملكى فى مصر، فخلال فترة تربو على الثلاثين عاما تولى عددا كبيرا من المناصب الهامة وقد أدت دبلوماسيته الناجحة فى مواجهة بعض الأزمات المستعصية إلى أن يخلع عليه لقب «رجل الأزمات» وذلك نتيجة لكونه مفاوضا ناجحا بإمكانه تذليل الصعوبات وحل المشاكل .. وقد تقلب فى مناصب وزارية عدة وتولى رئاسة مجلس الوزراء أربع مرات وشغل منصب رئيس الديوان الملكى فى عهد الملكين فؤاد وفاروق وذلل بعض الصعاب التى أحاطت بتولى فاروق السلطة - ومن مساخر المصادفات أن هذا الرجل الذى أعلن تولى فاروق السلطة فى عام ١٩٣٦ اشرف على تنازله عن العرش فى عام ١٩٥٢ عقب نجاح حركة الضباط الأحرار .

وعلى ماهر هو ابن محمد ماهر باشا الذى كان وكيلا لوزارة الحربية المصرية فى اوائل عهد الخديو عباس الثانى حين نشبت الأزمة التى اثارها الخديو بعد أن انتقد فى أسوان سوء حالة الجيش المصرى تحت الادارة البريطانية وأدت إلى تمسك كرومر بضرورة اعتذار الخديو لسردار الجيش المصرى - هربرت كتشنر- قبل أن يعود إلى القاهرة . وهذا ما حدث بالفعل وكان بمثابة لوى لذراع الخديو الشاب .. وماهر باشا من أصل شركسى ، وهو والد

على وأحمد ماهر اللذين لعبا دورا هاما فى حقل السياسة المصرية خلال النصف الأول من القرن العشرين .

كفاءة فى مجالات متعددة ..

وقد درس على ماهر القانون فى كل من مصر وفرنسا ثم قام بالتدريس فى مدرسة الحقوق التى مالبث أن أصبح مديرا لها وعرف بكفاءته القانونية والإدارية ، وحين تشكل «الوفد المصرى» فى أعقاب الحرب العالمية الأولى انخرط فى نشاطه وانحاز إلى جناحه اليمينى ، ثم ساعد على التقارب بين سعد زغلول وعدلى يكن فى عام ١٩٢٠ وبذلك مهد للمفاوضات التى جرت مع لورد ملنر .

وعلى أثر انشقاق الوفد ما بين زغلوليين وعدليين انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين ثم إلى حزب الاتحاد وشغل منصب وزير المعارف العمومية فى وزارة أحمد زيورالتى تولت الحكم فى اعقاب مقتل السردار البريطانى سير لى ستاك واستقالة وزارة سعد زغلول.

وقد أحرز فى وزارة المعارف سمعة باعتباره من دعاة الانضباط ونفذ خططا للأصلاح التعليمى بقدر كبير من التسرع مما أدى إلى كثير من الخلط .. وفى يونية ١٩٢٨ أصبح وزيرا للمالية فى وزارة محمد محمود ثم فشل فشلا ذريعا فى الانتخابات العامة التى أجريت فى عام ١٩٢٩ ثم عين مديرا للبنك الأهلى المصرى .. وفى

وزارة اسماعيل صدقى التى تولت الحكم في عام ١٩٣٠ تولى وزارة المعارف ثم وزارة الحقانية - وأجرى فى الوزارة الأخيرة بعض التعيينات التى كانت مثارا للنقد المتواصل .. وحين اثيرت بعض المخالفات الادارية اصطنع دور المدافع عن العدالة مما أدى إلى اختلافه مع صدقى واعادة تشكيل الوزارة واستبعاده - فقد اعتبر موقفه بهذا الصدد من قبيل الانتهازية لا الحرص على الصالح العام مما أدى إلى الاساءة إلى علاقته بالملك فؤاد .. وفى سبتمبر ١٩٣٣ استقالت وزارة صدقى بعد أن لقيت معارضة شديدة فى البلاد خاصة أنه ألغى دستور ١٩٢٣ ووضع دستورا جديدا زاد فى صلاحيات القصر والف حزبا جديدا انجحه فى الانتخابات العامة التى كانت أبعد ما تكون عن النزاهة .. وبعد استقالة وزارة صدقى تولت الحكم وزارة عبد الفتاح يحيى التى كان اعضاؤها ينتمون إلى حزب الاتحاد .. ولم تبق وزارة عبد الفتاح يحيى فى الحكم طويلا واستقالت فى ٦ نوفمبر ١٩٣٤ لتخلفها وزارة محمد توفيق نسيم التى عطلت دستور ١٩٣٠ وسعت إلى حل البرلمان دون أن تعيد دستور ١٩٢٣ وكان على الملك فؤاد ، حتى يعلن دستورا جديدا ، أن يتعهد بأن يحكم بواسطة وزرائه وعلى مسئوليتهم وفى ١٨ ابريل ١٩٣٥ أعلن الملك فؤاد أنه يفضل اعادة العمل بدستور ١٩٢٣ - وأغلب الظن أنه كان يسعى إلى إعادة الوفد إلى الحكم على أمل أن يواجه الفشل ويحقق حلمه الخاص بفرض نظام اوتوقراطى ..

وفى خلال هذه الفترة القلقة من تاريخ البلاد عرض على على

ماهر أن يصبح وزيرا مفوضا فى لندن كما عرضت عليه رئاسة الديوان الملكى فضلا عن عدد من الحقائب الوزارية ، ولكنه رفض أن يصبح من ملاحى سفينة توشك على الغرق أو أن يصبح من رجال القصر إلا إذا بارحه الابراشى باشا الذى كان الرئيس الفعلى للديوان الملكى دون أن يتولى المنصب رسميا ، وإزاء المخالفات التى ارتكبها الابراشى اضطر الملك فؤاد إلى أن يستغنى عن خدماته بعد إلحاح الدوائر البريطانية على ذلك .. وفى أول يولية ١٩٣٥ أصبح على ماهر رئيسا للديوان الملكى .. وربما كانت مهارته التآمرية هى السبب الرئيسى لتعيينه فى الوقت الذى مال فيه الملك فؤاد إلى التخلص من توفيق نسيم . وبينما هذا يجرى فى مصر هاجمت ايطاليا الحبشة مما أصاب الدوائر المصرية بالرعب بحكم أن ايطاليا كانت لها قوات فى ليبيا وكان من شأن استيلائها على الحبشة أن تهدد مصر من ناحيتى الجنوب والغرب، ولهذا اتجه جميع المعارضين للأوضاع القائمة فى مصر إلى الانضمام إلى المطالبين بعودة دستور ١٩٢٣ وبدء المفاوضات مع بريطانيا حول معاهدة توفر لمصر الضمانات الكافية لمواجهة الاخطار التى قد تحيق بها . وازاء ذلك سحبت بريطانيا تأييدها لنسيم الذى استقال فى ٢٢ يناير ١٩٣٦ ، ثم تألفت وزارة على ماهر الانتقالية التى سعت إلى التمهيد لاجراء انتخابات جديدة .. وقد بادر على ماهر إلى استصدار مرسوم ملكى بتشكيل هيئة

المفاوضات بعد أن مهد لاجراء انتخابات كان من المتوقع أن تسفر عن تولى الوفديين الحكم ، وفى ٢٨ ابريل توفى الملك فؤاد قبل أيام من بدء الانتخابات التى اسفرت عن انتصار ساحق لحزب الوفد ، وبعد استقالة على ماهر كلف النحاس باشا بتشكيل الوزارة التى جاءت وفدية خالصة ، وكان أول ما واجه على ماهر مسألة المناداة بالأمير فاروق ملكا على مصر وكان فى بريطانيا حيث أرسله والده منذ أشهر قليلة لتلقى تعليمه - فبادر إلى إعلان وفاة الملك فؤاد وتولى ابنه الحكم :

فهو لم ينس أنه كان موضع ثقة الملك فؤاد ورعايته خلال سنوات طويلة وأن واجبه يقتضيه أن يبدى الولاء لراعيه الراحل ولابنه الذى لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد وبالتالى فإنه اهتم بحل المشاكل المترتبة على ذلك ، فاستعان بلجنة قضايا الحكومة وبرجال الشريعة الاسلامية من علماء الأزهر ومفتى الديار المصرية .. وقد تمخضت المساعى عن إعلان بلوغ الملك سن الرشد بعد أن اعتبرت السنوات الهلالية الثمانى عشرة كافية للأهلية السياسية (وكان الأمر الملكى الصادر فى ٣١ أبريل ١٩٢٢ قد نص على ذلك) . وفى خلال المائة يوم التى تولى خلالها على ماهر الحكم اجرى كثيرا من الإصلاحات الادارية التى ما لبثت أن الغيت أو اجلت حين انتقلت المسئولية السياسية إلى الوفديين . ويبدو أن نشاطاته قد ارتبطت بالأمل الذى راوده فى أن تمكنه الاحداث من الاحتفاظ بمنصبه لاطول فترة ممكنة ..

وفى أكتوبر ١٩٣٧ عهد الملك إلى على ماهر برئاسة الديوان الملكى ضاربا صفحا برأى النحاس باشا وكان على ماهر ناصحا امينا للملك الشاب واشترك مع مجموعة من المستشارين فى توجيهه إلى كيفية كسب ثقة جماهير المصريين الذين جذبتهم بساطته وحيويته ومراعاته للمشاعر الدينية - وفى وقت قصير نجح فاروق ومستشاروه في موازنة الشعبية التى حصل عليها حزب الوفد إن لم يفقها - وفى٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ أقال الملك الوزارة الوفدية وحل مجلس النواب ، ثم شكل محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين حكومة جديدة أجرت انتخابات تمخضت عن هزيمة ساحقة للوفد ، وهكذا كانت ستة اشهر من حكم فاروق كفيلة بإلحاق الهزيمة بحزب لم يستطع والده طيلة حكمه أن يقهره ، وفى ١٢ اغسطس ١٩٣٩ استقال محمد محمود وعهد فاروق إلى على ماهر بتشكيل وزارة جديدة .. وبعد عدة أيام غزت المانيا بولنده وفى ٢ سبتمبر اعلنت بريطانيا وفرنسا حالة الحرب ضد المانيا وواصل الملك سياسة ابقاء الوفد خارج الحكم بالاتفاق مع السفارة البريطانية واتبع هو وعلي ماهر سياسة حذرة شجعهم عليها موقف الحياد الذى اتخذته ايطاليا فى البداية ، ورغم قطع مصر علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا فقد جرى تعيين الفريق عزيز المصرى رئيسا عاما لاركان حرب الجيش المصرى ، وكان وطنيا متطرفا كما اصبح صالح حرب باشا وزيرا للحربية - وطبقا لما ذكرته المصادر

البريطانية فيما بعد أخذ صالح حرب يقيم العراقيل فى وجه التعاون العسكرى بين مصر وبريطانيا .. وفى أول سبتمبر انشىء جيش مرابط وضع تحت قيادة وزير الأوقاف عبد الرحمن عزام باشا - وكان هذا الجيش محط آمال على ماهر وموضع عنايته ، وقد عمل قائده بهمة على أن يبث فى جنوده الحمية الوطنية التى كانت تحركه منذ أن حارب الايطاليين فى ليبيا هو وعزيز المصرى وصالح حرب .. وقد روى الجنرال ولسون ، قائد القوات البريطانية فى مصر ، أن عزيز المصرى أشاد بالعسكرية الألمانية أمام الضباط المصريين وقلل من شأن القوات البريطانية ، فى الوقت الذى لم يستمر فيه التعاون بين البعثة العسكرية البريطانية وبين القيادة المصرية بصورة مرضية مما أدى إلى نشوب كثير من المصادمات.

وما لبثت المانيا أن أحرزت انتصارات مدوية على الحلفاء مما جعل الاوساط البرلمانية فى مصر تنادى باتباع سياسة حيادية واستغلال مصاعب بريطانيا ، لتعديل معاهدة ١٩٣٦ وأوضاع الأجانب وترتبت على ذلك يقظة الروح الوطنية المصرية التى قوتها دعايات المحور وشجعتها كل من الحكومة المصرية والسراى مما أدى إلى ازدياد قلق السفارة البريطانية وضغطها على على ماهر واضطراره إلى منح عزيز المصرى اجازة طويلة ثم احالته إلى الاستيداع . وظلت العلاقات متوترة بين على ماهر الذى حظى

بمساندة السراى وبين السلطات البريطانية - ثم انفجرت الازمة فى يونية ١٩٤٠ حين دخلت ايطاليا الحرب : فقد اكتفى على ماهر بأن يطرح للتصويت أمام البرلمان موضوع قطع العلاقات مع ايطاليا وقرر البرلمان - بناء على اقتراح على ماهر - أن مصر لن تشارك فى الحرب إلا إذا بادرت ايطاليا بغزو الأراضى المصرية أو إذا دمرت المدن المصرية نتيجة للقصف الجوى أو إذا اغارت على أهداف عسكرية مصرية . وقد فسرت الدوائر البريطانية سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» التى اتبعها على ماهر بأنها انحياز إلى جانب ايطاليا والمانيا - بل إن تعاطفه مع المحور الذى قيل إن كل حاشية الملك كانت تشاركه فيه كان موضعا لهمسات ملحة فى دوائر الحلفاء فى الوقت الذى تمكنت فيه الدبلوماسية الفاشية من أن تكسب إلى جانبها ليس فقط على ماهر بل والملك نفسه وكانت غالبية الشعب المصرى تشاطره الرأى وكذلك الحال بالنسبة إلى كل الأحزاب باستثناء الهيئة السعدية .

وهكذا قاومت حكومة علي ماهر ، تؤيدها السراى والرأي العام ، كل ضغوط السفارة البريطانية وتلقت القوات المصرية المرابطة فى الغرب الأوامر بعدم اطلاق النار على الجنود الايطاليين .. وطلبت السفارة البريطانية إلغاء هذا الأمر الذى أصبح مثارا لخلاف سرعان ما ازدادت خطورته فى الوقت الذى كان فيه على ماهر يريد اعلان القاهرة مدينة مفتوحة وخالية من القوات البريطانية . وقد

أدى كل ذلك إلى ازدياد الضغوط البريطانية وتوتر العلاقات بين الوزارة والسفارة البريطانية إلى حد خطير .. وفى ٢٩ يولية ١٩٤٠ فضل على ماهر الاستقالة على أن يرضخ للنصائح المستمرة التى كان يدلى بها السفير البريطانى وما لبث أن حددت اقامته مما اكسبه هالة من الاحترام من جانب قطاعات واسعة من المصريين .

وظل على ماهر يرقب السياسة المحلية عن كثب إلى أن احتدمت الحركة الوطنية من جديد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتجاوب معها حزب الوفد ، فالغى معاهدة ١٩٣٦ وشجع المقاومة الشعبية المسلحة للانجليز الذين ردوا على ذلك ردا عنيفا وصل مداه فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ حين هاجموا الشرطة المصرية الموجودة فى الاسماعيلية وقتلوا عددا كبيرا من افرادها مما اثار بلوكات النظام فى القاهرة الذين أزمعوا الانضمام إلى طلبة جامعة القاهرة للقيام بمظاهرة مشتركة فى الوقت الذى انفجر فيه العنف فى شوارع العاصمة بالشكل الذى تمخض عن حريق القاهرة . وانتهز الملك الفرصة فاقال النحاس بعد أن أعلن الأحكام العرفية وكلف على ماهر – رجل الازمات – بتشكيل وزارة جديدة سعت إلى تهدئة الموقف واستئناف المفاوضات مع الانجليز . ولم تظل وزارة على ماهر الثالثة فى الحكم طويلا وتلتها وزارات لم تستطع مواجهة الأوضاع المتردية فى البلاد فى الوقت الذى تدهورت فيه سمعة

الملك فاروق وفقد العطف الذى أحاطه به الشعب فى اوائل عهده كما فقد ولاء الجيش نتيجة لبعض تصرفاته وتحميله مسئولية الزج بالقوات المسلحة في حرب فلسطين دون استعداد مما أدى إلى الهزيمة التى عزيت إلي تسليح الجيش بأسلحة فاسدة قيل إن الملك وحاشيته هم الذين باعوها .

وبعد نجاح حركة الضباط الأحرار فى ٢٣ يولية ١٩٥٢ عهد مجلس قيادة الثورة إلى على ماهر بتشكيل آخر وزاراته التى كان أهم ما قامت به اقناع الملك فاروق بالتنازل عن العرش - وهكذا فكما سهل عملية انتقال السلطة إليه فى عام ١٩٣٦ فإنه لعب دوره في التمهيد لاسدال الستار على النظام الملكى الذى كان هو من اخلص خدامه ، وما لبث على ماهر أن اصطدم بالعهد الجديد حين ابدى معارضته لقانون الاصلاح الزراعى الذى تبناه الضباط الأحرار مفضلا عليه فرض الضرائب التصاعدية ، فترك السلطة غير آسف عليها رغم ولعه بها وبقى فى الظل إلى أن وافته المنية .

محمود فهمى النقراشى

(١٨٨٨ ـ ١٩٤٨)



● محمود فهمي النقراشي

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة من صباح الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ دوت في أرجاء وزارة الداخلية أصوات مقذوفات نارية متتابعة . فلما هرول كبار موظفيها مذعورين لاستطلاع النبأ ساقتهم أصوات الرصاص المدوى إلى مصدر انطلاقه ، وقد عرفوا أنه عند باب مصعد الوزارة راعهم أن يروا صاحب الدولة محمود فهمى النقراشي باشا رئيس الوزراء . ووزير الداخلية والمالية ، ملقى على الأرض ، إلى جوار المصعد ، مضرجا في دمائه .

«إن المقذوفات التى سمع دويها كانت مسددة إلى وزير الداخلية، وقد أصابت الرصاصتان الأوليان منهما مقتلا فيه ، إذ نفذتا إلى القلب مباشرة ، فخر النقراشي باشا صريعا فاقد النطق لم تنبعث منه غير آهة واحدة ، رقد بعدها جثة هامدة ، بين بكاء الذين أسرعوا إلى المكان ، ولم يتمالكوا عيونهم أن تدمع ، ونفوسهم أن تجزع أسى على هذه المفاجأة التى راح ضحيتها رئيس وزراء مصر » .

كان هذا هو البيان الذى صدر عقب اغتيال النقراشي باشا الذى ولد بالاسكندرية فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٨ أى منذ أكثر من مائة سنة .

والنقراشى من الساسة الذين أبرزتهم ثورة ١٩١٩ : فقد اشتركت فى هذه الثورة جميع فئات الشعب وطبقاته بعد أن عمت مصر جميعها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وتميزت بالتصدى للمحتل سواء بالمظاهرات أو بالعنف أو بالإضراب عن العمل ، وبلغ مجموع خسائر المصريين خلال الثورة حوالى ثلاثة آلاف قتيل و ١٦٠٠ جريح ، كما حكم على ٣٧٠٠ بأحكام مختلفة وأعدم ٤٩ وحكم بالأشغال الشاقة على ٢٧ ، وحدث كبير مثل هذا كان لابد من أن يفرز زعامات من شتى المستويات التى انخرطت فى العمل الوطنى ، والنقراشى أحد هؤلاء وكان مجال نشاطه هو تنظيم الإضرابات وأعمال الاغتيال السياسى ، وهذه الأخيرة لم تثبت عليه برغم تأكد السلطات الانجليزية منها . وقد ولد النقراشى حوالى عام ١٨٩٠ فى أسرة اسكندرانية تنتمى إلى الطبقة الوسطى الدنيا ، وقد عمل فى شبابه بالتدريس بعض الوقت فى مدرسة التجارة حيث توثقت صلاته بأحمد ماهر صديق عمره وشريكه فى تهمة الاغتيالات السياسية أثناء ثورة ١٩١٩ التى قام اثناءها بالتحريض على اضراب موظفى الحكومة مما جعله يحتل مكانة مرموقة فى صفوف «الوفد» . وفى عام ١٩٢٢ كان المحرض الرئيسى على إضراب الطلبة وجرى استجوابه للاشتباه فى اشتراكه فى عملية اغتيال . ثم اعتقل فى مايو ١٩٢٣ ولكن أخلى

سبيله لعدم توفر الأدلة . وحين تولى سعد زغلول رئاسة وزارة الشعب عينه وكيلا لمحافظ القاهرة ، ثم وكيلا لوزارة الداخلية التى جعل منها بؤرة للتآمر وأصدر أوامر مشددة للمديرين وكبار الموظفين وآثار العراقيل فى أوجه الموظفين الانجليز ، وفى نوفمبر ١٩٢٤ نهب الطلبة وجماهير القاهرة مكاتب مجلة «الكشكول» الأسبوعية المعارضة وأحرقوها ، كما نهبوا مكاتب جريدة «الأخبار» لسان حال الحزب الوطنى ، وفيما يتعلق بهذه الأحداث أصدر النقراشى أمرا لمحافظ القاهرة البريطانى لكى يحول دون تدخل البوليس . وبعد مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان لم يكف النقراشى عن التدخل فى اجراءات التحقيق مما جعل الموظفين البريطانيين يتنصلون من مسئولية أى تطورات قد تحدث فى المستقبل ، وفى ٢٧ نوفمبر جرى اعتقاله للاشتباه فى صلته بمقتل السردار ولكن أفرج عنه فى يناير ١٩٢٥ لعدم كفاية الأدلة ولو أنه قبض عليه من جديد فى مايو ١٩٢٥ بتهمة الاشتراك فى الاغتيالات السياسية ثم أفرج عنه فى مايو ١٩٢٦ .

ذكاء وكفاءة

وبمضى الزمن ازداد نفوذ النقراشى فى حزب الوفد فأصبح أمينا لصندوقه ومسئولا عن تنظيمات الطلبة وغيرها – وبعد وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ لعب دورا هاما فى خلع رئاسة

الحزب على مصطفى النحاس الذى كان ينافسه فتح الله بركات قريب سعد ولو أن النقراشى نقم على مكرم عبيد الذى تولى السكرتارية العامة للحزب التى كان النقراشى يطمح إلى شغلها ، وفى ديسمبر ١٩٢٩ فاز فى الانتخابات لمجلس النواب بالتزكية وهذا راجع إلى ما عرف عنه من الذكاء والكفاءة والجرأة وفى أوائل عام ١٩٢٩ تولى وزارة المواصلات فى وزارة النحاس الثانية التى ظلت فى الحكم حتى ١٩ يونيه ١٩٣٠ وسقطت بعد فشلها فى تحقيق مطالب مصر الوطنية واصطدامها بصخرة السودان .. وقد اتصف النقراشى فى هذه الفترة بالكفاءة الادارية وبالتشدد فى المجال السياسى وفى عام ١٩٣٦ تولى مرة أخرى منصب وزير المواصلات فى وزارة النحاس الثالثة واشترك فى الجبهة الوطنية التى وقعت معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وفى عام ١٩٣٧ انشق هو وأحمد ماهر وآخرون عن حزب الوفد وألفوا الحزب السعدى الذى أصبح من أحزاب الأقلية التى يساندها القصر بعد أن لعب دوره فى توسيع شقة الخلاف بين ماهر والنقراشى وأنصارهما وبين النحاس ومكرم عبيد .. وقنع النقراشى فى الحزب السعدى الذى تولى رئاسته أحمد ماهر بدور الرجل الثانى .

وقد قتل أحمد ماهر فى أواخر الحرب العالمية الثانية نتيجة لسعيه إلى اشراك مصر فى الحرب حتى تحتل مكانتها بين

المنتصرين ، وكان ماهر منذ نشوب الحرب يجاهر بضرورة انضمام مصر إلى «الحلفاء» حتى يشترك الجيش فى القتال ويلقى التدريب اللازم ويحصل على السلاح وتتعزز مطالبة مصر بجلاء القوات البريطانية عن أراضيها ثمنا لاشتراكها فى الحرب ، وقد عد البعض ما ذهب إليه ماهر خيانة لقضية البلاد وبالتالى فإنه دفع حياته ثمنا لآرائه وخلفه النقراشى الذى تولى المسئولية فى فترة حرجة من تاريخ البلاد التى كانت تموج بالمطالبة بجلاء الانجليز بحيث نشطت المظاهرات التى أدت إحداها إلى حادثة كوبرى عباس الذى فتحه البوليس أثناء سير المتظاهرين من الطلبة عليه مما أدى إلى سقوط بعض القتلى والجرحى ، وقد بذل النقراشى كل ما فى وسعه لإعادة الأمن والنظام خاصة أن طلبة جامعة القاهرة لم يستقبلوا الملك حين توجه لافتتاح المدينة الجامعية ، بل وداسوا على صورته ومزقوها وذلك كنوع من الاحتجاج على بطش البوليس وإيداع كثير من الطلبة فى السجون لهذا لم تدم فترة وزارة النقراشى الأولى طويلا برغم مساندة الملك له ثم تولى اسماعيل صدقى الحكم واستأنف المفاوضات التى بدأها النقراشى مع الإنجليز وأمكنه الحصول على وعد بالجلاء مع تنسيق الإجراءات الدفاعية المشتركة التى تتخذها حكومتا البلدين فى حالة الطوارىء . وقد عرف هذا الاتفاق باسم مشروع صدقى ، بيفن اللذين وقعا عليه بالأحرف الأولى ، إلا أن الاتفاق تحطم على صخرة السودان

الذى أصرت بعض قواه السياسية على طلب حق تقرير المصير والاستقلال عن كل من مصر وبريطانيا . وكانت النتيجة هى استقالة وزارة صدقى التى وصفها وزير الخارجية البريطانى بأنها « حكومة أقلية » ... وفي ديسمبر ١٩٤٦ عاد النقراشى إلى السلطة من جديد وأعلن أنه سيقدم القضية المصرية إلى مجلس الأمن الذى كان قد اتخذ قرارا بإجلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان .

وفى المذكرة التى قدمها النقراشى إلى مجلس الأمن فى ١١ يوليو ١٩٤٧ طالب بالجلاء الناجز التام لكل القوات البريطانية عن مصر بما فيها السودان ، واشتدت المذكرة فى التنديد بالسياسة البريطانية ، فذكرت أن القـــوات البريطانية لاتزال تعســـكر على الأراضى المصرية ضد إرادة الشعب بأجمعه وأن وجود قوات أجنبية على أراضى دولة عضو فى الأمم المتحدة فى وقت السلم وبدون موافقتها الحرة أمر يمس كرامتها ويشكل عقبة في سبيل تطورها الطبيعى ويعد اعتداء على القواعد الأساسية للمساواة فى السيادة ولميثاق الأمم المتحدة . ولمحت المذكرة إلى أن الحكومة المصرية حاولت بحسن نية أن تصل إلى تسوية عادلة لنزاعها مع إنجلترا عن طريق المفاوضات المباشرة برغم أن وجود القوات الأجنبية فى حد ذاته لايتمشى مع حرية المفاوضات ومضت المذكرة إلى القول بأن الحكومة البريطانية كانت - منذ أن فشلت

المفاوضات – تحاول الاستفادة من معاهدة ١٩٣٦ التي « استنفدت أغراضـــها » فضـــلا عن أنها لاتتمشى مع ميثاق الأمم المتحـدة .
واتهمت المذكرة بريطانيا باحتلالها لمصر فى عام ١٨٨٢ وفرضها لنفسها شريكا لمصر فى ادارة السودان منذ عام ١٨٩٩ وما استتبعه ذلك من تمتعها فى السودان بسلطة مطلقة وسيرها علي سياسة تستهدف فصل السودان عن مصر والتحريض علي قيام حركات انفصالية مصطنعة . وقد أعلن النقراشي فى مجلس الأمن أن النزاع بين مصر وبريطانيا يشكل خطرا يهدد السلام والأمن وأن الاحتلال البريطاني يخلق احتكاكا دائما ، كما طالب بوجوب إنهاء النظام الإدارى القائم فى السودان ، وفيما يتعلق بمعاهدة ١٩٣٦ أوضح أنها استنفدت أغراضها على اعتبار انها حين وقعت كانت بمثابة إجراء مؤقت يهدف إلى مواجهة أزمة دولية .

وردا علي الحجج التى عرضها النقراشى بنى مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة سير الكسندر كادوجان اجابته على قاعدة القانون الدولى الذى تبقى معاهدة ١٩٣٦ طبقا له سارية المفعول حتى عام ١٩٥٦ الا اذا اتفق الطرفان على شيء آخر ، وفيما يتعلق بوجود القوات البريطانية على الأراضى المصرية ومسألة السودان أعاد كادوجان إلى الأذهان مفاوضات صدقى – بيفن التى اشتركت فيها بريطانيا بمحض اختيارها رغم أنها لم تكن مرغمة على ذلك

حتى عام ١٩٥٦ . وذكر أن السبب الوحيد لرفض المصريين لها هو الفقرة الواردة فى بروتوكول السودان التى كانت تهدف إلى تأكيد تمتع السودانيين فى الوقت المناسب بحقهم فى اختيار وضع بلادهم فى المستقبل ، وذهب إلى أن المصريين أرادوا قصر اختيار السودانيين على نوع ما من الارتباط بمصر فى حين أن بريطانيا أرادت أن تمنح السودانيين مطلق الحرية فى الاختيار ولم تكن مصر مستعدة لأن تعطى السودان تلك الحرية فى اختيار الاستقلال التام وهى الحرية التى كانت مصر تنادى بشدة بأن تكون حقا للبلدان الأخرى وحصلت هى نفسها عليها من بريطانيا . واشتد كادوجان فى انكار اتهام المصريين لبريطانيا بإيجاد خصـومة بين المصريين والسودانيين ولم يصل مجلس الأمن إلى قرار حول شكوى مصر ضد بريطانيا التى بنت وجود قواتها فى مصر على معاعدة ١٩٣٦، فعلى حين أن أمانى مصر الخاصة بالجلاء قد حظيت بعطف الأمم المتحدة إلا أن أعضاء مجلس الأمن أجمعوا على حق السودانيين فى اختيار وضع بلادهم فى المستقبل . وكان فشل النقراشى فى الأمم المتحـدة راجعا إلى ربطه بين وجـود القـوات البريطانية فى مصر و مبدأ وحدة وادى النيل الذى لم يحظ بالتأييد ، وإزاء ذلك كله قرر رئيس مجلس الأمن الاحتفاظ بالنزاع فى جدول أعمال المجلس.

ويبدو أن الملك فاروق الذى كان له تأثيره فى نشاطات وزارة النقراشى كان يسعى إلى إطالة أمد الائتلاف الحكومى القائم خشية أن يعود الوفد إلى الحكم ويسعى إلى الانتقام لنفسه من مسلسل الإقالات التى منيت بها حكوماته السابقة ، وكان فشل شكوى مصر فى مجلس الأمن بمثابة نكسة للنظام القائم الذى أخذ يواجه سلسلة من المشكلات منها إضراب ضباط البوليس والسخط العام نتيجة للغلاء الذى استشرى نتيجة للحرب العالمية الثانية وسوء توزيع ثروات البلاد وظهور قوى سياسية جديدة أبرزها جماعة الإخوان المسلمين . لهذا كله سعى الملك إلى تحويل الأنظار عن كل ذلك إلى مجالات أخرى خارج البلاد خاصة أن بريطانيا قررت إنهاء انتدابها على فلسطين وأن الأمم المتحدة أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين احداهما عربية والأخرى يهودية مع تدويل القدس . وكان بعض المقربين من الملك قد زينوا له السعى إلى إحراز زعامة البلدان العربية بنصر سريع على « العصابات الصهيونية » ورغم ما أعلنه النقراشى من أنه لن يرسل الجيش المصرى إلى داخل فلسطين فقد صدرت الأوامر إلى القوات المصرية بدخول الأراضى الفلسطينية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ دون أى استعدادات مسبقة ودون أى تنسيق مع القوات العربية الأخرى مما أدى إلى هزيمة العرب وظهور الدولة الصهيونية إلى حيز الوجود .

وقد اشترك بعض متطوعى جماعة الإخوان المسلمين فى الحرب ثم عادوا إلى مصر بعد أن تدربوا على القتال واستعمال السلاح فى الوقت الذى كدست فيه الجماعة السلاح بحجة الدفاع عن فلسطين .. وما انتهت الحرب حتى سعى الإخوان المسلمين إلى الاستيلاء على السلطة فقاموا بكثير من حوادث النسف والاغتيال مما أدى إلى اختلال الأمن ، فقرر النقراشى حل الجماعة خاصة أن الملك فاروق رأى فيهم مصدر خطر على حياته هو وردا على ذلك قام أحد شباب الإخوان باغتيال النقراشى .. وبذلك طويت صفحة أحد الساسة المصريين البارزين فى العهد الملكى .

د. أحمــد ماهــر

١٨٨٨ - ١٩٤٥



● أحمد ماهر فى إحدى الندوات ويظهر فى الصورة الكاتب عباس محمود العقاد أحد رواد الثقافة فى مصر

هو أبرز ساسة مصر فى فترة ما بين الحربين وزعيم الحزب السعدى الذى كان أحد الأحزاب التى انشقت عن الوفد بسبب عدم مرونة زعامته وتشددها وعدم قبولها بالنقد والمعارضة فلما كان حزب الوفد حين تأسس لا يعتبر نفسه حزباً بل تجسيداً لارادة الأمة بل الامة نفسها تضع مصيرها وقدرها بين يدى قائد - زعيم تسير كلها وراءه فانه لم ين عن المطالبة بالاستقلال وبتقييد السلطة الملكية المطلقة مستنداً في تحقيق أهدافه إلى حماسة الجماهير الا أن أعضاءه كانوا ينتمون إلى الطبقات بالغة التفاوت : فمنهم كبار ملاك الأراضى الزراعية ومنهم البورجوازية الصغيرة والكبيرة والفلاحون والحرفيون والعمال والطلبة ومن ثم كان الحزب عرضة للتصدع : فكثيراً ما كانت الاستقالات الصادرة عن بعض قادته تهز دعائم تنظيماته الداخلية ، وهى استقالات ترجع إما إلى أسباب سياسية أو إلى منافسات شخصية وبالتالى حدثت الانشقاقات فى صفوفه وادت إلى ظهور أحزاب جديدة تزايدت أعدادها بمرور الزمن ، وهى أحزاب ليست لها برامج واضحة بل أن قوتها أو ضعفها كانا مرتبطين بطبيعة زعاماتها ، ولكن هذا يقتضى اعتمادها على القصر أو على الإنجليز ..

وأحمد ماهر مؤسس حزب السعديين ينتمى إلى الشريحة الاجتماعية الشركسية التى جعل محمد على منها ومن الاتراك ركيزة لحكمه وأوسع لها فى الأملاك والمناصب ، ومن ثم فقد نعمت بالثروة وتبوأت أرفع المناصب قبل أن «تتمصر» وتذوب فى المجتمع المصرى الكبير . ووالده هو محمد ماهر باشا الذى كان وكيلاً لوزارة الحربية فى عام ١٨٩٤ حين اثار الخديو عباس الثانى أزمته المشهورة مع سردار (قائد) الجيش المصرى هربرت كتشنر حين وجه انتقاده إلى الضباط الانجليز وندد بسوء أوضاع الجيش مما جعل اللورد كرومر - حاكم مصر الفعلى فى ظل الاحتلال البريطانى - يقف موقفاً صلباً ويرغم الخديو على التراجع والخضوع . وقد خلف محمد ماهر باشا ابنا آخر - هو على - قيض له هو الآخر أن يلعب دوراً هاماً فى السياسة المصرية حتى أوائل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وقد تخرج أحمد ماهر فى مدرسة الحقوق الخديوية فى عام ١٩٠٨ واشتغل بعض الوقت بالمحاماة فى القاهرة وفى عام ١٩١٠ توجه إلى مونبلييه فى فرنسا حيث حصل بعد ثلاث سنوات على درجة الدكتوراه فى القانون والاقتصاد . وفيما بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢١ عمل بالتدريس والتقى خلاله بصديق عمره محمود فهمى النقراشى . ولم تكن الدوائر البريطانية تشك كثيرا فى اشتراكه فى الاغتيالات السياسية ، وفى عام ١٩٢٢ قبض عليه بعد مقتل حسن

عبدالرازق وزهدى ، وإن لم يقم على تورط ماهر دليل ملموس .. وقد فاز أحمد ماهر فى الانتخابات التى أجريت بعد صدور دستور ١٩٢٣. وعين وزيراً للمعارف فى أكتوبر ١٩٢٤ بعد عودة سعد زغلول - رئيس الوزراء حينئذ - من لندن على أثر مفاوضاته مع رمزى مكدونالد ، ولو أن الوزارة استقالت فى أواخر عام ١٩٢٤ على أثر مقتل السردار السير لى ستاك . وكان شفيق منصور الذى شنق بتهمة الاشتراك فى اغتيال السردار فى مكتب أحمد ماهر القريب من مسرح الجريمة حين جرى ارتكابها ولهذا قبض على أحمد ماهر فى ١٩٢٥ وجرت محاكمته هو وآخرون وقد رأس الهيئة القضائية التى نظرت فى القضية قاض انجليزى (كيرشو) ومعه قاضيان مصريان . إلا أن تبرئة المتهمين أدت إلى استقالة كيرشو ، أما ماهر فقد حصل على مقعد فى مجلس النواب وأصبح رئيساً للجنة البرلمانية الخاصة بالحسابات وعضوا فى لجان الميزانية والتعليم والدستور . وفى عام ١٩٢٧ مثل مصر فى المؤتمر البرلمانى الدولى الذى انعقد فى ريو وما لبث أن عجل بالعودة إلى القاهرة حين ترامت إلى مسامعه أنباء وفاة الزعيم سعد زغلول ثم عين رئيساً لتحرير جريدة البلاغ وانتخب فى ديسمبر ١٩١٩عضوا بمجلس النواب وفى العالم التالى صحب الوفد المسافر إلى لندن للتفاوض حول معاهدة مصرية - بريطانية وذلك باعتباره خبيراً مالياً .

وعند هذا الحد كان أحمد ماهر قد تمرس بالاجراءات البرلمانية وبرز باعتباره برلمانياً لا يشق له غبار بحيث أحكم سيطرته على مجلس النواب ، وقد لوحظ أنه قليل الكلام في البرلمان ولو أنه كان لا ينفك عن الهمس إلى اصدقائه وحثهم على عمل ما يجب عمله ، ومن ثم فقد وصفه سعد زغلول بأنه «الببغاء الصامت» وفى مايو ١٩٣٤ أصبح رئيساً لتحرير «كوكب الشرق» وحينئذ كان قد ازداد توثق علاقاته بمحمود فهمى النقراشى بحيث برزا باعتبارهما قطبى الاتجاه الواقعى في دوائر الوفد الداخلية . وفى مايو ١٩٣٦ أصبح رئيساً لمجلس النواب ثم عضواً فى الوفد المصرى الذى أجرى مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ مع الإنجليز .

ورغم موافقة أحمد ماهر على المعاهدة فقد كان من رأيه أنها لم تحقق «الشرف والاستقلال» وفق ما ذهب إليه مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، بل لم تعد كونها خطوة صوب الاستقلال ومع ذلك فإنه لم يستطع فرض رأيه على دوائر حزب الوفد الذى كان أحد اقطابه، ولكنه نصح النحاس بأن يعتبر توقيع المعاهدة خاتمة عهد وفاتحة عهد آخر تندمج فيه الاحزاب كلها فى حزب واحد بصورة تشبه ما تحقق في عام ١٩١٩ ولكن النحاس لم يوافق على هذا الاقتراح لشدة اعتقاده بأنه يمثل الأمة ولأنه بعد تجربته فى الحكم رئيساً لمجلس الوزراء كان لا يميل إلى الحكومات الائتلافية أو إلى

التعاون مع الأحزاب الأخرى ، وحين أعاد النحاس تشكيل وزارته في عام ١٩٣٧ استبعد منها النقراشى ومحمود غالب بسبب موقفهما من مسألة استنباط الكهرباء من مساقط المياه بخزان أسوان . وكان سبب الخلاف هو أن شركة انجليزية عرضت أن تنفذ المشروع على أن يتم الأمر بينها وبين الحكومة مساومة ومن غير مناقصة . وقد آثار زعيم المعارضة - محمد محمود - هذه المسألة فى مجلس النواب وطالب بطرح أمر الاستنباط في مناقصة عالمية تتقدم فيها الشركات العالمية الكبرى بعطاءاتها بحيث يسند العمل إلى أكثرها خبرة وأمتنها مالية . وانحاز النقراشى وغالب لرأى محمد محمود إلا أن مكرم عبيد - الرجل الثانى في الوفد - دافع عن وجهة نظر الحكومة التى أخذت باتجاه الشركة الانجليزية ، وتابع مكرم سائر الوزراء بالاتفاق مساومة مع الشركة بحجة أن لديها سراً فنياً لا يمكن افشاؤه وأنه يسمح للحكومة بالتجاوز عن المناقصة إلى الممارسة . وادى خروج النقراشى وغالب من الوزارة إلى ازدياد الخصومات خاصة وقد أشيع أن أحمد ماهر يؤيدهما وأنه مرشح لرئاسة الوزارة فيما لو أيده مجلس النواب .

وحاول أحمد ماهر اقناع النحاس بالعدول عن رأيه مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما . واجتمعت الهيئة الوفدية لتسوية هذا الخلاف الذى كان ينذر بانقسام الوفد . وانسحب أحمد ماهر من

الاجتماع ولم يتبعه من الحاضرين سوى ثلاثة أعضاء – وعلى باب النادى السعدى استقبلته مظاهرة صاخبة هتفت بسقوطه وبحياة النحاس . وكان هذا الانشقاق بالغ الاهمية وأدى – كما أدت الانشقاقات السابقة والتالية التى حدثت فى تاريخ الوفد إلى نشأة حزب جديد اتخذ لنفسه اسم «الهيئة السعدية» وأدى ذلك إلى تحطيم وحدة الوفد وإلى تشجيع القصر على أن يقاوم سياسة التخويف التى كان النحاس يتبعها ازاءه ، بحيث لم يجد صعوبة كبيرة فى اقالة وزارة الوفد ، التى خلفتها وزارة محمد محمود التى حلت مجلس النواب وأجرت انتخابات جديدة اسفرت عن خروج الكثيرين من الوفد وانضمامهم إلى أحمد ماهر الذى حصل حزبه الجديد على عدد كبير من كراسى البرلمان .

وحين تم تعديل الوزارة دخلها ماهر والنقراشى وسعديان آخران ولو أن ماهر وانصاره رفضوا اقتراحاً باندماجهم مع الدستوريين تحت رئاسة محمد محمود لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم ورثة سعد زغلول وبانهم سينتصرون إذا ما احتفظوا باستقلالهم ، وما لبث شبح الحرب العالمية الثانية أن خيم على الأفق فى أعقاب الاعتداءات التى قامت بها دول المحور (ايطاليا وألمانيا واليابان) وبعد أن اتضح ان أطماع هذه الدول لا تقف عند حد . وقد انقسم المصريون حول الموقف الواجب اتخاذه من هـذه الأزمة العالمية :

فقد كان الكثيرون - ومنهم الملك فاروق وحاشيته - «محوريي الهوى»، في حين كان كثيرا من المصريين لا يكنون وداً لدولة الاحتلال . وحين دخلت إيطاليا الحرب فى ١٠ يونية ١٩٤٠ نادى أحمد ماهر بضرورة إعلان مصر الحرب على دول المحور على اعتبار أن عدم دخولها الحرب يعد اقراراً منها بأن إنجلترا تحميها وبأنها هى المسئولة عن استقلالها ، فى حين أن اشتراكها فى الحرب يعطيها الحق - بعد انتصار الحلفاء - في أن تتوصل إلى جلاء القوات البريطانية عن اراضيها . ولكن رأى أحمد ماهر لم يؤثر كثيراً على الرأى العام الذى لم يكن يتوقع انتصار إنجلترا في مواجهة الانتصارات الالمانية المتلاحقة وسيطرة هتلر على غربى أوروبا ، خاصة وأن الكثرين لم يكونوا يتوقعون جلاء انجلترا عن الاراضى المصرية فيما لو خرجت منتصرة من الحرب - وأهم من هذا أن المصريين كانوا يخشون أن يؤدى إعلان مصر الحرب على دول المحور إلى أن تتعرض أراضيها للقصف الجوى والدمار ، وبالتالى فقد مالوا إلى سياسة تجنيب البلاد ويلات الحرب ، وهى السياسة التى سارت عليها وزارة على ماهر التي خلفت وزارة محمد محمود . ومع ذلك فقد تمسك السعديون بضرورة دخول مصر الحرب واستقالوا من وزارة حسن صبرى الذى خلف على ماهر ، وإن يكونوا قد عادوا إلى الاشتراك فى الحكم فى عهد وزارة حسين

سرى ذاهبين إلى أنهم لا يمانعون فى الاشتراك فى وزارة تسير على سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب مادامت هذه الحرب بعيدة عن مدنها واراضيها ومادامت القوات الايطالية المتمركزة فى ليبيا تتراجع ولا تتقدم كان على بريطانيا أن تتكيف لسياسة تجنيب مصر ويلات الحرب وأن تكن قد استطاعت أن تفرض تفسيراً يزداد صرامة لمواد معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تكن لتتردد إذا ما لاح لها أن مصالحها الأساسية تتعرض للخطر فى أن تتدخل بشدة فى شئون مصر الداخلية حتى ولو اضطرت إلى استخدام القوة كما حدث فى أوائل فبراير ١٩٤٢ .

فقد تقدمت القوات الالمانية التى جرى نقلها إلى ليبيا إلى داخل الاراضى المصرية وانتقلت تحت قيادة القائد المظفر إروين روميل من نصر إلى نصر واقتربت من الاسكندرية وادى انتصارها إلى أزمة سياسية كبيرة بعد أن أصرت الدوائر البريطانية على ضرورة أن يتولى النحاس ، زعيم الوفد المصرى الذى وقع معاهدة ١٩٣٦ ، رئاسة الوزراء على اعتبار أنه اقدر من غيره على تنفيذ بنود المعاهدة نصاً وروحاً خدمة لجهود الحلفاء العسكرية ، وبوجه خاص. البند السابع الذى كان ينص ، فى حالة دخول أحد الطرفين الحرب ضد طرف ثالث ، على ان يبادر الطرف الثانى إلى معاونته بصفته حليفاً . وحاول الملك فاروق – الذى كانت الدوائر البريطانية تشك فى

اتصاله بألمانيا وإيطاليا ، وهو الشك الذى كشفت الوثائق التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية انه يستند إلى أسس قوية .. حاول أن يفوت على الانجليز تنفيذ تهديداتهم . لهذا أجرى مع كبار الساسة المصريين اتصالات اقترح خلالها تشكيل وزارة قومية برئاسة النحاس الذى أصر على أن يشكل وزارة وفدية خالصة ، وفى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ وجه السفير البريطانى انذاراً إلى الملك فاروق حمله فيه المسئولية وما قد يترتب على ذلك من نتائج إذا لم يكلف النحاس بتشكيل الوزارة قبل الساعة التاسعة مساء ، وحاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين فى الوقت الذى عقد فيه الملك اجتماعاً حضره كل كبار ساسة مصر الذين حاولوا أن يفوتوا على الإنجليز انذارهم بالتوصل إلي صيغة تنهى الأزمة . وحين لم يوافق النحاس على أى حل وسط خطب أحمد ماهرقائلاً : «إننا نعرف وطنية النحاس باشا وحرصه على استقلال بلاده وسيادتها ، وهذا الانذار الذى وجهته الحكومة البريطانية إلى الملك ضربة قاضية على هذا الاستقلال ولاسبيل إلى رد هذه اللطمة إلا أن يرفض النحاس باشا تأليف الوزارة وأن يرفضها بسبب هذا الإنذار ، فأنا أرجوك يا رفعة الباشا وأهيب بوطنيتك أن تنقذ استقلال بلادك وسيادتها» . وأخيراً اضطر الملك ازاء تمسك النحاس بموقفه والتلويح بخلعه إلى الرضوخ للضغط ، فقرر تكليف

النحاس بتشكيل الوزارة – وعندئذ قال أحمد ماهر للنحاس : «إنك.. تؤلف الوزارة على أسنة الحراب البريطانية» .

وظل النحاس فى الحكم لأكثر من عامين تململ خلالهما الملك فاروق ولم يستطع أن يفعل شيئاً بسبب ظروف الحرب ، حتى إذا ما أخذ مجراها يتحول وبدت دلالات قرب هزيمة المحور بادر إلى اقالة النحاس للمرة الرابعة وعين أحمد ماهر رئيساً للوزارة وقرر أحمد ماهر أن يشرك فى وزارته جميع الاحزاب غير الوفدية – وفى الانتخابات التى جرت فازت أحزاب الحكومة على الوفد وفاز السعديون بأغلبية نسبية على سائر الاحزاب التى اشتركت فى الحكم ، وشن أحمد ماهر – منذ تشكيله الوزارة – الحرب على النحاس واتهمه فى أحد تصريحاته بأنه كان أسوأ الدكتاتوريين وبأنه كان يريد أن يحكم مصر باساليب هتلر وموسوليني محتمياً وراء واجهة برلمان يعرف الجميع أى انتخابات جاءت به .. ومالبث أن بلغته الحكومة الأمريكية بأن دول الحلفاء ستعقد مؤتمراً فى سان فرنسسكو في ابريل ١٩٤٥ لانشاء هيئة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم وبأن الدول التى تشترك فيها يجب أن تعلن الحرب على خصوم الحلفاء قبل أول مارس ١٩٤٥ ، وفى ٢٤ فبراير أعلن ماهر أمام البرلمان وخلال جلسة سرية عزمه على إعلان الحرب على المانيا واليابان ، ولم يكن لهذا القرار من هدف –

وقد اوشكت الحرب على الانتهاء - سوى أن يسمح لمصر بالحصول على مقعد فى مؤتمر السلام ، ولما كان إعلان الحرب لا يمكن أن يعتبر إعلاناً لحرب دفاعية فقد تقرر عرض الأمر على البرلمان فى جلسة سرية يعقدها مجلس النواب ثم يعقدها مجلس الشيوخ . ولكن الاسباب التى ساقها أحمد ماهر لإعلان الحرب لم تنل ما تستحقه من فهم وبعد أن عرض الأمر على مجلس النواب ومر بالبهو الفرعونى متجهاً إلى مجلس الشيوخ تصدى له بعض الشباب الذين أطلق أحدهم عليه الرصاص فأرداه قتيلاً وذلك في يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ وخلفه فى رئاسة الوزارة صديقه محمود فهمى النقراشى الذى اغتيل هو الاخر فى أوائل عام ١٩٤٩.

وهكذا انتهت حياة سياسى مصرى تميز بحنكته وتمرسه بأساليب الحياة البرلمانية . ويصفه معاصره الدكتور محمد حسين هيكل بأنه لم يكن يكتب خطبه ويتلوها على البرلمان بل كان يحضر النقط الاساسية ثم يرتجل فى ترتيب ومنطق دقيق «وبأنه» لم يكن خطيباً ساحراً يبهر سامعيه بقوة بلاغته ولكنه كان برلمانياً ممتازاً يقدم بين يدى رأيه بحجج خصمه ويضفى عليها من منطقه البارع قوة أكثر من قوتها الذاتية ثم يتناولها بعد ذلك بالتنفيذ فى دقة وبراعة تجذب إليه سامعيه . وهو لم يكن يضيق بالمقاطعة أو بالمعارضة وهو يخطب ، بل كان يرحب بكل مقاطعة لأنه كان فى

عهده الأول بالحياة البرلمانية مقاطعاً بارعاً - فإذا قوطع استل من مقاطعات خصومه حججاً له يؤيد بها رأيه . وكان له من حدة الذكاء وسعة الاطلاع ما يعاونه على إدراك غرضه أشد «المعاونة» ويضيف إلى ذلك أنه «كان إلى ذكائه حازماً وإلى لطفه وظرفه شديد الاعتداد بنفسه » ولقد سمعته وهو رئيس للوزراء يخطب فينا - نحن الطلبة - مدافعاً عن سياسة حكومته حين استبعدت بريطانيا عن الترشيح للانتخابات البرلمانية سودانياً وحدوياً وهو على البرير الذى سعى إلى أن يمثل مصر والسودان فى البرلمان المصرى تحقيقاً لمبدأ وحدة وادى النيل ، وقد شرح أحمد ماهر موقف حكومته فى مواجهة الاعتراض البريطانى بهدوء ومنطق والابتسامة لا تبرح شفتيه مما هدأ ثائرة الطلاب ، والحق أن الحياة الحزبية قد ربت عدداً لا يحصى من الخطباء الذين ساعد الكثيرين منهم على البلاغة والتأثير فى السياسيين واصطناع المنطق احترافهم للمحاماة التى كانت هى الأخرى مدرسة أخرى لتربية الخطباء . وتلك سمة بارزة لمعظم ساسة ما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) الذين لمع منهم أمثال وليم مكرم عبيد وإبراهيم عبدالهادى وأحمد حسين (زعيم جماعة مصر الفتاة) وحسن البنا ومصطفى النحاس وفى قمة هؤلاء سعد زغلول الذى كان ساحراً فى خطابته بحيث أن

بعض فقرات خطبه جرى تداولها من جيل إلى أخر ، بل وحتى اليوم .

فأحمد ماهر ، إذن ، هو ابن عصره ووطنى آمن بضرورة استقلال بلاده وتبوئها المكانة اللائقة فى المجال الدولى واصطنع لذلك وسائل عدة حاول بها الوصول إلى ما يستطيع الوصول إليه من أهدافه فى شجاعة تحمد له دفع حياته فى نهاية الأمر ثمناً لها .

مكرم عبيد

والكتاب الاسود

١٨٨٩ - ١٩٦١



● مكرم عبيد

أثار توزيع الكتاب الاسود الذى هاجم فيه مكرم عبيد – سكرتير عام حزب الوفد – ممارسات مصطفى النحاس زعيم الحزب ورئيس الوزراء ردود فعل قوية كانت بمثابة المعول الثانى الذى زعزع هذا الحزب الذى تصدر الحياة السياسية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ – أما المعول الآخر فكان تشكيل النحاس وزارته الرابعة فى أعقاب حصار الانجليز لقصر عابدين بالدبابات وفرضهم على الملك فاروق أحد خيارين : إما تكليف النحاس بتولى الحكم وأما تنازله عن العرش . وكان فاروق حينئذ لا يزال يتمتع بقسط وافر من الشعبية بحيث نال عطف أغلبية المصريين الذين عدوا ما حدث اعتداء على كرامة البلاد واستقلالها ، مما أدى إلى المساس بشعبية زعيم حزب الوفد الذى كان قد تشكل قبيل ثورة ١٩١٩ للسعى فى سبيل استقلال البلاد .

حقيقة ان النحاس كان قد تصدى – منذ تبوئه زعامة الحزب فى عام ١٩٢٧ – فى أعقاب وفاة الزعيم سعد زغلول لأوتوقراطية القصر وسعى إلى استكمال الاستقلال الذى نص عليه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ عن طريق المفاوضات ، إلا أنه رأس الجبهة الوطنية التى وقعت معاهدة ١٩٣٦ التى قننت الاحتلال البريطانى برغم الدعاية واسعة النطاق التى روجها الزعماء الوفديون والتى مفادها

أنهم حصلوا لمصر على الشرف والاستقلال : فقد بقيت القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس وغيرها وكان المندوب السامى البريطانى (الذى أصبح سفيرا بعد توقيع المعاهدة) يتدخل فيما يشاء من شئون البلاد الداخلية باسم المحالفة التى نصت عليها المعاهدة .

ولم يكن الوفد منذ تشكيله فى عام ١٩١٩ وتحوله إلى حزب سياسى فى أوائل العشرينات حزبا بالمعنى الأوروبى للكلمة ، بل كان حركة سياسية تتكلم باسم الأمة جميعا ، فكان يضم الأقباط والمسلمين فى إطار الوحدة الوطنية ويحظى بتأييد الشارع المصرى ويحرز أغلبية ساحقة فى أى انتخابات حرة وينادي بالديمقراطية والعلمانية وان يكن تكوينه يتضمن تناقضات مترتبة على احتوائه على كبار ملاك الأراضى والفلاحين والمهنيين والعمال والطلبة ، وهى الفئات الاجتماعية التى كانت قد وحدتها الروح الوطنية المتدفقة التى ما لبثت أن ضعفت بالتدريج بفعل الانقسامات التى جرت داخل الحزب نتيجة لدكتاتورية زعامته وانحسار الحماسة للنضال التى تميزت بها الحركة الوطنية خلال ثورة ١٩١٩ والنكسات التى تعرض لها الحزب نتيجة للخصومة القائمة بينه وبين القصر وتدخل الانجليز فى شئون البلاد الداخلية .

ابن سعد البار

أما زعيم الحزب منذ عام ١٩٢٧ وحتى استيلاء الضباط على الحكم في عام ١٩٥٢ فهو مصطفى النحاس الذى كان قد اشتهر بقوة وطنيته ونزاهته ونظافة يده وقربه من قلوب الجماهير . وأما (وليم) مكرم عبيد فقد كان ساعد النحاس الأيمن وسكرتيرا عاما للوفد . وكان مكرم من الشبان المحيطين بسعد زغلول الذى قدر فيه ذكاءه وثقافته وجاذبيته الجماهيرية وكفاءته كمتحدث وكاتب ممتاز باللغتين العربية والانجليزية . ولقد توثقت صلات مكرم بسعد زغلول بحيث خلع عليه لقب «ابن سعد البار» واستطاع بمواهبه الخطابية وقوة بيانه أن يحرز مركز الصدارة في مهنة المحاماة وأن يتولى أكثر من مرة رئاسة نقابة المحامين وكان مكرم والنحاس متلازمين لفترة طويلة ، وكان كل منهما يكمل الآخر - فقد كان مكرم بمثابة مستشار النحاس الدائم ، وكان قد استغل نواحي القصور في شخصية زعيم الوفد البسيط والصريح وطيب القلب الذى لم يتصف بكونه مفاوضا ماهرا بإمكانه التعامل مع العقلية الأوربية . وكانت سيطرته على النحاس من أهم أسباب توجيه الهجوم إلى الوفد الذى كان خصومه يثيرون حملتهم على الوفد الذى اتهموه بالوقوع تحت التأثير «القبطي» .

وقد تولى مكرم عبيد وزارتى المالية والتموين فى الوزارة الوفدية التى تولت الحكم فى أعقاب حادثة ٤ فبراير فى فترة خطيرة من تاريخ مصر والعالم ، إذ أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى إيجاد مشاكل تموينية فى البلاد بسبب صعوبة أعمال التصدير والاستيراد فى الوقت الذى كانت فيه قوات المحور قد اخترقت الحدود المصرية من ناحية ليبيا واقتربت من الإسكندرية وتحركت مظاهرات فى شوارع القاهرة هاتفة «إلى الأمام يا روميل» !! ومنذ أوائل عهد حكومة الوفد الرابعة برز عامل جديد فى حياة النحاس الذى كان قد تقدمت به السن وهده الكفاح والصراع مع القصر وضيق ذات اليد - وهذا العامل هو السيطرة التى أحرزتها عليه زوجته الشابة الجميلة الطموحة السيدة زينب الوكيل التى كانت تحلم باستغلال سيطرتها على زعيم الوفد للاثراء هى وأقاربها ، وقد قيل إنها كانت تتدخل بصورة مباشرة لدى الوزراء أو ترقية أقاربها أو منحهم الامتيازات والاستثناءات عن طريق أذونات التصدير والاستيراد . وفى نفس الوقت أقر النحاس الترقيات الاستثنائية للوفديين الذين بقوا خارج الحكم منذ عام ١٩٣٧ وهى الترقيات التى رفضها مكرم عبيد . وبالاضافة إلى ذلك فقد انضم إلى الوفد شاب ثرى طموح هو النائب فؤاد سراج الدين الذى سعى إلى التقرب من زعيم الوفد وإحراز ثقة زوجته فى الوقت الذى اختفى

فيه كبار المثقفين من الحزب وبرز فيه نفوذ كبار الملاك والأثرياء وقد أدت تطلعات فؤاد سراج الدين وممارسات زينب الوكيل إلى نقمة مكرم عبيد ، وانتهز القصر ذلك للعمل على دق إسفين بين مكرم والنحاس أملا فى إضعاف حزب الوفد والانتقام من وقوفه للسلطة الملكية بالمرصاد فى الوقت الذى ربما وعد فيه القصر مكرم برئاسة الوزارة التى كان يرى نفسه جديرا بها لما كان يتمتع به من شعبية قوية خاصة وقد كان له اتباع كثيرون خارج وداخل الحزب كما كان يستند إلى تأييد العمال وشباب الحزب . وكانت النتيجة أن اشتدت الخلافات داخل الوفد ولم يسع أحد من كبار مسئوليته إلى رأب الصدع وذلك نتيجة لشماته معظم أقطاب الحزب فى مكرم الذى استأثر بصداقة النحاس وأصبح الرئيس غير المتوج لحزب الأغلبية والنتيجة هى اتصـــال مكرم مباشرة بالقصر متجاهلا النحاس ذلك الزعيم الذى سبق له أن خلع عليه اسم «الزعيم المقدس» وفى يونية ١٩٤٢ طرد النحـــاس مكرم من السكرتارية العامة للوفد وفى يولية طـــرد كذلك من عضوية الحـــزب فأعلن تشـــكيل حزبه «الكتلة الوفدية المستقل ة » التى وصفها بأنها «الوفـــد مصغرا والوفد مطهرا» !!

مخالفات ومحسوبية

وردا على كل ذلك قرر مكرم عبيد أن يهاجم النحاس علنا ويكشف النقاب عن أمثلة كثيرة من المحسوبية والفساد فى حكومة الوفد وأن يسجل اتهاماته في كتاب ينشر فى الوقت المناسب . وهكذا نبتت فكرة تأليف «الكتاب الأسود» على شكل عريضة تقدم إلى الملك متضمنة تفاصيل المخالفات والمحسوبية والفساد مما ارتكبته حكومة الوفد . وقد جرى طبع الكتاب فى مكان سرى وخطط لأن يتسلم الملك نسخة منه فى الوقت الذى يجرى فيه توزيعه على أيدى أعضاء «الكتلة الوفدية» فى جميع المديريات . وكان الملك فاروق الذى أبدى حماسته لفكرة تأليف الكتاب يتابع أنباء إعداده والاحتياطات المتخذة لمنع الحاكم العسكرى من افساد هذه الخطة بل إنه قبل أن تودع صورته وملحقاته من الوثائق فى إحدى خزائن قصر عابدين إلى أن يتم تحديد موعد تقديمه إليه واذاعته على الناس .

وكان من المتوقع أن يكون الكتاب صغيرا ولكنه أخذ يتضخم نتيجة لما تلقاه مكرم من فضائح كان حريصا على أن يستخرج صورا من وثائقها لتعزيز كل ما يكتب ويسجل وتم الاتفاق على نقل ملازم «الكتاب الأسود» من الأماكن التى كان مبعثرا فيها إلى مكان مأمون يتم فيه ضمها بعضها إلى بعض قبل أن يتم تغليف الكتاب.

وأما التوزيع فقد وضعت خطته بحيث ترسل النسخ فى أقفاص الفاكهة إلى جميع أنحاء القطر باسم أعضاء الكتلة وبداخل كل قفص تعليمات تقضى بألا تفتح النسخ إلا فى يوم ١٣ مارس ١٩٤٣ وهو يوم تقديم العريضة وتوزيع الكتاب الذى جاء على شكل عريضة إلى الملك تبين أسلوب العلاج الممكن للمخالفات وتطلب من الملك أن يزيح حكومة الوفد بأسرع ما يمكن صونا للدستور وحفاظا على العدل والكرامة والشرف وأن يعين لجنة قضائية خاصة لدراسة جميع الاتهامات الماسة بالأمانة ونزاهة الحكم وسرعة معاقبة المسئولين عنها . كما قدم اقتراح بسن قانون يتيح سؤال الوزراء والمسئولين عما اكتسبوه خلال اضطلاعهم بالسلطة وسن قانون آخر يضع حدا للإجراءات التى اتخذت ضد الحريات والأفراد والأحزاب وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ودفع تعويضات عن المظالم التى انزلتها الحكومة الوفدية بخصومها .

طرد مكرم عبيد

وبتوزيع الكتاب الأسود حققت السراى هدفها الخاص بالعمل على هدم حزب الوفد بحيث لم تعد تعير كبير اهتمام بمكرم عبيد بعد أن استنفدت أغرضها منه ، ومن ثم اقتصارها على تحويل الكتاب إلى رئيس الوزراء مع رسالة تفسيرية مرفقة به . ومن ناحية أخرى سعى الملك - بعد ظهور الكتاب الأسود - إلى إقالة الحكومة

الوفدية ولو أن ظروف الحرب العالمية حالت دون ذلك بسبب تمسك الإنجليز ببقاء الحكومة الوفدية التى تعاونت معهم تعاونا كبيرا وطبقت بنود معاهدة ١٩٣٦ نصا وروحا . وفى البرلمان جرى طرح الكتاب الأسود من جانب مكرم والوفديين البرلمانيين ، واتخذ الأعضاء قرارا بشجب مكرم وكتابه وتجديد الثقة بالنحاس ووزارته ثم تقدم مكتب مجلس النواب باقتراح يقضى بطرد مكرم عبيد من عضوية مجلس النواب ، وبالفعل تم طرده من المجلس هو وجميع مؤيديه . وفى عام ١٩٤٤ ظهرت جريدة «الكتلة» التى حاول مكرم أن يجعلها منبرا لعرض اتهاماته وتعزيز مكانة حزبه الوليد . وفى ٩ مايو ١٩٤٤ قبض على مكرم عبيد الذى بقى فى السجن إلى أن تعدل الموقف الدولى لصالح الحلفاء ولم تعد فيه للإنجليز حاجة إلى بقاء الحكومة الوفدية التى تمت إقالتها .

ورغم أن حزب الكتلة لم يجتذب إلى صفه كثيرا من الوفديين الذين آثروا البقاء فى حزب الأغلبية فقد كان للكتاب الأسود وجريدة «الكتلة» أثرهما فى زعزعة مركز النحاس وحزب الوفد فى الوقت الذى شجعت فيه السراى على الهجوم بلا هوادة على ذلك الحزب الذى طالما رفع لواء الديمقراطية والوطنية بحيث أصبح موقفه بعد هذه الأزمة أضعف مما كان عليه فى السابق . ومما ساعد على قوة تأثير «الكتاب الأسود» أسلوب مكرم عبيد البليغ المليء بالسجع

والسخرية مما يلقى قبولا لدى جماهير الناطقين بالضاد – وأقدم هنا بعض نماذج من صياغة «الكتاب الأسود» .

حين فسر أنصار النحاس الخلاف بين مكرم والنحاس على انه ناتج عن حنق مكرم نتيجة لفقده سلطانه القديم فى الوفد كان رد «الكتاب الأسود» على ذلك هو تساؤله التالى : «ففيم وعلام نحنق وقد كنا فى كل أدوار الخلاف نشفق ونأبى إلا أن نشفق؟ نشفق من أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذى ساهمنا فى تشييده حجرا فوق حجر وفى تخليده أثرا بعد أثر» .

– «كان جونا صفاء لا يشوبه كدر وثقة لا يعروها حذر إلى أن بزغ شيطان المال بيننا فشاء وقدر» .

– أى مولاى الملك .. أفى عهدك يسام أفراد الشعب كالسوائم ، بل أين نحن من السوائم ، فإن لها جمعيات ترفق بها ، فلا سبيل للمجموع أن يحس وجوده ويتنفس .. ولا سبيل للفرد أن يعيش إلا أن يتلمس العيش ويتحمس أو يتحسس ويتجسس» !

وهكذا نكون قد قدمنا إلمامة بالكتاب الأسود الذى كان من المعاول الأساسية التى هزت دعائم حزب الوفد ومهدت للسخط العام الذى كان ينذر بتطورات جسام من شأنها أن تقضى على نظام الحكم القائم الذى اتضح الا أمل فى إصلاحه من الداخل ما دام اكبر الأحزاب العاملة على الساحة السياسية قد نخر فيه السوس

وهرمت قياداته التى فصلتها هوة واسعة عن الكتل الجماهيرية فما ان تجاوبت اصداء الهجوم علي حزب الوفد من جانب خصومه ومن جانب من كانت تحركهم السراى حتى عمت الفوضى الحياة السياسية المصرية التى كان الملك فاروق قد سيطر عليها وهو يتصف بفساد يفوق ذلك الذى اتهم به الوفد والنحاس . وهكذا أصبحت الساحة السياسية التقليدية تعاني فراغا ينتظر من يملؤه فكان المنعطف الجديد الذى سارت فيه أوضاع مصر منذ عام ١٩٥٢ .

أحمد حسنين

عاشق الملكة والمغنية

١٨٨٥ - ١٩٤٦



● أحمد حسنين باشا

نحن هنا أمام شخصية لعبت دورا هاما فى السياسة المصرية فى الفترة الممتدة مابين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٦ حين كان رئيسا للديوان الملكي، فلقد كان احمد حسنين خلال هذه الفترة يقيم الوزارات، ويسقطها ويتبوأ مركزا قويا فى القصر الملكى جعله يحرك الأحداث من وراء ستار دون أن يبدو عليه أنه يعرف الكثير مما كان يجرى على الساحة، بل أنه كان يؤكد لمعارفه أنه لا يفهم شيئا فى السياسة! ورغم ذلك فانه كان يضع خططه بدقة واحكام وينفذها بمهارة وحذر وصبر ومما ساعد على ذلك انه كان دارسا فاهما ولبقا ومهذبا، فإلى جانب إلمامه العملى بشتى التيارات والاتجاهات فانه جمع بين الثقافة الغربية وبين الاحتكاك الكافى بالحياة المصرية .

وهو ابن شيخ أزهرى درس بجامعة اكسفورد العريقة بانجلترا ثم تولى منصب مفتش بوزارة الداخلية خلال الحرب العالمية الأولى ثم شغل منصب سكرتير بسفارة مصر فى واشنطن ثم أصبح أمينا ثانيا للملك فؤاد ثم رائدا (للأمير) فاروق، خلال اقامته فى انجلترا قبل أن يتولى الحكم، ثم أمينا أولا للملك ثم رئيسا للديوان الملكى، وكان قد درس بتمعن كتاب «الأمير» لنكولو مكيافيللى وهو الكتاب الذى يوضح كيفية تدبير المؤامرات للوصول الى الهدف على أساس

أن «الغاية تبرر الوسيلة»، كما أنه كان مغامرا، ففى وقت ما كان بطل مصر فى لعبة الشيش وحاول أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوربا الى مصر، وقد سقطت به الطائرة مرتين ونجا من موت محقق قبل أن يعود الى البلاد، ثم قام برحلة استكشافية، فى الصحراء الغربية وفى رحلة أخرى اكتشف واحة الكفرة مما أضفى عليه شهرة كبيرة قبل أن ينتقل للعمل بسفارة مصر فى واشنطن .

وفى لندن واتته فرصة العمر حين أصبح رائدا للأمير فاروق، فلما كان الملك فؤاد يعانى من مرضه الأخير الذى أدى الى وفاته بعد وقت قصير، كان من المتوقع أن يتولى ابنه العرش فى أى لحظة، فقد قرر حسنين أن يحرز ثقة الملك الشاب بمجاراة نزواته ومغامراته ، فى الوقت الذى كان فيه عزيز على المصرى يسعى فى لندن الى اعداد ولى العهد للاضطلاع بمسئولياته المستقبلية عن طريق الزامه بالانضباط والدراسة، لهذا اصطدم الرجلان وعاد عزيز الى مصر تاركا حسنين ينفرد بالأمير الشاب ويسيطر عليه بارضاء نزواته، ومن ثم تحميل حسنين مسئولية فساد فاروق بالصورة التى أدت فيما بعد الى سوء سمعته وإفساده الحياة السياسية فى مصر. فلقد سيطر على الأمير الشاب سيطرة قوية أضاف اليها فى المستقبل القريب سيطرة أخرى على الملكة الأم

(نازلى)، وبالتالى فإنه مالبث أن أصبح أقوى شخصية فى القصر الملكى صانع الأحداث فى ذلك الوقت .

فلقد انتهزت الملكة نازلى فرصة وفاة زوجها الذى لم تحبه قط وتولى ابنها القاصر العرش لتطلق لشهواتها العنان، وكان الملك فؤاد يفرض عليها رقابة صارمة، ويحيطها بالجواسيس، ولم يكن يتورع فى بعض المناسبات عن الإسراف فى ضربها، ولما كان قد تقدم بها العمر فانها سعت الى تعويض مافاتها، وانتهز حسنين تقربها منه، وبخاصة خلال رحلة ابنها إلى أوربا بعد توليه العرش، لكى يستحوذ على قلبها بلباقته وعزوفه عن تلبية رغباتها مما جعلها تتعلق به - ومن ثم سيطرته عليها وعلى ابنها معا .

نازلى والمثل العليا !

وفى بداية حكم فاروق سعى حسنين وعلى ماهر إلى أن يحرزا للملك الشاب قدرا كبيرا من الشعبية ومن ثم الدعايات المكثفة التى أحاطت بشخصه من حيث ورعه وتقواه وبطولته ووطنيته وديمقراطيته، ولو أن تهتك نازلى وهوان كبار الساسة وتذللهم قد جعل المثل العليا تتهاوى لدى فاروق منذ بداية حكمه وان كانت سيطرة حسنين عليه جعلته حريصا على الاحتفاظ بالشعبية القوية، التى أحاطت به فى بداية حكمه، وبينما فاروق يبدأ تجاريه فى الحكم وفى السياسة كان حسنين يسعى بدهاء الى أن يكون الرجل

الأول فى الدولة بعد الملك، فما أن تولى رئاسة الديوان الملكى فى أغسطس ١٩٤٠ حتى أدرك. أنه أصبح أقوى رجل فى القصر وربما فى مصر وأنه يلعب دورا خطيرا فى السياسة المصرية خاصة وأنه خبر حياة القصور ودسائسها واستولى على لب أهم شخصيتين فى هذه القصور، وهو فى هذا يشبه كثيرا من شخصيات القصر القريبة من السلطان منذ قديم الزمن، ومنهم ريشيليو في فرنسا وجعفر البرمكى فى بغداد وتوماس مور وولزى فى لندن فى الوقت الذى كانت فيه نازلى تلعب الدور الذى سبق أن لعبته كاترين دى مدسيس فى فرنسا وغيرها من أمهات الملوك الشبان فى مختلف العصور .

وقد تولى حسنين رئاسة الديوان الملكى فى فترة هامة من تاريخ مصر والعالم، فقد اشتد حينئذ الصراع العسكرى بين المانيا وحلفائها وبين انجلترا التى وقفت وحدها تواجه خطر النازية والفاشية بعد سقوط فرنسا واحتلال هتلر لأوربا الغربية ودخول ايطاليا الحرب إلى جانب المانيا، وقد تعرضت مصر لهجمات الايطاليين الذين عزز هتلر قواتهم فى الصحراء الغربية بفيلق افريقيا الذى كان يقوده إرفين روميل.. وكان الانجليز منذ عام ١٩٤٠ يودون أن يتولى النحاس باشا – زعيم الوفد حزب الأغلبية – الحكم أو تتولاه وزارة يرضى عنها، وتباطأ حسنين فى تنفيذ رغبة

الانجليز معللا تباطؤه فيما بعد بأنه كان يود أن يقوى الوفد ليجعله قادرا، على استخلاص حقوق البلاد من الإنجليز وأيا ما كان الأمر. فانه عمل على تعيين وزارات بها أعضاء يرضى عنهم الإنجليز، وإزاء اصرار الإنجليز على أن يتولى النحاس الحكم لكي يعمل على تطبيق نصوص معاهدة ١٩٣٦ التى تخدم جهودهم الحربية [١] حاولت السراى اقناعه بقبول تأليف وزارة ائتلافية، بل لقد رضى فاروق قبل حادثة فبراير ١٩٤٢ بوزارة وفدية خالصة، إلا أن حسنين كان يرفض ذلك ويواصل مماطلاته، لهذا يحمله الصحفى محمد التابعى الذى كان وثيق الصلة به وسجل ذكرياته فى كتابه «من أسرار السياسة والساسة» مسئولية حادثة ٤ فبراير خاصة أن حسنين رفض أن يسلم بالهزيمة أمام النحاس أو أمام السفير البريطاني سير مايلز لامبسون لورد كليرن فيما بعد، «فقد كان من خلقه عدم اليأس، وعدم التسليم بالهزيمة» وبينما حسنين يسوف ويماطل لم تكن الدوائر الانجليزية تستطيع الانتظار الى مالا نهاية خاصة أن الألمان وصلوا إلى مشارف الاسكندرية لهذا تقدموا

---

(١) درجت الوزارات المصرية التي تولت الحكم بعد نشوب الحرب العالمية الثانية على اتباع سياسة عرفت باسم تجنيب مصر ويلات الحرب، وهى سياسة أقرب ما تكون إلى الحياد.. وذلك رغم أن معاهدة ١٩٣٦ نصت على أن تبادر مصر إلى مساعدة انجلترا إذا مادخلت حربا. وقد اتهم على ماهر صاحب هذه السياسة بأن له ميولا محورية هو والملك فاروق.

باننذار الى الملك فاروق الذى خير بين تكليف النحاس بتشكيل الوزارة أو التنازل عن العرش، وكان لهم ماأرادوا بعد أن حاصروا القصر الملكى بالدبابات، فجاء النحاس الى الحكم على أسنة الرماح واعتبر حسنين ماجرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ هزيمة شخصية له فقرر الانتقام من النحاس ومن السفير البريطانى، وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ خطته هى الايقاع بين النحاس وبين كل من ساعده الأيمن مكرم عبيد: الشخصية الثانية فى حزب الوفد وأمين عثمان واسطة الاتصال بين الوفد والانجليز، ونجح حسنين فى تحقيق الشق الأول من هدفه مما أدى إلى طرد مكرم عبيد من الوفد ولم يكتف حسنين بذلك بل شجع مكرم على إصدار «الكتاب الأسود» الذى هاجم النحاس وزوجته التى انتهزت ظروف الحرب فى اثراء نفسها وأقاربها بوسائل غير مشروعة، وندد بالفساد الذى أخذ ينخر فى حزب الأغلبية بل لقد ساعد حسنين على توزيع «الكتاب الأسود» رغم الرقابة والأحكام العرفية، فقد وزعته سيارات الجيش بعد أن وفرت السراى الورق اللازم لطبعه فى وقت كان فيه التموين يخضع للقيود التى فرضتها الحرب .

مصرع أحمد حسنين

واستغل فاروق فرصة التنديد بالنحاس وبالوفد لإقالة الوزارة، ولكن السفير البريطانى حال دون ذلك لكى لا يؤدى مثل هذا الاجراء

الى التاثير فى المجهود الحربى البريطانى، وبعد تحول مجرى الحرب لصالح الحلفاء استغل فاروق الفرصة لاقالة النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وثنى على هذا فيما بعد بالعمل على مقتل أمين عثمان صديق الانجليز، ورغم أن حسنين كان يتوق إلى تولى رئاسة الوزارة بعد إقالة النحاس فقد آثر ألا يواجه مثل هذا الموقف غير الدستوري، ويتلقى الصدمة الأولى مؤجلا تحقيق هدفه إلى وقت لاحق، وعقدت نازلى الأمور حين طلبت من ابنها أن يأمر رئيس ديوانه بأن يتزوجها، وقيل إن فاروق وافق بشرط أن يكون الزواج عرفيا، كما قيل إن فكرة قتل أحدهما جالت بخاطره فى ذلك الوقت، وفي ٩ فبراير ١٩٤٦ لقي أحمد حسنين مصرعه فوق كوبرى قصر النيل بعد اصطدام سيارته بسيارة عسكرية بريطانية، وأنقذ مقتل حسنين فاروق من اغتياله أو اغتيال أمه، وإن تكن وفاة حسنين في هذا الظرف مثارا للتساؤل، وكان فاروق فى أواخر حياة أحمد حسنين يتعمد إهماله وعدم استشارته بل كان يتعمد الاستهزاء به أمام خدمه ويقال انه ذهب إلى مسكن حسنين بحجة العزاء وأخذ ينبش فى أوراقه الخاصة وانتزع ورقة تدل الملابسات على أنها

وثيقة زواجه بنازلى التى مالبثت أن بارحت مصر إلى أوربا بعد أن فقدت عشيقها (أو زوجها) وتولاها الغضب على ابنها .

وبعد اختفاء حسنين عن المسرح انطلق كل من فاروق ووالدته لارضاء نزواته - فأخذ الملك يغشى اندية القمار حيث كان يمضى سهراته حتى مطلع الفجر، كما أصبح يزور الراقصات فى دورهن وتمادى فى السرقة واختلاس أموال الدولة وأخذ يهرب أمواله إلى الخارج ويعتدى على الأعراض وينتهك الحرمات مما أساء إلى سمعته وعجل بسقوطه، أما والدته فانها انتقلت من عشيق الى عشيق، بل وزوجت إحدى بناتها من أحد عشاقها رغم اختلافه فى الدين عن زوجته أخت الملك وكانت فضيحة هزت دعائم العرش ومرغت سمعة البيت المالك فى الرغام، وأخر لوثة من لوثات نازلى أنها أعتنقت الديانة الكاثوليكية وتزوجت فى خريف العمر أحد الأمريكان!

ولقد جرى التساؤل اخيرا من المسئول عن انحراف فاروق: أحمد حسنين أم نازلى ؟ ورغم أن هاتين الشخصيتين، لعبا دورا هاما فى هذا الافساد فان ظروف تنشئة فاروق هى الأخرى مسئولة عن فساده، فقد كان الملك فؤاد صارما مع ابنه ووكل أمر الاشراف عليه فى طفولته الى مربية انجليزية قاسية عزلته عن اقرانه بحيث لم يجد أمامه صحبة سوى الخدم، كما أن كونه الأبن الوحيد لوالده

والوريث الوحيد للعرش قد جعله موضعا للاهتمام من جانب رجال القصر الذين درجوا على أن يقدموا له وهو طفل وهو شاب امارات الخنوع والتذلل مما جعله يكفر بالناس ويتعمد اذلالهم، يضاف إلى هذا أنه أحيط فى بداية حكمه بنصحاء دربوه على أن يحكم وأن يملك ملفتين نظره الى الثغرات الموجودة فى دستور ١٩٢٣ وهى الثغرات التى أغرته بالحكم المطلق.. ومن المعروف - كما قيل - أن السلطة مفسدة وأن السلطة المطلقة لا حد لافسادها، ومصداقا لما نقول نلفت النظر إلى أسلوب تربية الأمراء وأولياء العهد فى بريطانيا منذ نعومة أظفارهم، فهم يتلقنون مزايا الديمقراطية ويتسلحون بكل أنواع المعارف والمهارات التى تؤهلهم للنجاح بعد أن يضطلعوا بمسئولياتهم، ويتدربوا على طاعة القوانين ومجاراة التقاليد والصحافة والبرلمان لهم بالمرصاد إذا ما خرجوا عن الجادة.

وأخيرا يمكننا أن نوزع مسئولية انحراف فاروق على كل من تملقوه وأرضوا نزواته ولم يحسنوا له النصح حرصا منهم على قضاء مصالحهم بعدم إغضابه يستوى فى هذا أحمد حسنين ونازلى وكبار ساسة البلاد الذين خلعوا عليه من الصفات مايضعه فى مصاف الأنبياء والمرسلين .!

محمد محمود

(١٨٧٨ - ١٩٤١)



● محمد محمود

من أبرز الشخصيات التى ظهرت على المسرح السياسى فى مصر فى فترة ما بين الحربين – فقد نفى مع سعد زغلول واسماعيل صدقى وحمد الباسل إلى مالطة فى عام ١٩١٩ مما عجل بنشوب ثورة ١٩١٩ المجيدة التى تعد أبرز حدث فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر بحكم أن شعبا أعزل وقف يتحدى بريطانيا زعيمة المنتصرين على دول الوسط ألمانيا والنمسا – المجر والدولة العثمانية وحلفائها . وسيرة محمد محمود تلقى ظلالا على الواقع الاجتماعى فى مصر فى أوائل القرن العشرين – فهو ينتمى الى شريحة كبار الملاك الزراعيين المصريين التى بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر تزاحم الطبقة التركية الشركسية التى احتكرت الوظائف العليا ووضعت أيديها على مساحات واسعة من الاراضى الزراعية بعد أن أغدقت عليها الأسرة الحاكمة لكى تعتمد عليها فى السيطرة على الريف وتنفيذ أوامر الحكومة . وقد بدأ ظهور هذه الشريحة فى أواخر عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ١٨٧٩) وهى الفترة التى انخرط فيها الأعيان فى العمل السياسى بعد أن مستهم الأزمة المالية وعانوا من التدخل الأجنبى.

وقد انحدرت أسرة محمود سليمان – والد محمد محمود – عن

أب (سليمان عبد العال) انتسب إلى قبيلة بنى سليم بالحجاز .
وقد أصبح محمود سليمان من كبار ملاك الأراضى ومن الأعيان البارزين فى صعيد مصر حيث وضع يده على أملاك شاسعة فى مديريتى أسيوط وجرجا وانتخب لمجلس النواب فى عام ١٨٨١ وانحاز بعض الوقت إلى الثورة العرابية بعد أن شارك فى المعارضة فى أوائل عهد الخديو توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) . فقد انضم الى الأعيان الذين اشتد سخطهم بسبب إلغاء دين المقابلة فى أوائل عام ١٨٨٠ - وكان الخديو إسماعيل قد فرض هذا الدين قبل ذلك بعقد من الزمان ونص على أن من يدفع ايجار أراضيه ست سنوات مقدما يعفى من نصف هذه الضريبة الى الأبد . وأقبل الأعيان على دفع دين المقابلة ثم ألغته لجنة التصفية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، مما أدى إلى خسارة الأعيان للأموال التى دفعوها بالإضافة الى تحملهم أعباء زيادة ضرائب الأطيان العشورية فى نفس العام . لهذا أيد الأعيان مظاهرة عابدين فى سبتمبر ١٨٨١ وهى المظاهرة التى قام بها الجيش بقيادة أحمد عرابى وقدم فيها عرابى الى الخديو عريضة تطالب بالحكم النيابى واسقاط الوزارة القائمة التى كان يرأسها رياض باشا . ولم يكن باستطاعة الخديو توفيق أن يرفض المطالب الوطنية لأن جيشه كله انضم الى المتظاهرين بما فى ذلك حرسه الخاص . وكانت النتيجة هى سقوط

وزارة رياض وتولى وزارة يرأسها محمد شريف باشا حاولت تهدئة الموقف بإبعاد الوحدات العسكرية التى اشتركت فى مظاهرة عابدين الى خارج القاهرة التى ضمن الأعيان بعدها تعهد الضباط بعدم التدخل فى السياسة واشتركوا فى المطالبة بتشكيل مجلس نيابى رأسه محمد سلطان باشا أبرز أعيان مصر الوسطى . وسرعان ما احتدم الموقف حين طالب النواب بمناقشة الميزانية وهو ما رأى الشيخ محمد عبده تأجيله بعض الوقت حتى ينجلى الموقف ويخف خطر التدخل الأجنبى خاصة أن قانون التصفية الذى فرضته انجلترا وفرنسا فى أوائل عهد الخديو توفيق كان ينص على أن يخصص نصف الميزانية لدفع أقساط الديون التى استدانها الخديو إسماعيل ومن ثم كان اشراف مجلس النواب على مناقشتها يمس المصالح الأجنبية فى مصر . وأدت هذه الأزمة الى سقوط وزارة شريف وتولى وزارة وطنية يرأسها الشاعر - الضابط محمود سامى البارودى .

وحينئذ انقسم الثوار بعد أن انضم عدد كبير من النواب الى الخديو الذى سعى الى استمالتهم ملوحا لهم بالخطر الذى يهددهم فى حالة تعرض مصر لخطر التدخل العسكرى الإنجليزى - الفرنسى خاصة وقد لوح بعض خطباء الثورة للفلاحين بأن أراضى مصر ملك لهم لا لملاكها من صنائـــع الأسرة الحاكمة . وكانت

النتيجة أن انضـــم كثير من الأعيان إلى جانب الخديو وأعلنوا رفضهم لمطالبة الضباط بخلعه . وقد تزعم الأعيان محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب الذى بعث برسائل إلى أعيان الأقاليم يطالبهم بألا يقدموا أى نوع من المساعدة للعرابيين وبلغ أوامـــر الخديو للمديرين وبعض أعضاء مجلس النواب من العمد ومنهم محمود سليمان وغيره يدعوهم فيها الى مساعدة الانجليز الذين بدأوا بغزو مصر - بل إن محمد سلطان لعب دوره فى توزيع منشور السلطان العثمانى الخاص بإعلان عصيان عرابى . وبعد موقعة التل الكبير (سبتمبر ١٨٨٢) اشترك محمود سليمان فى تقديم الهدايا لقادة الجيش البريطانى ، ثم ما لبث أن اعتزل العمل السياسي وعاد من جديد الى بلدته ساحل سليم .

● العودة للسياسة

وفى عهد الاحتلال نمت طبقة كبار الملاك الزراعيين الى حد كبير وبدأوا يزاحمون الطبقة التركية - الشركسية فاتسعت أملاكهم الزراعية وازداد اشتراك أبنائهم فى الوظائف الحكومية خاصة وقد احتضن الانجليز منهم من أبدوا استعدادهم للتعاون مع المحتل . وعاد محمود سليمان من جديد إلى العمل السياسى فأصبح فى عام ١٨٩٦ عضوا بمجلس شورى القوانين ثم وكيله المنتخب إلى أن جرى حله فى عام ١٩١٢ ثم جرى اختياره رئيسا لحزب الأمة الذى

تألف بمشاركة من الانجليز لموازنة ما اعتبروه تطرفا فى حركة مصطفى كامل الوطنية ، خاصة وأن اللورد كرومر سعى إلى استقطاب أعضاء الحركة الوطنية الذين اعتبرهم معتدلين و «عقلاء» من أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول . وقد ألفت شركة «الجريدة» في منزل محمود سليمان الذى انتخب رئيسا لتحريرها . وبعد أن تحولت شركة الجريدة الى حزب الأمة ظل رئيسا له حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، خاصة وقد اختلف عن كثير من الشخصيات التى برزت على مسرح السياسة بسبب كونه من المصريين الخلصاء الذين لم يدخلهم دم أجنبى . وحين نشبت ثورة ١٩١٩ أصبح منزله مقرا للحركة الوطنية ورأس لجنة الوفد المركزية بعد تشكيله إلى أن أرغمته السلطة العسكرية الإنجليزية على مغادرة القاهرة والإقامة ببلدته ساحل سليم .

هذه هى الخلفية الاجتماعية لمحمد محمود الذى كان شديد الشعور بمكانته الاجتماعية وطامحا إلى أن تتوازى معها صلاحياته، ومن ثم ما عرف عنه من صلابة الرأى كان يرى فيها على حد قول المؤرخ احمد شفيق مظهرا من مظاهر العز والجاه – وقد قال عنه سعد زغلول فى مذكراته إنه «متكبر معجب بنفسه يستخف بغيره ، غيور يأكل بعضه اذا علا الغير عليه ، ويجهد نفسه (لكى) يخفى فضل غيره ليظهر فضله .. يضحى المصلحة

العامة للمصلحة الخاصة ، يطلب فى كل عمل يعمله شأنا خاصا فإن لم يجده فما أسهل عليه أن يهمله ، سيئ الظن كثير الوسوسة، غير أمين في الرواية ولا مروءة عنده » . ومن ناحية أخرى فقد أجمعت الصحف الحزبية على نزاهته وعفة لسانه حتى لقب بالزعيم النبيل خاصة أنه تجنب فى معظم الأحوال أن يقول كلمة نابية في حق خصومه .

وبعد أن تلقى بعض التعليم العام فى مصر أرسل الى بريطانيا، فكان أول مصرى يتخرج في جامعة أكسفورد حيث درس التاريخ الحديث . ولقد تسلق بسرعة سلم بعض الوظائف الهامة خاصة وقد عرف عنه وعن والده موالاتهما للإنجليز الذين فتحوا أمامه أبواب الوظائف والترقية نتيجة لمكانة والده واتقانه للغة الانجليزية واتباعه بعض الخصال والعادات الإنجليزية برغم نشأته فى صميم صعيد مصر حيث للتقاليد أهمية خاصة . فقد تولى وهو فى شرخ الشباب وظيفة وكيل تفتيش غير دائم فى وزارة المالية ثم نائب مفتش فى هذه الوزارة فيما بين عامى ١٩٠١و ١٩٠٣ ثم سكرتيرا خاصا لمستشار الداخلية الانجليزى (١٩٠٥ ثم مديرا للفيوم ١٩٠٦) ثم مديرا لمنطقة قناة السويس (فيما بين عامى ١٩١٠ و ١٩١١) ثم مديرا للبحيرة (فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٧).

وكان محمد محمود فى طليعة من قاموا بالنشاط السياسي في

أعقاب الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى مالطة مع سعد زغلول وإسماعيل صدقي وحمد الباسل - وكان هذا النفي هو السبب المباشر لنشوب ثورة ١٩١٩ التي عمت مصر من أقصاها إلى أقصاها، ثم أطلق سراحه مع الزعماء الآخرين الذين توجهوا هم وغيرهم إلى باريس لطرح القضية المصرية على مؤتمر الصلح ، وكان في طليعة من عادوا إلى مصر بعد أن أوصدت أبواب مؤتمر الصلح أمام زعماء المصريين ، ثم كان في طليعة من انشقوا على سعد زغلـــول ووقفـــوا إلى جانب عدلي يكن يشدون أزره حين تفاوض مع الانجليز - ورغم ذلك فحين صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ صرح بأنه لم يحقق كل آمال الأمة بسبب التحفظات الأربعة التي سلبت مصر جوهـــر الاستقلال ولو أنه عاد فاعتبر التصريح خطـــوة كبرى نحو الاستقـــلال ونقطة أرتكاز قوية تستعين بها الأمة على حل المسائل موضع التحفظات .

وكان قد جرى التفكير في هذه المرحلة في تأليف حزب الأحرار الدستوريين (أغسطس ١٩٢١) بهدف العمل على سرعة صدور الدستور ، ثم تأسس الحزب على أكتاف كثيرين من أعضاء حزب الأمة القدامي وانتخب مجلس إدارته نائبين للرئيس ، أحدهما محمد محمود ، ثم أصدر حزب الأحرار جريدة يومية (السياسة) ثم أخرى أسبوعية (السياسة الأسبوعية) ، وكان معظم أعضاء حزب الأحرار الدستوريين ممن انفصلوا عن الوفد الذي رأسه سعد زغلول وكانوا

من معظـــــم المخالفين لسعد والوفد ، فاعترفـــوا بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى عده سعد نكبة وطنية كبرى . وكان حــزبهم يقوم على الوزراء القدامى وكبار الموظفين وملاك الأراضى سواء من المصريين أم من الطبقة التركية ، الشركسية القديمة ، ولم يكن يمانع من حيث المبدأ فى التعاون مع الملكية أو فى عقد اتفاق مناسب مع بريطانيا - إذ من الطبيعى أن تميل الطبقات الاجتماعية التى قام عليها إلى شىء من التفاهم مع الانجليز الذين كان بإمكانهم - عند الاقتضاء - أن يحموا طبقة كبار الملاك من ثورية الجماهير .

● زعامة الوفـــد

وبعد ظهور نتائج انتخابات ١٩٢٤ التى أحرز فيها سعد وأنصاره نصراً مؤزرا استقال عدلى يكن من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين الذين ظلوا بدون رئيس طوال عام ١٩٢٤ وذلك رغم ترشيح الشائعات لمحمد محمود لرئاسة الحزب نتيجة لكونه النائب الأول لرئيس الحزب . إلا أن الاختيار وقع على عبدالعزيز فهمى الذى كان قد اصطحبه سعد زغلول وعلى شعراوى لمقابلة المندوب السامى البريطانى ومخاطبته فى أمر المطالب الوطنية ، وكان محمد محمود يطمع فى ذلك الوقت إلى انتزاع زعامة الوفد وهو الأمل الذى طالما راوده ، وبعد وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ طمح

محمد محمود إلى انتزاع زعامة الوفد مستغلا ضعف القيادة الجديدة والتقت رغبته مع رغبة الملك فؤاد الذى سعى إلى التخلص من الوزارة الائتلافية التى رأسها النحاس وبذلك قاد محمد محمود حزبه لتحطيم الإتلاف الوفدى - الدستورى الذى تشكل ضد وزارة زيور التى خلفت وزارة سعد زغلول وأخيرا تحقق طموح محمد محمود إلى رئاسة الوزارة بعد أن أصبح رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين بعد استقالة عبدالعزيز فهمى من رئاسة الحزب ، وظل محمد محمود رئيسا للحزب حتى وفاته فى عام ١٩٤١ .

وبعد أن أصبح محمد محمود رئيسا للوزارة في عام ١٩٢٨ بدأ استخفافه بالدستور والحياة النيابية - فقد حل البرلمان وأوقف الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ولم يستشر حزبه أو زملاءه الوزراء ، معلنا أنه سيتبع سياسة القبضة الحديدية وأنه يستهدف القضاء على الأوتوقراطية البرلمانية المستندة إلى دستور ١٩٢٣ التى سمحت بطغيان الأكثرية على الأقلية .

وقد رحبت بعض الصحف الانجليزية بتعطيل محمد محمود للبرلمان على أساس أن المصريين لم يكونوا قد تأهلوا بعد للحكم النيابى وأن هذا التعطيل سيتيح للناس أن يتنبهوا إلى الشعور بالمسئولية السياسية ، وعلى أى حال فقد تنكر محمد محمود لكل ما أعلن إيمانه به ، من قبل ، ولكنه مع ذلك قاد حزبه من جديد

للائتلاف مع الوفد للتخلص من وزارة صدقى التى تولت الحكم فى عام ١٩٣٠ وألغت دستور ١٩٢٣ وزيفت الانتخابات وبقيت فى الحكم ثلاث سنوات وقف ضدها خلالها الوفد والأحرار الدستوريون الذين استطاعوا تحريك الجماهير ضد قبضة صدقى الحديدية إلى أن تم التخلص منها بتدخل كل من القصر والانجليز ، ثم تمهد السبيل للتفاوض مع بريطانيا بعد غزو ايطاليا للحبشة فى عام ١٩٣٥ وظهور مقدمات الحرب العالمية الثانية مما جعل الساسة المصريين يشكلون جبهة وطنية طالبت الانجليز بفتح باب المفاوضات من جديد ، وكان محمد محمود عضوا فى الهيئة التى تفاوضت حول معاهدة ١٩٣٦ ثم وقعتها، خاصة وأن بريطانيا مالت إلى الزام القوى السياسية الرئيسية فى مصر بالتوقيع على المعاهدة حتى لا تتنصل منها ، وبرر محمد محمود موافقته على المعاهدة بعدم إمكان الحصول فى معاهدة تتم عن طريق المفاوضات على مطالب مصر كاملة ، رغم كون المعاهدة خطوة نحو تحقيق هذه المطالب برغم القيود التى مست الاستقلال، وأوضح أنه لولا المزايا التى تضمنتها، ولولا الظروف الدولية القائمة ما أمكنه قبولها وبالتالى فإن طالب بتعديلها فى أقرب وقت ويشبه هذا رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير الذى أيده وانتقد ما احتواه من سلبيات .

وفى وزارته الثانية والأخيرة التى أعقبت إقالة الوزارة الوفدية

في عام ١٩٣٧ عمد إلى تزوير الانتخابات فى نفس الوقت الذى عارض فيه أوتوقراطية القصر برغم تعاونه مع الملك فاروق فى البداية - فبعد ظهور نتائج انتخابات عام ١٩٣٨ سعى إلى ممارسة سلطاته كاملة مما أدى إلى اصطدامه بالقصر ثم انعزاله إلى أن توفى فى عام ١٩٤١ بعد أن حلت به الأمراض وأثر فيه نشوب الحرب العالمية الثانية وتهديد مصر من ناحية الغرب على يد القوات الفاشية .

الدكتور

محمد صلاح الدين

١٩٠٢ - ١٩٩١

أول من نادى بالحياد
ووقف ضد الأحلاف



● د. محمد صلاح الدين

لمع نجم الدكتور محمد صلاح الدين خلال المفاوضات المصرية - البريطانية التى جرت فى عامى ١٩٥٠ - ١٩٥١ وأحرز خلالها شعبية كبيرة بسبب مواقفه الوطنية وتمسكه بحقوق بلاده .. وقد أطلقت عليه الصحافة المصرية حينئذ اسم «السياسى الصامت» بسبب حرصه الشديد على عدم الإسراف فى الإدلاء بالتصريحات ، كما أطلق عليه اسم «السياسى المبتسم» لأنه كان يخاطب مستمعيه والابتسامة لا تفارق شفتيه .

ولد محمد صلاح الدين فى طنطا فى عام ١٩٠٢ وهو ابن طبيب انتمى إلى أسرة بحى الخليفة فى القاهرة . وقد انخرط منذ شبابه فى العمل الوطنى - فاشترك فى ثورة ١٩١٩ التى كان خلالها عضوا فى لجنة الطلبة العليا عن مدرسة الحقوق وهى اللجنة التى كانت تنتمى إلى «الوفد المصرى» . ومنذ ذلك الوقت انغمس فى النشاط الوطنى : فكان يخطب فى المحافل وينظم التظاهرات ويطبع البيانات والمنشورات الوطنية ويوزعها على المواطنين ويقدم الاحتجاجات إلى مختلف الجهات . وكل ذلك مما لفت إليه نظر الزعيم سعد زغلول الذى قربه إليه - وأزمع وهو رئيس للوزراء فى عام ١٩٢٤ - إرساله فى بعثة دراسية إلى فرنسا للحصول على

درجة الدكتوراه فى القانون . ولو أن سقوط الوزارة على أثر مقتل السردار فى عام ١٩٢٤ قد أجل سفره . وخلال دراسته فى فرنسا أرسل الوفد مكرم عبيد إلى لندن للدعاية ضد وزارة محمد محمود ، واستعان مكرم بمندوبين عن الجمعيات الطلابية المصرية فى مختلف العواصم الأوربية الذين عقدوا فى لندن بحضوره مؤتمرا عاما اشترك فيه محمد صلاح الدين باعتباره أحد أعضاء الجمعية فى باريس . وبعد أن اتم دراسته عاد إلى مصر حيث لم يلبث أن أصبح أحد كبار المحامين الوطنيين . وقدر مصطفى النحاس - خليفة سعد - كفاءته ونزاهته فاختاره مديرا لمكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء ثم سكرتيرا عاما للمجلس وفى مرحلة تالية عينه وكيلا لوزارة الخارجية . وفى عام ١٩٣٠ كان قريبا من النحاس خلال تفاوضه مع ارثر هندرسون .

ثم كان له دور فى أعمال الجبهة الوطنية التى تولت المفاوضات فى عام ١٩٣٦ . وفى عام ١٩٥٠ تم تعيينه وزيرا للخارجية فى آخر وزارة وفدية وذلك برغم اعتراض الملك فاروق على ترشيحه بحجة صغر سنه (وكان حينئذ يبلغ الثامنة والأربعين !) ولو أنه يحتمل أنه كان يريد أن يعين فيها أحد رجاله . إلا أن النحاس تمسك به تمسكه بالدكتور طه حسين .

وحين اضطلع بمفاوضة الإنجليز فى عامى ١٩٥٠ - ٥١ كان قد

قرأ كل ما يتعلق بالقضية المصرية من وثائق رسمية كما كان قد حضر فى سكرتارية النحاس كل مفاوضة أجراها واطلع على محاضر المفاوضات التى أجراها سواه . يضاف إلى هذا أن دراسته فى مصر كانت قانونية وأن دراسته العليا فى باريس كانت قانونية - سياسية مما ساعده على الإلمام بكل جوانب القضية المصرية . كما اشتغل بالصحافة فترة لا بأس بها وبالمحاماة فترة أطول . وهكذا فإن دراسته وتجاربه كانت تؤهله للتفاوض بمهارة لانتزاع حقوق مصر من المستعمر البريطانى .

وفى ٢٤ أبريل ١٩٥١ حددت حكومة الوفد مطالب مصر على الوجه التالى:

١ - الشروع فى إجلاء القوات البريطانية عن مصر بمجرد عقد الاتفاق على ألا يتجاوز ذلك مدة سنة .

٢ - تسليم القاعدة البريطانية فى قناة السويس إلى القوات المسلحة المصرية بمجرد اتمام الجلاء .

٣ - اعطاء أولوية خاصة لتزويد الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات اللازمة فى أقرب وقت باعتبار مصر قائمة فى منطقة استراتيجية.

٤ - وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى وتمتع السودانيين فى نطاق هذه الوحدة وفى مدى عامين بالحكم الذاتى .

٥ - عقد اتفاق بين الطرفين يمكن بمقتضاه عودة القوات البريطانية إلى الجهات التى يتفق بين الحكومتين على ضرورة عودتها إليها للمعاونة في الدفاع عن مصر فى حالة وقوع اعتداء مسلح عليها أو فى حالة اشتباك بريطانيا فى حرب نتيجة لاعتداء مسلح على البلاد العربية المتاخمة .

٦ - إذا عادت القوات البريطانية إلى مصر وفقا للبند السابق يتعين الشروع فى إجلائها عنها بمجرد انتهاء العمليات الحربية على أن يتم الجلاء برا وبحرا وجوا فى مدة اقصاها ثلاثة شهور .

٧ - إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وجميع ملحقاتها وكذلك اتفاقا ١٨٩٩ (الخاصان بالسودان) بمجرد سريان الاتفاق الجديد . وفى أوائل صيف ١٩٥٠ رحب وزير الخارجية البريطانية - إرنست بيفن - بفتح باب المفاوضات واقترح أن يجرى أولا بين رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية - فيلد مرشال سير وليم سليم - والحكومة المصرية بحث رسمى ، باقل علانية ممكنة ، للنواحى العسكرية للمسألة التى تواجه بريطانية فى الشرق الأوسط ووافقت الحكومة المصرية على ذلك على أساس مبدأى الجلاء ووحدة وادى النيل.

فجاء وليم سليم إلى مصر فى صيف ١٩٥٠ وأوضح للمسئولين أنه لا يمكن فصل المسألة السياسية عن المسألة العسكرية وأكد

وجود «الخطر الروسي الداهم» وأنه لا يمكن لدولة واحدة مقاومته ، وأن الحل الوحيد هو تكتل الدول ذات المصلحة فى مقاومته على أن تتنازل كل منها عن سيادتها ، ملوحا بأن بريطانيا ذاتها قد تنازلت هى وغيرها من البلدان عن بعض سيادتها وقبلت وجود قوات اجنبية على أراضيها خاصة بعد أن أطرحت الولايات المتحدة سياسة العزلة واشتركت اشتراكا فعليا فى مشروعات الدفاع عن العالم الغربي . وأضاف وليم سليم أن مصر والشرق الأوسط سيكونان مجالا لاهتمام السوفييت فى حالة نشوب الحرب وأنه ليس باستطاعتها أن تنجو بنفسها إذا اثرت الحياد - إذ لا تستطيع الحياد إلا إحدى دولتين : إمـــا قوية (ومصـــر حينئذ غير قـوية) أو صغيرة لا يطمع فيها أحد . فإذا عجزت مصر عن البقاء على الحياد اضطرت إلى الدفاع الذى يستلزم حلفاء ، وبريطانيا هى الحليف . وأوضح سليم أنه يتطلع إلى نظام للدفاع يظهر بجلاء أن وجود الجيوش البريطانية فى منطقة قناة السويس لا يعنى الاحتلال بأى حال ، بل هدفه الدفاع لمواجهة الموقف الدولى ، وأن باستطاعة السلطات العسكرية المصرية أن تجد نظاما يخدم مصالح البلدين المشتركة .

ورد مصطفى النحاس على كل هذه الحجج بقوله إن الشعب المصرى لا يمكن أبدا أن يركن إلى وعود جديدة أو يقبل نظريات

مستحدثه ترمى فى النهاية إلى إبقاء قوات اجنبية علي الأراضى المصرية تحت أى اسم أو باية صفة . وأن ثقة الشعب المصرى قد ضعفت في وعود بريطانيا ونظرياتها وكذلك بالنسبة إلى الدول الكبرى المسيطرة على العالم . وأنه يجب البحث عن طريقة اخرى فى تعاون من نوع جديد يحقق الجلاء عن قناة السويس ويكفل المصالح المشتركة ، وأنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقنع الشعب المصرى بأن مصر ستكون مقصودة لذاتها بالهجوم بحكم أن وجود جيش أجنبى على أراضيها هو الذى سيعرضها للهجوم الروسى . وفى ٦ يونية ١٩٥٠ أدلى النحاس ببيان شامل عن مطالب مصر وأهمية الجلاء عن قناة السويس خاصة أن الدول المجاورة لروسيا - كتركيا وإيران - وهى الدول المعرضة لخطر الغزو المباشر ، لم تكن فيها قوات احتلال أجنبية وأن بريطانيا فى يدها الكثير من القواعد الجوية والاستراتيجية فى البلاد المحيطة بمصر كمالطة وقبرص وبرقة والأردن مما يسهل إرسال القوات منها إلى مصر في حالة نشوب الحرب . وأوضح النحاس أن مصر مصممة على جلاء القوات البريطانية عن أراضيها جلاء ناجزا وانها ستقوى جيشها وتزوده بأحدث الأسلحة والعتاد على أن تتبادل الحكومتان الرأى حين تنشب حالة تهدد الأمن فى الشرق الأوسط . وإذا وقع اعتداء مسلح على مصر أو إذا دخلت بريطانيا الحرب

نتيجة لوقوع اعتداء مسلح على إحدى الدول المجاورة لمصر فإن مصر تتعاون عسكريا داخل حدودها وفى نطاق إمكانياتها مع بريطانيا للدفاع . وفى مثل هذه الأحوال إذا تبين أن من الضرورى استقدام قوات بريطانية إلى الأراضى المصرية فإنها ستلقى جميع التسهيلات لاستقبالها بعد الاتفاق عليها مقدما على أن تغادر القوات البريطانية الأراضى المصرية بمجرد انتهاء العمليات الحربية.

ولكن سليم أصر على ضرورة وجود القوات البريطانية على الأراضى المصرية فى وقت السلم بحجة أن دول الدومنيون (الكومنولث) لم تكن تقبل إرسال قوات لمساعدة مصر إذا لم تكن القوات البريطانية فى مصر بالفعل . ثم بين لوزير الخارجية المصرى إنه ليس من مصلحة مصر إزالة المنشئات والقواعد البريطانية من منطقة قناة السويس ثم محاولة إعادتها بعد ذلك على أساس جديد على اعتبار أن ذلك غير عملى ، وذهب إلى أن من الضرورى ، لأسباب تتعلق بالدفاع ، وجود قوات عسكرية لتكون فى حالة تسمح باستخدامها فى وقت قصير وأن يكون بها فنيون وموظفون إداريون . وكان رد صلاح الدين أن مصر مصممة على الدفاع عن نفسها وهى توافق على عقد محالفة دفاعية مع بريطانيا بشرط الجلاء الناجز الكامل ، وأن تكون هذه المعاهدة

معاهدة الند للند على قدم المساواة . إلا أن الجانب البريطانى أصر على ضرورة توافر قاعدة تكون معدة لاستقبال جميع النجدات فى الحال وهذه القاعدة هى قناة السويس .

تيار الوحدة من قديم الزمن

أما فيما يتعلق بالسودان فقد أصر الجانب المصرى على ضرورة وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى فى حين أصر الجانب البريطانى على ضرورة أن يكون للسودانيين رأي فى تقرير مصير بلادهم . واستغل السودانيون النزاع المصرى - البريطانى في التوصل إلى الاستقلال عن كل من دولتى الحكم الثنائى مما جعل الجانب المصرى يتهم الانجليز بمحاولة فصل السودان عن مصر وإلحاقه بالامبراطورية البريطانية . وعلى حين كانت حكومة الوفد تربط بين مسألتى الجلاء والسودان كان الجانب البريطانى يصر على فصل كل من المسألتين عن الأخرى . ولم يبد أى من الطرفين رغبة فى التوصل إلى حل وسط مما جعل المفاوضات تتسم بالتوتر والتصلب . فقد أبدى البرلمان البريطاني تمسكه بعدم الجلاء عن مصر دون احتياط للمستقبل ، فى حين تعرضت حكومة الوفد لضغط المعارضة والصحافة المصرية التى كانت تثير روح العداء للانجليز وتتهم الحكومة بالفساد واستغلال النفوذ ، فى الوقت الذى كان فيه الرأى العام يضغط على الحكومة عن طريق

التظاهرات والاضطرابات . ولما كان الانجليز على بينة من حقائق الموقف فإنهم اصطنعوا البطء في إجراء المفاوضات على أمل استهلاك صلابة المفاوضين المصريين الذين قد ترغمهم الظروف على التضحية بالمكاسب الآجلة والتركيزعلى هدف مباشر .

وحاولت الولايات المتحدة التى أبدت انزعاجها من الموقف فى ايران وانعكاساته المباشرة فى منطقة الشرق الأوسط ومن ثم مساندتها للموقف البريطانى من المفاوضات من زاوية اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن الشرق الأوسط حاولت أن تتوسط بين طرفى التفاوض . ولفت صلاح الدين نظر الأمريكان إلى أنه لا ينظر إلى الدفاع من وجهة نظر مصر وحدها ، بل ايضا من وجهة نظر بريطانيا كذلك ولكن بشرط أن يتحقق ذلك بطريقة معقولة من زاوية الدفاع عن الشرق الأوسط ، مشيرا إلى أن من حق دول المنطقة قبل غيرها أن تدافع عن اراضيها ومؤكدا أن مصر ستحافظ على فعالية قاعدة قناة السويس حتى تكون صالحة للاستعمال فيما لو نشبت الحرب . وأضاف إلى ذلك أن مما لا شك فيه أن المحصلة النهائية ستتوقف إلى حد كبير على المساعدة التى سوف تقدم للجيش المصرى وعلى المساعدة الاقتصادية التى ستقدم لشعوب المنطقة . ولخص وجهة نظره بأن مصر والبلدان العربية مستعدة للمساهمة بنصيبها فى الاستعداد العام لمواجهة

العدوان والمحافظة على السلام وعلى وحدة الأمم الحرة فى العالم . ولكنها من ناحية أخرى تصر على أن يكون لها الرأى الأول فى أراضيها وعلى أن تأتى المساعدة التى تبذلها بلدان أخرى فى المحل الثاني وحين يحتاج إليها الأمر بشرط الا يترك كل عبء الدفاع على عاتق بلدان تقع خارج المنطقة .

كما أصر صلاح الدين على ربط مسألة الجلاء بمسألة السودان وهو ما لم تقبل به كل من بريطانيا والولايات المتحدة . وحين لوح السفير الامريكي فى القاهرة - جيفرسون كافرى - بالخطر السوفييتى الذى ادعى أنه أخطر من الامبريالية البريطانية وأكد على ضرورة بقاء القوات البريطانية استعدادا لمواجهة الروس كان رد صلاح الدين أنه يدرك خطر «الامبريالية الروسية» التى كانت بعيدة عن إدراك الشعب المصرى الذى لم يسبق له أن رأى جنديا روسيا أو تعرض للاحتلال الروسي . وحين لوح الجانب البريطانى بأن السودانيين لا يقبلون بالسيادة المصرية أجاب صلاح الدين بأن من حق السودانيين أن يقرروا مستقبلهم ولكن ليس فى الوقت الذى يسيطر فيه الإنجليز على السودان مما يشكل نوعا من العدوان .

ولما كانت السفارة البريطانية فى القاهرة تعتقد أن حكومة الوفد تخشى أن تواجه قلاقل قد لا تستطيع السيطرة عليها ومن ثم تفضيلها عدم التوصل إلى اتفاق سيىء قد يثير ضدها الرأى العام

فإنها بينت لحكومتها نوع المصاعب التي تواجهها حكومة الوفد مما جعل الحكومة البريطانية تتشدد فى موقفها خاصة وقد تولى وزارة الخارجية البريطانية هربرت موريسون المعروف بميوله الصهيونية وكان يختلف عن إرنست بيفن المتهم بميوله العربية من زاوية خطط الدفاع البريطانية . وإزاء مساندة الدول العربية لمصر فى موقفها من المفاوضات أيدت الولايات المتحدة انزعاجها وسعت إلى التوصل إلى حل وسط يقضي باشتراك قوات متعددة الاطراف فى الدفاع المشترك وهو مالم يوافق عليه صلاح الدين ولم يرفضه فى الوقت الذى ابدت فيه الدوائر البريطانية استعدادها لاحتلال القاهرة فيما لو لم يتسن التوصل إلى حل مرض وهو ما كانت تعارضه الولايات المتحدة بسبب ما قد يترتب على ذلك من آثار، ولو أن الجانب البريطانى لم يكن يخشى شيئا بسبب سيطرة القوات البريطانية على الموقف تماما فى منطقة قناة السويس وإمكان الانجليز الرد على أى عمل عدائي مصرى دون استخدام القوة وذلك نتيجة لسيطرتهم على الانابيب التى تمد القاهرة بالكيروسين وعلى المواصلات التى تربط مصر بالعالم الخارجى . وإزاء التدخل الامريكى بدأ العسكريون والدبلوماسيون الانجليز والامريكان يضعون الخطط الخاصة بإنشاء قيادة للشرق الأوسط تضم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلنده وجنوب

افريقيا وتركيا واسرائيل والبلدان العربية بما فيها مصر - وكانت تركيا واليونان قد انضمتا إلى حلف شمال الاطلنطى . وبحلول اغسطس ١٩٥١ كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد قررتا إنشاء قيادة للشرق الأوسط من شأنها أن تساعد المصريين والبريطانيين على حل خلافاتهم حول مستقبل قاعدة قناة السويس .

القرار .. لم يجد قبولا

ولكن هذا الحل لم يجد قبولا من محمد صلاح الدين مما أدى إلى قلق النحاس الذى لم يستطع أن يفعل شيئا بحكم أن وزير خارجيته كان الوزير الوحيد فى حكومة الوفد الذى يتمتع بشعبية حقيقية ومساندة عامة بحيث كان أكثر خطورة وهو خارج الحكم منه وهو في السلطة . وحلا للموقف رأى السفير الأمريكى فى القاهرة ضرورة إقصاء صلاح الدين عن وزارة الخارجية اثناء وجوده فى باريس . وهو ما كان يحث عليه كل من فؤاد سراج الدين (وزير الداخلية) والسراى [١] التى كانت تسعى جاهدة حتى ذلك الوقت إلى عدم تفجير الموقف بإقالة الوزارة الوفدية برمتها .

وكسبا للوقت انضمت تركيا إلى الولايات المتحدة وبريطانيا فى دعوة مصر إلى الاشتراك فى قيادة الشرق الأوسط . إلا أن البعثة

---

(١) رسالة من جيفرسون كافرى إلى وزارة الخارجية بواشنطن بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥١.

الامريكية - البريطانية الفرنسية لم تصل إلى انقرة حتى ١٣ اكتـوبر . وحينئذ كانت حكومة الوفد قد الغت معـــاهدتى ١٨٩٩ و ١٩٣٦ . وفى ١٣ اكتوبر قدم المشروع إلى الحكومة المصرية التى رفضته رسميا فى ١٥ اكتوبر مما جعل الملك فاروق ، الذى كان أميل إلى المشروعات الغربية ، يتحين الفرص لاقالة الوزارة الوفدية التى كان موقفها من المفاوضات - فى رأيه - كفيلا بتفجير الموقف الداخلى بالشكل الذى قد يتهدد عرشه . ولم يستطع فاروق أن يقبل وزارة الوفد التى وضعته فى مركز حرج أمام الرأى العام وسمحت بالعمل الفدائى فى منطقة قناة السويس ولم تتراجع عن إلغاء المعاهدة وتحريض العمال المصريين فى منطقة القناة على ترك الخدمة فى المعسكرات البريطانية . ولكن حريق القاهرة الذى شب فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ سهل له إقالة الوزارة الوفدية فى اليوم التالى.

ويصف محمد صلاح الدين الفترة الممتدة بين حريق القاهرة وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأنها «الفترة التى نفذت فيها السياسة الامريكية الخبيثة فى مصر ثورة استبدادية لمصلحة الملك ضد الديمقراطية المصرية» . فقد اقدم الضباط الأحرار فى بداية الثورة على وقف الحياة النيابية وحل الأحزاب القائمة بحجة تطهيرها وقاموا بمحاكمة بعض زعمائها أمام «محكمة الثورة» . ورغم ذلك فقد القى محمد صلاح الدين فى عام ١٩٥٤ خطابا فى نقابة المحامين طالب فيه الضباط بالدستور . وفى اثناء العدوان الثلاثى

اجتمع هو وفؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن وأرسلوا مذكرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر يضعون فيها خبرتهم وتجاربهم تحت تصرفه وقالوا فى مذكرتهم إنهم لا يريدون من وراء مطلبهم هذا سوى أن يكونوا مجرد مواطنين متطوعين فى المعركة . وبعد انتهاء العدوان الثلاثى شكلت محكمة خاصة لمحاكمة مقدمى المذكرة لانهم وقفوا فى المحكمة وطالبوا بإيجاد مؤسسات دستورية وقوانين وقضاة لا يخضعون لسلطة الحكام . وبعدها عمل صلاح الدين مستشارا ووضع القوانين والانظمة لوزارة الخارجية الكويتية ثم انتقل إلى تونس حيث قام بتدريس القانون الدولى فى الجامعة إلى أن عاد إلى القاهرة فى يونية ١٩٧٤ .

وفى ختام هذه الكلمة لابد من توجيه تحية صادقة إلى هذا الوطنى الغيور الذى خدم مصر بقدر جهده وقاسى فى المنفى آلام الغربة ومرارتها مما أورثه المرض ، راجين أن يكرمه الوطن فى شيخوخته ومرضه على ما بذله من جهده فى النضال الوطنى (١) .

---

(١) كتبت هذه السطور قبل وفاة صلاح الدين .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٠٠٦٦ / ١٩٩٣
T . S . B . N
977 - O7 - O295 - 1

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب مجموعة من الشخصيات العامة التي ظهرت على المسرح المصرى خلال قرن من الزمان .

وهى تضم بعض كبار المفكرين وبعض الساسة البارزين الذين أدوا أدوارهم وأصابوا وأخطئوا فى إطار الظروف العامة التى كانت تمر بها مصر والتى كان الاحتلال البريطانى يحدد فيها تحركاتهم فى الوقت الذى خضعت فيه مصر للأوتوقراطية السياسية ، ورغم ذلك نجدهم يشقون طريقهم بصعوبة وفوق أشواك من كل حدب وصوب .

الملحوظ أن الفترة التى نشطت فيها هذه الشخصيات قد تميزت بهبوط القضية الوطنية من مستوى النضال فى سبيل تحقيق الاستقلال وإرساء دعائم الديمقراطية إلى مستوى التحايل على الفوز بكراسي الحكم بين بضعة أفراد يطمحون إليها وممثلى دولة الاحتلال ، واتجاه الحركة الوطنية هذا الاتجاه قد ترتب عليه بمرور الزمن إقصاء القوى الشعبية عن مجالها - فمادامت الجماهير تجد أن الأمر لايعدو وصول البعض إلى كراسى الحكم ولاتجد لدى من يحكمها مايتصل بحياتهم اليومية ولاترى نهاية لتفاوضهم مع المحتلين ، فهى منتهية إلى عدم الاكتراث إلا إذا وصل الأمر إلى المساس بالكرامة الوطنية . ومن ثم ما اعتور حياتنا السياسية من نقص وقلق وتدخل السلطة التنفيذية فى الانتخابات وبقاء الأداة الحكومية دون إصلاح أو تعديل وإهمال الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى حد كبير .

ولكن ليست الصورة بمثل هذه القتامة ، إذ الفترة التى نشطت فيها الشخصيات الواردة فى هذا الكتاب شهدت حركة فكرية نشطة تناولت الكثير من مشاكل العصر وسعت إلى مزج الثقافة العربية بالثقافات الغربية ، فتحرر الفكر من القوالب القديمة وبرزت فيه ألوان جديدة : كالقصة والمسرحية والدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى السعى إلى متابعة حركة الإحياء الدينى التى حمل لواءها أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتلامذتهما . فإذا كانت صورة هذه الفترة قاتمة فيما يتعلق بالسياسة فإنها شهدت حركة فكرية أسهم فيها الكثيرون ومازلنا نجنى ثمارها حتى الآن . وكان تأسيس الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) حافزا قويا من حوافز النهضة الفكرية التي عززتها الصحف والمجلات التى أدلى كل منها بدلوه بحيث أصبحت مصر منارة فكرية تشع على شتى ربوع العالم العربى ويسهم فيها عدد كبير من المفكرين الذين أسهموا فى حركة التجديد والترجمة والبحث فى شتى المجالات . فإلى كل الرواد عرفاننا بالجميل وتقديرنا للصعوبات التى واجهتهم وهم يحملون للأجيال مشاعل النور التى لم تنطفىء بل أضاءت الطريق للأجيال .

وهذا الكتاب بقلم أستاذ أساتذة التاريخ الحديث الذى أثرى المكتبة العربية بدراساته التاريخية .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

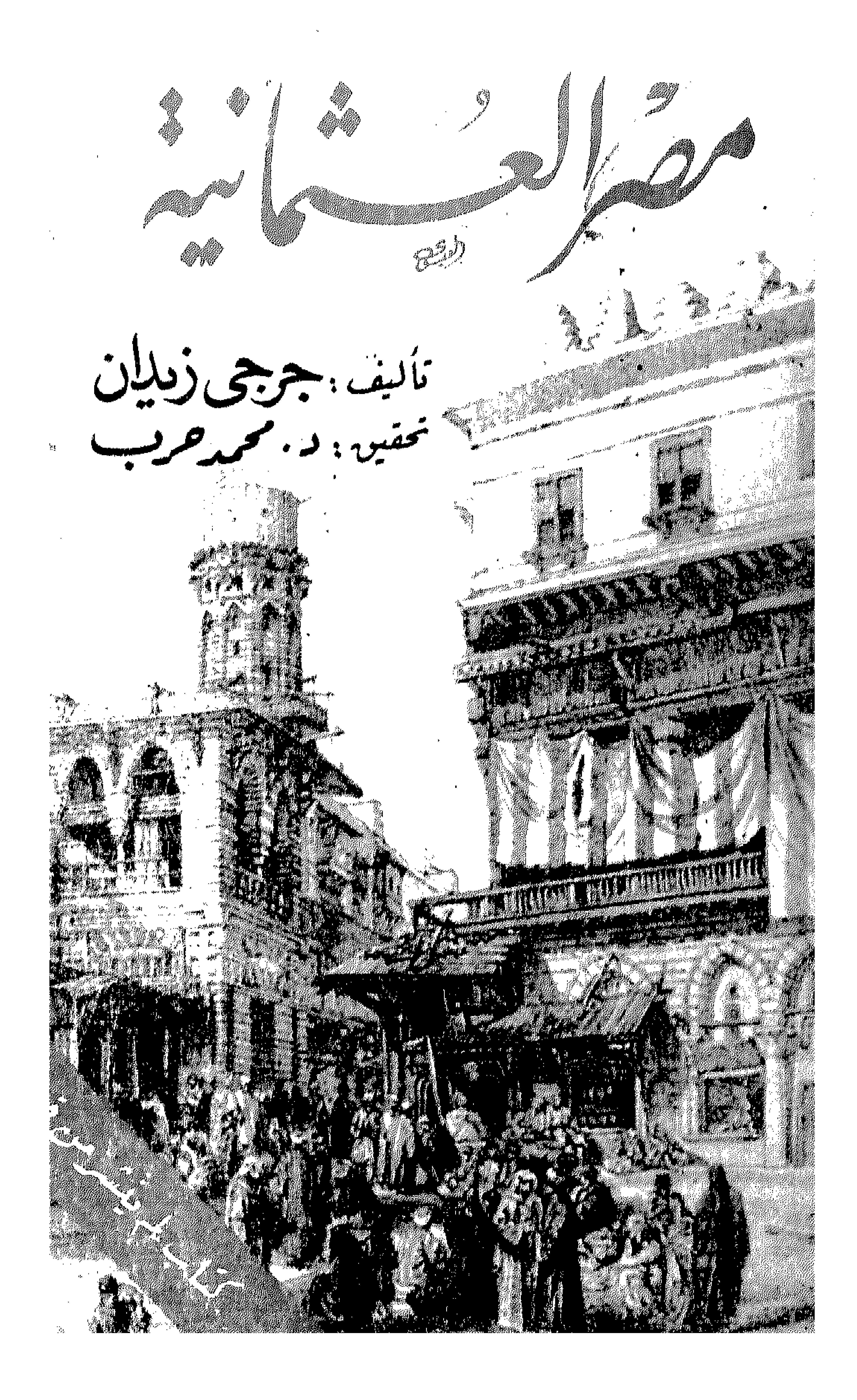
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

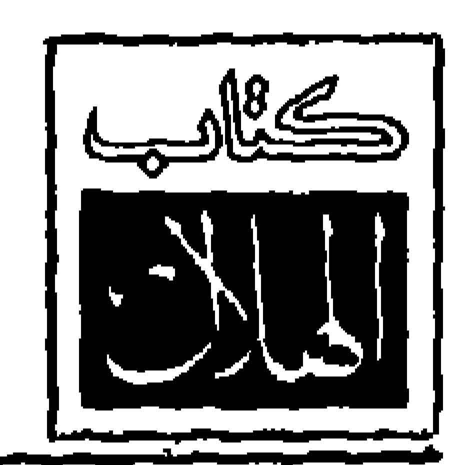
الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



كونيكا
Konica
كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط فيديو
Konica
Konica
Konica
Konica
الوكيل
شركة إساى


مصر العثمانية
تأليف: جرجي زيدان
تحقيق: د. محمد حرب



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد.

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون. ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 517 - JA - 1994

العدد ٥١٧ ـ رجب ـ يناير ١٩٩٤

FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة ـ لبنان ٦٦٠٠ ليرة ـ الأردن ٢٤٠٠ فلسا ـ الكويت ١٢٥٠ فلسا ـ السعودية ـ ١٢ ريالا ـ تونس ٢ دينار ـ المغرب ٢٥ درهما ـ البحرين ١,٢٠٠ دينار ـ الدوحة ١٢ ريالا ـ دبى / أبوظبى ١٢ درهما ـ مسقط ١,٢٠٠ ريال ـ غزة والضفة والقدس ٢ دولار ـ لندن ١,٥٠ جك ..

مصـر العثمـانـية

تأليف

جُرجي زيـدان

تحقيق

د. محمد حرب

●

دار الهـــلال

الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

هذا الكتاب

أحد كتب التنوير الهامة ، الذى لم ير النور منذ عام ١٩١١ ، ويوم كتابته أثار أزمة حادة ، ولكنها لم تكن فى شدة كتاب «الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، أو «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق .

وقصة الكتاب ، انه بعد إنشاء الجامعة التى نادت الهلال بقيامها فى عدد فبراير ١٨٩٩ ، عرض على جرجى زيدان تدريس مادة التاريخ الاسلامى تقديراً لجهوده فى نقل الثقافة العالمية إلى اللغة العربية ، وتم الاتفاق على أن يكون موضوعه «مصر العثمانية»، وقدم إلى الجامعة هذا الكتاب ، وتقاضى مكافأة عنه .

وقبل بدء السنة الدراسية تم الاستغناء عن جرجى زيدان كمحاضر فى الجامعة «فليس مقبولاً لمشاعر السواد الأعظم أن يدرس غير المسلم التاريخ الإسلامى » !

وعلق جرجى زيدان على هذا الموقف فى الهلال مجلد ١٩ ص

١٧٧ وذكر .. « أنه قبل – التدريس – حبا فى خدمة أبناء العربية، بعد أن وقف حياته لهذا الغرض » ، وهو يرى بحق أن التاريخ العربى يجب أن يكون من المكونات الفكرية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً ..

وتصدى الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى لهذه الحملة وقال .. «قالوا إنه شوه التاريخ الإسلامى ، وعبث بحقائقه ، ولم يسألوا من أين نقل ولا كيف استن ، بل سألوه لِمَ لم يكتب كما كتبوا ، ولِمَ لم يستنتج مثلما استنتجوا ، كأنما لم يكفهم أن يروه بينهم مسيحيا متسامحا حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً » .

مصر العثمانية

أو

تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية

من الفتح العثماني سنة ٩٢٣ هـ أو ١٥١٧ م

إلى مجيء الفرنساوية ١٢١٣ هـ أو ١٧٩٨ م

[illegible]

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

لدروس التاريخ الإسلامي

في الجامعة المصرية

سنة ١٩١١

صورة الصفحة الأولى من المخطوط ، بخط جرجي زيدان .

التعريف بجرجي زيدان

جرجي زيدان ، لبناني أسرته من قرية عين عنوب ، ولد في بيروت في ١٤ / ١٢ / ١٨٦١ م حيث كان والده قد افتتح مطعما فيها . تعلم وهو في الخامسة من عمره في مدرسة يديرها القسيس إلياس شفيق ، وفي الثانية عشرة من عمره تعلم صناعة الأحذية فمارسها عامين ثم عمل بعدها في مطعم أبيه . وكان له معارف وصداقات مع خريجي الكلية الأمريكية في بيروت ، فسهل له هذا الانضمام لجمعية شمس البر البيروتية وكانت فرعاً لجمعية الشبان المسيحيين الإنجليزية ومقرها إنجلترا . وزامله في هذه الجمعية بعض أعلام عصره مثل يعقوب صروف وبطرس البستاني .

وفي عام ١٨٨١ م دخل مدرسة الطب ولم يتمكن من الدراسة فيها إلا عاماً واحداً فقط . ثم هاجر إلى مصر عام ١٨٨٢ ، وفيها عمل في صحيفة الزمان اليومية التي كان يمتلكها

ويديرها الكسان صرافيان الأرمنى وكانت الجريدة اليومية الوحيدة فى القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزى صحافة مصر بعد الثورة العرابية .

فى هذه الفترة انتظم جرجى زيدان فى سلك المخابرات البريطانية ، وفى عام ١٨٨٤ م رافق الحملة الإنكليزية إلى السودان مترجماً فى قلم الاستخبارات البريطانية . وعمل فى جريدة المقتطف ثم استقال منها عام ١٨٨٩ م ليشتغل بالكتابة والتأليف والتدريس فى المدارس معلماً للغة العربية فى المدرسة العبيدية .

وفى عام ١٨٩١ أنشأ مطبعة التأليف بالاشتراك مع نجيب مترى مؤسس دار المعارف فى مصر ثم انفضت الشركة بينهما بعد عام واحد فقط على الإنشاء فاحتفظ جرجى زيدان بالمطبعة لنفسه واسماها مطبعة الهلال ، على حين قام نجيب مترى بإنشاء مطبعة مستقلة اسماها مطبعة المعارف .

وفى عام ١٨٩٢ م أصدر جرجى زيدان مجلة الهلال وقام بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ولده إميل فساعده فى تحريرها . وتوفى جرجى زيدان فى يوليو عام ١٩١٤ م .(١)

---

(١) شوقى أبو خليل ، جرجى زيدان فى الميزان ، دمشق ١٩٨٠ م ، ص ١٥ وما بعدها .

مؤلفـــاته

أولاً : كتب التراجم والسير :

١ – تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ١٩٠٢ م .

٢ – بناة النهضة العربية ، كتاب الهلال رقم ٧٢ .

٣ – رحلة جرجى زيدان إلى أوربا عام ١٩١٢م ، ١٩٢٣م.

ثانيا : كتب الجغرافيا :

١ – عجائب الخلق ، ١٩١٢ م .

٢ – مختصر جغرافية مصر ، ١٨٩١ م .

ثالثا : كتب اللغة العربية وتاريخ آدابها :

١ – الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، ١٨٨١ م .

٢ – تاريخ اللغة العربية باعتبارها كائناً حياً نامياً خاضعا لناموس الارتقاء ١٩٠٤ م .

٣ – تاريخ آداب اللغة العربية ، ١٩١١ م .

٤ - الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية .

٥ - البلغة في أصول اللغة . (غير موجود)

رابعاً : كتب في الاجتماع :

١ - علم الفراسة الحديث . (غير موجود)

٢ - مختارات جرجي في فلسفة الاجتماع والعمران ١٩٢٠ م .

خامساً : روايات تاريخ الإسلام :

واعتمد تقسيم أزمنة هذه الروايات حسب العصور

العصر الجاهلي ، العصر الراشد ، الأموي ، العباسي ، المغولي ، العثماني ، الحديث .

وعددها ٢٢ رواية بدأها برواية فتاة غسان واختتمها بجهاد المحبين . وعناوينها كالآتي :

فتاة غسان - أرمانوسة المصرية - عذراء قريش - ١٧ رمضان - غادة كربلاء - الحجاج بن يوسف - فتح الأندلس - شارل وعبد الرحمن - أبو مسلم الخراساني - العباسة أخت الرشيد - الأمين والمأمون - عروس فرغانة - أحمد بن طولون - عبد الرحمن الناصر - فتاة القيروان - صلاح الدين الأيوبي - شجرة الدر - الانقلاب العثماني - أسير المتمهدي - المملوك الشارد - استبداد المماليك - جهاد المحبين .

سادساً : كتب التاريخ :

١ - تاريخ التمدن الإسلامى ، ١٩٠٢ م .

٢ - تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن ، مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم ، ١٨٨٩ م .

٣ - العرب قبل الإسلام - ١٩٠٨ م ، لم يكمل .

٤ - التاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن ، ١٩٠٨ م . لم يكمل .

٥ - تاريخ إنجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام ، ١٨٨٩ م.

٦ - تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذه الأيام ، ١٨٨٩ م .

٧ - تاريخ اليونان والرومان ١٨٩٧ .

٨ - طبقات الأمم أو السلائل البشرية ، ١٩١٢ م .

٩ - أنساب العرب القدماء ، ١٩٠٦ م .

ولجرجى زيدان مقالة كبيرة بعنوان « تاريخ الجند العثمانى منذ نشوء الدولة العثمانية إلى اليوم » (١) .

والكتاب المخطوط الوحيد لجرجى زيدان الذى لم ينشر حتى الآن ، هو الذى بين أيديكم الآن وهو «تاريخ مصر العثمانية»، والذى قمنا بنشره وتحقيقه وتقديمه للقراء .

---

(١) جرجى زيدان ، تاريخ الجند العثمانى منذ نشوء الدولة العثمانية إلى اليوم ، مجلة الهلال ، السنة ١٧ جزء ٨ ، أول مايو ١٩٠٩م .

وهو يشمل تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى الحملة الفرنسية ، أعدّه جرجى زيدان ليكون محاضرات تلقى فى الجامعة المصرية .

ولا يوجد من هذا المخطوط إلا النسخة الوحيدة بخط جرجى زيدان نفسه وصورتها الفوتوغرافية مودعة فى مكتبة جامعة القاهرة . (٤)

. كتاب تاريخ مصر العثمانية

وقد ألفه جرجى زيدان عام ١٩١١م « لدروس التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية » بتعبيره هو فى صفحة غلاف المخطوط ، وهذا هو هدفه المعلن ، لتأليفه هذا الكتاب وقد قسمه كالآتى :

مقدمات تمهيدية ، كتبها على فصول ذكر منها مكانة التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ وحلل فيها معنى لفظ تاريخ ثم أقسام التاريخ العام فأقسام التاريخ الإسلامى ومزايا هذا التاريخ ، وكعادته من الاهتمام بالجانب الحضارى تحدث عن تحضر الأتراك فالمغول فالبربر فالزنوج ، فتاريخ مصر بالنظر إلى سواه وأقسامه .

---

(٤) جرجى زيدان ، مصر العثمانية أو تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية ، مخطوط بخط المؤلف ، صورة فوتوغرافية ، مكتبة جامعة القاهرة ، مخطوط رقم ٧٥ ، فـ ٢٠٠٢ .

موضوع هذا الكتاب ، وما كانت عليه مصر عند الفتح العثمانى ، وبالتالى كان لا بد أن يذكر أصل السلاطين المماليك ودولة المماليك الأولى أو الاتراك البحرية ، واختص الملك الظاهر بيبرس بدراسة ثم دولة المماليك الثانية (الجراكسة) .

وذكر العلاقات العثمانية المصرية أو بمعنى أصح العثمانية المملوكية . وأفسح مجالاً فى هذه المقدمات التمهيدية لأصل ونشأة الدولة العثمانية باعتبار أن موضوع الكتاب تاريخ مصر فى ارتباطها بهذه الدولة ثم ذكر الإنكشارية أصلاً وتاريخا لارتباط وضع تاريخ مصر العثمانية فى بعض جوانبه بهم ، ثم درس سليم الأول باعتباره السلطان العثمانى الذى فتح مصر وفى أثناء دراسته لهذا كان لا بد أن يقوم أيضا بدراسة عن سلطنة الأشرف طومان باى آخر السلاطين المماليك .

بعد ذلك تنبه جرجى زيدان إلى تاريخ مصر العثمانية فقسمه تقسيماً خاصاً ، وكان على أدوار أربعة وكل دور له جانبان السياسى والحضارى .

يمتاز جرجى زيدان فى تقسيمه لتاريخ مصر العثمانية ، أيضا فى ربطه بين استانبول والقاهرة يعنى العهد العثمانى العام حسب سلاطينه ثم العهد العثمانى فى مصر ، وهو خاص ، حسب ولاته .

وتطرق جرجي زيدان إلى أمور رآها ضرورة ورأيناها استطراداً مثل حديثه عن نظام الخلافة والسلطنة في الإسلام وقتل الإخوة في الدولة العثمانية ، مما يسّر له التعبير عن كثير من أفكاره في تاريخ مصر .

على كل حال قَسَّم جرجي زيدان أدوار تاريخ مصر العثمانية كالآتي :

الدور الأول من سلطنة السلطان سليم الأول وأنهاه بحكم السلطان مصطفى بن محمد . وبالتالي أحوال مصر في هذا العهد من خلال الولاة العثمانيين فيها . واهتم في ذلك بدراسة المسكوكات والأوضاع الاجتماعية والصحية والاقتصادية وبعد حديثه عن التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي عرج إلى العلم والأدب في عصر الدور الأول من الحكم العثماني في مصر ذاكراً المؤرخين والشعراء والأدباء والمحدثين والفقهاء وعلماء المذاهب الأربعة والمتصوفة وسائر العلماء بمؤلفاتهم .

والدور الثاني من العصر العثماني وهو « انتقال النفوذ في مصر إلى المماليك » بدأه بسلطنة السلطان العثماني أحمد بن محمد ومنتهياً بسلطنة السلطان مصطفى بن محمد ، ذاكراً في هذا العلاقة بين قاسم بك و ذو الفقار بك في مصر ثم مشيخة إسماعيل بك وذو الفقار بك وعثمان بك وإبراهيم الكخيا ورضوان بك وعلى بك الكبير .

والدور الثالث من العصرالعثمانى فى مصر ، ركز جرجى زيدان الحديث فيه على علي بك الكبير وتطور تاريخه فى مصر وعلاقته بالروس وبظاهر العمر وبمحمد بك أبى الذهب .

والدور الرابع من العصر العثمانى فى مصر بدأه المؤلف بسلطنة السلطان العثمانى عبد الحميد الأول فى استانبول ومشيخة إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك فى مصر مع الحملة العثمانية التي جاءت بقيادة القبطان حسن باشا لحرب المماليك .

وانتهى هذا الدور سياسيا بسلطنة السلطان سليم الثالث وأجل جرجى زيدان الحديث عن المظاهر الحضارية من علم وأدب واجتماع واقتصاد ومالية وتعليم إلى آخر كتابه ضاماً هذه الظواهر الحضارية فى الادوار الثلاثة ، معا .

الحدود الزمنية للكتاب

ذكر جرجي زيدان في بداية مخطوطه ، عنوان هذه المخطوطة على عنوانين : الأول هو مصر العثمانية والآخر تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية ، ومن المفيد هنا ذكر عنوان المخطوط بالكامل : مصر العثمانية أو تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية من الفتح العثماني سنة ٩٢٣ هـ أو ١٥١٧ م إلى الحملة الفرنساوية ١٢١٣ هـ أو ١٧٩٨ م .

وهذه هي الحدود الزمنية للكتاب ، ولا يخفى أن التاريخ العثماني في مصر قد امتد أكثر من هذا . امتد حتى عام ١٩١٤ وهو تاريخ إعلان الحماية البريطانية على مصر وابتعادها رسميا عن النفوذ العثماني .

نقد الكتاب

أولاً : الإيجابيات :

سد جرجي زيدان فجوة في كتابته لتاريخ مصر ، بخطه هذا الكتاب . فقد تناول التاريخ تناولاً شاملاً يدخل في أدبيات التاريخ . إنه الدراسة الواسعة لمفهوم كلمة التاريخ فلم يقتصر على

التاريخ السياسى كدأب بعض كتاب عصره وإنما اشتملت دراسته على التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ المالى والتاريخ الحضارى . إن هذه الميزة لجرجى زيدان لا نمتدحها فيه اليوم فقط فقد سبقنا إلى ذلك الكاتب التركى الذائع الصيت المعلم جودت فى كتابه ذيل على ابن بطوطة (١) . وكذلك سليمان اولوضاغ فى مقدمته لكتاب تاريخ الإسلام لمحمود أسعد استانبول ١٩٨١ م .

لقد سد زيدان فراغاً فى الكتابة التاريخية عن مصر عامة وعن العهد العثمانى خاصة ، لقد كتب هذا الكتاب الذى بين ايدينا الآن عام ١٩١١ م .

وهو رغم قدمه نسبيا وهو ما يدخل فى مسمى التراث المعاصر . يتميز بشمولية واضحة ويتفوق على الكتب المؤلفة أو المحققة حديثا عن مصر العثمانية فى ذلك فهو يتحدث عن العلوم الإسلامية فى مصر العثمانية وعن الشعراء والأدباء وعن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وما إلى ذلك وهى نقاط خفيت عن الباحثين المحدثين أو لم يهتموا بها .

---

(١) معلم جودت (اينانج آلب) ذيل على فصل « الأخية الفتيان التركية » فى رحلة ابن بطوطة ، ص ٥ ، استانبول ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م.

ثانيا - السلبيات :

جرجى زيدان جامع معلومات ، وصاحب منهج حضارى لكتابة التاريخ ، إلا انه أحيانا لا يدقق فى محاكمة الواقعة ، مثال ذلك عندما يتحدث عن حسين باشا يقول إنه كان يطوف القاهرة ويقتل رجلاً أو اثنين يومياً .

كما ان لدى جرجى زيدان استعداداً يبرز دائما فى تفسيره التاريخ المصرى على اساس قومى مثل قوله عن المماليك :

«ليس لأحد منهم عائلة أو أسرة يغار على وطنه من أجلها إلاّ نادرا ، مع أن دور المماليك فى الدفاع عن مصر فى مواقع كثيرة ماثلة أمام العيان .

ويمزج زيدان فى الكتابة التاريخية القصص القديم والاساطير بالتاريخ مثال ذلك : حديث زيدان عن قصة حب عثمان مؤسس الدولة العثمانية لابنة الشيخ « ادبالى " !!

وهناك بعض الأخطاء النحوية فى المخطوطة ، وإن كانت هذه لا تدخل فى نطاق ما نحن بصدده الآن .

وهناك أيضا بعض التحريفات لبعض الأسماء العثمانية أمثلة على ذلك : با يازيد - قنسو - كافا ..... وغيرها وصحتها بيازيد - قانصو - كتفه .

وتيســيراً للقارىء ، تم الاســتغناء - فى الطبع - عن ذكر رقم صــفحة الأصــل ، كما تم الاســـتغناء عن الصور التى

أوردهـــا المؤلف فى مخــطوطه ، لعدم وضـــوحها فى المخطوط.

وغنى عن البيان هنا أنه استفاد بعض الشىء من كتابه «تاريخ مصرالحديث» عندما أخذ يخط كتابه الذى نقدمه اليوم . ويمكن حصر استفادته فى مخطوطه هذا ، من كتابه تاريخ مصر الحديث فى مسألة امتيازات السلطان سليمان للمماليك ، وحادثة قتل والى مصر وتعليق رأسه على باب زويلة عام ٩٣١ هـ ، وتولية اسكندر باشا ٩٦٨ هـ ووفاة الأمير إبراهيم الدفتردار عام ٩٧٤هـ. وقائمة المماليك الثمانية عشر فى عهد على بك ، وهذا لا ينقد فى جرجى زيدان على اعتبار أن سمة التأليف لم تكن تمنع من هذا ومازالت ولم تمنع تفرد مخطوطه هذا فى مضمار تاريخ مصر فى العهد العثمانى .

القاهرة / مدينة نصر

في ٢١ / ١١ / ١٩٩٣ .

الدكتور محمد حرب

رئيس المركز المصري للدراسات

العثمانية وبحوث العالم التركي

مقدمات تمهيدية

التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ

التاريـخ العـام

التاريخ العام ، عبارة عن الحوادث التى رافقت الإنسان فى أول وجوده إلى الآن ، أو ذكر ما انتاب الأمم من التقدم أو التأخر والصعود أو الهبوط فى السياسة والاجتماع ، أو هو بيان تَدَرُّج البشر فى المدنية . ولذلك فهو مقصور على الأمم التى كان لها شأن فى ترقية الهيئة الاجتماعية .

وقد عبّر بعضهم عن التاريخ بقوله : إنه الفلسفة مشروحة بالأمثال حتى تكون حوادث المتقدمين عبرة للمتأخرين .

والتاريخ العام يقتضى معرفة أخبار الناس من أول عهد الإنسان إلى الآن . وهذا غير ميسور لأن ما وصل إلينا من حوادث البشر إنما هو جزء صغير جدا فى تاريخهم . والإنسان لم يدوّن

تاريخه إلاّ بعد أن وُفق لاختراع الكتابة . وهو لم يوفق إليها إلاّ بعد التدرج في الرّقى أدهاراً ، ظهرت فى أثنائها دول وأمم انتشبت بينها الحروب ، وعقدت المعاهدات ، وذهب العقلاء فى أثنائها مذاهب فى الفلسفة . فهذه كلها ذهبت أخبارها فلم يصلنا منها شيء ، حتى أسماء تلك الأمم ، فإنها ضاعت . وإنّما استدللنا على وجودها من ثمار أعمالها ، أو بما خلفته من الأدوات أو الأحافير أو الخرائب .

وعلماء التاريخ لا يعدون تلك المعرفة تاريخاً . ولذلك سمّوا المدة التى قضاها الإنسان قبل تدوين أخباره «الزمن قبل التاريخ» وهو أطول كثيرا فى زمن التاريخ تقدم فيها الإنسان شوطا بعيدا فى سلّم المدنيّة والارتقاء العقلى . وفيها تألفت الهيئة الاجتماعية ووُضعت سنن الزواج والإرث . وانتظمت العائلة . وفيها شكّلت الحكومات ، وانشئت الأديان . وفيها حدثت أهم الاختراعات والاكتشافات التى بنى عليها البشر رقيهم فى زمن التاريخ ؛ لأن فى تلك الفترة المظلمة ، اخترعت الكتابة ، واستنبط الطبخ والعجن والخبز والغزل والنسيج والخياطة والبناء . واكتشفت النار والملح ، وهما من أهم الاكتشافات .

مَنْ لَنَا بمن يخبرنا عن مخترع الكتابة الصورية ؛ لنشيّد له

تذكارا ، أو مخترع الإبرة للنصب له تمثالا ، بل لو عرفنا مكتشف النار ، أى أوّل من ولّد النار بالفرك ، لَحقّ له علينا الإكرام الجزيل. إن ذلك وأمثاله من أعمال الإنسان قبل زمن التاريخ لا يدخل في علم التاريخ ولا إلى معرفته سبيل إلا بالتخمين .

أما زمن التاريخ فهو الذي عرفنا أممه وقبائله ودوله وبعض حوادثه ، إما من الكتب التي وصلت إلينا أو من النقوش التى قرأناها فى الآثار أو من أحوال أخرى . وهو لا يتجاوز في مدته ستة آلاف سنة ، نصفها الأول ناقص ، وأكثره مبنى على الحدس والتخمين . والنصف الآخر محشو فى أوائله بالمبالغات أو الخرافات . ولكن أكثره ثابت ؛ لرجوعه إلى النصوص التاريخية بعد شيوع الكتابة .

ما معنى لفظ تاريخ ؟

وقبل التقدم إلى ذكر أقسام التاريخ ؛ نتكلم عن أصل هذا اللفظ فى العربية . وقد اختلفت الأقوال فيه ؛ فذهب جماعة إلى أنه فارسى ، وقال آخرون : إنه يونانى . وتكلفوا فى تخريجه تكلفا نحن فى غنى عنه لأن اللفظ عربى . وفى القاموس [١] «أرخ الكتاب

(١) يقصد القاموس المحيط .

يأرخه أرخا ، وقَّته» أي عرف وقته . ثم تفرع المعنى فصاروا يدلون بها عن علم التاريخ أي ذكر الوقائع والحوادث . ولعل سبب الشك في كون هذا اللفظ عربيا أن العرب أخذوا التاريخ عن الفُرس . وقيل لهم إن اسمه عند الفرس «ماه روز»[٢] فعربوها «مؤرخ» ثم اشتقوا منها مصدراً «تاريخ» وهو تكلف لا حاجة بنا إليه ؛ فدفعاً لكل شك في كون هذا اللفظ عربيا نأتي بأشباهه من أخوات اللغة العربية .

فهو في العبرانية «يرخ» ومعناه : القمر . ومثلها «يرحا» في السريانية لنفس هذا المعنى ونحو ذلك في الكلدانية والأشورية . وهي أيضا تدل عندهم على الشهر ؛ لأن حسابهم كان قمريا . وكذلك الشهر والقمر في العربية بمعنى واحد . ولا عبرة في إبدال الخاء ، حاء ، بين العربية وأخواتها ، فإنه عادي فيها . ومن بقايا دلالة «يرح» أو «أرخ» على القمر في العربية ، قول العرب «راح» أي ذهب أو جاء في العشي ، أي في نور القمر . والمعني راجع إلى

---

(٢) ماه روز : بمعنى حساب اليوم والشهر ، انظر عبد النعيم حسنين ، قاموس الفارسية، ص ١/٦١٢ ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ١٩٨٢ ، «وماه روزه» بمعنى التاريخ . انظر حسن عميد ، فرهنك فارسي عميد ، ص ٩٠٩ ، مؤسسة انتشارات امير كبير ، طهران ١٣٤٢ .

العشى بدون تقييد بالذهاب أو المجيء ، مثل قولهم أصبح وأمسى . ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب فى العشى ثم صارت تدل على مطلق الذهاب . وقد يكون اللفظ الواحد معناه القمر فى إحدى هذه اللغات ، والشهر فى اللغة الأخرى ، فإن «سهر» فى السريانية معناها قمر فى العربية وهو «الشهر» بإبدال السين شيناً . وقد بقى فى معناها الأصلى فى العربية «الساهور» وهو القمر أو غلافه . والخلاصة أن لفظ التاريخ ، عربى الأصل والاشتقاق .

أقسام التاريخ العام

اختلف المؤرخون فى تقسيم زمن التاريخ وتبويبه . والأكثر يرون قسمته إلى ثلاثة أقسام : الأول ، التاريخ القديم ويبدأ بأقدم الأزمان ، وينتهى عند سقوط روميه سنة ٤٧٦ للميلاد . والقسم الثانى ، القرون الوسطى أو المظلمة ، وهى تمتد من هذا التاريخ إلى اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ مسيحية . والثالث ، التاريخ الحديث ، من اكتشاف أميركا ولا يزال .

ذلك هو تقسيم التاريخ العام عند كتاب الافرنج . وهو فى اعتبارنا تقسيم ناقص ، مبنى على الأحوال التى توالت فى أوربا وأميركا ، ولا يدخل فيها من تاريخ الشرق إلاّ الدول القديمة فى

مصر وبابل وفينيقية وغيرها من التمدن القديم . ولم يراعوا فيه الانقلابات السياسية العظيمة التى توالت فى الشرق بعد ذهاب تلك الدول . وكان لها تأثير كبير فى تاريخ العمران فى سائر أنحاء العالم المتمدن .

أمّا أقسام التاريخ العام بالنظر إلى الشرق وأممه ودوله ، فإنه فى نظرنا يقسّم إلى قسمين كبيرين ، أوْ هُمَا شطران : شرقى وغربى . نعبر عنهما بتاريخ الشرق ، وتاريخ الغرب . ونقصد بالشرق آسيا على الإجمال ومعها وادى النيل وما يليه من البلاد التى تمدنت قديما فى أفريقيا . ونعنى بالغرب أوربا وأميركا وما يلحقهما .

ولكل من هذين الشطرين ثلاثة أطوار أو أعصر تتشابه فى التقسيم ولكنها تختلف فى الزمن . لكل منها عصر قديم وعصر متوسط وعصر حديث . لكن الشرق متقدم فيها على الغرب وسابق منه فى عوامل المدنية

فتاريخ الشرق القديم يمتد من أقدم الأزمنة إلى فتح الإسكندر المكدونى بلاد فارس سنة ٣٣١ قبل الميلاد .

وتاريخة الأوسط أو قرونه الوسطى أو المظلمة تمتد من فتح الإسكندر إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ للميلاد أو السنة الأولى

للهجرة .

وتاريخه الحديث يبدأ بظهور الإسلام ولا يزال . ثم إن تاريخ الإسلام ينقسم إلى عصور سيأتي بيانها .

أما تاريخ الغرب القديم فيبدأ من أول تمدنه نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى بلاد اليونان . وقد اقتبس أصول تمدنه من أمم الشرق القديمة فى مصر وفينيقة وبابل وغيرها ، وينتهى بسقوط روميه سنة ٤٧٦ م . وسبب انقضائه ، هجوم البربر، بدو شمال أوربا «قبائل الجرمان» على المملكة الرومانية . وفى أثنائه دخل الشرق فى أجياله الوسطى بسقوط دولة الفُرس ، كما تقدم .

وتاريخ الغرب الأوسط هو عصر الظلمة أو القرون الوسطى فى أوربا . يبدأ بسقوط روميه ، وتسلط البربر إلى بزوغ نور التمدن الحديث بعد اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ م . وقد أغفل فيه الغربيون علوم أسلافهم اليونان . ونهض الشرق فى أثنائه من عصوره المظلمة بظهور الإسلام وقيام دولة العرب ، فأخذوا تلك العلوم وترجموها .

فتاريخ الإسلام هو تاريخ الشرق الحديث . وبه نهض الشرق من غفلته واستعاد رونقه ومجده . وامتد سلطان المسلمين

على أضعاف ممالك أسلافهم الشرقيين . وخفقت أعلامهم على ممالك الفراعنة والفينيقيين والآشوريين والبابليين والفرس والأرمن والهند والترك والمغول والمغاربة وسائر بلاد المشرق ، وقِسْم من أوربا : فى اسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، مما لم يسبق له مثيل .

أقسام تاريخ الإسلام

يقسم تاريخ الإسلام إلى خمسة أعصر :

١ - عصر التكون والنمو : من ظهور الإسلام إلى آخر الدولة الأموية بالشام وهو عصر الفتوح فى الدولتين ، أو العصر العربى .

٢ - عصر البلوغ : من أول الدولة العباسية ١٣٢هـ إلى تغلب الجند التركى سنة ٢٣٢ للهجرة . وهو يشتمل على أبان الدولة العباسية . وفيه نشأ الأدب ، ونقلت علوم القدماء إلى العربية. وهو عصر الإسلام الذهبى . ويُعرف بالعصر الفارسى ؛ لأن الدولة فيه كانت بأيدى الوزراء الفرس .

٣ - عصر التفرع والتشعب : من تسلط الأتراك إلى سقوط بغداد . وفيه تفرعت هذه الدولة إلى دول من أمم مختلفة ؛

فى أنحاء مختلفة . ونشأت دول جديدة كدولة الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس والسلاجقة فى الشام وغيرها . ونشأت سائر دول الأتراك والأكراد والفرس وغيرهم .

٤ - القرون الإسلامية الوسطى : من سقوط بغداد إلى أوئل القرن التاسع عشر .

٥ - النهضة الأخيرة : من أوائل القرن الماضى ، ولا تزال، وهى مقتبسة من تمدن الغرب الحديث .

ويقسم التاريخ على الإجمال أيضا إلى عام وخاص . والعام يتضمن تاريخ البشر عموما . والخاص يشمل التاريخ الخاص المتعلق بموضوع واحد ؛ كتاريخ أمة ، أو مملكة ، أو ولاية، أو مدينة أو دولة أو عائلة أو شخص . والمتعلق بشخص واحد يُسمي ترجمة ، أو سيرة ، أو حادثة مأثورة ؛ كتاريخ الإخلاص ، ومذبحة المماليك ، وحادثة عرابى ، وظهور المتمهدى ، ونحو ذلك .

ويسمى التاريخ الخصوصى بأسماء تختلف باختلاف موضوعه ؛ كتاريخ الكنيسة والتاريخ السياسى والشرعى والقضائى والتجارى والأدبى والعلمى ونحو ذلك .

مزايا التاريخ الإسلامى
على سائر التواريخ

فتاريخ الإسلام من التواريخ الخاصة المتعلقة بالأمم أو الدول : لأن المراد بها ذكر حوادث الأمة الإسلامية أو الدولة الإسلامية ، ومقابله تاريخ الرومان أو اليونان أو الفرس ونحوهم لكنه يمتاز عنها بأمور جديرة بالاعتبار أهمها :

١ – ان تاريخ الإسلام حلقة موصلة بين الشرق والغرب ؛ لأنه بامتداد أصحابه إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب تمكنوا من الوصل بينهما . وهو أيضا حلقة موصلة بين التمدن الغربى القديم ، والتمدن الغربى الحديث ؛ لأنه حفظ ما توالى على عوامل التمدن الغربى القديم من التغيير أو التحوير فى العلوم الفلسفية والطب مما اشتغل به المسلمون فى أثناء تمدنهم ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلاّ بتاريخ الإسلام .

٢ – يمتاز تاريخ الإسلام عن سائر تواريخ الأمم والدول ،

بما يدخل تحته من تواريخ العناصر المختلفة التى أنقذها الإسلام فى أواسط آسيا وغيرها ، وكانت فى حال البداوة أو الهمجية ، فساقها إلى المدنية ، أو العلم حتى نبغ منها العلماء والفلاسفة ورجال السياسة والإدارة . وأشهرهم الأتراك والمغول والبربر والزنوج .

وهنا نقطة يحسن بنا الوقوف عندها لحظة ؛ لنذكر شيئا عن كل من تلك الأمم :

الأتـــــراك

كان الأتراك قبل الإسلام ، أهل بادية يقيمون فى أواسط آسيا ؛ بين الهند والصين وسيبريا . ولم يعرفوا عن أهل الغرب من اليونان أو الرومان إلا قليلا . فكان الفرس يقتنونهم للرق والخدمة ، ويتهادونهم كما يتهادون المتاع . فلما جاء العرب وفتحوا بلادهم وجندوهم ؛ نهضوا فى جملة الناهضين ، وتولوا الإمارات . ثم أنشأوا الدول العظمى فى فارس والعراق والشام ومصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وأفغانستان وتركستان . وأشهرها الدولة الطولونية والايليكية والإخشيدية والغزنوية والسلجوقية بفروعها ودول الأتابكة التى تخلفت عنها . ويزيد عدد الدول الشرعية

الإسلامية على ثلاثين دولة . واتسع سلطانهم حتى وطئت خيولهم أواسط أوربا ، ونبغ منهم القوادِ والساسة والفقهاء والكتاب وشادوا القصور والمساجد والمعاهد . وأنشأوا المارستانات والمدارس والتكيات .

وأكثر ما بقى من آثار الإسلام فى مصر والشام والعراق من بنائهم ؛ فهؤلاء لا سبيل إلى معرفة أحوالهم إلاّ بتاريخ الإسلام .

المغول

والمغول طوائف رُحَّل . كانوا يقيمون حوالى بحيرة «بيقال[1]» فى جنوبى سيبريا . ولم يظهروا للعالم إلاّ بعد الإسلام . وكانوا قبل ذلك قبائل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص .

فلما احتكوا بالمسلمين فى تركستان ورأوا دولهم وجيوشهم، عملوا على الاقتداء بهم ، حتى عمدوا إلى فتح مملكتهم ففتحوها ببداوتهم وخشونتهم ، وأمنعوا فيها قتلا ونهباً وإحراقا على يد جنكيز خان . لكنهم مالبثوا أن تحضروا ، لمعاشرتهم

(١) صحيح نطقها : بَايْقَال ، وصحيح كتابتها على شكلين : بيقال وبايقال ، وهى كلمة تركية تدل على اسم بحيرة فى جنوب سيبريا : على سيدى ، رسملى قاموس عثمانى ص ١/١٧٢ استانبول ١٣٣٠ .

المسلمين في فارس والعراق . وأنشأوا دولاً عظمى حكمت الشرق خمسة قرون ونصف قرن ، أشهرها أربع دول كبرى هى دول اقطاى وطلوى وجوجى وجغطاى .

وتفرعت منها دول أخرى امتدت سطوتها وخفقت أعلامها على زنقاريا وبلاد المغول والقبجاق وتركستان . وفتحوا المملكة الإسلامية ، وامعنوا فى بلاد فارس والعراق والشام .

ونبغ منهم الساسة والقواد . وبعد أن كانوا أهل أوثان ، أسلموا وشادوا المساجد والمدارس والمعاهد . وعمروا المدن فى أقصى الشوق وأقاموا فيها الأبنية الباذخة ، والقصور الشامخة . وغرسوا الحدائق والبساتين وهذه الدول لا سبيل إلى معرفة أخبارها إلا بتاريخ الإسلام .

البــــربــــر

ويراد بهم بدو أفريقيا الشمالية . وهم قبائل رحل ، كانوا قبل الإسلام من الهمجية والجهالة على جانب عظيم . وكانوا أصحاب أوثان . يعتصمون الجبال ويتقاضون إلى الكهان . يكرهون المدنية وأهلها . وقد قاسى اليونان والرومان من غزوهم ونهبهم عذاباً شديداً . ولم يكن لهم شغل غير ذلك . ولاقى العرب

أيام الفتح مشقة كبرى فى إخضاعهم . فلما خضعوا وأسلموا تجندوا للخلفاء والأمراء . وافتتحوا البلاد . ولا سيما فى الغرب فاكتسحوا الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، وكانوا عوناً كبيراً فى قيام دولة الادارسة والدولة الفاطمية ، وأنشأوا دولة الملثمين والمرابطين والموحدين والمصامدة وآل زيرى وغيرهم مما لا يحصى. وقد جندوا الجنود وبنوا المعاقل وأخذوا بأسباب المدنية ولا وسيلة لمعرفة أخبارهم إلا بتاريخ الإسلام .

الزنــــوج

كان الزنوج ولا يزال ، السواد الأعظم منهم . يُحملون إلى الآفاق كما تحمل الأغنام - يباعون بيع السلع ؛ فكانوا يرضخون تحت نير المتمدينين ، وكانوا يعبدون الحجارة أو الشجر . وبعضهم لا يفهم معنى الدين أو العبادة . وكان المعروف فى مواطنهم عند ظهور الإسلام شمالى أفريقيا وبعض غربيها وشرقيها .

فلما انساح العرب فى الأرض للفتح أو المهاجرة ، ذهبت قبائل منهم إلى أواسط أفريقيا ، فضلاً عن شواطئها ، فاكتسب الزنوج منهم أخلاق الأمم المتمدنة ، وأسلموا . ثم انتظموا فى الجندية ، وتألفت منهم فرقاً حاربت تحت رايات الخلفاء فى بلاط الخلفاء ، حتى صاروا من أهل الحل والعقد .

وتولى بعضهم الحكومة . ثم تجندوا لأنفسهم . ونهضوا كما تنهض الأمم الراقية ، فألفوا جيشاً حاربوا به الدولة العباسية عدة سنين ، حتى أقلقوا راحتها . وفتحوا المدن ، وكادوا يؤسسون دولة إسلامية كبرى .

على أنهم أنشأوا دولاً صغرى فى أواسط افريقيا وغربيها . ونبغ منهم الحكام والقواد . وأشهرهم : كافور الاخشيدى صاحب مصر . وظهر غير واحد من الشعراء ونظموا القصائد الحسنة . ونبغ منهم جماعة من القراء والفقهاء . وتدخل أخبارهم فى تاريخ الإسلام .

وقس على ذلك أخبار أمم الشمال : كالكرج والأرمن والأكراد والخزر والصقالبة وغيرهم .

ناهيك بالعرب أنفسهم وتاريخهم قبل الإسلام وبعده . لولا الإسلام لذهبت أخبارهم وأخبار الأمم الإسلامية الأخرى . وأكثر ما يعرفه المتمدنون فى هذه الأمم ، أخذوا من تاريخ الإسلام .

٣ – أرخ المسلمون فترة من الدهر ، لم يُعرف تاريخها ، لولاهم . لأن حوادث ظهور الإسلام وما تلاه من أخبار الفتح وما عقب ذلك من إنشاء التمدن ونشر لواء العلم ونقل الفلسفة وغيرها من علوم القدماء ، وما اقتضاه ذلك من التغيير والتبديل ، قلما عرف عنه الإفرنج شيئا لولا تاريخ الإسلام .

٤ - إن مدة هذا التاريخ أطول من مدد سائر التواريخ ؛ لأن الإسلام يشمل دولاً شتى إسلامية ، إذا انقضت دولة قامت أخرى . ونحن فى القرن الرابع عشر من تاريخ الهجرة [١] . وقد توالى فى الإسلام مئات من الدول من أمم مختلفة فى آسيا وأفريقيا وأوربا . ولا يزال من هذه الدول كثير حتى الآن فى هذه القارات . منها الدول الكبرى كالدولة العثمانية والفارسية والدول الصغرى فى الهند وجزيرة العرب وأفريقيا .

ولا نعرف أمة طال سلطانها فى الأرض مثل هذه المدة . ولا يزال عمر الإسلام طويلا ، بل هو فى نهضة إصلاحية تساعده على طول بقائه . فهو لذلك يحتوى على تاريخ أطول من سائر التواريخ.

٥ - يمتاز تاريخ الإسلام عن سواه أنه يشتمل على تاريخ السياسة والدين والعلم والشريعة . وهذا قلما يجتمع فى التواريخ الأخرى .

وتاريخ الفقه الإسلامى لا يدانيه تاريخ فقه لأمة من أمم الأرض بما يدخل فيه من إعمال الفكر واستنباط العقل . وقس عليه تاريخ العلم ؛ لأن المسلمين أتوا فى نهضتهم العلمية فى العصر

---

(١) كتب المؤلف مخطوطه هذا عام ١٩١١ م = ١٣٢٩ / ١٣٣٠ هـ .

العباسى بما لم يأته غيرهم فى نهضة ، فقد اشتغلوا بعلوم اليونان والفرس والهنود والسريان وغيرهم ونقلوها إلى لسانهم وذكروا أخبارها وأحوالها فضلا عما فى اختلاف أجناس المؤرخين من جوامع الفوائد ، فإن بينهم العربى والفارسى والتركى والرومى والمصرى والسريانى والهندى وغيرهم . ولكل أمة مزية ، فاجتمعت هذه المزايا فى تاريخ الإسلام .

٦ - يشتمل تاريخ الإسلام على عبر تاريخة لا يتيسر اجتماع مثلها فى تاريخ أمة أخرى ؛ لكثرة العناصر والأجناس الداخلة فى الإسلام ، ولكل منها عادات وأخلاق .

وكان فى كتاب المسلمين ميل إلى ذكر الحوادث والإشارة إلى العبرة والوفاء فيها . على أننا لا ننكر ما فى تواريخ الأمم الأخرى من المزايا التى قد تمتاز بها على تاريخ الإسلام .

تاريخ مصر بالنظر إلى سواه

إن تاريخ مصر من قبيل التواريخ الخاصة ؛ لأنه يختص بمصر دون سواها من البلاد ، وهو تاريخ طويل . لأن مصر من البلاد التى تمدنت قديما ، ولعلها أقدم الممالك المتمدنة التى وصل إلينا خبرها . ويقسم تاريخها إلى قسمين كبيرين : قديم وحديث .

فالتاريخ القديم : يشتمل على تاريخها من أول عهدها إلى الفتح الإسلامى . ويدخل فيه تاريخ دول الفراعنة . وينتهى هذا بفتح الإسكندر ، الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م . ودولة البطالسة تبدأ بفتح الإسكندر وتنتهى بالفتح الرومانى سنة ٣٠ ق . م . والدولة الرومانية تبدأ بهذا الفتح وتنتهى بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠م.

وتاريخها الحديث يبدأ بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠ م ، ولا يزال ، وهو تاريخها الإسلامى .

ويقسم تاريخها الحديث الإسلامى إلى ١٢ دولة كلها إسلامية ، يتخللها الفتح [١] الفرنساوى على يد «بونابرت» ، ثلاث سنوات . ونعدها دولة ثالثة عشرة وهى :

١ - دولة الخلفاء الراشدين : من سنة ١٨ - ٤١ هـ أو من ٦٤٠ - ٦٦١ م .

٢ - الدولة الأموية : من ٤١ - ١٣٢هـ أو من٦٦١ - ٧٥٠م.

٣ - الدولة العباسية : للمرة الأولى من ١٣٢ - ٢٥٧ هـ أو من ٧٥٠ - ٨٧٠ م .

---

(١) الفتح : اصطلاح إسلامى بمعنى أخذ بلد أو منطقة سلما أو عنوة . انظر عمر نصوحى ، قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات الفقهية ، جـ ٣ ص ٣٣٦ ، دار بيلمان ، استانبول بدون تاريخ .

٤ - الدولة الطولونية: من ٢٥٧ - ٢٩٢ هـ أو من ٨٧٠-٩٠٥ م .

٥ - الدولة العباسية : للمرة الثانية من ٢٩٢ - ٣٢٣ هـ أو ٩٠٥ - ٩٣٤ م .

٦ - الدولة الإخشيدية : من ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ أو من ٩٣٤-٩٦٩ م .

٧ - الدولة الفاطمية : من ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ أو من ٩٦٩-١١٧١ م .

٨ - الدولة الأيوبية : من ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ أو من ١١٧١-١٢٥٠ م .

٩ - دولة المماليك الأولى : من ٦٨٤ - ٧٨٤ هـ أو من ١٢٥٠-١٣٨٢ م .

١٠- دولة المماليك الثانية : من ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ أو من ١٣٨٢-١٥١٧ م .

١١- الدولة العثمانية : من ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ أو من ١٥١٧-١٧٩٨ م .

١٢- الحملة الفرنساوية : من ١٢١٣ - ١٢١٦ هـ أو من ١٧٩٨-١٨٠١ م .

١٣- الدولة المحمدية العلوية : من ١٢١٦ هـ أو ١٨٠١ م ولا تزال .

موضوع هذا الكتاب

فموضوع هذا الكتاب يقتصر على الدولة الحادية عشرة من الدول الإسلامية التى دخلت مصر فى حوزتها ؛ نعنى الدولة العثمانية بعد إخراج المدة التى كانت مصر فى أثنائها تحت سيطرة الفرنساوى ، على أثر الحملة الفرنساوية من سنة ١٧٩٨-١٨٠١ فيكون موضوع هذا الكتاب ، تاريخ مصر العثمانية من الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ - ١٢١٣ هـ أو من ١٥١٧-١٧٩٨م وهو أظلم [١] أقسام التاريخ المصرى الحديث ، لأن مصر كانت فى أثنائه مضطربة . وقد استبد بها المماليك وفسدت حكومتها ، وقل من كتب فى تاريخها من المحققين . على أننا سنبذل الجهد فى إيضاح ذلك التاريخ .

ولا بد لنا قبل التقدم إلى الكلام فيه من أن نقدم القول بمقدمات تمهيدية لزيادة الإيضاح فنقول :

---

(١) قد يقصد المؤلف هنا بأظلم أقسام التاريخ ، قلة من كتب فى هذه الحقبة من مؤرخين .

ما كانت عليه مصر عند الفتح العثمانى

ويقتضى بيان ذلك أن نأتى بفذلكة تاريخ السلاطين المماليك الذين انتقلت مصر من أيديهم إلى العثمانيين على يد السلطان سليم الفاتح (١) .

السلاطين المماليك

ويراد بالسلاطين المماليك : الدولة التى أنشأها مماليك الدولة الأيوبية بعد انقضائها .

حكمت الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ، وهى كردية ؛ لأن مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى (٢) ، كردى. وهو من أعظم رجال الإسلام تعقلاً وسياسةً وبسالةً وتدبيراً . أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر ، وبايع فيها للخلفاء العباسيين . وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا . وأنقذ بيت المقدس من أيديهم . ومآثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن الأكراد فى أيام دولته ، وتولوا الإمارات والولايات فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان .

ولما مات اقتسم مملكته ، أخوته وأولاده وأولاد إخوته ،

---

(١) السلطان سليم الفاتح ، هو السلطان سليم الأول العثمانى : ١٤٦٧-١٥٢٠ م.

(٢) السلطان صلاح الدين الأيوبى : ١١٢٩-١١٩٣ م .

ولذلك لم يطل حكمها ، فغلبهم على معظمها مماليكهم الأتراك . كما غلبت الأتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم . فكان للمماليك فى مصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك .

أصل السلاطين المماليك

يدل اسم المماليك على أصلهم فقد كانوا أرقاء مملوكين، ثم صار الحكم إليهم . وهم من الأتراك . كانوا فى الأصل جندا مأجورا أو مبتاعا . بدأ استخدام الأتراك فى الجندية على هذه الصورة فى أيام المعتصم العباسى فى أوائل القرن الثالث للهجرة . فإنه استقدم منهم جماعة من تركستان ابتاعهم أو استرضاهم أو استأجرهم لتعزيز حاشيته خوفا من تغلب أحد الحزبين اللذين استفحل شأنهما يومئذ فى أثناء الفتنة بين أخويه الأمين والمأمون . إذ قام العرب مع الأمين ، والفرس مع المأمون . وكان الشأن الأكبر فى أول الدولة العباسية للجند الخراسانى (الفرس) وهم الذين نقلوا الدولة الإسلامية من بنى أمية إلى العباسيين . وكان العرب أقوياء لأنهم قوام الدولة ، ومنهم الخلفاء وهم مادة الإسلام وأصله. وكان الفرس من حزب البرامكة. وكان الرشيد ذا عصبية للعرب ويخاف الفرس ، لأنهم أنصار الشيعة العلوية فنكب البرامكة خوفا منهم .

ولما اختلف الأمين والمأمون وتنازعا على الخلافة بعد الرشيد . كان العرب مع الأمين ، والفرس مع المأمون ، لأن أمه فارسية ، والأمين أمه عربية هاشمية «زبيدة» . وكان الفوز للمأمون وقتل الأمين . فانحط شأن العرب . وصارت السيادة إلى الفارسيين أنصار المأمون واستبدوا في الدولة .

وكانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه . وكانت أمه تركية ، وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم ، لأنهم أخواله . كما كان يميل المأمون إلى الفرس لنفس هذا السبب .

وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الأمين حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم تكن له ثقة العرب وقد ذهبت عصبيتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الجر [1] والصبر على شظف العيش فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ، أو يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف

---

(١) هكذا في الأصل .

منهم . وفيهم جَمّال و صحة ، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود .

دولة المماليك الأولى

وصار تجنيد الأتراك من ذلك الحين قاعدة فى الدول الإسلامية . ومن جملتها الدولة الأيوبية بمصر ، فإن الملك الصالح ابن الكامل (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) استكثر من اقتنائهم حتى جعل منهم بطانته وأمراء دولته والمحيطين بدهليزه وصارت مناصب الدولة إليهم، وأمنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقرا لهم حتى إذا ضاقت ذرعا من الإحاطة بهم ابتنوا - بأمر الملك الصالح- قصورا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب من جزيرة الروضة بضواحى القاهرة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعى مناعة وجمالا ، لأن النيل يتفرع هناك إلى فرعين . وكان يدعى نقطة تفرعه ، بالبحر ، لعظم اتساعه . فسمى هؤلاء المماليك، بالمماليك البحرية . ومنها اسم دولتهم تمييزا لها عن دولة المماليك الشراكسة ، الآتى ذكرها .

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوما فيوم إلى أن طمعوا بخلع السلطان وتولى الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم

آخر سلاطين بني أيوب ، وكان على ما كان عليه من الاستبداد ، أنفت نفوسهم من أعماله فسعوا فيه إلى أن قتلوه .

ولما قُتل الملك المعظم اختلفت الأحزاب فيمن يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم فى يدها وتعاظم الخصام فتداركت الأمر شجرة الدر وهى محظية كانت لها منزلة عند الملك المعظم وسائر رجال الدولة فرأت حزب المماليك أعز جانباً من الجميع . وكانت قبلا قد تواطأت مع ايبك عز الدين وهو من أعظم الأمراء المماليك نفوذا وبينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح فتمكنت بهذه الصداقة من مبايعة الجميع لها مما لم يسبق له مثيل فى الإسلام لكنها لم تستطع استبقاء الحكم فى قبضتها أكثر من سنة فخلعها المماليك وولوا أيبك عز الدين المذكور سنة ٦٤٨ وله منازعون ومناظرون . وزاد الأمر إشكالاً تعدى الصليبيين على دمياط فى تلك الأثناء .

وما زالت السيادة تنتقل من واحد إلى آخر منهم حتى أفضت إلى الظاهر بيبرس البندقدارى أعظم سلاطينهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) .

الملك الظاهر بيبرس

وكان الملك الظاهر ملكا حازما ، شديد البطش كثير الغزوات ، خفيف الركاب يحب السفر . وكان مشهورا بالفروسية

فى الحرب . وله إقدام وعزم على القتال ، وثبات عند التقاء الجيوش حتى لقبوه بأبى الفتوح . وكان شعاره الأسد ، إشارة إلى شجاعته.

ومن أعماله المأثورة أنه عمر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة فى بيت المقدس . وزاد فى أوقاف الخليل ، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الإسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه ، وعمر الشنوانى ، وعمر قلعة دمشق وقلاعا عديدة فى أنحاء سورية ، وعمر المدرسة بين القصرين فى القاهرة والجامع الكبير بالحسينية وهو المعروف الآن بجامع الظاهر . وحفر خليج الإسكندرية القديم وباشره بنفسه . وبنى هناك قرية سماها الظاهرية . وحفر بحر أشمون طناح ، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة . وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر . وبنى القصر الأبلق فى دمشق ، وغير ذلك من الآثار الباقية إلى اليوم .

واشتهر الملك الظاهر بحروبه مع الصليبيين ، فاستولى على بلاد كثيرة من سوريا وفلسطين وحلب ، وفتح بلاد النوبة وبرقة .

وفى أيامه جاء العباسيون إلى مصر على أثر فرارهم من بغداد بعد سقوطها بأيدى التتر وقتل الخليفة المستعصم سنة

٦٥٦هـ فجاء منهم إلى مصر الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله . فوصل مصر سنة ٦٥٩ هـ ، فاستقبله الملك الظاهر أحسن استقبال ، وبايعه ، وأثبت نسبه فى مجلس من القضاة والعلماء . وأراد أن يسترجع لهم بغداد ، فأرسل جندا لاستخراجها من سلطة التتر فلم يفلح ، فى حديث يطول شرحه ، لكنه أفلح فى جعل مصر مقر الخلفاء العباسيين ، وصاروا لا يثبت سلطان منهم على كرسى مصر إلا إذا بايعه الخليفة العباسى بماله من السيادة الدينية .

بقية دولة المماليك الأولى أو البحرية

مات الملك الظاهر سنة ٦٧٦ هـ . وخلفه على الملك ولداه بركه خان ثم سلامش . ولم يكونا أهلاً للرئاسة ، فتغلب عليهما وحتى كان على سلامش ، اسمه سيف الدين قلاوون الألفى ، فخلع سلامش ، وتسلم زمام الأحكام ، فبويع ولقب بالملك المنصور .

وكانت مدة حكمه بضع عشرة سنة من ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ . وكان حسن الشكل ، ربع القامة ، قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، مغرما بشراء المماليك حتى قيل

إنه تكامل عنده ١٢,٠٠٠ مملوك أكثرهم من الشراكسة . وحارب الصليبيين وغيرهم . وخلف آثارا بنائية لا يزال بعضها قائما إلى اليوم ، منها المارستان المنصورى ، وجامع قلاوون فى شارع النحاسين بمصر .

وبلغ من عنايته بالمماليك أنه غير ملابسهم ، وألبسهم المخمل الأحمر والأخضر والسمور والفرو . وكان استكثاره من المماليك الشراكسة ، سببا فى خروج السلطة من نسله كما أصاب الملك الصالح باستكثاره من المماليك الأتراك . فتوالى على الملك بعده بعض أولاده وبعض مماليكه الأتراك . ولم يثبت الملك طويلا إلا لابنه الناصر بن قلاوون من سنة ٧٠٩ - ٧٤١ هـ ، فخلف آثارا كثيرة ، وحارب حروبا جمة . ومن جملة آثاره مجراة الماء ، والسقايات السبع على حدود مصر القديمة فى القاهرة .

وتكاثرت مماليك الملك الناصر المذكور فى أواخر أيامه ، وانتقل الحكم بعده إلى أبنائه الواحد بعد الآخر ، وهم ثمانية ، من سنة ٧٤١ - ٧٦٢ هـ . ومنهم السلطان حسن صاحب الجامع المعروف باسمه فى مصر . وانتقل بعدهم إلى جماعة من أهلهم حكموا ٢٢ سنة أخرى ، حتى انتقل سنة ٧٨٤ هـ إلى دولة المماليك الشراكسة أو «دولة المماليك الثانية» .

دولة المماليك الثانية ، أو ، الشراكسة

والمماليك الشراكسة هم مماليك السلطان قلاوون المتقدم ذكره . وهم جنس من أهل آسيا يخالف الأتراك . أصلهم من جهات سيبريا ونواحى بحيرة «بيقال» . وهاجروا فى القرن السادس للميلاد إلى غربى بحر قزوين يُحملون من بلادهم للاتجار بهم فى أنحاء العالم ، فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الأخير عدداً وافراً فضلا عن المماليك البحرية اقتداءً بأسلافه . وكانوا يستخدمونهم فى صالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت إليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم فى الأبراج فلقبوا «بالبرجية» وما زالو يزدادون عدداً وقوة ومنعةً حتى تاقت نفوسهم إلى تسلق كرسى الملك يجعلونه إرثا فى نسلهم .

فتمكنوا من ذلك على يد مملوك منهم حازم اسمه برقوق ، وهو ابن مرتد شركسى اسمه أنس . تدرج فى مصالح الدولة من أدناها إلى أعلاها بحزمه ودهائه حتى تمكن من تسلق كرسى الملك سنة ٧٨٣ هـ وما زال حاكما نافذ الكلمة إلى سنة ٨٠١ هـ .

وفى أيامه حمل «تيمورلنك» القائد التترى على العالم

الإسلامى حتى هدد حدود سوريا فحمل عليه برقوق فى صفد وأوقفه عند حده .

أول علائق العثمانيين بمصر

وفى أثناء ذلك أفضت سلطنة آل عثمان إلى السلطان بايازيد فى آسيا الصغرى . وقد طمع بمصر فجاء تيمورلنك لينازعه عليها وعلى مصر ، فبعث كل منها وفدا إلى القاهرة . فطلب وفد بايازيد إلى برقوق أن يعاهده على السلم . وإلى الخليفة العباسى المقيم فى القاهرة أن يقر بايازيد رسميا على سلطنة الأناضول ، فأجابهم إلى ما طلبوه .

أما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة أخرى لأنهم استعملوا الخشونة والفظاظة فى أقوالهم ومطالبهم ، فطلبوا منه أن يسلم لهم قرا يوسف ، وأحمد بن أويس اللذين قد التجآ إليه . فطيب برقوق خاطرهم وأخذهم بالملاينة فازدادوا فجورا ، فأمر بقتلهم ، فشق ذلك على تيمورلنك ، فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرُّها ، وقتل من فيها ، ثم جاء حلب فأنكى فيها ، ثم توقف عن مسيره لغرض فى نفسه يسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك ، فأكثر من الجند والسلاح . وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى أدركته الوفاة .

والسلطان برقوق أعظم سلاطين دولة المماليك الشراكسة أو الثانية وله آثار منها جامع لا يزال يعرف باسمه وكان له ولع خاص باقتناء الأسلحة ، ونظم الجند ، وعين رتبه ، وجعل مناصب الدولة إلى تسعة من كبار الموظفين أكبرهم أتابك العساكر ، فرأس نوبة الأمراء ، فأمير السلاح ، فأمير المجلس ، فأمير الياخور ، فالدوادار ، فرأس النوبة الثانى ، فحاجب الحجاب . وهو أول من عقد مع العثمانيين صلحاً أو عهدا ، كما رأيت .

وتولى الملك بعـده اثنان من أولاده ، الواحد بعد الآخر . ثم تنازع السـيادة مماليك آخـرون ، يطول بنا ذكـر مدد حكمهم ، أهمهم فيما نحن فيه : الملك الأشرف قايتباى من سنة ٨٧٢-٩٠١ هـ .

تولى الملك والمملكة المصرية فى اضطراب . وفى أيامه اقتضت الأحوال أن تتداخل الدولة العثمانية بمصر ، وتعاديها . وذلك أن السلطان محمد الثاني حارب مَلك الفرس «أوزون» وتغلب عليه [١] . وكان بين المصـريين والفرس تحالف . ثم ما لبث «قايت

---

(١) اوزون حسن أو «حسن الطويل» لم يكن ملك الفرس ، بل كان حاكما تركمانيا فتح فارس عام ١٤٦٧ م . انظر المنجد فى الإعلام / ص ١/٩٣ ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨٠ .

بك» ، أن سمع بعزم السلطان المذكور على فتح «سوريـا» سنة ٨٨٥ هـ . ولكن لم يخرج من بر الأناضول حتى داهمته المنية فى مدينة «طيفور جابر» . وتخاصم ابناه «بايازيد» [١] ، و «جم» أو «زيزم» على الملك ، فشغلا عن الفتح ، فاغتنم قايت باى تلك الفرصة وانسحب بجيشه إلى مصر .

وما زال الخصام يتعاظم بين ابنى محمد حتى كانت بينهم اواقعة «يكى شهر» فانهزم جم حتى أتى مصر ، والتجأ إلى قايت بك ، فأكرم وفادته ، ثم علم أن ذلك الإكرام يهيج حاسة الانتقام فى بايازيد «الثانى» فقال فى نفسه : «إذا كان لا بد من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين» فجعل يناوىء الأتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج إلى الحرمين حتى قبض على وفد هندى مرسل فى مهمة سياسية إلى بايازيد . واستولى على «أدنة» و «ترسوس» وكانتا فى حوزة العثمانيين .

أما بايازيد فكان واقفا بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الإجراءات طينة على عجينة ، إلا أنه رأى أن يأتيهم من باب الحزم فأنفذ إليهم رسلاً فى طلب التعويض عما

---

(١) الأصل بايزيد .

سببوه من الخسـائر والأضرار . فأرجع «قايت باى » الرسل ويعث يهاجم الجيوش العثمـانية ، فقاومته أشد المقاومة ، وأرجعت جيشه إلى ملاطية ، فأنجدهم «قايت باى» بخمسة آلاف رجل فـعادوا إلى العثمـانيين وهم فى مضايق الجـبال ، فهجموا عليهم بغتةً ، وذبحوا منهم عدداً كبيرا ، وفر الباقون وتحصنوا فى «ترسوس» و«أدنة» ، فأنفذ جيشا كبيرا تحت قيادة صهره أحمد ، وهو ابن أمير البوسنة ، فلما وصل إلى معسكر الأزبكى ، اقتتل الجيشان فهجم أحمد هجمة قوية ، لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ، ففازت الجيوش المصرية ، وأسر أحمد بعد أن جاهد جهاداً حسنا ، فعاد الأزبكى بأسيره إلى مصر ظافرا ، فبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الأزبكية ، وكانت فى أيامه بركة يتجمع إليها الماء أيام الفيضان وهى التى صارت الآن حديقة الأزبكية .

فلما بلغ بايازيد ما كان من انكسار جيوشه ، استشاط غضبا ، وجند جندا كبيرا جعله تحت قيادة «على باشا» لمحاربة المصريين . فسارت تلك الحملة من الأستانة فعبرت البوسفور فى ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ ، ونزلت قَرَمَان . فاتصل خبرها بقايت بك ، فأوجس خيفةً فعمد إلى المصالحة . فأنفذ إلى بايزيد صهره أحمد

واسطةً لعقد شروط الصلح ، فرفض بايازيد ذلك رفضا باتاً ، وسار حتى التقى بالمصريين فى «أدنة» و «ترسوس» فحاربهم وفاز عليهم، واسترجع المدينتين الواحدة بعد الأخرى ، بعد أن أهدر دماءً غزيرة ثم سار إلى أرمينيا وأخضعها، وحاصر عاصمتها ، فافتتحها بعد أن دافعت دفاعا قويا ، وأسر حاكمها ، وأرسله بعد ذلك إلى مصر بدلا من الأمير أحمد . فبعث قايت باى الأزبكى ثانية لدفع العثمانيين ، فواقعهم فى «ترسوس» ، فغلبوه أولا ثم عاد إليهم وفاز بهم وأعادهم القهقرى وعاد إلى القاهرة ظافراً ، فخلع عليه قايت باى . ثم رأى أن يغتنم كونه ظافرا لمصالحة العثمانيين ، فبعث إلى بايزيد فى ذلك فأجابه وطلب إليه أن يتنازل له عن «ترسوس» و «أدنة» وأنه إذا لم يفعل يدعو الناس إلى الجهاد ، فيجتمع تحت لوائه كل من يدعو لآل عثمان ، فيجيء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً . فخاف قايت بك وتنازل عن المدينتين اكتفاءً بأهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ . فقايت بك أول من حارب العثمانيين . وكان عادلاً محبوباً ، وما زال العقلاء الذين عاصروا سائر دولة المماليك يضربون المثل بأيامه ، ويطلبون الرجوع إلى مثلها .

حرب أخري مع العثمانيين

قنسو (١) الغورى

خلف قايتباى على مصر خمسة سلاطين لم يطل حكمهم أكثر من خمس سنين لاضطراب الأحوال فجاء بعدهم السلطان قنسو الغورى حكم من سنة ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ وكان مخلصا فى الحكم وهو صاحب الجامع المعروف باسمه فى القاهرة.

ويهمنا هنا أن فى أيامه حدث اختلاف آخر بين العثمانيين والمصريين . وذلك أن كركود أخا السلطان سليم بايازيد جاء مصر سنة ٩١٨ هـ ، فاراً من أخيه ، وكانا قد تخاصما على الملك كما حصل بجم وبايازيد قبلاً ، فرحب قنسو الغورى به ترحابا عظيما وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية ، فذهبت

(١) الصحيح «قانصو» . وقد أثبت نطق الكلمة بارتولد فى مادة قانصو من دائرة المعارف الإسلامية وكذلك بسيم دار قوت فى ترجمته وإضافته لمادة قانصو إلى اللغة التركية انظر الترجمة التركية لدائرة المعارف الإسلامية جـ ٦ مادة قانصو .

العمارة غنيمة لمراكب «أورشليم» فى البحر المتوسط ولم تكن النتيجة إلا إثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز إليها . وابتدأ بفتح الحدود السورية وأرسل إلى مصر رسائل التهديد ، فاتحد الغورى مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين ، وكان الفرس فى حرب معهم وسنعود إلى تفصيل ذلك إلا أن الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشتتت الجيشين وأى تشتيت . فعمد قنسو الغورى إلى مخابرة العثمانيين بأمر الصلح على أى وجه كان ، وبعث إلى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل إلى السلطان سليم فخروا ساجدين وخاطبوه بأمر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً «لقد فات الأوان . انهضوا وارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له ، إن الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها إنى ذاهب إلى القاهرة فيستعد للدفاع إن كان له أهلا» .

فعادوا وأخبروا بما كان، فجمع قنسو رجاله وزحف لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها فى «مرج دابق» قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وأظهر الغورى بسالة وثباتاً عظيمين حتى أوشكت رجاله أن تستظهر ، فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن للمصريين مثل ذلك السلاح فتشوش نظامهم ووقع الرعب فى قلوبهم ، وانحاز قائدا جناحيهم إلى العثمانيين وكان الغورى قائدا

لقلب الجيش فاضطر إلى الفرار ، فحوّل شكيمة جواده ، فسقط عنه لشدة الازدحام وقتل تحت أرجل الخيل سنة ٩٢٢ هـ .

آخر السلاطين المماليك

فخلفه الملك «الأشرف طومان باى» ابن أخيه ، وفى أيامه فتح السلطان سليم مصر وصارت عثمانية ، ولم يتم طومان باى سنة فى حكمه ، وقبل التقدم إلى تفصيل ذلك الفتح ، نأتى بفذلكة عن تاريخ الدولة العثمانية إلى سنة الفتح فنقول :

الدولة العثمانية

هى دولة تركية لكنها تختلف عن دولة المماليك التركية (الأولى) المتقدم ذكرها أن أصحابها لم يكونوا من المماليك بل هم قوم أحرار أهل سيادة ، جاءوا فاتحين – وقد نشأت فى الإسلام عدة دول تركية منها أربع دول نشأت وانقرضت فى أيام العباسيين قبل سقوط بغداد ، وكان مؤسسوها فى الغالب عمالاً للعباسيين فى بعض الولايات ثم استقلوا وهى : الدولة الطولونية والايلكية والإخشيدية والغزنوية . وليس فى الدول التركية دولة كان أصحابها أهل سيادة فى بلادهم وجاءوا المملكة الإسلامية فاتحين إلا السلاجقة والعثمانيين .

أما دولة السلاجقة فمؤسسها أمير تركى كان فى خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية ، فطمع بها وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الإسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة [١] . ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا فى الفتح ونشر السيادة حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر الأبيض وكانت لهم بعد ذلك دولة عريضة تفرعت إلى خمسة فروع لا محل لذكرها هنا . ولما شاخت دولتهم ، أفضت المملكة إلى مماليكهم ، ويسمونهم الأتابكة ، واحدهم «أتابك» فتفرعت المملكة السلجوقية بهم عشر ممالك ، وبقى من السلاجقة فرع عُرِف بسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، تفرع إلى ثمانى إمارات أخذها منهم العثمانيون ، وأقاموا دولتهم على أنقاضها كما سيجىء .

والعثمانيون شأنهم فى تأسيس دولتهم مثل شأن

---

(١) يقصد جرجى زيدان هنا ، سلجوق بن دقاق وهو مؤسس دولة السلاجقة . وكان إسلامه نتيجة التقائه بالاتراك المسلمين فى جند وليس طمعا فى دولة . انظر إبراهيم قفص أوغلو ، مادة السلاجقة ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة التركية جـ ١٠ ، استانبول ١٩٦٧ .

السلاجقة، فإنهم جاءوا من تركستان وهم أهل دولة وأصلهم من التتر الذين يقطنون ما يجاور جبال التاى عند حدود الصين الشمالية ، ويغلب على الظن أنهم الإسكتيون المعروفون قديما بالشجاعة وشدة البأس ، ويقال إن جماعة منهم ينتسبون إلى جد يقال له «ترك» نزحوا غربا فى القرن الأول للميلاد ، وأقاموا فيما هو الآن تركستان ، وهى مشهورة بجودة الإقليم وخصب المرعى وجمال المكان وقوة الأبدان (١) .

وما استتب لهم المقام هناك حتى أخذوا يمدون سلطتهم وهم لا يزالون فى حال الجاهلية ، ولم يعتنقوا الإسلام إلا فى أواسط القرن الرابع للهجرة وأشهرهم طائفتان ، إحداهما السلاجقة المتقدم ذكرهم . وقلنا إن منهم فرعاً ظل سائدا فى آسيا الصغرى إلى أواخر القرن السابع للهجرة ، وسلطانه يومئذ علاء الدين كيقباد الثانى ، تولى الملك سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦) م .

أما الأغوزية فما زالوا مقيمين فى تركستان حتى ظهر

---

(١) لم يذكر المؤلف مصدره فى أن للأتراك جدا يسمى ترك . انظر معانى كلمة ترك ، چاغاتاى اولوچاى ، دائرة معارف التاريخ (بالتركية) مادة ترك ، دار باتش ، استانبول ١٩٦٩ .

جنكيزخان القائد المغولى وغزا قبائل تلك البلاد ، فأذعنوا له إلا الأوغوزية فإنهم هاجروا بقيادة أمير يدعى سليمان يطلبون مقاما ومرعى لماشيتها ، وما زالو يسيرون غربا حتى حدث وهم يعبرون الفرات أن أميرهم سقط بجواده فى النهر ومات ، فدفنوه هناك وهو جد السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة فأصبحوا بعده جماعات متفرقة ، فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى ، وهو فى بعض السهول شاهد أرطغرل عن بعد غباراً متصاعدا وحربا قائمة ، فتقدم على نية الانتصار لأضعف الفئتين المتحاربتين ، ففعل وهو لا يدرى لمن ينتصر ، فقيض الله النصر له ، وتقهقرت الفئة الأخرى ثم علم أنه انتصر للسلجوقيين وقهر المغوليين ، فشكر الله على ذلك .

فنال منزلة رفيعة لدى علاء الدين السلجوقى(١)، فأقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فريجيا وبيثينا فكانت أرضا خصيبة ذات مرعى حسن – وفى تلك البقعة نشأ ابنه عثمان.

وشبَّ وترعرع ومازال أرطغل تحت رعاية علاء الدين حتى توفى فخلفه ابنه عثمان . (٢)

---

(١) علاء الدين السلجوقى أو علاء الدين كيقباد ١٢١٩ – ١٢٣٧ .

(٢) فى المخطوطة صورة السلطان عثمان الغازى .

ثم توفى علاء الدين فاقتسم امراؤه مملكته ، فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو أول أمراء آل عثمان .

ومن التقاليد المأثورة بين العثمانيين ، أن عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تُدعى «مال خاتون» وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً فى السن اسمه أَدَبَالى ، فلما شعر بمحبة عثمان لإبنته ، خاف العاقبة وصار يحاول إبعادهما الواحد عن الآخر ، وبالغ فى حجاب ابنته لأنه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه (١) .

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت فى منزل أَدَبَالى وقضى معظم الليل هاجاً بحبيبته (٢) حتى غلب عليه النعاس ، فرأى فى الحلم كأن القمـــر خارج من صدر أدبالى ، ثم رآه يتسع بســـرعة حتى غطى كل ما كان واقعا تحت نظره من الأرض . ثم أخذ فى التقلص حتى عاد إلى حجمه الأول ، وارتد إلى صدر أدبالى كما

---

(١) هذه الفقرة روائية أدبية تختلط فيها الرواية بالتاريخ .

(٢) يذكر محمد فريد الواقعة كالآتى : (أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل فى صدره - أى فى صدر عثمان - ثم خرجت من صلبه شجرة نمت فى الحال حتى غطت الأكوان بظلها ، ونظر اكبر الجبال تحتها ، وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية . تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد ص ١١٦ ط ٢ ١٩٨٣ م .

كان ، ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب أدبالى ، وأخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وتراءى له أن أنهر دجلة والفرات والطونة والنيل خارجة من أصل تلك الشجرة . وجبال قوقاس (١) وأطلس وطوروس وهيموس تستظل بأغصانها . ورأى أوراقها تستطيل وتسترق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها مصوبة إلى أشهر عواصم العالم ، خصوصاً القسطنطينية الواقعة فى ملتقى القارتين ومجمع البحرين . وخيل له أنها جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة فى فص خاتم وأنه أهم أن يجعل ذلك الخاتم فى أصبعه . فاستيقظ مبغوتاً ، فأخبر أدبالى فى الصباح بما كان، فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب ، وأنه سيمتلك القسطنطينية .

وما انفك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة بمآل ذلك الحلم ، وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية ، فرجع ولم ينل وطراً (٢) ، حتى ظهر محمد الفاتح (٣) السابع من سلاطين آل عثمان ، وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ، ففتحها بعد أن يئس المسلمون من فتحها .

---

(١) المؤلف يقصد القوقاز وتكتب على وجهين : «القوقاز» و «قفقاسيا» .

(٢) المؤلف يقصد هنا سلطان بايازيد الثانى : ١٤٤٧ - ١٥١٢ م .

(٣) فى المخطوط صورة للسلطان محمد الفاتح .

وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا ، وطاردوهم إلى بلاد المجر ، وحاصروا فيينا عاصمة النمسا ، وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الأبيض إلى شواطىء آسيا، ووجهوا مطامعهم من الجهة الأخرى نحو الشرق ففتحوا العراق والشام ومصر على يد السلطان سليم الفاتح الذى نحن فى صدده .

الإنكشــاريـــة

وقد تمكن العثمانيون من هذه الفتوح العظيمة بواسطة الإنكشارية وهم جند أنشأه العثمانيون على شكل خاص لم يسبق له مثيل ؛ لخلوه من عصبية تبعثه على التمرد ، لأنه مؤلف من الغلمان الذين كان العثمانيون يأسرونهم فى الحرب وأكثرهم من أصل مسيحى . فكان العثمانيون فى أول دولتهم إذا فتحوا بلداً دخل فى حوزتهم من أهله المأسورين جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ، ولا مرجع لمآلهم . فارتأى قرة خليل وزير السلطان أورخان ثانى سلاطين آل عثمان (سنة ٧٢٦ - ٧٦١ هـ) أن يربى أولئك الغلمان تربية إسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائما لا يخشى منه التمرد ، لأنه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ،

ولا دينا غير الإسلام ، فجندهم وسار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسيا ، ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم «يكى جرى» أى الجند الجديد .

ولم يكن قره خليل هذا أول من فكر فى تجنيد غلمان النصارى كما يظن أكثر مؤرخى الأتراك ، فإن الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر الذى تقدم ذكره ، فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية وهو متوجه إلى دمشق سنة ٦٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، فنزل بلدا اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم لأنهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سرًّا للصليبيين وأخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الأتراك فى الديار المصرية ، فنشأوا على الإسلام وتجندوا فى الجيش التركى .

على أن قره خليل جعل للإنكشارية شروطا لم يسبق لها مثيل ، فقسَّمهم إلى وجاقات واحدها وجاق ، والوجاق يقسم إلى أورط إحداها أورطة ، ولكل أورطة عدد تعرف به ، ولبعضها أسماء خاصة . ويختلف عدد الجند فى كل أورطة حسب الأعصر من ١٠٠ إلى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الأورط فى الوجاقات بمقتضى ذلك ، وأكبر ضباط الوجاق أو قائدها الأكبر يُسمَّى «أغا» تحته سكبان باشى ، تحته غيره فغيره على هذه الصورة .

الأغا : قائد الوجاق ويقابل اللواء فى هذه الأيام [1] .

سكبان باشى : ينوب عن الأغا فى الأستانة ويقابل القائمقام اليوم .

قول كخيا أو كخيابك : نائب الأغا أو السكبان باشى .

سمسونجى باشى : قائد أورطة نمرو ٧١ .

زغرجى باشى : قائد الأورطة نمرو ٦٤ .

محضر أغا : ينوب عن الإنكشارية عند الصدر الأعظم .

خصكى : ينوب عن الأغا فى القيادة على الحدود .

باشجاويش : قائد الأورطة الخامسة .

كخيابرى : ينوب عن الوجاق لدى الأغا .

الأفندى : الكاتب .

ولكل أورطة ضباط يقتسمون قيادتها وإدارة شئونها على هذه الصورة :

١ - الجوربجى : رئيس الأورطة يشبه الكولونيل .

٢ - أوده باشى : نائب الجوربجى فى المناورات العسكرية.

٣ - وكيل الخرج : يتولى أمر الطعام والشراب .

٤ - بيْراقــدار : يتولى الأعلام والبيارق .

---

(١) يقصد المؤلف العهد الذى عاشه .

٥ – باش اسكى : يتولى قياده القراقولات .

٦ – اشـجـــــى : الطـاهـــر [١] .

قوانين الإنكشارية

قد رأيت أن جند الإنكشارية تجند فى زمن السلطان أورخان ولكن الفضل الأكبر فى تنظيمه وترتيبه يرجع إلى السلطان مراد الأول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ – الطاعة العمياء لقوادهم وضباطهم أو من ينوب عنهم.

٢ – تبادل الاتحاد بين الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ – التجافى عن كل مالا يليق بالجندى الباسل من الإسراف أو الانغماس ويكون سؤولهم [٢] على البساطة فى كل شىء

٤ – الإخلاص فى الانتماء إلى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام .

٥ – لا يقبل فى سلك الإنكشارية إلا الذين يشبون من غلمان الأسر على التربية الخاصة بين غلمان الأعاجم .

---

* (١) فى المخطوط صورة توزيع الشرباء على الإنكشارية .

(١) هكذا فى الأصل . والمفترض ان الكلمة التى تستقيم مع المعنى هى : ويكون سؤددهم على البساطة ...

٦ – إن الحكم عليهم بالإعدام ينفذ بشكل خاص .

٧ – يكون الترقى فى المراتب حسب الأقدمية .

٨ – لا يجوز أن يوبخ الإنكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم.

٩ – إذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش .

١٠– لا يجوز لهم إرسال لحاهم .

١١– لا يجوز لهم أن يتزوجوا .

١٢– لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٣– لايجوز لهم أن يتعاطوا عملا غير الجندية .

١٤– يقضون أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمرين على الحركات العسكرية .

فإذا تدبرت هذه القوانين هان عليك تصور الأعمال العظيمة التى أتاها هذا الجند فى مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ترفع الناس عن الانتظام فى هذا الجند لأنه مجموع من لقطاء لا يعرف لأحد منهم أب ولا أم، ولكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم أنهم كانوا يحظرون على غير اللقيط أو المملوك الانتظام فى جندهم . وكان السلاطين يشددون فى تعظيم هذا الأمر فى عيونهم .

رواتب الإنكشارية (العلوفة)

الأصل فى ترتيب العلوفة أن تدفع يومياً ، لكنها لم تكن تدفع إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، تخفيفاً للثقلة ، فكانوا يؤدونها أربع مرات فى السنة ، وتعرف كل مرة باسم مؤلف فى ثلاثة أحرف مقتطعة من أسماء أوائل شهورها ، فالربع الأول من السنة مؤلف من ثلاثة أشهر محرم وصفر وربيع ، فالأحرف الأولى من هذه الأشهر إذا جمعت من هذا الترتيب كانت «مصر» وعلى هذا النسق كانوا يسمون الربع الثانى رجج ، وقد يقطعون من إسم الشهر غير حرفه الأول مراعاة للفظ ، فالربع الثالث (رجب ، شعبان ، رمضان) يسمونه رشن باقطاع النون من رمضان بدل الراء ، وقس على ذلك . وكانت لهم رسوم فى تفريق العلوفة لا محل لها .

أما مقدار العلوفة فقد كان فى أول إنشاء هذا الجند درهما واحدا عن كل انكشارى فى اليوم ثم ارتفعت إلى ثلاثة دراهم ، وفى ختام سنة ١٠٠٠ صارت العلوفة خمسة دراهم ، وكان للإنكشارية هدايا ينالونها فى الأعياد ، وعند تولية بسلاطين بسمى بخشش الجلوس وكان هذا البخشش يعطى لسائر الجند ولكبار الموظفين ، وله مقادير معينة .

ملابس الإنكشارية

وكان المعوّل عند العثمانين فى التفريق بين الرتب وتمييز أصحابها بعضهم عن بعض بأشكال القلانس (القاووق) ، أو الأقبية (القفطان) ، أو الأحزمة (الكمر) أو ألوانها فكان لكل طائفة من رجال الدولة قلنسوة شكلها خاص بهم وكذلك الأقبية والأحزمة وغيرها على اختلاف فى ألوانها وأشكال أزرارها فضلاً عن الأعلام. واختلف المؤرخون فى وصف هذه الألبسة ، واختلفوا فى أسمائها وأشكالها باختلاف العصور ، وفى الرسوم المنشورة هنا مثال منها (١) .

السلطان سليم الفاتح

ولد سنة ٨٥٩ هـ وتولى ٩١٨ هـ وفتح مصر سنة ٩٢٣ هـ وتوفى سنة ٩٢٦ هـ .

هو السلطان التاسع من سلاطين آل [عثمان] (٢) وهو أول خليفة منهم لأن السلاطين قبله لم يكونوا خلفاء وهو أول من بويع بالخلافة كما سيجىء وأصبح السلاطين بعده خلفاء أيضا أى أن كلاً منهم سلطان وخليفة أى له السلطتان السياسية والدينية . وبما أنه هو فاتح مصر حق علينا أن نذكر ترجمته .

---

(١) انظر الصور بملحق الكتاب .

(٢) سقطت كلمة «عثمان» من المؤلف فوضعناها بالشكل المذكور .

هو ابن السلطان بايزيد الثانى وقد تقدم فى ترجمة قنسو الغورى أنه تخاصم مع أخيه كركود وفر هذا إلى مصر واحتمى بسلطانها قنصو . وسبب هذا الخصام أنه كان لبايازيد الثانى (سنة ٨٨٦ هـ - ٩١٨ هـ) ثمانية أولاد ذكور ، توفى منهم خمسة وبقى ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم . وكان كركود يحب العلم ومجالس العلماء ، فمقته الإنكشارية لأنهم أهل حرب لا رزق لهم إلا بها ، وكان أحمد محبوبا لدى أعيان الدولة والأمراء . أما سليم فكان رجل حرب وبطش فأحبه الإنكشارية ونصروه .

ولحظ والدهم اختلافهم فى المشارب والمناقب فخاف تنازعهم ففرق بينهم فعين كركود واليا على إحدى الولايات البعيدة، وولى أحمد على أماسيا وتسليماً على طرابزون وكان لسليم ولد اسمه سليمان (صار بعد ذلك سليمان القانونى) فعينه جده بايازيد واليا على «كافا» [١] من بلاد القرم ، فلم يرض سليم بمنصبه فى طرابزون فتركه وسافر إلى كافا ، وبعث إليه أبيه يطلب إليه أن يعينه على ولاية فى أوربا . فلم يقبل السلطان بايازيد، وأصر على بقائه فى طرابزون ، فجاهر سليم بالعصيان على والده، وزحف بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملى ، فبعث والده جيشاً

---

(١) وصحة كتابتها فى لغتها كَفَه . المحقق .

لإرهابه ، فلم يتهيب . فلم ير بايازيد بُداً من مراضاته حقناً للدماء، فعينه والياً على مدينتى سمندريه ، ودين فى بلاد البلغار سنة ١٥١١ .

فلما علم كركود بنجاح أخيه أحب أن يقتدى به ، فانتقل إلى ولاية صاروخان ، وتولاها بدون أمر أبيه ، ليكون قريبا من القسطنطينية عند الحاجة . وخرج سليم على أدرنة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، فجرد والده عليه جنداً لمحاربته ، وجنداً لمحاربة أخيه كركود فى آسيا . ففر سليم إلى بلاد القرم ، وفر كركود أيضا . فأخذ الإنكشارية يناصرون سليماً ، وألجأوا السلطان إلى العفو عنه ، وإعادته إلى ولايته فى سمندرية ، فلاقاه الإنكشارية فى أثناء الطريق وحملوه إلى القسطنطينية ، وأدخلوه سراى السلطان باحتفال وطلبوا إلى بايازيد أن يتنازل عن الملك لابنه هذا فأطاع وترك القسطنطينية ليقضى باقى حياته فى ديموتيقا ، فتوفى فى الطريق، ويظن أن ابنه سليمان دس له السم خوفاً منه .

تولى السلطان سليم العرش العثمانى سنة ٩١٨هـ بقوة الإنكشارية فوزع فيهم الجوائز ، وعين ابنه سليمان حاكماً على القسطنطينية وخرج بجيوشه على أخويه وأولاده حتى يهدأ باله ويستقر له الملك بلا منازع . فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة ، فلم

يقدر عليه هناك ، فذهب إلى «بورصة» فقبض فيها على خمسة من أولاد إخوته ، وأمر بقتلهم . ثم شخص إلى «صاروخان» مقر أخيه «كركود» ففر «كركود» إلى الجبال . وما زال يطارده حتى قبض عليه وقتله وعاد إلى أحمد ، فحاربه ، فانهزم فطارده حتى قتل سنة ٩١٩ هـ .

فاطمأن بال سليم من جهته الداخلية ، إذ استقر له الملك بذهاب منازعيه ، ومال إلى المهادنة . فعد إلى أدرنة وكان فى انتظاره هناك ، سفراء البندقية والمجر وموسكو ومصر . فأبرم معهم عهداً على المهادنة لمدة طويلة ، لأن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس ، لمحاربة الشيعة . وكان الفرس فى عهد الدولة الصفوية . وقد أسسها شاه إسماعيل سنة ٩٠٧ هـ . وفتح شروان واستقر فى تبريز ، فجعلها عاصمة مملكته . ثم فتح العراق وخراسان وما وراءها إلى هرات . فغلب على حكامها التيموريين التتر . فامتدت سلطته من نهر الاكسوس إلى خارج فارس ، أى من افغانستان إلى الفرات ، فخافه العثمانيون ، وهاجت فتوحه مطامعهم وتنبهت الضغائن بين السنة والشيعة . والعثمانيون حماة السنة كما كان الصفويون حماة الشيعة .

وكان إسماعيل شاه ، لما تمرد سليم وأخوه أحمد ، على أبيهما ، أخذ يناصر أحمد فى عصيانه على أبيه ، ثم على أخيه سليم . وكتب من الجهة الأخرى إلى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين عند الحاجة . فبلغ ذلك إلى السلطان سليم ، وهو رجل حرب وبطش . فهاجت مطامعه ، ولم يعد يقنع بغير الفتح والتغلب على الدولتين جميعاً . وأمر بالقبض على من كان فى شيعته فى حدود مملكته ، وعددهم نحو ٤٠,٠٠٠ وقتلهم . وأعلن شاه إسماعيل بالحرب وخرج بجيوشه من أدرنة فى ٢٢ محرم سنة ٩٢٠ (١٩ مارس ١٥١٤م) وعددهم ٤٠,٠٠٠ ماش و ٨٠,٠٠٠ راكب . وجرت بينه وبين الشاه إسماعيل فى أثناء مسيره مكاتبات محشوة بالتهديد والوعيد . وجعل السلطان سليم وجهته مدينة تبريز عاصمة الشاه المذكور .

وكانت الجنود الفارسية فى أثناء الطريق تتقهقر أمام العثمانيين خداعاً حتى يتبعوهم ، ثم ينقضون عليهم . حتى إذا وصلوا إلى أرباض تبريز ؛ جرت واقعة انتصرت فيها الجنود العثمانية بقيادة «سنان باشا» . وفر الشاه بمن بقى من جنده وخلف وراءه كثيرين من قواده وأهله فى الأسر وكان من جملة الأسرى إحدى زوجاته ، فزوَّجها السلطان سليم من بعض كتابه .

إنتقاما من الشاه ، وفتحت تبريز أبوابها ، فدخلها الفاتح العثمانى ظافرا واستولى على خزائنها وذخائرها وأرسلها إلى القسطنطينية. وفى جملتها عرش مرصع بالماس والياقوت ومطرز باللؤلؤ هو الآن فى جملة ذخائر آل عثمان فى سراى طوب قبو بالآستانة . وقد شاهدتُه ووضعتُه فى مجلة الهلال السنة ١٨ .

وبعد ثمانية أيام اضطر لإخلاء تبريز لقلة المئونة اللازمة لجنده أخذ فى مطاردة الشاة ، ففتح ديار بكر وغيرها . وأراد الإيغال فى بلاد الفرس ، فتوقف الإنكشارية عن ذلك . وقد ملّوا الحرب ، وتعبوا من الأسفار . فعاد إلى أماسيا للاستراحة فى أثناء الشتاء والاستعداد للحرب فى أوائل الربيع .

فلما كان الربيع ، استأنف الحملة ، ففتح بعض البلاد ورجع إلى القسطنطينية ، وخلف بعض قواده ، لإتمام الفتح . وحال وصوله إلى القسطنطينية : حاسب قواد الإنكشارية على توقفهم عن السير فى حملته المشار إليها ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وقتل قاضى العسكر جعفر جلبى ، لأنه كان من أكبر المسببين لذلك التمرد . وخاف تمردهم ثانية ، فغير نظام تعيين الرئيس . وكانوا يعينونه من أكبر قوادهم ، فجعل لنفسه الحق فى تعيين ذلك الرئيس .

وأما جـنوده فإنـها واصلت الحـرب ، ففتحـت مـاردين وأورفه والرقة والموصل ، فتم بذلك فتح ولاية دياربكر ، وخضعت قبائل الأكراد له . ولما تأتّى له ذلك ، فكر فى فتح مصر انتقاما من قنسو الغورى على تحالفه مع الشاه إسماعيل وجرت معركة مرج دابق ، وقتل قنسو الغورى ، كما تقدم ، فحمل على مصر .

كيف كانت مصر لما جاءها السلطان سليم؟

كانت مصر يومئذ فى غاية الإضطراب والتضعضع ، وقد فسدت النيات ، واستفحل الظلم من عهد الغورى ، لأن هذا السلطان ارتكب فظائع عديدة ، غير قلوب الناس عليه ، وهذه شهادة مؤرخ معاصر له نفس ابن اياس صاحب كتاب بدائع الزهور ، فقد قال فى مساوىء قنصو الغورى ما نصه :

«انه (قنسو) أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل بها بيع ولا معاملة فى ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر ، وهو مبلغ ٢٧٠٠ دينار ، وكانت السوقة تبيع البضائع بما يختارونه من الأثمان ، ولا يقدر أحد أن يكلمهم. فإن كلمهم أحد يقولون علينا مال السلطان فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك . وقرر على دار الضرب مالاً له صورة

فى كل شهر فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً فكان الأشرفى الذهبى إذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى إثنى عشر نصفاً . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب بأموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها دينار ولا درهم ، فلما شُنِق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم «يعقوب اليهودى» فمشى فى طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ، فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير فى جملة الفلوس الحمر ، فاستمر الغش فى معاملته فى مدد دولته إلى أن مات .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشائخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ منهم المِثل أمثالاً . فضعف أمر الجند يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرض عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة ، فيأخذونها من الرعية . وزيادة الظلم والعسف فكان كل واحد من الرعية أصحاب الاقطاع والاوقاف يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها . من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى قرره عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة فما حصل لأهل

البلاد الشامية بسبب ذلك خير ، وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند ، المِثل عشرة أمثال . فامتنعت التجار من دخول بندر جده ، وترك أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات بمصر . وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الإفرنج والارز والأنطاع وخرب البندر ، وكذلك بندر الإسكندرية، وبندر دمياط . فامتنعت تجار الإفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وكان كل أحد من أراذل الناس ، يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم . فقرر على بيع الغلال قدراً معلوما يؤخذ على كل أردب ، ثلاثة أنصاف من البائع ومن المشترى . وكذلك على البطيخ والرمان حتى حرَّج على بيع الملح .

وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط .. ولم يفته من أعيان التجار أحد لم يصادره . وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالاً له صورة ، ودخل فى جملة ديون ، حتى أورد ما قرره عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم : «القاضى بدر الدين بن مزهر» كاتب السر . ومنهم : «شمس الدين ابن عوض» ، و «معين الدين بن شمس الدين» ، و «علم الدين» كاتب

الخزانة ، وغير ذلك ، جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه بسبب المال والصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ، ما فعل مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ، ورزقهم من غير سبب . وإعطاء ذلك إلى مماليكه الجُلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار . وحصل لهم الضرر الشامل ، بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فكّ الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف ، التى تسمى نصف الدنيا ، ووضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى فى القلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس فى الديوان المقرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى .

ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا حتى صار يحاسب السواقين ، الذين فى سواقى القلعة والخولة الذين فى سواقى الميدان فى الجلّة وروث الأبقار ، وما يتحصل كل يوم مما يبيعونه وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة .

وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال منه فى غاية الضيق ، لا يغفل عنهم من المصادرات يوماً واحداً . وكان من حين

توفى الأمير خ``اير بك الخازندار يباشر ض``بط الخزانة بنفسه . ما يدخل إليها ، وما يخرج منها ، وما يعرضون عليه من الأمور فى ذلك جميعه ، من الوص```ولات ، وما يصرف من الخزائن فى كل يوم .

وكانت هذه الأموال العظيمة ، التى تدخل له ، يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب . وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتب. وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضٍ ، بل على أمور مستقبحة ، وكان يتغافل عن أمر القتلى ، ويدفعهم إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلّم على المراسيم إلا قليلا . فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك . حتى كانت تشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تُلصق على المرسوم ، لأجل قضاء الحوائج ، ولو شرحنا مساوئه كلها ، لطال الشرح [١] . انتهى .

---

(١) رجع المؤلف إلى ابن اياس . انظر الطبعة المحققة : ابن إياس «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٨٤م الطبعة الثالثة صفحات ٨٩-٩٢ جـ ٥ .

سلطنة الأشرف طومان باى

تلك حال مصر فى زمن «قنسو الغورى» ثم أفضى عرشها إلى الأشرف طومان باى سنة ٩٢٢ هـ . وكانت سيادة المماليك منتشرة يومئذ على مصر ، وسوريا إلى حدود العراق .

وكانت الخلافة العباسية . قد أفضت إلى المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب . وكانت مناصب الدولة الكبرى ، التى تقدم ذكرها يشغله الأمراء الآتية اسماؤهم :

الاتابكي سودوه العجمى : أمير السلاح

الأمير أركماس بن طراباى : أمير المجلس

المقر الناصر بن محمد : أمير ياخور (١)

الأمير سودون الدوادار : رأس النوبة

الأمير انسباى بن مصطفى : حاجب الحُجَّاب

فضلاً عن بضعة عشر أميراً من القواد ، وناهيك بالأمراء النواب فى البلاد الشامية والحلبية وهم عديدون .

وقد تقدم أن جند مصر معظمه من المماليك المبتاعين بالمال،

---

(١) الأصل فيها أمير آخور وهو أمير المزاود الموكل بعلف الدواب . تاريخ الجبرتى جـ٤ ص ١٠٦١ .

فهم إنما يعملون طمعاً بالكسب الشخصى ، وليس لأحد منهم عائلة أو أسرة ، يغار على وطنه من أجلها إلا نادراً (١) .

فلما قتل الغورى فى معركة «مرج دابق» التف أكبر رجاله حول السلطان سليم ، وصاروا من اتباعه ، واخذوا يتقربون إليه بذكر مساوىء مولاهم وأمرائه ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من إحسان الغورى إليهم . وبعضهم خانه فى حياته، فإن نائب قلعة حلب سلم القلعة للعثمانيين من غير حرب .

أما سائر الجند والأمراء فهربوا إلى مصر . وحال وصولهم طلبوا تعيين «طومان باى» سلطاناً محل عمه «الغورى» ، فامتنع لأنه كان لا يعجبه تصرفهم فى الرعايا على نحو ما تقدم عن أعمال الغورى ، ولم يكن «طومان باى» ممن يرضى بذلك ، فألحوا عليه أن يقبل ذلك المنصب ، فاصطحبهم إلى الشيخ أبى السعود ، وهو من أهل الكرامة ، فأحضر لهم مصحفاً ، وحلف الأمراء الذين حضروا بصحبة طومان باى ، بأنهم إذا سلطنوه ، لا يخونونه ، ولا يغدرون به ، ولا يخامرون عليه . وأنهم يرضون بقوله وفعله . فحلف للجميع على ذلك ثم أن الشـيخ حلفهم أن لا يعـودوا إلى

(١) مع أن من المعروف أن المماليك أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن مصر والوقائع التاريخية كثيرة ولم يقصروا فى ذلك .

ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وأن لا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كانت على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة . وأن يجروا الأمور كما كانت فى أيام الأشرف قايدباى، فحلفوا له وانفض المجلس (١) .

فتولى «طومان باى» سلطنة مصر رغم إرادته وهو يرى ما كانت عليه من الفساد والخلل ، وما استولى على الرعايا من اليأس على أثر مظالم عمه الغورى التى ذكرناها . وكان من بين ما احتج عليهم به ، أن بيت المال ليس فيه درهم ولا دينار . قال : «فإذا تسلطنت من أين أُنفق على الجند» وهو يخاف أن لا يطيعه الأمراء فى محاربة العثمانيين ، لكنهم ما زالوا عليه حتى بايعوه كما تقدم، ودفعوا له بخلعة السلطنة ، وهى يومئذ الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى (٢) . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا آله فى الزَّرْدخانات. لاقيمة (٣) ولا طيراً ، ولا الغواشى الذهب . ولكنهم أتموا الاحتفال بالبيعة تلك

---

(١) ينقل المؤلف هنا عن ابن اياس ص ١٠٣ ، ١٠٤ جـ ٥ .

(٢) يمكن قراءتها أيضا على شكل «بهارى» .

(٣) يمكن قراءتها فى النص على شكل «قبه» لكنها فى الأصل قبه . انظر رد طومان باى، فى ابن اياس جـ ٥ ص ١٠٥ .

كانت حال المصريين لما جاءهم السلطان سليم لفتح بلادهم .

ولكن «طومان باى» كان حازما عاقلاً ، فلما حكم عليه أن يكون سلطاناً لم ير بداً من الثبات والصبر وأخذ في رد المظالم وإصلاح الأحوال ، ولكن بعد فوات الفرصة ، على أنه أخذ فى إعداد حملة أخرى لمحاربة العثمانيين .

فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٢ هـ

المعركة الفاصلة بين الجيشين

كان العثمانيون فى سوريا قد توقفوا للاستراحة ، فظن «طومان باى» أن الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر ، تحول بين العثمانيين وما يريدون . إلا أن الأمر لم يكن كما ظن ، لأنه لم يكد يتم إعداداته حتى أتاه كتاب السلطان سليم إلى القاهرة ، وهذا نصه :

«من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيرخان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان إلخ . إلى طومان باى الشركسي: «الحمد لله . أما بعد .. فقد تمت إرادتنا الشاهانية ، وباد إسماعيل شاه الخارجي ، أما قنسو الكافر . الذى حملته القحه على مناوأة الحجاج ، فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا إلا أن نتخلص منك فإنك جار «عدو» ولله سبحانه وتعالى يساعدنا على

معاقبتك ، فإذا أردت اكتساب رحمتنا الشاهانية اخطب لنا، واضرب النقود باسمنا . وتعال إلى أعتابنا واقسم على طاعتنا والإخلاص لنا وإلا ....» .

فلما قرأ طومان باى الكتاب ، وما فى ذيله من التهديد المستتر ، استشاط غيظا . وأصر على المقاومة . وكان عالماً بعجزه، لكنه فضل الموت فى ساحة الحرب على التسليم ، فزاد فى حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية ، وجمع ما أمكنه جمعه من الرجال ، وسار لملاقاة العثمانيين حتى أتى الصالحية فعسكر هناك.

أما السلطان سليم ، فسار إلى مرج دابق و وافتتح غزة والعريش والقطيعة ، ثم علم مقر الجيوش المصرية فى الصالحية ، وما هم فيه من العزم على المدافعة بشدة بأس ، فعرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه . وسار حتى أتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة .

فلما بلغ «طومان باى» تقدم العثمانيين إلى هذا القدر ، عاد بجيشه لمهاجمتهم من الوراء . فالتقى الجيشان فى سهل قرب «بركة الحج» يوم الجمعة فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ . واقتتلا طويلا ، والمصريون يحاربون ببسالة شديدة . لكنهم لم يكونوا

يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا ، ولا يعرفون استخدامها . فكانت الغلبة للعثمانيين . ففر المصريون إلى القاهرة ، وعسكر العثمانيون فى الروضة . فجمع إليه «طومان باى» عددا كبيرا من العربان ، بعد أن أرضاهم بالمال ، وهجم على معسكر السلطان هجمة اليأس فلم ينل منهم وطراً . فعاد إلى القاهرة على نية مواجهة الحصار ، فزاد فى حصونها واستحكامها . وحصن القلعة تحصيناً عظيما ، وأقام فى كل شارع وفى كل بيت طابية للدفاع، وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغم هذه الإعدادات ، وما أظهره «طومان» من البسالة والإقدام . وما سعى فيه أمراؤه ، لم تنج القاهرة من أيدى العثمانيين ، فإنهم دخلوها عنوة وأمعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً .

لا غرو إذا غلبت المماليك على أمرهم بعد ما علمت من اضطراب أحوالهم وتغير قلوبهم ، وخلو خزائنهم من المال . فالعسكر كيف يحارب بلا مال ؟ فقد كانوا فى الحرب يأتون إلى القلعة للاستيلاء على جامكيتهم فيجيبهم ولاة الأمر «ليس فى هذا اليوم جامكية لأن البلاد خراب والعرب مشتتة فى الطرقات» (١) .

---

(١) ينقل المؤلف هذه العبارة من ابن اياس ص ١٤٦ جـ ٥ ؛ واصلها فى ابن اياس يا أغوات ما فيها اليوم جامكية، البلاد خراب والعرب مفتتة فى الطرقات . نفس المصدر والصفحة .

وكان لهم ستة أشهر لم يقبضوا ، رواتبهم من اللحم ونحوه . ومن أسباب الكسرة . أن جند المغاربة الذين كانوا فى مصر ، توقفوا عن المحـــاربة ، وقالوا نحن لا نحـــارب المســلمين ، لا نحـارب إلا الإفرنج .

ومع ذلك فإن «طومان باى» لم يأل جهدا فى ترغيب الجند فى الاتحاد والدفاع عن الوطن وشدد عزيمتهم وسبك مناصل ، وعمل بندق الرصاص ، وأكثر من الرماة .

ولكن الرعب كان سائدا على أهل القاهرة ، وعلى الجند وهؤلاء إنما خرجوا للحرب لأن السلطان كان يجاهد بنفسه ، حتى فى بناء الاستحكامات ، وكان يحمل حجارة بيده لبناء خطوط النار أو حفر الخنادق .

على أن جماعة من رجاله ، انحازوا سراً إلى العثمانيين وأهمهم خايربك صاحب حلب الذى تقدم أنه قامر على الغورى فكان عونا للعثمانيين ، ودسيسة لهم عند المصريين [١] . وزد على ذلك أن المماليك كانوا فى عصر الانحلال ، والعثمانيون فى أوائل دولتهم ، وقد جاءوا بالمدافع والبارود [٢] ، «فطومان باى» جاء

---

(١) يقصد المماليك .

(٢) كان لدى المماليك مدافع وبارود أيضا فى ذلك الوقت لكن التقدم العلمى العسكرى لدى العثمانيين كان أكثر. انظر : الدكتور محمد حرب . العثمانيون فى التاريخ والحضارة ص ٤١٩ دمشق ١٩٨٩ م .

متأخرا ، وقد فسدت الأمور ، فلم يستطع اصلاح شيء ، رغم ميله الشديد إلى ذلك . وشدة إخلاصه في الدفاع عن الدولة والوطن . وشأنه في ذلك شأن «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية فإنه كان حازماً ، شجاعاً ، حسن النية . لكنه جاء متأخرا فلم يمنع سقوط دولة بني أمية ولا منع طومان باي سقوط دولة المماليك .

فلما انهزم المماليك ، وقد غُلبوا على أمرهم ، وتعقبهم العثمانيون إلى القاهرة . أخذوا في نهبها . وقد تعود أهلها ذلك في زمن المماليك ، إذا اختلفوا بينهم ، فالعثمانيون أخذوا في نهب بيوت الكبراء ، ودخلوا الطواحين ، وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش ، وأخذوا جمال السقايين ، وصاروا ينهبون ما يلوح لهم من القماش إلى القروب وتوجهوا إلى شون القمح بمصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال وقد قال بعض الشعراء المعاصرين في ذلك :

نبكي على مصر وسكانها   قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهـورة   بعد ما كانت هي القاهرة

وفي سلخ سنة ٩٢٢ هـ ، دخل الخليفة المتوكل القاهرة ، ومعه وزراء السلطان سليم والجم الغفير من العساكر العثمانية [١].

---

(١) انظر هذا النص في ابن اياس ص ١٤٨ جـ ٥ .

ودخل معهم الأمراء خايربك ، وقاضى القضاة الشافعية وغيره ممن كان فى أسر السلطان سليم فى حين مات السلطان الغورى . دخل الخليفة المذكور من باب النصر وقدامة المشاعلية تنادى الناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء . وأن العساكر العثمانية لا يشوشون على أحد من الرعية . وأنه قد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل . وأن كل من عنده مملوك شركسى . ولا يدل عليه ، ثم ظهر عنده يشنق ، وادعوا للملك المظفر سليم شاه بالنصر . فضج الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت أحد من العثمانية لهذه المناداة . وأخذوا ينهبون بيوت أولاد الناس بحجة أنهم يفتشون عن المماليك الشراكسة . فاستمر النهب فى بيوت الأمراء، وأهل البلدة ثلاثة أيام متوالية ، لا يتركون جمالاً ولا بغالاً ولا قماشاً .

وفى يوم الجمعة ، خطب باسم السلطان سليم على منابر القاهرة ، ومصر القديمة ، وهذا نص الخطبة :

«وانصر اللهم السلطان بن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره . نصراً عزيزاً ،

وافتح له فتحاً مبينا ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يارب العالمين» .(١)

وبالغ العثمانيون فى مطاردة الشراكسة ، حتى كانوا يدورون فى الحارات والأزقة والأسواق . وكل من رأوه من أولاد الناس لابساً زنطاً أحمر وتخفيفه . وهو لباس المماليك . قالوا له أنت شركسى ، وقطعوا رأسه . فلبس الناس العمائم ، حتى أولاد الأمراء والسلاطين ، وابطلوا لبس الزنط والتخافيف فى مصر . على أن ذلك لم يمنع تعديهم ، فكانوا يتهمون الناس أنهم من الشراكسة . ثم يقولون لهم : افتدوا انفسكم بالمال . فيفعلون .

وفى يوم الأثنين ، ثالث المحرم سنة ٩٢٣هـ دخل السلطان سليم القاهرة . وبين يديه الخليفة المتوكل ، والقضاة ، وشق المدينة فى موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة ، وحوله العساكر المتزاحمة بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم الشوارع. وما زال سائرا فى المدينة حتى دخل من باب زويلة . ثم عرج من تحت الربع ، وتوجه من هناك إلى بولاق ، ونزل فى المعسكر الذى نصبه تحت الرصيف . فلما شق المدينة ، ارتفعت الأصوات بالدعاء فى الناس قاطبة ، وقد وصفه أحد المعاصرين الذين شاهدوه فى ذلك اليوم ، فقال : إنه درى اللون ، حليق

---

(١) انظر هذا النص فى ابن اياس ص ١٤٨ جـ ٥ .

الذقن، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وفيه خفة وهرج ، كثيــر التفـت إذا ركب (١) .

أما «طومان باى» ، فإنه ثبت فى تلك الحروب ، ثبات الأبطال ، لكنه اضطر أخيرا للفرار فى ٨ محرم ، فذهب إلى الصعيد ، واتفق مع بعض قبائل العرب هناك ، على الدفاع عن الوطن ، ومصادرة ما يحمل إلى العثمانيين من الغلال ونحوها . فالتف حوله جماعة كبيرة ممن خافه السلطان سليم ، ثم جرت المخابرة بشأن الصلح والأمان ولم يتم شىء .

وأتى «طومان باى» برجاله إلى الجيزة ، فخرج إليهم السلطان سليم ، فحدثت معركة كالتى حدثت ببركة الحاج . وكان الفوز أولاً «لطومان باى» ورجاله .

ثم تكاثر العثمانيون وأكثروا من رمى الرصاص فانكسر المماليك وانهزم «طومان باى» فأمعن السلطان سليم فتكاً فيمن وقع فى أيديه منهم . ذكر «بن أياس» أن العثمانيين ، قطعوا رؤوس المماليك الشراكسة وجماعة من العربان الذين كانوا مع «طومان باى» . فلما تكامل قطع الرؤوس ، أحضروا مراكب نصبوا فيها

---

(١) يبدو أن هذه الصفات نقلها جرجى زيدان عن ابن اياس الذى سجّل سماعا دون رؤية لصفات سليم ليست هكذا .

مدارى من خشب ، وعلقوا عليها تلك الرؤوس وحملتها النواتية على أكتافهم ولاقتهم الطبول والزمور ، وزينوا القاهرة لذلك (١) .

وبعث السلطان سليم يتعقب «طومان باى» حتى تمكن منه بالحية ، فأتوا به مغلولاً إلى ما بين يدى السلطان ، فنظر إليه ، فإذا هو فى حالة الغضب ، وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من الذل فتحركت عواطف السلطان سليم ، فأمر أن تحل قيوده ، وبأن يؤذن له بالحضور فى مجتمعات كان يعقدها السلطان سليم للمداولة فى أمر البلاد . فكان يسأله مسائل كثيرة ، تتعلق بأحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والإدارية ظلوا على ذلك عشرة أيام . وفى اليوم العاشر ، رأى السلطان سليم أنه لم يعد فى حاجة إلى مشورة «طومان باى» فأمر بشنقه فى ١٩ ربيع أول سنة ٩٢٣ فعلقوه تحت رواق باب زويلة بكلاب من حديد ، كان باقيا هناك إلى عهد غير بعيد (٢) .

وبقتل «طومان باى» انتهت دولة المماليك الشراكسة ، أو البرجية . بعد أن تسلطنوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر ايالة

---

(١) انظر السبب فى قتل طومان باى فى شهاب الدين تكين ضاغ، طومان باى ، مادة كتبها لدائرة المعارف الإسلامية التركية. الترجمة التركية الجزء ٢/١٢ ص ٥٤ - ٥٧ .

(٢) نقل المؤلف هذا عن ابن اياس فى ص ١٧٢ جـ ٥ .

عثمانية . والسلطان سليم أول من خطب على منابرها من العثمانيين ، ولا تزال عثمانية إلى الآن [1] .

ولكن المراد فى هذا الكتاب التكلم عن تاريخ سيادتها الفعلية عليها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) إلى الحملة الفرنساوية سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وهى نحو ٢٩٠ سنة ، كانت الحكومة على ترتيب وضعه السلطان سليم سيأتى ذكره . فأصابها فى أثناء ذلك تعديل اقتضته طبيعة ذلك الحكم ، بحيث يمكننا أن نقسم تلك المدة إلى أربعة أدوار على هذه الصورة :

عدد السنين

الدور الأول : من الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ إلى سلطنة أحمد بن محمد ١١١٥ هـ ، وكانت الكفة الراجحة فيه للباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العثمانية من الآستانة لحكومة مصر ، ثم للجند وطول هذه المدة ١٩٢ سنة .

الدور الثانى : من سلطنة أحمد بن محمد إلى سلطنة عبد الحميد الأول سنة ١١٧٧ . وكانت الكفة الراجحة فيه للمماليك .

الدور الثالث : وهو المدة التى استقل بها على بك الكبير

---

(١) سنة تاليف المخطوط سنة ١٩١١ أى قبل فرض الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤ .

بحكومة مصر ، حتى قُتل وعادت مصر إلى كنف الدولة سنة ١١٨٧ .

الدور الرابع : من رجوع مصر إلى حوزة الدولة العثمانية إلى الحملة الفرنساوية سنة ١٢١٩ .

فلنذكر تاريخ كل دور من هذه الأدوار فنبدأ بالتاريخ السياسى ونلحقه بفذلكة من تاريخ العلم والأدب . وخلاصة تراجم العلماء فى كل دور ، وما خلفوه من الآثار الأدبية فنقول :

الدور الأول من تاريخ مصر العثمانية

من سنة ٩٢٣ - ١١١٥ هـ أو ١٥١٧ - ١٧٠٣ م

١ - سلطنة سليم الأول

من سنة ٩٢٣ - ٩٢٦ هـ أو ١٥١٧ - ١٥٢٠ م

أقام السلطان سليم بمصر بضعة أشهر ، وهو ينظم أحوالها لكن همه كان منصرفاً إلى حمل ما فيها من التحف إلى الأستانة .

ذكروا أنه أمر بفك الرخام الذى كان فى القلعة والعواميد السماقية التى كانت فى الديوان الكبير ، لأنه أراد أن ينشىء مدرسة فى الأستانة ، مثل مدرسة الغورى [١] .

---

(١) هذا قول ابن اياس .

قال ابن اياس «وصار يحيى بن فكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهجمون على قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقي والزرزورى الملون ، فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين ، وبيوت الأمراء . حتى القاعات التى فى بولاق، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار ، وأبناء الناس والمدارس التى فيها الكتب النفيسة فنقلوها عندهم ، ووضعوا أيديهم عليها» (١) .

غير ما نهبوه من الأمراء وتحفهم . وبالجملة فقد خرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من تلك السنة ، ومعه أحمال من التحف والهدايا . وقد نال أمراً لم يجسر عليه أحد قبله من السلاطين الأتراك ولا غيرهم . نعنى نيل الخلافة الدينية ، فضلا عن السلطة السياسية .

الخلافة والسلطة فى الإسلام

لما كانت الخلافة أهم ما اكتسبه العثمانيون فى مصر ، رأينا أن نأتى على تاريخ هذا المنصب فى التمدن الإسلامى ،

---

(١) ابن اياس حـ ٥ ص ١٧٩ .

ونسبته إلى السلطة ، يتبين للقارىء أن السلطان سليماً أقدم على أمر لم يقم عليه سواه من السلاطين فنقول :

لا بد للناظر فى أحكام التاريخ على العموم ، وتاريخ الإسلام على الخصوص من أن يرى السلطة المطلقة لا تتأيد بمثل الدين ، فإن الصبغة الدينية تحميها من طمع الطامعين بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس .

وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى . وهى أفضل الحكومات وأطولها عمراً ، وإلا فإنها تنحل سريعا . ويكفى لانحلالها أن يتولى شئونها ملك قليل التدبير ناقص الاختيار ، فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده .

وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية ، رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا فى طول بقائها واتساع نطاقها – اعتبر ذلك فى الدول التى نشأت فى أثناء التمدن الإسلامى من الفرس ، والترك ، والكرد ، والشركس ، كالبويهيين والسلاجقة والأيوبيين ، وغيرهم من الدول الفخمة . فإن بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة (١) السياسة . ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية .

---

(١) قهارمة هنا جمع قهرمان ، وهى كلمة تركية تعنى : بطل شجاع انظر البدارى اللامعات ص ٤٤٣ .

وانظر إلى الدول العربية التى جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والأمويين فى الأندلس مع ما طرأ عليها من أسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها .

وإذا نظرت إلى الدول الأعجمية رأيت أطولها عمراً وأوسعها ملكاً الدولة التى جمعت بين السلطتين . وهى الدولة العثمانية ، وبنو أمية فى الشام . لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا إلى الحكم سبيلاً. فإنهم إنما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما فى الخلافة من الصبغة الدينية ، ووفقوا إلى أعوان علموا أن العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة خليفة الله . وقالوا : «خليفة الرجل فى أهله أفضل من رسوله فى حاجته» . والعلماء ينكرون ذلك ، ولا يصدقونه . وأما العامة فكانوا يساقون به إلى الطاعة بالإرهاب رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من شكوك .

فلما أفضت الخلافة إلى بنى العباس ، وهم من عائلة لنبى، ومن أولى الناس بخلافته . كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح ، وغرس فى أذهان الناس بتوالى الأجيال أن الخليفة العباسى إذا

قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات .

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم مع تعقله وانتشار العلم في عصره . فقد ذكروا أنه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، ولا ينكر ذلك ولا يرده حتى قال فيه بعض الشعراء : «فكأنه بعد الرسول رسول» . فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الانحطاط . إذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ، ويكثر المتزلقون والمتملقون ، ويكتفى أولو الأمر بالكلام دون الأعمال وتمسك أهلها بالعَرَض ، وتركوا الجوهر .فلا غرو إذا سموا الخليفة فى أيام المتوكل : ظل الله الممدود بينه وبين خلقه . أو قالوا قول ابن هانى للمعز الفاطمى :

ما شئت ولا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار .

فلهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم ، لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء

إمارة لنفسه ، بعث إلى الخليفة فى بغداد يبايعه ، ويطلب منه أن يعطيه تقليدا أو عهدا بولاية ذلك البلد . أو أن يلقبه ويخلع عليه . وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب ، وعد ذلك تحقيراً له . وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته .

فالإمارات أو المماليك التى استقلت عن الدولة العباسية فى فارس وخراسان وتركستان ، وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كانوا أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون إليه بمال معين فى العام مع أنهم فى أمن من سطوته ، وإنما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شأن الأجناد الأتراك وأمرائهم فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلعا لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً لاعتقادهم أنه بدون الخليفة لا تصطلح العامة ، حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطنوا على بغداد وقبضوا على كل شىء فيها . وأصبح الخليفة آلة فى أيديهم مثل آل بويه ، وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى

إذا ظفـــروا به ، وغلبوه ، بايعوه ، وأكرموه ورفعوا مقــامه وتبركوا به .

فعضد الدولة البويهى ملَك بغداد واستبد بها وهو شيعى على غير مذهب الخليفة ، وكان يغالى فى التشييع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها . فلم يكن ثمة باعث دينى يدعوه إلى طاعة خليفة بغداد . ومع ذلك فإنه بايعه ، وعظم شأنه ، وأعاد من أمر الخلافة ما قد نُسى ، وأمر بعمارة دار الخلافة ، والإكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته ، وأكرمه غاية الإكرام .

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء المسلمين إلى رضاهم . فإذا ساءهم أحد منهم ، هددوه بالخروج من بغداد. فيضطر إلى استرضائهم ؛ لأن خروجهم بغضب العامة، ويجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ .

ولذلك فلم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض عليها إلا من وجه دينى . فكان الذين يقومون على الخلفاء ، يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ، ويدعون إلى المعروف أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف أو نحو ذلك مما يحــرك عواطــف

العامة وإذا اراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن «الفضل بن سهل» الخلافة للمأمون أوصاه بإظهار الورع والدين ليستميل القواد .

ولما رأى «أبو مسلم الخرسانى» أهل اليمن فى مكة قال : «أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان ، غزير الدمعة» يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للمماليك الإسلامية بدٌّ من خليفة تبايعه ليثبت ملكها .

وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته ، إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر ، خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد، وبايعت للفاطميين فى القاهرة . ولما تغلب صلاح الدين الأيوبى على مصر ، وذهبت الدولة الفاطمية منها . فأول شىء فعله أنه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسى فى بغداد . وطلب المنشور منه والخلع عليه .

وكانت الخلافة العباسية بغاية الانحطاط والضعف وهو فى غنى عن بيعتها . ولكنه علم أنه إذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك ، الذين ملكوا مصر بعد الدولة الأيوبية ، فإنهم بايعوا للعباسيين . وكانت الخلع تأتيهم من بغداد إلى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ ، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله ، توقف شـأن الخلافة ، فاضطربت أحوال مصر . وبذل سلاطينها جهدهم فى إيجاد خليفة يبايعونه ولو أعوز خليفـة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به ، على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا فى بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم إلى القاهرة ، واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً ، وفرضوا لهم الرواتب كما تقدم ، وبالغوا فى احترامهم وإكرامهم مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً .

ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالأطراف البعيدة ، يبايعون للخليفة العباسى فى القاهرة . ويطلبون التقليد [1] منه أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك ، فما الذى بعث لأولئك الملوك

---

(١) التقليد معناه : تقليد الولاة الأعمال . انظر القاموس المحيط جـ ٢ سنة ١٩٨٧ بيروت ص ٣٩٩ / ١ .

على طلب التقليد ، من خليفة طريد شريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك فى أذهان العامة .

ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ولكن الأكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

الخلافة فى غير قريش

مما يستحق النظر والاعتبار فيما نحن فيه ، أن ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس ، والأتراك ، والأكراد ، والبربر ، والشركس وغيرهم ، مع ما بلغوا إليه من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجاتهم إلى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم ، وتجتمع الرعية على طاعتهم ، ولم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه ، قبل انتقال الإسلام إلى طوره الثانى بعد تضعضعه بفتوح المغول . ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربى بويع بالخلافة ، السلطان سليم الذى نحن فى صدده ولا تزال الخلافة فى دولته إلى الآن [1] .

على أن الذين قويت شوكتهم فى عهد ذلك التمدن من الأمراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا إذا طمعوا بالسيادة

(١) ألف جرجى زيدان مصنفه هذا عام ١٩١١ م .

الدينية أو الخلافة ، انتحلوا لأنفسهم نسباً فى قريش [1] كما فعل «أبو مسلم الخرسانى» لما رأى من نفسه القوة على إنشاء الدولة . وربما طمع بالخلافة ، وانتحل لنفسه نسباً فى بنى العباس فقال : انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس .

وأما الملوك أو السلاطين الأعاجم ، فلما ضخمت دولتهم فى أواخر العصر العباسى ، ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلا إلى ذلك ، إلا أن يستبدلوها بخلافة أخرى . على أن بعضهم طمع بالنفوذ الدينى عن طريق الانتساب إلى الخليفة بالمصاهرة .

وأول من فعل ذلك ، عضد الدولة «بن بويه» المتوفى سنة ٣٧٢ هـ . فإنه حمل الطائع بالله الخليفة العباسى فى أيامه أن

---

(١) حدد الفقهاء شروط الخلافة وتنصيب الإمام بأربعة شروط هى : العدل والكفاية والعلم وسلامة الحواس واختلفوا على شرط خامس وهو النسب القرشى . إلا ان ابن خلدون يقرر ان الهدف والمقصود من هذا الشرط ليس النسب القرشى فى حد ذاته ، بل ان ابن خلدون يرشدنا إلى فائدة هذا الشرط والمقصود منه إنما هو العصبية فيقول «... إذ الفائدة فى النسب إنما هى العصبية ... وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية هى وجود العصبية فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين ان يكون من قوم أولى عصبية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية» مقدمة ابن خلدون : المطبعة البهية ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ، أن تلد له ابنه ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده . فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب ولم يوفق إلى مراده .

ولما أفضت السلطة إلى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا إلى التقرب بالمصاهرة أيضا . ولكن على أن يتزوج السلطان «طِغرلبك السلجوقي» ابنه الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله فخطبها إليه ، ووسّط قاضي الري في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيّما انزعاج . إذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء إلاّ اكفاءهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ الخليفة في استعطافه ليعفيه من الإجابة على طلبه ، فأبى السلطان إلا أن يجاب .

وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة إلى القبول . فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ . وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب ، إذ يكفي الخليفة تنازلاً أن يتزوج بنات الملوك ، لا أن يزوجهم بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرلبك . ومع ذلك فإنه لما دخل إلى عروسه في السنة التالية ، قبّل

الأرض بين يديها وهى جالسة على سرير ملبس بالذهب . فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل أياماً يحضر على هذا الصورة وينصرف ، على أنه لم يوفق لإتمام ما أراده لأنه توفى فى تلك السنة .

أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة إسلامية قبل العثمانيين ، وذلك أن الخليفة العباسي كان عند الفتح العثمانى لمصر ، الإمام محمد المتوكل على الله الثالث ، وقد تقدم ذكره مراراً ، وهو الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . فلما تم فتح مصر للسلطان سليم ، على أن الأمر لا يستتب له ، إلا إذا اضاف السلطة الدينية إلى السلطة الزمنية ، فاغتنم فوزه وطلب إلى المتوكل على الله ، أن يبايعه فبايعه بالخلافة الإسلامية وسلمه الآثار النبوية ، وهى : العلم والسيف والبردة . وسلم إليه أيضا مفاتيح الحرمين ، فصار خليفة وسلطانا . وتوارث ذلك السلاطين بعده ، ولا يزالون على ذلك إلى الآن .

أما الخليفة العباسى ، فإنه نُقل إلى الآستانة وخُصص له راتب لنفقاته . وقبل وفاة السلطان سليم عاد المتوكل إلى مصر وعاش فيها منفرداً إلى أن توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين وفد دولتهم الدينية ، نيفا وثمانية قرون

نظام الحكومة المصرية

فى الدولة العثمانية

قد رأيت من إجراءات العثمانيين بمصر عند الفتح أنهم لم ينظروا إليها نظرهم إلى بلد سيقيمون فيه وإنما أرادوا إخضاعه وإذلاله واستغلاله [١] . فلما رجع السلطان سليم إلى عاصمته القسطنطينية ، فكر فى أمر مصر فارتأى أن يضع لها نظاماً يأمن معه تمردها عليه ، لبعدها عن مركز الخلافة ، وصعوبة المواصلات فى ذلك العصر .

وكان قد ولى عليها والياً برتبة باشا يرجع إليه الحل والعقد وأول من نال هذا المنصب أمر أهله من كبار رجال قنسو الغورى إسمه خايربك «أو خيربك» قد تقدم ذكره ، وحارب معه فى حلب ثم خانه وسلم البلد إلى العثمانيين . فلما فتح الله على هؤلاء مصر ، ولاه السلطان سليم ولايتها ، وسماه باشا .

على أنه تذكر أن هذا الرجل خان سلطانه من قبل فخاف أن يفعل ذلك معه ، إذا بعد عنه ، ويستقل بمصر فاعمل فكرته فيما يكفيه مئونة هذا الخطر ، فاهتدى إلى طريقة تضمن له ذلك

(١) هذه نظرة المؤلف إلى مفهوم الحكم العثمانى .

وهى ، أن يجعل فى مصر ثلاث إدارات أو قوات ، كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى اتحادها وتمردها .

فالقوة الأولى :«الباشا» وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ، ومراقبة تنفيذها .

والقوة الثانية : «الواجاقات» فإنه أقام فى القاهرة ، وفى المراكز الرئيسية فى القطر ستة آلاف فارس ، وستة آلاف ماش بالبنادق ، جعلها ستة وجاقات (فرق) تحت قيادة وأوامر خير الدين أحد قواد العثمانيين العظماء وأمره أن يقيم فى القلعة ولا يخرج منها لأى سبب كان .

وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه ، وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه التالى :

١ – وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى .

٢ – وجاق الجاويشية : وهو مؤلف فى الأصل من صف ضابطان (١) جيش السلطان سليم ، فعهد إليهم جباية الخراج .

٣ – وجاق الهجانة .

(١) ضابطان هنا جمع كلمة ضابط وتعنى ضباط ، وهى صيغة جمع تركية على الطريقة الفارسية .

٤ - وجاق التفقجية ، وهم ناقلو البنادق .

٥ - وجاق الإنكشارية ، وقد تقدم تاريخهم ووصفهم .

٦ - وجاق العزب .

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من أفراد يقال لهم وجاقلية وأحدهم وجاقلى . على كل وجاق ضابط يلقب بلآى يصحبه الكخيا والباشى اختيار ، والدفتردار ، والخزنة دار . والروزنامجى . ومن اجتماع هؤلاء الضباط فى سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمراً إلا بمصادقتهم .

أما هم فلهم أن يوقفوه عن الإجراء أو يستأنفوا إلي ديوان الأستانة عند الاقتضاء . ولهم أيضا أن يطلبوا عزله حالما يشتبهون بمقاصده (١) .

أما القوة الثالثة : فهى الأمراء المماليك ، وهم بقايا الدولتين السالفتين ، والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات

---

(١) تألفت الحماية العثمانية في مصر من سبعة أوجاقات ، بعد أن أضيف إليها اوجاق المتفرقة الذى لم يتكون إلا بعد حوالى ثلاثين عاماً من إصدار قانون نامة وبقية الاوجاقات الستة هى : الإنكشارية - الفربان - التفنكجان - الكوكليان - الجراكسة - الجاويشية إضافة المتفرقة .. انظر إلى الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى د . ليلى عبد اللطيف .

لأنهم فى الأصل أعداء لكلا الفريقين . ومن غرضهم الانتصار للفريق الأضعف ليمنعوا القوىّ من الاستبداد .

وقد كان القطر المصرى منقسماً إلى ١٢ سنجقية (مديرية) يحكم كل منها حاكم يقال له : سنجق أو بك يعينه الديوان وهو مجلس شورى الباشا من أمراء المماليك .

فلا غرو أن تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعدد الأمرين ، ما يقود إلى القلاقل والمتاعب . أما الدولة العثمانية فقد جبت راحة من هذا التعب لأنها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية فى حوزتها .

ولم تطل حياة السلطان «سليم» بعد فتح مصر ، فتوفى سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ، وخلفه ابنه السلطان «سليمان القانونى» الشهير .

٢ - سلطنة «سليمان القانونى»

من سنة ٩٢٦ - ٩٧٢ هـ أو من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م

لهذا السلطان شأن خاص دون سائر سلاطين آل عثمان ، لأن المملكة العثمانية بلغت فى أيامه أرقى ماوصلت إليه من النفوذ السياسى وسعة الفتح .

فقد فتح «بلغراد» و «رودس» ، وحاصر «فيينا» حتى كاد يفتحها . وكانت له علاقات عظيمة مع ملك «فرنسا» .

وفى أيامه ، دخل العثمانيون «تبريز» غير مرة وقد طالت سلطة هذا السلطان أكثر من سائر السلاطين العثمانيين وبلغت الدولة العثمانية فى أيامه ، أوج مجدها (١) .

وقد عرف «بالقانونى» لأنه سن قانونا لا يزال أساساً للقوانين العثمانية إلى الآن (٢) . واهتم على الخصوص بشئون مصر . وكان أبوه قبيل وفاته قد رسم الخطة التى يجب أن تسير عليها مصر فى حكومتها وإدارتها ، ولكنه توفى قبل أن يبرزها إلى حيزّ الفعل . فلما توفى السلطان ، جعل اهتمامه إتمام مشروع أبيه (٣) .

---

(١) عرف السلطان سليمان بالقانونى ، لازدياد حركة الفتوح الإسلامية فى عهده وبالتالى ازدياد حركة التقنين .

(٢) الصحيح ان إدارة مصر قد رسمت بمقتضى قانون نامة مصر . وتم العمل به . إلا ان ثورة أحمد باشا الخائن فى مصر ، جعلت الدولة العثمانية تعيد النظر فى قانون نامة مصر ، وتعدله وترجع به إلى قانون قايتباى لاتخاذه أساساً للتعديل المحقق .

(٣) فى المخطوط صورة للسلطان سليمان القانونى ش (٦) انظر آخر الكتاب .

نظام الحكومة المصرية أيضا

وكان من رأى السلطان «سليم» أن ينشىء ديواناً تحت رئاسة الباشا ، حفظاً للموازنة . أما السلطان «سليمان» فأتمّ الموازنة بإنشاء ديوانين ، عرفا «بالديوان الكبير» و «الديوان الصغير» أو «الديوان» فقط . وأناط رئاستهما بالباشا وعليه أن يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر وعلى الكخيا ، والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى أقر الديوان على أمر ، أبلغاه ذلك القرار وليس له إلا المصادقة والأمر والتنفيذ . وجعل إقامة هذا الباشا في القلعة تحت ملاحظة الأغا الذى هو قومندانها ، ويجدد تعيين الباشا كل سنة .

أما واجبات الديوان الكبير فهى المفاوضة والإقرار على ما يتعلق بالأشغال العمومية التى لا تتعلق إدارتها بالباب العالى نفسه .

أما أعضاء هذا الديوان ، فهم أغوات الوجاقات الستة ودفترداريوها ، وروزنامجيوها ، ونواب من جميع فرق الجيوش ، وأمير الحج ، وقاضى وأعيان المشايخ ، والأشراف ، والمفتون الأربعة والأئمة الأربعة والعلماء .

أما المخاطبات التى ترد إلى هذا الديوان فتُعَنْوَن باسم

«الديوان الكبير» ، لكنها تسلم إلى الباشا ، وله وحده الحق أن يأمر بعقد جلساته ، ولم تكن كثيرة .

أما جلسات الديوان الأصغر ، فكانت تنعقد يومياً فى قصره . وأعضاء هذا الديوان ، هم كخيا الباشا ، ورفتر داره وروزنامجيه ، ونائب من كل الوجاقات والأغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة .

ومن واجبات هذا الديوان ، النظر فى الحوادث اليومية ومن اختصاصاته البحث فى الإدارات الثانوية .

وانشأ السلطان «سليمان» فضلاً عن الستة الواجاقات التى انشأها أبوه ، وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية جند المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها .

أما نفقاتها ، فمن مخصصات يتولى ضبطها وتفريقها «أفندى» من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط ذلك الوجاق ، وبعض صف ضابطانه لمحاسبة الأفندى ، والنظر فى الدعاوى بخصوصية ، وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم فى القاهرة ، ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه علاماته. ومجموع عدد رجال الوجاقات معاً عشرون ألفاً وقد يزيد

أو ينقص حسب الاقتضاء . وكان لوجاق الإنكشارية إمتيازات على سائر الوجاقات ، وقائده (الأغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم .

وجعل السلطان «سليمان» للبكوات المماليك الذين أقامهم السلطان «سليم» إمتيازات خصوصية ، وحقاً بالارتقاء إلى رتبة الباشوية وأضاف إليهم ١٢ بيكاً (١) آخرين لمهمات فوق العادة ، وهاك أسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات وهم : الكخيا أو نائب الباشا والقبابطين الثلاثة ، وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط ، والإسكندرية ، ويسمى واحدهم قبطان بك ، وبدفتردار ، وأمير الحج ، وأمير الخزانة ، وحكمداريو أو مديريو المديريات الخمس ، الآتى ذكرها : جرجا ، والبحيرة ، والمنوفية ، والغربية ، والشرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار ، وأمير الحج ، الحق فى دخول الديوان ، فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات ، وحفظ الدفاتر والسجلات ، ولا ينفذ إلاّ ببيع عقار إلا بعد توقيعه عليه إشارة إلى تسجيله فى دفاتره . وأمير الحج يحمل الهدايا والصدقات التى كان يرسلها السلطان سنوياً إلى مكة أو المدينة ، وعليه حماية قافلة الحج ذهاباً وإياباً .

---

(١) بيكا أو بيك هى بك بمعنى الأمير . المحقق .

وأما أمير الخزانة ، فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر براً وعليه حمايته . وينتخب من البكوات أيضاً «شيخ البلد» وسنعود إليه ويكون له شأن عظيم .

وكانت مديريات القليوبية ، والمنصورة ، والجيزة ، والفيوم فى عهدة كُشاف لا فرق بينهم وبين البكوات فى النفوذ ، ولا يعمل بإقرار أحدهم إلا بعد مصادقة الشوربجية وغيرهم من الوجاقيين الذين يتألف منهم ديوان خاص فى كل مديرية . ثم أن تعيين كخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والإسكندرية متعلق رأساً بجلالة السلطان ، فيرسلونهم من الأستانة ويستدعونهم إليها فى آخر كل سنة .

أما البكوات الآخرون ، فيعينهم الديوان ، ويوليهم الباشا ، ويثبتهم الباب العالى ، ومراكزهم ثابتة إلا أن واجباتهم تتغير ، إلا الدفتردار ، وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق .

وكان هم الباب العالى الانتباه إلى السويس ودمياط والإسكندرية على الخصوص ، لأنها الأبواب التى يدخل منها إلى مصر . فكان يرسل حاميتها رأساً من الأستانة تحت قيادة القباطين ، ويجددها كل سنة . وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون

من جند مصر إلا باعتبار إقامتهم فيها وبما ينالونه من الإمدادات المالية لنفقاتهم .

أما ما خلا ذلك ، فكانوا يحسبون أجانب فى اعتبار الباشا وديوان مصر ، ولم يكونوا تحت أوامر حكومة البلاد فى شىء ، فأوامرهم كانت ترد إليهم من ديوان الأستانة رأساً .

حاصـلات البـلاد

هذا من قبيل الإدارة ، أما من قبيل حاصلات البلاد ، فإن السلطان «سليمان» انه المالك الحر لأرض مصر ، فكانت له ملكاً ، وكان يفرقها إقطاعات على مزارعين ان يدعوهم الملتزمين ، على أنه لم يكن أن يمنع اقطاعها أو يوقفه . فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الإقطاعات والملك الحقيقى والفلاحون الذين كانوا يحرثون الأرض كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لأعقابهم ، ولكنهم مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها ، وعليهم خراج لا مناص من دفعه للملتزمين متى توفى فلاح بلا وريث ، تعطى أرضه للملتزم ، وهو يتعـهد بحراثتها من يشاء ، وإذا مات الملتـزم بـلا وريث تعود الأرض إلى السلطان ، وكان على كل من الملتزمين

والفلاحين خراج يدفعونه إما نقداً أو عيناً ، فإذا تأخر الملزم ، تؤخذ الأرض منه .

ونظرا لاتساع أرض مصر لم يكن حصر أملاك كل من الملتزمين . فلم يكن ممكنا تعيين مقدار خراجها ، فأرسل السلطان «سليمان» مساحين مسحوا الأرضين المصريين . فقسموا المديريات إلى أقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حِدَه، وحدَّدُوه.

ولاة مصر فى زمن السلطان «سليمان»

قلنا إن السلطان «سليم» ولى حكومة مصر «خيربك» الذى كان «الغورى» و «طومان باى» فى تسليم حلب . فتوفى «خيربك» سنة ٩٢٨ هـ ، ودفن فى جامعه المعروف باسمه فى شارع «درب الوزير» وبعد وفاته ، لهجت الألسنة بذمة لعظم استبداده .

وولى السلطان «سليمان مكانه» مصطفى باشا وبعد تسعة أشهر و٢٥ يوماً أبدل «بأحمد باشا» ، وكان عدواً للصدر الأعظم «إبراهيم باشا» فدس الصدر سنة ٩٣٠ هـ إلى أمراء المماليك فى القاهرة أن يقتلوه ، فعلم بالدسيسة ، فقبض على الكتب الواردة بذلك قبل أن تصل إلى أصحابها ، ثم استدعاهم وأعلنهم انها

أوامر جلالة السلطان بقتلهم ، ولم يطلعهم عليها ، فأبوا الإذعان ، إلا أن إباءهم لم يمنع قتلهم .

ولما تأكد «أحمد باشا» أنه صار فى مأمن من المقاومين ، صرح باستقلاله ، وأمر أن يُخطب له ، وأن تضرب النقود باسمه ، وهو أول من طمع باستقلال من ولاة مصر فى عهد الدولة العثمانية، ولكنه بالغ بالعسف ، فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض ، فثارت الأفكار عليه حتى أصبحت حياته فى خطر .

وبينما هو ذات يوم فى الحمام ، فاجأه أميران من أمرائه كان قد أمر بسجنهما وهم ، «جهم الحمزاوى» و «محمد بك» فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهانى ، يستنصران الناس حتى أتيا الحمام ، فعلم الباشا بذلك ، ففر من السطح ، والتجأ إلى أحد مشائخ عربان الشرقية وإسمه «ابن بقر»، فتعقبه اعداؤه حتى أدركوه وقطعوا رأسه على باب زويلة ثم نقل إلى الأستانة سنة ٩٣١ هـ .

فأرسل السلطان عوضا عنه «قاسم باشا» ، وفى نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا يثور فى خواطرهم حب الاستقلال . فبعد تسعة أشهر و١٤ يوماً استبدله بإبراهيم باشاً وكان نشيطا ،

محبا للإصلاح والنظام إلا أن قصر مدته لم تمكنه من إتمام ما كان شارعا فيه . فعُزل وأُقيم بدلاً منه «سليمان باشا» سنة ٩٣٣ ، وكان السلطان راضياً عن سُمَيّه هذا ، فأبقاه فى الولاية تسع سنوات و ١١ شهرا .

وفى سنة ٩٤١ هـ ، استقدمه إلى الأستانة ، ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة الفرس والهند . وقد أقام فى أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية فى القلعة . وناب عنه فى غيابه «خسرو باشا» نحو سنة وعشرة أشهر فعاد «سليمان باشا» إلى مصر ، وبقى عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة أشهر .

وفى سنة ٩٤٥ هـ ، عهدت باشوية مصر إلى «داود باشا» فبقى عليها ١١ سنة و ٨ أشهر . وكان رجلا مستقيما ، كريم الخلق ، محباً للعلماء ، آخذاً بناصرهم ، كلفاً بالمطالعة ، وعلى نوع خاص ، مطالعة الكتب العربية ، فجمع منها عدداً وافراً ، واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة ، فجمع مكتبة جميلة جداً .

وكان الأهلون فى مدة حكمه فى بحبوحة السعادة والأمن . وتوفى فى القاهرة سنة ٩٥٦ هـ ، فتولى مكانه «على باشا» وهذا

رمّم وبنى عدة بنايات عمومية فى «القاهرة» وفى «فوة» و «رشيد» واقتدى به غيره من بكوات «مصر» ، فجعلوا يشيدون الجوامع ، منها الجامع الذى ابتناه «عيسى بك» فى «ديروط» . وكان على باشا محبوباً ، مكرماً عند المصريين بمنزلة الأب . لكنه على ذلك لم يحكم إلا أربع سنوات وستة أشهر .

ففى سنة ٩٦١ هـ ، تولى باشوية «مصر» «محمد باشا» وكان الناس يبغضونه ، فلم يحكم إلا ثلاث سنوات . ولما زاد التشكى منه ، عزل واستقدم إلى الأستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ .

وبعد «محمد باشا» تولى «إسكندر باشا» فحكم ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ونصف .

وفى سنة ٩٦٨ هـ ، تولى «على باشا» الخادم ، وبعد ١٧ شهراً خلفه «مصطفى باشا» (الثانى) فى سنة ٩٦٩ هـ .

ثم فى سنة ٩٧١ هـ ، تولى «على باشا» الصوفى سنتين وثلاثة أشهر . وكان «على الصوفى» قبلا حاكما فى «بغداد» ، مشهوراً فيها باعوجاج الأحكام والخيانة .

فلما تولى «مصر» ، كثرت فيها السرقات والتعديات ، حتى

غصت القاهرة باللصوص ، واخترقت طائفة منهم المدينة حتى الجامع الأبيض . فاضطرت الحكومة أن تقيم سورا من قنطرة الحاجب إلى هذا الجامع منعا لمثل ذلك .

وفى شوال سنة ٩٧٣ هـ ، أبدل «على باشا الصوفى» «بمحمود باشا» ، وهو آخر من تولى مصر فى أيام السلطان «سليمان» فجاء الأستانة بموكب عظيم ، فأهدى إليه فى أثناء مروره من الإسكندرية إلى القاهرة ، هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة ، لاقاه الأمير «محمد بن عمر» متولى الصعيد على قارب فيه جميع أنواع الهدايا وخمسون ألف دينار . فأخذ الباشا الهدايا منه بخنقه حال خروجه من مجلسه ، وأمر أيضا بخنق القاضى «يوسف العبادى» ، لأنه لم يأت لملاقاته ، ولم يهده شيئا . واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم أعيان القاهرة . فكان لا يمر إلا ومعه الشوباصى «رئيس الجلادين» فإذا مر بأحد ، وأراد قتله ، أشار بيده إلى الشوباصى (١) ، فيعمد حالاً إلى ذلك التعس ويقتله بأسرع من لمح البصر .

وفى ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ ، توفى الأمير «إبراهيم»

---

(١) صحة الكلمة صوباشى ، ومعناها هو منبع . شِحْنة من فيه الكفاية لضبط البلد من جهه السلطان . وكيل المزرعة . الدرارى ٢٣٩ / ٢ .

الدفتردار ، وكان أميراً للحج . فاستولى «محمود باشا» على ما ترك من المال ، والمماليك ، والجوارى وحمله ذلك مئة ألف دينار ضمها إلى المال الذى يرسل إلى الأستانة سنوياً ، ويعين منها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه ، استجلاباً لخواطرهم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل أن قتل [١] فى يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مار فى موكبه الاعتيادى بين البساتين ، ولم تقف الحكومة على القاتل ، فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لأنهما وجدا بقرب مكان القتل .

وكان السلطان «سليمان» قد توفى قبل ذلك بسنة (٩٧٤) وسنّه ٧٤ سنة ، ومدة حكمه ٤٨ سنة فتولى بعده ابنه «سليم شاه» (الثانى) . وهذه صورة نقوده مؤرخة ٩٢٦ هـ [٢] .

٣ - سلطنة «سليم بن سليمان»

في سنة ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ أو في ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م

هو «سليم الثانى» ولد سنة ٩٣٠ . فلما تولى الملك كان فى السابعة والأربعين من عمره . وكانت أمه روسية (صقلبية) . ولم يكن أهلا للاحتفاظ بما خلفه أبوه من الفتوح ولا القيام بما أسسه

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) ش ٧ فى آخر الكتاب .

من المشاريع ، ولكن وزيره «محمد باشا صقللي» كان حكيماً ، محنكاً في السياسة والحرب ، فمنع الدولة من الفشل - ذلك شأن الدولة الاستبدادية - إنما تقدم بشخص ملكها وتكون كما تكون ، فإذا كان حازماً ، عاقلاً سعدت وأفلحت ، فإذا خلفه ملك ضعيف ، ضعفت وتقهقرت .

وفي أيامه ، عقد الصلح بين «الدولة العلية» و «النمسا» ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ م . ومن شروطه حفظ النمسا أملاكها في المجر ، وأن تدفع جزية سنوية ، وتعترف بتبعية «الفلاخ» و«البغدان[1]» و «ترانسلفانية» للدولة العثمانية .

وفي أيامه أيضا فتحت «قبرس» ، وكانت تابعة «للبندقية» ، ففتحها «بيالي باشا» سنة ١٥٧١ م وجرت في أيامه واقعة ليبانت البحرية ، غلب فيها العثمانيون ، وكانت خسائرهم فاحشة .

أما من جهة مصر ، فإن السلطان «سليما» المذكور حالما بلغه موت «محمود باشا» أمر بنقل «سنان باشا» من باشوية حلب إلى باشوية مصر، وبعد وصوله إليها بتسعه أشهر ، أمره بالزحف على اليمن فبرح مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعه «حمزه بك» و «ماماي بك» وغيرهما من أمراء مصر ، واستخلف على مصر

(١) هي الافلاق والبغدان في رومانيا حالياً . المحقق .

«إسكندر باشا الشركسى» ومكث «سنان باشا» فى تلك الحملة سنتين و ٤ أشهر ، فتح اليمن وعاد ظافرا إلى مصر ، فرأى الأحوال هادئة ، والنظام مستتباً بدراية «اسكندر باشا» المذكور ، لأنه كان حكيما ، محباً للرعية ، فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين ، والقسم الأعظم من طلبة العلم . وكان شديد التعلق بالعلم وذويه .

فلما عاد «سنان باشا» إلى مصر (أول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت أحكامها إلى يده ، فاهتم بتأييد النظام ، حفظ رونق البلاد ، فأعاد حفر ترعة الإسكندرية ، ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات ، وبنى فى «بولاق» «بمصر» شارعاً ووكالات ، وجامعاً لا يزال معروفا باسمه . وما زال على مصر إلى ذى الحجة سنة ٩٨٠ هـ ، فخلفه «حسين باشا» وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم الأدب ، ولا يعاب إلا لكثرة حلمه ، الأمر الذى أدى إلى تكاثر اللصوص فى ولايته ، ولم يحكم إلا سنة وتسعة أشهر .

وفى أيامه ، توفى السلطان «سليم الثانى» فى ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ثمانى سنين وخمسة أشهر و١٩ يوما.[١]

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان سليم الثانى انظر ش (٨) بآخر الكتاب .

٤ - سلطنة «مراد بن سليم»

من سنة ٩٨٢- ١٠٠٣ هـ أو من ١٥٧٤ - ١٥٩٤ م

هو «مراد الثالث» ولد سنة ٩٥٣ هـ . فلما تولى الملك لم يكن سنه يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان عاقلاً ورعاً ، وكانت الخمر قد شاع شربها فى المملكة العثمانية ، وأفرط الجنود فيها ، وخصوصا الإنكشارية ، فأمر بإبطال شربها ، فثاروا وأجبروه أن يبيح لهم الشرب بما لا يسكرهم . وكان لهذا السلطان خمسة إخوة . فلما تولى الملك ، أمر بقتلهم ليأمن منازعتهم إياه على الملك .

قتل الإخوة فى الدولة العثمانية

وقتل الأخوة لهذا الغرض كان متبعا فى الدولة العثمانية إلى ذلك الحين . وأول من فعل ذلك منهم رابع سلاطينهم «بايازيد بن السلطان مراد» ، (تولى الملك سنة ١٣١٩ م) كان بكر إخوته وله أخ أصغر منه معروف بالشجاعة ، والنجدة وعلى الهمة ، فخاف منه على سلطته ، فأجمع الأمراء على قتله ، خوف الفتنة ، وانقسام المملكة ، ويقال إنهم فعلوا ذلك بفتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك العهد بناءً على الآية «والفتنة أشد من القتل» . وأصبح قتل الإخوة قاعدة يرجع إليهاالعثمانيون عند الحاجة . فكان

السلطان حالما تفضى إليه السلطنة بعد موت أبيه ، يعمد إلى قتل إخوته ولو كان بعضهم رضيعا كما فعل السلطان «محمد الفاتح» وكان له أخ رضيع إسمه «أحمد» فلما مات أبوهما وأفضت السلطة إلى «محمد» فأول شيء باشره نقل جثة أبيه لتدفن فى بورصة ، ثم أمر بقتل أخيه .

ولما صارت السلطنة إلى السلطان «سليم الفاتح» عين ابنه «سليمان» حاكما على القسطنطينية ، وحمل بجيوشه إلى آسيا لمحاربة إخوته ، حتى يتفرغ لأعماله بعد قتلهم ، ولا يبقى من ينازعه .

وكان من جملة أعماله فى هذا السبيل ، أنه عثر على خمسة من أولاد إخوته فى بورصة ، فأمر بقتلهم ثم طارد أخاه «كركود[1]» حتى قتله كما تقدم . وكذلك فعل السلطان «مراد» بقتل خمسة إخوة حالما تولى الملك كما رأيت .

وأفظع من ذلك كله ما فعله السلطان «محمد الثالث» الآتى ذكره . فقد آلت السلطة إليه سنة ١٥٩٥ م وله تسعة عشر أخاً غير الأخوات ، فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ، فخنقوهم ودفنوهم من تجاه جامع أيا صوفيا فى الأستانة .

---

(١) صحة الاسم قورقود .

وكأن هذه المبالغة فى الفتك أفضت إلى رد الفعل بإبطال هذه العادة الوحشية . فلما انتقلت السلطنة بعد «محمد» المذكور إلى ابنه «أحمد الأول» سنة ١٦٠٣ ، ولم يكن سنه يتجاوز الرابعة عشرة ، ولكنه كان عاقلاً ، وله أخ صغير اسمه «مصطفى» فلم يقتله ، بل اكتفى بالحجر عليه فى أثناء سلطنته ، فأصبح السلاطين بعده يعولون فى الاحتفاظ بسلامة سلطتهم على الحجر بدلا من القتل ، والفضل فى ذلك يرجع إلى السلطان «أحمد» المذكور .

وله بدعة أخرى أدخلها في توارث الملك ، لم تكن من قبل ، وذلك أوصى بالملك بعده لأخيه «مصطفى» المشار إليه بدلا من أن يوصى به لأحد أولاده . كما كان أسلافه يفعلون . فبعد أن كان الملك ينتقل إلى الأبناء بالتسلسل فى الأعقاب ، صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ، الأرشد فالأرشد ، إلا ما قد يعترض ذلك من نفوذ الإنكشارية ، أو دسائس الوزراء ، أو غير ذلك ، فالعرش العثمانى ما زال ميراثه محصورا فى الأبناء من السلطان عثمان الأول إلى أحمد الأول ، ثم صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ولايزال ، فلنرجع إلى ترجمة السلطان «مراد» .

وفى أيام السلطان «مراد» دخلت بولونيا [1] فى حماية الدولة العثمانية ، وجرت حرب مع دولة الفرس ، ودخل العثمانيون «تبريز» ، وهى المرة الرابعة لدخولهم فيها .

وفى أيامه ، توفى الصدر الأعظم «محمد باشا صُقُلِّى» وكان قد حافظ على سيادة الدولة ، وتمكن بسياسته من إبرام الصلح مع دول أوربا ، وانشاء عمارة بحرية بعد واقعة ليبانت ، فكوفىء على خدماته بالقتل ، بسبب دسائس حاشية السلطان فكن موته ضربة على الدولة ، وتكاثر تبديل الصدور بعده .

أحوال مصر فى أيامه

أما مصر ، فولى عليها بدلاً من «حسين باشا» «مسيح باشا» وكان خزنداراً عند السلطان «سليم الثانى» ، فحكم فى مصر خمس سنوات وخمسة أشهر ونصف ، ووجه اهتمامه خصوصاً إلى إبطال السرقات والتعديات، فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف ، فارتاحت البلاد من شرورهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الرعية ، وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية .

ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحى القرافة لا يزال يعرف

---

(١) هى بولندا .

باسمه ، وقد بناه على اسم الشيخ «نور الدين القرافى» وجعله له ولنسله ملكاً حراً ، وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وأمر «مسيح باشا» أن تستهل الأوامر والكتابات الرسمية والأحكام بهذه العبارة «الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه ، إن المؤمنين إخوة ، فاحفظوا السلام بين إخوتكم واتقوا الله» .

وفى سنة ٩٨٨ هـ ، ولى مصر « حسن باشا » الخادم خزندار السلطان « مراد الثالث » فلم يكن همه إلا جمع الأموال بأية وسيلة كانت ، وإعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقى على ولاية مصر سنتين وعشرة أشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية ، وطلع من باب المقابر ، لئلا ينتقم منه أهلها .

وفى سنة ٩٩١ هـ ، خلفه «إبراهيم باشا» فأخذ يستطلع ويتحرى ما أتاه سابقُهُ من الاختلاس ، فجعل فى جامع السلطان «فرج بن برقوق» موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالى السابق من ١٠ رجب من تلك السنة إلى غاية رمضان. فاطلع على مظالم لا تحصى ، من جملتها ١٠٠٤ أردب قمح من الشون العمومية ، باعها «حسن باشا» واستولى على قيمتها ، فرفع إبراهيم باشا تقريرا مدققا بشأن ذلك إلى السلطان ، فأمر بقتله شنقاً .

ثم طاف «إبراهيم باشا» بنفسه يتفقد أحوال المديريات ويتحقق حالتها وزار أيضاً آبار «امرود» فى الصحراء .

وتولى مكانه «سنان باشا الثانى» وكان دفترداراً . وبعد ستة أشهر وعشرين يوما ، برح مصر هاربا ، وسبب ذلك أنه ساء التصرف ، فاشتكاه الناس إلى الأستانة ، فجاء «أُوَيْس باشا» إلى مصر ليتحرى لتلك التشكيات ، فحالما علم «سنان» بمجيئه ، فر هارباً .

فتولى «أويس» حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ ، وكان صارماً فى الأحكام ، وكان فى أول أمره قاضياً ، ثم صار دفترداراً فى الروملى ، ثم نقل إلى باشوية مصر . وبقى عليها خمس سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام ، وأراد أن يدرب الجنود ، فعصوه ، وهجموا عليه فى الديوان فى ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ ، ونهبوا بيته، وفى جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة ، تعرف منها الأيام . ثم ذبحوا الأمير «عثمان» قائد وجاق الجاوشية ، وأخربوا بيت قاضى العسكر ، وقتلوا قاضيين من قضاة مصر . ثم عمدوا إلى الحوانيت ، فنهبوها ، كل ذلك والأمراء لا يستطيعون منعهم ، والاضطراب يزداد ، والثائرون يتمردون . وقد حاول الدفتردار إيقافهم عند حدهم ، فذهب سعيه باطلاً .

ثم ظن «أويس باشا» أنه إذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون، فبعث إلى القضاة أن لا يخالفوا لهم أمراً ، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وفجوراً حتى قبضوا على أولاد الباشا رهن [1] لما يريدون ، فاضطر الباشا إلى الاذعان لما أرادوه وأعطاهم ما طلبوه ، واستقال من تلك الولاية بعد أن مل من خيبة مساعيه الحميدة فيها .

فتولى مكانه «حافظ أحمد باشا» سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكما في قبرص ، وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً ، مدرباً فى أمور الأحكام . وكان رفيقا بالأهلين ، ففرق الحَسَنات على الحجاج الفقراء ، وبنى فى بولاق وكالتين وعدة بيوت ، وخصص ربع دخلها لعمل الخير . وبقى حاكماً أربع سنوات وفى سنة ١٠٠٣ ، توفى السلطان «مراد»[2] .

٥ - سلطنة «محمد بن مراد»

من سنة ١٠٠٣ - ١٠١٢ أو من ١٥٩٤ - ١٦٠٢ م

ولد هذا السلطان سنة ٩٧٤ هـ ، فتولى الملك وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان له ١٩ أخاً أمر بخنقهم كما

(١) الصحيح : رهناً .

(٢) فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم انظر ش (٩) بآخر الكتاب .

تقدم . ومما يذكر له أن السلاطين تقدموه (مراد وسليم الثانى) كانوا قد تقاعدا عن قيادة الجند فى ساحة الوغى ، فرأى ذلك قد أضر بسطوة الدولة ، فعاد هو إلى تولى تلك القيادة بنفسه ، وكان لذلك تأثير كبير فى سياسة الجنود وثباتهم ، ففتح قلعة «أولو» الحصينة ، وكان السلطان «سليمان» قد عجز عن فتحها (١) .

أعمـالـه فـى مصـر

أما مصر ، فولى عليها «قورط باشا» ، فلم يبق فيها إلا سنة وثمانية أيام ، وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لطالبى الأدب ، ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجىء إليه .

وفى شوال سنة ١٠٠٤ هـ ، خلفه السيد «محمد باشا» وبقى على الحكومة سنتين ، اتبع فى اثنائهما خطة أسلافه فى تنشيط العلم والأدب ، فأعاد بناء الجامع الأزهر ، وجعل فيه وظائف يومية من العدس المطبوخ ، تُفَرَّقُ فى الطلبة الفقراء ، ورمّم المشهد الحسينى ، ومع كل ما كان يتوخاه فى السعى فى حفظ النظام مع الأهلين ، لم يمكنه إنقاذهم من ثورة عسكرية ، انتشبت فى غرة رجب سنة ١٠٠٦ هـ فى سائر أنحاء القطر المصرى .

ثم أجتمع العصاة فى القاهرة ، وكان السيد «محمد باشا» إذ ذاك فى منزله فى بريـة الجيـزة ، فعاد إلـى القاهرة تحفّ بـه

---

(١)فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم .

السناجق وزمرة من الخفراء ، فلم يبال العصاة بذلك ، بل أطلقوا عليه النار ، ولم يتخلص من أيديهم إلا بعد شق الأنفس فسار إلى أحد منازله ، فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً ، وألحوا عليه أن يسلمهم بعضاً إلى ضباطه ، وفى جملتهم «دالى [١] محمد» أحد كبار الأمراء ، والأمير الجلاد «الشوباصى»[٢] والأمير «خضر» كاشف المنصورة ، فطلب إليهم أن يمهلوه ثلاثة أيام .

فلما جاء رسوله ، قالوا له «سيحكم الله بيننا وبين ملاك» . وتفرقوا فى المدينة ، فظفروا بقاضى العسكر «عبد الرءوف» فأجبروه على القيام بمطالبهم . أما الباشا فاغتنم اشتغالهم بذلك الشأن ، وفر إلى منزله ودخل القلعة وأقفل أبوابها وراءه ، والتجأ إلى «حسين باشا السكرانى» قائد عموم الجيش و «بيرى بك» أمير الحج ، فحاولا تسكين الثورة ، فذهب سعيهما عبثاً علماً أنّ العصاة قتلوا «محمد بك» و «الدالى محمد» وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ، ونهبوا بيتهما ، وأثخنوا فى الناس قتلاً ونهباً [٣] .

(١) أصلها دِلِى : ومعناها : مجنون، معتوه، مجذوب، أهوج، أرعن. الدراى ٢٥٥/١ .

(٢) الأصل : صوباشى .

(٣) فى المخطوط صورة والى مصر فى موكبه بالقرن العاشر للهجرة انظر ش(١٠) بآخر الكتاب .

وفى ١٧ ذى الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ، أُبدل السيد «محمد باشا» «بخضر باشا» فحكم ثلاث سنوات و١٢ يوماً ، وقد أغضب الأهلين منذ وصوله القاهرة ، لأنه أمر بقطع الأعطيات والجرايات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ، ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء ، بل تجاوزهم إلى الضابطة فأحرمهم زادهم ، فتجمهروا فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ ، وساروا إلى قاضى العسكر . ثم اتحدوا والقاضى فى مقدمتهم ، وتوجهوا إلى الديوان يريدون الانتقام ، فقتلوا «كخيا باشا» وأمراء آخرين ، فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه ، وأعاد الأعطيات كما شاءوا وخمدت الثورة وعادت الحياة إلى مجاريها ، إلا أن الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءه الأمر بالإقالة ، فاستقال . وولى مكانه الوزير «على باشا السلحدار» وكان محبا للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص ، ولكنه كان سفاكاً للدماء ، فتظلم الناس من قسوته ، ولم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها إلا ويميت على الأقل عشرة أشخاص تحت حوافر جواده ، فكان الناس يرتعدون خوفا من ذكر اسمه . ورافق ذلك جوع عظيم ، فكثرت الوفيات وعم الخراب ، فازداد الرعب حتى أمر الباشا أن تدفن الموتى سراً .

أما هو ، فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة واستخلف عليها «بيرى بك» وبعد يسير توفى هذا فانتخب السناجق الأمير «عثمان بك» ليقوم مقامه ، وبقى هذا حتى عين الباب العالى من يخلف «على باشا» وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان «محمد الثالث» فى ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ (١) .

٦ - سلطنة «أحمد بن محمد»

من سنة ١٠١٢- ١٠٢٦ هـ أو من ١٦٠٣- ١٦١٧ م

ولد هذا السلطان في سنة ٩٩٨ هـ ، فتولى الملك وهو فى الرابعة عشرة من عمره عندما نفى ، وقد خالف من تقدمه من السلاطين بقتل إخنوهم كما تقدم .

وولى على مصر «إبراهيم باشا» فحكم فيها مدة قصيرة ، انتهت بخطب جسيم ، وذلك أنه منذ وصوله إليها ، عزم على أبطال طلبات الجند . ولما أراد إنفاذ ما نواه ، زادت الجنود تمرداً .

وفى ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ ، علموا أن الباشا خرج من القاهرة فى زمرة من رجاله ، وركب النيل إلى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر أبى المنجا . فاجتمعوا فى ضواحى القرافة ، وتعاقدوا بالأيمان المغلظة على قتله .

---

(١) فى المخطوط صورة السلطان محمد بن مراد انظر ش ١١ بآخر الكتاب .

وفى الصباح التالى ، جاءوا وعسكروا فى بولاق ينتظرون عوده ، ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمته فى قلعة الدولاب . وكانوا قد علموا بالتجائه إليها . فلما علم هو ومن معه من السناجقة بقدوم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم . فنصح له السناجق أن يسافر بحراً قبل أن يصل إليه ضيم ، فلم يصغ لهم وتشدد .

ثم جاءت الجنود الثائرة وأحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم ١٥ رجلا ليأتوا برأس الباشا . فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة فى أيديهم حتى جاءوا مجلسه ، فانتهرهم قائلاً : «ماذا تريدون ؟ ، ألم تستولوا على مرتباتكم والأنعام الذى يعطى اعتيادياً عند تولية الحكام عليكم ؟ فماذا تطلبون ؟» فأجابوه: «لا نطلب شيئا إلا رأسك» قالوا هذا وصفعه أحدهم على وجهه ، وأدركه الباقون بالطعن مراراً . ثم عمد أحدهم إلى رأسه ، فقطعه، فانتهرهم «محمد بن خسرو [1]» ووبخهم على ما جاءوا به من القحة فلم يجيبوه إلا بما أجابوا ذاك ، وأخذوا رأسى الاثنين ، وعادوا بهما إلى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهما ، وداروا بهما

(١) خسرو : بضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو ، وهى كلمة فارسية الأصل واستخدمها الأتراك ، وهى اسم علم ، ولها معان . المحقق .

شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويلة (معرض الرؤوس !) وكان قد تعود مثل هذا الأكاليل [1] .

وفى ذلك اليوم ، أقاموا عليهم «عثمان بك» فلم يقبل ، فولوا قاضى العسكر «مصطفى أفندى» فلما علم ديوان الآستانة بقتل «إبراهيم باشا» ، أرسل عوضاً عنه الوزير «محمد باشا الكورجى» الملقب «بالخادم» . وحال وصوله القلعة ، وردت الأوامر الصارمة من الباب العالى إلى جميع السناجق أن يستطلعوا أصل الثورة وأسبابها ، يقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الأعظم من الجيش فى قراميدان [2] .

وكان الباشا فى القلعة ، فبعث يستقدم السانجق [3] إليه ، ليبلغهم هذه الأوامر رسمياً ، فرفضوا المثول بين يديه، فتوسط الأمراء ، ووعدوا السناجق إنهم إذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام ، فقبلوا وسلموا القاتلين إلى الباشا ، فأمر بقطع أعناقهم بين يديه ، وأطلق السناجق ، فخاف الثائرون ، وضعف عزمهم ، ولا سيما لما رأوا من «محمد باشا» التيقظ لحفظ النظام

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى المخطوط صورة لجامع السلطان أحمد بالأستانة ش (١٢) آخر الكتاب .

(٣) الصحيح : السناجق .

ومعاقبة المعتدين ، وقد قتل منهم نحواً من مائتي رجل في مدة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز سبعة أشهر وتسعة أيام .

فتولى بعده الوزير «حسن باشا» وهو أقل صرامة من سلفه، فكان يعامل الجند بالحسنى ، وكان ابنه فيهم برتبة بكلربكي، وكانت الأحوال هادئة جداً في أثناء حكمه

ثم تولى بعده الوزير «محمد باشا» في ٧ صفر سنة ١٠١٦هـ ، وبقي على حكومة مصر أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوماً . وكان حكيماً حازماً ، أخذ منذ وصوله القاهرة في المحافظة على السلام ، فنجى الأهلين مما كان يكدر راحتهم ، فاكتسب ثقتهم ومحبتهم ، إلا أنه لم ينج من الحساد وذوى الأغراض .

وفي أواخر شوال من السنة التالية ، ثارت عليه الجيوش ، واجتمعوا في برج السيد «أحمد البدوى» تحالفوا أن لا يوافقوه على إلغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطر إلى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيسا ولّوه عليهم سلطاناً ، وتقاسموا مصر إلى أقسام ، تولى كل واحد منهم إثارة الشغب والنهب في قسم منها . فانتشرت تعدياتهم في جميع الدلتا . فلما علم «محمد باشا» بذلك جمع السناجق «الجاوشية

المتفرقة (١)» ، وسار بهم تحت قيادته لردع العصاة فى ٩ ذى الحجة سنة ١٠١٧ هـ ، وأخذ معه ستة مدافع ، وانضم إليه كثير من مشائخ العرب . وفى الليلة التالية ، عسكر الجميع فى بركة الحج .

وفى الصباح ، هاجموا العصاة فى الخانقاه . فضيقوا عليهم بالنيران ، فاضطر أولئك إلى التسليم ، فأخذ الباشا عهوداً. أولها أن يسلموا إليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ، ووعدهم بالتأمين على حياتهم ، فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ ، فأمر بقتلهم حالاً . ثم جرّد الباقين من سلاحهم ، فتفرقوا ، فتعقبهم رجال الباشا ، وقتلوا من ظفروا به منهم .

فلما رأى قاضى العسكر «محمد أفندى» الملقب «ببختى زاده» ما كان يحصل من أمثال هذه المذابح يومياً ، نصح للباشا أن ينفى كل من يقبض عليه منهم إلى اليمن ، ففعل ، وكانت النتيجة حسنة ، وبطلت التعديات .

---

(١) المتفرقة هنا لقب ولا تعنى ما تعنيه فى العربية . وهى من كلمة فرّق العربية . والكلمة تعنى المنفصلين ، وهم حرس كانوا يستخدمون فى مهام «خاصة» أو مختلفة . وكان الكتاب الأجانب يشيرون إليهم على انهم «حرس الشرف» ... انظر هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ١٢٧ - ١٢٨ من الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧١ .

ولما ارتاح «محمد باشا» من تلك الثورات ، أخذ فى إصلاح الإدارة المالية ، فتفحص بنفسه النفقات التى كانت تدفع من الخزينة ، واقتصد منها كل مالم يكن ضرورياً . ثم نظر إلى الضرائب ، فأبطل طريقة المماليك الشراكسة فيها ، واتبع القوانين التى صدرت سنة ٩٣٢ هـ فى زمن السلطان «سليمان القانونى» . ثم نظم المكوس وعدّلها ، ولم يكن يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا رأى أرضا لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس ، تنازل لها عنه وساعدها فى إحياء مواتها .

ولما برح مصر ، نال من المكافآت والإنعامات ما لم ينله أحد من أسلافه فى مصر .

وتولى بعده «محمد باشا» الملقب «بالصوفى» وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة . وكان ورعا ، حليماً ، عفيفاً ، لم يقبل رشوة ، ولم يأت ظلماً . إلاّ أنه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بمحبوبه يوسف الذى كثيرا ما تعدى حده .

وفى سنة ١٠٢٢ هـ ، أرسل الصدر الأعظم عشرة آلاف جندى إلى اليمن ، لإخماد ما كان ثائراً من الشعب هناك ،

وأرسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها أمر سام إلى الباشا بدفع النقود اللازمة لها ، وتشييع الحملة إلى اليمن .

فلما وصلت الجيوش إلى مصر ، وعلموا بما ورد من الأوامر بشأنهم ، ادعوا انهم جاءوا ليقيموا فى مصر ، ولم يذعنوا لأوامر الباشا بالسفر ، فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر، وطردوا بعض أصحابها منها ، فاجتهد الباشا أن يحملهم على التسليم بالأوامر الواردة إليه بشأنهم ، فذهب سعيه باطلا . وأقاموا المتاريس فى أبواب الحارة ، وأقفلوا باب النصر ، ونصبوا المدافع فى برجيه . فاضطر الباشا إلى محاصرتهم بكل ما لديه من الوجاقات والمدافع . فتمكن الأمير «عابدين بك» من الدخول إلى حصنهم من باب فى المدرسة المدعوة بالجنبلاطية ، فخاف العصاة وسلموا ، ففرق فيهم الباشا ثمانين كيساً وسافروا .

وبعد يسير أقيل «محمد باشا» الصوفى فاعتزل فى قبة العدلية ، ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصول خلفه «أحمد باشا» دفتردار مصر سابقاً إلى الإسكندرية ، ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل وبينما هو بموكبه فى المدينة ، رماه بعض الناس بحجر من سطح بعض البيوت ، فكسر الهلال الذى كان فوق

عمامته ، ولم يؤذه ، فأمسك الفاعل ، فاعترف بذنبه ، فقتل فى ذلك المكان (١) .

وفى محرم سنة ١٠٢٥ ، ورد إلى الباشا المذكور أمر من الأستانة أن يرسل ألفاً من جنود مصر لتنضم إلى الجيش العثمانى الذاهب لمحاربة الفرس . فأرسلهم تحت قيادة «صالح بك» أمير الحج ، فساروا على أتم نظام ، ومروا بالمديريات ، ولم يشعر الأهالى بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ ، وما أقامهم فى مصر من النظام مع إعطائه الجيوش حقهم من المرتبات. ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة، ما لم ينهبوها . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثمانى فى الخانقاه، وانضمت إليه ، ولما ودع الباشا عساكره ، فرق فيهم المال ، فأصاب الواحد ٢٠ ديناراً على الأقل .

وكانت مدة حكم «أحمد باشا» سنتين وعشرة أشهر واثنى عشر يوماً ، ولم يقتل فى أثنائها أكثر من عشرة أشخاص ارتكبوا أموراً ، استوجبوا من أجلها القتل ولم يكن يحكم على أحد إلا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين .

---

(١) فى المخطوط توجد صورة لسبيل السلطان أحمد بالأستانة ش (١٣) بآخر الكتاب.

٧ – سلطة «مصطفي بن محمد»

من سنة ١٠٢٦– ١٠٣٢ هـ أو من ١٦١٧– ١٦٢٣ م

تولى هذا السلطان كرسى السلطنة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، قضى معظمها فى دار الحريم ، ولم يمارس شيئا من أمور المملكة ، فاستضعفه رجال الدولة ، فتآمروا على خلعه ، فخلعوه . وولوا مكانه «عثمان الثانى بن السلطان أحمد» ثم تغير الإنكشارية على السلطان ، فخلعوا «عثمان» وأعادوا «مصطفى» وكان ذلك أول عهدهم فى التولية والعزل ، ثم صار ذلك عادة جروا عليها مع سائر السلاطين ، إذ صار الأمر لهم فى التولية والعزل .

أما مصر فى أثناء ذلك . فاستبدل واليها «أحمد باشا» «بمصطفى لفغلى» ، ولم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذى ولاه إلا بضعة أشهر ، لأنه سهل النفوذ لذويه فى الاحكام . فنشأت ثورة عسكرية فى ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ ، فقتل الثائرون عددا كبيرا من الأمراء الأغوات وغيرهم من الكبراء ، واضطر الباقون إلى الفرار ، ولم يسكن الاضطراب إلا بعزل «مصطفى باشا» بأمر السلطان «عثمان» .

فتولى مكانه الوزير «جعفر باشا» وهذا لم تطل حكومته أكثر من خمسة أشهر ونصف . وكان محبا للعلم والعلماء ، يجمع إليه رجال الأدب ، ويكرم مثواهم ، ولم يهتم كل تلك المدة إلا بما فيه منفعه البلاد وراحة العباد .

وظهر فى أيامه وباء انتشر فى مصر ، وفتك بأهلها فتكاً ، وأيضا من غاية ربيع الأول سنة ١٢٠٨ إلى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة . وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من أعمارهم ، وبلغ عدد من توفى بسببه ٣٦٥,٠٠٠ نفس .

وتولى بعد «جعفر باشا» «مصطفى باشا» ، فقبض على «مصطفى بك » الملقب «بالبكلجى» زعيم الثورة التى نشأت فى أيام «مصطفى باشا لفغلى . وحكم عليه بالإعدام . فسر الثانى بذلك لأن «مصطفى» المذكور كان أصل متاعبهم . على أن سرورهم لم يلبث أن ظهر حتى أُبدل بالكدر ، لأن «مصطفى باشا» حاكمهم الجديد ، اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم ، فرفعوا تظلماتهم إلى السلطان ، فنظر فى دعواهم ، وأنصفهم ، فعزل ذلك الباشا ، وولى «حسين باشا» . فبادر هذا إلى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التى كان قد ضربها سلفه .

وفى أيامه ، ارتفع النيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الأرض ، وأغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان، وأصابهم ضيق شديد أعقبه طاعون فتاك .

ثم عزل «حسين باشا» واستقدم إلى الأستانة ، وقبل وصوله إليه خلع السلطان «عثمان الثانى» وأعيد «مصطفى الأول» سنة ١٠٢١ ، الذى كان قبله .

أما الباشا المعزول ، فوصل إلى الأستانة فى أسعد الأوقات له ، لأن أعراض السلطان السابق عنه ، كان داعياً لرغبة السلطان الجديد فى تقريبه منه ، فاتفقت الأحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى .

وكان «عثمان الثانى» قبل وفاته ، قد بعث إلى مصر «محمد باشا» بدلاً من «حسين باشا» ، لكنه لم يصل مصر إلا بعد أن أنبىء أهلها بما كان يأتيه فى الروملى يوم كان والياً عليها ، فنفروا منه وخافوا من تصرفه . ولحسن حظهم لم يبق بينهم إلا شهرين ونصف شهر .

فلما تولى «حسين باشا» الصدارة ، عزله بأمر السلطان

«مصطفى الأول» ، وولى «إبراهيم باشا» وبقى هذا على مصر سنة. وقد تمكن بحسن سياسته وتدبيره من اكتساب رضى الأهلين وثقتهم إلا أنه حصل فى أيامه ضيق عيش ، وغلت أسعار المأكولات جداً .

ولما عزل «إبراهيم باشا» ، سار إلى الإسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية فى من سبقوه على حكومة مصر ، فإنهم كانوا إذا عزلوا من مناصبهم ، سافروا براً .

وتولى مكانه «مصطفى باشا» واستلم زمام الاحكام من ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ ، فأتاه كتبة الديوان يشتكون تصرف سلفه ، وقالوا إنه مدين للخزينة بمبلغ وافر ، فأرسل فى إثره بعض الجاوشيه . فالتقوا به ، فهددهم بالقتل إذا لم يعودوا عنه ، فخافوا وعادوا إلى القاهرة . فأرسل الأمير «صالح بك» فأدركه وقد نزل البحر فى الإسكندرية ، فأوعز إليه أن يقف ، فأجاب إنه متوجه إلى الأستانة ، فإذا كان عليه شيء يدفعه هناك إلى السلطان نفسه ، قال ذلك ونشر الشراع ، فمخرت السفينة به ، فأطلقوا عليه من طابية منارة الإسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها .

٨ - سلطنة «مراد بن أحمد»

من سنة ١٠٣٢- ١٠٤٩ هـ أو من ١٦٣٣- ١٦٤٠ م

ولد هذا السلطان سنة ١٠١٨ هـ ، فتولى الملك وعمره دون الحادية عشرة سنة ، ولاّه الإنكشارية ليكون طوع إرادتهم ، فاستأثروا بالدولة وعاثوا فيها فساداً . فانتهز الشاة «عباس» ملك الفرس اختلال أحوالهم لتوسيع املاكه ، فتمكن من فتح بغداد ، وازدادت الأحوال اضطراباً ، وثار الإنكشارية حتى قتلوا الصدر الأعظم «حافظ باشا» .

مضت عشر سنوات والدولة فى تقهقر وضعف ، حتى شب السلطان وقبض على مهام الحكومة ، فحمل على بلاد فارس بنفسه على جيشه ، واسترجع بغداد وفتح الديوان . وبلغه أن أخويه «بايزيد» و «سليمان» يدسان عليه . فأمر بقتلهما ، ثم استرد الفرس أريوان [1] .

أما مصر ، فبعد تولية «مصطفى باشا» بثلاثة أشهر أى من ١٥ ذى الحجة ، ورد إلى القاهرة ، أمر بعزله ، وتولية «على باشا» مكانه . فاجتمعت الأجناد وساروا إلى القائمقام «عيسى بك» يطلبون الإعطاءات التى تفرق عند تولية كل وال جديد ،

(١) أريوان : عاصمة ارمينيا .

فانتهرهم «عيسى بك» قائلا : «أفى كل ثلاثة أشهر تجددون هذا الطلبات ؟» ، فأجابوه : «وما المانع؟ ، ألم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة أشهر والياً علينا ؟ ألا يضر ذلك بمصلحة البلاد ؟ ، وإذا أراد أن يولى كل يوم والياً ، فنحن أيضا كل يوم نطلب الإعطاءات التى لنا .» ، فحاول القائمقام إقناعهم ، فلم ينجح ولم يزدهم ذلك إلا عناداً وتهديداً ، وصرخوا جميعهم بصوت واحد : «نحن لا نرضى حاكماً غير «مصطفى باشا» ، ويرجع هذا إلى حيث أتى .» ثم قرأوا الفاتحة ، وأقسموا أن يحافظوا على ما قالوه ، وأن لا يحنث أحد منهم بذلك ، وبناءً عليه أعيد «مصطفى باشا» إلى منصبه .

فلما رأى الحزب العسكرى معه ، كتب إلى السلطان يطلب تثبيته ، وأرفق الكتاب برسائل عديدة من علماء القاهرة ومشائخها وقضاتها ، وجميعهم يطلبون تثبيته . ثم بلغهم وصول «على باشا» إلى الإسكندرية فبعثوا إليه وفداً يبلغونه أن الجند والأهلين متفقين على رفضه ، فجمع الوفد إليهم ودفع إليهم كتباً كلها مدح وإطناب للأمراء والجيوش ، فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند ، فلم يكن جوابهم إلا إعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الأولى .

فلما رأى إصرارهم ، استشاط غضبا ، وأمر بالقبض على ذلك الوفد ، وقيدوا إلى قلعة الإسكندرية مغلولين ، وزجوا فى سجنها ، فتآمروا مع جند الإسكندرية وكانوا من حزبهم ، فحلوا وثاقهم وهجموا جميعا على «على باشا» وقوضوا خيمته وأجبروه على الخروج من الإسكندرية حالاً ، فأنزلوه فى قارب مخصوص ، وأخرجوه من الميناء ، وكانت الريح ضده ، فأعادته ثانية ، فأطلق عليه الأمير «مصطفى» من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت سفينته ثقوبا لم تغرقها ، لكنها أخرجتها من الميناء ولقب الأمير «مصطفى» من ذلك الحين «بالطبجى» (١) .

وفى يوم ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٢ هـ ، جاء القاهرة كتاب يحمله الحمام الزاجل – وهو بريد تلك الأيام – فحواه قرب وصول مندوب عثمانى ومعه الأوامر السلطانية .

وبعد أيام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والأمراء وكبار الموظفين فى الديوان ، وألبس «مصطفى باشا» «الخلعة المرسلة إليه من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيته على مصر .

---

(١) وصحة كتابتها بلطجى وهى من التركية بلطة جى وتعنى : ناقل الفأس أو صاحبه. الدرارى ١٠٦/١ .

وفى السنة التالية ، زاد النيل زيادة فوق العادة ، فبلغ ٢٤ ذراعاً ، فخاف الناس أن لا ينحسر الماء عن أراضيهم في زمن يمكنهم فيه زراعتها ، ولكنه أخذ فى الهبوط بسرعة ، فانكشفت الأرض وزاد خصبها .

الـوبـاء وبـيرام باشـا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمهما ما هو أصعب مراساً منه – يعنى الوباء ، فإنه ظهر بها بأوائل ربيع أول سنة ١٠٣٥ هـ ، وأخذ ينتشر في جميع أنحائها بسرعة .

وفى شعبان من تلك السنة ، أخذ بالتناقص ولم ينقص إلا فى أوائل رمضان ، قال بعضهم : إن الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ٣٠٠,٠٠٠ نفس ، فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس أموال الناس ، فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الأغنياء . فاستولى على تركاتهم ، فتظلم الورثاء إلى الأستانة . ولا يخفى أن الباشا لم يتول مصر إلا رغم إرادة الباب العالى ، فاغتنم هذه الفرصة وعزله ، وولى «بيرام باشا» ، فجاء مصر وحاكم «مصطفى باشا» وحكم عليه بدفع الأموال التى اختلسها ، فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ، ودفع ما عليه .

ولما عاد إلى الأستانة (١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالإعدام .

ولا يخفى أن محاولة الجيوش والأمراء عزل وتولية الباشوات ، بمجرد إرادتهم : مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان «سليم الفاتح» لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالى خرقاً للحدود السابقة وعليه فقد حصل بعض التعديل في القواعد الأساسية التى سنها السلطان « سليم » منذ قرن .

وكان «بيرام باشا» محباً للعلم والعلماء ، لكنه كان أكثر حباً لجمع المال ، وإقامة المشاريع المفيدة ، وتنشيط التجارة على أنواعها ، وأكثر من الضرائب حتى على الصابون ، وكان حازماً ، لم يترك للجند فرصة للتمرد ، فهدأت مصر فى أيامه .

«محمد باشا» و «موسى باشا»

ثم استُدعى «بيرام» إلى الأستانة ، وعيِّن وزيراً فى ديوانها، وهذه هى المرة الثالثة لتعيينه فى ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير «محمد باشا» ، فساس الأمور بحكمة ودراية . وكان محباً للعزلة ، فلم يخرج بموكبه فى أثناء حكمه التى هى نحو السنتين ، إلا ست مرات .

واتصل به ما أصاب اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية ، فعرض على السلطان إخضاعها ، وتعهد بإرسال فرقة من رجاله بقيادة «قنسويك» أمير الحج لهذه الغاية . فأجابه السلطان إلى ما طلب ، وولى «قنسويك» على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكلربكى (أمير الأمراء) على الجيش . فأنشأ «قنسو» جيشا من ثلاثين ألف مقاتل ، وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة . وبعد أن قبضه ، توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الأهلين ويتعرضون للمسافرين .

ولحسن الحظ ، كان بين تلك الجيوش ألف رجل من الروملى [١] جاءوا للاشتراك فى تلك الحملة تحت قيادة الأمير «جعفر أغا» ، فاخمدوا تلك الثورة وألزموا «قنسو بك» أن يسير بهم إلى اليمن فى محرم سنة ١٠٣٩ هـ . فسار وحارب وفاز .

وبعد سبعة أشهر من سفر تلك الحملة (فى ١٩ شعبان) ، طاف على مكة سيل من الماء ، أغرق القسم الأعظم من أراضيها حتى الكعبة . فهدم السلطان معظم بنائها ، ولم يبق من جدرانها إلا الأيمن .

---

(١) الروملى : أصلها روم ايلى وتعنى لغويا منطقة الروم . واصطلاحا : منطقة البلقان . المحقق .

فاتصل ذلك بوالي مصر ، فأوصله للسلطان «مراد الرابع»، فأنفذ السلطان إلى «محمد باشا» يعهد إليه ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات نحو ستة ألف غرش (الغرش يومئذ يساوى أربعة فرنكات تقريباً) .

وفى سنة ١٠٤٠ هـ ، كان ارتفاع النيل قليلاً ، فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ، ومع ذلك ، فتح الخليج ، وسيقت المياه قليلة إلى الأرضين ، ولكن البلاد أمنت من الجوع بتدبير «محمد باشا» .

وفى هذه السنة ، استدعى «محمد باشا» إلى الأستانة ، وقلده السلطان منصب الوزارة مكافأة لحسن سياسته ودرايته . وتولى مكانه فى مصر «موسى باشا» وكان للأهلين فى بادىء الرأى ثقة به ، وكانوا يحبونه ويُجلُّون قدره ، فخرجوا لملاقاته فى شبرا ، لكنه لم يكد يمكن قدمه ، حتى استسلم لهواه . فأخذ فى الاختلاس والاستبداد بأنفس العباد ، فأمر بقتل أكبر رجال مصر بغير وجه حق ، وجعل يراقب سير أغنيائها ويترصد خطواتهم ، لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم .

وفى شعبان من تلك السنة ، بعث السلطان يطلب إليه

أن يعدّ حملة من جنـده لمحـاربة الفـرس فجمعهـا تحت قيـادة « قيطاس بك » وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم إعانة حربية .

ولما وصلت تلك المبالغ إليه ، زعم أن مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لأن ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فنصح له «قيطاس» أن يتبع الاستقامة ، وهى أفضل له ، فذهبت أقواله عبثاً . ثم أوجس «موسى باشا» خيفة من «قيطاس بك» لأنه اطلع على فظائعه ، فاستدعاه إلى القلعة فى عيد الأضحى فى ٩ ذى الحجة ، وأمر أربعين من رجاله أن يقتلوه ، ففعلوا .

فلما رأى الأميران «كنعان بك» و «على بك» ذلك دفع الخوف فى قلبيهما ، وأسرعا إلى الجيوش ، فأعلماهم بما كان من أمر «قيطاس بك» مع «موسى باشا» ، فاجتمعت العساكر حالاً فى الرميلة .

وأما السناجق والأمراء والقضاة وكبار الموظفين ، فاجتمعوا فى جامع السلطان «حسن » ، وتفاوضوا فى الأمر ، فأقروا على عزل «موسى باشا» وتولية من يقوم مقامه مؤقتاً ريثما يأتى أمر الباب العالى بشأنه ، فخلعوه وأقاموا «حسن بك» مكانه ،

فكتب «موسى باشا» إلى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة ، وكان رؤساؤها قد رفعوا إلى ديوان الأستانة كتابين ، الواحد بالتركية ، وقع عليه السناجق والأغوان وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية من القضاة والمشائخ يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا ، فأجابهم السلطان إلى طلبهم ، فولى عليهم خليل باشا .

« خليـــل باشـــا »

وفى ربيع أول سنة ١٠٤١ هـ ، وصل «خليل باشا» إلى مصر ، استلم أزمتها ، وبلغه أن جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة أحد الشرفاء المدعو «نامي» ، ونهبوا مكة ، فجمع جند القاهرة وأرسلهم بقيادة الأمير «قاسم بك» لإخماد تلك الثورة . فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم .

وفى صفر سنة ١٠٤٢ هـ ، عاد «قاسم بك» بجيشه إلى القاهرة ظافراً . وأقبلت غلة مصر تلك السنة ، وزاد خصبها ، وتضاعف ريعها ، ونزلت أسعار الحنطة من ثمانية غروش للأردب إلى غرشين .

وفى سنة ١٠٤٢ هـ استقال «خليل باشا» من ولاية مصر فخـرج منهـا ، والنـاس يثنـون عليـه ثنـاءً جميـلاً ، لأنه كان

عادلاً ، حليماً . فلم يكن يصدد أحكامه إلا بعد التروى بما يقول الخصمان .

ومما يحكى عنه إنه جىء إليه يوماً بثلاثة لصوص ، قبض عليهم متلبسين بالجناية ، فإمر أن يحاكموا ، فقال أحد رجال الديوان : «إن هذه الحادثة لا تحتاج إلى محاكمة لثبوت الجناية ، فيجب إصدار الحكم بالإعدام .» ، فلم يكن جواب الباشا إلا الأمر بهدم بيت ذلك الناصح ، فاستغرب الرجل ذلك ، وسأل عن السبب الموجب له ، فأجابه الباشا قائلاً : كيف يحق لك الاعتراض علىّ إذا أمرت بهدم بيتك المبنى من حطام الدنيا ، ولا يحق لذلك البانى العظيم معارضتنا إذا هدمنا بنايته بغير وجه شرعى .» ثم أبطل الأمر بالهدم وأطلق اللصوص ، قال «ابن أبى المسرور» راوى هذه الحكاية ، إن اللصوص قلُّوا بعد تلك الحادثة احتراما للباشا .

وبعد استقاله «خليل باشا» من مصر «س عُيِّن على الروملى ، وتولى مصر الوزير «أحمد باشا» الملقب «بالكورجى» وكان قبلاً أمير ياخور .

وفى صفر سنة ١٠٤٣ هـ ، وردت له الأوامر الشاهانية ، أن يبعث ألفين من عساكر مصر إلى سوريا ، مدداً للحملة

العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط وأربعة آلاف قنطار من البارود . ثم جاءت أوامر أخرى بطلب ألفى رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى «أحمد باشا» أن مصر لا تقوم بهذه الطلبات ، فاعتذر إلى السلطان ، فبعث إليه ١٢ ألف قنطار من النحاس ليسكبها نقوداً على أن يبعث عوضا عنها إلى الأستانة ثلاثمائة ألف زر محبوب (١) .

أصل النقود فى المصرية

للنقود فى مصر تاريخ لا بأس من ذكره . كانت المعاملة بمصر عند الفتح الإسلامى بالدرهم ، وهو وزن درهم من الفضة والدينار ، وهو مثقال من الذهب . وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم.

تكاثرت الفضة فصار الدينار يساوى ١٢ درهماً فى أيام بنى أمية و١٥ درهماً من أوائل بنى العباس ، ثم زادت قيمته إلى ٢٠ درهما أو ٢٥ أو ٣٠ باختلاف الأحوال .

فلما كانت الحروب الصليبية ، واختلط الإفرنج بالمسلمين ، دخل البلاد الإسلامية كثير من النقود الإفرنجية ، وحدثت نقود

(١) زر محبوب ، هو الدينار كما سيذكر المؤلف ذلك فيما بعد .

ذهبية جديدة كالبندقى والمجر والبنتو وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثمانى والإفرنجى والمصرى وغيرها ، وكلها من الذهب .

أما النقود الفضية ، فأبدلت دراهمها بالأنصاف وهى البارات [1] . وكانت المبيعات الصغرى تقدر بإنصاف والكبرى بالبندقى أو الزر محبوب أو غيرها من النقود الذهبية ، وسنعود إلى وصف نقود مصر فى آخر العصر العثمانى .

«فأحمد باشا» أخذ فى سكب النحاس ، وأعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين أن جميع هذه الإجراءات ذاهبة عبثاً لأن الفعلة ملّوا العمل ، ومات أكثرهم من الحر والجهد ، فجمع إليه ذوى شواره من الأمراء ، والقضاة ، واستشارهم . وكان من رأيه أن يدفع مطاليب السلطان من ماله الخاص ، ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة تباع فى بلاد السودان بين تكردر وبلاد الزنج ، فارتأى القضـاة رأياً آخـر ، وهـو أن يجبر الأهالى على استـلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة ، وأن يفرق النحاس عليهم بمقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك وأخذوا فى تنفيذه فى ١٦ الحجة سنة ١٠٤٣ ، وتمموه فى آخر شعبان من السنة التالية .

---

(١) البارات جمع بارة وهى بالباء المثلثة ، نوع من السكة .

فكان ذلك ثقلاً كبيرا على كاهل المصريين إذ لم ينج من هذه الضريبة غني ولا فقير ، فَقَلَّت النقود ، وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاءً فاحشاً ، وزاد فى الطنبور نغمة أن النيل فى السنة التالية لم يكن وفاؤه حسناً ، لكن الناس استنبتوا الأرض غلة متوسطة .

مظالم وتعديات

وبعد يسير دُعى أحمد باشا إلى الآستانة فسار ولم يدفع الأموال التى جمعت لخزينته ، فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك. فلما وصل الآستانة ، حُكم عليه بالإعدام ، وتولى مكانه الوزير «حسين باشا» فجاء مصر فى عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد ، وكانوا من قاطعى السبل ، فساموا المصريين أنواع العذاب نهباً وقتلاً ، فاضطربت الأحوال ، وأقفلت الحوانيت ، ووقفت حركة الأعمال ، وهذا أصل استهجان المصريين لكلمة درزى على ما يظن .

وأبطل «حسين باشا» حقوق الوراثة ، فإن مات أحد الناس، استولى هو على تركته ، وأحرم منها ورثته الأيتام والأرامل أو الثكالى ، وإذا أراد أحد الانتقام من عدو ، يكفيه أن يشى به إلى «حسين باشا» بأنه غنى أو ابن غنى ، فيزجه الباشا فى

السجن ولا يخرج منه إلا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر يوم إلا ويطوف فيه «حسين باشا» المدينة فى موكبه ، ولا تغيب الشمس قبل أن يقتل رجلاً أو رجلين أو أكثر .

وقد حُسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغاشم فى مدة حكمه وهى سنة و١١ شهرا ، فبلغوا نحوا من ألف ومائتى نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هيبة فى قلوب رجاله ، فأراد يوماً أن لا يشركوه بالقتل والنهب ، فحظر عليهم ذلك ، فلم يعودوا يجسرون على المخالفة ولم يسمع بشىء من تعدياتهم من ذلك الحين .

ثم أقيل وخلفه الوزير «محمد باشا بن أحمد باشا» وابن ابنة السلطان «سليم الثانى» .

وفى شوال من سنة ١٠٤٧ هـ ، وردت إليه الأوامر أن يرسل ألفا وخمسمائة مقاتل ، نجدة للحملة العثمانية إلى بغداد . فأرسل تلك الفرقة بقيادة أمير الحج «قنسو بك» فى محرم سنة ١٠٤٨ هـ ، فسارت ولم ترجع إلى مصر إلا بعد الاستيلاء على تلك المدينة فى صفر سنة ١٠٤٩ هـ .

واتبع الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب ، فجمع

ثروة عظيمة من تركات الأمراء والعلماء ، فقام عليه الورثة ، وبعد الجهد ، تمكنوا من تحصيل نصف الأموال . وازداد ظلما وعتواً ، حتى منع الصدقات التى كانت تدفع للأرامل والأيتام ، وأخذها لنفسه ، فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة .

وفى الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ ، توفى السلطان «مراد»[١] .

٩ - سلطنة إبراهيم بن أحمد»

من سنة ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ أو ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م

ولد السلطان «إبراهيم سنة ١٠٢٤ ، فلما تولى المُلك كان فى الخامسة والعشرين من عمره .

وفى أيامه ، فتحت جزيرة كريد ، وصارت تابعة للمملكة العثمانية . وفيها أيضاً زاد تمرد الإنكشارية فمل من تمردهم ، وعزم على الفتك بهم فى ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم ، فاطلعوا على الدسيسة ، وأجبروا المفتى أن يفتى بخلعه ، فخلعوه وولوا ابنه «محمد الرابع» وعمره سبع سنوات ، فلم يرض جند السياه[٢] بذلك ، فأرادوا إرجاع «إبراهيم» فخاف رؤساء

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد الرابع بن أحمد ش (١٤) بآخر الكتاب.

(٢) السياه : سياه عسكر . جيش . جند ١/٢٩٠ الدرارى اللامعات .

العصابة الفشل ، فقتلوا «إبراهيم» كما قتلوا «عثمان الثانى» قبله.

وكان المصريون لما علموا بانتقال السلطنة إلى «إبراهيم» المذكور ، ظنوا ذلك التغيير يغير حالهم ، وينجيهم مما هم فيه . وأول ما اجراه السلطان المذكور أنه استبدل «محمد باشا» وأحرمه من العطية التى تعطى لحاكم مصر عند استقالته ، ولكنه أمر بعد ذلك بإبقائه ، فعاد إلى أعماله ، وازداد ظلماً وصلفا ، ففتك بالناس فتكاً ذريعاً .

ثم استبدل «محمد باشا» «بمصطفى باشا» الملقب «بالبستانجى» وكان أبىّ النفس على نوع ما ، إلا أن كاتبه «أحمد أفندى» كان عابثاً غشوماً . وكانت أزمة الأمور فى يده ، فاستبد بها ، فكره المصريون الحياة من أجله .

واتفق فى أيامه تقصير النيل ، فازدادت الأثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للأحكام مطلقاً ، فكثرت السرقات حتى لم ينج حى من أحياء القاهرة من النهب ، واضطر الناس إلى مهاجرة بيوتهم .

وكان رئيس الضابطة إذا جىء إليه ببعض اللصوص ، لا تغيب عليهم الشمس فى السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف

(حكام الأقاليم) ، فتواترت التشكيات إلى الباشا، فاضطر إلى عزل رئيس الضابطة وتولية «كنعان بك» مكانه ، فاهتم هذا بالقبض على اللصوص ، فسجن عدداً كبيراً منهم .

وفى شوال سنة ١٠٥١ ، ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الأمير «على» ، لأنه لا يفرق الأعطيات إلا على كتبته ، فلم ير الباشا بدأ من عزله وتوليه «عابدين بك» فى مكانه .

فلما رأى الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعاً، وادعوا أن مخازن الحبوب فارغة ، وطلبوا معاشاتهم التأخرة منذ سنة . فعين «محمد افندى» قاضى العسكر لتحرّى دعواهم ، فتفقّد مخازن الحبوب ، فوجدها حقيقة فارغة ، وعلم أن ما كان فيها باعه وأخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ، أن يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له ، فاستنجد الجاويشية ، فأنجدوه وأعادوه إلى منصبه ، فازداد تمرداً ، وبالغ فى الانتقام . ثم استقال «مصطفى باشا» وتولى الوزير «مقصود باشا» . وكان والياً على ديار بكر (١) قديماً .

فلما استلم مقاليد الأحكام بمصر ، بحث عن تصرفات

(١) وهى : آمد .

سلفه ، فاطلع على أعماله ، فقبض على كاتبه والكخيا ، وجلدهما ، وأجبرهما على إرجاع مائتى كيس من النقود إلى الخزينة .

أما «مصطفى باشا» فأُرسل إلى الآستانة ، وهناك أخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية وأصبح من صحبة الوزراء السبعة العظام .

الـوبـــاء

وفى أيام «مقصود باشا» ، قاست مصر أمرّ العذاب من وباء وفد عليها . وكان أصعب مراساً من الوباء الذى وفد فى أيام على باشا وجعفر باشا لأنه كان عاماً لم ينج من إصابته الشيوخ ولا الشبان ، وقد أصاب من الشيوخ واحداً فى الثمانية .

ظهر هذا الوباء أولا فى بولاق أوائل شعبان سنة ١٠٥٢هـ، وبعد شهرين ظهر فى القاهرة . وما زال على معظمه من أول ذى القعدة من تلك السنة إلى غاية صفر سنة ١٠٥٣ ، ثم أخذ بالتناقص شيئا فشيئا ولم ينقض حتى الشهر الثانى . ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة فى كل ساعة . وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة ، فيمر فى الشارع الواحد أحيانا ثلاثون أو أربعون جنازة .

وقد روى «ابن أبى السرور» وهو من المعاصرين أن جملة من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة فى أثناء ثلاثة أشهر ٢٩٦٠ ، وصاروا فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة ، وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم .

أما خارج القاهرة ، فلم يكن الوباء أقل فتكاً ، ويقال إن ٢٣٠ قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء .

«مقصود باشا»

فلما رأى «مقصود باشا» ما ألم بمصر من الدمار ، سعى فى إصلاح الأحوال جهده ، فاستعمل الرفق وألغى الضرائب التى وضعها أسلافه بغير حق وجعل الوراثة إلى الأقربين الشرعيين ، مع دفع شىء من التركات إلى الحكومة ، وتحرى التعديات تحرياً شديداً وشدد فى القبض على اللصوص ، فقبض على كثيرين منهم ، فقتل بعضاً ، وسجن بعضاً ، وقاضى آخرين حسب ذنوبهم مع الغرامة ، فاستكنث [1] الناس ، وطابت قلوبهم .

---

(١) الكُنْثة : نَوْرَدَجة [معربه : نورده بفتح النون والواو وسكون الراء والمقصود منها : باقة الرياحين] تتخذ من آس وأغصان خلاف ، ينضد عليها الرياحين ثم تطوى. القاموس المحيط ٢٢٤ .

وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ، ظهرت في الإسكندرية في ٢٠ القعدة من تلك السنة ثورة كدرت الحالة . وذلك أن نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الإسكندرية .

ففي اليوم المذكور فتحوا السجون ، والمسلمون في الجوامع يصلون ، وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوت ، ولم يبقوا ولم يذروا . ولما ملأوا جعبة مطامعهم ، نزلوا إلى مركب كان بانتظارهم في البحر ، فأقلعوا يطلبون الفرار .

ولم يكن ذلك كل ما هدد «مقصود باشا» وحال دون مشاريعه ، بل هناك ما هو أدهى وأمرّ - وذلك أن جماعة السناجق تآمروا على عزله في الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٤٥ باجتماع عقدوه في بيت الأمير «رضوان بك» الملقب «بأبي الشوارب» .

وسبب ذلك أن «مقصود باشا» كان قد طلب إليهم حيناً بإيفاء رواتب الجيش عن شهر رمضان أن يدفعوا الثلث الأول من المال الذي يطلب من الخزينة من الإقطاعات العسكرية التي في أيديهم ، فرفضوا بالإجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين

---

(١) الصحيح فيها نفسا ، لوقوعها غمييزا . المحقق .

يعدونهم من أنصار الباشا . فسلم الباشا لهم بما أرادوا ، فلم يقتنعوا بذلك . فكتبوا إلى الأستانة يشكون من سوء تصرفه ، ووافقهم كثيرون من الأعيان . فكتب إليه الباب العالي رأساً ما مفاده : «أن الحضرة السلطانية لم تعلم أسباب الثورة الجهادية التى انتشبت فى «مصر» وتتعجب كيف أن الباشا لم يبلغ الباب العالى خبرها» .

فأجاب الباشا أنه لم يحصل لديه ما يُدعى ثورة ، وإنما هناك بعض الاختلافات التى يرجوا إصلاحها بالتى هى أحسن ، ولذلك لم يكن ثمة حاجة إلى إطلاعها .

فطلب إليه الباب العالى أن يتحرى ، ويعاقب المعتدين ، ويصرّف الأمر بما يتراءى له .

ومع ذلك اضطر إلى الإذعان ، لكنه أراد الفتك بالأمير «على بك» والأمير «ماماى بك» والدفتردار «شعبان بك» لعلمه أنهم زعماء تلك الثورة ، فأعدّ لهم كمينا ليقتلوهم فى الديوان ، وعين لذلك الإثنين فى ٢٣ الحجة سنة ١٠٥٤ هـ . لكن الدفتردار نزل إلى الديوان وحده فى ذلك اليوم ، فشاور الباشا عقله بين أن يفتك به وحده أو يخفى ما فى ضميره ريثما يفتك بالثلاثة معاً ، فأقّر أخيراً على إرجاء العمل إلى يوم آخر .

أيـوب بـاشــا وغيــره

وفى اليوم التالى جاء الفرمان بعزله ، وتولية الدفتردار «شعبان بك» قائمقاماً يتعاطى الأحكام وقتياً ، فشق ذلك على الباشا ، لكنه أذعن وسلم مقاليد الأحكام «لشعبان بك» ، فكتب السناجق إلى الباب العالى يطلعونه على حقيقة ما حصل فى أيام الباشا السابق ، ويطلبون إليه الإسراع فى إرسال من يخلفه ، فأنفذ إليهم «أيوب باشا» . وكان قبلاً من رجال القصر الشاهانى «المابين»(١) .

فلما عهدت إليه هذه الولاية تردد فى قبولها لما رأى من الأخطار المحدقة بها ، لكنه لم ير بدأ من قبولها .

وكان رجـلا حازماً مستقيمـا ، استعــان برجـاله عـلى إدارة الأعمال ، فلم تمض سنتــان على حـكمه حتى استتب النظام ، وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد أن صار وزيرا ، وعكف على العبادة واعتزل السياسة ، وزهد زهد الدراويش ، فتنازل عن أملاكه فى الأستانة للدائرة الخاصة الهمايونية وانفرد فى أحد المعابد فى الروملى . تولى مكانه الوزير

---

(١) المابين : كلمة عربية استخدمها العثمانيون للدلالة على البلاط السلطانى . المحقق.

«محمد باشا حيدر» سنتين ونصف ، ولم يحسن الإدارة فارتبكت الأحوال .

وفى ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الإنكشارية فى مصر القديمة ، فهددهم والى الشرطة فأزدادوا تمرداً ، فساروا إلى الباشا ، وطلبوا قتل ذلك الوالى (المحافظ) ولم يكن ذنبه إلا أنه قام بما عليه ، فوافقهم الباشا على ما أرادوا .

أما الوالى فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا ، قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد ، فخاف أن تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالى ، فتعود العاقبة وبالاً عليه ، فاجتمع «بقنسو بك» واستشاره بما يفعل . وكان هذا لا يشير إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية ، فأشار على الباشا أن يرفع إلى الأستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من القلاقل ، وينسبها جميعها إلى الأميـرين «رضوان بك» و «على بك» وينسب إليهما أيضا اختلاس الخزينة المصرية ، وأنهما سلباه منصب أمير الحج وحكومة «جرجا» – كل ذلك لكى يرجع «قنسو بك» . و «ماماى بك» إلى منصبهما .

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير ، وطلب إلى بعض الأعيان أن يوقعوا عليه ، فبلغ ذلك مسامع «رضوان بك» ، فأسرع إلى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا ، وبعث به إلى الأستانة ، فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيات ضد «قنسو بك» و «ماماى بك» ، فورد الجواب من الأستانة مفوضاً إلى «رضوان بك» و «على بك» أمر النظر فى تلك القضية .

وفى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٠٥٧ هـ ، ورد الفرمان بذلك إلى الباشا . وفى ٢٧ منه ، استدعاهما الباشا إلى القلعة ، فاستدعيا «قنسو بك» و «ماماى بك» وأمرا بقتلهما ، وقتل أمراء آخرين كانوا على دعوتهما .

ولم تكد تتخلص «مصر » من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس «مصطفى كخيا» الملقب «بالششنير» ، لأنه لم يسم سنجقاً عوضاً من «قنسو بك» .

وفى ٨ رمضان من تلك السنة ، وردت الأوامر إلى «على بك» أن يترك القاهرة ويتوجه حالاً إلى حكومته فى جرجا . وبعد ثلاثة أيام استدعى الباشا «رضوان بك» إلى وليمة فى القلعة ، فخاف من دسيسته ، فأبى الحضور ، فغضب عليه الباشا وخلعه

عن إمارة الحج ، فخرج «رضوان بك» من القاهرة فى ٢٠٠ من رجاله ، وفيهم عدة من الأمراء والكشاف ، واتحّد مع «على بك» ، فبعث الباشا على اثرهما ألفين من جنوده ، ونحو خمسمائه من الإنكشارية ، فاجتمع الجند فى «الرميلة» وأقروا على إغفال أوامر الباشا . ثم وردت الأوامر من الأستانة بتثبيت «رضوان بك» و «على بك» فى منصبيهما . فاضطر الباشا إلى استقدام الأميرين، فقدما إلى القاهرة فى ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق ، فسعى إلى مصلحتهما مع «مصطفى كخيا» .

وفى ٦ الحجة من تلك السنة ، شاع فى القاهرة أن الوزير «مصطفى باشا» سمِى على «مصر» عوضاً عن «محمد باشا حيدر» . وفى ٢٦ منه ، وردت الأوامر قاضية بإعادة «محمد باشا» إلى منصبه . وفى تلك السنة ، توفى السلطان إبراهيم .

١٠ - سلطنة محمد بن إبراهيم

من سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٩ ، ومن ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م

تولى هذا السلطان العرش العثمانى وهو طفل ، فوقعت الفوضى فى المملكة العثمانية ، وأصبحت الجنود لا ترحم كبيراً ولا صغيراً ، وصارت الحالة إلى أتعس مما كانت عليه قبل «مراد الرابع» حتى تزعزعت أركان الدولة وطمعت الدول الأوربية فيها . وتكاثرت الثورات الداخلية تارة من الإنكشارية ، وآونة من السياه، وأخرى من الولاة أو الأهالى ، ولكن الله قيّض لها وزيرا عاقلاً حكيماً هو «محمد باشا كوبريلى» فتولى الصدارة سنة ١٠٦٧ ، ففتك بالإنكشارية وأذلهم وأخضعهم ، ولهذا الرجل أياد بيضاء على الدولة ، فإنه حفظها من الانحلال فى تلك الأزمة . وانتهت سلطنة هذا السلطان بالخلع .

أما فى «مصر» لما تولى السلطان محمد المذكور ، عزل «محمد باشا» واليها ، وولى الوزير أحمد «باشا» فاستلم زمام الأحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلاقل ، وأول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ بسبب تقصير النيل ، فإنه لم يرتفع تلك السنة أكثر من ١٦ ذراعاً . فلم يرتو من أرض الصعيد إلا الثلث . أما

الوجه البحرى فلم يرتو منه شىء تقريباً ، فغلت الأسعار حتى خيف المجاعة .

أما الباشا فلم يكن يهمه غير تكثير الضرائب مع أنه لم يكن يرسل منها إلى الأستانة إلا الثلثين . وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ فى عهده «رضوان بك» ليحمل الباب العالى على الشك بأمانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اتماماً لمكيدته يكتب إلى الباب العالى على التتابع يشكو من تصرف «رضوان بك» ويطلب خلعه عن إمارة الحج ، وتقليدها لعلى بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع «رضوان بك» لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا .

أما الباشا فكان فى نيته أن يوقع الضغائن بين الأميرين ، فيحل عرى اتحادهما ، لكنه لم يتم مقصده حتى أتى الأمر العالى بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ و «رضوان بك» لم يرجع إلى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعى « أحمد باشا » إلا زيادة تآلف قلبى ذينك الأميرين . وكان من كرم أخلاقهما أن كلاً منهما كان يتنازل للآخر عن إمارة الحج فأعجبت هذه الأريحية المصريين، فأحبوهما وبالغوا فى احترامهما حتى أقاموا لهما دعاءً عمومياً

فى «الرميلة» . والباشا إذ ذاك محبوس فى القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة .

فتولى مكانه الوزير «عبد الرحمن باشا» ومازال إلى أول شوال سنة ١٠٦٢ هـ ، وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والإهانة لأنه سار على خطواته فاختار الباب العالى الوزير «محمد باشا» ليقوم مقامه فى ٥ شوال من تلك السنة ، ولكنه لم يدخل القاهرة إلا فى ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ .

وما زالت الولاة تتوالى على «مصر» ولا شىء من أعمالهم وأحوالهم يستحق الذكر . وفى آخر الأمر تحول النفوذ من أيديهم إلى أيدى البكوات المماليك وهم يعدون مصر وطنهم ، ويغارون عليها . أما الباشوات إذا أتوا «مصر» لا يكون ديدنهم إلا اكتساب الثروة بأية طريقة كانت لعلم كل منهم أنه لا يلبث أن يأتيه الأمر بالعزل ، وقلما عزل أحدهم ولم يكن السجن مأواه .

١١ -١٣ : سلطنـة ثلاثـة سلاطـين
«سليمـان بن إبراهيـم» و «أحمـد بن إبراهيـم»
و «مصطفـى بـن محمـد»
من سنة ١٠٩٩ - ١١١٥ هـ (ومن ١٦٨٧ - ١٧٠٣ م)

توالى على العرش العثمانى فى ست عشرة سنة ثلاثة سلاطين ، ويدل ذلك طبعاً على ارتباك أحوال الدولة . فلما خلع السلطان «محمد الرابع» أودع السجن حتى مات سنة ١١٠٥ هـ ، وبويع السلطان «سليمان الثانى» . وبعد ٣ سنوات توفى ، فبويع السلطان «أحمد بن إبراهيم» وتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، فبويع السلطان «مصطفى الثانى بن محمد الرابع» وبعد تسع سنوات أقيل سنة ١١١٥ ، وتوفى سنة ١١١٩ هـ .

وتوالى على «مصر» فى أثناء هذه المدة نحو عشرين والياً أغضيتُ عن ذكرهم ، لعدم أهميتهم ، ولأن النفوذ انتقل منهم إلى الأمراء المماليك ، وصار هؤلاء أصحاب الحل والعقد ، وبهذه السلطة ينقضي الدور الأول من سيادة الدولة العثمانية على مصر، ويبدأ الدور الثانى .

العلم والأدب

ومشاهير العلماء والأدباء في مصر

الدور الأول من : العصر العثماني

من ٩٢٣- ١١١٥هـ

يجدر بنا بعد الإتيان على تاريخ مصر السياسى فى الدول من سيادة الدولة العثمانية ، أن نأتى بفذلكة عن حالة مصر العلمية والأدبية فى ذلك الدور .

يعد هذا الدور فى تاريخ آداب اللغة العربية من عصر الانحطاط أو التقهقر ، لذهاب دولة العرب ، واستبداد سواهم فى السيادة [١] ، وانغماس القوم فى الجهل ، ولولا القرآن لذهبت اللغة العربية برمتها .

وكانت الدول الإسلامية غير العربية قبل الدولة العثمانية كالبويهيين ، والسلاجقة ، والطولونيين ، والأتابكة ، والأيوبيين يجعلون اللغة العربية لغتهم الرسمية للمخاطبات والمكاتبات ، فتبقى

---

(١) هذه نظرة المؤلف للتاريخ الإسلامى ، وهى خاصة به .

ببقاء السياسة . أما العثمانيون فأهملوا هذه اللغة [١] ، وجعلوا اللغة التركية لغتهم الرسمية .

وزد على ذلك ما رافق الفتح العثمانى أو حواليه من الأسباب التى بعثت على تقهقر هذا القطر على الخصوص ، وذلك أن أهل أوربا اكتشفوا فى أثناء ذلك طرقا تجارية بحرية مثل : رأس الرجاء وغيره أغنت التجار عن إرسال تجارتهم مع الشرق الأقصى ذهاباً وإياباً عن طريق مصر وانصرفت همم العالم المتمدن فى الجهة الأخرى إلى العالم الجديد وغيره بعد اكتشافها ، والمصريون يومئذ لا يعلمون شيئا عن تلك الاكتشافات ، فكان هذا كله باعثاً على إهمال مصر وانحطاطها سياسيا واجتماعياً واقتصاديا ، ويتبع ذلك طبعاً انحطاطها العلمى والأدبى [٢] .

وناهيك بفساد الأحكام ، ومطامع الولاة وتسابقهم فى ظلم الرعية ، وسلب أموالهم ، مما يشغل الإنسان بنفسه عن طلب العلم أو التبحر فيه .

---

(١) لم يهمل العثمانيون اللغة العربية ، بل اكرموا هذه اللغة واعلوا قدرها ، انظر فى ذلك : اللغة العربية فى الدولة العثمانية ص ٤٢٧ فى كتابنا «العثمانيون فى التاريخ والحضارة» ، دمشق ١٩٨٩ م .

(٢) ناقش الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى هذه الفكرة فى كتابه حركات التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث . القاهرة ١٩٧١ .

وعليه فكان ينتظر أن تموت اللغة العربية ، ونعنى بموتها ضعف شأنها بالآداب والعلوم ، وإنما استبقاها الإسلام لإضطرار أصحابه إلى تعلُّم هذه اللغة واختلاط الأمراء المماليك بالوطنيين وتعلم لسانهم .

وقد ساعد على إحياء آداب اللغة فى تلك الفترة المظلمة أن بعض ولاة ذلك الدور كان فيهم ميل العلم والعلماء . أشهرهم «إسكندر باشا الشركسى» تولى مصر سنة ٩٧٦ هـ - فقد تقدم أنه كان شديد الميل كثير التعلق بالعلم وذويه ، «وحسين باشا» - تولاها سنة ٩٨٠ هـ - ، وشيد «محمد باشا» - سنة ١٠٠٤ هـ فإنه كان ينشط العلم والأدب . وكذلك «محمد باشا الصوفى» وأهمهم وأقدمهم «داود باشا» - تولى مصر سنة ٩٤٥ ، ومازال عليها أكثر من ١١ سنة - وكان محبا للعلماء شديد الرغبة فى المطالعة واقتناء الكتب ، ينفق فى سبيل استنساخها أو ابتياعها الأموال الطائلة ، فجمع مكتبة نفيسة . ومنهم «جعفر باشا» . و «بيرام باشا» وقد ذكرناهم فى اماكنهم فى هذا الكتاب .

فبالنظر إلى ذلك ، ظلت آداب اللغة العربية حية لكنها انحصرت بالأكثر فى كتب الفقه ، والدين ، أو جمع الأدب والشعر حتى أشعارهم أكثرها فى مدح النبى وأكثر المؤلفات الفقهية

شروح وحواش . وراج من ضروب الفقه على الخصوص الفقه الحنفى ، لأنه مذهب الدولة العثمانية ، والفقه الشافعى لأنه مذهب المصريين .

وكان الأزهر فى تلك المدة مبعث نور العلم ، والمدرسة العامة للعلم الإسلامى ، وأكثر مشاهير العلماء كانوا من طلبته . وكان الطلاب يقصدونه من اقاصى العالم ، وله فضل كبير فى استيفاء أصول العلوم التى كانت رائجة فى ذلك العصر ، وأكثر نوابغ مصر فى الدور الذى نحن فى صدده من تلاميذه ، وسنأتى بشذرات من تراجم مشاهير ذلك الدور ، ونرتبهم حسب المواضيع مع مراعاة سنى الوفاة – ما بين سنة ٩٢٣ و ١١١٥ هـ – ولذلك كان بعض هؤلاء عاصر السلاطين المماليك ، وإنما توفى فى عهد الدولة العثمانية .

قبل التقدم إلى الكلام عن هؤلاء نذكر عالماً هو إمام العلماء فى القرن التاسع للهجرة نعنى «جلال الدين السيوطى» ، توفى قبل الفتح العثمانى بإثنتى عشرة سنة (٩١١ هـ) . وكان علماً كثير التأليف والتعليم ، ألف فى كل موضوع حتى زادت كتبه على بضع مئات ، وتخرج عليه كثيرون ومنهم جماعة سيأتى ذكرهم فى جملة نوابغ العصر العباسى [١] الذى نحن فيه .

(١) يقصد المؤلف هنا العصر العثمانى وليس العباسى كما كتب .

وبما أننا سنقتصر فى ما يلى على الذين اشتهروا من المصريين دون سواهم فيشق علينا تحديد المراد بالمصرى فى هذا الباب ، لأننا نعرف جماعة كبيرة ولدوا خارج مصر ثم جاءوها فتعلموا فى أزهرها ، وتوطنوها وألفوا الكتب فيها فهؤلاء نعدهم من النابغين في مصر ، ونذكر أخبارهم ونشير إلى أهم مؤلفاتهم ، وهل طبعت ؟ وأين يوجد الخطية منها ؟

١ - الشعراء والأدباء

١ - «عائشة الباعونية»

عاشت بمصر نحو سنة ٩٢٩هـ ، لها أشعار فى مدح النبى سمتها : «الفتح المبين فى مدح الأمين» منها نسخ خطية فى مكاتب برلين والمتحف البريطانى .

٢ - «قنسو بن صادق»

من تلامذة «جلال الدين السيوطى» المتقدم ذكره ، نبغ فى أواسط القرن العاشر ، ومن مؤلفاته : «السحر الحلال من إبداع الجلال» فى شكل المقامات ، منه نسخة خطية المكتب الهندى بلندن .

وكتاب «مراتع الألباب فى مرابع الآداب» شعر . منه نسخة فى المتحف البريطانى .

٣ – «زين الدين الحميدى» :

كان طبيباً بمصر ، توفى سنة ١٠٠٥ هـ ، وله ديوان فى مدح النبى سماه «الدر المنظم فى مدح الحبيب الأعظم» طبع فى بولاق سنة ١٢١٣ . و «وتمليح البديع لمديح الشفيع» منه نسخ خطية فى مكاتب أوربا . ومنظومة فى الجناس ، منها نسخة فى مكتبة برلين .

٤ – عبد الباقى الاسحاقى المنوفى :

توفى سنة ١٠٦٠ هـ فى منوف ، وله ديوان «سُلاف الإنشاء فى الشعر والإنشاء » . منه نسخة خطية فى مكتبة فيينا .

٥ – «يوسف عبد الجواد الشربينى»

عاش نحو ١٠٩٨ هـ ، له كتاب :«هز القحوف» طبع بمصر والإسكندرية مراراً .

٢ – المؤرخون ونحوهم

١ – «أبو البركات ابن إياس العامرى الشركسى» .

هو من تلامذة السيوطى ، توفى سنة ٩٣٠ هـ ، من مؤلفاته :

١ – كتاب «مرج الزهور فى وقائع الدهور» ، وهو تاريخ عام ، منه نسخ خطية فى فيينا وباريس وغوطاً .

٢ - كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وهو خاص بتاريخ مصر إلى سنة ٩٢٨ هـ مرتب على الأيام والسنين نحو كتاب «الجبرتى» ، وقد شهد فتح العثمانيين مصر بنفسه ، ووصفه. طبع فى القاهرة سنة ١٣٠١ وفى بولاق سنة ١٣١١ .

٣ - «مشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وهو يتعلق بالنجوم - منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى أكثر مكاتب أوربا .

٤ - «نزهة الأمم فى العجائب والحكم» ، منه نسخة خطية فى مكتبة ايا صوفيا بالأستانة (١) .

٢ - «أبو العباس بن عبد السلام شهاب الدين المنوفى الشافعى» ، توفى سنة ٩٣١ ، تعلم فى القاهرة ، وتولى القضاء فى بلده «منوف» وله كتاب : «الفيض المديد فى أخبار النيل السديد» ، منه نسخة خطية فى مكتبة مرسيليا . وكتاب «البدر الطالع فى الضوء اللامع» ، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٣ - «محمد بن على الداودى» : من تلامذة «السيوطى» ،

---

(١) لم يأت جرجى زيدان على ذكر كل أعمال ابن إياس ، لأن له سبعة كتب ، لم يذكر منها هنا إلا ثلاثة . انظر بيلوجرافيا بأعمال ابن إياس ومخطوطاته فى : محمد حرب ، حملة السلطان سليم الأول على مصر والشام (باللغة التركية) ص ٥٢ ، استانبول ١٩٨٦ م .

توفى سنة ٩٤٥ ، له كتاب طبقات المفسرين منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - أحمد بن على بن نورالدين المحلى «المعروف» «بابن زنبل الرمَّال» .

عاش نحو سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب فى تاريخ أخذ مصر من الشراكسة» أى فتح السلطان «سليم» مصر . منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب فيينا وباريس وليدن ومنشن [١] . وكتاب ، «تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب» هو كتاب جغرافى منه نسخة خطية فى مكتبة اكسفورد. وكتاب «المقالات فى حل المشكلات» . منه نسخة فى المكتبة الخديوية . وكتاب «القانون فى الدنيا» بالنجامة .

٥ - «بدر الدين المنهاجى» - خطيب مسجد السيدة نفيسة :

توفى سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب «البدور السافرة فى من ولى القاهرة» ، وهى أرجوزة تشتمل على ولاة مصر من الفتح إلى سنة ٩٥٦ هـ ، منها نسخة خطية فى مكتبة فيينا . وكتاب «النجوم الزاهرة» فى ولاة القاهرة إلى سنة ٩٦١ ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية وأخرى فى مكتبة برلين .

---

(١) يقصد ميونخ .

٦ - «عبد الواحد البرجمى» :

توفى سنة ١٠١٧ ، له كتاب «الرياض الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة» ، منه نسخة في مكتبة الجزائر .

٧ - «محمد بن عبد المعطى الإسحاقى المنوفى» :

كتب نحو سنة ١٠٣٢ هـ له :

١ - كتاب «الروض الباسم فى أخبار من مضى من العوالم» وهو مختصر تاريخ الإسلام من ظهوره إلى دولة الأمويين، فالعباسيين ، فالفاطميين ، فالأيوبيين ، وتاريخ مصر إلى سنة ١٠٣٢ ، منه نسخ خطية في مكاتب باريس والمتحف البريطانى ، وأحسبه طبع .

٢ - كتاب «لطائف أخبار الأول فى من تصرف بمصر من الدول» طبع بمصر مراراً .

٨ - «عبد الكريم أفندى بن سنان» :

توفى سنة ١٠٤٥ ، كان قاضياً فى حلب وجاء مصر . له كتاب «تراجم كبار العلماء والوزراء» ، منه نسخة خطية فى مكتبة فيينا .

٩ - «سعد الدين الغمرى» :

كتب سنة ١٠٥٠ هـ ، له كتاب «ذخيرات الأعلام بتاريخ

أمراء مصر في الإسلام» ، منه نسخة خطية فى برلين ، وغوطا ، وباريس .

١٠ - شمس الدين بن أبى السرور البكرى الصديقى المصرى، : توفى سنة ١٠٦٠ هـ ، لـه :

١ - كتاب «التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية» منه نسخة خطية فى فيينا وغيرها .

٢ - كتاب «الروضة الزهية فى ولاة مصر القاهرة المعزية» من أقدم الزمان إلى سنة ١٠٣٥ هـ ، منها نسخ خطية فى «غوطاً» و «أكسفورد» .

٣ - كتاب «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة» إلى سنة ١٠٥٣ هـ منه نسخ خطية فى مكاتب منشن والمتحف البريطانى وباريس .

٤ - كتاب «دور المعالى الغالية» منه نسخة خطية فى مكتبة نور عثمانية بالأستانة .

١١ - «إبراهيم بن أبى بكر الصالحى العوفى» :

توفى سنة ١٠٧١ هـ ، له كتاب «تراجم الصواعق فى واقعات السناجق» وهو تراجم سناجق مصر - أى أغواتها وأمرائها . ومنه نسخة خطية فى مكاتب منشن وباريس .

١٢ - «عبد القادر الفيومى العوفى الحنفى»

ولد فى القاهرة ، وتعلم فيها وفى حلب ودمشق والأستانة . ثم تعين قاضياً على القاهرة . ثم عاد إلى الأستانة وغيرها ، وتوفى أخيرا فى الأستانة سنة ١٠٧١ . له كتاب «التذكرة» و «بلوغ الأرب» و «السؤول للتشوق بذكر نسب الرسول» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وغيرها ، وله كتاب «نفائس اللؤلؤ والمرجان فى إعراب محلات من سورة آل عمران» .

٣ - اللغويون

١ - «أبو بكر الشنوانى» :

تعلم فى القاهرة ، وتوفى فى سنة ١٠١٩ هـ ، وله كتاب «جلية أهل الكمال بأجوبة أسئلة الجلال» - يعنى «جلال الدين السيوطى» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «شهاب الدين الخفاجى» :

توفى سنة ١٠٦٩ هـ ، ولد فى سرياقوس بضواحى القاهرة ، وتعلم على عمه «الشنوانى» - المتقدم ذكره - ثم جاء القاهرة ورحل إلى الأستانة وسلانيك ، وعينه السلطان «مراد» قاضياً للعسكر فى مصر فجاءها . ثم نقل منها إلى «دمشق»

وحلب فالأستانة حتى توفى . وقد ترجم نفسه فى ذيل كتابه «ريحانة الألباء» - الآتى ذكره - .

وأما كتبه فمنها :

١ - منظومات كثيرة متفرقة منها جانب فى نسخة خطية بالمكتبة الخديوية .

٢ - كتاب «هدايا الزوايا فى ما الرجال من البقايا» وهو تراجم العلماء من معاصريه وأساتذة أبيه فى الشام والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية، ومثلها فى برلين وغوطا وفيينا وبطرسبورج والأستانة وغيرها .

٣ - كتاب «ريحانة الألباء ونزهة الحياة الدنيا» وهو من كتب الأدب جمع فيه أشعاراً وأخباراً و انتقادات وملاحظات مفيدة وقد طبع بمصر مراراً .

٤ - كتاب «طراز المجالس» فى كتب الأدب ، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٤ .

٥ - «شفاء الغليل فى ما فى كلام العرب من الدخيل» ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ وغيرها .

٦ - شرح درة الغواص ، منها نسخة فى مكتبة أكسفورد.

٧ - شرح كتاب الشفاء فيها .

٨ - حاشية على البيضاوى فيها أيضا .

٤ - المحـدثـون

١ - «شمس الدين الدمشقى الفالحى» :

توفى فى البرقوقية بالقاهرة سنة ٩٤٢ هـ ، له :

١ - كتاب «سبل الهدى والإرشاد فى سيرة خير العباد» وتعرف «بالسيرة الشامية» ، وهى مشهورة ، ومنها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وأحسبه طبع .

٢ - كتاب «الآيات العظيمة الباهرة فى معراج سيد أهل الدنيا والآخرة» منه نسخة خطية فى مكتبة ليدن .

٣ - «عقود الجمان فى مناقب الإمام أبى حنيفة النعمان» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى فيينا وآياصوفيا .

٤ - كتاب «مطلع النور فى فضل الطور وقمع المعتدى الكفور» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٥ - كتاب «الفضل المبين فى الصبر عند فقد البنات والبنين» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «عبد الرءوف المناوى الشافعى» :

توفى سنة ١٠٣١ هـ ، ولد فى القاهرة ، ونشأ فى حجر والده ،

ودرس العلوم الإسلامية ، خصوصاً التصوف ، والحديث ، وأخذ طريقة الخلوتية وطرقاً أخرى ، وتولى التدريس فى المدرسة الصالحية ، وكثر حساده ، والطاعنون عليه ، واعتل وقاسى آلاماً شديدة حتى مات . له مؤلفات كثيرة نذكر الباقى منها :

١ - «كنوز الحقيقة فى حديث خير الخليقة» مرتب على الأبجدية وفيه نحو ١٠,٠٠٠ حديث . طبع فى بولاق سنة ١٢٨٦ وفى القاهرة ١٣٠٥ ، وله مختصرات .

٢ - «الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٣ - «الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - النزهة الزاهية فى أحكام المحاكم الشرعية ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ - «تيسير الوقوف على غوامض الحكام والوقوف ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وله غير ذلك كتب كثيرة لا محل لذكرها آثارها موجودة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «على بن إبراهيم نور الدين الحلبى القاهرى» صاحب

السيره الحلبية . ولد فى القاهرة وتوفى بالصالحية سنة ١٠٤٤ هـ، أشهر مؤلفاته

١ - كتاب «إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون» المشهور بالسيرة الحلبية ، وقد طبع فى ثلاثة مجلدات ضخمة .

٢ - «النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية» (أحمد البدوى) ، منه نسخة خطية فى مكتبة باريس .

٣ - «عقد المرجان فى ما يتعلق بالجان» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - «عبد السلام اللقانى» المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ تثقف على أبيه وورثه فى التدريس بالأزهر ، ومن مؤلفاته «كتاب ترويح الفؤاد بمولد خير العباد» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

المحدثون كثيرون فى هذا الدور ، يضيق المقام عن ذكرهم فننتقدم إلى الفقهاء .

٥ - الفقهـــاء

الفقـــه الحنفـى

١ - «زين العابدين بن نجيم المصرى» المتوفى سنة ٩٧٠هـ وله من المؤلفات :

١ - كتاب الأشباه والنظائر ، وهو موجود فى كل المكاتب بأوربا وغيرها ، وطبع فى الهند سنة ١٢٤١ .

٢ - الفتاوى الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - الفوائد الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى مكتبة آيا صوفيا .

٤ - الخير الباقى فى جواز الوضوء فى الفساقى ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . وله كتب ورسائل أخرى فى المكتبة الخديوية وسائر المكاتب .

٢ - «شهاب الدين التمرتاشى الغُزى»

درس فى غزة ، ثم فى القاهرة حتى توفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وله :

١ - «تنوير الأبصار وجامع البحار» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى أكثر مكاتب أوربا والهند والأستانة . وله شروح عديدة لا محل لذكرها .

٢ - «عمدة الحكام» منه نسخة فى برلين .

٣ - «الوافى فى الأصول» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - «تحفة الأقران» أرجوزة مشروحة ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ - «عقد الجواهر النيرات فى بيان خصائص الكرام العشرة الثقات» منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٦ - «الفتـاوى» ، فيه أيضا .

٣ - «على بن محمد بن على بن غانم المقدسى الخزرجى نور الدين» :

ولد فى القاهرة سنة ٩٢٠ وتوفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وتولى التدريس في الأزهر ، وله مؤلفات عديدة بقى منها خمسة أكثرها في الحديث ؛ موجودة فى المكتبة الخديوية خطية .

٤ - «أبو الإخلاص المصرى الشرنبلالى» :

من أكابر أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٦٩ ، وخلف مؤلفات كثيرة فى الفقه الحنفى ، بقى منها ١٦ مؤلف [١] أكثرها خطى ، ومنه أمثلة فى المكتبة الخديوية يطول بنا تعدادها ووصفها، فإن ذلك من شأن تاريخ آداب اللغة العربية ، وإنما أردنا هنا أن نأتى بأمثلة فى حال العلم فى العصر العثمانى .

٥ - «عمر الدفرى بن عمر الزهرى الأزهرى» :

وهو أيضا من أساتيذ الأزهر ، توفى سنة ١٠٧٩ هـ وله

(١) هكذا فى الأصل والصحيح فيه «مؤلفا» .

بضع مؤلفات ، منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية وكلها فى الفقه الحنفى .

٦ - ومثله «إبراهيم بن سليمان الأزهرى» المتوفى سنة ١١٠٠ هـ ، وغيره .

الفقه المالكى

١ - «ابن جبريل المنوفى المصرى الشاذلى» :

توفى سنة ٩٤٩ هـ ، وله كتاب «المناسك» و «تحفة المصلحين» على مذهب الإمام مالك ، وكلاهما فى المكتبة الخديوية .

٢ - «بدر الدين القرافى المصرى المالكى» :

توفى سنة ١٠٠٨ ، له رسائل فى المذهب المالكى تزيد على ست ، كلها موجودة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «أبو النور المالكى» :

وهو أيضا من علماء المالكية الذين خلفوا أثاراً ، توفى سنة [١] .

٤ - «برهان الدين اللقانى المالكى» :

من أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٤١ هـ ، خلف مؤلفات عديدة بقى منها ستة :

(١) هكذا فى الأصل ، وهى ٩٢٦ هـ .

١ - جوهرة التوحيد ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى أهم مكاتب أوربا ، لها شروح عديدة بعضها مطبوع فى القاهرة .

٢ - الفصول فى الفقه .

٣ - نصيحة الأصول .

٤ - مقدمة فى العشق .

٥ - شرح الشمايل وكلها منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية .

٥ - «نور الدين الأجهورى» :

ولد فى أجهور شمالى القاهرة سنة ٩٦٧ ، وتوفى سنة ١٠٦٦ هـ ، وكان شيخ المالكية في الأزهر، وخلف عدة مؤلفات بقى منها إلى الآن خمسة عشر، أكثرها موجود فى المكتبة الخديوية.

ومنهم أحمد الفيومى المتوفى سنة ١٠٨٤ ، صاحب «حسن السكوك فى معرفة آداب الملوك» . و «عبد الباقى الزرقانى» المتوفى سنة ١٠٩٩ ، صاحب شرح مختصر الخليل . وغيره . و «برهان الدين الشبراخيتى ، توفى سنة ١١٠٦ هـ ، صاحب شرح المختصر و «شرح الأربعين» ، وغيرهم .

الفقـــه الشافعـــى

١ - «زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى» :

هو أشهر أئمة الشافعية فى ذلك العصر . ولد فى سفيكة شرقى القاهرة ، وتعلم وتثقف حتى صار أستاذاً فى القاهرة . ثم صار كبير قضاة الشافعية . وتوفى سنة ٩٢٦ هـ . وكان ثقة علامة، خلف مؤلفات يزيد عددها على ٣٥ كتاباً أكثرها لا يزال محفوظاً خطياً فى المكاتب الشهيرة فى العالم المتمدن ، وجانب كبير منها فى المكتبة الخديوية ككتاب «اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم» وكتاب «المعضد لتخلص ما فى المرشد فى الوقف والابتداء» ، و «فتح الرحمان بكشـف مـا يلبـس القـرآن» و «فتح الجليل ببيان خافى أنوار التنزيل للبيضاوى» و « منهاج الطلاب فى الفقه» ، وغيرها كثير ، وهى فضلاً عن وجودها فى المكتبة الخديوية ، توجد أيضا فى أهم مكاتب أوربا .

٢ - «شهاب الدين الرملى الأنصارى» :

المتوفى سنة ٩٥٧ هـ ، وهو من أساتذة الأزهر ، وله الفتاوى المعروفة باسمه ، ومنها نسخة فى المكتبة الخديوية وله غيرها .

٣ – «شمس الدين الشربينى القاهرة [1] الخطيب» :

المتوفى سنة ٩٧٧ هـ ، له شرح «منهاج الطالبين» منه نسخة فى مكتبة برلين . «والسراج المنير» فى الإعانة على معرفة ربنا العليم الخبير» ، طبع فى القاهرة سنة ١٣١١ و «مناسك الحج» طبعت أيضا ، وغيرها .

٤ – «عبد الله بن بهاء الدين الشنشورى» :

من علماء الأزهر بالقاهرة ، توفى سنة ٩٩٩ هـ ، له عدة مؤلفات منها : «المختصر فى مصطلح أهل الأثر» له شروح . منها نسخ خطية فى مكتبة برلين وغوطا وباريس . «وقرة العين» و «الفوائد الشنشورية» و «اللؤلؤة السنية» وكلها موجود فى المكتبة الخديوية .

٥ – ومنهم «عمر الفارسكورى» المتوفى سنة ١٠١٨ هـ، و «على الشبرملى المتوفى» سنة ١٠٨٧ هـ ، و «عبد اللطيف البشبيشى» المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ ، و «إبراهيم البرماوى» الأستاذ بالأزهر ، توفى سنة ١١٠٦ ، وغيرهم ونجد من مؤلفاتهم أمثلة بالمكتبة الخديوية .

---

(١) هكذا فى الأصل .

الفقه الحنبلي

وظهر من الفقهاء الحنابلة بمصر في ذلك العصر : «إبراهيم الزيني الحنبلي» المتوفى سنة[1] . وله كتاب : «روض المربى» فى مناسك الحج – موجود فى المكتبة الخديوية ، واعتبر ذلك فى سائر علوم القرآن .

٦ - التصوف

وناهيك بالتصوف ، فقد نبغ فيه جماعة كبيرة بمصر ، منهم : «على الشونى» المتوفى سنة ٩٤٤ هـ . «وأبو المكارم البكرى الصديقى الأشعرى» توفى سنة ٩٥٢ هـ ، وله بضعة وعشرون مؤلفاً فى التصوف ، بعضها مطبوع والبعض الآخر موجود خطاً فى المكتبة الخديوية وغيرها .

وأشهر المتصوفة فى ذلك العصر :

«أبو المواهب عبد الوهاب الشعرانى الأنصارى» ، عاش عيشة الصوفية وتوفى سنة ٩٧٣ هـ ، وله مؤلفات تعد بالعشرات منها :

١ – «الدرر المنثورة فى بيان زبد العلوم المشهورة» ، وهى كالموسوعة فى القرآن وعلومه ، واللغة ، والنحو ، والمنطق ،

---

(١) هكذا فى الأصل .

والتصوف ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى مكاتب غوطا وبرلين .

٢ – «اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر» ، طبع فى القاهرة مراراً .

٣ – «فرائد القلائد فى علم العقائد» وغيره .

٤ – أشهرها كتاب «لوامع الأنوار» المعروف بطبقات الشعرانى ، طبع مراراً ، وغير هذه الكتب كثير لا محل لذكره .

ومنهم «كريم الدين الخلوتى» المتوفى سنة ٩٨٦ هـ و «أحمد بن عثمان الشرنوبى» توفى سنة ٩٩٤ هـ وأحمد بن محمد المتبولى المعيد فى المدرسة المؤيدية بالقاهرة توفى سنة ١٠٠٣ هـ . و «محمد الحجازى الجيزى» المتوفى سنة ١٠٠٣ . وقائد بن مبارك الإبيارى سنة ١٠١٦ . والبرلسى سنة ١٠٩٧ وغيرهم .

٧ – سائر العلوم

فنرى مما تقدم أن أكثر اشتغال أهل ذلك العصر بالعلوم الدينية ، من شرح أو تعليق ، أو اختصار أو نحوها ، على أنه نبغ فيهم غير واحد فى العلوم الأخرى : فمن المنجمين : «بدر الدين مسبط الماردينى» توفى سنة ٩٢٤ . وكان مؤقتاً فى الأزهر ، وله

عدة مؤلفات فى التوقيت ، منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية .
«وعبد القادر المنوفى» المتوفى سنة ٩٨٠ ، كان مؤقتاً فى مدرسة الغورية .

و«مصطفى بن شمس الدين الشركسى الدمياطى الخلوتى» المتوفى سنة ١٠٣٨ .

و «عبد الله المقدسى الأزهرى» سنة ١٠٧٠ هـ و «رضوان افندى الفلكى الرزاز» سكن بولاق وتوفى سنة ١١٢٢ وغيرهم .

ومن الأطباء فى ذلك العصر :

«مدين بن عبد الرحمن القوسونى» توفى سنة ١٠٤٤ هـ له كتاب «قاموس الأطباء» فى المفردات ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

و «شهاب الدين القليوبى» توفى سنة ١٠٦٩ م ، له كتاب المصابيح السنية فى طب البرية ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . و «تذكرة فى الطب» فيها أيضا ، وله كتب فى مواضيع طبية وغيرها يزيد عددها على بضعة عشر مؤلفاً . أكثرها موجود فى المكتبة الخديوية خطاً ، وبعضها مطبوع ، منها كتاب «نوادر القليوبى» طبع مراراً ، وكذلك «تحفة الراغب» وغيره .

ومن العلماء الأعلام فى كل فن وعلم :

«مرعى بن يوسف بن أبى بكر الكرمى زين الدين المقدسى» المعروف «بالشيخ مرعى» . ولد فى طول الكرم قرب نابلس ، وتلقى العلم فى القدس وفى القاهرة . استقر بالقاهرة أستاذا للفقه على مذهب الحنابلة فى جامع «ابن طولون» حتى توفى سنة ١٠٣٣ هـ . وله مؤلفات عديدة ، بقى منها ٢١ كتاباً بعضها طبع وانتشر ، والبعض الآخر لا يزال خطاً فى المكاتب الشهيرة . فما طبع من كتبه كتاب ، «بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات» طبع مراراً فى الأستانة وبولاق والقاهرة . وما لم يطبع كتاب «قلائد المرجان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن» ، منه نسخ خطية فى مكتبة برلين . وكتاب «الكلمات البينات» منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية ، وغيرها كثير لا محل له .

تلك خلاصة تراجم العلماء والأدباء والشعراء وأمثلة من مؤلفاتهم فى الدور الأول فى العصر العثمانى بمصر على قدر ما يسمح به المقام ، فلنعد [١] سياق التاريخ السياسى من الدور الثانى ، فما بعده .

---

(١) لعله نسى : حرف إلـى .

الـــدور الثـاني

من سيـادة الدولـة العثمانة علي مصـر

من سنة ١١١٥ - ١١١٧ هـ ومن ١٧٠٣ - ١٧٦٣ م

انتقـــال النفـــوذ إلـى المماليـــك

استغرق هذا الدور ٦٢ سنة تولى فى اثنائها على العرش العثمانى أربعة سلاطين ، ويمتاز عن الدور السابق أن النفوذ فيه تحول من الجند والباشا إلى البكوات المماليك ، وقبل التقدم إلى ذكر أخبار هذا الدور نمهد الكلام فى المماليك وسيادتهم .

قد علمت من النظام الذى وضعه السلطان سليم عند فتح مصر أنه جعل للأمراء الذين بقوا من دولة المماليك عميلاً يكون وسيلة للموازنة بين سلطة الباشا وقوة الجند لأن أولئك الأمراء كانوا أعداء لكلا الفريقين . فجعلهم حكاماً على الأقاليم وهى ١٢ إقليماً أو سنجقية (مديرية) (١) يتولى كلا منها أمير من المماليك

(١) الواقع ان العثمانيين قسموا مصر إلى أربع عشرة ولاية سبع منها فى كل وجه (بحرى - قبلى) انظر : حسين افندى الروزنامجى : ترتيب الديار المصرية نشر / شفيق غربال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨ - ١٨٠٠م) مجلة كلية الآداب المجلد الرابع جـ١ ، مايو سنة ١٩٣٦ ، الباب السادس السؤال الأول ص ٣٣ .

بلقب بك ، ولذلك عرف الأمراء المماليك أيضا بالبكوات المصرلية .
ومنهم أمير يتولى حكومة القاهرة كانوا يسمونه : «شيخ البلد» .
ومشيخة البلد منصب ضعيف في حد ذاته ، لكن الأحوال جعلته
أهم مناصب مصر . وكان الأمراء المماليك كعادتهم فى أيام
سلطنتهم يتوقون بالاستكثار من المماليك بالشراء . ومنهم تتألف
الأحزاب وينسب الحزب صاحبه [٢] أو زعيمه ، فيقولون مثلا :
المماليك القاسمية نسبة إلى : «قاسم بك» والرضوانية إلى رضوان
بك كما سترى .

وكانوا فى أول سلطنة العثمانيين قد أدهشهم الفتح وقنعوا
بالبقاء فى مناصب الحكومة . وكانت الدولة العثمانية شديدة ولها
هيبة .

فلما ذهبت هيبتها بتوالى الزمن – كما تقدم – اشتدت
سواعدهم ، وصاروا يحتقرون ولاتها ، ولا سيما بعد أن وقع
الخلاف بين الباشوات والجند وتداخلوا ، وجعل النفوذ يتحول إليهم
رويداً رويداً على مقتضى الأحوال حتى صار منصب شيخ البلد
أهم المناصب وصاحبه أعظم الأمراء ، وإليه يرجع الحل والعقد –
فلنعد إلى سياق التاريخ .

---

(١) هكذا فى الأصل ولعله نسى حرف إلى .

١ - سلطنة أحمد بن محمد

من سنة ١١١٥ - ١١٤٣ أو من ١٧٠٣ - ١٧٣٠

تولى السلطان أحمد المذكور وعمره بضع وثلاثون سنة . وكان حكيما ، فأنعم على الإنكشارية بالأموال وفوض إليهم قتل المفتى «فيض الله افندى» لأنه قاومهم فى أعمالهم فلما استقر الأمر وثبت قدمه فى الدولة ، اقتص من الإنكشارية ، فقتل منهم جمعاً كبيراً وعزل رئيسهم - الأغا - وولى عليهم ابن اخته الداماد «حسن باشا» . ولكن الدسائس غلبت على هذا التعيين فعزل وتولى غيره . وتكاثر عزل الصدور ، وشغلت الدولة بداخليتها عن خارجيتها ، ولم تنتبه لما كان يجربه «بطرس الأكبر» (١) ملك الروس فى بلاده ولا إلى سياسته فى خارجها ، وهى تقضى بإضعاف جيرانه حتى يبتلعهم . وكان قد أخذ بإخراج مشروعه إلى حيز العمل ، فحارب شارل الثانى ملك أسوج (٢) وغلبه .

وأفضت الوزارة إلى «محمد باشا البلطجى» فمال إلى إشهار الحرب على الروس وقاد الجيوش بنفسه . وبعد وقائع عديدة حصر العثمانيون إمبراطور الروس وامرأته ، ولو طال

(١) بطرس الأكبر : ١٦٧٢ م - ١٧٢٥ م .

(٢) هى السويد .

الحصار لغلبوا على امرهم وسلموا [1] ، ولكن «كاثرينا» زوجة الإمبراطور «بطرس» استمالت «البلطجى» المذكور ، وأغرته بالجواهر ، فأعطته كل ماكان معها منها ، فرفع الحصار واكتفى بمعاهدة لم تغن الدولة فتيلاً .

وتوالى الصدور ، وهم مختلفون ميلاً إلى الحرب أو السلم فكانت حال الدولة تختلف لاختلاف ذلك مما ليس هو محل الكلام عليه .

وفى عهد هذا السلطان ، دخلت الطباعة المملكة العثمانية ، وتأسست دار الطباعة فى الأستانة بفتوى من شيخ الإسلام تقضى أن لا يطبع القرآن بحروف الطباعة ، خوفاً من وقوع التحريف فيه ، وتولى على «مصر» سنة ١١١٩ «حسن باشا» والياً.

قاسم بك وذو الفقار بك
أو المماليك القاسمية والفقارية

أما مصر فصار النفوذ فيها إلى الأمراء المماليك - كما تقدم - وكانوا فى أيام هذا السلطان حزبين كبيرين يُعرفان بالمماليك «القاسمية» نسبة إلى «قاسم بك» و «الفقارية» إلى «ذى

(١) الصحيح لغلبا على أمرهما وسلما .

الفقار بك» وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة ، يحاول كل منهما اكتساب النفوذ دون الآخر .

اما أصل هذين الحزبين ففيه أقوال منها : أنهما ينسبان إلى أخوين هما : « قاسم بك» و «ذو الفقار بك» ولدى سودون أحد أمراء المماليك فى عهد السلطان «سليم الفاتح» وأن السلطان سليم هو الذى نشطهما ونشط أحزابهما .

وقد ذكر «الجبرتى» لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا إلى ذكرها .

وبعضهم يقول إن هذين الحزبين يُنسبان إلى «قاسم عيواظ بك» الدفتردار و «ذى الفقار بك الكبير» سنة ١٠٥٠ هـ (١) . وكان «قاسم عيواظ» رئيس الطائفة القاسمية ، وذو الفقار رئيس

(١) الصحيح ان الاسم الذى ذكرته المصادر المعاصرة هو قاسم بك الدفتردار الذى ينسبون إليه فرق القاسمية ، وذو الفقار بك رأس فرقة الفقارية . أما إضافة اسم عيواظ (عرض : كما تذكره الوثائق ولكنه ينطق عيواظ حسب لهجة الأتراك) فقد اوقع المؤلف فى خطأ تخطى معه فترة طويلة من تاريخ مصر العثمانى فقاسم بك الدفتردار حسب رواية الجبرتى كان سنة ١٠٥٠ هـ أما الخلط الذى وقع فيه المؤلف بين شخصية قاسم الدفتردار وشخصية بك مملوك قاسمى وهو عيواظ بك الذى قتل ابان ثورة إفرنج أحمد ١٧١١ م فليس هناك علاقة بين قاسم الدفتردار وعيواظ بك سوى إنهما قاسميان . المحقق .

الفقـارية . وكان لـكل مـن هـاتين الطـائفتين مناقب خاصـة بهـا .

«الفقـــاريــة» : كانت توصف بالكثـــرة والســخـــاء

و «القاسميــة» : بالثــروة والبــخل .

وشارية «الفقارية» : علم أبيض مزاريقه رمانة .

والقاسمية : علم أحمر .

وكانت هاتان الفئتان قبل تولى «حسن باشا» المتقدم ذكره. فى وفاق تام . فلما جاء خشى من اتحادهما فعمد إلى الدسائس ، فألقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً ، فكانوا يخرجون من القاهرة إلى مكان يعرف بقبة العزب يومياً ، ويأخذون فى الكفاح من شروق الشمس إلى غروبها ثم يعودون إلى القاهرة ، فيقضون الليل بسلام فى بيوتهم بين نسائهم وأولادهم ثم يعودون فى الصباح إلى المحاربة . ومن الغريب أن هذه المحاربات لم تؤثر فى الراحة العمومية مطلقاً ، فظلت الأشغال جارية فى مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة .

مشيخــة إسماعيل بـك

وانتهت تلك الوقائع بوفاة «قاسم عيواظ بك» فأسف عليه الناس ، وبكوه بكاءهم على حاكم عادل أو أب حنون بار . ولم يبق

صديق ولا عدو إلا بكاه ، لأنه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً باسلاً أبى النفس . فأقاموا ابنه «إسماعيل بك» مكانه «شيخ بلد» .

وقد تقدم أن مشيخة البلد منصب كان يتولاه أحد البكوات المماليك ، كما يتولون إدارة المديريات ؛ ويقابل محافظ القاهرة اليوم .

ولم يكن المنصب نفسه مُهما ، لكن تراخي الباشوات واستفحال أمر المماليك جعل لهذا المنصب أهمية كبرى حتى أفضى بتوالي الأيام إلى صاحبه ، وصار إليه الأمر والنهى - كما سترى .

ولما تولى السلطان «أحمد» كان على مشيخة البلد «قاسم عيواظ بك» - المتقدم ذكره - فلما مات ، خلفه ابنه «إسماعيل» وصادق الباشا على ذلك لظنه أن إسماعيل لصغر سنه ، يكون آلة في يده يديرها كيف شاء ، فازداد كدر «ذى الفقار بك» واشتد حنقه ، لأنه كان ينتظر أن يئول ذلك المنصب إليه .

وكان «إسماعيل» عاقلا حكيماً كوالده ، عارفاً وجه الربح والحق ، فسعى فى الوفاق مع طائفة الفقارية ، فاتحدت الطائفتان

على الباشا . وكان إسماعيل من الجهة الأخرى يظهر الطاعة والرضوخ لأحكام الباشا لأنه رئيسه ، لكنه لم ينفك ساعياً سراً فى خلعه ، فكتب عنه إلى الأستانة ففاز بعزله ، فجاء غيره ثم أبدل بآخر فآخر «وإسماعيل بك» فى منصبه يحبونه إلى ما يشبه العبادة .

ومما يحكى عنه أن أحد تجار القاهرة فى أيامه واسمه : «عثمان» باع لأحد القبقجية (لقب الحرس السلطانى) ثلاثمائة قفة بُن إلى أجل مسمى ، وكتب عليه بذلك صكاً . فقبل الاستحقاق جاء الاستانة إعلان بخيانة القبقجى والحكم عليه بالإعدام حالاً ، فجىء به إلى الباشا ، فقتله ، ووضع يده على تركته ، وفيها البن كما هو . فعلم «عثمان» التاجر بذلك ، فعرض لإسماعيل ما كان من أمر البُن فأجبر الباشا أن يرجع البن لصاحبه قبل كل شىء ، ففعل ، فأصبح «عثمان» فى حال من الامتنان لا يعرف كيف يبينها، فلاح له أن يهديه علبة مرصعة ، وبضعة قناطير من السكر النقى ، فرفض «إسماعيل بك» الهدية ، وخاطب عثمان التاجر قائلاً : «إذا كان المال الذى حصلت عليه بواسطتى حقاً لك، فأكون

قد فعلت الواجب على ، والله يكافئنى ، فإذا قبلت هديتك أظلم نفسى . أما إذا كان هذا المال ليس لك وإنما حصلت عليه بالخيانة فقبولى هديتك يعد مشاركة لك فى الخيانة . لكننى مع ذلك أقبل السكر الذى حملته إلى على أن تقبض ثمنه من وكيلى لأننى سآمره أن يدفعه إليك» .

ويحكي عنه أيضاً أنه كان يأدب فى ليالى رمضان مأدبات يجتمع إليها العلماء والفقهاء ومشائخ والقراء القرآن [1] ، ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء فى الحضور فيها . فرأى ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملامح الكآبة ، فأوصى بعض الخدم متى انفض الاجتماع ، أن يأتوا به إليه ، ففعلوا . فلما حضر بين يديه ، أعطاه مصحفاً ، وأمره أن يتلو عليه سورة . فتوقف الرجل وَجِلاً ، ثم ترامى على قدمى البيك متضرعاً وقال : «يعش سيدى البك إنى رجل نجار لا أعرف القراءة ، وإنما اتيت إلى هذه المأدبة متنكراً بثوب الفقهاء لأملأ جوفى من الطعام ، فإنى فى حالة من الفاقة شديدة» . فأنصفه . ولم يكتف بالإغضاء عن ذنبه لكنه جعله فى

---

(١) هكذا فى الأصل .

عداد خَدَمَته ، وجعل لعائلته راتباً معيناً وصار هذا النجار بعد ذلك من أصدق الخدمة وأكثرهم عزة وهمة [1] .

وما زال «إسماعيل» بك شيخاً للبلد ١٦ سنة ، تقلب فى أثنائها على «مصر» عدة باشوات كانوا إسماً بلا مسمى .

وكان لحسن سياسته قد أوقف الفقاريين عن كل حركة لتظاهره أنه على وفاق معهم ، فلم يترك لهم فرصة يتحدون بها عليه ، على أنه ارتكب خطأ واحداً آل إلى قتله . وذلك أن أحد المماليك الفقارية واسمه «ذو الفقار» أيضا كان له عقار يقوم بنفقات عائلته ، فاختلسه منه أحد المماليك القاسمية - من مماليك إسماعيل - ، فرفع «ذو الفقار» دعواه إلى شيخ البلد إسماعيل ، فلم يصغ لطلبه فرفع دعواه إلى زعيم الفقارية ، ويقال له «شركس بك» . وكان خصماً لإسماعيل بك بالفطرة ، فسار إلى الباشا وخاطبه بشأن تصرف إسماعيل . وكان فى قلب الباشا حزازات من الحسد عليه ، فوافقه على الإيقاع به ، ثم قال له :

«ليس لك وسيلة أفضل من أن تبعث أحد مماليكك وتأمره

---

(١) قصة : الرجل النجار الأمي مع إسماعيل بك اورد هذه القصة إسماعيل الخشاب فى مخطوطته (تاريخ المماليك فى القاهرة) محفوظ بدار الكتب المصرية (٢١٤٨ تاريخ طلعت) .

بقتله وأنا أجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لأتعابه» .

فوافقه على رأيه ، وعين لتلك الفعلة أول يوم يجتمع فيه الديوان ، وأمر مملوكه «ذو الفقار» أن يستعد لإجرائها ، فقبل اعتماداً على وعد الباشا. ففى اليوم المعين ، جاء «ذو الفقار» إلى الديوان وفيه «إسماعيل بك» فتقدم إليه وقبل يده قائلاً :

أرجو أن تأمر بإرجاع عقارى إلىّ . فأجابه «إسماعيل بك» سننظر في طلبك هذا . فألح عليه ، فانتهره ، فاستل خنجراً ماضياً بَقَر به بطنه ، فتدفقت أمعاؤه ، ومات ساعته فى وسط الديوان ، فهجم رجال الباشا ، وقتلوا كل من كان هناك من رجال إسماعيل ، ولم ينج منهم إلا سريع العدو . هكذا كانت نهاية حكم إسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت جثته إلى بيته . ثم دفنت بجانب جثة أبيه بجوار باب اللوق .

فتولى مشيخة البلد «شركس بك» واستولى «ذو الفقار» على جميع ممتلكات «إسماعيل بك» ونسائه حسب وعد الباشا فأصبح رجلا عظيماً يشار إليه بالبنان ، وفى حوزته مئات من المماليك ، فخافه «شركس بك» وأخذ يسعى فى إذاقته ما أذاقه

لإسماعيل بك . فعلم « ذو الفقار » بتلك الدسائس ، فجمع إليه رجاله ، وفيهم عدة من رجال العثمانيين ، وهجم على شركس بك ، فجرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها أكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم ، وفر الباقون ، وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم .

ذو الفقار بك

فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك ، بعد أن أقر الباشا على ذلك ، وأصبح ذو الفقار عدواً لأترابه البكوات ، وعلى الخصوص لأبى دفية ، وسمى بذلك لأنه كان يتشح برداء كبير يقال له دفية ، ثم أنبىء «ذو الفقار بك» أن أبا دفية ساعٍ فى إهلاكه ، وحاول ذلك مراراً ولم ينجح .

أما «شركس بك» فجمع دعاته فى الصعيد ، وسار بهم نحو القاهرة ، فأرسل «ذو الفقار بك» «عثمان كاشف» أحد كبار قواده فى فرقة من المماليك لمحاربته ، فتقهقر «شركس» ورجاله فراراً حتى لحق ببلاد البربر .

فسكر «ذو الفقار» من خمرة النصر ، وأخذ فى الانتقام من البكوات الذين فى القاهرة ، وقتل منهم من يظن فيه الانتماء إلى

«شركس بك» ، وهم كثيرون – فاتحد من بقى حياً مع رئيس الشرطة ، والأغا رئيس الإنكشارية ، وبعثوا إلى شركس بك بماكان من فعلة «ذى الفقار» وتعاهدوا جميعاً على محاربته ، وانضم إليهم «مصطفى القرد» وكان من أعداء ذى الفقار ومعه جماعة من الرجال الأشداء ، فقدم «شركس بك» إلى القطر المصرى ، فعلم «ذو الفقار» بذلك ، فجمع إليه العلماء والمشائخ ، وشاورهم فى الأمر ، فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم فى تلك الحال ، إلا إذا تأكد الفوز ، فلم يصغ لمشورتهم ، فأرسل «عثمان بك» أحد قواته لمحاربة «شركس بك» ، فحصل بينهما واقعة ، قتل فيها «مصطفى القرد» وغرق «شركس بك» فى النيل وهو يحاول الفرار .

فبعث «عثمان بك» برأسيهما إلى «ذى الفقار» . أما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لأنه قتل بعد قتل عدوه «شركس» بيومين ، بمكيدة أعدها له البكوات فى القاهرة وذلك أنهم ألبسوا واحداً منهم دفية ، وجاءوا به إلى بين يدى «ذى الفقار» وقالوا له : «هذا أبو دفية قد جعله الله فى أيدينا» . وكانوا قد جعلوا تحت دفيته عيارين ناريين ، فلما وقف بين يديه ، اطلقهما دفعة واحدة ، فسقط

«ذو الفقار» مضرجاً بدمائه فى وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ ، فعلم «عثمان بك» بما أصاب رئيسه ، فهرع للأخذ بثأثره ، فدخل القاهرة ، وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه ، فخافه الجميع .

ثم أن « محمد بك » أحد البكوات الذين كان يترقبهم «عثمان بك» رأى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه ، فعاهد صديقه « صالح كاشف » على أن يقتلوا من بقى من زملائه البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فأدب « محمد بك » مأدبة فاخرة دعاهم إليها ، فلبوا دعوته . ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة شديدة وتمكنوا من قتله. فيئس «صالح كاشف» من مرامه ، ففر إلى القسطنطينية بعد أن شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق أمام جامع الحسين .

ثم عقب هذه القلاقل ضربة أشد وطأة ، نعنى الوباء الذى أصاب مصر فى تلك السنة ، ويدعى طاعون الكى ، فإنه انتشر فى البلاد انتشاراً سريعاً ، وفتك فى العباد فتكاً ذريعاً ووافق كل هذه الضربات خلع السلطان أحمد الثالث فى جمادى الأولى سنة ١١٤٣ هـ .

٢ - سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ ومن ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م

هو محمود الأول ، ولد سنة ١١٠٨ هـ ، فكانت سنه لما تولى العرش العثمانى ٣٥ سنة ، وكان النفوذ عند توليه لرئيس الإنكشارية حتى نقم عليه الإنكشارية أنفسهم ، فقتلوه وعادت السكينة وأمن الناس .

وفى أيامه ظهر «نادر شاه» [١] القائد الفارسى الملقب «بنابليون الشرق» لكثرة فتوحه وكانت الدولة تحارب الفرس وكادت تذهب فيها ، فعاض «نادر شاه» ووقف فى طريقها .

وجرت فى أيام هذا السلطان حروب ومعاهدات مع دول أوربا . وقد توفى السلطان المذكور ، وأسفه العثمانيون لأنه كان عادلاً حليماً فيه ميل إلى المساواة بين الرعايا .

وفى أيامه اتسع نطاق المملكة العثمانية بآسيا وأوربا وعقد معاهدة فى بلغراد مع الروس محت العار السابق .

ومن آثاره أنه أسس أربع كتبخانات ألحقها بجوامع آيا صوفيا ، ومحمد الفاتح ، والوالدة وغلطه سراى .

---

(١) نادر شاه : ١٦٨٨ - ١٧٤٧ ، كان شاها لإيران فى الفترة من ١٧٣٦ - ١٧٤٧ .

وكان الباشوات الذين تولوا مصر فى أيامه أكثر أهلية من سابقيهم ، ولكن الأحكام كانت بالحقيقة قائمة بمشائخ البلد ، ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم فى شىء .

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذى الفقار بك تولى مكانه عثمان بك ، المتقدم ذكره . فرقى كثيرين من مماليكه إلى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الأخيرة .

وكان «عثمان بك» عادلاً حازماً ، ولكنه كان صارماً لا يراعى فى تنفيذ العدل جانباً ، فعلم أن أحد بكواته سعى فى إقليمه ظلما فاستدعاه إليه ، فتحقق ارتكابه ، فقطع رأسه .

ويحكى عن «عثمان بك» حوادث كثيرة تشير إلى حزمه واستقامته ، وقسطه ، لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال :ـ

يحكى أن حمّاراً من حمّارى القاهرة أراد ترميم مذود حماره ، وهو يفعل ذلك عثر فى أحد جدران البيت على وعاء مملوء ذهب [1] ، ففرح جداً ، وأخذ الوعاء وسلمه إلى امرأته ، واوصاها أن تكتم الأمر لئلا ينكشف للحكومة ، فتأخذ المال منه لأن لها

(١) الصحيح أن تكون ذهبا .

وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الأرض . فطلبت المرأة من زوجها أن يبتاع لها حلياً وثيابا فاخرة لتتمتع بتلك الهبة . فأبى زوجها إجابة طلبها لئلا يئول ذلك إلى كشف الحقيقة ، فاغتاظت ، وأسرعت لساعتها ووشت به إلى «عثمان بك» فاستدعى الحمّار ، وبعد أن سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً : « احفظ ما وهبك الله ، وطلق امرأتك ، وعش بسلام» .

ولما جاء الوباء إلى مصر ، كان «عثمان بك» فى أول حكمه، فلما رأى الجوع الذى عقب الوباء ، فتح مخازنه وخزائنه ، وفرق الأقوات والأموال فى الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوى المطامع ، وفى مقدمتهم «إبراهيم وإسماعيل رضوان» الأول كخيا الإنكشارية ، والآخر كخيا العَزَب ، وكان كلاهما من المماليك، الواحد من طائفة الكُزدغلية ، والآخر من طائفة الجلفية ، وأصل الطائفة الأولى مملوك يقال له : «الكزدغلى» كان سروجياً ، وأصل الطائفة الثانية «أحمد الجلفى» كان فى أول أمره شيّالا ، وأغناه الله بطريقة فى غاية الغرابة - لا بأس من ذكرها وهى :

جاء بعض المماليك إلى إحدى معاصر الزيت ليبتاع مئونة بيته من الزيت مدة السنة ، وكان «أحمد الجلفى» فى تلك المعصرة،

فابتاع المملوك الزيت ، واستأجر «أحمداً» فحمله وسار معه حتى بلغ بيته ، فأنزل الحمل ووقف ينتظر أجرته ، فجاءه المملوك وطلب إليه أن يساعده فى إخفاء مبلغ من النقود فى أحد جدران البيت ، وألح عليه أن يكتم الأمر سراً ، وأعطاه بضعة دراهم مكافأة لذلك ، فساعده ، وأخذ الدراهم وسار فى سبيله حامداً شاكراً . وبعد ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت ، فشاهد جماهير متجمعة ، ثم علم أن ذلك المملوك توفى وقد تركته للمبيع ، فتقدم أحمد وابتاع البيت الذى فيه المخبأة ، وبعد انفضاض الجمع استخرج النقود ، وسار بها إلى قريته «جلف» فى الصعيد وامتلك ممتلكات كثيرة .

ثم اتسعت ثروته ، وما زال حتى أصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت إليه .

وكان «إبراهيم وإسماعيل رضوان» فى بادىء الرأى على تباين كلى بالأدبيات والماديات : كان إبراهيم فى ضيق من المعاش مع إقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان «إسماعيل» غنياً بليداً لا يهمه إلا التمتع باللذات والشهوات . فكان إبراهيم فى احتياج إلى إسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج «إبراهيم» ابنة «محمد

الباردى» أحد التجار الأغنياء ، وأخذ معها مالاً كثيراً ، فتمكن بذلك من التقرب إلى بيت شيخ البلد ، وإلقاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والأتراك وغيرهم من ذوى الرتب ، كان يستعملهم آلة لتنفيذ مآربه .

ثم تأتى له الارتقاء إلى رتبة البكوية مع صديقه «إسماعيل رضوان» فصار اسمه «رضوان بك» ، واتحد الإثنان على السراء والضراء ، ووحدا ممتلكاتهما ، واجتزءا بالسواء فى محصولاتها . فأوجس «عثمان بك» خيفة من سرعة نمو ثروتهما ، وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح أنظارهما ضم إليه ثلاثة أحزاب : أحـــدهما حزب « إبراهيم بك القطامش » وفيه ثلاثة بكوات . والثانى حزب «على بك الدمياطى» وفيه بيكان والثالث حزب «على كخيا الطويل»، وشاورهم فى الأمر فأقروا على قتل «إبراهيم بك» ، وكان إذ ذاك كخيا الإنكشارية، و «رضوان بك» ، فوافقوه على ما أراد .

وكان وكيله أحمد السكرى من مماليك «إبراهيم بك» فلم يمكنه كتمان ذلك عنه ، فجاء إليه وأخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله وقتل رفيقه ، فسار الحال إلى «رضوان بك»

وأخبره وتشاوروا بشأن ذلك ، فقررا نصب أحبولة يقتلان بها «عثمان بك» ، فبعث إليه رجالاً يترصدونه في طريقه إلى القلعة فمرّ ووثبوا عليه ، ففر بجواده حتى دخل القلعة ، ولم يظفروا به ، فلاقاه وكيله وقد أضمر له الشر فسأله عما ألم به ، فأخبره بما كان ، فكلمه بلسان الثعلب ناصحاً له أن يبرح المدينة حالاً ، لأن الناس قد قاموا يطلبون قتله ، وما زال حتى أقنعه ففر إلى «سوريا» وسار هو معه حتى إذا دنوا من غزة تنحى أحمد عن الطريق، واختبأ في قرية يقال لها : الأشرفية ، بحجة استطلاع الأحوال لحماية «عثمان بك» فتربص هناك مدة ثم عاد إلى «القاهرة» بمن معه من المماليك ، وسار إلى «إبراهيم بك» وأعلمه بما فعله ، فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية ، وهمّ الأهلون ببيت عثمان فأحرقوه ، واقتسموا تركته .

أما هو فوصل «سوريا» وحده ، وسار منها إلى الأستانة ، فولى بورصة ولبث فيها حتى توفاه الله . وجميع هذه الحوادث توالت على «مصر» في أثناء سنة ١١٥٦ هـ .

إبراهيم كخيا ورضوان بك

فلما خرج «عثمان بك» من «مصر» صفا الجو «لإبراهيم كخيا» و «رضوان بك» . فعملا على إبادة الأحزاب التى تآمرت عليهما فأخذ «رضوان بك» على نفسه قتل «على كخيا الطويل» . فأمر أحد مماليكه أن يقتله بالرصاص فى وليمة حافلة ، فلبى المملوك الأمر ، لكنه أخطأ الرمى . وعوضاً من أن يصيب «عليا» أصاب مملوكه الذى كان بجانبه ، فقبض عليه وقتل للحال .

أما «إبراهيم كخيا» فتكفل لإهلاك من بقى من الأحزاب ، وكان على ولاية مصر إذ ذاك «كيور أحمد باشا» فطلب إليه إبراهيم أن يوافقه على إبادة البكوات ، فوافقه . وربما فعل ذلك ، خوفاً منه أو لأنه يعود عليه بالنفع الشخصى ، واستعانوا بالنقود ، فبذلوها فسهلت مشروعهم حتى قتلوا «على بك الدمياطى» بيد وكيله «سليمان» فى وسط الديوان . وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الآخرين من أحزابه . فأمر «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» أن تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها منِ البكوات المَنْوِى قتلهم ، وجعلا على بابى الإنكشارية والعزب جنداً . وحافظ «سليمان» على وعده ، فبوشرت المذبحة وأول من قتل فيها «خليل

بك» من دعاة «الدمياطى» و «محمد بك» من دعاة «قطامش» وكثيرون غيرهم .

وحاول «على بك» و «عمر بك البلاّط» الفرار ، فتبعهما الباشا بنفسه . ثم لاقاهما «إبراهيم» و «رضوان» وقتلاهما عند باب القلعة ، ولم يدفن من القتلى إلا «محمد بك» و «خليل بك» .

ولم يبق من مناظرى «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» إلا «إبراهيم قطامش» و «على كخيا الطويل» ، فالأول مات من الحزن بعد مدة قصيرة ، والثانى هاجر من تلقاء نفسه تاركاً الدار تنعى من بناها ، فصفا الجو لإبراهيم كخيا ، فتولى مشيخة البلد وسمى «رضوان بك» أميراً للحج ثم جعلا يتبادلان هذين كل سنة ، وعاد كل منهما إلى ميله الطبيعى : «إبراهيم» إلى مطامعه ، و «رضوان» إلى ملاهيه . فأخذ «إبراهيم كخيا» يفسد الأحكام ، ويستخدمها لاسترجاع ما بذله للحصول عليها ، فلم يغادر وسيلة إلا استخدمها في سبيل مطامعه من قتل وهتك .

فابتدأ بسليمان قاتل «على بك الدمياطى» ، فحجر عليه فى القلعة ، ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان أعطاه من النقود. ثم باغت من بقى من الأغنياء فى القاهرة ، ووضع يده على

ممتلكاتهم بعد أن قتل بعضاً منهم ، وبقى البعض الآخر فاستولى فى يوم واحد على أموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ، ووضع يده على محصولات البلاد والجمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة ، فلم يبق ولم يذر .

وكان «كيور أحمد باشا» قد استدعى إلى الأستانة ، وولى حكومة قبرص فأقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله «إبراهيم كخيا» بالاحتقار ، فحقد عليه . ثم اتفق غياب «إبراهيم» فى قافلة الحج إلى مكة ، فاغتنم الباشا غيابه . وتواطأ مع «حسين بك الخشاب» على مكيدة يعدانها لإبراهيم . فاتفق على أن يقوم الخشاب بقتل «إبراهيم» ورفيقه «رضوان» وأن يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد .

فلما رجع «إبراهيم» سعى «الخشاب» فى إنجاز وعده ، ففاز بالقبض على الإثنين ، فسجنهما فى القلعة ، فولاه الباشا مشيخة البلد ، لكنه لم يهنأ بها لأن دعاة «إبراهيم كخيا» اتحدوا وهجموا على «حسين بك» والباشا ، وأخرجوا المسجونين ، ففر الخشاب إلى مصر العليا واختبأ من إبراهيم فى بلاد النوبة . أما الباشا ، فاستدعى إلى الأستانة وعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت .

نشأة على بك الكبير

وكان فى حوزة «إبراهيم كخيا» أكثر من ألفى مملوك ، من جملتهم «على» الذى سيلقب بعلى بك الكبير ويكون له شأن عظيم لهذا التاريخ ، وسترى فى سيرته أنه من أفراد الدهر حزما وبطشا وحكمة . وكان «على» سلحداراً بين مماليك «إبراهيم كخيا» وكان إبراهيم يحبه كثيرا ويجل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به أنه اصطحبه إلى الحرمين فى قافلة . وكان قد صار كاشفا فسار قائداً لتلك القافلة ، فلاقاهم فى الطريق عصابة من اللصوص ، فدفعهم «علىّ» بقلب لا يهاب الموت ، فلقبوه بالجنّى . ولما رجع «إبراهيم كخيا» إلى القاهرة عزم على مكافأة «علىّ» برتبة بك ، لكن صغر سنه ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك .

ثم عقب ذلك مشاغل أكثر أهمية زاد الأمر تأخيراً وذلك أنه جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد إلى الإسكندرية بدلاً من الباشا الذى أخرج منها ، وكان من عادة رجال الحكومة فى مصر إذا علموا بمجىء باشا جديد أن يبعثوا وفداً يلاقونه فى الإسكندرية ، وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما فى يده من الأوامر السلطانية ، فإذا رأوا تلك الأوامر سليمة ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له

الطريق حتى يصل بولاق ، فيحتفل الأمراء بلقائه . أما إذا تبينوا من أحواله غير ذلك ، وبلغوا الأمراء بالقاهرة فيجتمعون ويقرون إعلانه أن يقف حيث هو ، ويكتبون إلى ديوان الأستانة بعدم موافقة ذلك الباشا الجديد ، وأن بقاءه فى مصر مخل بالنظام العمومى أو ربما حمل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بآخر أكثر موافقة للبلاد منه .

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه «راغب محمد باشا» سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات فخلع على كل واحد منهم خلعة كالمعتاد ، ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية وأقسموا على الطاعة والإخلاص لأمير المؤمنين ، وأحب الأمراء «راغب باشا» محبة عظيمة لأنه عرف كيف يعامل شيخ البلد ، فأحبته الرعية ومالوا بكليتهم إليه فقضى بين ظهرانيهم سنتين كلهما سلام وطمأنينة حتى أجمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً وهم فى ذلك ، ورد إلى الباشا خط شريف أن يسعى جهده فى قطع دابر البكوات ، وفى جملتهم شيخ البلد ومن يلوذ به ، فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط أن ديوان الأستانة مشتبه بتصرفه فى مصر وأنه وشى إلى جلالة السلطان بأن اتفاقه مع بكوات مصر ليس إلا لعزمه على استخدامه فى مآربه بالاستقلال

بحكومة مصر وإخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع فى حيرة وتردد بين أن ينفذ الأوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر ، أو أن يعصيها ، أو يؤخرها ، فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيات التى تقدمت بحقه .

وبعد أن نظر فى المسألة من سائر وجوهها ، فضل الفتك بأصدقائه البكوات ، فتواطأ مع عصابة من رجاله أنه متى اجتمع البكوات فى مجلسه ، فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم معاً عند أول إشارة .

ففعلوا ما أمرهم به ، لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لأن ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة ، وفى مقدمتهم شيخ البلد بعد أن جاهدوا الجهاد الحسن وأوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التى لم يكونوا ينتظرونها من بعد ما أظهروه نحوه من اللطف والإخلاص . فبرأ ساحته باطلاعهم على الفرمان السرى الوارد له بهذا الصدد . فكفوا عن الإنتقام منه ، لكنهم عزلوه . وكتبوا إلى الأستانة يطلبون بدله ، وعينوا ثلاثة بكوات فى مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة .

واغتنم «إبراهيم كخيا» هذه الفرصة لترقية «علىّ» كاشفاً فرقاه إلى رتبة بك ، فشق ذلك على أحد البكوات المدعو «إبراهيم

بك» شركسى المولد يعرف «بإبراهيم بك الشركسى» وكان من دعاة «إبراهيم كخيا» لكنه تظاهر عند ذلك بعداوته ، ونمت بينهما الظغائن ولم تنته إلا بقتل «إبراهيم كخيا» بعد ذلك بخمس سنوات بيد «إبراهيم بك الشركسى» المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفى تلك السنة ، توفى السلطان «محمود بن مصطفى» .

سلطنة عثمان بن مصطفى
من سنة ١١٦٨ - ١١٧١ هـ
أو من ١٧٥٤ - ١٧٥٧ م

هو عثمان الثالث ، ولم يحكم إلا ثلاث سنوات لم يحدث فى أثناءها [١] ما يستحق الذكر فى المملكة العثمانية حتى فى مصر . فإن «إبراهيم الشركسى» شفى غليله بقتل «إبراهيم كخيا» لكنه لم يروا مطامعه ، لأن مشيخة البلد انتقلت إلى «رضوان بك» صديق «إبراهيم كخيا» .

ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب إبراهيم يقال له «حسين بك» أصبح بعد قتل الكخيا أكبر رجال ذلك الحزب، فادعى لنفسه الأولوية بمشيخة البلد ، فلم تقبل دعواه ، فجمع إليه بعض دعاته المماليك ، وصعد إلى قلعة القاهرة واستولى على

(١) الصحيح : أثنائها .

بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم «رضوان بك» فأطلق بعض القنابل على المنازل ، فغرقت جدرانها ، فتداعت أركانها «ورضوان بك» مشغول بحلاقة لحيته . فلما أحس بالأمر ، طلب جواده ، ولم يعل ظهره حتى اصيب برصاصة كسرت فخذه ، وتمكن من الفرار ومعه بعض المماليك إلى قرية الشيخ «عثمان» وهناك توقف عن المسير لزيادة الألم ، ومعه رئيس الضابطة ، وكان مجروحاً ثم توفى الاثنان ودفنا معاً .

فسمى «حسين بك» من ذلك الحين «شيخ البلد» وأخذ يتقرب من أترابه البكوات وهم لا يزيدون منه إلا نفوراً . ولم تمض بضعة أشهر من توليته ، حتى كمنوا له فى مكان مصاطب النشاب فى السهل الواقع بين القاهرة وأرض «إبراهيم بك» وكان مشتغلاً بعرض جنوده المماليك ، فهموا به وذبحوه ثم قطعوه إرباً إرباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول ، وتولى مكانه «خليل بك» واشتهر بحب القتل . وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعلى بك على الخصوص لاعتقاده أنه أشد أعدائه وطأة وأقواهم عزيمة .

سلطنة مصطفى بن محمد
من سنة ١١٧١ - ١١٨٧ هـ
- أو من ١٧٥٧ - ١٧٧٤م

وهو «مصطفى الثالث» تولى الملك وسنه ٣٢ سنة ، وكان ميالاً إلى الإصلاح ، ووزّر له «راغب باشا» وهو ذو حزم ونشاط وعمل ، فأعانه في ما أراده من الإصلاحات وحفظ السلام طوال حياته . فلما توفي عادت «روسيا» إلى الحرب ، وكانت «كاترينة» الثانية إمبراطورة الروس ، قد تولت العرش الروسي بعد «بطرس»، فعينت صديقها «ستسلاس يونياتسكي» ملكاً على «بولونيا» وكان ذلك مخالفاً للمعاهدة بين «روسيا» والدولة ، وإنما عمدت «كاترينة» إلى خرق هذه المعاهدة عملاً بوصية «بطرس الأكبر» وهي تقضي أن يبذل الروس جهدهم في إزالة الحواجز الثلاثة الحائلة بينهم وبين أوربا الغربية ، وهي «أسوج [1]» و «بولونيا» و «الدولة العثمانية وقد أزيل الحاجز الأول باستيلاء «الروس» على الولايات الأسوجية الفاصلة بينها وبين «ألمانيا» ، وأزيل الثاني تقريبا بتعيين أحد أتباع الإمبراطورة على «بولونيا» ، ولم يبق إلا إزالة الدولة العثمانية من «أوربا» .

---

(١) السويد .

فنبهت الدولة لهذا الخطر ، لكن بعد فوات الفرصة ، إذ كان ينبغى لها أن تنجد شارل الثانى عشر على «الروس» ولكنها عمدت إلى استدراك ما فات ، وفتحت حرباً طال أمدها، وتعاظم لهيبها ، وبذلت كل من الدولتين جهدها فى التغلب ، وأرسلت «روسيا» عمارتها إلى البحر الأبيض لمصادرة السفن العثمانية وضرب الثغور العثمانية فاغتنم «على بك الكبير» تلك الفرصة ، واستعان «بالروس» على استقلاله بمصر فى الدولة العثمانية [١] ، كما سيجىء .

وكان «على بك» كثير الإخلاص «لإبراهيم كخيا» لا ينفك ساعياً فى الانتقام له ، ولكنه كان يرى السبيل الأقرب والأسهل لبلوغ مرامه ، إنما هو القوة ، فأخفى ما فى ضميره ثمانى سنوات ، اشتغل فى أثنائها بجمع القوة ، فابتاع عدداً وافراً من المماليك ، ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والإخلاص لهم ، وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد أخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة ، فأوجس «خليل بك» خيفة منه ، وجعل يتجسس حركاته بالأرصاد والعيون ، ويعد المكائد فى شوارع «القاهرة» .

(١) ينظر إلى هذه الحادثة فى ادبيات التاريخ العثمانى على أنها خيانة . المحقق .

ففي ذات يوم هجم عليه «حسين كشكش» «بأمر خليل بك» وبعد واقعة هائلة أضطر «على بك» أن يفر إلى الصعيد فى طائفة من أصدقائه البكوات ، يستعد للانتقام مضاعفا .

فصرح «خليل بك» أن «على بك» وأتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم ، وولى مكانهم بكوات من ذويه ، وقتل من ظفر به في القاهرة من أصدقاء «على بك» أو المنتمين إليه ، أما «على بك» فالتقى في الصعيد بواحد من مماليك «مصطفى أنور» يدعى «صالح بك» كان منفياً هناك وفي قلبه من «خليل بك» حزازات فاتحد الإثنان ورجالهما وزحفا على «القاهرة» فخرج «خليل بك» و «حسين بك كشكش» ، فدارت رحى الحرب ، فكان الفوز «لعلى» ورفيقه . فطاردا «خليل بك» ورجاله حتى قطعوا مديرية «القليوبية» وأوصلوهم إلى المسجد الأخضر على ضفاف النيل ، واشتد الكفاح هناك ، فالتجأ «خليل بك» ورجاله إلى «طنطا» . فبعث «على بك» كاشفه «محمد» الملقب «بأبى الذهب» ليهاجمهم ، فهاجمهم ، واستلم «طنطا» بعد أن قتل «حسين كشكش» . أما «خليل بك» فاختبأ بالمسجد وبقى فيه ، وقد غلبه الجوع ، ثم قبض عليه ، ونفى إلى «الإسكندرية» وخنق هناك ، ونقلوا رؤوس القتلى إلى القاهرة ، وطافوا بها فى أسواقها .

الـدور الثالـث

لسيادة الدولـة العثمـانية علي مصـر

أو

علـى بـك الكبيـر

مـن سنة ١١٧٧ – ١١٨٥ هـ ،

أو مـن سنـة ١٧٦٣ – ١٧٦٤ م (١)

فتمكن «على بك» بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد «فى القاهرة» سنة ١١٧٧ هـ ، وأول أمر باشره قتل «إبراهيم الشركسى» الذى قتل سيده ، فثارت عليه أحزابه يطلبون الانتقام ، وهم عديدون ، فخاف على بك على حياته ففر إلى «سوريا» والتجأ إلى متسلم (حاكم) بيت المقدس ، وكانت بينهما صداقة قديمة إلا أن هذا الملجأ لم يحمه إلا شهرين ، لأن أعداءه البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان «مصطفى» وأخبروه بمقره . فأنفذ إلى متسلم القدس فرماناً يأمره به أن يرسل «على بك» مخفوراً إلى الباب العالى .

فعلم «على بك» بذلك ، ففر إلى «عكا» ، وهناك اكتسب

(١) الصحيح ١٧٦٣ – ١٧٧٣ م .

صداقة الشيخ «ضاهر العمر» [1] أمير تلك المدينة الحصينة فأكرم وفادته وسعى فى تبرئته أمام الباب العالى ، وبمساعدة نصرانئه من أصدقاء «إبراهيم كخيا» اكتسب له العفو من الحضرة السلطانية ، فألغيت الأوامر بالقبض عليه . وأعيد إلى «القاهرة» بمنصبه الأول .

وفى سنة ١١٧٩ هـ - أى بعد ذلك بسنتين ، هدد «على بك» بالإقالة من ذلك المنصب ، وذلك أن «محمد راغب باشا» الذى كان على مصر وعزل منها «على ماهر بك» كان يتذكر كرم أخلاق «على بك» منذ كان كاشفاً ، فبعد استقالته من مصر ، ولى بر الأناطول [2] ، وبعد تسع سنوات صار صدراً أعظم ، وما انفك متذكراً صداقة «على بك» لا يفتر عن معاضدته ، وتسهيل مطالبه سراً وجهراً .

ففى سنة ١١٧٩ هـ ، توفى الوزير «محمد راغب باشا» المذكور ، فأصبح «على بك» فى حاجة لمن يعضده ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ، ووشوا به إلى الأستانة ، فاضطر أن يفر إلى

---

(١) الشيخ ضاهر العمر : (١٦٩٥ - ١٧٨٢) شيخ بنى زيدان فى بلاد صفد . انظر مادته فى المنجد فى الاعلام . ٤٤١ / ٣ .

(٢) وهو الأناضول .

اليمن. ولم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد إلى القاهرة ، واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وموت أربعة من دعاة «إبراهيم الشركسى» . ثم تراءى له أن صديقه «صالح بك» تحدثه نفسه بخرج حرمة الصداقة ، واتباع داعى المطامع الشخصية ، فوكل أمر قتله إلى «إبراهيم كاشف» أحد أتباعه ، فقتله طعناً ، وسترى أن «إبراهيم» هذا سيرتقى حتى يتولى مشيخة البلد .

ورأى «على بك» أن قبائل العربان فى مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة ، فأنفذ إليها أحد مماليكه المدعو «أحمد» فى فرقة من الرجال ، فحارب أولئك العربان ، وأمعن فى قتلهم حتى لقبوه بالجزار ، وهو الذى تولى «عكا» بعدئذ واشتهر «بأحمد باشا الجزار». أما من بقى من أعداء «على بك» فخافوا ولزموا السكوت، وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات، ورأى من باب الاحتياط والحرص أن يرقى ثمانية عشر مملوكاً من أتباعه إلى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهى اسماؤهم : ـــ

١ – رضـــــــوان . ابن أخيه من جورجيا

٢ – على الطنطاوى . من جورجيا

٣ – إسمــاعيـــل . من جورجيا

٤ – خليل .	من جورجيا
٥ – عبد الرحمن .	من جورجيا
٦ – حسن .	من جورجيا
٧ – يوسف .	من جورجيا
٨ – ذو الفقار .	من جورجيا
٩ – عجيب .	من جورجيا
١٠– مصطفى .	من جورجيا
١١– أحمد الجزار.	من أماسيا
١٢– سليم أغا .	انكشارى
١٣– سليمان كخيا .	انكشارى
١٤– لطيف الشركسي .	شركسى
١٥– عثمان .	شركسى
١٦– إبراهيم .	شركسى
١٧– مراد .	شركسى

ولهذين الأخيرين شأن فى هذين [١] التاريخ لأنهما سيتنازعان السلطة بمصر .

---

(١) المؤلف يكتبها هذين والصواب : هذا .

١٨- محـــــمـد .

وكان يعز محمداً أكثر من الجميع وستراه رجلاً عقوقاً منكراً للجميل (١) . ولما تقلد البكوية لقب بأبى الذهب ، فأحب أن يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى ، فتظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من أن يفرق العطايا بالبارات ، فرقها بالأرباع .

أما «على بك» فكان ساهراً مصلحة البلاد سهراً تاما ، وكان مخلصاً فى أعماله ، فطهر البلاد من اللصوص ، وسعى جهده فى إصلاح شئونها ، فساد الأمن فيها بعد أن كانت معرضاً للقلاقل والمفاسد . ولم تقف مطامع «على بك» عند هذا الحد ، فإنه رأى من تحامل الواشين بينه وبين ديوان الأستانة ، وإيقاع ذوى الأغراض به وبسلطته ، ما حمله على السعى فى الاستقلال بمصر، وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية ، لكنه كتم مقاصده ، وجعل يسعى فى تنفيذها تحت طى الخفاء .

---

(١) يقف جورجى زيدان موقفا من محمد بك أبى الذهب ويعتبره كما اورد ، أما كتب التاريخ العثمانى فترى العكس .

مساعيه فى سبيل الاستقلال

وأول خطوة خطاها نحو هذه الغاية ، أنه انتحل أسباباً بنى عليها عزل مستخدمى المُلكيةَ والجهادية ورؤساء الوجاقات ، واستبدلهم برجال على دعوته إلا وجاق الإنكشارية فإنه لم يمسه بعد أن تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التى يمكنه بها التطرق إلى مقاومته . وأخّر دفع مرتبات الوجاقات الأخرى عمداً ، وصار يدفع رواتبهم أقساطاً عملة ورق بول كانت تخسر المائة منها تسعين ، فكان يربح أرباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالأثمان البخسة ، وصرفه ثانية بثمنه الأصلى . فلما رأت رجال الوجاقات أنهم لا يستولون من ماهياتهم إلا على العشر، كرهوا الاستخدام بالعسكرية ، وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون أشغالاً أخرى أكثر فائدة لهم .

ثم سعى فى تقليل العساكر العثمانية واستخدام المماليك من دعاته حتى صاروا نحو ستة آلاف ، وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغيرهم عليه أن يقتنى أحدهم أكثر من مملوك أو مملوكين . وكان على ولاية مصر إذ ذاك «محمد باشا» فأزعجته إجراءات «على بك» وخشى عاقبتها ، فنصح له أن يقف

عند حده ، فلم يكترث بقوله . فأقر على مقاومته لأن هذه الإجراءات مضادة لمصلحة الباب العالى ، ولكنه لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصده هذه . فأخذ يدسها سراً ، واتحد مع من بقى من دعاة «إبراهيم الشركسى» وأجمعوا على الانتقام من «على بك»، ثم جعلوا يسعون فساداً بين أحزابه واستجلبوا بعضا منهم إلى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفى حملة هؤلاء «محمد بك أبو الذهب» الذى طمره «على بك» بفضله حتى أزوجه ابنته ، وكان يناديه كما ينادى أولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ مأربهم جهاراً ، فأغروا صهره «محمد بك» المذكور بالمال ووعده إنه إذا قتل «على بك» يتولى المشيخة مكانه ، فقبل .

لكنه علم بعدئذ أنه يقصر عن مناوأة «على بك» واستعظم الجناية ، فعدل عنها إلى جناية تقرب منها ، وذلك أنه شكى إلى «على بك» معاملة الباشا له ، فأسرع إلى انقاذه منه ، وما انفك عن الباشا حتى أخرجه من مصر ، فعاد إلى الآستانة ، ولم يزدد «على بك» إلا ثقة فى «محمد بك أبو الذهب» وإخلاصه له ، رغم ما كان ينقل إليه عنه من السعى ضده .

وفى سنة ١١٨٢ هـ ، انتشبت الحرب بين روسيا والدولة

العلية ، فبعثت هذه إلى مصر أن تمدها بإثنى عشر ألفاً ، فوصلت الأوامر لعلى بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد ، فلم يسعه إلا مباشرة ما أُمر به لما ابتدأ بجمع الجنود . أما أعداؤه فاغتنموا تلك الفرصة للوشاية ، فضموا إليهم الباشا الجديد الذى كان قد أرسل إلى القسطنطينية بدلاً من الباشا الذى أخرجه «على بك» . واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير أمضاه الباشا وسائر البكوات أعداء «على» يشون به إلى الديوان الشاهانى بدعوى انه إنما أراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر ، فأنفذ الديوان الشاهانى إلى الباشا أمراً مشدداً أن يقتل «على بك» ويرسل رأسه إلى الأستانة .

فاتصل ذلك لعلى بواسطة أصدقائه بالأستانة فبعث «على بك طنطاوى» أحد دعاته فى عشرة من أتباعه المماليك ، متنكرين بلباس البدو ويكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لابد للقابجى باشى حامل ذلك الفرمان من المرور به ، فمكثوا هناك ثلاثة أيام . وفى يوم الرابع بان لهم القابجى ومعه أربعة رجال ، فوثبوا بهم وقتلوهم وطمروهم بالرمل ، وأخذوا ملابسهم والفرمان وصاروا إلى «على» فقرأه .

ثم جمع إليه ديوان البكوات العمومى وأطلعهم عليه وأقنعهم أن ذلك ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً . ثم خاطبهم قائلاً :

«دافعوا إذاً عن حياتهم وحقوقهم واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من المماليك كانوا سلاطين أشداء تفاخر بهم الأرض السماء فاعيدوها إليهم وهذه فرصة لا يضيعوها . فإنهم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها . هلم إذاً نسعى فى الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحريتنا» .

استقلال على بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة «على» وبلاغته (١) ، وكانوا ثمانية عشر ، قد أجمعوا على دعوته ، فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلاً . أما سائر الأمراء المماليك من أعدائه فخافوا العاقبة ، ولزموا السكوت ، فكتب ديوان «على بك» أمراً إلى الباشا أن يبرح الديار المصرية فى ٤٨ ساعة ، وإذا لم يفعل ؛ يقتل وأن مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث على إلى الشيخ «ضاهر العمر» أمير عكا يعلمه رسميا باستقلال مصر ، ويدعوه للمساعده فى ذلك . فأجابه الشيخ ضاهر مسروراً ، وجمع إليه

---

(١) كان على بك يتحدث بالتركية ولم يكن يعرف العربية .

رجاله ورجال بنيه السبعة وصهره . وانضم الجميع إلى جنود «على» وكان قد أضاف إلى الستة الالآف التى عنده من المماليك الإثنى عشر ألفاً التى جمعت مدداً للعثمانيين ، وأضاف إلى هذه أيضا رجال أصدقائه البكوات حتى رجال اعدائه لأنهم لم يعد يسعهم إلا طاعته .

فاتصل ذلك بالأستانة ، فأرسل الباب العالى أمراً إلى والى دمشق أن يسير فى ٢٥ ألفا لمنع جنود عكا من معاضدة «على» فسار الوالى فى ذلك العدد من الرجال ، فلاقاه الشيخ «ضاهر» فى ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية ، ورده على أعقابه سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لأن الباب العالى أمسك بعدها عن إرسال الجند كأنه نسى علاقته مع «سوريا» و «مصر» بالكلية .

أما «على» فاغتنم اشتغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف عنايته فى تنظيم مملكته الجديدة ، وإصلاح داخليتها من الخلل . فخفض الضرائب وجعل على المالية مدير الكمرك القديم المعلم «ميخائيل فرحات القبطى» بدلاً من يوسف بن لاوى الإسرائيلى ، وكان قد قتل جزاء خيانته . ونظم التجارة الخارجية

والمواصلات ، وأبعد العربان إلى الصحراء ، فاستولى الأمن وانتشر الإصلاح فى القطر ، فزادوا على ألقاب «علىّ» لقب بلوط قبان – مبيد اللصوص [1] .

قبيـــلة الـهـــوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على «مصر» قبيلة «الهوارة» وهى أشدهن بأساً وأطول باعاً . جاءت فى الأصل من ضواحى تونس الغرب ، واستقرت بين «جرجا» ، «فرشوط» فى بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة . فاعتنوا فيها حتى أنشأوا عدة قرى – وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم .

ثم اغتنم الشيخ «هامان» [2] ، شيخ الهوارة – اشتغال مصر بما تقدم ، ووضع يده على البلاد من «أسيوط» إلى

---

(١) الكلمة تركية ومعناها الواصل إلى السحاب ، وذلك لطول قامة على بك . ويترجم هولت هذه العبارة بمعنى «قابض الغمام» وفى رد هارس بمعنى السحاب وهى معا يمكن ترجمتها : حاجز السحاب أو «قابض الغمام» .

(٢) الصحيح هنا الشيخ همام شيخ الهوارة : انظر دراسة د. ليلى عبد اللطيف : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام . الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ .

«أصوان» [1] وجمع إليه محصولاتها ، وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل «على» وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ ألف أردب من الحنطة توردها سنوياً إلى مصر .

ففى سنة ١١٨٣ هـ ، أرسل «على بك» صديقه «محمد بك أبا الذهب» لمحاربة الشيخ «همام» وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم فى أواخر تلك السنة . فاضطر أبناء الشيخ أن يبتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة أبيهم . فربح «أبو الذهب» من ذلك مالاً كثيراً ثم أسرع إلى «القاهرة» لما علمه من الدسائس التى كان ساعياً بها رفيقه «أحمد بك الجزار» على «على بك» وكأنه لم يكن يريد أن يشاركه أحد بالدسائس على سيده .

وكان «أحمد الجزار» ينظر إلى أبى الذهب نظره إلى عدو يناظره فى ارتكاب الدنايا ، فسعى فى قتله ، فلم ينجح وكان لأحمد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه ، واتقان صنعه ، فاتفق يوماً أنه اجتمع «بمحمد أبى الذهب» . فقال له «محمد» : «أرنى حسامك لأجرِّبَنّ فِرِنْدَه» ، فأجابه أحمد : «لا يستل حسامى حتى

---

(١) يعنى أسوان .

يستباح قتيل» ، ثم نهض للحال ، وغادر القاهرة قاصداً «القسطنطينية» فوصلها . ثم عهدت إليه ولاية «عكا» بعد ذلك ، ومازال بها حتى توفاه الله .

فتوح على بك ومعاهداته

أما «علي بك» فبعد أن تغلب على الصعيد ، ثار فى خاطره حب الافتتاح ، فجرد على «اليمن» جيشاً تحت قيادة «محمد أبى الذهب» فسار فى عشرين ألفاً ، فقطع برزخ السويس ، ومضيق العقبة ، ولم يبق على أحد من القبائل التى حاولت الوقوف فى طريقه ، وما زال حتى أتى اليمن وافتتحها .

وأمر «على» فسار «إسماعيل بك» فى ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الأحمر و «حسن بك» لافتتاح «جده» ، ولقب الجداوى إشارة إلى انتصاره على تلك المدينة ، ومازال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين ، ولم تمض ستة أشهر حتى افتتحت جزيرة العرب وفى جملتها «مكة المشرفة» ولحق بها نهب شديد وأنزل شريفها ، واقيم مقامه ابن عمه الأمير «عبد الله» فوافق علياً على سلطته وسماه «سلطان مصر وخاقان البحرين» ، فعل ذلك بصفته الدينية تملقاً لعلى .

فلما حصل «على بك» على ذلك من شريف مكة ، أخذ يتمتع بحقوق السلطنة ، فأمر أن يخطب باسمه فى الصلوات العمومية أيام الجمعة ، وضربت النقود باسمه سنة ١١٨٥ فى القاهرة – كما سنرى .

وسعى «على بك» فى هذه السنة فى أمر سيق به إلى حتفه، وذلك أنه عهد إلى «محمد أبى الذهب» أن يسير فى ثلاثين الفا لإخضاع بلاد الشام لأنه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدواً قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ «ضاهر» وكان ينظر إلى «سوريا» كأنها جزء طبيعى من مملكة مصر . وكانت فى الواقع قسماً منها فى سائر أزمنة التاريخ التى كانت فيها مصر مستقلة ، فى الدولة الطولونية والفاطمية والأيوبية والمماليك وغيرها .

وسعى «على بك» فى التحالف مع الدول التى بينها وبين الأستانة عداوة ، فاستخدم تاجراً ايطالياً اسمه «روستى» [1] عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على أن يكونوا حلفاءه ، ثم عهد إلى رجل أرمنى اسمه «يعقوب» أن يستطلع من الكونت «الكسيس

(١) هو كارلو روستى .

اورلوف» قومندان القوات الروسية فى البحرين (المتوسط والأسود) عن عقد معاهدة دفاعية هجومية مع قيصرة الروس «كاثرينا الثانية» . فأجاب الكونت بالإيجاب وفتحت المخابرات بشأن ذلك ، وطال أمرها كثيراً لبعد المسافة بين الطرفين .

أما جنود «على بك» فى سوريا ، فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ «ضاهر» فاستولوا على «غزة» و «الرملة» و «نابلس» و «القدس» و «يافا» و «صيدا» ، وأخيرا حاصروا «دمشق» ولم تلبث يسيراً حتى سلمت [1] .

خيانــة أبى الذهـب

فلما رأى «محمد أبو الذهب» تمام هذه الفتوح العظيمة على يده ، حدثته نفسه أن يجعلها لنفسه ، ثم قادته مطامعه إلى محاربة على ، واستخراج مصر من يده ، ويظن أنه لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسه ، وإنما حمل عليه بأوامر جاءته من الأستانة لأن المخابرات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذى أخرجه علىّ من مصر ، فأمسك «محمد» عن المسير فى البلاد العثمانية ، وحول شكيمة مقاصده نحو الديار المصرية ،

(١) فى المخطوط صورة كاترينا الثانية .

فجمع ما كان لديه من الجيوش ، وضم إليها الحاميات التى كان قد أقامها فى المدن المفتتحة ، وسار قاصداً مصر لكنه لم يجسر على المسير إلى القاهرة رأساً خوفاً من الإنكشارية والوجاقات الأخرى لعلمه بما فى قلوبهم من الضغينة عليه . فعرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد . فحط رجاله هناك ، واستولى على أسيوط فى آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد ، وجاهر بعزمه على خلع «على بك» وسار قاصداً القاهرة ، فوصلها فى أوائل سنة ١١٨٦هـ، فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة .

فلما علم «على بك» ندم على ما وضعه من الثقة فى رجل كان له ان يعتبر من سيرته الماضية أنه على غير الإخلاص والاستقامة ، فجند ٣ آلاف رجل بقيادة «إسماعيل بك» وأمرهم أن يمنعوا محمداً من عبور النيل ، فسار إسماعيل ، لكنه خاف سطوة عدوه ، وورد عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فأخذ جانبه ، وضم جيشه إلى جيشه فقطع «محمد بك» النيل ، فاستقبله رجال إسماعيل بالترحاب ، فاتصل ذلك بعلى فيئس من الفوز ، فانقطع إلى القلعة بأهله وأصدقائه ورجال دعوته ، وقد عزم على المدافعة إلى آخر نسمة من حياته .

على بك فى عكا

وبعد ثلاثة أيام ، ورد إليه كتاب من الشيخ «أحمد» أحد أبناء صديقه الشيخ «ضاهر» أن يبرح القاهرة حالاً ويأتى إلى أبيه فى «عكا» ، فخرج علىّ من القلعة بمن معه وسار من جهة الجبل الأحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول «محمد بك» القاهرة بيوم واحد ، أى مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ – وهذه هى المرة الثالثة لخروجه منها إلى «سوريا» وفى معيته عدد يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال إلا ثمانمائة ألف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً ، ونقل معه المصوغات والحلى ما يساوى أضعاف ذلك .

وما زالوا فى المسير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى خان يونس فى حدود سوريا بعد ثلاثة أيام . فرأوا أن خمسة من الجمال الحاملة النقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية ، وأن عدداً من رجاله فروا ، ومعهم «يوسف الخزندار» . وفى اليوم التالى دخل «على بك» غزة . ثم واصل السير حتى أتى «عكا» بعد ثمانية أيام . فرحب به أميرها وكانت بينهما مودة شديدة ،

فاطمأن «على بك» هناك غير أن ما تكبده من المشاق في الأسفار مع ما أثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته ، فلم يصل «عكا» إلا وهو فى حالة الخطر من شدة المرض .

وفى أثناء ذلك وصل ميناء عكا أسطول روسى ، فلما علمت حاميته بما حل «بعلى بك» عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج إليه من المؤن والذخائر . وكان فى خدمة ذلك الأسطول فرقة من الألبانيين مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل ، فأمدوه بهم ، فلما رأى «على بك» ما كان من نجدة الروسيين مع ما يمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ « ضاهر » عزم على مناوأة « أبى الذهب » لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته، فعهد إلى «على بك الطنطاوى» بعد ثلاثة أشهر أن يسيروا أولاً لاسترجاع المدن السورية التى دخلت فى حوزة «محمد أبى الذهب» فسار واستولى على «صور» و «صيدا» وقرى أخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود «أبى الذهب» .

ثم سار «على» بنفسه مع من بقى من الجند إلى «يافا» وافتتحها بعد محاصرة خمسة أشهر استولى فى أثنائها على

«غزة» عنوة وعلى «الرملة» و «اللد» تسليما . فأعاد «يافا» إلى حكومة الشيخ «ضاهر» وجعل على «اللد» «حسن بك» الجداوى ، وعلى الرملة «سليم بك» .

محمد بك أبو الذهب

وفى ٩ القعدة سنة ١١٨٦ هـ ، كان «على بك» فى «يافا» فجاءته رسل من القاهرة بمهمة سرية من وجاق الإنكشارية والوجاقات الأخرى ، وسائر أعيان القاهرة : أن «محمد أبا الذهب» دخل القاهرة حالما خرج هو منها ، وسمى نفسه شيخ البلد ، وجعل يعيث فى البلاد عيثاً لم يسبقه إلى مثله أحد ممن تولى مصر قبله ، فجعل الضرائب ضعفين ، وبعضها ثلاثة أضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه : قانون رفع المظالم ، والمقصود منه بحسب الظاهر إنقاذ ملتزمى الأموال الأميرية من الإجراءات الاستبدادية التى كان يسومهم إياها الكشاف إلى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة . والحقيقة أن الضرائب ما انفكت أشد وطأة من ذى قبل ، والإجراءات لم تزدد إلا استبداداً فضلاً عما رافق ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهباً .

ثم قالوا إن مصر بجملتها لما رأت ما وصلت إليه من

الانحطاط ، وما لحق بأهلها من المظالم التى ما أنزل الله بها من سلطان قد أنابتهم أن يبلغوا «على بك» أنها بصوت واحد تلتمس رجوعه ليحكم فيها لأنه هو منقذها الوحيد ، وأن مدينة القاهرة مستعدة أن تفتح أبوابها لاستقبال أميرها القديم وأن تدافع عنه الدفاع الممكن إذا حاول «محمد بك أبو الذهب» ما يخالف الصوت العمومى .

خروج على بك لمحاربة أبى الذهب

فلما علم «على بك» بكل ذلك ، شعر أن آماله عادت إليه وبرح «يافا» للحال قاصداً القاهرة ، وما يكن معه من الجنود إلا ألفان وخمسمائة ، فاستنجد حاميات «اللد» و «الرملة» وانضم إليهم جنود الشيخ «ضاهر» وجنود ابنه الشيخ «شبلى» وصهره الشيخ «كريم» ، و «حسن» شيخ صور ، وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسمائة من المغاربة ، فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب .

ففى ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ ، وصل «على بك» إلى خان يونس ، وفى ١٦ منه ، اقترب «من الصالحية» . وفى ١٨ منه ، التقى بمقدمة جيوش «محمد أبى الذهب» وعدتهم إثنا عشر ألف

مقاتل ، وبعد محاربة بضع ساعات ظهر «على بك» عليهم وقتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له أبواب «الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة .

ثم علم أن اعتماده على أحزابه فى القاهرة لا يورثه إلا الخيبة لأن أبا الذهب كان قد جمع إليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم «لعلى» وأقنعهم أن «على بك» قد غدر الأمة وخان الوطن وأباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسيين وغيرهم من الأمم النصرانية . واستخدم «أبو الذهب» فى سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح ، فانحازت إليه القوات العسكرية إلا وجاق الإنكشارية ، فإنه ظل على ولاء «على بك» .

فلما تحقق «أبو الذهب» اجتماع الأحزاب على دعوته أمن الاضطراب الداخلى فسار بنفسه لمحاربة على .

أما «على» فانزعج لتلك الأحوال انزعاجا كثيرا فضلاً عما كابده من المشاق في السفر ، وقطع الصحراء ، وزد على ذلك الجروح التى أصابته فى واقعة «الصالحية» فأصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفى ٢٠ محرم سنة

١١٨٧ هـ ، علم بمجيء «أبى الذهب» وهو على ما تقدم من المرض. فلم يتردد فى وجوب الدفاع . فأمر قواده ، فانتظمت رجاله على قلتها وتهيأت للدفاع . وكان على أحد جناحى الجيش «على بك الطنطاوى» ومن معه من البكوات ، وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهره ، فاستظهرت جنود على بادىء الرأى حتى قاربت الفوز التام .

ثم أرسل «أبو الذهب» بعض جواسيسه إلى المغاربة فى جيش على يغريهم على خيانة رئيسهم ، فوافقوه ، ووافقه غيرهم كثيرون من بكوات على ، وفى جملتهم «إبراهيم بك» و «مراد بك» وهذا الأخير اشترط أن يأخذ مقابلاً لخيانته هذه ما يخلفه «على» من المتاع والنساء ، وخصوصاً امرأته «نفيسة» وكان «على» يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال فلما انتشبت الحرب فى الصباح التالى ، انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا ، إلى عسكر «أبى الذهب» وكانت جنود «على بك» قريبة من الفوز . فلما رأت تلك الخيانة تضعضعت ، وفر الجند يطلبون النجاة بأنفسهم بعد أن قتل «على بك الطنطاوى» و «الشيخ شبلى» ونجا «الشيخ كريم» والشيخ «حسن» و «رضوان بك» من المعركة وساروا

إلى فسطاط «على بك» وأعلموه بما حصل ، وطلبوا إليه أن يمتطى فرسه ، ويسير برفقتهم إلى غزة ، حيث يلاقيهم الشيخ «ضاهر» بمن معه من الجند .

مقتل على بك

أما «على بك» ، فأبت نفسه الإصغاء لما أرادوا ، فجلس بباب خيمته وقال لهم : «إنى ملازم هذا الموضع لا أبرحه حتى تبرحنى نفسى ، لأن الموت هنا أفضل عندى من الفرار ، أما أنتم إذا شئتم النجاة بأنفسكم ، فبادروا إلى الفرار قبل أن يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه» .

فاضطر ابن أخيه ورجاله الباقون أن يذعنوا لما أمر ، فودعوه ، وحوّلوا الأعنة فى طريق خان يونس ، قاصدين «غزة» فلقوا الشيخ «ضاهراً» هناك، فأعلموه بما كان ، وبوفاة ابنه فأسف كثيرا .

ومكث «على بك» بعد ذهاب أصدقائه بضع ساعات ينتظر منيته ، وبجانبه عشرة من مماليكه وإذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا ؛ نائب «محمد أبى الذهب» قد وصلوا الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك . ثم وثبوا على «على» ، وكان

المرض مشتدا عليه وفيه جروح ، لكنه نهض بسفه فقتل أول قادم عليه ، وجرح اثنين آخرين فخاف الباقون الاقتراب منه، فأطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة فى زراعة اليمنى وفخذه ، فجعل يدافع بيسراه دفاعاً شديداً إلى أن وثب عليه الكخيا بنفسه، فدافعه «على» حتى أصيب بذراعه اليسرى ، وفى أماكن أخرى ، فسقط على الأرض وهو لا ينفك عن الدفاع ، فتكاثرت عليه الرجال حتى أمسكوه حياً . وساروا به إلى «محمد أبى الذهب» وطرحوه عند قدميه فأمر بحمله إلى القاهرة ، فحملوه إليها، وأنزلوه فى داره بدرب عبد الحق فى شارع البكرى – وراء صندوق الدين – فلبث فيها سبعة أيام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم أن «أبا الذهب» أدخل السم فى جراحه فقتله – والله أعلم – ، ودفنوه بتربة أستاذه «إبراهيم كخيا» بجوار الإمام الشافعى . وكان لموت هذا الرجل تأثير عظيم فى قلب كل من عرفه حتى أن أبا الذهب نفسه لم يسعه إلا الندم فى سره ، لما فرط منه، وما أتاه من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة .

منـــاقبـة

ومن مناقب «على بك» أنه كان عظيم الهيبة حتى اتفق لأناس أنهم ماتوا خوفاً من هيبته ، وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثول بين يديه ، فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول : «هوّن عليك» ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ، ولا يحتاج فى التفهيم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرؤها هو بنفسه ، ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم فحواها .

مـآثـره : البناية العظيمة «بطنطا» ، وهى المسجد والجامع والقبة على مقام السيد البدوى ، والمكاتب والميضاة الكبيرة ، والحنفيات ، والمنارتان العظيمتان ، والسبيل المواجه للقبة، والقيسارية العظيمة ، وجدد أيضا قبة الإمام الشافعى ، وبنايات ووكالات فى بولاق مصر . ولا يزال هذا الرجل مميزاً عن المؤرخين بلقب الكبير ، فيدعونه : «على بك الكبير» .

وقد ضرب نقوداً باسمه بمصر . وقد أضاف اسمه إلى اسم السلطان أحمد خان على الطغراء اسم السلطان المذكور، واسم «على» على الجانب الآخر.

وبموت «على بك» انتهى الدور الثالث من سلطة العثمانيين على مصر .

الدور الرابع من سلطنة العثمانيين على مصر

من سنة ١١٨٧ - ١٢١٣ هـ -

ومن ١٧٧٤ - ١٧٩٨ م

لم يتوال على العرش العثماني فى أثناء هذا الدور إلا سلطانان ، مدة حكمهما جميعاً ٢٥ سنة ، والحال متضعضعة كما سترى .

١ - سلطنة عبد الحميد الأول

من سنة ١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ -

ومن ١٧٧٤ - ١٧٨٩ م

هو ابن السلطان أحمد ، تولى العرش العثماني وسنه خمسون سنة . وكان قد قضى مدة حكم أخيه مصطفى محجوراً عليه في قصره - كما جرت العادة - ولم يستطع توزيع المال على الجند حسب العادة ، لنضوب الخزينة فى الحروب الماضية وكانت قد عادت ظافرة منها ، فأخذت روسيا تستعد لاسترجاع ما فقدته من الشهرة .

ففى تلك السنة ، زحفت جنودها على نهر الطونة (١) واجتازته ، فاعترضهم العثمانيون وهزموهم ، وعادوا فتناوشوا وتحاربوا ، وانتهت الحرب بمعاهدة في يوليو سنة ١٧٧٤ كانت روسيا فيها الرابحة ، لكن العثمانيين تفرغوا لإصلاح داخليتهم والتأهب للمستقبل ، فرمموا الأسطول ، واشتغلوا بالإصلاح ، وتعدت روسيا على القرم وضمتها إلى أملاكها ، ولم يحرك العثمانون ساكناً .

أما حال مصر ، فبعد وفاة «على بك» عاد وادى النيل إلى ما كان عليه قبله تابعاً لأملاك الدولة العلية ، وعادت أحكامه إلى مشايخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس أموال الناس ، وحقوق الدولة ، وكان «على بك» قد جعل لهذه المظالم حداً ، وأصلح الشئون حتى عُلقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها ، فلم تُبق المنية عليه .

نعم إن مصر بعد وفاته عادت إلى كتف الدولة العثمانية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئاً ، لأنها كانت فى الحالة الأولى طعمة لرجل محب للإصلاح ، مخلص بمقاصده ، وإن كانت بمعزل عن

---

(١) وهو نهر الدانوب .

سيادة الدولة فأصبحت فى الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى فى ابتلاعها ، لا يتفقون إلا على كره الدولة التى هم تحت حمايتها .

أما السلطان عبد الحميد ، فلم يكن يرسل إليها من الولاة إلا من كان اسما بلا مسمى ، كما كان شأنهم قبل ظهور «على» فكان الباشا من هؤلاء آلة يديرها البكوات كيف شاءوا ، ولم يكن لديه من الأعمال إلا مخابرة القسطنطينية سراً بما كان يقع بين هؤلاء البكوات من الخلاف ، وما كانوا يتداعون إليه من الخصام ، وواجباته المهمة أن يستلم الجزية من الحكومة المصرية ، ويرسلها إلى الأستانة إذا تمكن من قبضها .

أبـو طبـق وعـزل الباشـاوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحى العقلاء من قبوله لأنهم كانوا يعتبرونـها منفـى استحـقه الباشا أو الوزيـر الـذى يرسـل إليها [١] . وكان يعلم قبل خروجه من الأستانة أنه إذا لم يكن راضيا بما يرضاه شيخ البلد لا يلبث أن يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال لها : الأوطة باشى ، وفيها الأمر بعزله أمر لا مرد له ولا

(١) الأصل أن مصر كانت ولاية عثمانية ذات وضع متميز ولا يرسل إليها إلا الولاة المتميزون .

مجال للمدافعة بعده . وكيفية ذلك أن شيخ البلد ورجاله إذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً في الديوان وقرروا عزله ، وكتبوا بذلك أمراً يسلمونه إلى الأوطى باشي ليوصله إلى الباشا ، فيحمله ويسير على حمار - لأن القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال - وبين يديه فرمان العزل . فإذا مرّ بالأسواق على هذه الصورة ، علم الناس أنه ساع في أمر هام فيه عزل فيهرولون وراءه ، ولا يزال سائراً في عرض الطريق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة . ومن واجبات أي جندي لقيه في تلك الحال أن يرافقه اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله القلعة .

فإذا وصل القلعة يدخل على الباشا ، ثم يجثو أمامه باحترام ووقار . وعندما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثياً عليها وينادي بأعلى صوته : «انزل يا باشا» وعند طي السجادة ، والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق الباشا ، ولا يبقى له أقل سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تحت أمره ، وتصير تحت أمر الأوطة باشي ، وكانوا يسمونه «أبو طبق»(١) لأنه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق ، والباشا

(١) في المخطوط صورة أبو طبق في موكبه .

يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقه بعزله أو بقتله ، فلا يسعه إلا الطاعة التامة ، على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر [١] .

لما مات «على بك» ، اختلف أعداؤه فى القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم ، فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بأثمار انتصاره كغيره أو أكثر ، فاختلفت الأحزاب من بينهم . أما من بقى من رجال «على بك» فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم ، وكانوا فى «عكا» عند الشيخ ضاهر - على ما تقدم - فتقهقر «أبو الذهب» لأنه كان يحب الانتقام . حباً يفوق التصديق وقد آلى على نفسه ألا يبقى على أحد من رجال «على» .

أما الشيخ ضاهر - أمير عكا - فلم يعد يطيب له السكون بعد أن خسر ابنه فى سبيل نصرة «على بك» فثارت فى خاطره

---

(١) ان ما ذكره المؤلف بشأن طريقة إقالة الباشا من منصبه لم تكن طريقة ابتدعتها الدولة العثمانية ، بل إن الدولة حينما تريد عزل واليها - الباشا - تصدر له فرمانا بالعزل ويعين بدلاً منه قائمقام يتولى مهامه إلى حين وصول الباشا الجديد . لكن ما ذكر المؤلف عن تلك الطريقة كان من ابتداع كبار الأمراء المماليك فى القرن ١٨ حينما اصبحوا هم المسيطرين الحقيقيين على شئون البلاد ولا دخل للدولة العثمانية فى ذلك والتى كانت سلطتها على مصر فى تلك الفترة ضعيفة إلى حد ما . المحقق .

بواعث الانتقام . ولكن «أبا الذهب» لم يعد يستطع صبراً على ذلك. فاسترحم من الباب العالى أن يسمح له بالمسير لإخضاع «سوريا» ولا سيما «عكا» . واتهم أميرها ضاهراً بالعصيان ، وأنه ساع ضد الدولة . فأجابه الباب العالى بفرمان يثبته فى مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والى القاهرة ، مكافأة لما أتاه من كسر شوكة «على» وأحزابه ، وأذن له أن يتتبع ذلك الشيخ العاصى .

فلما وصل الفرمان إلى «أبى الذهب» كاد يطير من شدة الفرح وأعد جيشا تحت قيادته واستخلف فى مصر إسماعيل بك ، وعهد حكومة مدينة القاهرة إلى «إبراهيم بك» . وسار فى جيشه إلى «سوريا» ولم تنته سنة ١١٨٩ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبه بما أوتيه من الألقاب والرتب وما وعده به الباب العالى من المساعدات لا يزيد إلا كبراً حتى جعل خيمته التى يستريح فيها من أثمن ما يكون ، وزينها أبدع زينة . فمر «بخان يونس» ، «فالرملة» ولم يلاق مقاومة ، أما «يافا» فكان عليها شيخ «كريم» صهر الشيخ «ضاهر» فدافعت قليلا ثم فتحت عنوة ، فدخلها رجال أبى الذهب ، وقتلوا القسم الأعظم من سكانها رجالاً ونساء ، وشيوخا وأطفالاً .

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ «ضاهر» وهو في عكا، فخاف أن يصيبه ما أصابها ، ففر بعائلته وبمن هاجر إليه من المصريين ، ولم يترك فى المدينة إلا ابنه «عليا» .

ولما علم باقتراب جيوش أبى الذهب ، أخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده أنه إذا حاول الدفاع إنما يحاول عبثاً ، فوصلها «أبو الذهب» وأبوابها مفتوحة ، فدخلها ولم يبق عليها . ففى هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل ، لأنه بينما كان عازماً على العود إلى مصر ، أصبح القوم فوجدوه ميتاً فى خيمته ، ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم إنه أصيب بنقطة – وهى داء السكتة – وقال آخرون إنه مات مقتولاً بيد عدو فاتك – والله أعلم .

وبعد موت أبى الذهب ، عادت الجيوش المصرية تحت قيادة «مراد بك» إلى مصر ومعهم جثة رئيسهم ، فدفنوها بالقرب من مدفن «على بك» ، ومات أبو الذهب بعد موت على بك بسنتين ولُقِّب بالخائن [1] .

---

(١) لم يلقب محمد بك أبو الذهب بلقب الخائن ، ولم يحمل هذا اللقب فى تاريخ مصر العثمانية إلا أحمد باشا الخائن ، أما المصادر العثمانية فتزيد على هذا ، محمد على باشا رأس العائلة العلوية فى مصر . المحقق .

مشيخة إسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده «إسماعيل بك» ولم يبق غيره من رجال «إبراهيم كخا» ، وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة على بك ، وكان لا يزال على دعوته ، وإنما انضم إلى «أبى الذهب» خوفاً ، وقلبه لم يفتر لاهجاً بالمدافعة عن رئيسه ، لأنه لم يأت نحوه إلا ما يستدعى نصرته فضلاً عن أنهما من طائفة واحدة .

فلما استلم زمام الأحكام نسج على منوال «على بك» فبعث إلى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون فى سوريا فاستقدمهم إليه ، وأقرهم فى أماكنهم ، وطيَّب خاطرهم استعداداً لمقاومة «مراد بك» و «إبراهيم بك» مناظريه على مشيخة البلد .

وكانا قد اتحدا على خلع «إسماعيل بك» فطلبا أولاً طرد «حسن بك الجداوى» صديق «إسماعيل بك» فلم يفوزا ، لكنهما تمكنا من احتلال القلعة ، فاتحد «إسماعيل بك» و «حسن بك» واخرجاهما منها ، ففرا إلى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً ، واستعدا لقتال إسماعيل ، فبعث جيوشاً لتخمد أنفاسهما ، فعادت على أعقابها وفاز الأميران فاضطر «إسماعيل بك» إلى مغادرة القطر المصرى فيمّم الأستانة .

أما «حسن بك» فقبض عليه ونفى إلى جدة بحراً ، فاحتال في أثناء الطريق فأرضى رئيس المركب الذى نقله ، فأنزله فى القصير على سواحل القلزم [1] ، ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى أتى الصعيد فاستكن فيه .

مـراد بـك وإبـراهيـم بـك

فلما خلا الجو «لمراد بك» و «إبراهيم بك» اقتسما الأحكام فتعين الأول أميراً للحج . والثانى شيخاً للبلد ورقيا كثيرون [2] من مماليكهما إلى رتبة البكوية ، وقلداهم مصالح البلاد.

وكانت الأحكام فى عهدهما كما كانت في أيام أسلافهما من الظلم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة أن «إسماعيل بك» عاد من «الأستانة» وجاء «حلوان» ، فبعثا فرقة من المماليك فتكت بكل من كان معه من أهله ورجاله . أما هو فتمكن من النجاة باختبائه فى بعض الكهوف ثلاثة أيام . ثم خرج طالباً الشلال ، اجتمع هناك بصديقه «حسن بك الجداوى» وسارا معاً وأويا إلى الجنادل فى السودان .

---

(١) هو البحر الأحمر .

(٢) الصحيح فيها كثيرين .

فاختلف «مراد بك» و «إبراهيم بك» على إرسال حملة للقبض على الهاربين . فارتأى أحدهما وجوب التجنيد ، وخالفه الأخر حتى آل الأمر إلى الخصام ، وخروج «إبراهيم بك» مغتاظاً من القاهرة إلى المنيا فى الصعيد . فأرسل إليه «مراد بك» بعض الاختيارية يسكنون من غضبه ، فأرضوه وأعادوه إلى مركزه فى القاهرة ، إلا أن العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الإثنين . ولم تمض مدة حتى خرج «مراد بك» إلى المنيا غيظا من زميله ، لأنه اتحد مع خمسة من بيت عدوهما القديم وهم البكوات : «عثمان الشرقاوى» و «أيوب الصغير» و «سليمان» و «إبراهيم الصغير» و «مصطفى الصغير» .

ولبث «مراد بك» بعيداً عن القاهرة خمسة أشهر وإبرهيم يظن أنه لا يلبث أن يسكن غضبه ويعود إليه . فلما استبطأه ، أرسل إليه الاختيارية كما فعل ذاك معه . فأبى «مراد بك» ورد الاختيارية خائبين ، ثم جند جنداً من أتباعه المماليك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى أتى «الجيزة» - مقابل مصر القديمة - وعسكر هناك وهمّ بقطع النيل ، فعلم «إبراهيم بك» بذلك ، فجند فى الجهة المقابلة على البر الشرقى ليمنعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاربان إلا على سبيل

المناوشة بإطلاق مدفع أو مدفعين ولم يقتل إلا رجل أو فرس . فمل «مراد بك» من تلك الحال ، فعاد إلى المنيا (١) .

أما «إبراهيم بك» فكان كثير الرغبة فى مصالحة زميله ، فأنفذ إليه بعد خمسة أشهر من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون إليه الرجوع إلى القاهرة . فوافقهم لكن اشترط عليهم أن يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله إلى القاهرة ، فقبلوا بذلك الشرط ، فنزل معهم . فعلم أولئك البكوات سراً من «إبراهيم بك» بما اشترطه «مراد بك» فخرجوا من «القاهرة» نحو القليوبية على نية الشخوص إلى الصعيد عن طريق الأهرام فاتصل ذلك «مراد بك» ، فجعل عند الجسر الأسود قرب الأهرام عصابة من العربان تترصد مرورهم ، ولم يستطع صبراً على ذلك ، فقطع النيل ببعض رجاله ، فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج ، فتلاحموا ، فجرح «مراد بك» ، ونجا أولئك فلاقاهم العربان عند الجسر ، فأسروهم ، وجاءوا بهم إلى «مراد بك» فنفاهم إلى المنصورة و «فرسكور» و «دمياط» تفريقا لكلمتهم . وبعد مدة يسيره عادوا واجتمعوا فى آخر سنة ١١٩٧ واتفقوا أن

---

(١) فى المخطوط صورة مراد بك .

يفروا إلى الصعيد ، ويجمعوا إليهم عصابة يقاومون بها عدوهم . ولم يباشروا ذلك حتى توسط شيخ الجامع الأزهر فى أمرهم وحصل العفو لهم من «مراد بك» فصفح عنهم وأعادهم إلى القاهرة بكل إكرام وأعاد إليهم رتبهم وامتيازاتهم .

حملـة عثمانـية لحـرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على «إبراهيم بك» و «مراد بك» وهما على وفاق وسكينة يقتسمان إيراد البلاد بينهما بالسواء، لا يقدمون عنه حساباً ، أو إذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما «محمد باشا» والى مصر إذ ذاك إلى السلطان وبما كان فيه من الاستئثار بمالية البلاد . فأمر السلطان «عبد الحميد» - الأول - سنة ١١٩٩ هـ أن يرسل إلى مصر جيشا لايقافهما عند حدهما فسار الجيش فى عمارة بقيادة «حسن باشا قبطان» ، فوصلت الإسكندرية فى ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ ، فخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً فى الديوان ، وتباحثوا فى ما يجب اجراؤه ، فكثر اللغط ، واختلفت المقاصد والآراء ، فلم يقروا على شيء وأخيرا ارتأوا طلب توسط «محمد باشا» . ولما عرضوا عليه رأيهم رفض .

فطلبوا من شيخ «أحمد العروسى» شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ «محمد المهدى» الذى بقى فى زمن الفرنساوية كاتم سر الديوان – وغيرهما – أن يسيروا إلى «رشيد» ويستعطفوا القبطان باشا (١) .

فركبوا من «بولاق» فى زورق فاخر ، ومازالوا حتى بلغوا رشيداً ، فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام أما هم فلعلمهم أن الأميرين «إبراهيم ومراد» لا يثبتان على رأى خافوا إذا طلبوا العفو ، وحصلوا عليه أن ينكثا ذلك فتكون الملامة عليهم، فقال الشيخ العروسى : «يا مولانا إن رعية مصر ضعفاء ، وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا «لا تخشوا بأساً ، فإن أول ما أوصانى به مولانا السلطان هو قوله «إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعك ما أودعنيه الله تعالى» . فدعو له بطول العمر ثم قال لهم : «كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران يسومانكم سوء العذاب . لماذا لا تخرجونهما من دياركم ؟» فأجابه أحدهم بقوله : «يا سلطانم (٢) هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم» .

---

(١) فى المخطوط صورة الشيخ محمد المهدى الكبير .

(٢) سلطانم بمعنى سلطانى ، والميم فيها ملكية للمتكلم .

فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة أن هذا الوفد تصرف بالحكمة لأنهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم «مراد بك» ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والمماليك . ثم شاع أنهم نزلوا فى الرحمانية عند منشأ الترعة المحمودية الإسكندرانية ، وسبب ذلك أن «مراد بك» بعدما أرسل الوفد خطر الدفاع بالسيف ، فجمع إليه ذوى شوراه ، وفاوضهم ، فأقروا على الدفاع وأن يسير «مراد» لذلك ويبقى إبراهيم للمحافظة على القاهرة .

فسار «مراد بك» بمن معه ، ونزلوا الرحمانية - كما قدمنا - فلاقتهم الجنود العثمانية ، وجرت بينهما واقعة لم تطل إلا يسيراً . فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التى كانت تتدافع بين حوافر الخيل فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففر مراد بك ومن معه حتى أتوا القاهرة ، فاجتمعوا «بإبراهيم بك» وخرجوا جميعاً إلى الصعيد ، ومكثوا ينتظرون هجمات العثمانيين.

فلما رأى «محمد باشا» الوالى خلو القاهرة من المماليك جمع إليه الوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية.

وفى شوال سنة ١٢٠٠ ، دخل «حسن باشا» القاهرة بعد أن أخربت جيوشه ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شىء أصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة ، وقتل كثيرين منهم عبرة للباقين ، فكفت الأيدى فسكنت الناس . فلما دخل القاهرة ، نزل فى بيت «إبراهيم بك» عند قصر العينى على النيل ، ثم عرض أمتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومى ، ومن جملتها حريمهم وأولادهم ومماليكهم . فاسترحم المشائخ أن يخرج الأولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لأن ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الإنسانية فهو مغضب لله (١) .

فانتهرهم القبطان باشا قائلاً : «سأكتب إلى الأستانة بأنكم تعارضون فى بيع أمتعه أعداء جلالة السلطان فأجابه الشيخ السادات قائلا : «قد أرسلت إلينا لمعاقبة شخصين وليس لهتك شرائعنا والطعن فى عاداتنا فاكتب إلى الأستانة ما شئت» .

فعند ذلك أمر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع. و بعد أن بيعت سائر الأمتعة عكف «حسن باشا» فى إصلاح الإدارة ، فأصلحها على ما يوافق الإرادة الشاهانية .

---

(١) فى المخطوط صورة للشيخ أبو الأنوار السادات .

وكان قد استقدم «إسماعيل بك» و «حسن بك الجداوى» من الصعيد ، فأرسلهما فى جيش بقيادة «عابدين باشا» و «درويش باشا» قائدى الحملة العثمانية التى جاءت إلى مصر عن طريق البر - فضلا عن العمارة المتقدم ذكرها - وسار فى تلك الحملة أيضا نحو ألف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة أمير كبير من أمراء شيخى أوغلى ، فاجتمعت هذه الحملة ، وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله ، فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين ، وانهزم «مراد بك» ورجاله إلى الشلالات ، ورجعت الجنود العثمانية ظافرة إلى القاهرة . ثم جاءت الأوامر الشاهانية بعزل «محمد باشا» وتولية «عابدين باشا» .

وهنا تنتهى مهمة «حسن قبطان باشا» فاستدعى إلى الأستانة بسبب الحرب مع روسيا ، ولكن مصر لم تنج من البكوات. وكانوا لا يزالون فى مصر العليا كما رأيت ، والمسيحيون يشكون من معاملة «حسن باشا» بأنه أخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلاً عن الإهانة التى سامهم إياها ، وعلى الخصوص المعلم «إبراهيم الجوهرى» أمير احتساب مصر فإنهم قبضوا على امرأته وأجبروها أن تخبرهم بمخابىء زوجها من النقود ، فأخبرتهم ، فاستخرجوها ، وأخذوها .

ولما برح «حسن باشا» القاهرة ، أقام عليها «إسماعيل بك» شيخ البلد ، فعهد هذا إلى صديقه «حسن بك الجداوى» إمارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الإيراد .

فى سنة ١٢٠٣ هـ توفى السلطان «عبد الحميد الأول» .

سلطنة سليم الثالث

من سنة ١٢٠٣ - ١٢١٣ هـ -

أو من ١٧٨٩ - ١٧٩٨ م

هو ابن السلطان مصطفى الثالث ، تولى السلطنة وسنه ٢٨ سنة ، ووجه السياسة بظلم والدولة متضعضعة ، فبذل جهده فى الإصلاح ، ولكن اليأس كان قد استولى على الجنود وضعف عزائمهم .

وفى سنة ١٢٠٥ ، طرأ على القاهرة وسائر القطر المصرى وباء الوطأة لم تقاس قبله مثله ، حتى بلغ عدد الموتى نحو الألف فى اليوم بالقاهرة وحدها . وتقلب على حكومتهم فى يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك أن «إسماعيل بك» أصيب بالوباء ، فأقيم آخر مكانه ، فآخر حتى فنى كل من كان من بيت «إسماعيل بك» إلا واحداً يدعى «عثمان بك الطبل» ولا يزال هذا الوباء مشهوراً

بفتكه ، المعروف بطاعون [1] إسماعيل فتولى «عثمان بك الطبل» المذكور مشيخة البلد ، ولم يكن قادراً على إدارة الأعمال التى عهدت إليه فاستدعى «إبراهيم بك» و«مراد بك» فدخلا القاهرة فى ٢١ القعدة من تلك السنة ، ففر «حسن الجداوى» إلى مصر العليا قانطاً .

فاستلم «إبراهيم» و«مراد» أزِمَّة الأحكام ، وجعلا يعيثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وإمارة الحج سنوياً بعد أن أفنيا كل من كان على غير دعوتهما . فصفا الجو لهما [2] .

أما قلباهما فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من الحب الذاتى . وقد اختلفا فى الطباع والمناقب :

كان «مراد بك» شديد البطش مقداماً لا يهاب الموت .

وكان «إبراهيم بك» أكبر سناً ، وأكثر اختياراً ، ربعاً ضخم القامة ، حسن الطلعة ، حاد البصر ، وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للنزال ، ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتزاء من

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان عبد الحميد الأول .

(٢) فى المخطوط صورة للسلطان سليم الثالث .

الدخل على السواء ، وكان لا يعارضه فى ما يأتيه من الاستبداد ، ووضع الضرائب ، وسلب أموال الناس ، لأنه شريكه فى الأرباح الناتجة عن ذلك . وكان فى إبراهيم رياء يظهر غير ما يضمر إذا استصرخ وعد مع العزم على الإخلاف . وكان جباناً ، فإذا أراد أمراً لا يتظاهر به ، وإنما يسعى إليه بالدسائس والمكايد .

أما «مراد بك» فلم يكن يعرف المكر وإنما كان يسعى فى أغراضه بالقوة والحزم . وكان طويل القامة ، عضلى البنية ، شديد البأس ، يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه ملامح الأسود ، فإذا غضب يهابه ويخاف منه كل من يراه ، حتى أحب أصدقائه . وكان كريم النفس ، لا يبيت على غيظ . حر الضمير لا ينكر الحق ، ولو كان عليه ، مخلصاً لأصحابه ، مقيماً على قوله ، وكان طمعه بمقدار سخائه وحبه لذاته بمقدار حرية مبادئه وصراحته . وكان سريع الغضب لا يراعى فى حال غضبه أمراً من الأمور وربما فتك بمصلحة نفسه .

وألم بالبلاد بعد عود هذين الأميرين إلى «مصر» جوع هائل ، ويقال إنه جعل من كثرة ما ضبطاه من الحبوب فى مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم القيا النظامات التى وضعها «حسن

باشا قبطان» وأبدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية. فكثرت تعديات مماليكهما ، وعلى الخصوص تعديات «أحمد محمد الألفى» ، فثار الأهلون ثورة عامة لم يسعهما معها إلا توقيف تلك الإجراءات وقتياً ، فخمدت الثورة . فعادا إلى ما كانا عليه فعاد الناس إلى الاضطراب ، وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية ، وضربا على التجار الأجانب فى الإسكندرية ضرائب فاحشة ، فرفعوا شكواهم إلى قناصلهم . فلم تكن النتيجة إلا زيادة الاضطهاد .

كل ذلك كان يجرى والسلطان «سليم الثالث» يعلم بذلك وهو من أرغب السلاطين بالإصلاح ، ولكنه غُلب على أمره ، وفى أيامه وهذه حالة مصر ، حمل عليها بونابرت سنة ١٢١٣ هـ أو ١٧٩٨ م ، واحتلها ، وهو آخر المراد بسطه من تاريخ العثمانيين بمصر فى هذا الكتاب (١) .

---

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان سليم بن مصطفى .

العلم والأدب
ومشاهير العلماء والأدباء بمصر
فى الأدوار الثانى والثالث والرابع من
العصر العثمانى
من سنة ١١١٥ - ١٢١٣ هـ

إن الاضطرابات السياسية ، واختلال الداخلية فى الأدوار الثلاثة الأخيرة ، وقفت من سيل القرائح ، وشغلت الناس عن العلم والأدب ، ومع ذلك فقد ظهر فى هذه الفترة جماعة من الشعراء والأدباء والفقهاء ونحوهم . هاك أشهرهم :

١ - الشعـــراء

١ - الحسن البدرى الحجازى الأزهرى :

توفى سنة ١١٣١هـ ، وكان شاعراً عاماً تعلم فى الأزهر ، ومال إلى الإنزواء للمطالعة والنظم ، وله فيه طريقة حسنة ، وقد نظم أرجوزة فى التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة الصارح والباغم ، ضمنهما أمثالاً وحكايات ونكات . وله ديوان على حروف المعجم سماه : «تنبيه الأفكار للنافع والضار» ، منه نسخة

خطية فى المكتبة الخديوية وفى شعره صبغة عامية وسهولة يرضاها العامة . وفيها نصائح لهم ولسائر الناس ، ومن أمثلة ذلك قصيدة بائية قال فيها :

أخى فطناً كُن ، واحذر النـاس جملـة
ولاتك مغـرور الظنـون الكـواذب

فكم من فتـى يرضيك ظـاهـر أمـــره
وفـى باطـن يرتا غ روغ الثعالـب

إذا بـك يلقـى ظافـراً كـان كـافـراً
يذيقك نكر النكر مـن كل جـانـب

ولا سيـــما نـوع الأقـــارب إنهـــم
عقابك فى الدنيا وعقر العقـارب

إذا كنـت فى خيـر تمـنوا لــك الردى
لإرثـك ميـتاً أو لنـهبـة نـاهـــب

وإن كنـــت ذا فـقر فأنت لديهـــم
أخس خسيس من أخس الأكالب

فلاتـــك للطـــلاب لـلإرث تاركـــاً
طلابا سـوى خيبات طلبـة طالـب

ونحو ذلك ما تلقى معاينة للجمهور .

٢ - «عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوى الأزهـــرى» :

أحد أساتذه الأزهر ، توفى سنة ١١٣٢ ، لــه :

١ - «ديوان منائح الألطاف فى مدائح الأشراف» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب برلين وغوطاً وباريس وقد طبع فى بولاق ومصر مراراً .

٢ - وكتاب الإستقهاءه الشبراوية ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - عروس الآداب وفرجة الباب، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٤ - «عنوان البيان وبستان الأذهان» طبع فى القاهرة مراراً

٥ - «نزهة الأبصار فى رقائق الأشعار» فى مكتبة باريس .

٦ - «حمل زجل» ، طبع فى القاهرة .

٧ - أسنى المطالب لدراية الطالب ، فى مكتبة برلين .

٨ - «نظم أسماء بحور الشعر» فى المكتبة الخديوية .

٩ - «الإلتحاف بحب الأشراف» فى مكتبة باريس .

١٠- «شرح الصدر بغرة البدر» ، فى المكتبة الخديوية وطبع فى القاهرة سنة ١٢٠٣ هـ .

٣ - «عبد الله الادكاوى المصرى» :

نسبة إلى إدكو قرب رشيد وقد اشتهر «بالمؤذن» ، توفى سنة ١١٨٤ هـ ، تقرب من نقيب الأشراف فى عصره ، فأكرمه وأدناه ، ولما مات النقيب تزوج وتغيرت حاله ، فلازم الشيخ الشبراوى ، ومدحه ، وكان يحترمه ومن مؤلفاته :

١ - «بضاعة الأريب فى شعر الغريب» وهو مجموعة من شعره ذيلها بذيل سمكى وسيمة القضر ، منها نسخة خطية فى مكتبة باريس .

٢ - «الدر المنتظم فى الشعر الملتزم» .

٣ - «الفوائح الجنائية فى المدائح الرضوانية» .

٤ - «الدر الثمين فى محاسن التضمين فى المكتبة الخديوية».

٥ - «هداية المتوهمين فى كذب المنجمين» طعن فيه على أهل النجامة ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا .

٦ - «المقامة القزية فى المجون» . وكان حسن الخط ، نسخ عدة كتب وله مفارقات لطيفة مع شعراء العصر الواردين على مصر ومن مليح شعره قوله يدعو إلى نبذ التقيد بالقديم :

كن للمعاصر خير ناصر　　　كم للأوائل من مفاخر

لا تحقـرن جديـــدهـــم	كم فى جديدهم جواهـر
ودع التعـصــب لــلأوا	ئل يافتــى أو لــلأواخـر
من كان منهــم مبدعــاً	فاعقد عليه من الخناجر

٢ - علمـــاء الفـقـــه

واشتهر من علماء الفقه فى هذا العصر :

١ - «إبراهيم بن مصطفى الحلبى المدارسى» توفى سنة ١١٩٠ م ، وقد تعلم فى مصر ودمشق وأخذ التصوف عن «عبد الغنى النابلسى» الشهير ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتعين معيداً لعلى الضرير . وسافر إلى «الآستانة» وتعرف هناك إلى «محمد باشا» الوزير المعروف «بالراغب» فتعرف به وقرأ عليه . واجتمع بشيخ الإسلام هناك «عبد الله» الشهير «بالإيرانى» وكان إذ ذاك قاضى العسكر ، فصار عنده مفتشاً ومميزاً ، وقرأ عليه علماء الروم ، ومازال يرتقى حتى توفى هناك ، وأكثر علماء الأزهر فى زمانه من تلامذته . ومن آثاره الباقية كتاب «الحلة الضافية فى علمى العروض والقافية» منها نسخة فى المكتبة الخديوية . و«تحفة الأخبار على الدر المختار» فيها .

٢ – «السيد محمد تقى الحسينى الزبيدى» الفقيه [١] اللغوى النحوى الأصولى الناظم الناثر صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، توفى سنة ١٢٠٥ . ولد فى زبيد ، ونشأ هناك ، ثم رحل فى طلب العلم وجاء مصر سنة ١١٦٧ ، وحضر دروس أشياخ زمانه ، وما لبث أن ظهر فضله عند الخاص والعام وارتقت حاله ، فلبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، واشتغل بعلوم أهملها أسلافه كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث . وألف من ذلك كتباً ومنظومات ، وكان مظهره مخالفاً فى زيه وحاله لعلماء عصره . ويعرف اللغة التركية والفارسية وبعض لغة الكرج ، وكان الوجهاء يتسابقون إلى دعوته والإيلام له وإلى مجالسته ومحادثته . وزادت منزلته على الخصوص لما فرغ من كتابه «تاج العروس» وهو أشهر مؤلفاته . وفى شهرته ما يغنى عن وصفه ، فإنه يدخل فى عشرة مجلدات طبع فى «القاهرة» سنة ١٣٠٦ . وفى صدره مقدمة نفيسة فى اللغة ومراتب اللغويين ، وأول من ألف فى اللغة وترجمة الفيروز ابادى وغير ذلك . وله كتاب «نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح» منه نسخة خطية فى «برلين» وله كتب أخرى .

(١) الصحيح : السيد مرتضى الحسينى الزبيدى ، صاحب كتاب تاج العروس .

٢ - «موسى بن أحمد البيلى العدوى المالكى» كان شيخ رواق الصعايدة بالأزهر ، توفى سنة ١٢١٨ . وله من المؤلفات المنح المتكفلة بحل الفاظ القصيدة العربية الموسومة بمورد الظمآن فى صناعات البيان وهى مشروحة ومنها نسخة خطية فى مكتبة «برلين» وكتاب «فائدة الورد فى الكلام على أما بعد» منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وفيها أيضا له «البشارة لقارئ الفاتحة» ومنظومة فى الصرف .

٣ - المـؤرخـــون

١ - «إبراهيم بن أحمد أفندى الخطاط شاهزاده» كتب نحو سنة ١١٣٣ ، له كتاب «مبدأ العجائب بما جاء فى مصر من المصائب» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «الأمير كتخده الدمرداش عزبان» [١] ، توفى سنة ١١٦٩ وله كتاب «الدرة المصانة فى أخبار الكنانة» مكتوبة بلغة العامة ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا ومنشن والمتحف البريطانى .

(١) الاسم الصحيح هو الأمير أحمد الدمرداش كتخدا عزبان وقد نشر هذا المخطوط بمعرفة : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدرة المصانة فى أخبار الكنابة ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ وأيضا د. عبد الوهاب بكر - دانيال كريسيليوس صفحات من تاريخ مصر العثمانية ، دار الزهراء ١٩٩٣ .

٣ – «عبد الرحمن بن الحسن بن عمر أبى اللطائف الأصهورى المالكى المغربى» «سبط القطب الحدَيدى» . تعلم فى «القاهرة» وتعينْ استاذا فى الأزهر وفى السنانيـة ببولاق ، وتوفـى سنة ١١٩٨ . وله كتاب «مشارق الأنوار فى أهل البيت الأخيار» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ – الفقــهاء ونحـوهــم

الفقــه المـالــكى

١ – «ناصر الدين النشرتى المالكى» من أساتذه الأزهر :

توفى سنة ١١٢٠ هـ ، له كتاب «الأنوار الواضحة فى السلام والمصافحة» فى المكتبة الخديوية .

٢ – «شمس الدين الزرقانى المالكى» :

توفى سنة ١١٢٢هـ ، وله كتاب «وصول الأمانى بأصول التهانى» ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وله شرح الموطأ، وشرح المواهب اللدونية للقسطلانى .

٣ – أبو الحسن الصاعدى العدوى المالكى» :

من أساتذة الفقه المالكى ، توفى سنة ١١٨٩هـ . له رسالة فيما

تفعله فرقه «المطاوعة من المتسوفة من البدع فى المكتبة الخديوية ، وله عدة حواشى على كتب فقهية .

الفقــه الشـافـعـى

١ – «شمس الدين البديرى الدمياطى» :

درس فى دمياط وفى الأزهر ومكة ، وتوفى سنة ١١٤٠ وله «إرشاد العمال» إلى ما ينبغى فى يوم عاشوراء وغيره من الأعمال، منه نسخة فى المكتبة الخديوية . وكذلك كتاب بلغة المراد فى التحذير من الافتتان بالأموال والأولاد . وله كتاب تحرير الإفهام فى كيفية توريث ذوى الأرحام منه نسخة فى مكتبة بطرسبورج .

٢ – «أحمد بن عمر الديربى الشافعى الأزهرى» :

توفى سنة ١١٥١هـ . له كتاب «غاية المقصود عن قيود العقود» منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وفى مكتبة برلين ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٩٧. وكتاب «غاية المرام فى ما يتعلق بانكماش الأنام» ، فى المكتبة الخديوية ، وكذلك كتاب فتح الملك الجواد لتسهيل قسمة التركات على بعض العباد ، وكتاب المجرات طبع فى القاهرة .

٣ – «الحسين بن أحمد المحلى» :

توفى سنة ١١٧٠، له كشف اللثام عن أسئله الأنام منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٤ – «نجم الدين محمد بن سليم الشافعى المصرى الحنفى الحسينى» فى حفنه قرب بلبيس درس فى القاهرة ، ودخل طريقة الخلوتية الرائجة فى تلك الأيام وتوفى سنة ١١٨١هـ ، وله : «الثمرة البهية فى أسماء الصحابه البدرية» وذكر أسماء أهل بدر . وعدة رسائل فى أمثال ذلك ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

وهناك طائفة كبيرة من الفقهاء الشافعية نبغوا فى ذلك العصر بمصر منهم :

– «عيسى بن أحمد الدرادى» ، توفى سنة ١١٨٢ .

– و«أحمد الشجاعى» سنة ١١٩٠، وله مؤلفات كثيرة أكثرها موجودة فى المكتبة الخدوية .

– و «حسن الكفراوى» من أساتذه الأزهر ، توفى سنة ١٢٠٢. فضلاً عن فقهاء الحنابلة والشيعة ومن هؤلاء .

– «أبو السعود أحمد بن عمر بن السقاطى» ، توفى سنة ١١٥٩هـ فى القاهرة ، وله كتب فى القراءات ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

– و «الحسن بن على الأزهرى المنطاوى المدابغى» من أساتذه الأزهر ، توفى سنة ١١٧٠. وله كتاب «اتحاف فضلاء الأمة المحمدية ببيان جمع القراءات السبع من طريق التيسير» فى المكتبة الخديوية . وكتاب فى مولد النبى ، فيها أيضا .

٤ – المتصوفة

وهناك طائفة من المتصوفة نبغت فى مصر بذلك العصر منهم :

– «على بن محمد المصرى» المتوفى سنة ١١٢٧هـ، وله تعاليق وشروح .

– و «على بن حجازى البيومى الدمرداشى» توفى سنة ١١٨٣هـ بالقاهرة ، وله كتاب فى الطريقة الدمرداشية منها نسخة فى برلين وكتاب «الأسرار الخفية» منه نسخة فى المكتبة الخديوية . ورسائل عديدة ، بعضها موجود فى المكتبة المذكورة .

ومن مشاهير الصوفية وكبارهم : الشيخ «عبد الرحمن العيدروسى» أصله من بلاد اليمن ، ولد فى تريم ، وتنقل فى بلاد اليمن وغيرها فى تاريخ طويل حتى استقر له المقام فى القاهرة ، واشتهر فيها ، وقصده الطلاب حتى توفى سنة ١١٩٢هـ ، وهو من

أساتذة الشيخ «عبد الرحمن الجبرتى» صاحب التاريخ المشهور ، وقد ترجمه مطولاً ، وله مؤلفات تزيد على بضعة عشر منها .

١ - «النفحة العيدروسية فى الطريقة النقشبندية» منها نسخة فى برلين .

٢ - «النفحة المدنية فى الأذكار القلبية والروحية والسرية» منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «لطائف الجود فى مسأله وحدة الوجود» ، منها نسخة فى برلين .

٤ - «العرف الوردى فى دلائل المهدى» ، فيها .

٥ - «اتحاف الخليل بالمشرب الجليل الجميل» ، فى المكتبة الخديوية . وله عدة رسائل وقصائد ، منها فى هذه المكتبة وغيرها .

- و «محمد بن حسن بن محمد السمنودى الأزهرى جمال الدين» تثقف فى الأزهر ، ودخل الطريقة الخلوتية . ثم تولى قراءة القرآن بالقاهرة ، وتوفى سنة ١١٩٩هـ . وله «تحفة السالكين ودلالات السائرين منهج المرقبين ، طبعت بمصر سنة ١٢٨٧هـ .

- وأبو البركات أحمد بن محمد الدردير المالكى العدوى الأزهرى الخلوتى» :

تعلم فى الأزهر . ثم صار ناظر وقف الصعايدة وشيخ الرواق وتوفى سنة ١٢٠١ ، وله عدة كتب منها .

– «الخريدة البهية فى القصائد التوحيدية ، طبع فى الإسكندرية سنة ١١٨١ ، وتحفة الأخوان فى بيان تاريخ أهل العرفان» ، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨١ . وكتب أخرى موجودة خطاً فى المكتبة الخديوية وغيرها .

ومنهم «سليمان بن عمر بن منصور العجيلى الأزهرى الجمال» المتوفى سنة ١٢٠٢هـ .

ونبغ غير واحد فى علم النجوم أو النجامة منهم :

– «حسن بن إبراهيم الزيلعى الجبرتى» من أسرة الجبرتى المؤرخ ، كان استاذاً فى القاهرة ، توفى سنة ١١٨٨ ، وله عدة مؤلفات ورسائل فى هذه الفنون يمكن الإطلاع عليها من المكتبة الخديوية .

ونبغ من الأطباء :

المؤلفين «أحمد بن عبد المؤمن الدمنهورى» المتوفى سنة ١١٩٢ ، كان أستاذا فى الأزهر . وله مؤلفات عديدة فى أكثر الفنون تجد أكثرها فى المكتبة الخديوية .

ولو أردنا تعداد المشاهير في ذلك العصر لضاق المقام وإنما أردنا إيراد الأمثلة لحالة تلك الأيام الأدبية والعلمية وقد رأيت أنها في حالة الانحطاط، لأن ما تقدم ذكره من المؤلفات العديدة قلّ فيه المستنبط أو الوافى . ولعل هذا العصر أحط عصور التمدن الإسلامى .

ويلاحظ فى لغة ذلك العصر : أن الإنشاء انحط إلى أقصى درجاته حتى صار أقرب إلى لغة العامة وانحطاط اللغة تابع لانحطاط نفوس أهلها ، ومن أشهر أمثلة إنشاء ذلك العصر تاريخ «الجبرتى» وتاريخ «ابن إياس» .

أما كتب الفقه ، فيرجع اجماليها إلى المصطلحات الفقهية وهى قلما تتغير مع الوقت . وأكثر ما كتب فى تلك الفترة ، إنما هو من قبيل التقليد أو التلخيص أو الشرح أو التعليق .

وقد رأيت أن أكثر المؤلفات فى علوم الدين الإسلامى ، لأن العلم انحصر يومئذ فى الأزهر تقريباً . فإن أكثر طلابه من الفقهاء ، إلا من كان فيه ميل خصوصى لعلوم أخرى ، مع أن أوربا كانت قد أفاقت من غفلتها وأخذت فى تأسيس العلوم الحديثة. ولم يبلغ خبر ذلك إلى مصر إلا على يد الحملة الفرنساوية

سنة ١٧٩٨، فإنها أتت معها بحملة علمية ، فضلاً عن الحملة العسكرية ، فبهر العقلاء من أحوالهم وإن لم يأخذوا عنهم شيئا . وإنما ترى ذلك الفضل للأسرة المحمدية العلوية وأول من أخذ من هذه النهضة «محمد على باشا» مؤسس هذه الأسرة العلية .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

أما الهيئة الاجتماعية فى ذلك العصر ، فإنها تختلف عما نحن فيه الآن اختلافاً كبيراً ، فإنهم لم يكونوا يدركون ما ندركه نحن من لفظ الوطن والاستقلال والدستور والحرية الشخصية ، وحقوق الفرد ، وحقوق الجماعة . وإنما كانت الأمة مؤلفة من الحكام أصحاب الأمر والنهى والسطوة والنفوذ ، والشعب وما عليه إلا الطاعة وتحمل المصائب بالصبر . فإن أحدهم كان إذا نهض من فراشه خرج من بيته وهولا يدرى ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الإهانة إذا كان فى يده مال لا يأمن من أن يبقى ذلك المال له إلى المساء ، وإذا كان له فرس أو بغل أو دابة كانت عرضة للسخرة بأمر الحاكم أو بعض رجاله .

وناهيك بالضرائب المتوالية التى لا يُسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها مرة أو غير راضياً أو غاضباً . حتى نساؤهم وأولادهم إنهم لم يكونوا آمنين عليهم من السطو والنهب .

بالأمة التى هذا حالها من الضنك والذل والظلم لا غرو إذا ظلمت فيها المرأة وصارت كالأمة لأن ظلمها تابع لظلم الحكام؛ فإن الرجل يقضى نهاره مظلوماً لا يستطيع رداً ، ولا دفاعاً أو انتقاماً، فإذا أتى بيته تشبه بحكامه لأنه فى عائلته كالأمير فى بلده ، يأمر وينهى فيعامل أهله كما عومل . وبذلك كانت المرأة تُظلم وتنحط فى عهد الحكومة الاستبدادية الظالمة [١] ولا غرو إذا انصرف أولئك المظلمون من الرجال إلى تسلية أنفسهم ، وتصريف تغيظهم بالمشروبات الروحية أو تدخينها المخدرات كالحشيش ونحوه ، ولذلك كثر تناول هذا العقار فى تلك الأثناء يخدر الناس أعصابهم وينسوا حالهم [٢] .

---

(١) ما ذكره المؤلف عن ظلم المرأة وانحطاط وضعها فى العصر العثمانى ليس هناك ما يؤكده بل العكس هو الصحيح ، فوثائق المحاكم الشرعية تفيض بالوثائق الخاصة بقضايا الأسرة والمرأة . فعلى سبيل المثال فإن وثائق محكمة الباب العالى الخاص بقضايا الزواج أو الطلاق شواهد صدق على علو مكانة المرأة فى مصر العثمانية . انظر د. سوسن سليمان يحيى قضايا المرأة فى مصر العثمانية (مجلة كلية الآداب عدد خاص ٥٧) ص ١٩٩ – ٢٢٥ .

(٢) تناول المخدرات لم يكن بالظاهرة التى يصورها المؤلف وكأنها عادة يومية عند الناس فما ذكرته المصادر المعاصرة ، هو انتشار عادة التدخين لكنها كانت للقادرين فقط . انظر الجبرتى : حـ١ . ص ٤١ مطبعة الأنوار المحمدية درت .

الـزراعـــــة

وطبيعى أن يرافق ذلك الانحطاط السياسى والعلمى انحطاط اجتماعي واقتصادى ، فتناقص عدد السكان فى أواخر ذلك العصر حتى أصبح أقل من ٢,٠٠٠,٠٠٠ نفس فى القطر المصرى أعلاه وأسفله ، وتناقصت البقاع المزروعة فى وادى النيل حتى نقصت عن مليون فدان وبعض المليون . والأرض يومئذ ملك الحكومة وليس للناس إلا أن يتمتعوا بريعها وللحكومة حصة من ذلك الريع فى مقابل حمايتها أو إصلاح شئونها وهو الخراج . على أن فساد الأحكام فى عهد المماليك شغل الناس عن الزراعة فقلت الجباية فتعسر حلها ، والحكام فى ذلك العهد إنما يلتمسون السلطة طمعاً بالمال ، فعمدوا إلى طريقة «الإلتزام» وهو تضمين الخراج لإناس يتولون جمعه عن الحكومة ، ويشاركونها في نفوذها ، فلا يزيدون الأهالى إلا ضغطاً وعسفاً .

وذلك أن الحكومة كانت تعرض خراج البلاد بالمزايدة لمن يضمنه من أهل النفوذ ، فيضمن أحدهم بلداً أو بضعة بلاد فإذا وقع عليه المزاد أعطاه كبير المماليك «شيخ البلد» عهداً بذلك يسمونه تقسيط ويصحبونه بأمر يسمونه «فايك» وهو عبارة عن

خطاب من الحكومة إلى أهالى البلد الواقع فيها إلتزام ذلك الملتزم، توصيهم فيه أن يطيعوا الملتزم ويؤدوا له الخراج . والملتزم يدفع للخزينة فى مقابل ذلك مال سنة معجلاً ، ويقوم مقام الحكومة فى السيادة والإمارة فى البلاد الداخلية فى التزامه . وله عدا ذلك بقعة من الأرض يستغلها بنفسه ، لا يدفع عنها شيئا وتسمى «أوسيه» «جمعها أواسى» وعلى الأهالى أن يحرثوها له ويزرعوها ويحملوا إليه غلاتها بلا أجرة فضلاً عن منافع أخرى .

وكان الإلتزام فى بادىء الرأى لمدة محدودة ، ثم جعلوه لمدى العمر فلا ترجع الأرض للحكومة إلا بعد وفاة الملتزم . فكان الانتفاع بغلة الأرض مقسوماً بين الحكومة والملتزمين . والفلاح عبدٌ رق يعمل بقوته ويشقى بعمله . فهل يلام إذا قعد به القنوط من العمل أو حمله الخوف على الفرار ؟ (١) .

التجــــارة

أما التجارة فكانت فى زمن المماليك ضعيفة جداً ، لأنها لا تنمو إلا في ظل الأمن والعدل . فكانت قاصرة على بعض ما يحمل من محصولات هذه البلاد إلى «أوربا» وأهمها الحبوب والسكر

(١) هذه نظرة قديمة ، تحتاج لتدعيمها أو نفيها دراسات تاريخية واجتماعية واقتصادية علمية فى تاريخ ، الدراسات فيه قليلة بل نادر حتى الآن .

والرز ، ومما يمر بها من واردات السودان كالصمغ والعاج والريش ونحو ذلك ، وبعض ما يحمل إليها من المصنوعات الإفرنجية من «إيطاليا» و«فرنسا» و«المانيا» وغيرها .

ذكر «فولنى» الرحالة الفرنساوى فى رحلته إلى «مصر» أواخر القرن الثامن عشر أن تجارة «مصر» كان معظمها فى أيدى السوريين المسيحيين ثم أهل البندقية والإنكليز والفرنساويين وكانت الجمارك يومئذ «بالإسكندرية» و«رشيد» و«دمياط» و«السويس» و«القصير» وفى «بولاق» و«مصر القديمة» . وكانت الحكومة تضمن دخل هذه الجمارك كما كانت تضمن خراج الأرض . والغالب أن يضمنها بعض اليهود . فلما أفضت «مصر» إلى «على بك الكبير» المتقدم ذكره تحولت ضمانة الجمارك إلى أيدى السوريين ، ولم يكن منهم يومئذ فى مصر إلا عائلات قليلة من أهل دمشق وكانوا يتعاطون التجارة فيها .

على أن الجمارك كثيرا ما كان يتولى شئونها أمراء المماليك أنفسهم وخصوصاً فى أواخر القرن الثامن عشر ، إن «إبرهيم بك» و«مراد بك» اقتسما الانتفاع بها ، فاختص «إبراهيم» بجمرك السويس وعهد به إلى عمال يديرونه بالنيابة عنه ، واستولى

«مراد» على سائر الجمارك فضمنها بعض أهل الوجاهة . وكانت إيرادات الجمارك نحو مليون ريال أبو طاقية أو نحو ١٢٠,٠٠٠ جنيه أكثر تجمع من جمرك السويس .

النقـــود المصـــريـــة

وقد تقدم الكلام عن حل النقود المصرية أواسط العصر العثمانى وهى الأنصاف والبندقى والزر محبوب فى آخر القرن الثانى عشر للهجرة كان الدينار يساوى ١١٠ أنصاف ، والبندقى ٢٢٥ نصفاً ، والبنتو ٤٠٠ نصف . فكانت الأنصاف تقل قيمتها بتوالى الأعوام مع بقاء قيمة الذهب على حالها تقريباً ، فالدينار كان يساوى سنة ١٩٣ هـ . ١١ أنصافاً مثلاً ، فصار يبدل بعد عشر سنين بنحو ١٥٠ نصفاً ، وهكذا ، وكانت أسعار الأشياء التى تفد بالأنصاف ترتفع كل سنة عما قبلها إرتفاعاً تدريجياً . ولم يكن ارتفاعها من توفر الثروة كما حدث لهذا العهد ، وإنما كان سببه تلاعب رجال الحكومة بالنقود الفضية وغشها ، فإذا رخصت قلّت النقود وظهرت المبيعات غالية ، وهاك على ذلك بأثمان أهم المأكولات فى أول القرن الثالث عشر للهجرة إلى سنة ١٢١٩ باعتبار الأنصاف من كل رطل :

سنة	اللبن	الضأن	الصابون	المسلى	القمح بالأردب
١٢٠٤	٣٦	٧ ١/٢	١٢	١٨	٢٠٠
١٢٠٩	٣٨	٨	١٨	٢٠	٤٠٠
١٢١٦	٥٠	٨ ١/٢	١٨	٢٥	٨٠٠
١٢١٩	٧٠	..	٢٤	٣٦	١٦٠٠

فيتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن الغلاء سائر على سنة طبيعية بالتدريج . والواقع أن الأشياء لم ترتفع أسعارها إلا بالنظر إلى الفضة . أما بالنظر إلى الذهب فظلت باقية على حالها تقريباً وكثيراً ما كان أولو الأمر والأغنياء يرجون الأموال الكثيرة فى تبديل النقود .

فلما استتب الأمر «لمحمد على» (١) شاع استعمال القرش وهو ألمانى الأصل ، وكان سنة ١٢٣٠ هـ يساوى ٤٠ نصفاً ثم أصاب القروش بتوالى الأعوام ما أصاب الأنصاف على الكيفية المبينة فى الجدول الآتى ، وهى أسعار النقود الذهبية المعروفة يومئذ بالقروش المصرية من سنة ١٢٥٠ إلى ١٢٨٦

(١) محمد على باشا : مؤسس الأسرة العلوية بمصر .

سنة	الجنيه الإفرنجي	الجنيه المصرى	البينو	المجر	الجنيه المجرى	البندقي
١٢٥٠	٥٣	..	..	٤٤	..	٤٥
١٢٥٦	١٠٠	١٠٣	..	٤٧	..	٤٩
١٢٦١	١٠٣	١٠٥	٧٧	٤٧	..	٥٠
١٢٧٠	١١٤	١١٧	٩٠	٥٤	١٠٥	٥٦
١٢٧٧	١٤٧	١٥٠	١١٦	٧٦	١٣١	٧٢
١٢٨٥	١٩٢	١٩٧	١٥٢	٩١	١٧٢	..
١٢٨٦	١٩٩	٢٠٣	١٥٨	٩٥	١٧٩	..

فنرى فى ذلك أن القرش نزل سعره إلى النصف ، وباعتبار الجنيه الإفرنجى إلى الربع فى ٣٥ سنة . وكانت الحكومة المصرية قد أخذت فى تنظيم شئونها التجارية على عهد «إسماعيل باشا» الخديوى غير أن اختلاف أسعار النقود على هذه الصورة لا يرجى منه نجاح ، فأصدرت سنة ١٢٨٦ هـ تعريفة للنقود جعلت المعاملة فيها على المناصفة فالجنيه الإفرنجى كانت قيمته ١٩٩ قرشاً فجعلتها $\frac{١}{٢}$ ٩٩ والمصرى ٢٠٢ قرش جعلت قيمتـه $\frac{١}{٢}$ ١٠١ قرش ، وقس على ذلك . ثم تنوعت الأسعار قليلاً حتى وقفت على قيمتها المشهورة الآن . وهذا هو أصل المعاملة التعريفة والصاغ فى مصر .

التعليم بمصر فى ذلك العصر

ونختم الكلام بفذلكة في حال التعليم فى ذلك العصر ، فإنه كان يختلف عن تعليم هذه الأيام . ومعلوم أن التعليم فى إبان التمدن الإسلامى كان محصوراً بالمساجد كما كانت مدارس النصارى محصورة في الأديرة والكنائس ، وكان المسلمون يسمون التلامذه المجتمعين حول أستاذ يتلقون منه العلم «حلقة» وتفرعت العلوم بتوالى العلوم ، واتسعت دوائرها حتى أصبح العلم الواحد عدة حلقات والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها ، فيقولون مثلاً حلقة «أبى إسحاق الشيرازى» فى جامع «المنصور» أو نحو ذلك ، وكانوا يجعلون فى كل جامع خزانة كتب للمطالعة والإستنساخ .

على أن التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس فى المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها ، وكان الأغنياء إذا أرادوا تعليم أولادهم أحضروا المعلمين إلى منازلهم .

وكانت مصر فى القرن الأول للهجرة ولاية من ولايات المملكة الإسلامية تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد ، فكان التعليم فيها ثانوياً ، ودخل القرن الرابع للهجرة وليس فى عاصمتها

إلا جامعان ، جامع «عمرو» وجامع «ابن طولون» تُلقى فيها العلوم الإسلامية على مذهب أهل السنة لأنها كانت تابعة للدولة العباسية. فلما تغلب الفاطميون على مصر فى أواسط القرن الرابع ، وانتقلوا إليها وبنوا مدينة القاهرة ، وأنشأوا فيها مسجداً يعلمون فيه مذهبهم « الشيعة » وظل الأزهر مدرسـة شيعيـة طـوال خـلافة الفاطميين نحو ٢٠٠ سنة حتى غلبهم «صلاح الدين الأيوبى» سنة ٥٦٧ هـ ، وكان سُنِّى المذهب ، وليس له بدّ من متابعة خليفة يثبته فى منصبه فبايع الخليفة العباسى فى بغداد ، وخطب له فى الأزهر . وكان «صلاح الدين» على مذهب الإمام الشافعى فلم يضطر لتبديل كثير فى طرق التعليم ، وقبل الناس سلطته على أهون سبيل ولكنه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب «أبى حنيفة» ، ورأى بحكمته وسداد رأيه أن يكتسب ولاء سائر المسلمين ، فأجاز التعليم فيه على المذاهب الأربعة . وكل مذهب يحضره أهله فآل ذلك إلى اتساع شهرة هذه المدرسة ، وتقاطر إليها الطلاب من أربعة أقطار المسكونة ، ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ، ولكنه تناول شيئا من الرياضيات والنجوم وبعض علوم الطبيعة .

وما زال ذلك شأنها فى أيام الأيوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان «سليم العثمانى» ، وفتح مصر ، ثم استبد الأمراء المماليك بالحكومة ، فاشتغل الناس عن العلم ، وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه فى سائر المملكة الإسلامية إلا فى مصر ، لأن مدرسة الأزهر فيها ، وكانت أكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية حية بتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم ، وأهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات .

ومازال الأزهر أهم مصادر التعليم فى القطر المصرى إلى النهضة الحديثة بعد إنشاء المدارس على النسق الجديد فى أيام «محمد على» لتعليم العلوم الحديثة ، كالطبيعيات والطب والهندسة وغيرها . أما قبل هذه النهضة ، فكانت هذه العلـوم ولاسيما الطب يدرس فى المارستانات أهمها فى دولة الأمراء المماليك «المارستان المنصورى» فى شارع النحاسين ، ولا تزال آثاره باقية هناك إلى الآن .

تـم الكـتـاب

فهرس الفصول
لمصر العثمانية

مقدمات تمهيدية

التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ

تاريخ مصر العثمانية

العلم والأدب

الدور الثانى من العصر العثمانى

الدور الثالث من العصر العثمانى

الدور الرابع من العصر العثمانى

العلم والأدب

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

قائمة المصادر والمراجع الخاصة بالتحقيق

أولاً : المصادر والمراجع :

١ - ابن اياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) ، «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، حققها وكتب المقدمة محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة (٣) ١٩٨٤ م جـ ٥ .

٢ - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية مصر.

٣ - أحمد عبد الرحيم مصطفى «دكتور» حركات التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث . القاهرة ١٩٧١ م .

٤ - إسماعيل الخشاب ، تاريخ المماليك فى مصر ، مخطوط رقم ٢١٤٨ تاريخ طلعت دار الكتب المصرية .

٥ - حسين افندى الروزنامجى ، ترتيب الديار المصرية ، نشر شفيق غربال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق» ١٧٩٨ - ١٨٠٠م مجلة كلية الآداب المجلد الرابع حـ١ مايو ١٩٣٦ .

٦ - سوسن سليمان يحيى (دكتورة) قضايا المرأة فى مصر العثمانية مجلة كلية الآداب عدد خاص ٧٥ .

٧ - شوقى أبو خليل جرجى زيدان فى الميزان دمشق ١٩٨٠م.

٨ - عبد الرحمن الجبرتى عجائب الآثار مطبعة الأنوار القاهرة .

٩ - ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الصعيد فى عهد شيخ العرب همام؛ القاهرة ١٩٨٧ .

١٠- ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الإدارة فى العصر العثمانى القاهرة ١٩٧٨ م .

١١- محمد حرب (دكتور) «العثمانيون فى التاريخ والحضارة» دمشق ١٩٨٩ م .

١٢- محمد حرب (دكتور) «حملة السلطان سليم الأول على الشام ومصر» (باللغة التركية) استانبول ١٩٨٦ م .

١٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق الدكتور إحسان حقى - دار النفائس طبعة (٢) ١٩٨٣ م .

١٤- معلم جودت (اينانج آلب) ذيل على فصل «الأخية الفاتيان التركية» فى رحلة ابن بطوطة استانبول ١٣٥٠هـ-١٩٣٢م.

١٥- هاملتون جب وهارولد بوون المجتمع الإسلامى والغرب ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) القاهرة ١٩٧١ م .

ثانيـــاً : الموســـوعات :

١ - دائرة المعارف الإسلامية التركية (الترجمة التركية)

استانبول ١٩٦٧ م .

٢ - دائرة معارف التاريخ (بالتركية) دار باتش ، استانبول ١٩٦٩ م .

٣ - الموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غربال - دار إحياء التراث - بيروت - صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥ م .

ثالثـــاً : المعـــاجـم :

١ - بطرس حرفوش - المنجد فى الإعلام - طبعة (١٠) دار المشرق - بيروت ١٩٨٠ م .

٢ - حسن عميد - فرهنك فارسى عميد - (فارسى) طهران ١٣٤٢.

٣ - دار بيلمن - قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات الفقهيه - استانبول - بدون تاريخ .

٤ - الفيروز ابادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) القاموس المحيط - مؤسسة الرسالة - بيروت طبعة (٢) ١٩٨٧ م .

٥ - عبد النعيم حسنين (دكتور) قاموس الفارسية - دار الكتاب اللبنانى - القاهرة - ١٩٨٢ م .

٦ – علي سيدى – رسملى قاموس عثمانى – استانبول – ١٣٣٠.

٧ – محمد على الأنسي – الدرادى اللامعات – بيروت – ١٣١٨.

رقم الإيداع : ١١٣٣٦ / ١٩٩٢
I . S . B . N
977 - 07 - 0306 - 0


عرب وأكراد
حلايب
من
اعجاز
القران

روايات الهلال تقدم

خافية قمر

بقلم

محمد ناجى

تصدر: ١٥ يناير سنة ١٩٩٤

الاشتراكات

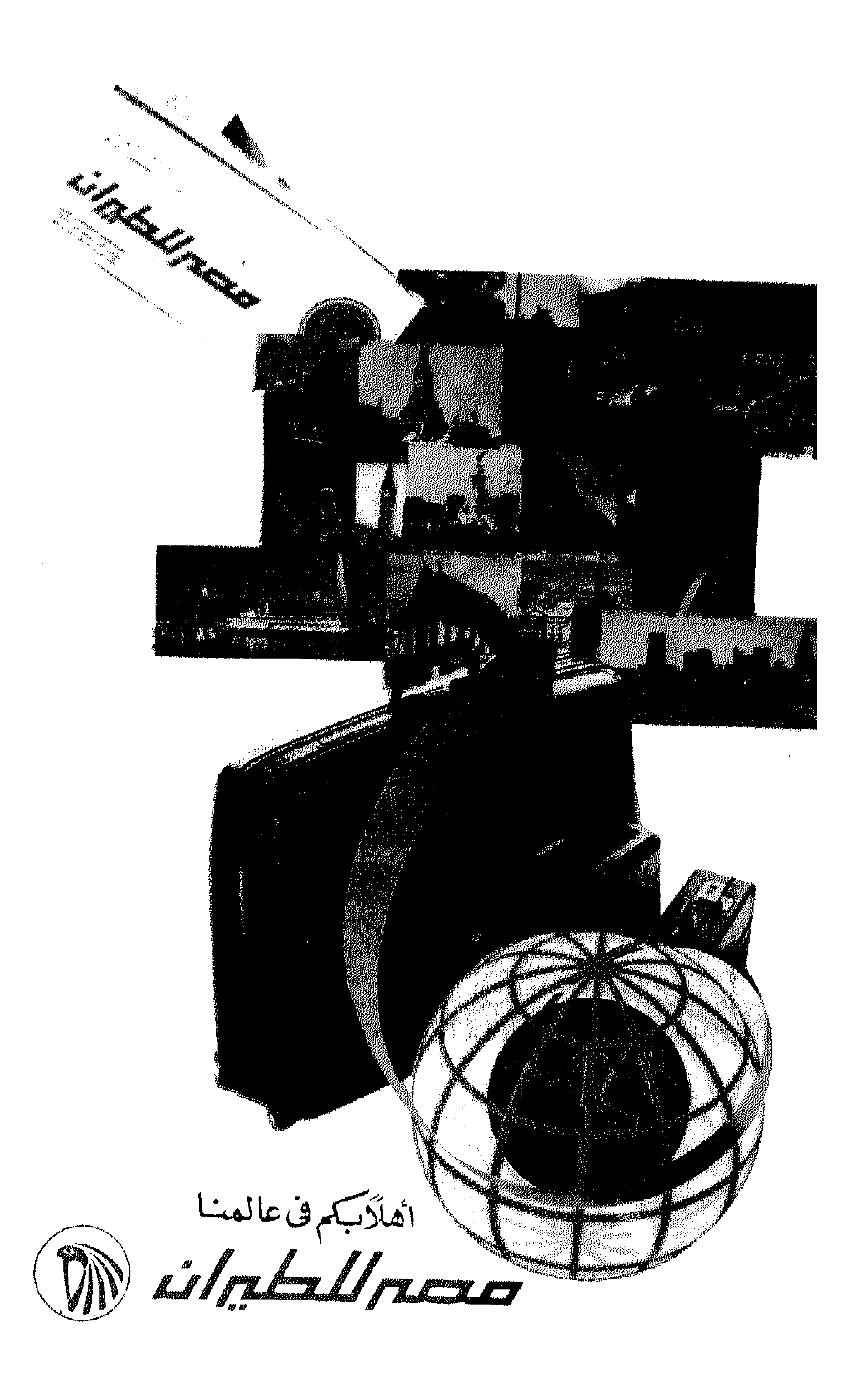
قيمة الاشتراك السنوى ۳۰ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ۲٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ۳۰ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ۲۱۸۳۳

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N



مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

